هِنري ميلر



الصلب الوردي «2»



ترجمة: خالد الجبيلي

* هنري ميلر
* الضفيرة
* ترجمة: خالد الجبيلي
* جميع الحقوق محفوظة ©Copyright
* الطبعة الأولى 2009
* الناشــــــــر: ورد للطباعــة والنشــر والتوزيــع
سوريــة ـ دمشق، ص.ب: 30249، ☎ 5141441
الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان، ص. ب: 6435 ـ 113
☎00961 1 750054 ، فاكس:00961 1 750053
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشــراف الفني: د. مجد حيدر
* التوزيــــــع: دار ورد☎ 5141441 ص. ب 30249

هنري ميلر

الضفيرة

«الصلب الوردي - الجزء الثاني»

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

العنوان الأصلي للكتاب:

The Rosy Crucifixion

II. Plexus

1

كان الربيع قد حلّ، وقد بدت مونا في حلة تسحر الألباب وهي ترتدي ثوبها الفارسي الضيق، وتضع على رأسها قبعة رائعة تتماشى مع الثوب. وكانت ترتدي قفازين طويلين، وقد رمت بإهمال حول عنقها الطويل المرمري فراءً رمادياً داكناً جميلاً. وكنا قد اخترنا منطقة بروكلن هايتس لنبحث فيها عن شقة لنا، وعزمنا على أن نبتعد أكثر ما يمكننا عن جميع من نعرفهم، وخاصة كرونسكي وآرثر رايموند. وكان أولريك الشخص الوحيد الذي كان في نيتنا أن نعلمه بعنواننا الجديد. كنا نريد أن يكون مكاناً نبدأ فيه حياتنا من جديد، بعيداً عن العالم الخارجي والمتطفلين فيه.

كانت السعادة تغمرنا في ذلك اليوم الذي انطلقنا فيه لنبحث عن عش حبنا الصغير. وكنت في كل مرة نتوقف فيها عند مدخل أحد البيوت ونضغط جرس الباب، أطوقها بذراعي وأمطرها بالقبلات. كان ثوبها ضيقاً محبوكاً على جسدها ويلبسها كما ينسل النصل في الغمد. ولم تبد لي أنها كانت أكثر إغراء وروعة مما هي الآن. وكان الباب يُفتح أحياناً قبل أن تتاح لنا فرصة الانفكاك عن بعضنا. وفي بعض الأحيان، كان يُطلب إلينا أن نبرز خاتمي زواجنا أو عقد الزواج.

قبيل حلول المساء، صادفنا امرأة جنوبية بشوشة، طيبة القلب، وبدا لنا أننا رقنا لها على الفور. كان المكان الذي سنستأجره

بديعاً، لكنه فوق طاقتنا. وبطبيعة الحال، صممت مونا على استئجاره، إذ طالما حلمت بالعيش في بيت كهذا. ولم تبد أي امتعاض لدفع الإيجار الذي كان ضعف المبلغ الذي كنا ننوي دفعه. وكان عليّ أن أترك كل شيء لها ـ فهي ستتدبر الأمر. والحق أقول إنني كنت أرغب في استئجار هذا البيت بالقدر نفسه الذي كانت تريده هي، لكن لا يوجد لديّ أوهام حول «توفير» مبلغ الإيجار. فقد كنت على قناعة تامة بأننا إذا استأجرناه فإننا سنغرق ونغوص إلى الأعماق.

وبالطبع لم يكن لدى المرأة التي كنا نحدثها أدنى شك بأننا مجرد شخصين فقيرين. إذ كنا نجلس باسترخاء وارتياح في الطابق العلوي، نحتسي (شراب) الشيري. وسرعان ما وصل زوجها الذي بدا أنه أيضاً وجد أننا زوجان اجتماعيان ومتجانسان. كان رجلاً مهذباً من فرجينيا. وبدا واضحاً أن منصبي في شركة كوسموديمونيك قد أثار إعجابهما، إذ أبديا دهشة وإعجاباً بأن شاباً صغيراً في مثل سني يشغل منصباً بهذه المسؤولية. وبالتأكيد فقد لعبت مونا دوراً كبيراً في غرس هذا الانطباع لديهما. وكنت وأنا أستمع إليها، على وشك أن أصبح مدير الشركة، بل سأكون مرشحاً لمنصب نائب الرئيس بعد بضع سنوات. وكانت تنظر إليّ بين الحين والآخر وتقول، «ألم يقل لك ذلك السيد توبليجير؟» فأضطر لهزّ رأسي موافقاً.

في النهاية، تركنا لديهما عربوناً، عشرة دولارات فقط، وهو مبلغ ضئيل مقارنة بمبلغ الإيجار البالغ تسعين دولاراً في الشهر. ولم يكن لديّ أدنى فكرة كيف سنتمكن من تحصيل قسط الشهر الأول، هذا عدا الأثاث والأشياء الأخرى العديدة التي كنا بحاجة إليها. واعتبرت أن الدولارات العشرة التي دفعناها عربوناً مبلغ ضائع، مجرد بادرة لحفظ ماء الوجه، لا أكثر ولا أقل. وكنت واثقاً من أن مونا ستغير رأيها، ما أن تطأ أقدامنا خارج بيتهما ونتملص من قبضتيهما اللزجتين.

لكني كالعادة كنت مخطئاً. فقد أصرت مونا على الانتقال إلى هذا البيت. وماذا عن الدولارات الثمانين الأخرى؟ قالت إنها ستأخذها من أحد المعجبين المخلصين، وهو كاتب في فندق بروزتيل. «ومن هو؟» تجرأت وسألتها، إذ لم أكن قد سمعت باسمه من قبل. «ألا تذكر؟ فقد عرّفتك إليه منذ بضعة أسابيع ـ عندما التقينا بك أنت وأولريك في الجادة الخامسة. إنه شاب وديع وغير مؤذ».

يبدو أنهم جميعا «وديعون جدا». كانت هذه هي طريقتها في إقناعي أنه لن يخطر ببالهم أبداً أن يحرجوها ويراودوها عن نفسها. فهم جميعهم «رجال محترمون»، وكانوا عادة حمقى وبلهاء. وكان عليّ أن أتذكر كيف يبدو هذا الغبي. كلّ ما أذكره هو أنه كان صغيراً نسبياً، ذا وجه شاحب قليلاً. باختصار، كان شخصاً عادياً. كيف كانت لا تمكنّ هؤلاء العاشقين الأنيقين، الذين كان بعضهم متوقداً ومتهوراً، من نفسها ظل لغزاً بالنسبة لي. ولا شك أنها كانت، كما فعلت بي، تعطيهم الانطباع بأنها تعيش مع أبويها، وبأن أمها ساحرة، وأن أباها طريح الفراش، وسيقضي عليه السرطان. ولكني ولحسن الحظ، قلما كنت أبدي اهتماماً كبيراً بهؤلاء العاشقين الأنيقين. (كنت أقول لنفسي دائماً من الأفضل ألا أسبر الأغوار كثيراً). والشيء المهم الذي يجب عليّ أن أضعه نصب عينيّ هو أنهم كانوا جميعهم «وديعين وغير مؤذين».

لكي تنشئ بيتاً، يتعين أن يكون لديك شيء أكثر من مبلغ الإيجار. وتبين لي بالطبع، أن مونا فكرت بكل شيء. فقد انتزعت من ذلك الشاب المسكين ثلاثمائة دولار. وكانت قد طلبت منه خمسمائة دولار لكنه احتج قائلاً إن حسابه المصرفي على وشك أن ينفد. ولأنه كان مبذّراً للغاية فقد جعلته يشتري لها ثوباً ريفياً غريباً وزوجاً من الأحذية الغالية الثمن. فذلك سيلقنه درساً!

وبما أنه كان يتعين عليها الذهاب إلى المسرح للتدرب في عصر ذلك اليوم، فقد قررت أن أقوم أنا باختيار الأثاث والأشياء

الأخرى بنفسي. وبدا لي أنه من الحمق تسديد ثمن هذه المواد نقداً، في حين أن المبدأ السائد في بلدنا يقوم على أساس الدفع بالتقسيط. وفكرت على الفور بدولوريس، التي تعمل في أحد المخازن الكبرى في شارع فولتن. وكنت واثقاً بأنها ستهتم بي.

استغرق اختياري لجميع قطع الأثاث اللازمة أقل من ساعة لتأثيث برج حمامنا الفاخر. اخترت بذوق وحذر، ولم أنس أن أشتري طاولة مكتب ممتازة للكتابة، ذات أدراج كثيرة. ولم تتمكن دولوريس من إخفاء قلقها حول قدرتنا على تسديد الأقساط الشهرية، لكني أكدت لها بأن مونا تكسب الكثير من عملها في المسرح. بالإضافة إلى ذلك، ألم أكن ما أزال أعمل في ماخور كوسموديمونيك؟

دمدمت قائلة: «نعم، ولكن ماذا عن النفقة».

فأجبتها باسماً: «أوه! لم أعد أدفع مبلغاً كبيراً من المال».

«تعني أنك ستتوقف عن ذلك؟».

وافقت قائلاً: «شيء من هذا القبيل. فلا يمكننا أن نبقي حجر الرحى حول أعناقنا إلى الأبد، أليس كذلك؟».

ظنت أن هذا ديدني، وأني ابن حرام حقيقي. لكنها قالتها وكأنها تعتقد أن أولاد الحرام أناس محبوبون. وفيما كنت أودعها، قالت «أظن أنه يجب عليّ ألا أثق بك».

قلت: «تت تت! إذا لم نسدد المبلغ فسيستعيدون الأثاث. لماذا كل هذا القلق؟».

قالت: «إني لا أفكر بالمخزن، بل أفكر بنفسي».

«هيا، هيا! لن أخذلك، أنت تعرفين ذلك».

وبالطبع فقد خذلتها، لكن دون قصد مني. في ذلك الوقت، ورغم مخاوفي الأولى، ظننت حقاً وبصدق أن كلّ شيء يبدو جميلاً. عندما

أقع فريسة للشك أو اليأس، يمكنني دائماً أن أعتمد على مونا لتزرقني حقنة تحت الجلد. إذ إن مونا تعيش على المستقبل تماماً. أما الماضي فهو حلم رائع تحرّفه وتحوّره بإرادتها. فليس بوسع المرء أن يستخلص من الماضي، لأنه بقدر ما يشي بالفشل والإحباط، فهو ببساطة غير موجود.

سرعان ما بدأنا نشعر بالراحة في بيتنا الجديد اللذيذ. وعلمنا أن المنزل كان يملكه قاض ثري وقد غيّر طرازه على مزاجه وذوقه. لا بد أنه كان رجلاً ذا ذائقة رفيعة ومترفة. فقد كانت الأرضية من الخشب المطعّم، وألواح الجدار من خشب الجوز الممتاز، والمقاعد منجدة بالحرير الوردي، وكانت هناك رفوف كتب واسعة يمكنك أن تجعل منها أسرّة للنوم. وشغلنا أنا ومارا القسم الأمامي من الطابق الأول، الذي يطل على القسم الأكثر رزانة وأرستقراطية في بروكلن كلها. وكان لدى جيراننا جميعهم سيارات ليموزين، وخدم، وكلاب وقطط غالية الثمن، كان لعابنا يسيل لوجبات طعامها. وكان المنزل الذي نقطنه هو المنزل الوحيد في الحارة المقسم إلى شقق.

كانت توجد خلف غرفتنا، غرفة ضخمة يفصلها عنا باب دوار وقد أضيف إليها مطبخ صغير وحمام. ولسبب ما بقي هذا الجزء من البيت دون إيجار. ربما أبقي للتنسك. وبسبب النوافذ الزجاجية الملونة كان هذا الجزء يبقى معتماً قليلاً معظم النهار. لكن عندما كانت تنعكس شمس العصر المتأخرة على النوافذ، كانت ترتسم على الأرضية المصقولة أشكال نارية. وكنت أجد متعة في الدخول إلى ذلك الجزء، وأذرع الغرفة جيئة وذهاباً وأنا غارق في حالة من التأمل. وكنا في بعض الأحيان، نتعرى ونرقص هناك، وندهش للأشكال المضحكة التي كان يرسمها الزجاج الملون على جسدينا العاريين. وعندما يكون مزاجي رائقاً، كنت أضع في قدميّ نعلين زلقين وأقوم بتقليد أحد نجوم التزحلق على الجليد، أو أمشي على يديّ وأنا أغني بصوت عال. وكنت في بعض الأحيان، بعد أن أكون

قد رشفت عدة كؤوس، أحاول تقليد حركات مهرجيّ المفضلين في المسرح الهزلي.

كانت الأمور في الشهور القليلة الأولى، حيث كنا نتدبر جميع حاجياتنا، رائعة حقاً. ولا توجد كلمة أخرى لوصف ذلك. إذ لم يقم بزيارتنا أي إنسان يذكر بدون إعلام مسبق. لقد عاش الواحد منا للآخر تماماً في عشنا المريح الدافئ. لم نكن بحاجة لأحد، حتى لله. أو هكذا خيل إلينا. وكانت مكتبة شارع مونتيجو الرائعة القريبة منا أشبه بمشرحة مليئة بالكنوز. وفي الوقت الذي كانت تذهب فيه مونا إلى المسرح كنت أقرأ. كنت أقرأ كل ما يستهويني، وبوعي مضاعف. وفي كثير من الأحيان، كان يتعذر عليّ القراءة ـ إذ كان المكان أكثر من رائع. وكنت أستطيع أن أرى نفسي ثانية وأنا أغلق الكتاب، وأنهض بتمهل عن الكرسي، وأجول بسكينة وبال رائق، في حالة تأمل من غرفة إلى أخرى، تغمرني القناعة التامة. حقاً، لم أعد أريد شيئاً. فقد كنت أملك كل شيء، أستعمل كل شيء، أرتدي كل شيء كانت تقدمه لي مونا هدية: رداء حمام حريري يلائم معبوداً صباحياً، خفان مغربيان جميلان، حامل سيجارة لم أكن أستخدمه إلا في وجودها. وعندما كنت أحرك الرماد في المنفضة، كنت أنحني إعجاباً بها. فقد اشترت ثلاثة منها، كلها بديعة، غريبة، وفاخرة. لقد كانت في غاية الجمال، ثمينة، وكدنا نعبدها.

وكان الحي بحد ذاته رائعاً. فبرحلة قصيرة على القدمين في أي اتجاه، كنت تصل إلى أكثر المناطق تنوعاً: إلى المنطقة الرائعة تحت جسر بروكلن، إلى مواقع العبّارات القديمة حيث يقطن العرب، والأتراك، والسوريون، واليونانيون وأناس آخرون من المشرق، إلى أحواض السفن، وأرصفة الميناء حيث ترسو البواخر القادمة من جميع أنحاء العالم، إلى مركز التسوق الواقع قرب بورو هول، المنطقة التي كانت تبدو لي في الليل منطقة من الأوهام. وفي وسط كولومبيا هايتس هذه كانت توجد كنائس قديمة مهيبة، ونوادي،

وقصور للأغنياء. كانت جزءاً من منطقة قديمة متماسكة أخذت تتآكل شيئاً فشيئاً بسبب أسراب الأجانب، مناطق مهجورة ومتسكعون يأتون إليها من الأطراف الخارجية.

حين كنت صبياً صغيراً كنت آتي في أحيان كثيرة إلى هذا المكان لزيارة عمتي التي كانت تعيش فوق إسطبل متصل بأحد القصور القديمة الأكثر قبحاً. وعلى مسافة قصيرة، في شارع ساكيت، كان يعيش صديق قديم لي يدعى أل بيرغر، كان أبوه قبطان قارب سحب. كنت في حوالى الخامسة عشرة من عمري عندما التقيت ببيرغر ـ على ضفاف نهر نيفيرسينك. وكان هو الذي علمني كيف أسبح كسمكة، وكيف أغطس في الماء الضحل، وكيف أصارع على الطريقة الهندية، وأرمي بالقوس والسهم، وكيف استخدم يدي، وكيف أركض دون أن أتعب، وهكذا. وكان أهل آل هولنديين، ومن الغريب أنهم كانوا جميعاً يتمتعون بطبع لطيف رائع، جميعهم ما عدا أخاه جيم، الذي كان رياضياً، أنيقاً، وغبياً أحمق مغروراً. وبخلاف أسلافهم كان منزلهم قذراً على نحو مخز. وكان يبدو أن كلاً منهم يحيا على طريقته. وكان لديهم أيضاً أختان، كلتاهما في غاية الجمال، وأم داعرة بأساليبها ولكنها جميلة أيضاً، والأكثر من ذلك، كانت مرحة جداً، كسولة جداً، وكريمة جداً. وكانت في أيام عزها مغنية أوبرا. أما بالنسبة للرجل العجوز، «القبطان»، فكنا نادراً مانشاهده. ولا أذكر أبداً أنها طهت لنا وجبة طعام محترمة. فعندما كنا نشعر بالجوع كانت ترمي لنا بضع قطع نقدية صغيرة، وتطلب منا أن نذهب ونشتري لأنفسنا شيئاً. وكنا نشتري دائماً ذات الطعام ـ سجق، سلطة البطاطا، مخللات، فطيرة. وكنا نستخدم الصلصة والخردل بسخاء. وكانت القهوة دائماً خفيفة كالماء، والحليب غير طازج، ولم يكن هناك صحن، أو كأس، أو سكين أو شوكة نظيفة في المنزل. لكن جميع الوجبات كان يسودها المرح، وكنا نلتهم طعامنا كالذئاب الجائعة.

أتذكر جيداً الحياة في الشوارع والتي وجدت فيها متعة كبيرة. فقد بدا أن أصدقاء آل ينتمون إلى نوع آخر من الأولاد الذين كنت أعرفهم. إذ كان يسود شارع ساكيت دفء وحرية أكبر، وكرم أعظم. ورغم أنهم كانوا في سني تقريباً، فقد منحني أصدقاؤه انطباعاً بأنهم أكثر نضجاً، وأكثر استقلالية. وعندما كنت أفترق عنهم، كان ينتابني شعور بأني ازددت خبرة.

عندما كان أولريك يأتي لزيارتنا، عادة ما يكون يوم سبت أو أحد، كنت أرافقه في نزهة طويلة على القدمين عبر هذه الأحياء القديمة. وكان يعرفها أيضاً منذ طفولته. وكان يجلب معه عادة دفتر رسم، «لتسجيل بضع ملاحظات»، كما كان يقول. وكنت أعجب كثيراً للسهولة التي يستخدم فيها قلم الرصاص والفرشاة. ولم يخطر ببالي قط أني قد أفعل الشيء نفسه ذات يوم. فقد كان رساماً وكنت أنا كاتباً ـ أو على الأقل كنت أتمنى أن أكون كاتباً ذات يوم. لقد بدا لي عالم الرسم مملكة من السحر الصافي، شيئاً لا يمكنني أن أفعله أبداً.

ورغم أن أولريك لم يصبح أبداً بعد ذلك رساماً مشهوراً، إلا أنه كان واسع الاطلاع على عالم الفن. وعن الرسامين الذين كان شغوفاً بهم، لم يكن هناك أحد يمكن أن يتحدث عنهم بمثل هذا الإحساس والحماس سوى أولريك. وحتى يومنا هذا ما أزال أسمع صدى عباراته الطويلة السعيدة عن فنانين من أمثال سيمابو، وأوتشيلو، وبيرو ديلا فرانسيسكا، بوتيشلي، وفيرمير وآخرين. وفي بعض الأحيان كنا نجلس ونقلّب كتاباً من الرسوم المقلدة ـ دائماً للسادة العظماء. وكان بوسعنا أن نجلس ونتكلم لساعات طويلة ـ يمكنه هو على الأقل ـ حول لوحة واحدة. ومما لا شك فيه، فقد كان ذلك بسبب شدة تواضعه وتبجيله، بحيث كان بوسع أولريك أن يتحدث بصبر وأناة وعمق عن «السيد». لقد كان من الداخل معلماً. وأحمد الله أنه لم يفقد هذه القدرة على التبجيل والهيام.

خلال تلك الفترة كانت الأمور تسير على ما يرام، حيث تعرفت إلى شخص غريب الأطوار في مكتبة شارع مونتيجو. وكان الموظفون في المكتبة يعرفونني جيداً لأني كنت أسبّب لهم كل أنواع المشاكل بطلبي كتباً لم تكن بحوزتهم، وكنت أحثهم على استعارة الكتب النادرة أو الغالية الثمن من مكتبات أخرى، وأتذمر من قلة مخزونهم من الكتب، وخدمتهم غير الجيدة. بشكل عام أصبحت مصدر إزعاج لنفسي. ولزيادة الطين بلة، كنت أدفع غرامات كبيرة دائماً لتأخري في إعادة الكتب، أو من أجل الكتب التي كنت أفقدها (في الحقيقة كنت أضعها على رفوف مكتبتي)، أو من أجل الصفحات المقتلعة. وبين الحين والآخر، كان يوجه إليّ توبيخ، كما لو كنت ما أزال تلميذاً في المدرسة، لأني وضعت خطوطاً بالحبر الأحمر تحت فقرات معينة، أو لأني دونت تعليقات على الهوامش. وذات يوم، وفيما كنت أبحث عن بعض الكتب النادرة عن السيرك ـ لماذا، اللّه أعلم ـ دخلت في حديث مع شخص بدا أنه واسع الإطلاع، والذي تبين لي فيما بعد أنه أحد الموظفين في المكتبة. وخلال الحديث، علمت أنه زار عدداً من السيركات الشهيرة في أوروبا، وانفلتت من بين شفتيه كلمة ميدرانو، التي بدا لي أنها كلمة يونانية، لكني أتذكرها جيداً. على كل حال، دعوت الرجل لزيارتنا في مساء اليوم التالي. وحالما خرجت من المكتبة، اتصلت بأولريك وطلبت منه أن ينضم إلينا، وسألته: «هل سمعت في حياتك عن سيرك ميدرانو؟».

باختصار، كاد الحديث كله في مساء اليوم التالي يدور عن سيرك ميدرانو. وعندما غادر أمين المكتبة ذاك، كنت في حالة من الذهول. «إذن هذه هي أوروبا!» رحت أتمتم بصوت عال. لم أتمكن من السيطرة على نفسي. «لقد كان ذلك الرجل هناك... لقد رأى كل شيء. يا إلهي!».

وبدأ أمين المكتبة يكرر زياراته لي، وكان دائماً يتأبط بعض الكتب النادرة التي يظن أني أودّ أن أطلّع عليها. وكان يجلب معه أيضاً في العادة زجاجة من النبيذ. وفي بعض الأحيان كان يلعب

معنا بالشطرنج، وقلما يغادر قبل الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً. وكان كلما أتى، كنت أجعله يتحدث عن أوروبا: كان ذلك «رسم دخوله». وفي واقع الأمر، بدأ الموضوع يجعلني ثملاً، وأصبح بوسعي أن أتحدث عن أوروبا كما لو كنت قد زرتها بنفسي. (كان أبي كذلك. فرغم أن قدمه لم تطأ خارج نيويورك، فقد كان بوسعه أن يتحدث عن لندن، وبرلين، وهامبورغ، وبريمين، وروما كما لو أنه عاش خارج أمريكا طوال حياته).

وذات ليلة أحضر أولريك خريطة كبيرة عن باريس (خريطة قطار الأنفاق) وجثونا جميعنا على أيدينا وركبنا ورحنا نتجول في شوارع باريس، نزور مكتباتها، متاحفها، كاتدرائياتها، أكشاك بيع الزهور فيها، مسالخها، مقابرها، مواخيرها، محطات السكك الحديدية فيها. وفي اليوم التالي كنت مفعماً بها، أعني أوروبا، إلى درجة أني لم أستطع أن أذهب إلى العمل. وقد دأبت منذ فترة بعيدة على أن أحصل على يوم عطلة عندما تنتابني الرغبة في ذلك. وكانت العطل المسروقة أكثر متعة بكثير من العطل العادية. أعني أن أنهض في الساعة التي أشاء، أتسكع وأنا في البيجاما، أستمع إلى الفونوغراف، أنغمس في الكتب، أتمشى حتى رصيف المرفأ. وكنت بعد أن أتناول وجبة غداء دسمة، أذهب لحضور حفلة نهارية. وكنت أحب الذهاب لمشاهدة عرض مسرحي جيد. وفي عصر ذات يوم، كادت خاصرتاي تنفجران من الضحك. وفي بعض الأحيان، وبعد انقضاء تلك العطل، كان يصعب عليّ أن أعود إلى العمل، بل في الواقع، كان يستحيل عليّ ذلك. وكانت مونا تتصل برئيسي في العمل وتبلغه أني أصبحت في حالة يرثى لها بسبب الزكام الذي أصابني. وكان يقول لها دائماً: «قولي له أن يبقى في السرير بضعة أيام أخرى. اعتني به كثيراً!».

وكانت مونا تقول «أظن أنهم سيأتون لمباغتتك هذه المرة».

«أنا بخير يا حبيبتي. فهم لا يستطيعون الاستغناء عني».

«ذات يوم سيرسلون شخصاً إلى هنا ليتأكدوا إن كنت مريضاً حقاً أم لا».

«لا تجيبي على جرس الباب، هذا كل ما في الأمر. أو قولي لهم إني ذهبت لرؤية الطبيب».

إذا استمر الوضع على هذا المنوال فستغدو الحياة رائعة. فقد فقدت كل اهتمام بعملي. وكل ما أصبحت أفكر فيه هو أن أبدأ بالكتابة. ورويداً رويداً أخذ نشاطي في المكتب يفتر وبدأ حماسي يهمد. ولم أكن أبدي اهتماماً إلا بمقدمي الطلبات المشتبه فيهم، في حين كان مساعدي يقوم بما تبقى من العمل. وفي أحيان كثيرة، وكلما أمكنني ذلك، كنت أخرج من المكتب بحجة زيارة مكاتب الفروع الأخرى لتفتيشها. ولم أكن أقوم بزيارة سوى مكتب أو مكتبين في وسط البلدة، لأثبت أني كنت موجوداً هناك، ثم أنسل إلى السينما. وبعد انتهاء الفيلم كنت أقوم بزيارة مدير فرع آخر، ثم أتوجه إلى مقر الشركة، ومنه إلى البيت. وفي بعض الأحيان كنت أمضي فترة بعد الظهر في زيارة معرض فني أو في المكتبة في الشارع اثنين وأربعين. وفي بعض الأحيان كنت أقوم بزيارة أولريك أو بزيارة المرقص. وبدأت أتمارض على نحو متزايد، وكانت فترة تمارضي تطول لفترة طويلة في كل مرة. كان في حكم المؤكد أن الأمور آيلة إلى السقوط.

ولم تفتأ مونا تشجعني على ذلك. إذ لم تكن تريدني أن أشغل منصب مدير التوظيف، وكانت تقول: «يجب عليك أن تكتب» وكنت أردّ عليها، رغم أن سعادة كبيرة كانت تغمرني وأنا أستثيرها للدخول في مشاجرة لأريح ضميري، «حسناً! ولكن كيف سنعيش؟».

«أترك لي هذا الأمر!».

«لكننا لا نستطيع أن نواصل خداع الناس وابتزازهم إلى الأبد».

«خداع؟ إن جميع الرجال الذين يقرضونني مالاً، بقدرتهم أن يفعلوا ذلك. أنا أسدي لهم معروفاً».

لم أتمكن من فهم الأمر على طريقتها، لكني كنت أستسلم لها لأنه لم يكن لديّ حل أفضل. ولإنهاء الجدال كنت أقول لها دائماً «حسناً، لم يحن الوقت لأترك عملي بعد».

وفي بعض الأحيان، كان الأمر ينتهي بنا في الجادة الثانية «نيويورك» في إحدى هذه العطل المسروقة. وكنتَ تَدْهَشَ لعدد أصدقائي في هذا الحي، والذين جلهم بالطبع من اليهود، الذين كان معظمهم غريبي الأطوار. إلا أن صحبتهم كانت مفعمة بالحياة. فبعد تناول وجبة في مطعم بابا موسكوفتز، كنا نتوجه إلى مقهى رويال، حيث من المؤكد أني سأجد الشخص الذي أسعى لرؤيته.

ذات مساء، وبينما كنا نتمشى في الجادة، وفيما كنت على وشك أن أتطلع من خلال واجهة إحدى المكتبات لألقي نظرة أخرى على صورة دوستويفسكي ـ المعلقة عليها منذ سنوات ـ لم أشاهد من يلقي عليّ السلام سوى صديق آرثر رايموند القديم ناحوم يود. الذي كان وجهه يشبه مطرقة ثقيلة.

فما أن تراه مرة فلن تنساه ما حييت. فعندما يتكلم، كان دائماً يهذي بكلام سريع وغير مفهوم، وكانت الكلمات تتساقط من فمه الواحدة تلو الأخرى. ولم يكن ينفث اللعاب عندما يتكلم مثل مطرقة فقط، بل كان لعابه يسيل أيضاً. وكانت لهجته، لهجة سكان «ليتفاك»، شنيعة. لكن ابتسامته كانت ذهبية ـ تشبه ابتسامة جاك جونسون.

لم أره قط إلا وهو في حالة انفعال، وكان دائماً يتصرف وكأنه قد اكتشف شيئاً رائعاً، شيئاً مدهشاً، شيئاً لم يسمع عنه أحد من قبل. وعندما يتحدث، كان يجعلك تغتسل بالرذاذ الذي ينفثه، مجاناً. لكن الأمر كان يستحق ذلك وخاصة إذ كان لهذا الرذاذ الناعم المنبعث من بين أسنانه الأمامية تأثير دوش حمّام. وفي بعض الأحيان، كانت تنطلق مع حمّام الرذاذ هذا بضع بذور من الكراويا.

اختطف الكتاب الذي كنت أتأبطه وصاح: «ماذا تقرأ؟ آه، *هامسن*، جيد! إنه كاتب جميل». حتى قبل أن يسألني «كيف حالك». «يجب أن نجلس في مكان ما ونتحدث. أين أنت ذاهب؟ هل تناولت طعام العشاء؟ إني أكاد أموت جوعاً».

قلت له: «أعذرني لكني أريد أن أتطلع إلى صورة دوستويفسكي».

تركته يقف هناك يتحدث بحماس إلى مونا بكلتي يديه (وقدميه). وعدت للاستغراق أمام صورة دوستويفسكي، كنت أفعل ذلك كثيراً، لأدرس معالم وجهه المألوف لديّ مرة أخرى. وتذكرت صديقي لو جاكوبس الذي كان يرفع قبعته في كل مرّة يمر فيها من أمام تمثال شكسبير. ولكن ما كنت أفعله، كان يزيد على انحناءة أو تحية لدوستويفسكي. لقد كانت أشبه بالصلاة، صلاة من شأنها أن تكشف لي سر الوحي. يا لهذا الوجه العطوف، الوجه السلافي، وجه رجل قد يمرّ دون أن يلحظه أحد بين جمهرة من الناس. (وكان ناحوم يبدو من شكله أنه كاتب أكثر مما يبدو دوستويفسكي العظيم بكثير). وقفت هناك، كالعادة، أحاول سبر أغوار لغز الوجود الكامن خلف تلك الكتلة الطرية من الملامح. وكلّ ما استطعت أن أقرأه بوضوح هو الحزن والعناد. رجل من الواضح أنه كان يفضل الحياة المتواضعة، رجل خرج حديثاً من السجن. استغرقت في التأمل والتفكير. وأخيراً لم أر سوى الفنان، الفنان المأساوي الذي لم يسبق له مثيل، الذي استحدث مجموعة من الشخصيات الحقيقية، شخصيات لم يسمع عنها أحد من قبل ولن يسمع عنها أحد في المستقبل. وكل شخصية حقيقية أكثر من الأخرى، أكثر إفحاماً وقدرة، أكثر غموضاً، أكثر غموضاً من جميع القياصرة المجانين وكل الباباوات القساة القلوب، وجميع الأشرار إذا وضعوا معاً.

ذات يوم، شعرت برغبة في قراءة الكتاب المقدس، فأرسلت مونا لتبحث لي عن نسخة منه. ونبهتها ألا تشتري نسخة منه، وقلت

لها «اطلبي من أحدهم أن يهديك نسخته. حاولي مع جيش الخلاص أو اذهبي إلى إحدى البعثات التبشيرية». وفعلت كما طلبت منها، لكن أحداً لم يقدم لها أي نسخة. (ياله من أمر غريب! قلت لنفسي). ثم، وكما لو أن الله استجاب لدعواتي، من يهبط من السماء الصافية غير جورج المجنون! فها هو جالس هنا، ينتظرني، عندما وصلت إلى البيت عصر أحد أيام السبت. وكانت مونا قد قدمت له كوباً من الشاي وقطعة من الكاتو. لقد خيّل إليّ أني أنظر إلى خيال أو شبح.

وبالطبع لم تكن مونا تعرف أن هذا الشخص هو جورج المجنون، الشخص الذي أعرفه من أيام طفولتي. فقد رأت رجلاً يجر عربة لبيع الخضار، وكان يقف على طرف العربة يبشر بكلمة الله. وكان الأطفال يسخرون منه، ويقذفونه بأشياء في وجهه، وكان هو يباركهم (والسوط في يده)، ويقول «دعوا الأطفال، لا تمنعوهم من أن يأتوا إليّ فإن لأمثال هؤلاء ملكوت السماوات»، قلت، «جورج، ألا تتذكرني؟ لقد كنت تجلب لنا الفحم والخشب. أنا من دريجز أفنيو، الشارع 14». قال جورج: «أذكر جميع أطفال الله، حتى الجيل الثالث والرابع. فليباركك الرب يا بني، ولتسكنك روح القدس إلى الأبد».

وقبل أن أنبس بكلمة أخرى، بدأ جورج يتكلم بأسلوب القساوسة. «أنا أشهد لنفسي، والأب الذي أرسلني يشهد لي أيضاً... آمين! سبحان الله! الحمد لله!».

استويت واقفاً وطوقت جورج بذراعيّ. لقد أصبح رجلاً مسناً. كان رجلاً عجوزاً محبوباً هادئاً متصدّعاً، آخر رجل في العالم كنت أتوقع أن أراه جالساً في بيتي. فقد كان شخصاً يثير الفزع والهلع فينا عندما كنا أولاداً صغاراً، وكان دائماً يلوح بذلك السوط الطويل في وجوهنا، ويهددنا باللعنة الأبدية وبنار جهنم. وكان يضرب حصانه بالسوط بشراسة إذا انزلق على الرصيف المتجمد، ويرفع قبضته إلى السماء ويدعو الله أن ينزل بنا أشد العقاب لقاء أعمالنا الشريرة. يا للتعاسة التي كنا نسببها له في تلك الأيام! «جورج

المجنون، جورج المجنون!» كنا نصيح حتى تنتفخ أوداجنا وتزرق وجوهنا. ثم نرمي كرات الثلج عليه، كرات ثلج مرصوصة ومتجمدة، كان بعضها يصيبه بين عينيه فيستشيط غضباً. وبينما كان يطارد أحدنا كشيطان، كان صبي آخر يقوم بسرقة الخضار أو الفاكهة من العربة، أو يفرغ كيس البطاطا في فتحة المجاري. ولا أحد يعرف كيف أصبح هكذا، فكما يبدو لي أنه يبشر بكلمة الله من فوق عربته منذ أن ولد. لقد كان مثل نبيٍ من أنبياء العصور الغابرة، وقذراً مثل بعض الأنبياء التوراتيين العظماء.

لم أر جورج دينتون منذ عشرين سنة. وها هو هنا ثانية، يحدثني عن السيد المسيح، نور العالم. قال جورج «وإن الذي أرسلني هو معي، لم يتركني وحدي لأني أعمل دائماً ما يرضيه... ستعرفون الحقيقة، وستجعلكم الحقيقة أحراراً. آمين، يا أخي! ليحمك الرب!».

ولا يعقل أن أسأل شخصاً مثل جورج عمّا حدث له طوال هذه السنوات. فلعل أيامه مرت كحلم. ومن الواضح أنه لم يكن يفكر بالغد. فهو مايزال يطوف في أرجاء المدينة بحصانه وعربته، وكأن السيارة لم تخترع بعد. كان السوط ملقى إلى جانبه على الأرض ـ فقد كان شيئاً لا ينفصل عنه.

خطر لي أن أقدم له سيجارة. وكانت مونا تحمل بيدها زجاجة من نبيذ بورت.

قال جورج رافعاً يده محتجاً: «فليس ملكوت الله أكلاً وشرباً، بل بر وسلام وفرح في روح القدس... ومن الخير ألا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً ولا تتناول شيئاً يكون سبب عثرة أخيك».

يتوقف فيما نأخذ أنا ومونا رشفة من النبيذ.

ثم واصل كلامه وكأنه لم ير ولم يسمع: «أو ما تعلمون أن أجسادكم هيكل الروح القدس، وهو فيكم قد نلتموه من الله، وأنكم

لستم لأنفسكم فقد اشتريتم وأُديّ الثمن، فمجدوا الله إذاً بأجسادكم آمين! آمين!».

وبدأت أضحك بهدوء وصمت غير ساخر ـ ثملاً بالسفر المقدس. لكن جورج لم يلق بالاً لضحكتي. وتابع ثرثرته، كما كان يفعل منذ زمن. لم يكن يخاطبنا كأشخاص بل كأوعية يصب فيها حليب العذراء المبارك. ومن الأشياء المادية التي تحيط به لم تكن عيناه ترى شيئاً. فبالنسبة له كانت جميع الغرف متشابهة، ولا شيء أفضل له من الإسطبل الذي يقود إليه خيوله. (ولعله كان ينام معها). لا، كانت لديه مهمة يجب عليه إنجازها وكان ذلك يدخل إلى قلبه المسرة والبهجة والنسيان. فمن الصباح وحتى منتصف الليل كان مشغولاً بنشر كلمة الله. وحتى أثناء شراء حوائجه كان لا ينقطع عن نشر كلمة الله.

ياله من وجود جميل بدون قيود، قلت في نفسي. مجنون؟ من المؤكد أنه مجنون، مجنون كبقة فراش. ولكنه جنون طيب. ففي واقع الحال، لم يؤذ جورج أحداً بذلك السوط. فقد كان يحلو له أن يضرب بالسوط، لمجرد إقناع الأطفال الصغار المزعجين أنه ليس معتوهاً أو مسناً أو عاجزاً.

قال جورج: «فاخضعوا لله وقاوموا إبليس يوّل عنكم هارباً. اقتربوا من الله يقترب منكم. طهّروا أيديكم أيها الخاطئون ونقوّا قلوبكم يا ذوي النفسين تواضعوا بين يدي ربكم فيرفعكم».

قلت وأنا أكتم الضحكة التي انتابتني «جورج إنك تجعلني أشعر بالراحة. فمنذ زمن...».

«الخلاص لإلهنا الجالس على العرش، وللحمل... لا تنزلوا الضرر بالبر ولا بالبحر ولا بالشجر إلى أن نختم عبيد إلهنا على جباههم».

«حسناً، اسمع يا جورج، هل تتذكـ...».

«فلن يجوعوا ولن يعطشوا ولن تلفحهم الشمس ولا الحر. لأن الحمل الذي في وسط العرش سيرعاهم وسيهديهم إلى ينابيع ماء الحياة، وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم».

عند ذلك أخرج جورج منديلاً ضخماً قذراً من القماش الأحمر المنقط ومسح عينيه، ثم تمخّط بشدة، وقال: «آمين! أشكر الرب الذي أنقذك وجعلك قوياً».

هبّ واقفاً وتوجه صوب الموقد، الملقى على رفه مخطوطة غير منتهية وفوقها ثقالة على شكل تمثال يمثّل إلهة هندوسية راقصة. استدار جورج بسرعة وقال: «ولما تكلمت الرعود السبعة، هممتُ بأن أكتب فسمعت صوتاً من السماء يقول لي: أكتم ما تكلمتْ به الرعود السبعة فلا تكتبه... ولكن في الأيام التي سيسمع فيها صوت الملاك السابع، عندما ينفخ في البوق، يتم سر الله، كما بشر به عباده الأنبياء».

في تلك اللحظة بالذات، خيل إليّ أني سمعت الخيول تصهل مهتاجة. اتجهت صوب النافذة لرؤية ماذا في الأمر. رفع جورج صوته، وكاد الصوت الذي انطلق من حنجرته الآن يشبه صيحة، «من تراه لا يخاف اسمك ولا يمجده يا رب؟ فأنت وحدك القدوس».

كانت الخيول تجرّ العربة بعيداً، والأطفال الأشقياء يصرخون مبتهجين ويلتهمون الفواكه والخضار، أشرت إلى جورج أن يقترب من النافذة. لكنه ظل يصيح... «المياه التي رأيتها، حيث تقيم البغي، هي شعوب وجماعات وأمم وألسنة».

«من الأفضل لك أن تسرع يا جورج، وإلا فستبتعد الأحصنة!».

وبسرعة البرق التقط جورج سوطه وهرع خارجاً إلى الشارع. وسمعته يصيح «ووا هناك، جيزيبيل، ووا هناك!».

وبلمح البصر عاد ليعرض علينا سلة من التفاح وشيئاً من القرنبيط، وقال، «اشكر الله على نعمه، وعليك السلام! آمين، يا أخي!

المجد يا أختي! المجد للرب في السماوات!» ثم توجه إلى عربته، وضرب الخيول بسوطه الطويل، ولوّح يوزع البركات في كل اتجاه.

بعد فترة وجيزة من ذهابه اكتشفت أنه نسي نسخته المهترئة من الإنجيل. كانت تنتشر عليها بقع من الزيت والدهن، وملطخة ببصمات الأصابع. كانت متآكلة بسبب الذباب، منزوعة الغلاف، وصفحاتها ناقصة هنا وهناك. لقد طلبت الإنجيل وها هو يأتيني. «اطلبوا تجدوا، اسألوا تُعطوا، اقرعوا يُفتح لكم». ها قد بدأت أتحدث مثله. إن الكتاب المقدس أثقل من أقوى نبيذ. فتحت الكتاب لا على التعيين ووقعت عيناي على مقطعي المفضل:

«وعلى جبينها اسم مكتوب فيه سر، والاسم بابل العظيمة، أم بغايا الأرض وقبائحها».

«ورأيت المرأة سكرى من دم القديسين، ومن دم شهداء يسوع؛ فعجبت من رؤيتها أشد العجب».

«فقال لي الملاك: لم عجبت؟ إني سأقول لك سر المرأة والوحش الذي يحملها، صاحب الرؤوس السبعة والقرون العشرة».

«الوحش الذي رأيته كان ولكنه زال عن الوجود. سيخرج من الهاوية ويمضي إلى الهلاك: وأهل الأرض الذين لم يكتب اسمهم في سفر الحياة منذ إنشاء العالم، سيعجبون إذ يرون الوحش، لأنه كان وزال عن الوجود، ثم يعود».

كان الاستماع إلى المتدينين المتشددين يجعلني على الدوام أشعر بالجوع والعطش ـ أعني ما يدعى الأشياء الجيدة في الحياة. فالروح تبعث على الشهية في جميع أجزاء الجسد وأعضائه. إذ لم يكد جورج يغادر حتى بدأت أتساءل أين يمكنني أن أجد في هذا الحي الأرستقراطي اللعين مخبزاً يبيع فطائر من الجيلي أو كعكة كبيرة بالقرفة تذوب في الفم. وبعد أن رشفت بضعة أقداح من النبيذ، بدأت أفكر بالطعام أكثر، وتصورت فطائر البطاطا مع فتات من

الخبز المقلي وهي تعوم في حساء داكن كثير التوابل؛ ورحت أفكّر بكتف لحم خنزير مشوي طري وبجانبه تفاح مقلي، ومحار ولحم خنزير كطبق فاتح للشهية، وقليل من الكرنب، والبندق والجوز البرازيلي. كنت سأجد في تلك اللحظة متعة في أيّ شيء لذيذ وريّان ودسم، هذا ما كنت أشتهيه. طعام ونبيذ يسيل لهما اللعاب هما كل ما كنت أتوق إليه. وأتوّج كل ذلك بشراب كيميل الفاخر.

حاولت أن أتذكر شخصاً يمكننا أن نجد في بيته وجبة طعام جيدة. (فمعظم أصدقائي يتناولون الطعام في المطاعم)، والأشخاص الذين خطروا ببالي كانوا يقيمون في أماكن بعيدة، أو من ذلك النوع الذي لا يمكنك أن تقتحم عرينهم دون إعلام مسبق. وبالطبع كانت مونا ترغب في أن نتناول وجبة في أحد المطاعم الراقية، نأكل حتى التخمة، ثم نجلس وننتظر حتى نعثر على شخص يدفع لنا ثمن وجبة الطعام. لكن هذه الفكرة لم ترق لي أبداً. إذ كنت قد فعلت ذلك مرات عديدة. وكان قد حدث لي مرة أو مرتين أن جلست هكذا، أنتظر طوال الليل شخصاً ليسدد لنا ثمن الوجبة. لا ياسيدي، إذا أردنا أن نذهب لنأكل وجبة دسمة فيجب أن تكون النقود في جيبي.

سألتها: «كم معنا من النقود، على أي حال؟، هل بحثت في كل مكان؟».

بدا أن كل ما تمكنا من جمعه هو اثنان وسبعون سنتاً. وكان مايزال أمامنا ستة أيام لقبض الراتب. ولم أكن في مزاج رائق ـ كما كنت أتضور جوعاً ـ لكي أشرع بجولة على مكاتب التلغراف لأجمع بضعة سنتات من هنا وهناك.

قالت مونا: «لنذهب إلى المخبز الإسكتلندي، فهم يقدمون طعاماً هناك. إنه طعام بسيط لكنهم يقدمون كمية كبيرة منه، فضلاً عن أنه رخيص الثمن».

كان المخبز الإسكتلندي يقع بالقرب من بورو هول. مكان

كئيب، تنتشر فيه طاولات سطحها من الرخام، وأرضيته مكسوة بنشارة الخشب. وكان أصحاب المخبز من الكنيسة المشيخية، أجلاف من المهاجرين القدامى من أوروبا. وكانوا يتكلمون بلكنة تذكرني على نحو كريه بلكنة والديّ ماكجتيجور. فقد كان لكل مقطع ينطقونه رنين كرنين قطعة نقدية معدنية صغيرة، طنين عظمي. ولأنهم كانوا رقيقي الجانب، فكان من المفترض أن يكون المرء ممتناً للخدمة التي يقدمونها.

تناولنا شيئاً من الثريد وكعكات بالزبدة وورقة رقيقة من الخس. ولم يكن للطعام أي مذاق. فقد طهته عانس كالحة الوجه لم تعرف يوماً واحداً من البهجة. وكنت أفضل أن أتناول صحناً من حساء الشعير، أو سجقاً مقلياً وسلطة بطاطا كالتي يقدمها آل بيرغر.

كان لوجبة الطعام تأثير منبّه للغاية، فقد أضفت عليّ مسحة من النشوة. وبدأ ينتابني ذلك الشعور من الصفاء الشديد في الرأس، الذي يجوّف العظام ويبرز العروق الشفافة، شعور كان يمدني بشيء من اللامبالاة، الأمر الذي لم يكن عادياً بالنسبة لي. ففي كل مرّة كان يُفتح فيها الباب، كانت تصطدم بآذاننا أصوات منكرة من الخشخشة والضجيج. فقد كانت تمر من أمام الباب مباشرة سكتان لعربات الترولّي، ويوجد محل تصوير فوتوغرافي، ومحل لبيع أجهزة المذياع، وكان الشارع مزدحماً بالسيارات التي لا ينقطع سيلها. وعندما تأهبنا للمغادرة، كانت أضواء الشارع قد أنيرت. وكنت أضع في طرف فمي نكاشة أسنان أمضغها بلا مبالاة، وكانت قبعتي مائلة فوق إحدى أذنيّ، وما أن خطوت نحو الرصيف حتى أدركت أنها كانت أمسية من أمسيات آواخر أيام الصيف المعتدلة الرائقة. ودهمتني شذرات غريبة من الأفكار. فقد عادت بي الذاكرة مثلاً إلى أحد أيام الصيف منذ حوالى خمس عشرة سنة عندما، ركبت عند تلك الناصية بالذات، التي أصبحت مزيجاً من الضوضاء الآن، عربة

ترامواي مع صديقي القديم ماكجريجور. وكانت عربة مفتوحة وتوجهنا إلى خليج شيب هيد. وكنت أتأبط نسخة من كتاب لسانين. وكنت حينها قد انتهيت من قراءته، وكنت على وشك أن أعيره لصديقي ماكجريجور. وفيما كنت أفكر بالصدمة الممتعة التي أحدثها لي هذا الكتاب المنسي، تناهى إلى سمعي دفق مفاجئ من لحن موسيقي مألوف لي ينبعث من مكبر صوت من محل بيع أجهزة المذياع على الرصيف المقابل. تسمرت في مكاني كما لو كانت جذوري ضاربة في هذه البقعة. كان كانتور سيروتا يغني أحد تلك الألحان الكنسية القديمة. وكنت أعرفها جيداً لأني استمعت إليه عشرات المرات. وذات مرة اشتريت كل تسجيلاته المتوافرة في السوق، وبسعر مرتفع.

تطلعت إلى مونا لأرى تأثير الموسيقى عليها. كانت عيناها مبللتين، ووجهها مجهداً. وبهدوء أخذت يدها وأمسكتها. وقفنا هكذا دقائق عديدة بعد أن توقفت الموسيقى، ولم يحاول أي منا أن يتفوه بكلمة.

غمغمت أخيراً قائلاً: «أتعرفين هذا اللحن؟» فلم تحر جواباً. كانت شفتاها ترتجفان. ورأيت دمعة تسيل على خدها.

«مونا، يا عزيزتي مونا، لماذا تخبئين عليّ؟ أنا أعرف كل شيء. أعرف منذ فترة طويلة... هل تظنين أني سأخجل لأنك هكذا؟».

«لا، لا يا فال. لم أستطع أن أخبرك. لا أعرف لماذا».

«لكن ألم يخطر ببالك أبداً، يا عزيزتي مونا، أن حبي يزداد لك لأنك يهودية؟ لاأعرف لماذا أقول هذا، لكن هذا هو الواقع. إذ إنك تذكرينني بالنساء اللاتي عرفتهن في صباي - في العهد القديم. راعوت، نعمي، إستير، راشيل، ريبيكا... كنت أتساءل دائماً وأنا طفل لماذا لم أكن أعرف امرأة تحمل مثل هذه الأسماء. لقد كانت أسماء ذهبية بالنسبة لي».

طوقت خصرها بذراعيّ. وراحت تنشج نشجاً خفيفاً. «لنبقَ هنا قليلاً. فهناك شيء أريد أن أقوله لك. إن ما سأقوله لك الآن، أعني، أريدك أن تعرفي ذلك. أنا أتكلم من أعماق قلبي. وهو شيء لم يخطر ببالي الآن فقط، بل شيء كنت أريد أن أقوله لك منذ زمن بعيد».

«لا تقل شيئاً يا فال. أرجوك لا تفه بكلمة أخرى». ووضعت يدها على فمي لتسكتني. تركتها بضع لحظات، ثم سحبت يدها بلطف.

قلت متوسلاً: «دعيني، فهذا لن يزعجك. كيف يمكن أن أزعجك أو أجرح مشاعرك الآن؟».

«لكني أعرف ما ستقوله. و... وأنا لا أستحق ذلك».

«هراء! اسمعي إليّ الآن... هل تذكرين يوم تزوجنا... في هوبوكين؟ هل تذكرين ذلك القذر؟ أنا لم أنس ذلك أبداً. اسمعي، هذا ما أفكر به... لنفترض أني أصبحت يهودياً. لا تضحكي! أنا أعني ما أقول. ما الغريب في ذلك؟ فبدلاً من أن أصبح كاثوليكياً أو مسلماً سأصبح يهودياً، ولدي سبب وجيه في ذلك».

«هذا ما أردت أن تقوله؟» نظرت إلى الأعلى، وحدقت في عينيّ وكأنها في حيرة تامة.

«لأنك يهودية وأنا أحبك ـ ألا يعتبر هذا سبباً كافياً؟ فأنا أحب كل شيء فيك... ما الذي يمنعني من أن لا أحب دينك، جنسك، عاداتك؟ وكما تعرفين فأنا لست متديناً. أنا لا شيء... انظري، لماذا لا نذهب إلى الحاخام ونعقد زواجنا على طريقتكم؟».

انفجرت ضاحكة حتى كادت خاصرتاها تنفجران. أحسست بشيء من الإهانة وقلت: «ألا ترين أنني الشخص المناسب لك؟».

وفجأة صاحت: «توقف عن هذا الهراء! يالك من أحمق، مهرج، ولكني مغرمة بك. أنا لا أريدك أن تصبح يهودياً... ولا يمكن أن تكون يهودياً على أي حال. إنك شخص مميز... وفي جميع الأحوال،

يا فالي العزيز، فأنا لا أريد أن أكون يهودية أيضاً. ولا أريد أن أسمع عن هذا الموضوع ثانية. أرجوك، لا تذكر ذلك مرة أخرى. أنا لست يهودية. أنا لست شيئاً. إنني مجرّد امرأة وليذهب الحاخامات كلهم إلى الجحيم! هيا، لنعد إلى البيت...».

سرنا باتجاه البيت ولم ينبس أحدنا بكلمة وكأن على رؤوسنا الطير. لم يكن صمتاً عدائياً بل صمتاً حزيناً. وبدا لي الشارع العريض الرائع الذي نقيم فيه أكثر جمالاً وبهاء، شارع بورجوازي تماماً يسكن فيه الأغيار كالشارع الذي يعيش فيه البروتستانت. فقد أضفت هذه البيوت الكبيرة المبنية من الآجر البني المائلة، التي بعضها ذات أسوار حجرية ثقيلة، وبعضها الآخر ذات سياج من الحديد المشغول، مسحة من المهابة الرائعة.

كنت مستغرقاً في التفكير ونحن ندلف إلى عش حبنا. راعوت، إستير، نعمى ـ تلك الأسماء التوراتية كانت ما تزال تجول في رأسي. وكانت ذاكرة قديمة تتحرك في أسفل جمجمتي، تحاول أن تعبر عن نفسها... «حيثما ذهبت أذهب، وحيثما بتِ أبت؛ شعبك شعبي وإلهك إلهي». كانت الكلمات تطن في أذني، لكني لم أتمكن من تحديدها. فجأة تذكرت هذه العبارة: «كيف نلت حظوة في عينيك حتى تهتم بي وأنا غريبة؟».

بهذا رأيت نفسي مرة أخرى ولداً صغيراً جالساً على كرسي صغير قرب النافذة في الحي القديم. كنت مريضاً وأتماثل ببطء إلى الشفاء. وقد أحضر لي أحد الأقرباء كتاباً ضخماً غير سميك مزيناً بالرسوم عنوانه «قصص من الكتاب المقدس». وقرأت فيه عن دانيال في عرينه الأسود مرات كثيرة.

أرى نفسي مرة أخرى، أكبر سناً بقليل الآن، وأنا أرتدي ملابس داخلية قصيرة، وألبس بنطالاً قصيراً، وأجلس أمام الكنيسة المشيخية. وكان القس رجلاً مسناً اسمه الموقر الدكتور دوسن. كان اسكتلندياً، لكنه في غاية الطيبة والرقة، ويحبه جميع أفراد الرعية.

وكان يقرأ مقاطع طويلة من الكتاب المقدس إلى المصلين قبل أن يبدأ في إلقاء خطبته. وكان يأخذ وقتاً طويلاً لكي يبدأ، وقبل أن يبدأ كان يتمخط بشدة، ثمّ يدسّ المنديل في ذيل معطفه، ثم يصب كمية كبيرة من الماء من الإبريق الموجود بجانب المنصّة، ثم يتنحنح وينظر إلى السماء، وهكذا دواليك. لم يعد خطيبا مفوّهاً. فقد بدأ يشيخ ويسرح بفكره كثيراً. وعندما كان يفقد سلسلة أفكاره، كان يمسك الإنجيل ويعيد قراءة آية أو آيتين لإنعاش ذاكرته. كنت أعرف جيداً نقاط ضعفه، وكنت أرتجف وأستدير في مقعدي أثناء اللحظات التي ينسى فيها ما سيقوله. كنت أشجعه بصمت بقدر ما بوسعي.

لكني الآن، وأنا جالس في عش الحب الجميل والنور خافت، أدرك فجأة من أين أتت كلّ هذه العبارات إلى شفتي. أسير إلى المكتبة وأخرج الكتاب المقدس القديم المهترئ والممزق الذي تركه لنا جورج المجنون. أقلب الصفحات بشرود، ويسرح تفكيري نحو الرجل العجوز داوسن، أفكر بصديقي الصغير، جاك لوسون، الذي مات صغيراً جداً، ويالها من ميتة مروّعة، أفكر بقبو الكنيسة المشيخية القديمة والغبار الذي كنا نقوم بإزالته في كل ليلة، ننفض الغبار عن الأشرطة، والسيوف، والطبول التي كانت تصم آذاننا، والأبواق التي تمزق طبلات آذاننا. وفيما تروح هذه الذكريات وتجيء في رأسي كشريط سينمائي، ترن في أذني تلك الآيات الرخيمة من الإنجيل التي كان يترنم بها الموقر الدكتور داوسن.

الكتاب ملقى على الطاولة، مفتوح على الفصل الذي يدعى راعوت. وكتب عليه بأحرف كبيرة: سفر راعوت. وما أزال أذكر حتى الآن هذه العبارة: «في تلك الأيام لم يكن لبني إسرائيل ملك، وكان كل إنسان منهم يعمل ما حسن في عينيه». *في أية أيام*؟ أسأل نفسي. متى كانت هذه الفترة المجيدة ولماذا نسيها الإنسان؟ في تلك الأيام لم يكن هناك ملك في إسرائيل. هذا ليس من تاريخ اليهود، بل من تاريخ الإنسان. هكذا بدأ الإنسان، بمكانته الرفيعة، بكرامة

وشرف وحكمة. *كل إنسان كان يعمل ما حسن في عينيه*. هنا وفي بضع كلمات يكمن سر مجتمع إنساني سعيد ولائق. في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، عرف اليهود مثل هذا الأمر في الحياة. في قديم الزمان وسالف العصر والأوان عرف الصينيون أيضاً، والهندوس والبولنيز والأفريقيون والأسكيمو. بدأت قراءة سفر راعوت، حيث يتحدث عن نعمي والموآبيين. وفي الآية 20 شعرت بمس كهربائي يسير في جسدي: «*فقالت لهم، لا تدعوني نعمي، بل ادعوني مارا: لأن القدير أمّرني جداً*».

ناديت مونا التي كان اسمها ذات يوم مارا، لكنها لم ترد. بحثت عنها لكنها لم تكن هناك... جلست ثانية، والدموع تطفر من عيني، أقلبّ الصفحات المهترئة الممزقة. لن يكون هناك جسر، لا موسيقى كنسية سماوية... ولا حتى حساء الشعير. *لا تدعوني نعمي، بل ادعوني مارا*! ومارا تتنكر لشعبها، تتنكر للاسم الذي منحوها إياه. كان اسماً مراً، لكنها لم تكن تعرف معناه. *شعبك شعبي، وإلهك إلهي*. نهضت ورحت أذرع الغرفة. كان جو الغرفة رائعاً وبسيطاً وهادئاً. كنت مستطاراً لكني لم أكن حزيناً بأي شكل من الأشكال. وددت أن أكون صدفة تزحف على الرمال. فتحت الباب الدوار الذي يفصل شقتنا عن الشقة الفارغة في المؤخرة، وأضأت شمعدانات في الطرف الآخر من الشقة الشاغرة. وانبعث من النوافذ الزجاجية الملونة وهج لاهب. رحت أتنقل في الظل، وتركت عقلي يسرح بحرية. كان قلبي في سكينة. وبين الحين والآخر كنت أتساءل حالماً، أين يمكن أن تكون قد ذهبت. كنت أعرف أنها ستعود قريباً وستكون مرتاحة البال. تمنّيت أن تتذكر أن تأتي بشيء من الطعام. فقد كنت في مزاج لتناول الطعام مرة أخرى ورشف قليل من النبيذ. قلت في نفسي يجب على المرء في مثل هذا المزاج أن يجلس ويكتب. كنت هادئاً ومنفتحاً، فياضاً ومشرقاً. كان بوسعي أن أرى كم كان سهلاً، إذا ما تهيأت البيئة الملائمة، أن أتحول من حياة مستخدم براتب محدد، عبد مأجور، إلى فنان. كم هو شيء رائع أن أكون

وحدي، أسبح في أفكاري ومشاعري. وقلما خطر ببالي أنني سأكتب عن أي شيء. بل كل ما فكرت فيه أنني سأكتب ذات يوم، عندما أكون في مثل هذا المزاج الرائق. والشيء المهم هو أن أكون دائماً في الحالة التي أنا فيها الآن، أن أشعر كما أشعر الآن، أن اصنع موسيقى. ومنذ الطفولة كان هذا هو حلمي، أن أجلس وأصنع موسيقى. كنت أظن أنه لكي يصنع المرء موسيقى يجب عليه أن يصنع من نفسه أولاً آلة حساسة رائعة. لا بد للمرء أن يتوقف عن الحياة والتنفس. لا بد للمرء أن ينزع الزلاجات من قدميه. لا بد للمرء أن يتحرر من جميع ارتباطاته بالعالم الخارجي. على المرء أن يتكلم مع نفسه، ويكون الله شاهداً عليه. أوه نعم، هذا هو كل ما في الأمر. في الحقيقة نعم. ففجأة أصبحت واثقاً مما أدركته بهدوء... *لأن الرب إلهك إله غيور.*

وقلت في نفسي الغريب أن كل من عرفتهم تقريباً كانوا يعتبرونني كاتباً، رغم أني لم أفعل الشيء الكثير لأثبت لهم ذلك. كانوا يعتقدون ذلك لا بسبب سلوكي الذي كان دائماً غريب الأطوار وغير متوقع فحسب، بل بسبب ولعي الشديد باللغة وتعلقي بها. فمنذ أن تعلمت القراءة لم يفارقني الكتاب لحظة واحدة. وكان جدي أول شخص غامرت بالقراءة أمامه بصوت عال، فقد كنت أجلس على طرف المقعد الذي يجلس عليه وهو يخيط المعاطف. كان جدي فخوراً بي لكنه كان أيضاً قلقاً بعض الشيء. تذكرت وهو يحذر أمي بأنها تفعل حسناً إن هي أبعدت الكتب عني... وبعد سنوات قليلة رحت أقرأ بصوت عال لصديقيّ الصغيرين، جويي وطوني، عندما كنت أقوم بزيارتهما في الريف، وكنت في بعض الأحيان أقرأ العشرة أطفال أو أكثر ممن كانوا يتحلقون حولي. كنت أقرأ وأقرأ لهم حتى يغطوا في سبات عميق، الواحد تلو الآخر. وكنت عندما آخذ الترامواي أو مترو الأنفاق، أقرأ وأنا واقف، وأقرأ حتى وأنا واقف على الرصيف بانتظار القطار. وعندما أنزل من القطار أتابع القراءة... قراءة الوجوه، قراءة تعابير الوجوه، قراءة طريقة الناس

في المشي، قراءة الفن المعماري، قراءة الشوارع، العواطف، الجرائم. كنت أقرأ كل شيء، نعم كل شيء كنت ألاحظه، أصفه، أحلله، وأقارنه ـ لكي أستفيد منه في المستقبل. كنت أدرس كل شيء، كل وجه، كل واجهة كنت أصادفها بالطريقة التي سأكتبها (فيما بعد) في كتاب، بما فيها الصفات والنعوت والظروف وحروف الجر. وحتى قبل أن أخطط ما سأكتبه، كان عقلي يعج بمئات الشخصيات. كنت كتاباً سائراً، كتاباً ناطقاً، خلاصة موسوعة تزداد انتفاخاً وتورماً كورم خبيث. وإذا التقيت بصديق أو شخص أعرفه، أو حتى بشخص غريب، كنت أواصل الكتابة وأنا أتحدث معه. ولم يكن الأمر يستغرق سوى بضع ثواني لكي أحوّل الحديث إلى طرفي، لأثبّت ضحيتي بعينين منوّمتين وأسيطر عليه. وإذا كان الشخص الذي أصادفه امرأة، سيكون ذلك أسهل بكثير. فقد تبين لي أن النساء يستجبن لهذا النوع من الأشياء أكثر من الرجال. أما مع شخص أجنبي، فكان الأمر يتم على أفضل نحو. إذ كانت لغتي تجعل الشخص الأجنبي ثملاً دائماً، وذلك لأني كنت أولاً أبذل جهداً للتكلم معه بوضوح وببساطة، وثانياً لأن تحمله وسعة صدره معي كان يخرج أحسن ما فيّ. فقد كنت أتكلم مع الشخص الأجنبي كما لو كنت على اطلاع واسع بالعادات والتقاليد السائدة في بلده. وكنت أتركه دائماً بعد أن يكون قد تكّون لديه الانطباع بأني أفضّل بلده على بلدي، وهو أمر حقيقي في العادة. وكنت أزرع فيه دائماً الرغبة في تعلم اللغة الإنجليزية بشكل أفضل، لا لأني أعتبرها أفضل لغة في العالم، بل لأني لم أجد أحداً ممن أعرفهم يستخدم اللغة بكامل إمكانياتها.

إن كنت أقرأ كتاباً وحدث أن مر بي مقطع رائع، كنت أغلق الكتاب في ذلك الزمان والمكان وأخرج لأتمشى. فقد كنت أكره فكرة أن أصل إلى نهاية كتاب جيد. أحاول أن أطيل قراءته، أؤجل الأمر الحتمي قدر ما أمكنني. لكني دائماً، عندما أجد فقرة رائعة، كنت أتوقف عن القراءة على الفور، وأخرج، سواء كان المطر أو البرد أو

الثلج ينهمر، أو كان الجو شديد البرودة حتى درجة التجمد، وأجتر هذه الفقرة مراراً وتكراراً. إذ يمكن للمرء أن يصبح مفعماً بروح الآخر حتى يخشى من الانفجار. وأظن أن كل شخص قد مر بهذه التجربة. ودعني أقُلْ إن «هذا الكائن الآخر»، هو دائماً نوع من الذات الثانية. فهي ليست مجرد مسألة معرفة روح فياضة ومؤنسة، بل إنها مسألة إدراك الذات. أن تجد أنك أصبحت وجهاً لوجه مع نفسك! يالها من لحظة! وتواصل فعل الخلق بعد إغلاق الكتاب. ويمكنني القول إن هذا الأمر، هذه الطقوس، هي ذاتها دائماً: عملية تواصل من جميع الجهات في آن واحد. لا عوائق. حين تنفرد بنفسك أكثر من أي وقت مضى، تصبح لصيقاً بالعالم كما لم يحدث من قبل. تندمج فيه. وفجأة يتضح لك، أنه عندما خلق الله العالم، لم يتخل عنه، وأنه يجلس وهو يتأمل ـ في مكان ما في حالة من النسيان والتجاهل. لقد خلق الله العالم وولجه: ذلك هو معنى الخلق.

2

لم نمضِ في عش حبنا الياباني سوى شهور قليلة من النعيم والهناء. وكنت أقوم بزيارة مود والطفلة مرة في الأسبوع لأدفع لها النفقة، وأتسكع في الحديقة. وكانت مونا تعمل في المسرح، وتعتني بأمها وبأخوين موفوري الصحة. ومرّة كل عشرة أيام، كنت أتناول طعامي في البقالة الفرنسية الإيطالية، عادةً بدون مونا، لأنها كانت تذهب إلى المسرح في وقت مبكر. ومن حين لآخر، أقوم بزيارة أولريك لألعب معه الشطرنج. وكانت اللعبة تنتهي عادة بحديث عن الرسامين وأساليبهم في الرسم. وفي بعض الأوقات، كنت أخرج في المساء للتريض، وأتوجه بشكل عام إلى الأحياء الأجنبية. وفي غالب الأحيان، كنت أمكث في البيت وأقرأ أو أستمع إلى الفونوغراف. وكانت مونا تعود إلى البيت عادة في حوالى منتصف الليل، فنتناول وجبة خفيفة، ونتجاذب أطراف الحديث لبضع ساعات، ثم نأوي إلى الفراش. وأصبح من الصعب أن أستيقظ مبكراً، وكان وداع مونا ينتهي دائماً بشجار. وأخيراً، اتفق أنني لم أذهب إلى المكتب لمدة ثلاثة أيام متتالية. كانت مجرد استراحة، لكنني استمرأت الأمر فتعذرت عليّ العودة إليه ثانية. ثلاثة أيام مجيدة بلياليها، أفعل تماماً كما يحلو لي، أتناول الطعام، أنام لمدة طويلة، أتمتع بكل دقيقة من اليوم. وبدأت أشعر بالغنى الذاتي، وفقدت كل طموح لمحاربة العالم، واجتاحتني رغبة عارمة في أن أبدأ حياتي الخاصة. كنت واثقاً من المستقبل، وقد وضعت حداً للماضي، فكيف

أعود إلى روتين العمل وأسره لي؟ وأحسست كذلك أني أظلم كلانسي، رئيسي. فلو كان عندي أي شعور بالولاء أو النزاهة، لأخبرته بأنني سئمت. فقد كنت أعرف أنه كان يدافع عنّي باستمرار، وكان على الدوام يجد لي أعذاراً أمام رئيسه، السيد المقدس صاحب الحق أبداً، تويليجير. فعاجلاً أم آجلاً، سيجد سبيفاك، الذي لم يتوقف عن ملاحقتي لحظة واحدة، شيئاً ضدي. وقد أصبح مؤخراً يمضي وقتاً طويلاً في دائرة عملي في بروكلن. إذاً فالمكيدة جاهزة، وقد آن الأوان لتصفية الأمور.

في اليوم الرابع نهضت باكراً كما لو كنت أستعد للذهاب إلى العمل. وانتظرت حتى أصبحت على وشك المغادرة قبل أن أعلم مونا برأيي. فقد كانت تلح عليّ أن أقدم استقالتي في الحال وأن أعود عند الغداء، وبدا لي أيضاً أني كلما أسرعت في ذلك، كان أفضل. ومما لاشك فيه أن سبيفاك سيعثر على مدير توظيف بسرعة.

عندما وصلت إلى المكتب، كان هناك عدد كبير من مقدمي الطلبات بانتظاري. وكان هيمي في مكانه، وقد التصقت أذنه بالهاتف، وكدأبه، فقد كان يشغّل لوحة المفاتيح بحماس شديد. كانت هناك وظائف شاغرة جديدة كثيرة، ولو كان هناك جيش من الموظفين للبت في هذه الطلبات لما تمكن من إنهاء العمل. توجهت إلى مكتبي، وأفرغت أشيائي الخاصة، ووضعتها في حقيبة، وأشرت إلى هيمي أن يقترب.

قلت: «هيمي، إني سأترك العمل، وأرجو أن تبلغ كلانسي أو سبيفاك بذلك».

نظر إليّ هيمي وكأن مساً من الجنون قد أصابني. سادت فترة صعبة من الصمت، ثم سألني بنبرة وكأن الأمر تم فعلاً عما سأفعله بشأن مرتبي.

قلت: «ليأخذوه».

فصاح «ماذا؟» وتبين لي الآن، أنه تيقّن من جنوني المؤكد.

«لا يهون عليّ أن أطالب بمرتبي بما أني سأترك العمل بدون إشعار مسبق. إني آسف لأني سأتركك في هذه الحالة يا هيمي. لكنك لن تبقى هنا لمدة طويلة أيضاً»، وقلت له بضع كلمات أخرى وذهبت. توقفت خارج النافذة الكبيرة بضع لحظات وأنا أراقب مقدمي الطلبات. لقد انتهى الأمر. مثل عملية جراحية. ولم أصدق أنني أمضيت خمس سنوات تقريبا في خدمة هذه الشركة التي لا ترحم. الآن بدأت أفهم كيف يشعر الجندي بعد أن يُسرح من الجيش.

حر! حر! حر!

وبدلاً من أن أتوجه على الفور إلى محطة المترو، رحت أتمشى في شارع برودواي، لأعرف فقط كيف يشعر المرء عندما يصبح حراً طليقاً في تلك الساعة من الصباح. أنظر إلى زملائي العمال المساكين وهم يهرعون إلى أعمالهم، وتبدو على وجوههم تلك النظرة المتضايقة المتجهمة التي أعرفها جيداً. كان بعضهم يتحرك بصعوبة على الرصيف، يحدوهم الأمل، حتى في تلك الساعة المبكرة من الصباح، في الحصول على استمارة طلب عمل، أو بيع وثيقة تأمين، أو نشر إعلان. كم بدا لي الأمر غبياً الآن، بلا معنى، سباق جرذان. كان الأمر يبدو لي دائماً أنه يدعو للجنون، أما الآن فقد بدا لي أنه شيطاني أيضاً.

كم أتمنى أن أصادف سبيفاك! أتمنى لو يسألني ماذا أفعل وأنا أتسكع هنا!

رحت أسير على غير هدى، لكي أتمتع بمذاق حريتي الجديدة. إذ إن رؤية العبيد وهم يقومون بأعمالهم منحني شعوراً بمتعة غير طبيعية. فالعمر كله ما زال قابعاً أمامي. فبعد بضعة شهور سأبلغ الثالثة والثلاثين. وأقسمت ألا أعمل لحساب أي شخص آخر في حياتي. فلن أتلقى بعد الآن أوامر من أحد. إن العمل في العالم هو لرجال غيري، أما أنا فلن يكون لي نصيب في ذلك. لديّ موهبة وسأنميها. سأصبح كاتباً أو أموت جوعاً.

في الطريق إلى البيت توقفت عند محل لبيع الأسطوانات الموسيقية واشتريت بعضاً منها - رباعية بيتهوفن، إذا لم تخني ذاكرتي. اشتريت باقة من الزهور من أحد المحلات في بروكلن، وتحايلت على صديق إيطالي وحصلت منه على زجاجة من نبيذ تشيانتي. فالحياة الجديدة تبدأ بوجبة غداء لذيذة وموسيقى جيدة. ولكي أمحو جميع ذكريات الأيام والشهور والسنوات التي أهدرتها في مطحنة كوسموديمونيك، سيستغرق الأمر الكثير من الحياة الجيدة. كم سيكون من الرائع ألّا أقوم بأي شيء على الإطلاق، أن أضيع الوقت لأيام وأيام.

كان قد حل شهر أيلول المجيد، وبدأ يتغير لون أوراق الأشجار، وكانت تعبق في الهواء رائحة دخان. كان الطقس حاراً وبارداً في آن معاً. وكان مايزال بوسع المرء أن يذهب إلى الشاطئ للسباحة. كانت هناك أشياء عديدة أرغب في القيام بها في وقت واحد بحيث كدتُ أخرج من جلدي. فقبل كل شيء، سأشتري بيانو وأبدأ العزف عليه من جديد، بل لعلي سأبدأ بالرسم الزيتي. وبدأ عقلي يسرح بحرية، واستقر فجأة على صورة أثيرة لديّ. الدراجة! كم سيكون رائعاً أن أستعيد دراجة السباق القديمة التي كانت عندي ذات يوم! فمنذ حوالى سنتين، كنت قد بعتها إلى ابن عمي الذي يقيم في مكان قريب. ولعله يبيعها لي مرة أخرى. لقد كانت من طراز خاص ومصنوعة في تشيمنيز ببوهيميا، وقد حصلت عليها من راكب دراجات ألماني بعد نهاية سباق دام ستة أيام. لكني للأسف، لم أذهب في جولة إلى كوني آيلاند منذ وقت طويل. أيام خريفية لا تصلح إلا لركوب الدراجات. وتمنيت ألا يكون ابن عمي الأحمق قد غيّر السرج الذي يحمل علامة برووكس. (وأتمنى ألا يكون قد رمى تلك الأشرطة التي تمكنك من وضع إصبع القدم فيها). فعندما أتذكر ملمس قدميّ وهما ينزلقان في مشبك إصبع القدم، تنتابني من جديد أحاسيس لذيذة. أمتطي الدراجة الآن على الطريق المكسو بالحصى تحت الأشجار المتشابكة والمقنطرة التي تمتد من بروسبيكت بارك

إلى كوني آيلاند، إيقاعي متناغم تماماً مع إيقاع الدراجة، أفرغ دماغي من كل شيء، وأركّز فقط على إحساسي بالاندفاع في الفضاء، كنت أسرع أو أبطئ حسب ما يمليه عليّ عدادي الداخلي. لم أكن أفكر بشيء، بل حتى لم أكن أشعر بأي شيء، إنما حركة دائمة إلى الأمام في الفضاء، بالدراجة... بلى، سأعود وأركب الدراجة مرة أخرى - كل صباح - لأحرك دمي فقط. أقوم بجولة بالدراجة إلى كوني آيلاند ثم أعود، وآخذ حماماً، وأتناول فطوراً لذيذاً، ثم أبدأ العمل. على طاولة مكتبي بالطبع. لا عمل، بل لعب. العمر بكامله ينتظرني ولا يوجد أمامي سوى الكتابة. ياله من شيء رائع! بدا لي أن كل ما عليّ أن أفعله هو أن أجلس، وأفتح الصنبور ليتدفق كل شيء. إذا كان بوسعي أن أكتب رسائل من عشرين أو ثلاثين صفحة بدون توقف، فمن المؤكد أنه يمكنني أن أؤلّف كتباً بالسهولة ذاتها. فالجميع يعرف الكاتب في داخلي: وكل ما عليّ أن أفعله، هو أن أجعل ذلك حقيقة واقعة.

فيما كنت أمرّ من أمام النافذة مسرعاً، انحنيت قليلاً ولمحت مونا وهي ترتدي الكيمونو. كانت النافذة الكبيرة ذات الحافة الحجرية مشرعة. قفزت فوق الدرابزين ودلفت من النافذة.

صحت قائلاً: «ها قد فعلتها»، وقدمت لها الزهور والنبيذ والموسيقى. وأضفت «اعتباراً من اليوم سنبدأ حياة جديدة. لاأعرف كيف سنعيش، لكننا سنعيش. هل الآلة الكاتبة في حالة جيدة؟ هل لديك طعام للغداء؟ هل أطلب من أولريك أن يأتي؟ كانت روحي متأججة. اليوم يمكنني أن أمرّ بالمحنة وأخرج منها منتشياً. دعيني أجلس وأنظر إليك. هيا، تحركي كما كنت تفعلين منذ دقيقة. أريد أن أرى كيف أشعر عندما أجلس هنا لا أفعل شيئاً».

أمنح مونا فرصة لكي تستجمع قواها. ثم أعود وأفرغ ما في جعبتي.

«لم تكوني واثقة من أني سأفعلها، أليس كذلك؟ لم أكن لأفعل

ذلك إلا من أجلك. من السهل على المرء أن يذهب إلى العمل كل يوم. أما الشيء الصعب فهو أن يظل حراً. لقد فكّرت بكل شيء في هذا العالم أريد أن أفعله، فأنا الآن حر طليق. أريد أن أفعل أشياء كثيرة. يبدو لي أني كنت متجمداً منذ خمس سنوات».

انطلقت من فم مونا ضحكة خافتة ورددت: «تفعل أشياء؟. إنك أكثر الأشخاص الذين يتمتعون بالحيوية والنشاط في العالم. كلا، ياعزيزي فال، إن ما تحتاجه هو ألّا تفعل شيئاً. فأنا لا أريدك حتى أن تفكّر بالكتابة... إلا بعد أن تنال فترة طويلة من الراحة. ولا تقلق على حياتنا. اترك الأمر لي. فإذا كان بإمكاني أن أعيل عائلتي الكسولة، فمن المؤكد أني أستطيع أن أعيلك وأعيل نفسي. على كل حال دعنا لا نفكر بهذه الأمور الآن».

ثم أضافت «يوجد عرض رائع في البالاس، روي بارنز هناك. أحد ممثليك المفضلين، أليس كذلك؟ وهناك ذلك الكوميدي الذي نسيت اسمه. إنه مجرد اقتراح».

جلست هناك وأنا في حالة من الذهول، قبعتي ترتكز على قدميّ الممتدين أمامي. كان ذلك شيئاً رائعاً يصعب عليّ تصديقه. شعرت بأني أشبه بالملك سليمان، بل في واقع الأمر أفضل من الملك سليمان، لأني تخلصت من كل المسؤوليات. طبعاً سأذهب إلى المسرح. أيّ شيء أفضل من حضور حفلة نهارية في يوم كسول؟ سأتصل بأولريك فيما بعد وأطلب منه أن يتناول طعام العشاء معنا. فيوم رائع كهذا يجب أن يشاركنا فيه شخص آخر، وأيّ شيء أفضل من أن يشاركنا فيه صديق حميم؟ (وكنت أعلم أيضاً ما كان سيقوله لي أولريك. «لا تظن أنه ربما كان من الأفضل...؟ أوه، بحقّ الجحيم ماذا أقول؟ إنك تعرف أفضل...» وما إلى هنالك). كنت على استعداد لسماع أي شيء من أولريك. إذ إن شكوكه ستجعلني أشعر بالانتعاش. وأكاد أكون واثقاً من أنه سيقول قبل نهاية السهرة: «ربما سأسلّم أنا نفسي بالهزيمة!» بالطبع، إنه لا يعني ما يقول، بل

إنها مجرد مداعبة، مغازلة لكي يستثيرني. كأنه يقول إنه إذا كان هو، أولريك، الشخص الممل ومن الطراز القديم، يمكن أن تخطر له مثل هذه الفكرة، فكيف سيتصرف رجل مثل صديقه هنري فال ميلر، وأن عدم قيامه بأي شيء سيكون أمراً انتحارياً.

«أتظنين أنه بوسعي استعادة دراجتي؟» قلت ذلك بدون مقدمات.

فأجابت بلا تردد: «بالطبع يا فال».

«إنك تظنين أنها فكرة مضحكة، أليس كذلك؟ إذ توجد لديّ رغبة ملحة في ركوب الدراجة ثانية. لقد بعتها قبل أن أتعرّف إليك بفترة قصيرة».

قالت إنها رغبة طبيعية جداً، ومع ذلك فقد جعلها ذلك تضحك. «إنك ما تزال ولداً، يافال؟» لم تتمكن من مقاومة عدم قول ذلك.

وما هي إلا لحظات حتى عاودت الكلام ثانية. «هل تعرفين ماذا؟ هناك شيء آخر كنت أفكر فيه هذا الصباح...».

«ما هو؟».

«بيانو. أودّ أن أحصل على بيانو وأبدأ العزف ثانية».

قالت: «إن ذلك سيكون شيئاً رائعاً. أنا متأكدة أنه يمكننا أن نستأجر بيانو بسعر رخيص وجيد أيضاً ـ هل ستأخذ دروساً مرة أخرى؟»

«لا، فأنا أريد أن أتسلى، هذا كل ما في الأمر».

«ربما علمتني العزف أيضاً».

«طبعاً! إذا أردت حقاً أن تتعلمي».

«إنه لشيء جيد أن أتعلم العزف، خاصة في المسرح».

«الأمر في غاية السهولة. فقط أحضري لي البيانو».

وعندما نهضت واقفاً لأتمطى، انفجرت ضاحكاً.

«وماذا سنستفيد من هذه الحياة الجديدة؟».

«إنك تعرف ما أريده». قالت مونا.

«لا، لا أعرف. ماذا تريدين؟».

اقتربت مني وطوقتني بذراعيها وقالت: «كل ما أريده منك هو أن تصبح ما أريدك أن تكونه ـ كاتباً، كاتباً عظيماً».

«وهذا كل شيء ترغبينه؟».

«نعم، يا فال، هذا كل ما أريده، صدقني».

«وماذا عن المسرح؟ ألا تريدين أن تصبحي ممثلة عظيمة ذات يوم؟».

«لا يا فال، فأنا أعرف أني لن أكون ذلك. ليس لديّ الطموح الكافي. لقد عملت في المسرح لأني ظننت أن ذلك يدخل السرور إلى نفسك. أما أنا فلا أبالي حقاً بما أفعله ـ طالما أن ذلك سيجعلك سعيداً».

قلت: «لكنك لن تصبحي ممثلة جيدة إذا فكرت بهذه الطريقة»، ثم أضفت «حقاً، يجب أن تفكري بنفسك. يجب أن تفعلَي الشيء الذي تحبينه، مهما كنت أعمل أنا. كنت أظن أنك مغرمة بالمسرح».

«أنا مغرمة بشيء واحد فقط، هو أنت».

«الآن بدأت تمثلين»، قلت.

«ليتني كنت أمثّل، لكان الأمر أسهل».

لامستها بأطراف اصابعي تحت ذقنها، وقلت: «حسناً، لقد حصلت عليّ الآن مدى الحياة. سنرى كيف ستبدو الأمور بعد شهر من الآن. لربما ستملين من رؤيتي حتى قبل ذلك الوقت».

فقالت: «لست أنا. فأنا أدعو الله دائماً أن يتحقق ذلك منذ أن قابلتك. إني أغار منك، هل تعرف ذلك؟ أريد أن أراقب كل حركة من حركاتك». اقتربت مني كثيراً، وفيما كانت تتحدث راحت تمسد جبهتي برقة.

«تتملكني الرغبة في بعض الأحيان في أن أغوص في أعماقك وأعرف ماذا يدور في خلدك. إذ إنك تسرح بعيداً جداً في بعض الأحيان. وخاصة عندما تلوذ بالصمت. سأغار من كتاباتك أيضاً، لأني أعرف أنك لن تفكر بي عندما تكتب».

«اسمعي، ترانا ماذا نحن فاعلان؟ ما الفائدة من كل هذا الكلام ـ فاليوم يمر بسرعة. لن نحاول أن نستشرف المستقبل اليوم. اليوم سنحتفل... أين تلك الأطعمة اللذيذة التي طالما حدثتِني عنها؟ أظن أني سأذهب وأحضر قليلاً من الخبز الأسمر الطيب، وقليلاً من الزيتون والجبن والبسطرما، وماذا هنالك أيضاً؟ هذا نبيذ رائع اشتريته ـ يجب أن يرافقه طعام جيد. هل أحضر بعض المعجنات أيضا؟ آه، هل لديك قليل من النقود ـ أنا مفلس تماماً. جميل. ورقة من خمسة دولارات؟ آمل أن يكون معك أكثر؟ غداً سنفكر في كل هذه الأمور، نعم؟ إني أتساءل، كيف يمكننا أن نحصل على المال ومن أين».

وضعت يدها على فمي تسكتني وقالت: «أرجوك يا فال، لا تتحدث عن ذلك، حتى بدون مزاح. لا تفكر بالمال... أبداً، هل تفهم؟».

هناك كتاب طريف عنوانه «*بدلاً من كتاب بقلم رجل لا يجد وقتاً للكتابة*»، ألفّه كاتب فوضوي أمريكي يدعى بنجامين توكر. والكتاب يصف تماماً الحالة التي أمرّ فيها. ففجأة انطلقت قدراتي الإبداعية من عقالها، وفي الحال أخذت تطفح في كل اتجاه. وبدلاً من أن أشرع في تأليف كتاب، كان أول شيء فعلته هو أني جلست لأكتب قصيدة نثرية عن الساحة الخلفية لبروكلن. فقد كانت فكرة أن أكون كاتباً تستهويني، لكني قلما تمكنت من كتابة أي شيء. فقد كان مقدار الطاقة الجسدية التي أمتلكها لا يصدق. لقد أجهدت نفسي وأنا أعدها. فقد كان من المستحيل أن أجلس بهدوء وتبدأ الأفكار

تتدفق. كنت أغلي في داخلي. كنت أريد أن أصف العالم الذي أعرفه، وأن أكون فيه في الوقت نفسه. ولم يخطر ببالي أبداً أن أتمكن من تأليف أسمك كتاب يمكن أن أتخيله بمجرد أن أعمل يومياً لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. وكنت أعتقد آنئذ أنه إذا جلس المرء لكي يكتب فيجب أن يظل ملتصقاً بكرسيه لمدة ثماني أو عشر ساعات متواصلة. وعلى المرء أن يكتب ويكتب حتى يسقط من الإعياء. هكذا كنت أتخيل الكتّاب وهم يمضون في عملهم. كم كنت أتمنى أن أكون قد عرفت البرنامج الذي وصفه سيندرارس في أحد كتبه! ساعتان يوميا قبيل الفجر، ثم افعل ما تشاء بقية اليوم. يالها من ثروة من الكتب التي قدمها إلى العالم، سيندرارس ذلك! على الهامش. وقال ريمي دي غوورمونت كما ذكر سيندرارس أنه إذا اتبع المرء طريقة مماثلة - إذ خصص ساعتين أو ثلاث ساعات يومياً من حياته - فيمكنه أن يقرأ كل شيء مكتوب ذي قيمة تقريباً.

بيد أني لم أكن شخصاً منظماً، لم أكن منضبطاً، لا يوجد عندي هدف محدد. كنت واقعاً تماماً تحت رحمة دوافعي ونزواتي ورغباتي. كانت رغبتي جامحة في أن أعيش حياة كاتب، إلى حد أني أغفلت ذلك الذخر الهائل من المواد التي جمعتها خلال السنوات التي أفضت بي إلى هذه اللحظة. فشعرت أنني مدفوع للكتابة عن الأمور الحالية، عما يحدث خارج بابي هذا. شيء جديد، هذا كل ما كنت أسعى إليه. وكان القيام بذلك شيئاً من قبيل التهور، فسواء كنت مدركاً لذلك أم لا، فالمادة التي خزنتها طوال تلك السنوات، تلاشت تماماً أثناء سنوات الإحباط والشك واليأس، عندما كان كل شيء أريد أن أقوله محفوراً في ذاكرتي. أضف إلى ذلك، فقد كنت أشعر أنني أشبه مصارعاً أو ملاكماً يستعد لمباراة كبيرة. كنت بحاجة إلى تدريب. فقد كانت الجهود الأولى التي بذلتها حينئذ، تلك التخيلات والفنتازيا، القصائد النثرية تلك وذلك الهراء والهذيان من كل نوع، كانت كلها أشبه بضبط الآلة. كان ذلك يرضي غروري (الذي كان متضخماً) لكي أبدأ بمشروعي في الكتابة. نحن في الصباح الآن،

صباح بطيء وطويل من أيام عطلة بدا أنه لن ينتهي. وقد اخترت أن أحجز لنفسي مقعداً ممتازاً في الجنة. كان الأمر مؤكداً ومحتوماً. لذلك كان بوسعي أن أستغل وقتي، بوسعي أن أبدد الساعات المجيدة الماثلة أمامي، وأبقى خلالها جزءاً من العالم وروتينه الفارغ. وما إن كنت أصعد إلى المقعد السماوي حتى أنضم إلى جوقة الملائكة، الجوقة الملائكية التي لا تتوقف عن الترنم بتراتيل مبهجة. فإن كنت أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أقرأ وجه العالم بعينيّ كاتب، أخذت الآن أقرؤه ثانية بتركيز أكبر. ولم يكن ثمة شيء، مهما كان ضئيلاً وتافهاً، يفلت مني. فإن خرجت لأتمشى، وكنت أجد الأعذار دائماً لكي أخرج وأتمشى، فمن أجل «الاستكشاف» كما كنت أقول ـ كان ذلك لكي أجعل من نفسي عيناً ضخمة جداً عن عمد. ولكي أرى الأشياء العادية، الأشياء اليومية بهذه النظرة الجديدة، كنت في معظم الأحيان أتسمر في مكاني. فما أن يركز المرء انتباهه بدقة على أي شيء، حتى على نصلة عشب، حتى يصبح عالماً مضخماً غامضاً، مدهشاً، عصياً عن الوصف. عالم «لا يكاد يمكن إدراك كنهه». فالكاتب يكمن حتى تأتيه هذه اللحظات الفريدة. ينقضّ على حباته الصغيرة من اللاشيء كما ينقض الوحش على فريسته. إنها لحظة اليقظة التامة، لحظة الاتحاد والاستيعاب، ولا يمكن دفعها بالقوة. وهل يمكنني أن أقول إن المرء في بعض الأحيان يرتكب خطأ أو إثماً، وهو يحاول تثبيت اللحظة بقوة بالكلمات. وبعد أن بذلت جهوداً مضنية لاستحضار تلك اللحظات من التسامي والانطلاق، استغرقت وقتاً طويلاً لكي أفهم لماذا لم أتمكن من تسجيلها. ولم أكن أحلم أبداً أن تأتيني تلك اللحظة من النعمة الصافية والوعي المحض، والتي كانت هدفي الوحيد والمطلق. فقد طاردت السراب كثيراً، وكنت دائماً أتجاوز نفسي. وكلما لمست الواقع، أرتد بقوة إلى عالم الوهم، الذي هو الحياة اليومية. وكنت أصرخ بأعلى صوتي «التجربة! مزيد من التجربة». وفي جهد مسعور لكي أضع لنفسي نظاماً معيناً، برنامجاً محدداً، كنت أجلس بهدوء أحياناً وأمضي

فترة طويلة، ساعات طويلة وأنا أضع خطة لنفسي. لكني لم أكن بارعاً في وضع المخططات، كالتي يشقى المهندسون في وضعها. إلا أنه كان بوسعي دائماً أن أتصوّر أحلامي على شكل كونيّ. ورغم أني لم أتمكن في حياتي من صياغة حبكة أوازن فيها وأزن القوى المتصارعة والشخصيات والمواقف والأحداث، أوزعها بتخطيط محكم، وأضع مسافات واسعة فيما بينها. ومع يقيني التام بأنه لا توجد نهاية، وأنه لا توجد سوى عوالم داخل عوالم لا نهاية لها، وأنه حيثما وليتّ وجهك، تخلق عالما، عالماً محدداً، شاملاً، كاملاً.

وكرياضي جيد التدريب، كانت تتنازعني مشاعر من الطمأنينة والقلق في الوقت ذاته. ورغم أني كنت واثقاً من النتيجة النهائية، فقد كنت متوتراً، مضطرباً، نافد الصبر، عصبي المزاج. وهكذا رحت أرتب نفسي. وقبل كل شيء، قلت إنه لكي يكون لديّ أيّ تأثير، فيجب أن يكون صوتي مسموعاً. يجب أن أجد منفذاً لأعمالي ـ في الصحف أو في المجلات. في مكان ما، بطريقة ما. ما المدى الذي يمكنني أن أصل إليه، ما هي قدرتي على الرماية؟ ورغم أني لم أكن ذلك الشخص الذي يضجر أصدقاءه بالقراءات الخاصة، أحيانا في لحظات من الحماس شديد، إلا أني كنت اقترف هذا السلوك السيئ. ورغم ندرتها، فقد كان لها تأثير قويّ عليّ. ولاحظت أنه لم يكن أحد من أصدقائي يطرب ويثمل للجهود التي كنت أبذلها إلا نادراً. وأظن أن هذا النقد الصامت الذي يقدمه الأصدقاء في معظم الأحيان، أهم بكثير من الأعمدة العدائية التي يكتبها النقاد الذين يتقاضون أجراً. إن عدم قيام أصدقائي بإطلاق ضحكات صاخبة في الوقت المناسب، وعدم تصفيقهم لي بقوة عندما كنت أنهي قراءاتي، كان ينطوي على سيل من الكلمات. وكنت أحياناً، أداري كبريائي، وأعتبرهم متبلدين، أو متحفظين.

لكن لنعد الآن إلى الخطة الأساسية... فبما أني كنت واثقاً من قدرتي على الكتابة عن أيّ شيء تحت الشمس، وعلى نحو مثير

أيضاً، فقد رأيت أن أضع قائمة بالمواضيع التي أظن أنها ذات أهمية لأعرضها على محرري المجلات ليختاروا منها ما يروق لهم. وقد تمخض ذلك عن كتابة عشرات وعشرات من الرسائل. رسائل طويلة سخيفة. وكان ذلك يعني أيضاً أن أحتفظ بملفات خاصة وأن أتقيد باللوائح والتعليمات الغبية لما ينوف على مائة مجلس تحرير. وتضمن ذلك أيضاً مماحكات ومهاترات، وزيارات غير مثمرة إلى مكاتب التحرير، وانزعاج، وإحباط، وسخط، وغضب، ويأس، وملل، هذا فضلاً عن الطوابع البريدية! وبعد أسابيع من اللغط والانفعال، كانت تصلني بين الحين والآخر رسالة من محرّر يقول فيها إنه سيتعطف ويتنازل لقراءة مقالتي إذا، وإذا، وإذا، ولكن. ولم تكن هذه الأعذار والاعتراضات تفت في عضدي، أو تثبط من عزيمتي، وكنت أعتبر هذه الرسائل وعوداً صادقة. مما دفعني لأن أكتب مقالة عن كوني آيلاند في الشتاء. فإن أعجبتهم نشروها، وسأوقّع اسمي عليها، ويمكنني عندها أن أريها إلى أصدقائي، أحملها وأدور بها، أضعها تحت وسادتي في الليل، أقرأها خلسة مرة بعد أخرى، لأن النشوة تأخذك عندما ترى عملك منشوراً للمرة الأولى، إذ تكون بذلك قد برهنت للعالم في نهاية الأمر، أنك كاتب حقاً، وأنه يجب عليك أن تبرهن ذلك للعالم، مرة على الأقل في حياتك، وإلا فقدت عقلك إن كنت أنت الوحيد من يصدق ذلك.

وهكذا انطلقت إلى كوني آيلاند ذات يوم شتوي. وبالطبع كنت وحدي، فلم أرغب في أن يلهيني صديق تافه عن تأملاتي. وحملت في جيبي دفتراً جديداً وقلم رصاص مبرياً.

كانت الرحلة إلى كوني آيلاند في عزّ الشتاء كئيبة وطويلة. وبدا لي أن الناقهين والعاجزين فقط، أو من في عقولهم لوثة، هم الذين يذهبون إلى هذه البقعة في هذا الوقت من السنة. وانتابني إحساس بأن فيّ مساً من الجنون. فمن ذا الذي يريد أن يقرأ ويسمع عن كوني آيلاند المهجورة؟ لا بد أني قررت أن أكتب عن هذا الموضوع وأنا

في حالة من التسامي، بعد أن ظننت ألّا شيء قد يكون ملهماً أكثر من العزلة والكآبة.

لكن قلما تصف العزلة الحالة هنا. فبينما كنت أسير على الرصيف الخشبي، كانت الريح الجليدية تصفر من خلال سروالي، وكان كل شيء مغلقاً بإحكام، وقلت في نفسي إني لا بد اخترت أن أكتب عن موضوع في غاية الصعوبة. إذ لم يكن هناك شيء يمكنني أن أدوّن عنه ملاحظة، إن لم يكن الصمت نفسه. كان عليّ أن أرى المشهد من خلال عيني أولريك، فلعل بوسع عين الرسام أن تسجل على نحو أفضل تلك الصروح الكئيبة، المجنونة، المتداعية، الأكوام المزمجرة والألواح الخشبية، والدولاب الهوائي الفارغ، والقاطرات السريعة القابعة بسكون فوق السكة الحديدية، والتي أخذت تصدأ تحت أشعة الشمس الباهتة. ولأؤكد لنفسي أني أعمل، رحت أدوّن بضع ملاحظات عن المشهد الجنوني الصاخب، الفم المتثائب لجورج تيليو، وما إلى هنالك... وقلت في نفسي إنه ربما أنعشتني قطعة من السجق، وكوب من القهوة الحارة وجعلتني في حال أفضل. وجدت كشكاً صغيراً مفتوحاً في شارع فرعي من الرصيف الخشبي، ورأيت بعد بضعة أبواب منه أحد محلات الرماية الذي كان مايزال مفتوحاً. لم أر أي زبون فيه: لا شك أن صاحب المحل كان يتدرب هو نفسه على الرماية. يأتي بحار ثمل يترنح، وعلى بعد خطوات مني ينحني ويتقيأ. (لا حاجة لتسجيل هذه الملاحظة). أتوجه صوب الشاطئ وأراقب طيور النورس. أنظر إليها وأفكّر بروسيا. تتملكني صورة تولستوي وهو جالس على المقعد يصلح أحذية. ماذا كان اسم مسكنه؟ ياسنا بوليانا؟ لا، ياسنايا بوليانا. حسناً، لماذا أفكر بكل هذا بحق السماء؟ هيا استيقظ! أهزّ نفسي، وأنطلق في العاصفة الجليدية. أخشاب تجرفها الأمواج. أشكال رائعة. (قصص كثيرة عن الزجاجات التي في داخلها رسائل). تمنيت لو كنت قد طلبت من ماكجريجور أن يأتي معي. فقد كانت طريقته الجدية الزائفة الغبية تثيرني أحياناً. كيف كان سيسخر مني وأنا أذرع الشاطئ بحثاً عن

مادة أكتب عنها! وبوسعي الآن أن أسمعه وهو يزقزق كعصفور «حسناً، ها أنت تعمل أخيراً»، ثم يضيف «إن هذا لإنجاز. لكن لماذا بحق السماء اخترت أن تكتب عن موضوع كهذا؟ إنك تعرف تماماً أن لا أحد سيهتم به. لعلك رغبت في القيام بجولة في هذا المكان الموحش. الآن لديك عذراً جيداً، أليس كذلك؟ يا إلهي، يا هنري، أنت دائماً هكذا، إنك لا تتغير ـ إنك معتوه، مخبول». وفيما كنت أستقل القطار لأعود إلى البيت، أدرك أنني لم أدوّن سوى ثلاثة سطور. لاتوجد لدي أدنى فكرة عما سأكتبه عندما يستقر بي المقام أمام الآلة الكاتبة. عقلي فارغ تماماً كصفحة ناصعة البياض، إنه متجمد. أجلس وأحدق من النافذة، لا تجول في خاطري ولا فكرة مهما كانت تافهة. المشهد في الخارج نفسه فارغ وجامد. العالم كله مكسو بالثلج والجليد، عالم يلفه صمت مطبق، إنك عاجز. لم أعرف في حياتي يوماً كئيباً، باهتاً ومرعباً كهذا.

أويت إلى الفراش في تلك الليلة وقد تملكني إحساس بالمهانة. ومما زاد من شعوري بالمهانة، هو أني قبل أن أخلد إلى النوم، التقطت إحدى مجلدات توماس مان (التي فيها قصة تونيو كروجير) وأعجبت بأسلوبها النقي الطلي. ولدهشتي، صحوت في اليوم التالي ومثانتي ممتلئة. وبدلاً من أن أتمشى كعادتي في الصباح «لأحرّك دمي» جلست إلى الآلة الكاتبة بعد الفطور مباشرة. وبحلول الظهيرة، كنت قد أنهيت مقالتي عن كوني آيلاند. تدفقت الكلمات دون جهد. لماذا؟ لأني بدلاً من أن أرغم الأفكار على الخروج من رأسي بقوة، أويت إلى الفراش ـ بالتأكيد بعد استسلام الأنا ـ كان ذلك درساً في عبثية إجهاد النفس. إبذل ما بوسعك ودع الباقي للعناية الإلهية! نصر تافه، ربما، لكنه الأكثر تنويراً.

بالطبع لم يقبل أحد نشر المقالة. (لم يُقبل شيء مني للنشر). فقد أخذت تنتقل من محرر إلى آخر. أسبوع بعد أسبوع، كنت أرسلها كالحمام الزاجل، وأسبوع إثر أسبوع كانت تعود أدراجها، ودائماً

مشفوعة بقصاصة ورقية بالرفض. ورغم ذلك، فلم تثبط همتي، وكما يقولون فقد كنت مرحاً ومبتهجاً دائماً، والتزمت بدقة بالبرنامج الذي وضعته لنفسي. وكنت قد وضعت البرنامج على صفحة كبيرة من ورق التغليف، وثبتّها على الحائط. وألصقت بجانبها ورقة كبيرة أخرى دوّنت فيها كل الكلمات الغريبة، التي كنت أنوي إدخالها في قائمة مفرداتي. وكانت المشكلة تكمن في كيفية استخدام هذه الكلمات في النصوص التي أكتبها دون أن تبدو غريبة كأصابع الإبهام المتورمة. وكنت في معظم الأحيان أجربها مسبقاً، في الرسائل التي كنت أكتبها إلى أصدقائي، في الرسائل التي كنت أرسلها إلى «كلّ من هب ودب». فقد كانت كتابة الرسائل بالنسبة لي، مثل ملاكمة الظل بالنسبة للملاكم المحترف. لكن تصور ملاكماً محترفاً يمضي جل وقته وهو يحارب ظله، وعندما يحين موعد منازلة ملاكم آخر، يكون قد استنفد قواه ولم تعد لديه القدرة على المبارزة! فقد كان بوسعي أن أمضي ساعتين أو ثلاث ساعات وأنا أكتب قصة، أو مقالة، وأمضي ست أو سبع ساعات أخرى وأنا أفسرها لأصدقائي برسالة. لقد كنت أنفق جهدي الحقيقي في كتابة الرسائل، وربما كان ذلك جيداً، وأنا أتذكر ذلك الآن، لأن ذلك يحافظ على سرعتي وطبيعية صوتي الحقيقيين. وفي الأيام الأولى، أدركت جيداً أهمية أن أستخدم صوتي الحقيقي. فقد كنت أديباً شاملاً، ولم أكن أتوانى عن استخدم أي أداة كنت اكتشفها، أي سجل، واتخذت لنفسي ألف موقف مختلف، وكنت دائماً أشعر بالاضطراب لكي أتمكّن من تقنية الخلق وأبرع فيها. الخبرة والحرفية، هما الكلمتان السحريتان اللتان كانتا تجعلاني أتابع مشواري. ولكي أحرز نصراً في عالم الخبرة التي أصبو إليها، كان يتعين عليّ أن أعيش ما لايقل عن مائة حياة. ولكي اكتسب التقنية والأسلوب المطلوبين، كان يجب عليّ أن أعيش حتى أبلغ من العمر مائة سنة، لا تقل يوماً واحداً.

وأذكر أن بعض أصدقائي الصدوقين كانوا في أغلب الأحيان

صريحين معي بقسوة شديدة، فعندما كنت أتكلم معهم، كنت دائماً أنا نفسي، أما عندما أكتب فلم أكن كذلك. كانوا يقولون «لماذا لا تكتب كما تتكلم؟». في البداية بدت لي الفكرة سخيفة. هذا في المقام الأول.

ولم أكن أعتبر نفسي متحدثاً بارعاً على الإطلاق، رغم إصرارهم على أني كنت كذلك. وفي المقام الثاني، كانت تبدو لي الكلمة المكتوبة أكثر بلاغة وفصاحة بكثير من الكلمة المنطوقة. فعندما تتحدث لا يمكنك أن تتوقف لتشذب عبارتك، لتبحث عن الكلمة الصحيحة، ولا يكون بوسعك أن تعود وتحذف كلمة، أو عبارة، أو فقرة كاملة. وأحسست بالمهانة عندما قالوا لي ذلك، أنا الذي كان يكافح من أجل إجادة الكلمة، فأنا عندما لم أكن أفكر بالكلمة كانت تخرج على نحو أفضل بكثير مما لو كنت أفكر فيها. ورغم أن هذه الفكرة كانت تنطوي على شيء من السم، إلا أنها أتت أكلها. ففي بعض الأحيان، وبعد أن أكون قد أمضيت أمسية بهيجة مع أصدقائي، وبعد أن أكون قد أفرغت كل ما في جعبتي، وجعلتهم يثملون بكلماتي، كنت أتسلل عائداً إلى البيت وأتذكر ما قلته بصمت. كانت الكلمات تنثال من فمي بترتيب مثالي وبتأثير صادق. لم يكن فيها استمرارية وشكل وذروة وخاتمة فحسب، بل كان فيها إيقاع، وقوة، وجزالة صوت، وهالة وسحر في الأداء أيضاً. وإذا تعثرت أو ترددت، كنت أمضي قُدماً، لأضاعف جهدي فيما بعد، فأزيل الكلمة الخاطئة، وأحذف العبارة السخيفة، وأضخّم الإحساس بالإيقاع المنتفخ من خلال التكرار والكناية والتلميح الخفي، بالمداورة وعلامات الحصر. كان الأمر أشبه بلعبة الحاوي: فالكلمات حيّة كالكرات، يمكن تذكرها، يمكن تطويعها، يمكن تغييرها إلى كرات أخرى، وهكذا. أو كان كالكتابة على لوح غير مرئي، يسمع المرء الكلمات ولكنه لا يراها. فهي لم تختف لأنها أصلاً لم تكن ظاهرة. وعند سماعها يشعر المرء بتقدير أكبر، بل بالمشاركة، كما لو أنه يشاهد لعبة خفّة يد. فذاكرة الأذن تعمل كما ذاكرة العين. فقد لايكون

بوسع المرء أن يتذكر خطبة طويلة بكاملها، حتى بعد ثلاث دقائق من إلقائها، لكن بإمكانه أن يكتشف ملاحظة خاطئة، تأكيداً خاطئاً.

كنت أتساءل في كثير من الأحيان، بعد أن اقرأ عن الأمسيات مع مالارميه، أو مع جويس، أو مع ماكس جاكوب، مثلاً، كيف لي أن أقارنها بالجلسات التي كنا نعقدها نحن. فمن المؤكد أنه ما من أحد من أصدقائي كان يحلم في تلك الأيام بأن يصبح شخصية ذات شأن في عالم الفن. فرغم أنهم كانوا يحبون التكلم عن الفن، جميع أنواع الفنون، لكن لم تخطر في خاطرهم أنهم سيصبحون فنانين هم أنفسهم. فقد كان معظمهم مهندسين، مهندسين معماريين، أطباء، صيادلة، معلمين، محامين. لكنهم كانوا جميعهم مفكرين ومتحمسين، وكانوا جميعهم أوفياء جداً، متحمسين جداً، حتى أني كنت أتساءل أحياناً، إن لم تكن الموسيقى التي كنا نعزفها نحن تجاري موسيقى الحجرة التي كانت تصدر عن الأوساط المقدسة من أؤلئك السادة. وبالتأكيد لم يكن ثمة شيء على الإطلاق ينم عن الغرور في هذه الجلسات. فكان الواحد منا يتحدث كما يحلو له، ينتقد بحرية، ولم يكن يبالي إن كان قوله هذا سيرضي «السيد».

لم يكن هناك سيد بيننا: كنا متساوين، وكان بإمكاننا أن نكون متسامين أو أغبياء، كما يحلو لنا. وكان الذي جمعنا معاً هو اللهفة المتبادلة للأشياء التي كنا نشعر أننا كنا محرومين منها. ولم يكن لدينا رغبة عارمة في إصلاح العالم. بل كنا نريد أن نثري أنفسنا، هذا كل ما في الأمر. ففي أوروبا، كان لمثل هذه التجمعات في الغالب خلفية سياسية أو ثقافية أو جمالية. وكان أفراد المجموعة يمارسون ذلك، مثلاً، للتأثير على أوساط الجماهير فيما بعد. لكننا لم نكن نفكر أبداً بالجماهير - إذ كنا جزءاً منها إلى حد كبير. فقد كنا نتحدث عن الموسيقى، عن الرسم والأدب لأنه إذا ما كان المرء ذكياً وحساساً، فسينتهي به المطاف بطبيعة الحال إلى عالم الفن. إذ لم نكن نلتقي لمناقشة مثل هذه الأمور، بل كانت الأمور تحدث هكذا، ببساطة.

ولعلي كنت الشخص الوحيد في تلك المجموعة الذي كان يأخذ نفسه مأخذ الجد. لذلك أصبحت ذلك الأبله المشاكس في بعض الأحيان. وكنت أتمنى في سريرتي أن أصلح العالم. كنت أحرّض في السر. كان هذا هو الفرق الذي كان يميزني عن باقي أصدقائي، مما كان يضفي جواً حماسياً على أمسياتنا. ففي كلّ جملة كنت أنطقها كان هناك دائماً مقدار ضئيل إضافي من الإخلاص، حبة أخرى من الحقيقة. كنت أستثيرهم ولم يحدث أبداً أن وافقني أحد على رأيي موافقة تامة. ومهما كنت أصوغ أفكاري، كانوا دائماً يعتبرون كل شيء أقوله خيالياً لا يمكن تحقيقه. وفي بعض الأحيان كانوا يعترفون بأنهم يحبون الاستماع إليّ وأنا أتكلم. وكنت أقول لهم «نعم، لكنكم لا تصغون أبداً». مما يجعلهم يضحكون ضحكة مكتومة. ثم يقول أحدهم: «أتعني أننا لا نتفق معك دائماً» لينطلق مزيد من الضحكات المكتومة. فأجيب «خراء! أنا لا أنتظر منكم أن تتفقوا معي دائماً... أريدكم أن تفكروا... أن تفكروا أنتم بأنفسكم. اسمعوا! اسمعوا! انظروا!»، كنت أقول لهم، وأنا أستعد لإلقاء خطبة طويلة أخرى أعنفهّم فيها، «انظروا...» فيقول أحدهم «هيا تابع! أفرغ مافي جعبتك!» وهنا أجلس، صامتاً، متجهماً، خامداً. «هيا يا هنري، لا تزعل. هاهو كأس مترع آخر. هيا، أفرغ ما يجيش في صدرك!»، وكنت أعرف ما يريدونه مني، ومع ذلك كنت أتمنى أن أتمكن من تغيير موقفهم بجهد غير عادي، عندها سأستسلم، أذوب، ثم أرميهم بوابل حقيقي. وكنت كلما ازددت تهوراً وصدقاً، ازدادت متعتهم. وعندما كنت أدرك أن اللعبة قد انتهت، أتحول إلى الأداء الهزلي. فأقول أيّ شيء يسنح في خاطري، وكلما كان ذلك غريباً كان أفضل. كنت أحقرّهم، إلا أن أحدهم لم يكن يعتبرها إهانة. كان الأمر أشبه بمقارعة خيالات. الملاكمة مع الظل مرة أخرى... (أشكّ بالطبع أن شيئاً من هذا القبيل قد يحدث في أحد شوارع روما).

وباتباع الخطة التي وضعتها لنفسي، كنت أكثر انشغالاً من أي

مدير تنفيذي في هذا العالم الصناعي. إذ كانت بعض المقالات التي اخترت كتابتها تتطلب أبحاثاً كثيرة، وهو أمر لم يكن يعتبر محنة بالنسبة لي أبداً، وذلك لأني كنت أحب الذهاب إلى المكتبة العامة، حيث كنت أطلب الكتب التي كان يصعب عليهم إيجادها. كم من الأيام والليالي الرائعة أمضيتها في مكتبة نيويورك العامة في الشارع الثاني والأربعين، أجلس إلى طاولة طويلة، بدا لي أنها واحدة من بين آلاف الطاولات، في غرفة المطالعة الرئيسية تلك. وكانت الطاولات ذاتها تثيرني. فقد كنت أرغب دائماً في أن أمتلك طاولة ذات أبعاد استثنائية، طاولة ضخمة لا يمكنني النوم عليها فحسب، بل كنت أرقص عليها أيضاً، بل حتى رحت أتزلج فوقها. (كان هناك كاتب، يكتب على طاولة كهذه، وكان يضعها في وسط غرفة فارغة ضخمة ـ مكان مثالي لكي أعمل فيه. وكان اسمه أندرييف، وغني عن القول، إنه كان أحد الأدباء الأثيرين لديّ).

نعم، كان ينتابني شعور رائع وأنا أعمل وسط الكثير من الطلاب الآخرين المجدين في غرفة بحجم كاتدرائية، تحت سقف عال كأنه تقليد للسماء ذاتها. وكنت أغادر المكتبة مذهولاً بعض الشيء، وفي أحيان كثيرة كان ينتابني شعور بالقداسة. وكنت دائماً أصاب بالصدمة عندما أغوص بين الناس في الجادة الخامسة والشارع الثاني والأربعين، إذ لم يكن هناك تواصل بين هذا الطريق الذي يعج بالحركة، وبين عالم الكتب الهادئ، المسالم. وكنت في أغلب الأحيان، وأنا أنتظر الكتب التي طلبتها حتى تخرج من أعماق المكتبة الغامضة، أتمشى في الممرات الخارجية، أتطلع إلى عناوين المراجع المدهشة التي كانت تغطي الجدران. وكان مجرد تصفح هذه الكتب كافياً ليجعل عقلي يعج بالأفكار لأيام عديدة. وفي بعض الأحيان كنت أجلس وأتأمل، وأتساءل في سريرتي ما السؤال الذي يمكنني أن أطرحه على ذلك العبقري الذي ترأس روح هذه المؤسسة العظيمة التي لا يمكنها أن تجيب. فلم يكن هناك موضوع تحت الشمس، على ما أظن، إلا وكتب عنه وكان قابعاً في تلك الأرشيفات.

وكانت شهيتي لالتهام الكتب تشدني من ناحية، وخوفي من أن أصبح دودة كتب تشدني من الطرف الآخر.

كنت أجد متعة أيضاً في القيام بجولة إلى لونغ آيلاند سيتي، ذلك الثقب الأكثر اكتئاباً، لأطّلع مباشرة على طريقة تصنيع العلكة. فهنا عالم من الجنون المطلق ـ يدعى عادة الكفاءة ـ ففي غرفة مليئة بمسحوق خانق ذي رائحة حلوة تثير الغثيان، كانت تعمل مئات من الفتيات البليدات كفراشات، وهن يعبئن قطعاً صغيرة منها في أغلفة. وقيل لي إن أصابعهن الرشيقة تعمل بدقة ومهارة أكبر بكثير مما تصنعه الآلة المخترعة حتى الآن. وجلت في أرجاء المصنع الضخم، بمرافقة مشرف، كلّ جناح ينفتح أمام مشهد يقدم قسماً آخر للجحيم.

همي الرئيسي كان أن أكتسب المعرفة والمهارة، أن أتمكن من إجادة الأسلوب، وأن أكتسب خبرة لا تنضب، لكن مثل وتر مهيمن آخر، كانت توجد دائماً في مؤخرة رأسي اهتزازات تعني النظام، الجمال، البساطة، المتعة، التقدير. وكنت عندما أقرأ رسائل فان كوخ أتماهى معه، وأسعى للعيش حياة بسيطة، حياة يعتبر الفن فيها كل شيء. انظر كيف يكتب بتوقد عن هذا الإخلاص للفن في رسائله التي كتبها في أرلز، المكان الذي يجب عليّ أن أزوره في وقت لاحق، رغم أني بعد أن أخذت أقرأ عنه الآن، لا أحلم حتى برؤيته. ومن أجل إضفاء طابع موسيقي أكثر على حياته ـ هكذا كان يقول. ومرة بعد أخرى كان يشير إلى الجمال الشديد، وإلى كرامة حياة الفنانين اليابانيين، يسلط الضوء على بساطتهم، يقينهم، وعفويتهم. إنها هذه الصفة اليابانية، هي التي أجدها في عشّ حبنا. إنه هذا الجمال البسيط العاري، هذه الرشاقة البالغة الرهافة، التي تعينني على الحياة وتريحني. وكنت أجد نفسي منجذباً إلى اليابان أكثر من انجذابي إلى الصين. قرأت عن تجربة ويسلر ووقوعه في غرام لوحاته. قرأت كلّ شيء كتبه أفكاديو هيرن عن اليابان،

وخاصة ما يقدمه عن قصصهم عن الجان، الحكايات التي تثير إعجابي حتى يومنا هذا أكثر من إعجابي بأيّ شعب آخر. وكانت الصور اليابانية تزيّن جدراني، بل كانت معلقة في الحمام أيضاً، حتى أنني كنت أضعها تحت زجاج طاولة المكتب التي أجلس إليها. وكنت أتوق لمعرفة شيء عن البوذية اليابانية زن، وعشقت فن المصارعة اليابانية «جوجيستو» الذي هو أرقى فنون الدفاع عن النفس، وأحببت الحدائق الصغيرة، الجسور والفوانيس، المعابد، جمال الطبيعة. وبعد أن قرأت *مدام كريسانثيروم* للكاتب لوتي، شعرت لأسابيع عديدة أني كنت أعيش حقاً في اليابان. وسافرت مع لوتي من اليابان إلى تركيا، ومنها إلى القدس. وأصبحت مفتوناً بكتابه *القدس*.

وكان نهمي وفضولي يجعلاني أمضي في جميع الاتجاهات في وقت واحد. فقد كنت أهتم وأستغرق في آن بالموسيقى الهندية (بعد أن تعرفت إلى ملحن هندي التقيت به في مطعم هندي)، بالباليه الروسية، بالحركة التعبيرية الألمانية، بمؤلفات سكريابن عن البيانو، بفنّ المعتوهين (بفضل برينزورن)، بالشطرنج الصيني، بمباريات الملاكمة والمصارعة، بمباريات الهوكي، بفن الهندسة المعمارية في القرون الوسطى، بالغموض الذي يكتنف العالم السفلي في مصر واليونان، برسوم الكهوف من عصر إنسان كروماجنون، بنقابات العمال في الأزمنة السابقة، بكلّ شيء يخص روسيا الجديدة، وما إلى هنالك، كنت أتنقل من شيء لآخر، من طبقة لأخرى، كما لو كنت أستخدم درجاً كهربائياً. لكن أليس بهذه الطريقة اكتسب فنانو عصر النهضة المعرفة، وحصلوا على المادة لإبداع مخلوقاتهم المدهشة؟ ألم يغبّوا من معين كلّ دروب الحياة في آن؟ ألم يكونوا لا يشبعون وكانوا يلتهمون كل شيء؟ ألم يكونوا رحالّة، صنّاعاً مهرة، وصعاليك، ومجرمين، ومحاربين، ومغامرين، وعلماء، ومستكشفين، وشعراء، وصبّاغين، وموسيقيين، ونحّاتين، ومهندسين معماريين، ومتعصّبين،

ومحبّين، كلّ منهم بطريقته؟ وكان من الطبيعي أن أقرأ تشيليني، الحيوات لفاساري، عن تاريخ محاكم التفتيش، عن حياة الباباوات، عن قصة عائلة ميدتشي، المسرحيات الإنجليزية والألمانية والإيطالية، عن السفاح، كتابات جي أدينجتون سيموندس، وجاكوب بكهاردت، وفنك برينتانو، وجميعها كانت عن عصر النهضة، لكني لم اقرأ أبداً ذلك الكتاب الصغير الطريف الذي كتبه بلزاك *Catherine de Medici*. وكان ثمة كتاب كنت أقرأه من حين لآخر، في لحظات السكينة والهدوء: كتاب والتر باتر عن عصر النهضة. وكنت قرأت مقاطع كثيرة منه بصوت عال إلى أولريك، مبدياً إعجابي باستخدام باتر الدقيق للغة. وقد كانت تلك الأمسيات مجيدة، وخاصة عندما نكون قد انتهينا من قراءة مقطع طويل، كنت أغلق الكتاب وأستمع إلى أولريك وهو يتحدث بمحبة عن الرسامين الذين كان يحبهم. فقد كان مجرد سماع أسمائهم ينقلني إلى حالة من النشوة: تاديو غادي، سيجنوريلي، فرا ليبو ليبي، بيرو ديلا فرانسيسكا، مانتيجنا، أوشيلو، سيمابو، بيرانيسي، فرا أنجيليكو، وآخرون. وكانت أسماء البلدات والمدن ذات سحر مماثل: رافينا، مانتوا، سينا، بيزا، بولونيا، تيبولو، فيرينز، ميلانو، تورينو. وهكذا ذات مساء، وفيما كنا نواصل مبارياتنا الاحتفالية عن عظمة إيطاليا في تلك البقالة الفرنسية الإيطالية، وكنا أنا وأولريك قد استغرقنا في الحديث، انضم إلينا فيما بعد هيمي وستيف روميرو، وفي هذه الحالة من السمو، كان إيطاليان اثنان جالسين على طرف الطاولة وقد توقفا عن التحدث مع بعضهما وراحا ينصتان فاغرين فميهما إعجاباً ونحن ننتقل بسرعة من شخصية إلى أخرى، من مدينة إلى أخرى. أما هيمي وروميرو، اللذان كانا يستمعان بمتعة بالغة إلى لغة، كانت أجنبية بالنسبة لهما، كما كانت بالنسبة للإيطاليين، فقد ظلا صامتين، قانعين بتجديد الكؤوس. وعندما أصابني الإعياء أخيراً، وهممت بدفع الحساب، راح الإيطاليان فجأة يصفقان ويصيحان «برافو! برافو! جميل جداً!». شعرنا بالحرج. واستدعت

الحالة جولة أخرى من الشراب. وانضم إلينا جو ولويس، وعرضا علينا مشروباً فاخراً. ثم انطلقنا في الغناء. وانتاب لويس السمين، نوبة بكاء من الفرح. وطلب إلينا متوسلاً أن نبقى مدة أطول، ووعدنا بإعداد طبق من العجة ممزوجة بمشروب الروم وقليل من الكافيار على الجانب. وفي غمرة ذلك، من يدخل سوى ذلك السنيغالي الاستثنائي، باتلينغ سيكي، الذي كان زبوناً أيضاً. كان منتشياً وسعيداً على نحو خطر. وأمتعنا ببعض ألعاب الخفة مستخدماً علبة ثقاب، وورق لعب، وصحوناً، وقصبات، ومناديل. كان مرحاً وساخطاً في الوقت ذاته. كان ثمة شيء يثير قلقه. واستخدم صاحبا المحل حذاقتهما ليحولا دون عبثه بالمحل وتحطيمه. وما فتئا يلحان عليه بالمشروبات، ويمسدان ظهره، ويداهناه بالإطراءات. فقد غنى ورقص، وحده، وكان يصفق لنفسه، يصفع فخذيه، يربت على أكتافنا - تربيتات صغيرة مرحة جعلتنا نهتز طرباً، وجعل رؤوسنا تدور. ثم، وبدون أي سبب على الإطلاق، انطلق بغتة بسرعة كبيرة وأوقع عدداً من علب البيرة بحماسه الطفولي. وعندما غادر المحل تنفسنا الصعداء. وجاءت العجة والكافيار، وقليل من السمك الأبيض أيضاً، وغسلنا كل ذلك بنبيذ أبيض ذهبي، تلاه قليلٌ من القهوة الممتازة السادة، ومشروب نادر آخر. وكان لويس في حالة من النشوة، ولم يتوقف عن القول «اشرب المزيد!». «لا يعزّ عليك شيء يا سيد ميلر». وكان جو يقول: «عندما تذهب إلى أوروبا، ياسيد ميلر؟ فلن تبقى هنا لمدة طويلة. آه، والله، سأعود أنا أيضاً ذات يوم!».

عدت أدراجي إلى البيت في سيارة أجرة، وكنت أغني كرجل واقع تحت تأثير مخدر. كان رأسي يدور، فجلست على الدرجات السفلية، ورحت أضحك مع نفسي، أصبت بالحازوقة، ورحت أتمتم وأدمدم بجنون، أخاطب الطيور، أتكلم مع قطط الشوارع، مع أعمدة الهاتف. وأخيراً رحت أصعد الدرجات ببطء، ولكني كنت أعود وأنزلق درجة أو درجتين إلى الأسفل، وأعاود الصعود ثانية، أترنح

من جانب إلى آخر. كنت في محنة حقيقية. ولم تكن مونا قد عادت بعد إلى البيت. ارتميت على السرير وأنا بكامل ملابسي وغططت في نوم عميق. وقبيل الفجر، أحسست بمونا تسحبني من فوق السرير. صحوت لأجد نفسي وسط بركة من القيء. فيو! يالها من رائحة كريهة! كان يجب إعادة ترتيب السرير، تنظيف الأرضية وخلع ملابسي. كنت ما أزال أترنح وأتمايل. كنت ما أزال أضحك بيني وبين نفسي، شعرت بالقرف لكني كنت سعيداً، شعرت بالندم لكني كنت مبتهجاً. وكان الوقوف تحت دوش الماء شيئاً رائعاً يتطلب مهارة استثنائية. وما أدهشني في كل هذا تقبل مونا اللطيف. فلم تصدر عنها ولا كلمة شكوى، بل كانت تتنقل كملاك حارس. والفكرة الممتعة الوحيدة التي ظلت تراودني، فيما كنت أستعد للنوم ثانية، هي أني لن أذهب إلى العمل عندما أستيقظ. لا داعي لمزيد من الأعذار. لا لمشاعر الندم أو الإثم. كنت حراً. يمكنني أن أنام كما يحلو لي. وسيكون هناك فطور جيد بانتظاري، وإن ظللت أترنح، فيمكنني أن أعود إلى السرير وأنام طوال اليوم. وما أن أغمضت عيني حتى حلمت بلويس السمين يقف أمام الموقد المشتعل، عيناه مبللتان بالدموع، قلبه يندلق في صحن العجة ذاك. كابري، سورينتو، أمالفي، فيسول، بايستوم، تاورمنا... فيونيكولي... وغيرلانداجو... وكامبو سانتو... يالها من بلاد! ياله من شعب! أراهن أنني سأذهب إلى هناك ذات يوم. لم لا؟ يعيش البابا! (لكن عليّ اللعنة إن رضيت أن أقبّل مؤخرته!).

أخذت عطل نهاية الأسبوع مساراً مختلفاً. زيارتي العادية لمود، نزهة في الحديقة معها ومع الطفلة، وربما زيارة إلى أحد العروض الراقصة، أو إصلاح طائرة ورقية، أو التجديف في قارب في البحيرة. دردشة، ثرثرة، أمور تافهة. وبدأ الأمر يبدو سخيفاً. فقد كانت تنفق النفقة التي كنت أحصل عليها بجهد كبير على أمور تافهة. أشياء عديمة القيمة في كل مكان. كلام فارغ عن إرسال الطفلة إلى مدرسة خاصة، فالمدرسة العامة لم تعد تصلح لأميرتنا

الصغيرة. دروس في البيانو، دروس في الرقص، دروس في الرسم. أسعار الزبدة، ثمن لحم الديك الرومي، السردين، المشمش. عروق دوالي ميلاني. ولاحظت أنه لم يعد هناك ببغاء. لم يعد هناك كلب البودل المحبوب، لا بسكويت للكلب، لا فونوغراف من ماركة أديسون. مزيد ومزيد من الأثاث يتكوّم، مزيد من علب الحلوى الفارغة الملقاة على أرضية الخزانة. وكنت عندما أهم بمغادرتها، كنا نتشاجر. مشاهد مخيفة. صراخ الطفلة وتعلقها بي، وتوسلاتها بأن أبقى وأنام مع الماما. وذات مرة كنا في الحديقة، كنت جالساً على ربوة جميلة مع الطفلة، أراقبها تطيّر الطائرة الورقية التي اشتريتها لها، وجاءت مود في هذه الأثناء دون توقع، وبغتة اتجهت الطفلة نحوي، ووضعت ذراعيها حول رقبتي، وراحت تقبلّني برقة، وتدعوني بابا، بابا العزيز، وما إلى ذلك. ورغم كل الجهود التي بذلتها، انفلتت منها شهقة، ثم تبعتها شهقة أخرى وأخرى مع فيض من الدموع تكفي لإغراق حصان. ترنحت واقفاً على قدميّ، والطفلة ما تزال معلقة برقبتي لأنقذ حياتها الغالية، وأخذت أتطلع حولي بحثاً عن مود. وأخذ الناس يحدقون بي مذعورين وهم يواصلون سيرهم. حزن، حزن، حزن لا يطاق. كل ذلك لأنه لم يكن حولي سوى الجمال، النظام، والطمأنينة. وكان الأطفال الآخرون يلعبون مع أبائهم. كانوا سعيدين، متألقين، تغمرهم البهجة. أما نحن فقط، فكنا تعيسين، منعزلين، منعزلين إلى الأبد. وفي كل أسبوع كانت الطفلة تكبر، وتفهم الأمور أكثر، وبدأت تصبح أكثر حساسية، ينتابها إحساس أكثر بالتأنيب لصمتها. كان من الإجرام أن نعيش هكذا. ولو كنا في ظل نظام آخر، لربما واصلنا العيش معاً، جميعنا، مونا، ومود، والطفلة، وميلاني، والكلاب، والقطط، والمظلات، كل شيء. على الأقل هكذا فكرت في لحظات من اليأس. فأي شيء أفضل من لقاءات لم الشمل هذه التي تقطع القلوب حزناً. كنا جميعاً مجروحين، ممزقين، مونا كما هو حال مود. وكانت كلما وجدت مونا صعوبة

في تحصيل مبلغ النفقة الأسبوعية، شعرت بذنب أكبر تجاهها، هي التي كان يقع على عاتقها القيام بذلك. ما نفع أن أعيش حياة كاتب، إذا كانت هذه الحياة تتطلب مثل هذه التضحيات؟ ما نفع أن أعيش حياة هانئة مع مونا إذا كانت طفلتي التي هي من لحمي ودمي تعيش في عذاب؟ في الليل، سواء كنت مستيقظاً أم أحلم، كنت أشعر بذراعيّ الطفلة الصغيرة تطوقاني، تشداني إليها، تجراني نحو البيت. وفي أحيان كثيرة، كنت أبكي في نومي، أتأوه وأنشج، أتذكر هذه المشاهد الأليمة. وكانت مونا تقول لي: «كنت تبكي في نومك ليلة أمس»، فأقول: «هل كنت أبكي؟ لا أتذكر». كانت تعرف أني أكذب. كانت تشعر أن وجودها وحده لم يكن يكفي لإدخال السعادة إلى نفسي، بل كان يجعلها بائسة. وفي الغالب كنت أحتجّ، رغم أنها لم تكن تقول ولا كلمة واحدة وأقول: «إني في غاية السعادة، ألا ترين ذلك؟» فتلوذ بالصمت. صمت مشحون. ثم أضيف: «إنك لا تظنين أني قلق بشأن الطفلة، أليس كذلك؟»، فتجيب: «إنك لم تذهب لزيارتهما منذ أسابيع عديدة، هل تعرف ذلك؟» كان ذلك صحيحاً. فقد بدأت أتفادى الزيارات الأسبوعية المنتظمة، وأخذت أرسل النقود بالبريد أو بوساطة ساع. «أظن انه يجب أن تذهب لزيارتهما هذا الأسبوع يافال، فهي قبل كل شيء طفلتك»، فأرد قائلاً: «أعرف، أعرف، نعم، سأذهب». ثم تنطلق من فمي آهة تتبعها آهة أخرى عندما أسمعها تقول: «لقد اشتريت شيئاً للصغيرة لتأخذه لها». لماذا لم أشتر أنا شيئاً؟ ففي أحيان كثيرة، كنت أقف وأتطلع في واجهات المحلات، وأختار في سريرتي كل الأشياء التي أودّ أن أشتريها، لا للطفلة فحسب، بل لمونا وميلاني، وحتى لمود أيضاً. لكني لم أكن أرى أنه يحق لي أن أشتري أشياء وأنا لا أكسب شيئاً بنفسي. إذ لم يكن المال الذي كانت تكسبه مونا من المسرح يكفي لسد حاجاتنا. فقد كان يتناقص أسبوعاً بعد أسبوع. وكانت في بعض الأحيان تعود إلى المنزل محملة بالهدايا الرائعة لي، بعد لمسة غير عادية، كما أظن.

وكنت أرجوها ألا تشتري لي شيئاً. كنت أقول «لديّ كل شيء». وكان ذلك صحيحاً. (ماعدا الدراجة والبيانو، فقد نسيتهما بشكل أو بآخر). لقد تراكمت الأشياء بهذه السرعة، وحتى لو حصلت عليها، فإني أشكّ بأني سأستعملها. لقد كان من الأفضل أن تهديني أورغن يعزف بالفم وزوج من الزلاجات...

كانت تدهمني أحياناً نوبات غريبة من الحنين. إذ كنت في بعض الأحيان أستيقظ وأشعر بدوار بسبب حلم رأيته، فأقول إنه لابد لي أن أنعش بعض الذكريات المعششة في ذاكرتي، بدءاً من ذلك الرجل البدين الذي يشبه الحوض والذي كنت أدعوه «العم شارلي» الذي كان يجلسني على حضنه ويمتعني برواية قصص عن مآثره في الحرب الإسبانية الأمريكية. وكان ذلك يعني القيام برحلة طويلة بالعربة ثم بالتروللي، إلى بقعة صغيرة تدعى غليندال، حيث كان يعيش جويي وطوني في تلك الأيام. (وكان العم شارلي عمهما، وليس عمي). وبعد كل هذه السنوات التي مضت، كان مايزال يغلف تلك القرية الصغيرة الناعسة ذلك الهواء العليل الذي كان يجذبني. وكانت البيوت التي أقام فيها صديقاي الصغيران ما تزال قائمة، ومن حسن الحظ، لم تدخل عليها تغييرات كثيرة. فقد كانت الحانة والزرائب التابعة لها، حيث كان الأصدقاء والأقارب يلتقون في أمسيات الصيف، ما تزال موجودة أيضاً. وأذكر كيف كنت أجري من طاولة إلى أخرى وأنا طفل صغير جداً، أغبّ ما تبقى من أقداح البيرة، أو أجمع البنسات والدايمات من الرواد المنتشين المترنحين. وحتى الأغاني الألمانية العاطفية، التي كانوا يرددونها برئات فولاذية، مايزال صداها يرن في أذني Lauderbach, lauderbach, hab' ich mein Strumpf verlor'n. وأراهم وقد استعادوا وعيهم فجأة، وارتسمت على وجوههم الآن ملامح جدية، وقد تحلقوا في تلك القاعة المربعة المجوفة، مثل فلول كتيبة أنيقة، رجال ونساء وأطفال، يقفون كتفا لكتف، وجميعهم

أعضاء في *Kunst Verin* (نواة سلالة ساينجيربند العظيم)، ينتظرون بوجل سماع رنين الشوكة التي سيطلقها زعيمهم. وكالمحاربين المخلصين الرابضين عند حدود أرض أجْنبية، كانت صدورهم مشدودة إلى الأمام، وعيونهم لامعة ومبللة، يرفعون عقيرتهم في جوقة سماوية، يرتلون بعمق بعض الأغاني الألمانية القديمة التي تهز أعماق أرواحهم... وأرى الآن الكنيسة الكاثوليكية الصغيرة التي قام السيد إموف، والد طوني وجويي (أول فنان أراه بلحمه ودمه) بزخرفة نوافذها الزجاجية الملونة، وأنظر إلى اللوحات الجصّية المرسومة على جدرانها وسقفها، والمنبر المنقوش. ورغم أن أولاده كانوا يخشونه، ورغم صرامته، فقد كنت أشعر دائماً بانجذاب شديد نحو هذا الرجل المتجهم. وعندما كان يحين وقت النوم، كان يطلب منا دائماً أن نصعد إليه في غرفة مكتبه في العلية تحت السقف لنقول له طابت ليلتك. وكنت أراه دائماً جالساً إلى طاولته، يرسم بالألوان المائية. وهناك كان مصباح يلقي ضوءاً خافتاً على طاولته، ويترك باقي الغرفة غارقاً في ظلام حالك. وكان يبدو عندها في غاية الجد والود، ذاهلاً، ومستغرقاً. وكنت أتساءل ماالذي يدفعه للسهر ساعات طويلة من الليل لا يبرح الطاولة التي يعمل عليها. والأهم من كل ذلك، أذكر أنه كان مختلفاً: كان من طينة أخرى... مايزال يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. وأرى نفسي الآن على خط السكة الحديدية، نلعب في الوادي: أرض محايدة تقع بين حافة القرية والمقابر على الطرف الآخر من خط السكة الحديدية. وفي مكان قريب من هنا كانت تعيش إحدى قريباتي التي كنت أدعوها تانت جروسي. وهي صبية باهرة الجمال، ذات عينين رماديتين واسعتين، وشعر أسود منسدل، ورغم أني كنت مجرد طفل، فقد كنت أحس أنها امرأة غير عادية. إذ لا يذكر أحد قط أنها رفعت صوتها غاضبة، ولم يسمعها أحد تتفوه بكلمة نابية، ولم يطلب منها أحد مساعدة إلا ولبت طلبه. وكان صوتها رخيماً ناعماً، تغني وهي تعزف على الغيتار. وفي بعض الأحيان، كانت ترتدي ثياباً تنكرية وترقص على أنغام الطبلة، وتلوح بمروحة يابانية طويلة. وتبين أن

زوجها كان سكيراً، وقيل إنه كان يوسعها ضرباً. إلا أن تانت جروسي أصبحت أكثر جمالاً وحلاوة وأكثر شفقة ولطفاً، وازدادت سحراً ورقة. وبعد فترة من الزمن، أشيع أنها أصبحت شديدة التدين ـ وكان يقال ذلك همساً، وكأنهم يلمحون إلى أنها أصيبت بمس من الجنون. وكانت تراودني رغبة جامحة في أن أراها مرة أخرى. ورحت أبحث عن منزلها إلا أنه يبدو أن لا أحد يعرف شيئاً عنها. وأُلمح إلى أنها قد تكون أودعت مستشفى المجانين... أفكار غريبة، ذكريات غريبة، وأنا أسير حول قرية غلين دايل الناعسة. لقد كنت أحب تانت جروسي المحبوبة، القديسة، الورعة، وذلك الحوض اللحمي الحسي البشوش الذي كنت أدعوه العم شارلي. فأحدهما لا يتكلم إلا عن تعذيب الإجوروتيس وقتلهم، وملاحقة الأجوينالدو وتعقبهم في جبال الفليبين ومستنقعاتها. في حين قلما تكلمت الأخرى، كانت مجرد وجود، إلهة في مظهر دنيوي اختارت أن تبقى معنا وتنير حياتنا من خلال الألق القدسي الذي كانت تنشره من حولها.

فعندما ذهب شارلي إلى الفليبين برتبة نائب عريف، كان حجمه طبيعياً. وعندما عاد برتبة رقيب بعد ثماني سنوات، كان وزنه يزيد على مئتي كيلو غرام، وكان دائم التعرق. وأتذكّر بوضوح الهدية التي قدمها لي ذات يوم ـ ست طلقات من الدمدم وضعها في كيس كتاني أزرق. وقال إنه استولى عليها من أحد رجال أجوينالدو، لأنه كان متهماً بحيازة هذه الطلقات (التي زود الألمان بها الفلبينين) وأعدموا الثائر وعلقوا رأسه على عمود. هذه القصص، وحكايا تقشعر لها الأبدان عن «العلاج بالماء» التي كان يمارسها جنودنا على الفلبينيين، جعلتني أتعاطف مع أجوينالدو. كنت أصلّي كل ليلة بألّا يتمكن الأمريكان من أسره. ودون قصد منه جعل العم شارلي منه بطلاً في عينيّ.

وفيما كنت أتذكر أجوينالدو، تذكرت فجأة عيد الاستقلال،

عندما كنت أرتدي أفضل بدلة لدي من صنع لورد فونتليروي، واصطحبوني في الصباح الباكر إلى منزل جميل ذي أحجار بنية في بيدفورد أفنيو، حيث رحنا نشاهد «الاستعراض» من إحدى الشرفات. وكانت أول كتيبة من أبطالنا قد عادت لتوها من الفلبين. وكان تيدي روزفلت يسير «في المقدمة». والحماس على أشده في ذلك اليوم. إذ راح الناس يهتفون ويهللون، وبدت الشوارع مزدانة بالأعلام وكنت تسمع قرع الطبول في كل مكان، وكانت الأزهار تتساقط من النوافذ. وكان الناس يقبلون بعضهم بعضاً، ويصيحون هليلويا. أمضيت وقتاً رائعاً، لكنه كان مشوشاً بعض الشيء بالنسبة لي. لم أعرف سبب تلك العواطف الجياشة. وأعرف أن ما أثار إعجابي هو الزي الرسمي والأحصنة. وأذكر أنه زارنا في بيتنا في ذلك المساء ضابط من سلاح الفرسان ورجل من سلاح المدفعية لتناول طعام العشاء. كانت تلك بداية رومانسية لعمتيّ الاثنتين. غير أن جدي، الذي كان يكره العسكر، لم يكن يقبل أن يصبحا صهرين له. وما أزال أذكر ازدراءه واحتقاره للحملة الأمريكية على الفلبين. وكان يقول متذمراً إنها مجرد مناوشة «كانت يجب أن تنتهي في ثلاثين يوماً». ثم يبدأ في الحديث عن بسمارك وفون مولتك، وعن معركة واترلو وحصار أوسترليتز. فقد جاء إلى أمريكا في أيام حربنا الأهلية. هكذا هي الحرب، كان يقول. أما قتل أناس عاجزين بوحشية، فيمكن لأي شخص أن يفعل ذلك. ومع ذلك كان مرغماً على شرب نخب الأميرال ديوي، بطل خليج مانيلا. «إنك أمريكي الآن»، قال أحدهم. «وأنا أمريكي جيد»، وما أزال أسمع جدي يقول: «لكن هذا لا يعني أني أحب أن أقتل الناس. هيا اخلع البدلة الرسمية، وعد إلى العمل!»».

كان جدي هذا، فالانتاين نيتينج، رجلاً يحظى باحترام وإعجاب الجميع. وكان قد أمضى عشر سنوات في لندن يعمل خياطاً برع في مهنته، وكان يتكلم بلهجة إنكليزية جميلة، وكان يتحدث دائماً بشغف

عن الإنكليز. كان يقول إنهم شعب متحضر. ويتبع طوال حياته الطريقة الإنجليزية في التعامل. وكان صديقه، الذي كان يلتقي به في ليالي السبت في إحدى الحانات على الجادة الثانية، التي كان يديرها العم بول، رجلاً نحيلاً متقداً يدعى السيد كرو، وهو رجل إنجليزي من برمنغهام. لم يكن أحد في عائلتنا يحب السيد كرو، إلا جدنا، لأنه كان اشتراكياً. وكان أيضاً يدأب على إلقاء خطب مشحونة بالحقد. وكان جدي، الذي يعود بذاكرته إلى أيام عام 1948، يجد متعة كبيرة في الاستماع إلى هذه الخطب ويصفق لها إعجاباً. إذ كان كذلك يكره «أرباب العمل» وكان بالطبع يكره الجيش. ومن الغريب، عندما أتذكر تلك الأيام، كيف كانت كلمة اشتراكية تزرع الرعب في تلك الأيام. ولم يكن من الممكن لأحد في عائلتنا أن يقيم علاقة مع شخص يدعو نفسه اشتراكياً. فقد كان ذلك أسوأ من كاثوليكي أو يهودي. كانت أمريكا بلاداً حرة، أرض الفرص، وكان على المرء أن ينجح ويصبح غنياً. وسرعان ما أصبح أبي، الذي كان لا يطيق رئيسه والذي كان يدعوه دائماً «الإنكليزي اللعين»، معلم خياط هو نفسه. وكان على جدي أن يقبل العمل لدى أبي. إلا أنه لم يفقد قط تلك الكرامة، تلك الثقة والنزاهة اللتين كانتا تجعلانه دائماً أرفع من أبي. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح جميع «الخياطين المعلمين» فقراء، وأرغموا على الشراكة لكي يتقاسموا المصاريف التي لم يعودوا قادرين على تحملها وحدهم، وأبقوا مجموعة صغيرة من العمال. وكانت أجور العمال: عامل تفصيل الملابس، مساعد الخياط، خياط المعاطف، خياط السراويل، في ارتفاع مستمر، وأصبح أجرهم الأسبوعي يتجاوز حصة المعلم نفسه. وفي نهاية الأمر ـ الفصل الأخير من هذه الدراما ـ أصبح هؤلاء العمال الصغار، وجميعهم من الأجانب، ممن كان ينظر إليهم عادة نظرة احتقار واستخفاف، لكنهم كانوا أيضاً موضع حسد في بعض الأحيان، يقرضون معلميهم مالاً لكي تستمر أعمالهم. ولعل كل هذا كان نتيجة تلك المذاهب الاشتراكية الخبيثة التي كان يرعاها

مشاغبون من أمثال السيد كرو. وربما لا. ربما كان هناك شيء مشؤوم وفاجع يكمن في مذهب ولينغ فورد «الذي أصبح غنياً بسرعة» ابتلي به شباب جيلي.

توفي جدي قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وخلّف عقاراً كبيراً، كما فعل اللاجئون الآخرون في ذلك الحي القديم، الذين أتوا جميعهم إلى أمريكا في وقت واحد ومن كل أصقاع أوروبا. فقد حققوا في هذه الأرض المجيدة للأحرار نتائج أكثر بكثير مما حققه أبناؤهم وبناتهم. كانوا قد انطلقوا من الصفر، مثل صبي الجزار ذاك الذي قدم من ألمانيا، ويحمل اسمي ذاته، هنري ميلر «ملك الماشية» الذي أصبح يمتلك جزءاً ضخماً من كاليفورنيا. صحيح ربما كانت هناك فرص أكبر في تلك الأيام، إلا أن هؤلاء الرجال كانوا من معدن أقوى، إذ كانوا أكثر مثابرة ودأباً وتنظيماً. فقد بدؤوا في مهن متواضعة ـ جزار، نجار، خياط، صانع أحذية ـ والمال الذي حصلوا عليه، كسبوه بعرق جبينهم. وعاشوا دائماً حياة متواضعة، ومريحة تماماً، رغم عدم توافر جميع أسباب الراحة وقتئذ، إذ أصبح الآن لاغنى عن جميع الأدوات التي توفر اليد العاملة. تذكرت المرحاض في بيت جدي. في البداية، كان مجرد مرحاض خارجي في الباحة، ثم بنى مكاناً صغيراً مغلقاً في الطابق العلوي. إلا أنه حتى بعد أن دخل الغاز إلى البيوت، لم تكن توجد إضاءة في ذلك المرحاض ماعدا شمعة رفيعة صغيرة تطفو فوق طبقة من الزيت الحلو. ولم يكن جدي يرى أنه من المهم أن يكون هناك ضوء غاز في المرحاض. فقد كان أطفاله يأكلون ويلبسون جيداً. وكان يأخذهم إلى المسرح من حين لآخر، ويصحبهم في رحلات ونزهات ـ أشياء رائعة! وكانوا يرافقونه في الغناء عندما يصحبونه لزيارة أصدقائه. كانت حياة صحية وبسيطة وبعيدة عن الملل. وفي الشتاء، عندما كان الثلج يهطل، ويكسو الجليد الأرض، كان يأخذهم أحيانا لركوب مركبة جليد مفتوحة يجرها حصان. وكان هو نفسه يذهب في بعض الأحيان لممارسة رياضة التزلج. وفي الصيف كانت هناك

الرحلات التي لا تنسى، نزهات بالقارب، إلى أماكن عديدة مثل جزيرة غلين أو نيو روتشيل. لا يمكنني أن أذكر شيئاً يُقدم للطفل اليوم يمكن أن يضاهي تلك النزهات. ولا يمكنني أن أظن أن هناك شيئاً قد يضاهي المهرجانات السحرية التي كانت تقام في جزيرة غلين. والشيء الوحيد الذي يقاربها هو الجو الذي تضفيه بعض لوحات رينوار وسيورات. هنا تشع تلك البيئة الذهبية، ذلك المرح والنضج، البذخ، الثراء الجسدي الذي يميز النعاس، التثاؤب، فترة الكسل التي تفصل بين نهاية الحرب الفرنسية البروسية وبين اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومما لاشك فيه، فقد كانت فترة ظهور البرجوازية، المصابة بعيب نظام نتن، إلا أن الرجال الذين كانوا يمثلونها، الرجال الذين مجدوها بالكلمة واللون، لم يكونوا ملوثين. فلا يمكنني أبداً أن أعتبر جدي ملوثاً، ولا يمكنني أن أعتبر رينوار وسيورات ملوثين كذلك. وأظن أن جدي كان في أسلوب حياته، على صلة بسيورات ورينوار أكثر بكثير من علاقتهما بأسلوب الحياة الأمريكية الجديدة التي أخذت تنمو. وأظن أنه كان سيفهم هؤلاء الرجال وفنهم، لو أتيح له ذلك. أما أبوايّ فلا. ولا حتى الصبية الذين كبرت وترعرعت معهم في الشارع.

أهذي، أصبح مهووساً بالذكريات القديمة. هكذا كان يسرح عقلي وتستحوذ عليّ الهواجس القديمة. فلا عجب أن تلك الأيام كانت مليئة ولذيذة. أنطلق إلى غليندال، وينتهي بي المطاف في «الحيّ القديم». لا أستطيع أن أقاوم الرغبة في عدم السير بالقرب من منزل الآباء القديم مرة أخرى. ألا أحلم بزيارة أقربائي، الذين كانوا مايزالون يعيشون هناك. على الجانب الآخر من الشارع، أقف ـ وأتطلع إلى الطابق الثالث حيث كنا نقيم ذات يوم، أحاول أن أعيد رسم صورة العالم الذي عرفته وأنا صبي في الخامسة أو السادسة من العمر. تلك النافذة الأمامية، حيث كنت أجلس، سترافقني إلى المجهول، ستؤطر الذكريات التي سأعيشها ثانية وأنا أنتظر أن أولد في جسد جديد. أتذكر الرعب والفزع اللذين كانا يتملكاني عندما

كانت أمي ترغمني أولاً على تنظيف النوافذ، وأنا جالس على حافة النافذة، وجسمي متدلٍ إلى الخارج، ثلاثة طوابق تفصلني عن الرصيف ـ ارتفاع هائل بالنسبة لطفل في السابعة أو الثامنة من العمر ـ ركبتاي تتشبثان بقوة بحافة النافذة تمسكاً بالحياة الغالية. والنافذة تجثم على ساقيّ ثقيلة ثقل الرصاص. أخشى أن أرفع النافذة، أخاف أن تفلت مني. وكانت أمي تصرّ على أنه ما تزال توجد بعض البقع يجب عليّ تنظيفها. (عندما كبرت، كانت أمي تروي لي كيف كنت أحب أن أنظف النوافذ من أجلها، أو كيف كنت أحب أن أعلق المظلات. كيف كنت أحب هذا، كيف كنت أحب ذاك... كلها أكاذيب ملعونة!).

أقف هناك تغمرني أحلام يقظة عميقة، أتساءل بيني وبين نفسي ربما لم أكن جباناً (مخنثاً) في تلك الأيام. فلم يكن هناك ولد في الحارة يرتدي ثياباً أفضل من ثيابي. لم يكن سلوك أحدهم أفضل من سلوكي. لم يكن أحد أكثر حذراً وذكاء مني. فقد حصدت جميع الجوائز، وحظيت بتصفيق الجميع. وكانوا واثقين من أني كنت أعرف كيف أتدبر أموري، ولم يكن يخطر ببال أبويّ أن رفاقي في اللعب كانوا غارقين حتى آذانهم في الآثام والرذيلة. حتى الأم الأكثر ولعاً وحباً، كان يجب أن تكتشف مقومات المجرم في جوني لودلو الصغير. حتى الأب الأكثر إهمالاً، كان يجب أن يعرف أن إلفي بيتشا الصغير كان أحد أفراد عصابة وشريراً. أما أنا، مفخرة مدرسة يوم الأحد، فقد كنت دائماً أختار أصحابي المرحين، وهم عادة أكثر أولاد الحي سوءاً. ألم تكن أمي العزيزة تدرك ذلك؟ فقد كان بوسعي أن أردد المحفوظات التي تعلمتها عن ظهر قلب من النهاية إلى البداية، كنت ذلك القرد الصغير الذكي، وكان لدي أيضاً، عندما أكون مع رفاقي، لسان يمكن أن تنهال منه مثل هذه البذاءات والشتائم التي يستحق أن يعلق صاحبها على حبل المشنقة. وكان الأولاد الأكبر سناً هم الذين علمونا. كنا دائماً نتسكع، ننصت إليهم وهم يتشاجرون ويختلفون. لم يكونوا أكبر منا سناً بكثير، عندما أتذكر

ذلك. بل كانوا في الغالب في الثانية عشرة من العمر. وكانوا دوماً يلهجون بكلمات مثل قحبة، شرموطة، لاعق القضيب، خراء، منيوك، وما إلى هنالك من كلمات. وعندما كنا نحن الصبية الأصغر سناً نستخدم هذه الكلمات، كانوا يضحكون بملء أشداقهم. وذات يوم، إذ كنت منتشياً ببعض الكلمات الجديدة التي التقطتها منهم، أذكر أني اقتربت من فتاة في الخامسة عشرة من العمر أو ما قارب ذلك، ورحت أقذفها بأشنع الشتائم والكلمات البذيئة. وعندما أمسكت بي لتصفعني، رحت أشتمها. ولعلي ضربت يدها أيضاً، وركلتها على ساقها. على أي حال، أذكر أنها استشاطت غضباً لشعورها بالمهانة. «سألقنك درساً لن تنساه، أيها الشقي» قالت وشدتني من أذني إلى مخفر الشرطة عند ناصية الشارع. وقادتني ونحن نرتقي الدرجات الكبيرة، فُتح الباب، ودفعتني إلى وسط الغرفة. وقفت هناك أمام الطاولة التي يجلس وراءها الرقيب، لا يكاد يظهر منه فوق الطاولة إلا رأسه.

«ماذا يعني ذلك؟»، أفزعني صوته الأجش الذي انطلق كالرعد.

«قل له، قل له ماذا قلت لي!» أمرتني الفتاة.

انتابني الهلع ولم أعد أستطيع أن أفتح فمي. كنت ألهث.

«هكذا إذاً»، قال العريف، ورفع حاجبيه السوداوين الكثيفين وراح يحملق بي مهدداً. «إنه يتلفظ بكلمات نابية، أليس كذلك؟».

«نعم، يا سيدي»، قالت الفتاة.

«حسناً، سنرى». قال ونهض عن عرشه وهمّ بالنزول من فوق المصطبة.

بدأت أنشج، ثم أجهشت بالبكاء.

«إنه حقاً ولد جيد»، قالت الفتاة، واتجهت نحوي وراحت تربت على رأسي بعطف. «اسمه هنري ميلر».

قال الرقيب: «هنري ميلر؟ آه، إني أعرف أباه وجده. لاتقصدين أن تقولي لي إن هذا الغلام الصغير يتفوه بكلام بذيء؟» ونزل من مكانه العالي، ومال نحوي، وأمسك يدي وقال: «هنري ميلر، أنا مندهش من تصرفك. لماذا...».

(كان لذكر اسمي في هذا المكان العام، في مخفر الشرطة من بين كل الأماكن، تأثير قوي عليّ. فقد اعتبرت نفسي مجرماً، ورحت أرى اسمي يذاع في أنحاء الشارع، ويطبع بعناوين بارزة على طول خمسة أقدام. ارتجفت عندما تذكرت ما سيقوله أبوايّ عندما أصل إلى البيت، وحدست أن الأخبار ستسبقني. لعل الرقيب أرسل شخصاً ليخبر أمي بمحنتي. ربما ستأتي لتخرجني بكفالة. ومع هذه المخاوف ونذر الشؤم كان هناك شيء من الشعور بالاعتداد بنفسي، أيضاً، وأنا أسمع صدى اسمي يرن في مخفر الشرطة الفارغ ذاك. لقد أصبح لي مكانة الآن. إذ لم يسبق لأحد أن دعاني باسمي الكامل. فقد كنت دائماً هنري فقط. أما الآن فقد أصبحت هنري ميلر، شخصية بارزة. يدون الشرطي اسمي في السجل الكبير. سيكون لديهم سجل عني... لقد كبرت عشر سنوات مرة واحدة في تلك اللحظة الرهيبة).

وما هي إلا لحظات قليلة، حتى كنت أسير في الشارع سالماً. إذ أطلقت الفتاة سراحي بعد أن وعدتها بألا ألفظ مثل هذه الكلمات النابية مرة أخرى، غمرني إحساس بالبطولة. أحسست أن كل ذلك كان مجرد لعبة، وأنه لم يكن في نية أحد أن يحاكمني، أو حتى أن يبلغ أبويّ. شعرت بالخجل من نفسي لأني بكيت بجبن أمام الرقيب. وبما أنه كان صديقاً لأبي وجدي، فهذا يعني أنه لن يؤذيني أحد. وبدلاً من أن أعتبره شخصاً يبث الخوف فيّ، بدأت أنظر إليه كمدافع عني وحليفي السري. وسررت لأن تكون عائلتي على علاقة طيبة بالشرطة، ولعلها كانت على علاقة حميمية معهم. في ذلك الزمان والمكان نشأ في داخلي إحساس بالازدراء للسلطات التي...

قبل أن أتخلص من هذه الهواجس القديمة، كان عليّ أن أنسلّ من القاعة وأخرج إلى الباحة الخلفية حيث كان يوجد المرحاض الخارجي ذات مرة. وعلى الطرف، حيث كان يوجد منزل قديم، رُسم على السياج بطلاء وقطران أسود صورة امرأة تقود جرواً. وقد مُحيت تقريباً الآن. لقد لازمتني هذه القطعة الخام من الفنّ كطفل. كانت لوحتي الخاصة عن القبر المصري. (والغريب أني عندما بدأت الرسم فيما بعد، رحت أرسم أشكالاً كانت تذكرني غالباً بهذا الرسم الفاضح. وبشكل غريزي، راحت يدي تتلمس تلك الخطوط الجامدة).

أعود إلى الشارع الآن، وأرفع عيني تلقائياً، كما لو أني سألقي التحية على السيدة أوميليو، التي كانت تؤوي جميع القطط الضالة في الحي فوق سطح منزلها. وكان لديها أكثر من مائة قطة تطعمها مرتين في اليوم. كانت تعيش وحيدة، وكانت أمي تلمح دائماً إلى أنها لابد أن يكون في عقلها لوثة. فقد كانت هذه الرعاية الهائلة للقطط خارج تصور أمي ومداركها.

أسير ببطء جنوباً لأستقل عربة الترولِّي التي تعبر المدينة في طريقي إلى البيت. جميع واجهات المخازن غنية بالذكريات. بعد خمس وعشرين سنة، رغم كل التغييرات التي طرأت، ورغم كل أعمال الهدم، كانت البيوت القديمة ما تزال قائمة. باهتة، سيئة الصيانة، متداعية، كالأسنان القديمة القوية التي صمدت وما تزال تقوم بعملها. لقد اختفى البريق الذي كان يحركها ذات يوم، الألق الذي بثته ذات مرة. وفي الصيف كانت تعبق منها رائحة خاصة، كانت في واقع الأمر تتعرق كالبشر. وكان المالكون يشعرون بالفخر لأنهم حافظوا على بيوتهم أنيقة ومرتّبة بوهج طلاء جديد، وكان الظل العميق الذي يخيم تحت المظلات، انعكاساً لأرواحهم المتواضعة. وكانت بيوت الأطباء، التي تفوق قليلاً البيوت الأخرى، تشي دائماً بنوع من المباهاة والتظاهر. وفي الصيف كان المرء يدخل عيادة الطبيب من خلال ستائر مصنوعة من الخرز، التي تحدث خشخشة

عندما يحف بها أحدهم. وكان يبدو أن الطبيب يقدّر الفن ويتذوقه. وكانت تُعلق على الجدران لوحات زيتية داكنة في أطر ذهبية ثقيلة. وكان موضوع هذه اللوحات يبدو غريباً بالنسبة لي. إذ لم تكن توجد لوحات مثلها على جدران منزلنا. بل كنا نشتري صوراً رخيصة لامعة من باعة الرصيف في أيام العطلة، كنا ننظر إليها كل يوم وننساها على الفور. (وكلما شعرت أمي أنها مضطرة لتقديم شيء إلى أحد الجيران الفقراء، كانت تختار دائماً صورة معلقة على الحائط. وكانت تدمدم «الحمد لله لقد تخلصنا من هذه الصورة». وكنت أحياناً أجري نحوها وأعطيها شيئاً من عندي، لعبة جديدة زاهية، حذاء طويلاً، طبلاً، إذ كان عندي أيضاً أشياء كثيرة. «أوه، لا يا هنري، ليس هذا!» ما أزال أسمعها تقول. «هذه جديدة جداً!» فأصرّ «لكني لم أعد أريدها». فتجيب، «لا تتكلم بهذه الطريقة، وإلا عاقبك الله».

أمرّ من أمام الكنيسة المشيخية القديمة. كانت الدروس في مدرسة يوم الأحد تبدأ عند الساعة الثانية من بعد الظهر. وكم كانت الرطوبة لذيذة في القبو الذي كنا نلتقي فيه! أما في الخارج فكانت الحرارة تلهب الرصيف. وكان الذباب من الحجم الكبير يصدر طنيناً، وهو يندفع ذهاباً وإياباً من الظل. عندما أتذكر ماذا كان يعني الصيف بالنسبة لي، الصيف الملموس، الدنيوي الذي كان يتلألأ ويتراقص خلال الأيام البهيجة الطويلة، أتذكر موسيقى ديبوسي. أتساءل إن كان هو أسد ميدي؟ إن كان يسري في دمه عرق أفريقي؟ أم أن تلك الأنغام الصاخبة كانت تعبيراً عن الحنين إلى شمس لم يعرفها في حياته؟

إذ يبدو أن كل فترة سعيدة عرفتها في حياتي كانت مرتبطة بالشمس. أتذكر السيد روبرتس، مدير مدرسة يوم الأحد، لا أتذكر ذلك الجرم السماوي المشتعل في السماء فقط، بل أتذكر أيضاً ذلك الدفء السماوي الذي كان يشعه هذا الإنكليزي المسن الغريب

الأطوار. شاربه المسترسل الطويل، وجهه المتورد المبتهج، الذي يدل على صحة موفورة وثقة كبيرة! وكان يرتدي دائماً ذات البدلة الرمادية ويضع لفاعاً عريضاً حول رقبته. وشأن القسيس وشماسي الكنيسة، كان رجلاً ثرياً. لا بد أنهم انتقلوا إلى حي أفضل منذ عهد بعيد، لكنهم كانوا مرتبطين بالحي القديم، وكانوا يقدمون الرعاية إلى الفقراء والمساكين. وكانوا يقدمون الهدايا في عيد الميلاد بسخاء. وكانت أمي تبدي إعجابها الشديد بهذه الهبات السخية، ولعلنا لهذا السبب أصبحنا نتبع الكنيسة المشيخية، لا الكنيسة اللوثرية.

في ذلك المساء، وفيما كنت أكرر على مسامع مونا ذكريات طفولتي، خطر لي أن أبعث إلى القسيس العجوز، الذي ما زال على قيد الحياة، عينة من أعمالي، وقلت إن ذلك سيكون بادرة طيبة. ظننت أنه سيشعر بالسعادة إن علم أن أحد «تلاميذه الصغار» أصبح كاتباً الآن. ويعلم اللّه ماذا أرسلت له، ولكن لم يكن لما أرسلته التأثير الذي كنت أتمناه. فسرعان ما عادت مخطوطتي بالبريد مع رسالة كتبت بلغة إنكليزية راقية، يعرب فيها عن حزنه وحيرته، إذ تساءل فيها كيف ينحط أسلوبي في التعبير إلى مثل هذا المستوى من الواقعية الفجة رغم نشأتي في أحضان الكنيسة، وقال إن ذلك قد جعله يشعر بالألم والحزن. وأذكر أنه ذكر في رسالته شيئاً عن صفيحة القمامة، مما جعلني أستشيط غضباً. وعلى الفور جلست وكتبت له رداً بأقذع العبارات، ونعته بالحمق والخرف، وقلت له إنه لم يكن من أهدافي في الحياة أن أعيش هذا الهراء السخيف الذي كان يحاول أن يبثه فينا. وأضفت شيئاً عن إلهنا ومخلصنا لكي أزعجه وأثير حفيظته. وتوّجت إهانتي بنصيحة بأن ينتقل من الحي القديم، الذي لم يكن ينتمي إليه، ولن ينتمي إليه طوال حياته. وأعربت له عن أملي في ختام رسالتي بأن أرى نجمة داوود تحل مكان الصليب في الكنيسة عندما أمر من أمام الصرح القديم الموقّر في المرة القادمة.. (وبالمصادفة تحققت أمنيتي بعد فترة من الزمن.

فقد تحولت الكنيسة إلى كنيس! وحل في منزل كاهن الأبرشية، حيث كان يعيش كاهننا العزيز، حاخام مسن ذو لحية بيضاء مسترسلة).

بالطبع شعرت بالندم وبتأنيب الضمير بعد أن أرسلت الرسالة. ياله من شيء سخيف ذاك الذي فعلته! كنت ما أزال ذلك «الولد الشقي». كان هذا ديدني، ولو عاد الماضي لبصقت عليه. فقد كنت أفعل الشيء ذاته مع الأصدقاء ـ ومع المؤلفين. لقد تقبلت الأشياء التي تعود إلى الماضي فقط لكي أحولها إلى نهايات إبداعية...

3

لم يدم هذا النعيم إلا شهوراً قليلة. إذ لم يمض وقت طويل، حتى لم يعد هناك شيء سوى المشاكل، لا شيء سوى الحاجة، لا شيء سوى الإحباط. وحتى قدومي إلى باريس، لم تنشر لي سوى ثلاث مخطوطات قصيرة ـ الأولى، نشرت في مجلة مكرسة للنهوض بالسكان الملونين، والثانية، نشرت في مجلة يقوم برعايتها أحد الأصدقاء، ولم تصدر سوى عدد واحد، أما الثالثة، فقد نشرت في مجلة أعاد إحياءها فرانك هاريس، ذلك العجوز الطيب.

وأصبح كلّ شيء يُقدم للنشر فيما بعد يحمل توقيع زوجتي (باستثناء فظيع واحد فقط، أصبح يتكرر فيما بعد). فقد اتفقنا على أنه لا يمكنني أن أفعل شيئاً وحدي. ببساطة، كنت أكتب وأترك البقية لمونا. فقد توقف عملها في المسرح، وتأخرنا عن دفع الإيجار لفترة طويلة. وبدأت زياراتي لمود تتناقص باستمرار، ولم أعد أتمكن من دفع النفقة بانتظام، إذ لم أعد أدفع لها النفقة إلا عندما يأتينا مبلغ كبير من المال. وسرعان ما فرغت خزانة مونا من ملابسها، وبدوت أنا كالأبله. فقد كنت أبذل جهوداً عقيمة لأستجدي ملابس أو حتى ثوب من عشيقاتي السابقات. وعندما كان يشتد البرد، كانت تضطر إلى ارتداء معطفي.

وقُدم لمونا عرض للعمل في أحد الملاهي، لكني رفضت حتى مجرد سماع ذلك. وكلما كان يأتي البريد، كنت أتمنى أن تصلني

رسالة تعلمني بقبول إحدى مقالاتي مشفوعة بشيك. لا بد أنه كانت هناك بين عشرين وثلاثين مخطوطة تطوف، تجيء وتذهب كالحمام الزاجل المدرب. وبدأ تأمين المبلغ لشراء طوابع بريدية يتحول إلى مشكلة. كل شيء أخذ يصبح مشكلة.

في غمرة هذه النكسة الأولى، أنقذنا لفترة قصيرة وصول صديقي القديم أومارا، الذي بعد أن ترك العمل في شركة التلغراف كوسموديمونيك، انطلق في جولة بحرية طويلة مع بعض صيادي السمك في البحر الكاريبي. وقد أكسبته المغامرة بعض المال.

عانق أحدنا الآخر، ثم أفرغ أومارا جيوبه، بأسلوبه المتميز، وكوّم النقود على المنضدة، وقال إنها «الصندوق المشترك»، وهي لاستعمالنا المشترك. وكان المبلغ كله عبارة عن بضع مئات من الدولارات، تكفي لتسديد ديوننا، أو نعيش منها لمدة شهر أو شهرين.

«هل لديك أيّ شيء للشراب هنا؟ لا؟ دعني أخرج وأحضر شيئاً».

عاد حاملاً بضع زجاجات وكيساً مليئاً بالطعام. «أين المطبخ؟ كأني لا أراه».

«لا يوجد عندنا مطبخ. ليس مسموحاً لنا أن نطبخ».

صرخ «ماذا؟، لا يوجد مطبخ؟ لأي شيء تدفعان إيجار هذا الجُحر؟».

عندما أخبرناه قال إننا معتوهان، مجنونان بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. لكن مونا لم يعجبها ذلك.

«إذاً كيف تتدبران أمركما بحق الجحيم؟» سأل وهو يحك رأسه.

قلت: «بصراحة، إننا لا نتدبر أمرنا»، وكانت مونا على وشك أن تنفجر بالبكاء.

سأل: «لا أحد منكما يعمل؟».

فأجابت مونا على الفور «فال يعمل».

«أظن أنك تعنين أنه يكتب»، قال أومارا، ملمحاً إلى أن ذلك مجرد تسلية.

أجابته مونا بفظاظة: «بالتأكيد، وماذا تريده أن يعمل؟».

«أنا؟ أنا لا أريده أن يعمل أيّ شيء. كنت أتساءل فقط كيف تعيشان... من أين تحصلان على المال؟».

صمت لحظة، ثم قال: «بالمناسبة، ذلك الشاب الذي سمح لي بالدخول، هل هو صاحب البيت؟ إنه يبدو رجلاً في غاية الطيبة».

قلت: «إنه أيضاً من ولاية فيرجينيا. لا يطالبنا بالإيجار أبداً. هو حقاً رجل محترم».

فقال أومارا: «يجب أن تعامله معاملة جيدة. اسمع، لماذا لا تعطيه شيئاً على الحساب؟».

فردت مونا بسرعة: «لا، لا تفعل ذلك، أرجوك. فهو لن يمانع إذا انتظر مدة أطول. بالإضافة إلى ذلك فأنا أتوقع أن أحصل على بعض المال قريباً».

«صحيح؟» قلت، لأن الريبة تنتابني عندما أسمع هذه الكلمات الطائشة منها.

«حسناً، ليذهب كل ذلك بقضه وقضيضه إلى الجحيم» قال أومارا، وهو يصبّ قليلاً من النبيذ. ثم أردف قائلاً: «لنجلس ونحتسي قليلاً من الشراب. لقد أحضرت شيئاً من لحم الخنزير والبيض، وبعض الجبن الجيد. من المحزن أن نرميها في سلة الزبالة».

«ماذا تعني أن نلقيها؟» قالت مونا، «لدينا موقد غاز صغير في الحمام».

«أهناك تطهيان؟ يا إلهي!».

«لا، إننا نضعه هناك فقط، بعيداً عن الأنظار».

«لكن لا بد أنهما يشمان رائحة الطهي في الطابق العلوي، أليس كذلك؟».

وبكلمة «هما» كان أومارا يعني صاحب البيت وزوجته.

قلت: «طبعاً، لكنهما عاقلان. إنهما يتظاهران بأنهما لا يشمان شيئاً».

«هم أناس رائعون»، قال أومارا، ويعني بهذا أن الجنوبيين فقط هم الذين يمكن أن يظهروا مثل هذه الكياسة.

بعد لحظات من الصمت، قال يجب علينا البحث عن مكان أرخص، مكان تتوافر فيه منافع. قال: «هذه النقود ستتبخر بعد فترة وجيزة إن تابعتما حياتكما بهذه الطريقة. سأبحث عن عمل بالطبع، *لكنك تعرفني*. على أي حال، سأتريث لفترة من الوقت».

ابتسمت قائلاً: «لا تقلق، فكل شيء سيكون على ما يرام. إن وجودك هنا سيجعل الأمور أكثر سهولة».

«لكن أين سينام؟» سألت مونا، ولم تكن مسرورة لهذه الفكرة.

«يمكننا أن نشتري سريراً صغيراً، أليس كذلك؟» وأشرت إلى النقود الملقاة على المنضدة.

«ولكن ماذا عن صاحب البيت؟».

«لن نخبره مباشرة. كما أنه يحق لنا أن نستضيف ضيفاً، أليس كذلك؟ لا يجب أن يعرف أن تيد مقيم عندنا».

«يمكنني كذلك أن أنام على الأرض»، قال أومارا.

«لا يمكن ذلك! سنخرج بعد الغداء ونشتري سريراً صغيراً مستعملاً. سندخله خلسة بعد حلول الظلام، ما رأيك؟».

رأيت أن الوقت قد حان لأقول شيئاً إلى مونا. إذ اتضح لي أن أومارا لم يرق لها كثيراً. فقد كان صريحاً فظاً ومباشراً.

قلت: «اسمعي يا مونا، إنك ستألفين تيد عندما تعرفينه جيداً. إننا نعرف بعضنا بعضاً منذ أيام الطفولة، أليس كذلك يا تيد؟».

قالت مونا: «أنا لا أملك شيئاً ضده. لكني لا أريده أن يخبرنا بما يجب أن نفعله، هذا كل ما في الأمر».

قلت: «إنها على حق يا تيد، أنت صريح بعض الشيء، وتعرف ذلك. لقد حدثت أشياء كثيرة منذ أن رأيتك آخر مرة. إننا في عالم مختلف الآن. لقد كانت الأمور تجري بشكل رائع حتى الفترة الأخيرة. كله بسبب مونا. اسمعا، إذا لم يرق أحدكما للآخر فستكون الأمور في غاية السوء».

قال أومارا: «سأغادر في أي لحظة تطلبان مني ذلك».

قالت مونا: «أنا آسفة إن أعطيتك انطباعا خاطئاً». وأردفت «إذا كان فال يقول إنك صديق فلابد أن يكون هناك شيء لكـ...».

«ما هذا فال؟» قاطعها أومارا.

«أوه، إنها تفضّل اسم فال على هنري، هذا كل ما في الأمر. ستتعود على ذلك».

«بالطبع. ستظل هنري بالنسبة لي».

ضحكت قائلاً: «أرى أن الأمور ستتحسن كثيراً». ونهضت لأتفحص الطعام وسألت: «هل تظنان أنه يمكننا أن نتناول طعام الغداء بعد وقت قصير؟».

«الساعة الآن الحادية عشرة»، قالت مونا.

«أعرف، لكني جائع. لحم الخنزير والبيض يسيلان لعابي. فضلاً عن أننا لم نأكل كثيراً في الآونة الأخيرة. هيا لنعوّض عن الوقت الذي أضعناه».

لم يتمالك أومارا نفسه فقال: «طالما أني موجود هنا فإنكما ستأكلان جيداً. لو كان يوجد مطبخ نظامي لطهوت لكما وجبات رائعة من الطعام».

قلت: «إن مونا تطهو جيداً، فهي تعد لنا وجبات طعام لذيذة عندما نأكل هنا».

«أتقصد أنكما لا تأكلان كل يوم؟».

قالت مونا: «إنه يبالغ، فإذا لم يتناول وجبة واحدة في اليوم، فهو يظن أنه يتضور جوعاً».

«هذا صحيح»، قلت وأنا أصب كأساً أخرى من النبيذ. ثم أضفت قائلاً: «إني أفكر بالمستقبل طوال الوقت. حدسي يقول لي لعله سيكون طويلاً وشائكاً».

سأل أومارا: «ألم تبع شيئاً حتى الآن؟». هززت رأسي بالنفي.

فقال: «هذا حقاً شيء قاس. اسمع، (متداركاً) دعني ألقي نظرة على أعمالك في وقت لاحق، أليس كذلك؟ لربما استطعت أن أبيعها لك - إن كانت جيدة».

«إن كانت جيدة؟» انفجرت مونا. «ماذا تعني؟».

انفجر أومارا ضاحكاً وقال: «أوه، أعرف أنه عبقري. ولعل الخطأ كان يكمن هنا. فلا يمكنك أن تقدمها لهم مرة واحدة، أنت تعرف ذلك. يجب أن تخفف من حدتها. أنا أعرف يا هنري».

وكان أومارا يغرز قدمه في الأعماق في كل كلمة كان يقولها. وانتابني إحساس بأن الأمور لن تنجح أبداً. إلا أنه ما دامت النقود أصبحت متوافرة الآن، فلنستمتع بفترة الراحة هذه، بعدها يمكنه أن يجد عملاً ويعتمد على نفسه.

منذ أن تعرفت على أومارا، كان يذهب ويعود ومعه حفنة من النقود التي كان يقاسمني إياها دائماً. ولم يحدث أن وجدني في

حالة جيدة. وتعود صداقتنا منذ أن كنا في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر. حيث التقينا لأول مرة في الظلام في إحدى محطات القطارات في نيو جيرسي. وكنت أنا وبيل وودروف نمضي العطلة على شواطئ بحيرة جميلة. وكان إليكووكر، رئيسهما الذي جاء لزيارتنا، قد أحضر أومارا معه كمفاجأة لنا. ولم تكن المسافة بين المحطة والبيت الريفي الذي كنا نقيم فيه قريبة. (فقد كنا نسافر بالحصان والعربة). وحوالى منتصف الليل عدنا إلى البيت الريفي. ولم يشأ أحد منا أن ينام حال وصولنا. وقال أومارا إنه يريد أن يشاهد البحيرة التي طالما تحدثنا عنها. ركبنا قارب تجذيف وتوجهنا إلى وسط البحيرة، التي كانت تبعد حوالى ثلاثة أميال. كانت المياه سوداء كالقار. ومن وحي اللحظة، خلع أومارا ثيابه، وقال إنه يريد أن يعوم. وبلمح البصر رمى بنفسه من القارب. ومضت فترة طويلة قبل أن يعود ويظهر على سطح الماء. لم يكن بوسعنا أن نراه، بل كنا نستطيع أن نسمع صوته فقط. كان يلهث وينفخ كحصان البحر. سألناه «ماذا حدث؟»، فقال «لقد علقت في الأعشاب المائية». ثم انقلب على ظهره وطفا على سطح الماء ليستعيد أنفاسه. ثم أخذ يسبح، بضربات نشطة وقوية. ورحنا نتتبع صوته، وكنا نناديه من حين لآخر، نتوسل إليه أن يعود إلى القارب، قبل أن يبرد ويستنزف قواه.

هكذا التقينا. فقد ترك سلوكه هذا انطباعاً عميقاً في نفسي. لقد استحوذت رجولته وشجاعته على إعجابي. وخلال الأسبوع الذي أمضيناه معاً في منزل المزرعة، تعرّف أحدنا إلى الآخر بعمق. وبدا لي وودروف مخنثاً أكثر من أي وقت مضى. فلم يكن ممتلئاً بالهواجس والمخاوف فقط، بل كان جشعاً أيضاً. أما أومارا، فكان متهوراً دائماً، مغامراً بالفطرة. فعندما كان في العاشرة من عمره، هرب من ملجأ الأيتام. وفي مكان ما في الجنوب، وبينما كان يعمل في إحدى مدن الملاهي المتنقلة، صادف إليكوكر، الذي أعجب به على الفور وأحضره معه إلى الشمال ليعمل لحسابه. ثم بدأ

وودروف يعمل في المكتب. وبعد فترة وجيزة، بدأنا نرى ونسمع الكثير عن إليكوكر. فقد أصبح - راعياً لنادينا، قديسنا الشفيع. لكني أظن أني بدأت أستطرد في الحديث... أردت القول إنه كان من المستحيل عليّ أن أرفض طلباً لأومارا مهما كان. فقد كان يعطي كل شيء، ويتوقع منك كل شيء. وكان يؤمن أن هذه هي طريقة التصرف التلقائية الطبيعية بين الأصدقاء. أما بالنسبة للأخلاق فلم يكن لديه أدنى حس أخلاقي. فإذا تعذر عليه أن يحصل على امرأة كان يسألك إن كان بإمكانه أن ينام مع زوجتك - أي حتى يجد لنفسه «امرأة جيدة ليضاجعها». وإذا لم يكن لديه مال كاف ليساعدك في الخروج من محنتك، كان يقوم بسرقة صغيرة على الهامش، أو كان يزوّر شيكاً. فلم يكن يتورع عن القيام بأي عمل، ولم يكن يشعر بتأنيب الضمير. كان يحب أن يأكل جيداً، وينام لمدة طويلة. يكره العمل، لكنه حين يعمل شيئاً، كان يتقنه ويعمله بإخلاص. كان دائماً يريد أن يجمع المال بسرعة. «اغنم غنيمتك واهرب»، هكذا كان يقول. كان مولعاً بجميع أنواع الرياضات، ومولعاً بصيد الحيوانات وصيد السمك. أما فيما يتعلق باللعب بالورق فكان محتالاً كبيراً: إذ كان يلعب بخسة، بشكل ينسجم تماماً مع شخصيته. وكان عذره في ذلك أنه لم يكن يلعب لمتعة اللعب، بل كان يلعب ليربح، ليحقق نصراً. ولم يكن يتورع عن الغش، إذا أحس أنه سيفلت من ذلك. لقد كوّن عن نفسه فكرة رومانسية بأنه مقامر ذكي.

وكان أفضل ما فيه حديثه. بالنسبة لي على الأقل. في حين كان معظم أصدقائي يجدونه مضجراً ومملاً. أما أنا فكان بإمكاني أن أستمع إلى أومارا دون أن تنتابني الرغبة في أن أفتح فمي، وكلّ ماكنت أفعله أن أمطره بوابل من الأسئلة. وأظن أن السبب الذي يجعل كلامه يثيرني، هو أنه كان يتطرق إلى عوالم لم ألجها في حياتي. فقد زار شطراً كبيراً من الكرة الأرضية، وعاش سنوات عديدة في الشرق، وخاصة الصين واليابان والفليبين. كنت أحب الطريقة التي يصور فيها النساء الشرقيات. كان دائماً يتحدث عنهن

برقة واحترام. وكنت أحب أيضاً الطريقة التي يتكلم فيها عن الأسماك، عن الأسماك الكبيرة، وحوش الأعماق. أو عندما يتحدث عن الأفاعي، التي كان يتكلم عنها وكأنها حيوانات أليفة. وكان يتحدث أيضاً عن الأشجار والأزهار: وبدا لي أنه كان يعرف كلّ أنواعها، وكان بإمكانه أن يتحدث بالتفصيل عن خصائص كل منها دون توقف. ثم أصبح أيضاً جندياً، حتى قبل أن تنشب الحرب. كان ضابط صف. وكان يتحدث عن ضباط الصف بطريقة تجعل المرء يظن أن هذا المستبد الصغير هو أكثر أهمية من عقيد أو جنرال. كما كان يتحدث دائماً عن الضباط باحتقار وسخرية، أو بكراهية مرّة. «لقد حاولوا دفعي إلى أعلى المراتب»، قال ذات مرة، «لكني لم أرغب في ذلك. لأني كضابط صف كنت ملكاً، وكنت أعرف ذلك. يمكن لأيّ مؤخرة حصان أن تصبح ضابطاً، أما لكي تكون ضابط صف فيجب أن تكون جيداً».

كان يمنح نفسه فسحة واسعة من الكلام. لم يكن في عجلة من أمره لينهي حديثه بسرعة. لا، ليس أومارا. وكان يتحدث بالطريقة نفسها إن كان صاحياً أو ثملاً. وبالطبع، كان يجد فيّ مستمعاً رائعاً. مستمعاً *مثالياً*. والشيء الوحيد الذي كان يذكره في تلك الأيام الصين أو جاوة أو بورنيو، وكنت له على الدوام أذناً صاغية. أذكر أيّ شيء أجنبي وبعيد، وأصبح ضحية لك بملء إرادتي.

والمدهش في رجل مثل أومارا، أنه كان يقرأ كثيراً أيضاً. وكان أول شيء يفعله تقريباً، عندما يبحث عني، هو أن يستعرض الكتب المتوافرة، الواحد تلو الآخر، يتذوقها ببطء وبتلذذ. وكانت الكتب تدخل أيضاً في محور مناقشاتنا. وكنت أفضّل بطريقة ما انطباعات أومارا عن كتاب معين، على انطباعات أصدقائي الآخرين الذين كانوا أوسع إطلاعاً أو أكثر انتقاداً. ومثلي، كان أومارا مفعماً بالتقدير، مفعماً بالحماس. لم يكن لديه إحساس نقدي، فإذا حاز كتاب ما على اهتمامه، فهو عندئذ كتاب جيد، أو كتاب عظيم، أو

كتاب رائع. وكنا نعيش بحيوية في الكتب التي كنا نلتهمها معاً، كما كنا نفعل في تجوالنا وترحالنا الخيالي عبر الصين والهند وأفريقيا. وفي أغلب الأحيان كانت هذه القصص تدور على مائدة العشاء. وعندما كنا نحتسي القهوة، يتذكر أومارا فجأة حادثة ما من ماضيه المتقلب المفعم بالذكريات. كنا نستحثه على الكلام. وكنا نبقى جالسين إلى المائدة حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً. عندها نكون على استعداد لتناول وجبة خفيفة لكي تنعشنا. ثم نزهة خفيفة على القدمين لنتنشق هواء نقياً في رئتينا، كما كان يقول دائماً. وبطبيعة الحال، كنا نمضي اليوم التالي نياماً، لا يفكر أحدنا بأن يغادر السرير قبل الظهيرة. وكان تناول طعام الفطور والغداء مجتمعين دائماً مسألة ترف. ولم يكن يريد أحدنا أن يكون الأول الذي يغادر السرير. ومع نهاية النهار نبدأ على الفور بالتفكير في ارتياد المسرح أو السينما.

وطالما وجدت النقود، كانت الأمور تسير على نحو رائع...

وأظن أن أفكار أومارا العملية هي التي جعلتني أفكر ذات يوم بأن أقوم بطباعة قصائدي النثرية الصغيرة وأبيعها بنفسي. فبعد أن ألقى أومارا نظرة على «قصائدي»، قال إنه يمكنه أن يقنع أي محرر بقبولها. وكنت أعرف أنه كان صادقاً. فرحت أقلّب الأمر في رأسي. فلدي عدد كبير من الأصدقاء والمعارف، وكانوا جميعهم يتوقون لمساعدتي، هكذا كانوا يقولون لي. لماذا لا أبيع عملي مباشرة لهم، كبداية؟ طرحت الفكرة على أومارا. قال إنها فكرة ممتازة. إذ أتولى أنا البيع بالبريد، ويتولى هو بيعها سيراً على الأقدام، يطوف من بناية إلى أخرى. كما أن لديه الكثير من الأصدقاء. على كل حال، وجدنا صاحب مطبعة شاباً قدّم لنا سعراً تقديرياً معقولاً. وقرر أن يطبعها على ورق ملون كان متوافراً لديه. وطلب مني أن أصدر قصيدة كل أسبوع، أطبع منها خمسمائة نسخة في كل مرّة. وأطلقنا عليها اسم «النحاسيات» بتوقيع: هنري ف. ميلر.

ما يدهشني، عندما أتذكرها الآن، هو أن أول قصيدة نثرية كتبتها لهذا المشروع، كانت من وحي بنك توفير بويري. فقد كانت روعة مبناهم الجديد المعمارية، لا الذهب المخبأ في السراديب، هي التي ألهبت حماسي. وسميتها «عنقاء بويري». لم يكن أصدقائي متحمسين جداً لكنهم دفعوا ثمنها. ولم يكن السعر الذي كنت أطلبه يتجاوز ثمن وجبة طعام كنت أشحن فيها هذه القصائد الحماسية. لو بعنا الخمسمائة نسخة لجمعنا مبلغاً صغيراً معقولاً.

من بين الأشياء الأخرى التي جربناها، الحصول على اشتراكات سنوية بسعر مخفّض. ستة اشتراكات في الأسبوع وتُحل مشكلتنا. لكن حتى أعز أصدقائي ارتابوا في أني قد أبقي الاشتراك لمدة سنة. فقد كانوا يعرفونني جيداً. إذ كنت سأطرح خطة أخرى بعد شهر أو شهرين. وفي أحسن الأحوال تمكنت من إقناعهم بالاشتراك لمدة شهر - أمر تافه. وانتاب أومارا الغضب من أصدقائي، وقال إنه يمكنه أن يفعل أفضل بكثير مع الغرباء. وفي كل يوم كان ينهض في الصباح الباكر وينطلق ليقوم بالدعاية من أجلي. جاب أرجاء المدينة - بروكلن، مانهاتن، البرونكس، ستاتن آيلاند - أينما وجد ترحيباً. كان يحاول الحصول على اشتراكات.

بعد أن أنهيت قطعتين أو ثلاث قطع من النحاسيات، عرضت مونا مشروعاً آخر، وهو أن توقّع اسمها على القصائد، وتطوف بها من مكان لآخر في حي الفيليج، وكانت تعني بذلك النوادي الليلية. وقالت إنه لن يكون بوسع أنصاف السكارى انتقادها. فضلاً عن أنه يصعب مقاومة امرأة جميلة. لكن أومارا لم يقتنع بمشروعها - إذ بدا الأمر له مغايراً لأصول العمل - غير أن مونا أصرّت على موقفها، وقالت إنه لا ضير في أن نحاول. وأصبح لدينا مجموعة من الأعداد السابقة بألوان مختلفة. وكان علينا أن نطمس اسمي لتطبع اسمها تحته. فلا أحد سيميز الفرق.

في الأسبوع الأول كان إنجازها رائعاً. كان الإقبال عليها

شديداً. إذ اشترى بعضهم السلسلة كاملة، ودفع لها آخرون ثلاثة أضعاف، بل وخمسة أضعاف ثمن القطعة الواحدة. وبدا أن فكرتها كانت موفقة ومصيبة جداً. وبين الحين والآخر كانت تصلنا طلبات بالبريد. وبين الفينة والأخرى كان أومارا يحصل على اشتراكات لمدة ستة أشهر أو لمدة سنة. كانت لديّ أفكار كثيرة للمواضيع القادمة. ليذهب المحررون إلى الجحيم ـ فيمكننا أن نفعل وحدنا أفضل.

إذا استمرت الأمور على هذا المنوال، فسيكون استمرارها شيئاً رائعاً. أعني الرحلات على الأقدام، المناقشات، الكتب التي قرأناها، الطعام الذي تناولناه، الجولات والاستكشافات، الأشخاص الذين كنا نصادفهم، الخطط التي وضعناها. كان كل شيء يجيش ويفور، أو يخرخر مثل آلة تسير بسلاسة ونعومة. وفي الليالي التي لم يكن يأتينا فيها أحد، في الليالي التي يكون فيها الطقس سيئاً، أو عندما لا تتوافر لدينا النقود، كنت أنا وأومارا ندخل في إحدى تلك المناقشات التي تستمر طوال الليل. وفي بعض الأحيان، كانت المناقشة تبدأ عن كتاب كنا قد أنهينا قراءته للتو مثل «الأرجوان الإمبراطوري» أو «الزوج الأبدي». أو تلك القصة الرائعة الحمام الزاجل ـ Gay Neck.

وحوالى منتصف الليل كان أومارا يصبح دائماً عصبي المزاج ومتململاً. فقد كان يشعر بالقلق بشأن مونا، تراها ماذا تفعل، أين هي، هل يمكنها أن تعتني بنفسها.

فأقول له: «لا تقلق، فهي تعرف كيف تعتني بنفسها. فلديها الكثير من الخبرة»، فيقول: «أعرف، لكن يا إلهي».

«اسمع يا تيد، لو بدأت أقلق حول هذه الأمور فإني سأفقد عقلي».

«لا بد أنك تثق بها كثيراً».

«لم لا؟».

عندها يحمحم ويهمهم ويقول: «حسناً، كلّ ما يمكنني أن أقوله هو إن كانت زوجتي...»».

«لن يكون عندك زوجة أبداً، ما فائدة الحديث عن هذا بحق السماء؟ ستصل في تمام الساعة العاشرة والدقيقة الواحدة، انتظر لترى. هيا، انس الموضوع الآن».

في بعض الأحيان لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من الابتسام. فمن الطريقة التي كان يتحمس بها، يخيل لك أنها زوجته هو، لا زوجتي أنا. كان أصدقائي يتصرفون معي دائماً هكذا. كانوا دائماً يقلقون من أجلي.

ولكي أبعده عن الموضوع كنت أجعله يستغرق في الذكريات. لقد كان أومارا أعظم متذكّر في الكون. كان يتذّكر كالبقرة التي تجتر طعامها. فكل شيء يكمن في الماضي كان علفاً بالنسبة له.

وكان إليكوكر الشخص الذي لم يكف عن الحديث عنه، الرجل الذي التقطه أثناء أحد الكرنفالات في حديقة ماديسون سكوير وأخذه ليعمل في مكتبه. وبقى إليكوكر على الدوام لغزاً بالنسبة لأومارا. فقد كان يتحدث عنه بمحبة وإعجاب وامتنان، لكن كان ثمة شيء في تكوين إليكوكر يحيّره. وفي إحدى الليالي حاولت أن أسبر أغواره. وكان الشيء الذي يضايق أومارا أن إليكوكر يبدو أنه لم يكن يبدي اهتماماً بالنساء، رغم انه كان في غاية الأناقة والجمال. وكان بإمكانه أن يحصل على أيّ امرأة يضع عينيه عليها.

«قلت ألا تعتقد أنه كان شاذاً. فإن لم يكن شاذاً، فقد كان يعيش عيشة عازب، هذا كلّ ما في الأمر. وبهذه الطريقة فإني أراه قديساً».

لم يقتنع أومارا بهذا التفسير المبتور والجاف.

أضفت: «الشيء الوحيد الذي يزعجني، هو كيف سمح للوودروف أن يسيطر عليه. وإني أظن أن ثمة شيئاً مريباً هناك».

«أوه، هذا لا شيء»» قال أومارا بسرعة، «إن إليك شخص

ضعيف. يمكن لأي شخص أن يجعله خاتماً في إصبعه. فقد كان يمتلك قلباً كبيراً».

«اسمع»، قلت وقد صممت على أن أنهي الموضوع إلى الأبد، «أريدك أن تقول لي الحقيقة.. هل حدث وحاول أن يغازلك؟».

انفجر أومارا في ضحكة مجلجلة. «*حاول أن يغازلني*؟ إنك لا تعرف إليك أبداً ولا تسأل سؤالاً كهذا مرة أخرى. حتى لو كان شاذاً، فإنه لن يفعل شيئاً كهذا، ألا تعرف ذلك؟».

«لا، لا أعرف ذلك. إلا إذا كان لطيفاً أكثر من اللازم. أليس كذلك؟».

«لا، لا، لا أبداً»، قال أومارا بحماس. «أعني أنه إذا كان إليكوكر سيموت جوعاً فإنه لن يطلب منك كسرة خبز».

«فهي عزة النفس إذن»، قلت.

«إنها ليست عزة النفس أيضاً. إنها عقدة الشهيد. هو يستمتع بالشعور بأنه يتعذب».

«من حسن حظه أنه لم يكن فقيراً».

قال أومارا: «لن يكون فقيراً أبداً، لأنه كان سيسرق قبل أن يصبح فقيراً».

«ياله من قول. ما الذي يجعلك تفكر هكذا؟».

تردّد أومارا بضع لحظات ثم قال: «سأخبرك شيئاً، لكن لا تخبر أي مخلوق به. فقد سرق إليكوكر مبلغاً كبيراً من المال من أخيه. أخوه، الذي هو حقاً ابن عاهرة، كان سيدفعه إلى حافة الجنون. لكن الأخت التي لا أعرف اسمها استعادت المبلغ. من أين حصلت عليه، لا يوجد عندي أدنى فكرة. كان مبلغاً كبيراً».

لم أفه بأي كلمة. كنت مشدوهاً.

«أنت تعرف من أوقعه في تلك الورطة، أليس كذلك؟» تابع أومارا.

نظرت إليه بخواء.

«ذلك الجرذ الصغير، وودروف».

«لا تعني أن تقول!».

«كنت أقول لك دائماً أن وودروف لم يكن شخصاً جيداً، أليس كذلك؟».

«نعم، لكني لم أفهم. أتقصد أن تقول إن إليكوكر قد أنفق كل ذلك المال على صديقنا الصغير وودروف؟».

«هذا تماماً ما أعنيه. اسمع، أتتذكر تلك العاهرة الصغيرة التي كان وودروف مهووساً بها؟ لقد تزوجها فيما بعد، أليس كذلك؟».

«أتعني إدا فيرلين؟».

«نعم. إدا. يا إلهي، كان يلهج باسمها طوال اليوم. أذكر ذلك لأننا كنا نعمل معاً في ذلك الوقت. أتتذكر الرحلة التي قام بها إليك ووودروف إلى أوروبا؟»

«أتعني أن إليك كان يغار من الفتاة؟»

«لا، بحق المسيح! كيف يمكن لإليك أن يغار من فاسقة صغيرة كتلك؟ كان يحاول أن ينقذ وودروف من نفسه، هذا كل ما في الأمر. فقد رأى أنها قحبة سيئة، وكان يسعى لأن ينهي علاقته بها. أما وودروف، ابن الزانية، فلم يكن يشبعه شيء - لا يتعين عليّ أن أخبرك حقيقته! لقد جعل إليك يجري وراءه في أنحاء أوروبا. لكي لا ينكسر قلبه الصغير القذر».

قلت له: «هيا تابع، لقد أصبح الأمر مثيراً».

«باختصار، عندما وصلا إلى مونت كارلو، راح وودروف يلعب القمار - بمال إليك طبعاً. ولم يفه إليك بكلمة. واستمر ذلك لأسابيع، وكان وودروف يخسر باستمرار. هذه الرحلة الصغيرة كلّفت إليك ثروة. لقد أفلس. لكن وودروف لم يكن مستعداً للعودة إلى الوطن. أراد أن يرى قصر ملكة رومانيا الشتوي. أراد أن يزور الأهرام.

أراد أن يذهب لممارسة التزحلق في تشامونيكس. أقول لك يا هنري، عندما أتحدث عن هذا الرجل فإن دمي يغلي في عروقي. أنت تظن أن النساء يسعين وراء الذهب. اسمع، إن هذا الرجل، وودروف أسوأ من أيّ عاهرة رأيتها في حياتي. مستعد لانتزاع البنسات من عينيّ رجل ميت». فعلقت قائلاً «رغم كل شيء، فقد عاد إلى إدا ـ هذا هو المهم».

«نعم، وقد ناكته جيداً كما سمعت». ضحكت. وفجأة توقفت عن الضحك. فقد عنّت ببالي فكرة.

«هل تعرف ما خطر لي الآن يا تيد؟ أظن أن وودروف كان شاذاً».

«أتظن أنه كان شاذاً! أنا أعرف أنه كان كذلك. يمكنني أن أغفر له ذلك، لكني لن أغفر له خساسته أو بخله».

قلت مدمدماً «اللعنة، فهذا يفسر لماذا بلبل الأمور مع إدا. هكذا إذاً! كنت أظن أني أعرفه طوال هذه السنوات ولم أكن أشكّ فيه... وما تزال لا ترى أن إليك كان شاذاً؟».

قال أومارا: «أعرف أنه لم يكن شاذاً، فقد كان مهووساً بالنساء. كان يرتعش عندما يقتربن منه».

«لا أعرف ذلك».

«قلت لك من قبل إنه زاهد. فقد درس في صباه عند الرهبان، ثم وقع في حب فتاة هجرته. لم يتمكن من نسيان الأمر أبداً... سأخبرك شيئاً آخر، هل رأيته غاضباً ذات مرة؟ هل كان يخطر ببالك أنه قد يغضب؟ كان في غاية الدماثة، في غاية الرقة، في غاية اللطف، يراعي دائماً مشاعر الآخرين. لقد قُدَّ هذا الرجل من فولاذ. كان دائماً في حالة جيدة، دائماً في وضع قتالي. ذات ليلة رأيته يحطم كل شيء في أحد البارات وحده. كان رائعاً. بالطبع كان علينا أن نهرب، لكن ما أن ابتعدنا عن المكان حتى عاد إلى برودته وهدوئه. طلب مني أن

أنفض عنه الغبار فيما رحت أعدّل ربطة عنقه. لم يكن ثمة خدش عليه. توجهنا إلى فندق حيث سرّح شعره، وغسل يديه. ثم اقترح أن نتناول شيئاً من الطعام في ريسينوبيير - أظن أن هذا اسمه. بدا طاهراً نظيفاً، كالعادة، وراح يتكلم بصوت ثابت وهادئ كما لو كنا قد عدنا من المسرح. لم يكن متصنعاً أيضاً. كان هادئاً حقاً، مطمئن البال من الداخل».

«أذكر وجبة الطعام أيضاً - فقد طلب إليك أصنافاً عديدة ومتنوعة. وبقينا جالسين إلى المائدة ساعات طويلة، كما أذكر. وكان إليك منشرحاً وشهيته منفتحة للكلام. يحاول أن يفهمني كيف أن القديس فرانسيس يشبه حقاً السيد المسيح. وألمح إلى أنه كان يتطلع لأن يصبح هو نفسه شخصاً يشبه القديس فرانسيس. وكما تعلم فقد كنت أسخر من إليك، بسبب ورعه، وكنت أقول له في وجهه «أيها الكاثوليكي القذر». لكني مهما قلت، فلم أتمكن من إثارة حنقه. وكان يبتسم لي تلك الابتسامة التي تشي بالحزن والتفهم - تعرف قصدي، فأخجل من نفسي».

قاطعته «لم تكن تعجبني تلك الابتسامة. لم تكن تشعرني بالارتياح. ولم أعرف أبداً إن كان متفوقاً أم كان يلعب دور البريء».

«صحيح!» قال أومارا. «بشكل ما كان يعرف أنه كان متفوقاً - لا علينا فقط نحن الأطفال، بل على أكثر الناس. ومن جهة أخرى، كان يشعر أنه أدنى من أي شخص آخر. كان تواضعه مشوباً بالتكبّر. هل كان أنيقاً؟ ألا تزال تذكر كيف كانت ملابسه. ثم الطريقة التي كان يتكلم بها - ذلك اللسان الإيرلندي الذرب، لغته الإنكليزية النقية التي لا تشوبها شائبة... لم يكن ذلك الرجل أخرق! لكنه عندما كان يلوذ بالصمت، كان ذلك شيئاً آخر. فلم يكن ثمة شيء يزعجني أكثر من الطريقة التي كان يصمت فيها كشخص كتوم. كان ذلك يثير فيّ الفزع. فقد كان على الدوام صامتاً، إن كنت تلاحظ، في حين كان

الآخرون على وشك الانفجار. يسكت في اللحظة الحاسمة ويتركك معلقاً في الهواء. كان أسلوباً يدفعك لأن تفجّر نفسك، إنك تفهم قصدي؟ عندها اكتشفت الراهب فيه».

«إسمع يا تيد»، قاطعته، «ما زلت لا أفهم ما الذي كان يجعله يحبّ رجلا مثل وودروف».

فرد أومارا على الفور: «هذا سهل، فقد كان يريد أن يعوّض عن طريق ذلك الأحمق. إذ كان يجد متعة في التعامل مع شخص ضئيل تافه عديم القيمة مثل وودروف. كان يختبر قدراته. لا تظن أنه لم يكن يعرف وودروف. كان يعرف كل صغيرة وكبيرة عنه. وللغرابة أن تلك النزعة الجشعة في وودروف هي التي كانت تجذبه إليه. كان أشبه بالشهيد، فقد ظل يسدد المطلوب منه حتى لم يتبق في حوزته شيء... ولم يكن وودروف يعرف أن إليك كان يسرق من أجله. فهو لن يصدق ذلك، إن أخبرته بهذا، ذلك الجرذ الصغير».

«هل أخبرتك أني صادفت وودروف مؤخراً؟ نعم، عندما كنت أسير في شارع برودواي».

«ماذا يعمل الآن؟».

«لم أسأله».

«ربما يعمل قواداً»، قال أومارا.

«لكني أعرف ما حدث لإدا. لقد أصبحت ممثلة الآن. رأيت اسمها مكتوباً على الإعلانات في كل مكان. يجب أن نذهب ونراها ذات مرة؟».

«أنا لن أذهب»، قال أومارا. «أتمنى أن أراها في نار جهنم أولاً... اسمع، لتذهب هي ووودروف إلى الجحيم! لا أعرف ما الذي جعلني أتحدث عن مثل هذا الخراء. قل لي، هل رأيت أورورك مؤخراً؟».

«أورورك؟ لا لم أره. الغريب أن يخطر ببالك الآن. لا أخفيك أنه لم يخطر ببالي منذ أن تركت العمل...».

«هنري، يجب أن تخجل من نفسك. إن أورورك أمير. لا أرى كيف يمكنك أن تنسى شخصاً مثله. لقد كان أباً حقيقياً لك ـ ولي أيضاً. بالتأكيد أحب أن أعرف ماذا حصل له».

«يمكننا أن نبحث عنه ذات ليلة، فهذا لن يكون صعباً».

«لا أريد شيئاً أفضل من ذلك» قال أومارا. «إن مجرد الإلتقاء به مرة أخرى يمنحني إحساساً بالراحة».

قلت: «إنك رجل غريب. تكاد تقدس بعض الأشخاص، كما لو كنت تبحث عن أبيك طوال الوقت».

«هذا ما أفعله ـ لقد أصبت كبد الحقيقة. ابن العاهرة ذاك الذي يدعو نفسه أبي، تعرف ما هو رأيي فيه! أتعرف مما كان يخاف، ذلك المعتوه؟ كان يخشى أنني سأغتصب أختي ذات يوم. هو يقول إن علاقتنا وثيقة جداً. ذلك المأفون الذي أرسلني إلى ملجأ الأيتام. إنه رجل آخر، يتحدث عن أمور تافهة مثل وودروف، آه، لو تمكنت منه، لقضمت خصيتيه بتلذذ. لكني أراهن أنه لا يملك أي واحدة منهما الآن! إنه يحاول أن يقنع نفسه بأنه روسي. إنه مجرد يهودي حقير من غاليسيا. بالتأكيد لو كان لديّ أب مثل أورورك لأصبحت شيئاً مهماً الآن. فأنا لا أعرف لأي شيء خلقت. أتنقل من شيء لآخر. أحارب الكنيسة طوال الوقت ـ ... بالمناسبة، لم أر أختي منذ اثنتي عشرة سنة. لم تعد أختي، بل مجرد سيدة جميلة، محبوبة جداً، ووحيدة جداً. لا أعرف ما الذي كبح جماحي. يجب أن أبحث عنها. لقد سمعت أنها تزوجت منذ عهد قريب. ربما لن يكون من السيء الآن أن أحاول... يا إلهي، سينتاب إليك الفزع إن سمعتني أتكلم بهذه الطريقة».

واصلنا حديثنا بهذه الطريقة، ننتقل من ذكرى إلى ذكرى، حتى وصلت مونا في تمام الساعة العاشرة والدقيقة الواحدة، كما توقعت. وكانت تحمل بيد صرة من الطعام اللذيذ، وباليد الأخرى تحمل زجاجة من نبيذ بنيديكيتين، التي قدمها لها مرة أخرى أحد

أولئك الرجال العطوفين الذين أسبغوا عليها نعمهم. وكان هذه المرة خبازاً متقاعداً من ويهاوكين، من بين جميع الأماكن. ورجلاً مثقفاً أيضاً. وللطرافة أن لدى جميع المعجبين بها مسحة ثقافية، سواء كانوا حطابين، أو ملاكمين محترفين سابقين، أو دباغين أو خبازين متقاعدين وخاصة إن كانوا من ويهاوكين.

وحالما دخلت مونا تشعب حديثنا وأصبح مشتتاً. وكان من عادة أومارا أن يبتسم لها ابتسامة عريضة، عندما تبدأ تروي حكايتها، مما كان يثير غضبها. وفي البداية كان يقاطعها كثيراً، ويسألها أسئلة مهينة فجة ومباشرة. «أتعنين أنه حتى لم يحاول أن يطوقك بذراعيه؟» أشياء كهذه، التي كانت محرّمة بشدة بالنسبة لمونا. لكنه تعلّم الآن كيف يمسك لسانه ويستمع وهو صامت. ومن حين لآخر، كان يبدي ملاحظة خبيثة، إساءة مبطنة ذكية، فتتجاهلها مونا. وبين الحين والآخر، كانت مبالغاتها تصل إلى درجة كبيرة من السخف واللامعقولية، فلا يعود بإمكاننا أن نتمالك أنفسنا فننفجر نحن الاثنان بالضحك. والغريب في الأمر أن مونا كانت تشاركنا في الضحك أيضاً. والأغرب من مشاركتها إيانا في الضحك أنها كانت تواصل ما كانت قد بدأته مرة أخرى من النقطة التي توقفت عندها، وكأن شيئاً غير عادي لم يحدث.

وفي بعض الأحيان، كانت تطلب مني أن أصادق على إحدى قصصها الغريبة، فكنت أفعل ذلك بصفاقة وجه حتى يندهش أومارا. حتى أنني كنت أنمق حكايتها ببعض الحقائق الخيالية. وهي تومئ برأسها بجدية، وكأن ما أقوله حقيقة ربانية، كما لو كنا قد تحدثنا عن ذلك مرات ومرات - أو كما لو كنا قد تدربنا عليها معاً في السابق.

في مملكة الادعاء وإيهام الذات كانت مونا تحتل مركز الصدارة. إذ لم تكن تصدق القصص التي ترويها فقط، بل كانت تتصرف وكأن الحقائق التي ترويها هي برهان على صحتها. في حين كان الجميع، بالطبع، يرون العكس تماماً. أقول الجميع، مما

كان يشعرها بمزيد من الأمان في أسلوبها. ومن الواضح لم يكن أسلوبها يتبع المنطق الإقليدي.

لقد ذكرت الضحك. فقد كانت مونا تستغرق في نوع واحد فقط من الضحك ـ وهو الضحك الهستيري. وفي الحقيقة لم تكن مونا تتمتع بروح الفكاهة على الإطلاق. فالذين كانوا يثيرون حسها بالفكاهة، كانوا عادة أشخاصاً مجردين هم أنفسهم من روح النكتة. فمع ناحوم يود، الذي كان يتمتع حقاً بروح مرحة، كانت تبتسم فقط. ابتسامة طيبة، رقيقة، متسامحة متساهلة، من النوع الذي يمكن أن تبتسمها لطفل مشاكس، صعب المراس. وفي واقع الأمر، كانت ابتسامتها تختلف تماماً عن ضحكتها. ففي حين كانت ابتسامتها أصيلة وودّية، تنبع من جهازها العصبي الحساس، كانت ضحكتها، من الناحية الأخرى، نشازاً، خشنة، ومرتبكة. وكان تأثيرها مزعجاً للغاية. لقد تعرفت إليها قبل أن أسمع ضحكتها بفترة طويلة. وبين ضحكها وبكائها لم يكن ثمة فرق تقريباً، إلا أنها تعلمت في المسرح كيف تضحك بطريقة مصطنعة ومتكلفة. كان سماعها وهي تضحك يثير فيّ الرعب! كانت تبعث القشعريرة في عمودي الفقري.

«أتعرفان بمن تذكراني أنتما الاثنان أحياناً؟» سأل أومارا محمحماً. «إنكما تذكراني بشخصين. كلّ ما تفتقران إليه لعبة الصدفة القديمة.»

أجبت: «الجو لطيف وحار هنا، إيه؟».

«اسمع»، قال أومارا، وقد اكتسى وجهه بالجدية، «لو كان بإمكاننا أن نبقى هنا لمدة سنة أو سنتين فأقول إن الأمر جدير بذلك. إننا نعيش في ترف الآن، ولا أعرف ذلك! فأنا لم أشعر بالاسترخاء بهذه الطريقة منذ سنوات. ومن السخرية أني أشعر كما لو كنت هارباً متوارياً، كما لو أني ارتكبت جريمة لا أتذكرها. ولن أفاجأ أبداً إذا قرعت الشرطة الباب ذات يوم». هنا ضحكنا جميعاً ضحكة صاخبة. الشرطة! يالها من كلمات مضحكة جداً.

ساد صمت للحظات. ثم خلع أومارا ثيابه بهدوء، وانسل في السرير. أطفأت الأنوار وأضأت شمعة.

طوال الليل حلمت أني أركب دراجتي الشيمنيتز القديمة وأقودها بجنون، أو كنت أعزف على البيانو. وكنت تارة أنزل عن الدراجة وأعزف لحناً في الشارع. فليس من الصعب أن تعزف بيانو وأنت راكب الدراجة في الحلم ـ بل إنك تجد صعوبة في القيام بذلك في حياة اليقظة فقط. ورأيت نفسي في الحلم في مكان يدعى استراحة بيدفورد، حيث كنت أمضي أكثر اللحظات متعة. في هذه البقعة، حيث توجد إشارة تدل على منتصف الطريق إلى كوني آيلاند على ممر الدراجات العادية الذي كان يبدأ من أحد أطراف بروسبكت بارك، حيث كان جميع راكبي الدراجات يتوقفون لأخذ استراحة قصيرة وهم قادمون من كوني آيلاند أو متجهون إليها. هنا، تحت الشجيرات والعرائش، ونافورة الماء في الوسط، كنا نتسكع ونفحص عجلات دراجاتنا، ويتحسس أحدنا عضلات الآخر. وكانت الدراجات مكدسة ومسندة إلى الأشجار والأسيجة، كلها في حالة ممتازة، كلها تلمع، كلها مزيّتة. وكان بوب براون، كما كنا ندعوه، الحَكَم الرئيسي. كان أكبرنا سناً ـ ضعف سن معظمنا ـ لكنه كان بإمكانه أن يجاري أفضلنا. كان يرتدي دائماً كنزة سوداء سميكة، وقلنسوة طويلة سوداء ضيقة. وكان وجهه نحيفاً، وقد لفحته الريح إلى درجة أنه أصبح داكن البشرة تقريباً. وكنت دائماً اعتبره «الراكب الليلي». كان ميكانيكياً ويهوى سباق الدراجات. كان رجلاً بسيطاً، رجلاً قليل الكلام، لكنه كان محبوباً من قبل الجميع. وقد أقنعني للانضمام إلى الميليشيا لأتمكن من التسابق على أرضية مستودع الأسلحة. وكنت أحرص على اللقاء ببوب يوميّ السبت والأحد من كل أسبوع، في مكان ما على درب السباق. لقد كنت أعتبره أبي في السباق، إن جاز لي القول.

أظن أن الجانب الممتع في هذه اللقاءات هو أن هذه الرغبة هي

التي تجمعنا كلنا. ولا أذكر أنه كانت تدور بيننا أحاديث سوى ركوب الدراجات. نأكل ونشرب وننام ونحن على الدراجة. وفي كثير من الأحيان، وفي ساعات غير متوقعة من النهار أو الليل، كنت أصادف راكب دراجة منفرداً يختلس مثلي، ساعة أو ساعتين ليقود دراجته بسرعة على الدربِ المكسو بالحصى المصقول. وبين الحين والآخر، كنا نجتاز رجلاً يمتطي صهوة حصان. (كان هناك درب آخر للفرسان يوازي درب ركوب الدراجات). تلك الأشباح كانت من العالم الآخر بعيدة عنا تماماً، شأن الحمقى الذين كانوا يستقلون السيارات. أما بالنسبة لراكبي الدراجات النارية، فكانوا مختلي العقول.

كما كنت أقول، رحت أعيش هذه الحياة مرة أخرى في الحلم. حتى تلك اللحظات اللذيذة في نهاية الجولة، عندما كنت أقلب الدراجة رأساً على عقب وأنظفّها وأزيّتها. فقد كان يجب أن أنظف كل سيخ من أسياخ العجلة وأجففها حتى تلمع، وكنت كذلك أزيّت السلسلة وأملأ أكواب الزيت. وإذا انحرفت العجلات قليلاً أقوم بتسويتها. بهذه الطريقة كانت الدراجة دائماً في حالة جيدة للركوب في أي لحظة. وكانت عملية التنظيف والتلميع هذه تتم دائماً في الباحة، بجانب نافذة البيت الأمامية. وكنت أفرش جرائد على الأرض لأخفف من حدة غضب أمي، التي كانت لا تسمح بوجود بقع من الشحم على ممشى بيتنا الحجري.

في الحلم كنت أركب الدراجة بسهولة إلى جانب بوب براون. وكنا نقود دراجتينا ببطء لمسافة ميل أو ميلين، وندردش قليلاً استعداداً للانطلاق بسرعة. وكان بوب يحدثني عن العمل الذي سيدبره لي كميكانيكي. وقد وعدني بأنه سيعلمني كل ما أحتاج إلى معرفته. وكنت في غاية السرور لأن الأداة الوحيدة التي كنت أعرف استعمالها هي مفتاح براغي الدراجة. وقال بوب إنه يراقبني منذ فترة وخلص إلى أني شاب ذكي. وما كان يثير قلقه هو أني كنت

عاطلاً عن العمل. وكنت أحاول أن أخبره أني كنت سعيداً لكوني عاطلاً عن العمل، لأني أتمكن عندئذ من ركوب الدراجة في أوقات أكثر، لكنه كان يتجاهل هذا التعليق، ويعتبره غير ذي أهمية. وكان مصمماً على أن يجعلني ميكانيكياً من الطراز الأول. ثم نبهني بقوله: «يجب أن تكون مستعداً للسباق في الشهر القادم. اشرب الكثير من الماء، اشرب بقدر ما يمكنك استيعابه». وعلمت مؤخراً أنه كان يعاني من مشكلة في القلب. وطلب منه الطبيب أن يتوقف عن ركوب الدراجة لفترة من الزمن، لكن بوب رد قائلاً: «إني أفضل الموت على ألا أفعل ذلك». ثم كنا نتنقل من موضوع لآخر، مواضيع صغيرة مألوفة، مناسبة للحديث ونحن على الدراجة. تهب رياح خفيفة، وتتساقط أوراق الشجر. أوراق حمراء، ذهبية، بنية، جافة، تحدث خشخشة تريح أعصابنا ونحن ندوس فوقها. كنا نحمّي أنفسنا استعداداً للسباق.

وبغتة انطلق بوب بسرعة متعقباً دراجة أخرى منطلقة بسرعة. يدير رأسه ويصيح: «إنه جو فولجر!» فأنطلق وراءهما بسرعة البرق. جو *فولجر*! أحد متسابقي الأيام الستة المخضرمين. أتساءل عن السرعة التي سيجعلنا ننطلق بها. ولدهشتي، سرعان ما ينطلق بوب بسرعة كبيرة وأنا خلفه. ويصبح جو فولجر خلفي. قلبي يطرق بعنف. ثلاثة من كبار المتسابقين: هنري فال ميلر، وبوب براون، وجو فولجر. وأتساءل أين إدي روت وفرانك كرامير؟ أين أوسكار إيج، ذلك البطل السويسري الهمام؟ أدس رأسي مثل كرة بين كتفيّ. لا أحسّ بساقيّ. كلي حماس واندفاع. كلّ شيء منسق، يتحرك بسهولة ويسر، بانسجام، مثل ساعة معقدة.

وفجأة نصل أمام المحيط. سباق يصل فيه جميع المسافرين معاً. كنا نلهث كالكلاب، لكننا نشطين كأقحوانات. ثلاثة من كبار المتسابقين المخضرمين. أترجّل ويقدمني بوب إلى جو فولجر العظيم. «ياله من فتى» يقول جو فولجر وهو يتأملني من رأسي إلى

قدمي. «هل يتدرّب من أجل السباق الكبير؟» وبغتة يتحسس فخذيّ وربلتي ساقيّ، يمسك ساعدي، يعتصر عضلتي ذراعيّ. «إنه سيحرز مرتبة جيدة» أهتز طرباً ويحمر وجهي خجلاً كتلميذ مدرسة. وشعرت أن كل ما أحتاجه الآن هو أن أنازل ذات يوم فرانك كرامير، لأقدم له مفاجأة عمره.

نتسكع قليلاً، وندفع عجلاتنا بيدٍ واحدة. كم تكون الدراجة ثابتة عندما توجهها يد ماهرة! نجلس لاحتساء قليل من البيرة. وبغتة أعزف البيانو، فقط لكي أنال إعجاب جو فولجر، الذي يتبين لي أنه شخص عاطفي. وفيما نتحسس العاج الذي ننقله، الشيء الذي لا يحدث إلا في الأحلام، إلى ساحات التدريب في مكان ما في نيو جيرسي، يأتي لاعبو السيرك. وسرعان ما نرى جو فولجر يقفز من حلقة إلى أخرى. مهد مرعب، وخاصة إذا كنت تجلس بالقرب من المنحدر الكبير. ويتجول المهرجون بملابسهم الفخمة المزركشة، بعضهم يعزف الهارمونيكا، وبعضهم الآخر يقفز على الحبل أو يقفز قفزات بهلوانية.

وبعد فترة قصيرة تتحلق حولنا مجموعة منهم، ويبدؤون بفك دراجاتنا إلى قطع وتأدية بعض الخدع على طريقة جو جاكسن. كان كل ذلك يتم بشكل إيمائي. وتكاد الدموع تطفر من عيني لأني لن أتمكن من تجميع دراجتي مرة أخرى، التي تناثرت إلى قطع عديدة. «لا تهتم بذلك يا فتى» يقول جو فولجر العظيم، «سأعطيك دراجتي. ستفوز بسباقات كثيرة بها!».

كيف يدخل هيمي إلى المشهد، لا أذكر، لكنه يتواجد بغتة ويبدو كئيباً. ويخبرني أنه يوجد إضراب، وعليّ أن أعود إلى المكتب بأسرع ما يمكن. وقال إنهم سيجمعون جميع سيارات الأجرة في مدينة نيويورك لتوزيع البرقيات. أعتذر لبوب براون وجو فولجر لأني سأتركهما بهذه الطريقة المفاجئة وأغوص في السيارة التي تنتظرني. وفيما نمرّ عبر نفق هولند تنل، أغفو لأجد نفسي على

درب الدارجات ثانية، وهيمي يركب دراجة صغيرة ويسير بجانبي. كان يشبه الرجل البدين في دعاية عجلات ميشيلن. كان منقطع الأنفاس وبالكاد يستطيع أن يدفع الدراجة. وكان بوسعي أن أرفعه من وراء رقبته، هو ودراجته. يركب الآن الدراجة محلقاً في الهواء. يبدو سعيداً ككلب. يريد أن يتناول سندويشة هامبرغر وألبي طلبه بسرعة. وفيما نسير بالدراجة على طول الممشى الخشبي أمسك الهامبرغر بيد، وأرمي للرجل قطعة نقدية بيدي الأخرى.

يا إلهي، ها أنا ألتقي الآن بصديقي القديم ستاسو الذي كان ثملاً كالبابا. فقد أنهى للتو خدمته في الجيش، ومازالت ساقاه محنيتان بسبب تمارين سلاح الفرسان.

«من هذا القزم معك؟» يسأل بفظاظة.

وكان من عادة ستاسو أن يبدأ حديثه بكلمات نارية، وكان عليّ دائماً أن أهدئ من روعه قبل أن أبدأ الكلام معه.

«سأذهب إلى تشاتانوجا هذه الليلة، يجب أن أعود إلى الثكنة». يقول ويلوّح مودعاً.

«هل هذا صديقك يا سيد إم؟» يسأل هيمي ببراءة.

«نعم؟ إنه مجرد بولوني معتوه»، أجيبه.

«أنا لا أحب البولونيين يا سيد إم. أخاف منهم».

«ماذا تعني؟ نحن في الولايات المتحدة الأمريكية، تذكّر ذلك!».

«لا يهم»، يقول هيمي، «البولوني بولوني أينما كان. لا يمكنك الوثوق به»، وكانت أسنانه تصطك بالفعل.

«يجب أن أعود إلى البيت الآن»، ثم أردف مغتماً «الزوجة ستتساءل أين أنا. هل لديك وقت؟».

«حسناً. لنأخذ المترو. سيكون أسرع بعض الشيء».

«ليس بالنسبة لك يا سيد إم!» يقول هيمي وترتسم على وجهه ابتسامة متكلفة مداهنة.

«لقد قلتها يا فتى. أنا بطل. انظر كيف أعدو...» وانطلقت إلى الأمام كصاروخ، وتركت هيمي يقف هناك وذراعاه مرفوعتان وهو يصيح طالباً مني أن أعود.

الشيء التالي الذي أراه، هو أني كنت أوجّه سيارات الأجرة، أسطول كامل منها، من فوق صهوة حصان، أرتدي بلوزة مخططة، وبيدي مكبر صوت أوجّه به حركة المرور. تبدو المدينة كلها وهي تتقهقر، مهما كان الاتجاه الذي أوجهه. كان أشبه بالسير في الضباب. ومن أعلى مبنى شركة تيل أند تيل الأمريكية، يبعث الرئيس ونائب الرئيس برسائل. سيل من أوراق التلغراف تسبح في الهواء. كانت أشبه بعودة ليندبيرغ إلى الوطن ثانية. أدور بسهولة فائقة حول سيارات الأجرة، أندفع جيئة وذهاباً وأقفز دائماً أمامها، كل ذلك لأني أمتطي دراجة جو فولجر القديمة. كان ذلك الرجل يعرف كيف يتعامل مع الدراجة. التدريب؟ أيّ شيء أفضل من هذا التدريب؟ لم يكن أداء فرانك كرامير نفسه أفضل.

كان أفضل جزء في الحلم هو عندما عدت إلى استراحة بيدفورد. هاهم ثانية، كل واحد منهم يرتدي ثياباً مختلفة. العجلات تلمع وتشع، السروج مضبوطة، كلهم يقفون بشموخ، كما لو كانوا يتنشقون النسيم. كان من الرائع أن أعود إليهم ثانية، أتحسس عضلاتهم، أفحص دراجاتهم. أصبحت أوراق الأشجار أثخن، والهواء أكثر برودة. كان بوب يجمعهم، ويعدهم بتمرين جيد هذه المرة...

عندما وصلت إلى البيت في تلك الليلة ـ كانت دائماً الليلة ذاتها مهما مر الوقت ـ كانت أمي تنتظرني. قالت: «كنت ولداً جيداً اليوم، سأدعك تأخذ دراجتك إلى السرير».

«حقا؟» صحت، غير مصدق أذنيّ.

فقالت: «نعم يا هنري، لقد كان جو فولجر هنا منذ بضع دقائق. قال لي إنك ستكون بطل العالم القادم».

«هل قال لك ذلك يا أميّ؟ لا، حقاً؟».

«نعم يا هنري، قال كلّ كلمة أقولها لك. قال يجب أن يزداد وزنك قليلاً أولاً».

قلت: «ماما، أنا أسعد رجل على وجه الأرض. أريد أن أقبلك قبلة كبيرة».

قالت: «لا تكن سخيفاً، أنت تعرف أني لا أحب ذلك».

«لا يهمني ذلك يا ماما، ومع ذلك فسأقبّلك» وضممتها إلى صدري وعصرتها حتى كدت أن أشطرها إلى شطرين.

«هل تعنين ما تقولين يا ماما، ـ أن آخذ الدراجة إلى السرير معي؟».

«نعم يا هنري. لكن حاذر ألا تلوث غطاء الفراش بالزيت!».

«لا تقلقي يا ماما»، صحت. كنت في غاية السعادة. «سأضع بعض الجرائد القديمة في الوسط. ما رأيك؟».

استيقظت وأنا أتحسس الدراجة حولي. «ماذا تحاول أن تفعل؟» صاحت مونا. «إنك تخدشني منذ نصف ساعة».

«كنت أبحث عن دراجتي».

«دراجتك؟ أيّ دراجة؟ لا بد أنك تحلم».

ابتسمت. «كنت أحلم، حلم لذيذ أيضاً. الحلم كله عن دراجتي».

حاولت أن تكتم ضحكتها.

«أعرف أن ذلك يبدو سخيفاً، لكنه كان حلماً عظيماً. لقد أمضيت وقتاً ممتعاً».

ناديت بصوت عال «تيد، هل أنت هناك؟».

لم أسمع جواباً. ناديته ثانية.

غمغمت: «لا بد أنه غادر، كم الساعة الآن؟».

كنا في رابعة النهار.

«كنت أريد أن أقول له. من سوء الحظ أنه غادر». انقلبت على

ظهري ورحت أحدق في السقف. وراحت شذرات من الحلم تجول في دماغي. أحسست بالراحة. وشعرت بالجوع.

غمغمت قائلاً: «أتعرفين، أنا ما أزال مثقلاً بتأثير الحلم. أفكّر بأن أذهب وأزور ابن عمي ذاك. لعله يعيرني الدراجة لبعض الوقت. ما رأيك؟»

«أظن أنك معتوه قليلاً».

«ربما، لكني متأكد أني أحب ركوب تلك الدراجة مرة أخرى. كان يمتلكها متسابق أمضى عليها ستة أيام. باعها لي في ميدان السباق، ألا تذكرين؟».

«قلت لي ذلك عدة مرات».

«وما المشكلة في ذلك، ألا يهمك الموضوع؟ أظن أنكِ لم تركبي دراجة في حياتك، أليس كذلك؟».

«لا، لكني امتطيت الخيل».

«هذا لا شيء. ما لم تكوني فارسة. اللعنة أظن أنه من السخف أن أفكر بتلك الدراجة. لقد ولت تلك الأيام».

فجأة انتصبت في جلستي ورحت أحدق فيها. «ما مشكلتك هذا الصباح؟ ماذا حصل لك؟».

«لا شيء يا فال، لا شيء». وارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة.

أصررت: «هناك مشكلة، أنت لست على ما يرام».

قفزت من السرير وقالت: «ارتدِ ثيابك، وإلا سيحل الظلام قريباً. سأعدّ طعام الفطور».

«جميل. هل يمكننا أن نتناول لحم خنزير وبيض؟».

«أيّ شيء تحب. أسرع فقط!».

لم أستطع أن أفهم لماذا كل هذه العجلة، لكني فعلت كما طلبت. كنت أبدو في حالة رائعة، وكنت جائعاً كذئب.

رحت أتساءل ماذا لو التهمتها. ربما جاءتها الدورة الشهرية.

من السيء أن أومارا خرج خلسة في هذا الوقت المبكر. كان هناك شيء أردت أن أخبره إياه، شيء خطر ببالي عندما انتهى الحلم. حسناً، لا شك أني سأتذكره.

فتحت الستائر وتركت أشعة الشمس تغمر الغرفة. وبدا لي أن المكان أجمل من أي وقت مضى هذا الصباح. وعلى الطرف الآخر من الشارع، كانت تقف سيارة ليموزين عند الزاوية، في انتظار أن تقل السيدة في جولتها للتسوق. وفي المقعد الخلفي قبع كلبان سلوقيان كبيران، هادئان ومبجلان كالعادة. وكان بائع الزهور يسلم باقة ضخمة من الزهور. يا لها من حياة! فأنا أفضل حياتي، على أية حال. كم أتمنى أن أستعيد تلك الدراجة وكل شيء سيكون على أتم ما يرام. وبشكل ما لصق بي الحلم بعناد. البطل! يالها من فكرة جذابة!

لم نكد ننهي طعام فطورنا حتى أعلنت مونا أنها ستذهب إلى مكان ما بعد الظهر. وأكدت أنها ستعود عند العشاء.

قلت: «حسناً، خذي وقتك. لا أستطيع أن أتمالك نفسي، لكني أشعر بالروعة حتى تعجز الكلمات عن وصفها. لا يهم ما حدث اليوم، فأنا ما زلت أشعر بالارتياح».

«توقف عن ذلك!» توسلت قائلة.

«آسف يا فتاتي، لكنك ستشعرين بتحسن ما أن تطأ قدميك عتبة الباب. فالطقس أشبه بالربيع».

وما هي إلا بضع دقائق حتى ذهبت. شعرت بأني مفعم بالطاقة بحيث لم أستطع أن أقرر ماذا سأفعل. وأخيراً قررت ألا أفعل شيئاً ـ أذهب إلى محطة المترو وأتجه إلى ميدان تايمز سكوير. سأتمشى

هناك وليحدث ما يحدث. وبالخطأ خرجت عند محطة غراند سنترال. وفيما كنت أسير في جادة ماديسون، تملكتني فكرة أن أبحث عن صديقي نيد. لقد مرّ زمن طويل منذ أن رأيته. (فقد عاد إلى الاعلانات) سأزوره في مكتبه وألقي عليه التحية، ثم أغادر على الفور.

ما كاد يراني حتى قال: «هنري! كما لو أنّ الله بنفسه قد أرسلك إليّ. أنا واقع في ورطة! هناك حملة دعائية كبيرة والكل مرضى قابعون في بيوتهم. يجب أن ينتهي عمل هذا الشيء الملعون (أخرج نسخة) قبل انقضاء الليلة. إنها مسألة حياة أو موت. لا تضحك! أنا جاد فيما أقول. انتظر، دعني اشرح لك...».

جلست ورحت أنصت. باختصار، كان يحاول كتابة مقالة عن المجلة الجديدة التي كانوا سينزلونها إلى الأسواق. ولا توجد لديه سوى الفكرة الأساسية، لا شيء أكثر.

قال متوسلاً: «يمكنك أن تكتبها أنت، أنا واثق من ذلك.اكتب أيّ شيء، طالما يبدو معقولاً. أنا في مأزق حقيقي. الرجل العجوز مكفرلاند ـ تعرف من أعني، أليس كذلك؟ وراء هذا العمل. إنه يذرع الغرفة جيئة وذهاباً الآن. يهدد بأن يطردنا جميعاً إن لم نفعل شيئاً بسرعة».

الشيء الوحيد الذي كان بوسعي أن أفعله هو أن أقول نعم. قدم لي بعض المعلومات وجلست إلى الآلة الكاتبة.

انكببت على العمل. لا بد أني كتبت ثلاث أو أربع صفحات عندما دخل إلى الغرفة على أطراف أصابعه ليرى ماذا أفعل. وراح يقرأ ماكتبته من فوق كتفي. وسرعان ما أخذ يصفّق ويصيح برافو! برافو!

«هل هذا جيد؟» سألته، ولويت رقبتي إلى الوراء أنظر إليه.

«هل هذا جيد؟ هذا رائع! اسمع، إنك أفضل من الشخص الذي

يقوم بهذا العمل. لا بد أن مكفرلاند سيفقد عقله عندما يرى هذا...»
توقف بغتة، وأخذ يفرك يديه ويهمهم. «أتعرف ماذا؟ عندي فكرة. سأقدّمك إلى مكفرلاند بصفتك الرجل الجديد الذي وظفّناه. سأقول له بأنني أقنعتك بأن تقبل العمل...».

«لكني لا أريد عملاً!».

«ليس من الضروري أن تقبله. طبعاً لا. فأنا أريد أن أسكته، هذا كل ما في الأمر. بالإضافة إلى ذلك، فإن الغرض الرئيسي هو أن تتحدث إليه. إنك تعرف من هو وكل ما يفعله. ألا يمكنك أن تداهنه قليلاً؟ أغدق عليه بالإطراء! ثم حدّثه كلاماً معسولاً، إنك تفهم ماأقصد. أشر إليه كيف يطلق المجلة، كيف تبدو مغرية للقارئ، وكل هذا الهراء. ضخّم له الأمر! فهو الآن في مزاج يجعله مستعداً لتقبل أي شيء».

«لكني لا أكاد أعرف أي شيء عن هذا الأمر اللعين»، قلت محتجاً. «اسمع، من الأفضل أن تقوم أنت بذلك. وأنا سأساعدك إن أحببت».

فقال نيد معارضاً: «لا، أنت من سيتكلم. قل له أي شيء... أي شيء يجول في خاطرك. أنا متأكد يا هنري إنه سيستمع إلى أي شيء تقوله بعد أن يرى ما كتبت».

كان ثمة شيء واحد يمكنني أن أفعله. «حسناً، لكن لا تلمني إذا لخبطت الأمور»، قلت هامساً ونحن نتجه صوب المعتكف على أطراف أصابعنا.

«السيد مكفرلاند» قال نيد بأسلوبه المهذب، «هذا صديق قديم لي، اتصلت به البارحة. كان في نورث كارولاينا وهو منهمك في تأليف كتاب. ورجوته أن يأتي ويقدم لنا مساعدة. السيد ميلر، السيد مكفرلاند».

فيما كنا نتصافح، انتابني شعور بالاحترام الشديد لهذه

الشخصية العظيمة في عالم المجلات. وللحظة أو لحظتين، لم ينبس أحدنا بكلمة، بل راح مكفرلاند يتملّاني من رأسي حتى قدمي. ويجب أن أقول إنني أحببت هذا الرجل على الفور. رجل عملي، تبدو على وجهه لمحة شاعرية كئيبة. قلت في سريرتي «إنه ليس رجلاً أخرق، هذا شيء أكيد»، وتساءلت في الوقت نفسه، كيف يمكنه أن يحيط نفسه بحفنة من الحمقى والمعتوهين.

وبسرعة أوضح له نيد إنني وصلت منذ بضع دقائق فقط، وخلال هذه الفترة القصيرة، ودون أيّ معرفة بالمشروع تقريباً، تمكنت من كتابة الصفحات التي سيقدمها له الآن.

«أنت كاتب، أليس كذلك؟» سأل مكفرلاند، وهو يتطلع إليّ ويحاول أن يقرأ ما كتبت في الوقت نفسه.

«أنت أفضل من يحكم بذلك»، أجبت، مستخدماً الأسلوب الدبلوماسي.

سادت لحظات من الصمت، فيما أخذ مكفرلاند يطالع النسخة بعناية. كنت على أحرّ من الجمر. فخداع شخص مثل مكفرلاند ليس بالأمر السهل. نسيت على الفور ما كتبت. ولم أعد أتذكر ولا سطر واحد فيها.

وفجأة رفع مكفرلاند رأسه إلى الأعلى، ورفرفت على شفتيه ابتسامة دافئة، وقال إن ما كتبته واعد. وغمرني إحساس يشي بالمودّة التي نفخها فيّ الآن. وكان آخر شيء يمكن أن أفكر به هو أن أخدعه. لقد كان رجلاً من الممتع أن أعمل معه إذا قيض لي أن أعمل لحساب شخص آخر. ومن طرف عيني لاحظت نيد وهو يعطيني إشارة أن كل شيء على ما يرام.

للحظة عابرة، وفيما كنت أستجمع نفسي لهذا اللقاء تساءلت ماذا كنت سأقول لمونا لو كانت شاهدة على هذا المشهد. («ولا تنسى أن تخبر أومارا عن الآباء!» همست لنفسي).

بدأ مكفرلاند يتحدث. بهدوء شديد وسلاسة بحيث لم أكد أدرك أنه يتحدث. فمنذ البداية، اقتنعت ثانية أنه لم يكن رجلاً ساذجاً.

كان الناس يقولون عنه إنه انتهى، وإن أفكاره قد أضحت بالية. كان في الخامسة والسبعين من العمر ومازال قوياً. فلا يمكن مداهنة وخداع رجل بهذه الصفات. رحت أصغي إليه بانتباه، أومئ برأسي أحياناً، ويطفح وجهي إعجاباً به. لقد استهواني. رجل ذو أفكار عظيمة. مقامر ومجازف... تساءلت بجدية لماذا لا أعمل معه.

تحدث مطولاً. ورغم الإشارات التي كان يفعلها نيد، لم أستطع أن أقرر متى أقاطعه وأبدأ الكلام. لقد رحب مكفرلاند بمجيئنا، كان يعج بالأفكار، يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. إن قدومنا مكّنه من إفراغ ما يجيش في صدره. وكانت تنتابني رغبة عارمة في أن يتابع كلامه. وبين الحين والآخر، كنت أومئ برأسي بقوة، أو تند عني صيحة تعجب أو استحسان. فضلاً عن ذلك، كلما تحدث أكثر، كنت على استعداد أفضل لمناقشته عندما يأتي دوري.

استوى واقفاً، وراح يتحرك بعصبية، ويشير إلى المخططات، والخرائط، وأوراق أخرى معلقة على الجدران. كان رجلاً خبيراً محنكاً، رجلاً جال في أرجاء الكرة الأرضية عدة مرات، وبوسعه أن يتحدث عن معارف شاهدها بأم عينه. وكما فهمت، فقد كان يحاول أن يلفت انتباهي إلى أنه يرغب في أن يصل إلى جميع شعوب العالم، الفقيرة والغنية، الجاهلة والمتعلمة. وأن المجلة ستصدر بعدة لغات، وبأشكال مختلفة. قال لا بد أن تحدث ثورة في عالم المجلات.

وبغتة توقف متعباً. جلس إلى طاولة مكتبه الكبيرة، وصبّ لنفسه قدح ماء من الإبريق الفضي الجميل. وبدلاً من محاولة إظهار ذكائي، انتهزت الفرصة بعد فترة من الصمت، لأقول له أني أكنّ احتراماً كبيراً لشخصه وللأفكار التي ينادي بها. كنت صادقاً في ذلك. وبدأت أرى نيد يزداد تململاً. وكان كل ما يفكر فيه الكلام المعسول الذي كنت سأغدقه عليه. وأخيراً لم يعد قادراً على التحمل أكثر من ذلك.

«يوّد السيد ميلر أن يحدثك عن بضعة أشياء يظن أن لها صلة بـ...».

«لا أبداً»، قلت وقفزت واقفاً. بدا الارتباك واضحاً على نيد. «أعني يا سيد مكفرلاند، لعلّ من السخف عرض أفكاري غير المختمرة بعد. يبدو لي أنك تحدثت عن كل شيء».

بدا من الواضح أن مكفرلاند كان مسروراً. وبغتة تذكر السبب الذي جئت من أجله، فالتقط النسخة الملقاة أمامه وتظاهر بقراءتها مرة أخرى.

«منذ متى وأنت تكتب؟» سألني ورمقني بنظرة ثاقبة طويلة. «هل قمت بمثل هذا النوع من الكتابة من قبل؟».

اعترفت بأني لم أفعل ذلك من قبل.

قال: «ظننت ذلك. ولهذا السبب ربما أحببت ما كتبت. لديك وجهة نظر جديدة بالأشياء. وإنك متمكن من اللغة على نحو ممتاز. ماذا تعمل الآن، إن كان بوسعي أن أسألك؟».

لقد حشرني في الزاوية. وبما أنه كان صريحاً ومباشراً للغاية، لم يكن ثمة شيء أستطيع أن أفعله سوى أن أرد عليه بطريقته.

«الحقيقة»، تلعثمت «أنا بدأت الكتابة منذ فترة قصيرة. أجرّب الكتابة في كل شيء تقريباً، لكن لم تتبلور الأمور معي بعد. لقد ألّفت كتاباً منذ سنوات قليلة، لكني أظن أنه لم يكن جيداً».

قال مكفرلاند، «هكذا أفضل، فأنا لا أهتم بالكتّاب الشباب اللامعين. فيجب أن يكون لدى المرء تجربة واسعة قبل أن يتمكن من التعبير عن نفسه. قبل أن يكون لديه شيء يودّ أن يقوله حقاً، أعني...» وأخذ ينقر على سطح طاولة المكتب، ثم أردف قائلاً: «أريد أن أطّلع على إحدى قصصك. هل هي واقعية أم تخيلية؟».

«آمل أن تكون تخيلية» قلت بحياء!

قال: «جيد، هذا أفضل. ربما استطعنا أن نستخدم شيئاً من قصصك قريباً».

لم أعرف تماماً ماذا أقول. ولحسن الحظ هبّ نيد لنجدتي.

«السيد ميلر متواضع، ياسيد مكفرلاند. لقد قرأت كلّ شيء تقريباً كتبه. إن لديه موهبة حقيقية. بل يمكنني في الواقع أن أقول أنه عبقري».

«عبقري، دمدم! هذا مثير للاهتمام أكثر»، قال مكفرلاند.

«ألا تظن أنه من الأفضل أن أنهي هذا النص؟» تدخلت مخاطباً الرجل العجوز.

قال: «خذ الأمور ببساطة، فلدينا الكثير من الوقت... قل لي ماذا كنت تفعل قبل أن تبدأ الكتابة؟».

حكيت له قليلاً عن مغامراتي في أيام الشباب. وعندما بدأت أروي له تجاربي في مملكة شركة كوسموديمونيك استوى في جلسته. ومن هنا بدأ يقاطعني المرة تلو الأخرى. وأرغمني على سبر المزيد من التفاصيل. ثم استوى واقفاً على قدميه، وراح يذرع الغرفة بخطوات واسعة كنمر. وحثني قائلاً: «تابع، تابع! إني أصغي» لقد استوعب بلهفة كل كلمة قلتها. وطلب المزيد.

وفجأة توقف أمامي. «هل كتبت عن هذا بعد؟».

هززت رأسي.

«حسناً! لنفترض الآن أنك ستكتب لي قصة مسلسلة... هل تظن أن بإمكانك كتابتها بالطريقة التي كنت تحدثني بها منذ لحظة؟».

«لا أعرف يا سيدي، يمكنني أن أحاول».

«تحاول؟ اللعنة، افعلها يا رجل. افعلها فوراً هنا» وأعطى نيد الصفحات التي كتبتها. «لا تدع هذا الرجل يضيّع وقته في هذا الهراء. أحضر شخصاً آخر ليقوم بذلك».

«لكن لا يوجد أحد يقوم بذلك»، قال نيد، مسروراً ومكتئباً في آن واحد.

صاح مكفرلاند عالياً: «اخرج وابحث عن شخص آخر، ليس من الصعب العثور على كتّاب الإعلانات».

«نعم يا سيدي»، قال نيد.

مرة أخرى اقترب مكفرلاند مني، واشار بإصبعه إلى وجهي مباشرة. «أما بالنسبة لك أيها الشاب»، قال وهو يكاد يخرخر الآن، «أريدك أن تذهب إلى البيت الآن وتشرع في كتابة ذلك المسلسل الليلة. سنبدأ في العدد الأول. لكن لا تجعلها أدبية، أتفهم؟ أريدك أن تروي قصتك تماماً كما رويتها لي قبل دقيقة. هل يمكنك أن تملي على جهاز التسجيل؟ أظن لا. هذا سيء جداً. ستكون تلك أفضل طريقة لإفراغ ما في جعبتك. استمع الآن إليّ لم أعد غراً. إذ توجد لدي تجربة كبيرة والتقيت بالكثير من الرجال الذين كانوا يظنون أنهم عباقرة. لا تهتم إن كنت عبقرياً أم لا. بل حتى لا تعتبر نفسك كاتباً. أفرغ ما بداخلك ـ بشكل سلس وطبيعي ـ كما لو كنت ترويها لصديق. سترويها لي أترى؟ فأنا صديقك. ولا أعرف إن كنت كاتباً عظيماً أم لا. ما يهمني هو أنه لديك قصة سترويها. وإذا قمت بذلك بشكل جيد، سيكون لديّ شيء مشوق أكثر لك. إذ يمكنني أن أرسلك إلى الصين، الهند، أفريقيا، أمريكا الجنوبية ـ أي مكان تريد. فالعالم كبير وهناك متسع فيه لفتى مثلك. وعندما كنت في الحادية والعشرين جلت حول العالم ثلاث مرات. وعندما كنت في الخامسة والعشرين كنت أعرف ثماني لغات. وحين أصبحت في الثلاثين كنت أمتلك سلسلة من المجلات. أصبحت مليونيراً مرتين. هذا لا يعني شيئاً. لا تدع النقود تشغل أفكارك! وأفلست أيضاً *خمس مرات*». نقر على رأسه. «إذا كان لديك الشجاعة والخيال، سيكون هناك دائماً أناس مستعدون لإقراضك...».

نظر نيد إليّ بحدّة ثانية وقال: «لقد جعت، هل يمكنك أن ترسل أحداً ليجلب لنا بعض السندويشات؟ لقد نسيت موعد الغداء».

«سأذهب أنا نفسي»، قال نيد، متجهاً صوب الباب.

صاح مكفرلاند «اجلب ما يكفينا. أنت تعرف ما أحب. وأحضر شيئاً من القهوة أيضاً ـ قهوة ثقيلة».

عندما عاد نيد وجدنا نواصل حديثنا كما لو كنا صديقين قديمين. اكتسى وجهه ببريق من البهجة.

«كنت أخبر السيد مكفرلاند أني لم أذهب إلى نورث كارولاينا أبداً»، قلت. هبط وجه نيد. «بالإضافة إلى ذلك، فهو يعرف البيت الذي أعيش فيه. القاضي الذي كان يمتلك الشقة ـ إنهما صديقان قديمان».

قال مكفرلاند: «أظن أني سأرسل هذا الشاب إلى أفريقيا، بعد أن يكتب ذلك المسلسل لنا. إلى تمبكتو! يقول إنه في شوق للذهاب إلى هناك».

«هذا رائع» قال نيد، وهو يضع الطعام على طاولة المكتب الكبيرة ويقدم لنا القهوة.

«إن أفضل فترة تسافر فيها هي عندما تكون شاباً»، تابع مكفرلاند. «وأذكر أول رحلة قمت بها إلى الصين ولم يكن معي سوى القليل من النقود...» هنا بدأ يمضغ السندويشة. «عندما تنسى أن تأكل، تعرف عندها أنك ما تزال حياً ترزق».

بعد ساعة أو أكثر غادرت المكتب. كان رأسي في دوامة. وأخذ نيد مني وعداً بأن أنهي النسخة في البيت. وقال إن العجوز لا بد أنه أحبني. في البهو، وبينما كنت أنتظر المصعد، لحق بي. «لن تخذلني، أليس كذلك؟ أرسلها لي الليلة بالبريد الخاص. اسهر الليلة كلها إذا اضطررت إلى ذلك. شكراً!» وشد على يدي.

كان المكان غارقاً في الظلام حين وصلت إلى البيت. كنت ثملاً بالإثارة بحيث رشفت بضعة أقداح من الشيري لأهدئ نفسي.

تساءلت ماذا ستقول مونا عندما أخبرها بما حدث. نسيت النسخة في جيب معطفي ـ وكل ما كنت أفكر فيه هو تمبكتو، الصين، الهند، بلاد فارس، سيام، بورنيو، بورما، الدراجة العظيمة، طرق القوافل المتربة، روائح ومشاهد الشرق الأقصى، القوارب، القطارات، البواخر، الجمال، مياه النيل الخضراء، مسجد عمر، أسواق فاس، لغات غريبة، الغابات، السهوب، المتسولون والرهبان، الحواة والمشعوذون، النصابون، المعابد، المعابد البوذية، الأهرامات. كان عقلي في دوامة بحيث إذا لم يأت شخص لأتحدث معه بعد قليل فإني سأجن.

هناك جلست، على الكرسي الكبير أمام النافذة. وكان ضوء الشمعة يتأرجح متقلقلاً. وبغتة فتح الباب بهدوء. كانت مونا. جاءت نحوي. طوقتني بذراعيها وطبعت على خدي قبلة رقيقة. أحسست بدمعة تسيل على خدها.

«ما تزالين حزينة؟ ماذا هناك بحق السماء؟».

وللرد على سؤالي، ألقت نفسها في حضني. وبسرعة طوقتني بذراعيها. كانت تنشج. تركتها تبكي بعض الوقت، أواسيها بصمت.

«هل الأمر فظيع إلى هذه الدرجة؟» سألتها بعد حين. «ألا يمكنك حتى أن تخبريني؟».

«لا يا فال، لا أستطيع. الأمر قبيح جداً».

وشيئاً فشيئاً تمكنت من استخلاص الأمر منها. كانت عائلتها مرة أخرى. فقد ذهبت لترى أمها. كانت الأحوال بائسة أكثر من أي وقت مضى. شيء يتعلق بقرض عقاري يجب تسديده في الحال وإلا فسيفقدون المنزل.

«لكن ليست هذه هي المشكلة»، قالت وهي ما تزال تشهق، «إنها الطريقة التي تعاملني فيها. كما لو كنت شيئاً قذراً. أمي لا تصدق أني متزوجة. قالت إني عاهرة».

«بحق المسيح دعينا نتوقف عن التفكير بها»، قلت غاضباً. «الأم التي تتحدث بهذه الطريقة أم ملعونة وغير جيدة. على أي حال، من أين سنحصل على ثلاثة آلاف دولار بسرعة؟ لا بد أنها قد جنت».

«أرجوك لا تتحدث بهذه الطريقة يا فال. أنت تجعل الأمور أسوأ».

قلت: «أنا أحتقرها، لا أستطيع احتمال ذلك حتى لو كانت أمك. بالنسبة لي هي مجرد علقة. لتتدبر أمورها بنفسها، هذه العاهرة العجوز الغبية!».

«فال! فال! أرجوك...» بدأت تبكي من جديد، وبشدة أكبر الآن.

«حسناً، لن أفوه بكلمة أخرى. أنا آسف لأني تركت لساني يفلت مني...».

في تلك اللحظة بالذات رن الجرس، تلته بضع نقرات سريعة على زجاج النافذة. قفزت واقفاً وهرعت لأفتح الباب. كانت مونا ما تزال تبكي.

«حسناً، فليلعنني الله» صحت، عندما رأيت من الواقف هناك.

«لا بد أن تكون اللعنة قد حلت عليك، أتتوارى عن صديقك الحميم طوال هذا الوقت. فأنا أعيش عند ناصية الشارع ولا أراك. ما زلت ابن الحرام الذي أعرفه، إنك لم تتغير؟ حسناً، كيف حالك على كل حال؟ هل أستطيع أن أدخل؟».

كان آخر شخص كنت أرغب في رؤيته في تلك اللحظة - ماكجريجور.

«ماذا في الأمر... هل هناك أحد يموت؟» صاح، وهو ينظر إلى الشمعة ومونا مكومة على الكرسي الكبير، ودموعها تسيل على وجهها. «هل تشاجرتما؟» وتوجه نحو مونا ومدّ يده، ومسّد رأسها. «لا تتركيه ينال منك»، غمغم، محاولاً أن يظهر قليلاً من التعاطف. «شيء لطيف أن نفعله في هذا الوقت من اليوم. هل تناولتما طعام

العشاء بعد؟ فكرت أن أزوركما وأدعوكما إلى الخارج. لم أحلم أني سأدخل بيتاً في حِداد».

«بحق الله، توقف عن ذلك!» قلت متوسلاً. «لماذا لا تنتظر حتى أوضّح الأمور».

«أرجوك لا تقل شيئاً يا فال»، قالت مونا. «سأكون على ما يرام في الحال».

«هذه هي الطريقة اللائقة للتحدث»، قال ماكجريجور، وجلس بجانبها واتخذ وضعية شخص محترف. «الأشياء ليست سيئة كما تتخيل».

«بحق المسيح، هل يجب أن نستمع إلى هذا المعتوه؟ ألا ترى أنها في ورطة؟».

وفي الحال غيّر أسلوبه. استوى واقفاً وقال بجدية: «ماذا في الأمر، يا دجاجتي، هل في الأمر شيء جدي؟ أنا آسف لو تدخلت في الموضوع».

«كل شيء على ما يرام، أرجو أن تصمت قليلاً. مسرور أنك أتيت. ربما كان الخروج للعشاء في الخارج فكرة جيدة».

«اذهبا أنتما الاثنان، أنا أفضّل أن أبقى هنا»، قالت مونا.

«إذاً هناك شيء يمكنني أن أفعله...» بدأ ماكجريجور.

انفجرت ضاحكاً. «بالتأكيد هناك شيء يمكنك أن تفعله»، قلت. «اجمع لنا ثلاثة آلاف دولار قبل صباح الغد!».

«يا إلهي، هل هذا ما يقلقك؟» سحب سيجاراً كبيراً من جيبه وقضم طرفه. «ظننت أن الأمر يتعلق بشيء مأساوي».

قلت: «كنت أمزح، لا، لا يتعلق الأمر بالمال».

«بإمكاني دائماً أن أقرضك عشرة دولارات»، قال ماكجريجور فرحاً. «أما عندما يتعلق الأمر بالآلاف فإنك تتكلم لغة لا أفهمها.

لايوجد أحد معه ثلاثة آلاف دولار يعطيها لك على الفور، ألا تعرف ذلك بعد؟».

«لكننا لا نريد ثلاثة آلاف دولار»، قلت.

«إذن لماذا تبكي ـ من أجل القمر؟».

«أرجوكما اذهبا واتركاني وشأني؟» قالت مونا.

«لا يمكننا أن نفعل ذلك»، قال ماكجريجور، «اسمعي يا فتاتي، مهما كان الأمر أقسم أنه ليس بهذه الدرجة من السوء كما تظنين. هناك دائماً منفذ، تذكري ذلك. هيا، اغسلي وجهك وضعي شيئاً عليك، ايه؟ إني أدعوكما إلى مطعم جيد الآن».

بغتة انفتح الباب. كان أومارا يقف هناك، عصبي المزاج. كان يبدو أنه هبط كالمنّ من السماء.

«كيف دخلت؟» كانت تحية ماكجريجور. «كانت آخر مرة وقعت عيني عليك في لعبة بوكر. لقد احتلت عليّ وأخذت مني تسعة دولارات. كيف حالك؟» ومدّ يده.

«أومارا يعيش معنا»، أوضحت بسرعة.

«هذا يفسر الأمر»، قال ماكجريجور. «الآن يجب أن تقلقي، فأنا لا أثق بهذا الرجل حتى لو كان يرتدي سترة المجانين».

«ماذا في الأمر؟» قال أومارا، ورأى فجأة مونا مكورّة في الكرسي الكبير، والدموع تذرف من عينيها. «ماذا في الأمر؟».

قلت: «لا شيء هاماً، سأخبرك فيما بعد. هل تناولت العشاء؟».

وقبل أن يرد أخذ ماكجريجور يتكلم: «أنا لم أدعه. بالتأكيد يمكنه أن يأتي إذا كان سيدفع عن نفسه. ولكن ليس ضيفاً عليّ».

ابتسم أومارا ابتسامة عريضة عندما سمع ذلك. كان في مزاج رائع بحيث لا يمكن لشيء عادي أن يعكّر صفوه.

«اسمع يا هنري»، قال وهو يتجه مباشرة لتناول شراب كأس

من الشيري، «لدي أشياء كثيرة أريد أن أخبرك إياها. أشياء رائعة. لقد أمضيت يوماً عظيماً اليوم».

«كذلك أنا»، قلت.

«هل تمانع إن حصلت على كأس من الشراب أيضاً؟» قال ماكجريجور. «بما أنه يوم رائع بالنسبة لكما فلعل كأساً يحسن من مزاجي».

«هل سنخرج لتناول العشاء؟» سأل أومارا. «لا أريد أن أفشي السرّ إلا بعد أن يستقر بنا المقام في مكان ما». وأردف «توجد أشياء كثيرة أريد أن أخبرك بها، لا أريد أن أفسدها إذا قلت نصفها».

اتجهت نحو مونا وسألتها: «هل أنت متأكدة أنك لن تأتي معنا؟».

«نعم يا فال، أنا متأكدة» قالت بصوت واهن.

«أوه هيا»، قال أومارا، «عندي أخبار رائعة لك».

قال ماكجريجور: «هيا، استجمعي نفسك، فأنا لا أدعو الناس لتناول الطعام معي كل يوم ـ خاصة في مطعم جيد».

وأخيراً وافقت مونا على الذهاب معنا. جلسنا ننتظرها حتى ترتّب البيت. شربنا مزيداً من شراب الشيري.

قال ماكجريجور: «أتعرف يا هن، لديّ إحساس داخلي بأني سأتمكن من فعل شيء من أجلك. ماذا تفعل هذه الأيام؟ تكتب كما أظن. ومفلس، ايه؟ اسمع، إننا بحاجة إلى ضارب آلة كاتبة في مكتبنا. الأجر ليس كبيراً، لكنه قد يساعدك في تدبير أمورك. أعني حتى تثبت جدارتك» وأنهى جملته هذه بنظرة خبيثة وضحكة مكتومة.

ضحك أومارا في وجهه. «طابع آلة كاتبة! هاو، هاو!».

«هذا لطف منك ياماك»، قلت، «لكني لست بحاجة إلى عمل الآن. لقد رفضت وظيفة هامة اليوم».

«ماذا؟» صاح أومارا. «يا إلهي، لا تقل لي ذلك! لقد دبرت لك عملاً ـ وعمل جيد أيضاً. هذا ما أردت أن أخبرك به».

«إنه ليس عملاً حقيقياً،»، أوضحت، «إنه تكليف بعمل. سأكتب قصة مسلسلة لمجلة جديدة. وبعدها قد أذهب إلى أفريقيا، الصين، الهند...».

لم يتمكن ماكجريجور من تمالك نفسه، فانفجر قائلاً: «إنس الموضوع ياهنري. إن أحدهم يخدعك. إن أجر العمل الذي أتحدّث عنه عشرين دولاراً في الأسبوع. مال حقيقي. اكتب مسلسلك كشيء إضافي. إذا كان جيداً فلن تخسر شيئاً، صحيح؟ لكن بصدق ياهنري، ألم تصبح في سن يجعلك لا تستطيع الاعتماد على مثل هذه الأشياء؟ متى ستكبر؟».

انضمت مونا الآن. «ما هذا الذي أسمعه عن العمل؟ إن قال لا يريد عملاً. كلامكم هراء، جميعكم».

«هيا، لنذهب»، استحثنا ماكجريجور. «فالمكان الذي سآخذكم إليه يقع في فلاتبوش. عندي سيارة في الخارج».

تكوّمنا في السيارة وتوجهنا إلى المطعم. وبدا أن صاحب المطعم يعرف ماكجريجور جيداً. لعله كان زبونه.

عقدت لساني الدهشة عندما سمعت ماكجريجور يقول: «اطلبوا أيّ شيء تحبون. ماذا عن الكوكتيل أولاً؟».

«هل عنده نبيذ جيد؟» سألت.

«من تحدث عن النبيذ؟» قال ماكجريجور. «لقد سألتك إن كنت تريد أن تشرب كوكتيل أولاً».

«بالتأكيد. لكني أريد أن أرى لائحة النبيذ أيضاً».

«هذا ديدنك. دائماً تصعّب الأمر عليّ. بالتأكيد، موافق، هيا تابع، اطلب نبيذاً إن كنت تحب. أما أنا فلا أمسه أبداً. إنه يسبب حموضة في معدتي».

قدموا لنا حساء جيداً أولاً، ثم جاءت بطة صغيرة مشوية يسيل اللعاب لها. «قلت لكم إنه مطعم جيد، أليس كذلك؟» صاح ماكجريجور. «متى خذلتك، قل لي، يا ابن الحرام... إذن وظيفة طابع آلة كاتبة ليست جيدة بالنسبة لك، أليس كذلك؟».

«إن فال كاتب، لا طابع آلة كاتبة»، قالت مونا بحدّة.

«أعرف أنه كاتب»، قال ماكجريجور، «لكن على الكاتب أن يأكل أحياناً، أليس كذلك؟».

«وهل تراه يموت جوعاً؟» ردت مونا.

«ما الذي تحاول أن تفعله، هل ترشونا بوجبة طعامك الجيدة؟».

«أنا لا أتحدث بهذه الطريقة إلى صديق حميم»، قال ماكجريجور، وقد استشاط غضباً. «لم أكن أريد إلا أن أتأكد أنه على ما يرام. فأنا أعرف هنري عندما لا يكون في أحوال جيدة».

«لقد ولت تلك الأيام»، قالت مونا. «ما دمت معه فهو لن يجوع».

«جميل!» قال ماكجريجور. «لا أريد أن أسمع أفضل من هذا. لكن هل أنت متأكدة أنه بإمكانك دائماً أن تعيليه؟ لنفترض أن شيئاً ما حدث لك؟ افترضي أنك أصبحت عاجزة؟».

«ما تقوله كلام فارغ وهراء. فلن أصبح عاجزة».

«الكثير من الناس يفكرون هكذا، لكن ذلك يحدث».

«كفاك نعيقاً»، قلت له متوسلاً. «اسمع، قل لنا الحقيقة. لماذا أنت متحمس جداً لكي أقبل هذه الوظيفة؟»

ابتسم ابتسامة عريضة. «أيها النادل!» صاح، «أحضر مزيداً من

النبيذ!» ثم ضحك ضحكة مكبوتة. «لا أستطيع أن أخدعك يا هنري؟ سأقول *الحقيقة*. الحقيقة هي أني كنت أريدك أن تقبل الوظيفة لكي تكون حولي. أنا أفتقدك. الحقيقة هي أن أجر الوظيفة هو خمسة عشر دولاراً في الأسبوع فقط، وكنت سأدفع لك الدولارات الخمسة الأخرى من جيبي. فقط لأتمتع بوجودك بقربي، لأستمع إليك وأنت تتكلم بحماسة. فأنت لا تستطيع أن تتخيّل كم هم أغبياء هؤلاء اللقطاء الذين يعملون في القانون. فأنا لا أعرف عما يتحدثون نصف الوقت. أما بالنسبة للعمل، فليس هناك عمل كثير. بوسعك أن تكتب كل القصص التي تحب ـ أو مهما كنت تفعل بحق الجحيم. أنا أعني ما أقول. أتعرف أني لم أرك منذ أكثر من سنة. في البداية كنت منزعجاً. ثم فكرت وقلت، يا إلهي، فقد تزوج. أعرف كيف هو حال المتزوجين... إذاً أفهم أنك جاد بشأن عمل الكتابة هذا، أليس كذلك؟ حسناً، يجب أن تعرف ما تريد أن تفعله. إنها لعبة قاسية، لكنك ربما استطعت أن تتغلب عليهم. أنا أتسلى بهذه الفكرة بنفسي أحياناً. بالطبع لم أعتبر نفسي عبقرياً في حياتي. عندما أرى الفضلات الموجودة فأقول ما عاد أحد يبحث عن عبقري. إن مهنة الكتابة سيئة شأن لعبة القانون، صدق أو لا تصدق. لا تظن أنها سهلة وميسرة لي! فلهذا الرجل العجوز إحساس أكثر منّا نحن الاثنين. فقد أصبح تاجر حديد. سيعيش حياة أطول منا جميعنا، هذا الحقير».

هنا تدّخل أومارا قائلاً: «هل بإمكاني أن أقول كلمة على الهامش؟ أنا أحاول أن أخبرك يا هنري منذ ساعة أو أكثر. لقد التقيت بشاب اليوم قال إنه مغرم بأعمالك. وقد دفع اشتراكاً لمدة سنة للحصول على الصور النحاسية».

«الصور النحاسية؟ عمّا تتحدثان؟»، صاح ماكجريجور.

«سنخبرك فيما بعد... تابع ياتيد!».

كالعادة كانت قصة طويلة. إذ يبدو أن أومارا لم يتمكن من النوم في تلك الليلة بعد أن تحدثنا عن دار الأيتام. فقد راح يفكر

بالماضي، ثم انتقل تفكيره إلى أمور كثيرة أخرى. ورغم أن النوم قد جافاه فقد نهض مبكراً، مفعماً بالرغبة لأن يفعل شيئاً. ووضع جميع مخطوطاتي في حقيبته، وانطلق مصمماً أن يتحدث إلى أول رجل يصادفه. ثم قرّر أن يتوجه إلى جيرسي سيتي. وكان أول مكان يصل إليه مخزن لبيع الأخشاب. وكان الرئيس قد وصل للتو وبدا في مزاج جيد. «هبطت عليه كما يقع طن من أحجار الآجر، فقد خلبت لبّه»، قال أومارا. «الحق أقول إني لم أعرف ماذا كنت أقول له. كل ما كنت أعرفه هو أني كنت أريد أن أبيعه»، وتبين أن تاجر الأخشاب شخص سهل الانقياد. لم يكن يعرف ماذا في الأمر، لكنه كان مستعداً لتقديم المساعدة. وبشكل ما تمكن أومارا من تحويل الأمر برمته إلى مستوى شخصي جداً. فقد كان يبيع للرجل صديقه الحميم هنري ميلر، الذي يؤمن به أشد الإيمان. ولم يكن الرجل مغرماً بالكتب وبذلك النوع من الأشياء إلا أن فكرة مساعدة عبقري واعد في الظهور راقت له. «كان يكتب شيكاً للاشتراك»، قال أومارا، «عندما خطرت لي الفكرة بأن أحثه على المزيد. وضعت الشيكات في جيبي أولاً، بالطبع، ثم أخرجت مخطوطاتك. وضعت الكومة كلها على طاولة مكتبه، أمامه تماماً. أراد أن يعرف للتو كم من الوقت تستغرق كتابة هذا الكم الكبير من الكلمات. قلت له ستة أشهر. كاد يسقط عن كرسيه. بالطبع، واصلت كلامي معه بسرعة لكي لا يبدأ بقراءة هذه الأشياء اللعينة. ثم انحنى قليلاً إلى الوراء في كرسيه الدوار وضغط زرّا. وسرعان ما ظهر سكرتيره. وطلب منه أن يخرج الملفات المتعلقة بحملة الدعاية التي شرعوا بها في السنة الماضية».

«أعرف ماذا سيحصل بعد ذلك»، لم أتمالك نفسي عن إبداء الملاحظة.

«انتظر دقيقة يا هنري، دعني أكمل. هاهي الأخبار الجيدة».

تركته يكمل حديثه. وكما توقعت كانت وظيفة. ولست ملزماً بالذهاب إلى المكتب كل يوم، يمكنني أن أقوم بالعمل في البيت.

«بالطبع عليك أن تمضي معه بعض الوقت من حين لآخر»، قال

أومارا. «إنه يتوق لرؤيتك. والأهم من ذلك فإنه سيدفع لك مبلغاً جيداً. يمكنك أن تقبض خمسة وسبعين دولاراً في الأسبوع على الحساب، كبداية. ما رأيك بذلك؟ يمكنك أن تجمع بين خمسة آلاف وعشرة آلاف دولار قبل أن تنهي العمل. هذا شيء مضمون. يمكنني أن أفعل ذلك بنفسي، لو كنت أعرف كيف أكتب. أحضرت لك بعض المواد التي يريدك أن تدرسها. يمكنك أن تكتبها بسهولة بالغة».

قلت: «يبدو الأمر رائعاً، لكني حصلت على عرض آخر اليوم. أفضل من هذا».

لم يسرّ أومارا أيضاً لسماع هذا.

قال ماكجريجور: «يبدو لي أنكما تفعلان الشيء الكثير دون مساعدتي».

«هذا كله هراء»، قالت مونا.

«اسمعي»، قال أومارا، «لماذا لا تدعيه يكسب بعض المال من عمل شريف؟ سيفعل ذلك لبضعة شهور فقط. وبعدها يمكنك أن تفعلي ما تشائين».

رنت كلمة *عمل شريف* في أذنيّ ماكجريجور. «ماذا يفعل الآن؟» سأل، ثم استدار نحوي «ظننت أنك تكتب. ماذا في الأمر يا هن، قل لي ماذا تفعل الآن؟».

قدمت له ملخصاً قصيراً عن الوضع، وعرضته برقة من أجل مونا.

قال: «لمرة واحدة أظن أن أومارا على حق، فلن تصل إلى شيء بهذه الطريقة».

«أرغب أن تهتما بنفسيكما ولا تتدخلا في أمورنا» قالت مونا على الفور.

«هيا، هيا»، قال ماكجريجور، «لا تطلبي منا أن نحترم هنري، فهو صديقنا القديم. ولن نقدم له نصيحة سيئة؟».

«إنه ليس بحاجة إلى نصيحة»، أجابت. «إنه يعرف ماذا يفعل».

«حسناً يا أختاه، إذاً افعلا ما تشاءان!» ثم استدار نحوي فجأة مرة أخرى. «ماذا كان العرض الآخر الذي كنت ستحدثنا عنه؟ عن الصين، الهند، أفريقيا...».

«أوه ذلك»، قلت ورحت أبتسم.

«من أي شيء تخجل؟ اسمع ربما احتجتني لأصبح سكرتيراً لك. سأتخلى عن القانون في دقيقة واحدة إذا كان هناك شيء يمكنني أن أعمله. أعني ما أقول يا هنري».

استأذنت مونا للذهاب لإجراء مكالمة هاتفية. وهذا يعني أنها مشمئزة أيضاً من سماع أي كلمة عن «الاقتراح».

«ما الذي يزعجها؟» قال أومارا، «لماذا كانت تبكي عندما عدت إلى البيت؟».

قلت: «لا شيء، مشاكل عائلية. أظن أنها مسألة تتعلق بالنقود».

«إنها فتاة غريبة الأطوار»، قال ماكجريجور. «إنك لا تمانع من قولي هذا، أليس كذلك؟ أعرف أنها مخلصة لك وكل ما في ذلك، لكن أفكارها مخطئة تماماً. ستقع في مأزق حقيقي إن لم تنتبه إلى نفسك».

كانت عينا أومارا تلمعان وقال مغرداً: «إنك لا تعرف النصف الآخر من الحقيقة يا صاحبي. لهذا السبب كنت متحمساً لأعمل شيئاً من أجلك هذا الصباح».

«اسمعا ياصديقيّ، لا تقلقا من أجلي. أنا أعرف ماذا أفعل».

«إلى الجحيم!» قال ماكجريجور. «إنك تقول لي ذلك منذ أن عرفتك ـ وماذا حلّ بك؟ ففي كل مرّة نلتقي أراك في ورطة جديدة. ذات يوم ستطلب مني أن أخرجك بكفالة من السجن».

«حسناً، حسناً، لكن لنتحدث عن ذلك في وقت آخر. هاهي آتية ـ لنغير الموضوع. فأنا لا أريد أن أزعجها أكثر من اللازم ـ لقد كان يوماً صعباً عليها».

«هكذا إذن، فعندك العديد من الآباء»، تابعت دون توقف، متطلعاً مباشرة إلى أومارا. كانت مونا على وشك الجلوس على كرسيها. «كما كنت أقول منذ لحظة...».

«ما هذا ـ الحديث الخادع؟» قال ماكجريجور.

«ليس له»، قلت، لم يرفّ لي جفن. «كان يجب أن أوضح الكلام الذي دار بيننا في الليلة السابقة، لكنه حديث طويل جداً. على أي حال، كما كنت أقول، عندما أفقت من الحلم عرفت بالضبط ما كان عليّ أن أخبرك».

(لم أنقل نظري عن أومارا طوال الوقت). «لا علاقة له بالحلم».

«أيّ حلم؟» قال ماكجريجور باستياء.

«الحلم الذي فسرته لك»، قلت، «اسمع، دعني أنهي كلامي معه».

«أيها النادل!» نادى ماكجريجور، «اسأل هذين السيدين ماذا يودان أن يشربا. أنا ذاهب إلى الحمام».

«إنها هكذا»، قلت مخاطباً أومارا، «إنك محظوظ لأنك فقدت أباك عندما كنت طفلاً. الآن يمكنك أن تجد أباك الحقيقي وأمك الحقيقية. العثور على أبيك الحقيقي أهم من العثور على أمك الحقيقية. فقد لقيت عدة آباء، لكنك لا تعرف ذلك. أنت غني يا رجل. لماذا تنبش الأموات؟ تطلع إلى الأحياء! فهناك آباء في كل مكان، حولك، آباء أفضل بكثير من الأب الذي منحك اسمه أو الأب الذي أرسلك إلى دار الأيتام. لكي تجد أباك الحقيقي يجب أن تكون أولاً ابناً باراً».

كانت عينا أومارا تتلألأن وحثني قائلاً: «هيا تابع، إنه كلام جيد رغم أني لا أعرف بحق الجحيم عمّا تتكلم».

قلت: «لكنه بسيط، انظر الآن ـ خذني أنا مثلاً. هل خطر لك كم أنت محظوظ لأنك وجدتني؟ فأنا لست أباك، بل أنا أخ جيد لك. هل سألتك أسئلة محرجة عندما تعطيني مالاً؟ هل أحثك لتبحث عن عمل؟ هل أقول شيئاً إن استلقيت في السرير طوال اليوم؟».

«ما معنى كل هذا؟» سألت مونا، مستمتعة بالحديث رغماً عنها.

«تعرفين جيداً ما أتحدث عنه»، أجبت. «إنه بحاجة إلى عطف».

«كلنا بحاجة إلى عطف»، قالت مونا.

«لسنا بحاجة إلى شيء»، قلت. «ليس في الواقع. فنحن محظوظون، نحن الثلاثة. إذ إننا نأكل كل يوم، ننام مرتاحين، نقرأ الكتب التي نريد قراءتها، نرتاد المعارض أحيانا... وعند كل منا الآخر. أب؟ لماذا نحتاج إلى أب؟ اسمع، فقد حلّ ذلك الحلم كل شيء بالنسبة لي. حتى أني لا أحتاج إلى دراجة. لو حلمت وأنا أركب الدراجة بين الحين والآخر لسارت الأمور على ما يرام. إنها أفضل من الشيء الحقيقي. ففي الأحلام لا يمكن أن تُثقب عجلتك أبداً، وإذا ثقبت فلا يهمك الأمر قيد أنملة. يمكنك أن تركب الدراجة طوال اليوم وطوال الليل دون أن تشعر بالتعب. تيد على حق. يجب على المرء أن يتعلم كيف يفرغ رغباته في الحلم... فلو لم أر ذلك الحلم لما التقيت بذلك الرجل مكفرلاند اليوم. أوه، لم أخبرك بذلك بعد، أليس كذلك؟ حسناً، لا يهم، في وقت آخر. المسألة هي أنه عُرضت عليّ فرصة أن أكتب لمجلة جديدة. فرصة للسفر أيضاً...».

«لم تخبرني بذلك أبداً»، قالت مونا، كلها آذان صاغية الآن. «أريد أن أسمع...».

«أوه، هذا جيد» قلت، «لكن يبدو أنها فشل آخر».

«لا أفهم»، واصلت كلامها. «ماذا ستكتب له؟».

«قصّة حياتي».

«حسناً...؟».

«لا أظن أن بوسعي فعلها. ليس بالطريقة التي أرادني أن أفعلها، على أية حال».

«أنت مجنون»، قال أومارا.

«سترفضه؟» قالت مونا، متحيرة تماماً من موقفي.

«سأفكّر بالموضوع أولاً».

«لا أفهمك أبداً»، قال أومارا. «هاهي فرصة عمرك وأنت... لماذا، رجل مثل مكفرلاند يمكن أن يجعلك مشهوراً بين ليلة وضحاها».

«أعرف»، قلت، «هذا ما أخشاه. فأنا لست مستعداً للنجاح بعد. أو بالأحرى لا أريد هذا النوع من النجاح. بيني وبينكما - سأكون صادقاً معكما - فأنا لا أعرف كيف أكتب. ليس بعد! أدركت ذلك فور أن قدم لي عرضا لكتابة المسلسل الملعون. سأستغرق وقتاً طويلاً قبل أن أعرف كيف أقول ما أريد أن أقوله. ربما لن أتعلّم. ودعوني أقُل لكما شيئاً آخر... فأنا لا أريد أيّ وظائف بين الحين والآخر... لا وظائف في الدعاية والإعلان ولا وظائف في الصحافة، ولا أي نوع من أنواع العمل. كل ما أطلبه هو أن أسير على طريقتي. دائماً أقول لكم بأنني أعرف ماذا أفعل. أعني ما أقول. ربما يبدو ذلك سخيفاً، لكنها طريقتي. لا أستطيع أن أسير بطريقة أخرى، هل تفهمان؟»

لم ينبس أومارا بكلمة، لكني أحسست أنه متعاطف معي. أما مونا، فقد غمرتها البهجة بالطبع. إذ ظنت أني أبخس حق نفسي، لكنها كانت في غاية السرور لأني لن أقبل العمل. ومرة أخرى كررت ما كانت تقوله لي دائماً: «أريدك أن تفعل ما تشاء يا فال. لا أريدك أن تفكر بأيّ شيء ما عدا عملك. لا يهمني إن استغرق ذلك عشر سنوات أو عشرين سنة. لا يهمني إن لم تحقق نجاحاً أبداً. فقط اكتب!».

«ماذا سيستغرق عشر سنوات؟» سأل ماكجريجور، وقد وصل في الوقت المناسب لمسك طرف الحديث.

«أن أصبح كاتباً»، قلت مبتسماً.

«ما زلتم تتحدثون عن ذلك؟ انس الموضوع! إنك كاتب ياهنري، لا أحد يعرف ذلك سواك. هل انتهيتم من تناول الطعام؟ عليّ أن أذهب إلى مكان ما. لنخرج من هنا. سأوصلكم إلى المنزل».

خرجنا بسرعة. كان دائماً في عجلة من أمره، ماكجريجور، حتى لحضور لعبة بوكر، كما تبين. قال يحدث نفسه: «إنها عادة سيئة، وأنا لا أربح أيضاً. إذا كان عليّ أن أفعل شيئاً فأظن أن أدخل في مثل هذا الهراء. إنها وسيلة لقتل الوقت».

«لماذا يجب أن تقتل الوقت؟» سألت. «ألا يمكنك أن تبقى معنا؟ يمكنك أن تقتل الوقت أيضاً بمضغ العلكة، إذا كان عليك أن تقتل الوقت».

«هذا صحيح»، أجاب بجدية، «لم أفكّر بذلك. لا أعرف، يجب أن أكون في حركة دائمة طوال الوقت. إنها نقطة ضعف».

«أما زلت تقرأ كتباً؟»

ضحك. «لا أظن ذلك يا هنري. أنتظرك حتى تؤلف كتاباً. ربما سأعود للقراءة» أشعل سيجارة. «أوه، بين الحين والآخر، أختار كتاباً»، أعترف بخجل نوعاً ما، «لكني لا أجد كتباً جيدة. لقد فقدت الإحساس بالتذوق. أقرأ بضعة سطور لكي أنام، هذه هي الحقيقة ياهنري، لم يعد بإمكاني قراءة دوستويفسكي الآن، أو توماس مان، أو هاردي، بل أفضّل أن أطهو وجبة طعام. لم يعد عندي صبر... ولا اهتمام. إنك تتعفن وأنت جالس في المكتب طوال الوقت. أتتذكر يا هنري كيف كنت أدرس عندما كنا أطفالاً؟ يا إلهي، كان لديّ طموح. كنت سأدمّر العالم. أما الآن.. حسناً... لا يهم البتة. في مهنتنا لا أحد يهتم إن كنت قرأت دوستويفسكي أم لا. الشيء المهم هو هل بإمكانك أن تربح القضية؟ ولا تحتاج إلى ذكاء كبير لكي تربح القضية، دعني أقلْ لك ذلك. إذا كنت في غاية الذكاء فإنك تبتعد عن المحكمة. وتدع شخصاً آخر يقوم بالعمل القذر. نعم، إنها

القصة القديمة يا هنري. لقد مللت من تكرارها. لا أحد يمتهن القانون إذا أراد أن تبقى يداه نظيفتين. وإذا فعل فإنه سيموت جوعاً... أتعرف، إني ألومك دائماً لأنك كسول. أظن أني أحسدك. يبدو أنك دائماً تقضي وقتاً جميلاً. تمضي وقتاً طيباً حتى لو كنت تتضور جوعاً. أنا لا أمضي وقتاً طيباً أبداً. لم أعد أمضي وقتاً سعيداً. لماذا تزوجت فأنا لا أعرف. لأجعل شخصاً آخر بائساً، كما أظن. إن الطريقة التي أنتهجها تبدو مدهشة. فمهما فعلت من أجلي فهو خطأ. فأنا لا أفعل شيئاً سوى أن أصرخ في وجهها».

«هيا» قلت أستثيره «إنك لست بهذه الدرجة من السوء».

«أنا لست سيئاً؟ يجب أن تعيش معي بضعة أيام. اسمع فأنا مشاكس، ومتصلب الرأي، حتى أني لا استطيع أن أعيش مع نفسي - أيعجبك ذلك؟».

«لماذا لا تقطع حنجرتك وتنتحر؟» قلت، وارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة. «حقاً، عندما تصل الأشياء إلى هذه الدرجة من السوء، فليس هناك ثمة بديل».

«أتقول لي ذلك؟» صاح. «كل يوم أفعل ذلك مع نفسي كل يوم. نعم يا سيدي» وضرب على المقود بحدة «في كل يوم من حياتي أسأل نفسي إن كان يجب عليّ أن أستمر في الحياة أم لا».

«المشكلة أنك لست جدياً»، قلت. «يجب عليك فقط أن تسأل هذا السؤال مرة وأنت تعرف».

«أنت مخطئ يا هنري! إنها ليست بهذه الدرجة من السهولة». احتج. «أتمنى أن يكون ذلك. أتمنى أن أستطيع أن أجري قرعة بقذف عملة نقدية وأنهي المسألة».

«هذه ليست الوسيلة لحلها»، قلت.

«أعرف يا هنري، أعرف. لكنّك تعرفني! أتتذكر أيام زمان؟ ياإلهي، حتى أني لم أستطع أن أقرر أن أمتهن هذه المهنة أم لا»

ضحك رغماً عنه. «هل لاحظت أنك بينما تتقدم في السن، يبدو أن الأشياء تعتني بنفسها. إذ إنك لا تناقش ما ستفعل في كل خطوة ستخطوها. تتذمر فقط».

كنا نقترب من الباب. خفف سرعته عند الوداع. «تذكّر ياهنري»، قال، مثيراً الموضوع من جديد، «إذا وجدت نفسك في مأزق، فهناك دائماً عمل لك في راندل وراندل وراندل. عشرون دولاراً في الأسبوع... لماذا لا تزورني بين الحين والآخر؟ لاتجعلني أجري وراءك طوال الوقت!».

4

«أحس في نفسي نشوة نورانية»، يقول لويس لامبيرت، «إلى درجة أني أستطيع أن أنير العالم، ومع ذلك فأنا حبيس معدن ما». هذه العبارة التي يقولها بلزاك بلسان إحدى شخصياته، تعبّر تماماً عن الكرب الغامض الذي أصبحت ضحية له في تلك الفترة. وكنت أعيش في الوقت ذاته حياتين متباعدتين تمام البعد. إذ يمكن وصف إحداهما «بالدوامة البهيجة»، والأخرى «بالحياة التأملية أو التصوفية». ففي دور الكائن الحيوي، كنت ذلك الشخص الذي يراه الجميع على حقيقته، أما في الدور الآخر، فلم يكن يعرفني أحد، ناهيك عني أنا نفسي. ومهما تعاقبت الأحداث المضطربة بسرعة، الواحدة تلو الأخرى، كانت هناك فواصل دائماً، ذاتية الخلق، تستحوذ عليّ من خلال التأمل. ولم يكن الأمر يحتاج إلا إلى بضع لحظات، على ما يبدو، لكي أستعيد العالم المعزول عني. إلا أن ذلك كان يحتاج إلى فترات أطول بكثير من الكتابة ـ لكوني وحيداً مع نفسي ـ. وكما ذكرت في أحايين كثيرة، لم تتوقف لديّ عملية الكتابة. إلا أن الانتقال من هذه العملية الداخلية إلى عملية الترجمة، كان دائماً خطوة كبيرة. واليوم يصعب عليّ، في أحايين كثيرة، أن أتذكّر متى أو أين قلت هذه العبارة أو تلك، أو أن أتذكّر إن كنت قلتها في الواقع في مكان ما، أم أني كنت أنوي أن أقولها في وقت ما. ثمة نوع عادي من النسيان، ونوع خاص من النسيان، الذي لعله يعود إلى رذيلة العيش في عالمين في آن واحد. وإحدى نتائج هذا

المنحى هي أن تعيش أشياء مرات لا تحصى. والأنكى من كل ذلك هو أن أي شيء تنجح في نقله إلى الورق، يبدو شيئاً ضئيلاً جداً مقارنة بما قد سجلته في رأسك. هذه التجربة اللذيذة التي يعرفها الجميع، والتي تُحدث الإثارة التي تلازمك في الأحلام ـ أعني السقوط في حالة مألوفة: الالتقاء بالشخص ذاته مراراً وتكراراً، السير في الشارع ذاته، مواجهة الحالة المماثلة نفسها ـ هذه التجربة تحدث لي في معظم الأحيان في لحظات اليقظة. فكم من مرة حاولت أن أتذكر أين استخدمت فكرة محددة، حالة معينة، شخصاً بذاته! وكنت أتساءل على نحو مسعور، إن كانت قد وردت في مخطوطة كنت قد أتلفتها في لحظة طيش. وعندما أكون قد نسيتها تخطر لي بغتة كونها أحد المواضيع الأبدية التي أحملها في داخلي، والتي دونتها في الأثير، التي كتبتها مئات المرات، لكني لم أدوّنها على الورق أبداً. أسجل ملاحظة لكي أكتبها في أول فرصة تسنح لي، حتى أنتهي منها، حتى أدفنها إلى الأبد. أسجل الملاحظة ـ وأنساها بسرعة... كما لو أن هناك لحنين يعزفان في آن واحد: لحن للاستخدام الخاص، ولحن للعامة. ويكمن الصراع في أن يدخل اللحن الداخلي الدائم في ذلك الجوهر الصغير.

هذا الاضطراب الداخلي هو الذي اكتشفه أصدقائي في سلوكي. وكانوا يأسفون لأني لم أكن أعبّر عنه في كتاباتي. وكنت أكاد أرثي لحالهم. إلا أنه كانت ثمة مسحة فيّ، مسحة منحرفة، تمنعني من أن أعبّر بصدق عن ذاتي. وكان هذا «العناد» يبرز دائماً هكذا: «اكشف عن ذاتك الحقيقية فيمزقونك إرباً إرباً»، ولا أعني بـ «هم» أصدقائي وحدهم، بل العالم كله.

ذات مرة، صادفت كائناً شعرت أنه يمكنني أن أسلّم له ذاتي تماماً. ولكن للأسف، لا توجد هذه الكائنات إلا في الكتب. لقد كانت أسوأ من الموتى بالنسبة لي ـ إذ لم تكن توجد إلا في المخيلة. فكم من حوار دار بيني وبين أرواح شبحية متماثلة! أحاديث تبحث عن

الروح لم يُسَجل منها ولا سطر واحد، بل كانت عصية على التسجيل. وكانت هذه الأحاديث تدور بلغة غير موجودة، لغة بسيطة جداً، مباشرة جداً، شفافة جداً، بحيث كانت الكلمات فيها عديمة الفائدة. ولم تكن لغة صامتة أيضاً، كالتي تستخدم غالباً في التواصل مع «كائنات أعلى»، بل كانت لغة تتسم بالصخب والاضطراب، صخب القلب، اضطراب القلب. لكنه صخب دون ضجيج أو ضوضاء. فإذا كان دوستويفسكي هو الذي استحوذ عليّ، كان بمعنى آخر «دوستويفسكي بكليته»، الرجل الذي كتب الروايات، ودوّن المذكرات والرسائل التي نعرفها، بالإضافة إلى كونه الرجل الذي نعرفه بما خلّفه وراءه دون أن يتفوه به، دون أن يكتبه. وإذا جاز التعبير فقد كان نمطاً متكلماً، دائماً حافلاً، مدوياً، صادقاً؛ دائماً ذلك النوع من الموسيقى التي نثق بها، سواء كانت مسموعة أم غير مسموعة، سواء كانت مسجلة أم غير مسجلة. لغة لا يمكن أن تنبثق إلا من دوستويفسكي.

بعد تبادل الأفكار والمشاعر الحميمة الصاخبة، كنت في غالب الأحيان أجلس إلى الآلة الكاتبة، ويعتريني إحساس بأن الوحي قد هبط عليّ أخيراً. فأقول لنفسي «الآن يمكنني أن أقولها!». فأجلس هناك، صامتاً، ساكناً، يجرفني دفق الكلمات الرائع. وكان بوسعي أن أجلس هكذا ساعات وساعات، سارح الفكر تماماً، غافلاً تماماً عما يجري حولي. وبغتة يجعلني صوت أو متطفل خارجي غير متوقع، أجفل وأستيقظ من غيبوبتي، أستيقظ مجفلاً، أنظر إلى الورقة الفارغة، وببطء، ومشقة أكتب جملة، أو ربما عبارة فقط. وأجلس محدقاً في هذه الكلمات، كما لو أن يداً مجهولة هي التي كتبتها. وعادة كان يصل أحدهم ليبطل السحر. فإذا كانت مونا، فإنها كانت تندفع بحماس زائد (إذ تراني جالساً أمام الآلة الكاتبة) وتتوسل إليّ أن أدعها تلقي نظرة على ما كتبت. وفي بعض الأحيان، حين أكون ما أزال في حالة شبه غيبوبة، كنت أجلس هناك كإنسان آلي، وهي تحدق في الجملة، أو العبارة التي كتبتها. وكنت أجيب عن

استفساراتها المربكة بصوت فارغ أجوف، وكأنه آت من مكان قصي، أو أتكلم من خلال ميكروفون. وفي أحيان أخرى كنت أهب واقفاً كالعفريت الذي يخرج قافزاً من القمقم، وأكذب عليها أكذوبة كبيرة (بأنني أخفيت «الصفحات الأخرى» مثلاً)، وتكيل لي المديح بجنون. ثم أدخل معها في حديث لا ينتهي، كما لو كنت أقرأ من كتاب. كل ذلك لأقنعها ـ وأقنع نفسي أكثر ـ بأني مستغرق في العمل، مستغرق في التفكير، مستغرق في الخلق. وكانت تسرف في الاعتذار، وتشعر بالارتباك لأنها قاطعتني في اللحظة غير المناسبة. فأقبل اعتذارها قليلاً بعبث، وكأن لسان حالي ـ «وماذا يهم؟ فمايزال هناك الكثير... إذ كل ما عليّ أن أفعله هو أن أفتح الصنبور أو أغلقه... فأنا لست إلا حاوٍ»، ومن أكذوبة أخلق حقيقة. أنهي الموضوع (المقطوعة الناقصة) كرجل مسكون ـ مواضيع، مواضيع ثانوية، تقلبات، جمل معترضة ـ وكأن الشيء الوحيد الذي كنت أفكّر فيه طوال حياتي هو الخلق. وكان يرافق ذلك بالطبع الكثير من التهريج. فلم أكن أخترع الشخصيات والأحداث فحسب، بل كنت أتقمصها أيضاً. وكانت مونا المسكينة تصيح: «هل ستذكر كل هذا حقاً في القصة؟ أو في الكتاب؟» (ولم يتمكن أيّ منا أن يحدد في تلك اللحظة، أي كتاب). فعندما كانت تذكر كلمة كتاب، كان يفترض دائماً أن يكون الكتاب، أي الكتاب الذي سأشرع قريباً في تأليفه ـ أو الكتاب الذي كنت أكتبه سرّاً، والذي لن أريها إياه إلا بعد أن أفرغ منه. (وكانت تتصرف دائماً وكأنها واثقة من أن هذا العناء السري جارٍ، بل إنها كانت تدعي أنها بحثت عن المخطوطة في كل مكان خلال غيابي). في هذا الجو لم يكن من غير المعتاد الإشارة من حين لآخر إلى بعض الفصول، أو بعض المقاطع، التي لم يكن لها وجود، بل التي كان يُسلَّم بوجودها، والتي كانت حقيقية بالنسبة (لنا) أكثر مما لو كانت بالأسود والأبيض. وكانت مونا تدخل أحياناً في هذا النوع من الأحاديث في وجود شخص ثالث، مما كان يؤدي بالطبع، إلى مواقف رائعة، وفي أحيان كثيرة إلى مواقف في غاية الإحراج.

وإذا كان أولريك هو الذي يستمع، فلم يكن ثمة داع للقلق. إذ كان يدخل في اللعبة بطريقة لم تكن ظريفة فقط بل مثيرة أيضاً. فقد كان يعرف جيداً كيف يصحح زلّة لسان مبالغاً فيها بطريقة مضحكة ومشجعة. فقد يكون مثلاً قد نسي لوهلة أننا كنا نستخدم الزمن الحاضر، ويبدأ في استخدام الزمن المستقبل. («أعرف أنك ستؤلّف كتاباً كهذا ذات يوم!») وما هي إلا لحظات حتى يتدارك خطأه ويضيف: «لم أكن أعني أنك ستؤلف ـ أعني الكتاب الذي تؤلفه الآن». وكنا في ذلك الحين نجد متعة في ما نقوم به، وكنا نضحك بصخب. وكانت ضحكة أولريك دائماً الأكثر ودّاً والأكثر قذارة. فقد كان يبدأ ضحكه هكذا «هو! هو! لكن ألسنا جميعنا كذابين رائعين! فأنا أقوم بعمل جيد. وإذا أقمت معكما لفترة طويلة، فلن أعود أعرف أنني أكذب. هو هو هو! ها ها ها! هي هي هي» ويصفق فخذيه براحتيه، وتبرق عيناه، وتنتهي ضحكته بتمطق شفتيه، وبطلب صامت للحصول على قطعة سكاكر صغيرة... أما مع الأصدقاء الآخرين فلم يكن الأمر يسير سيراً حسناً. إذ كانوا ينحون أيضاً لطرح أسئلة «وقحة»، كما كانت تقول مونا. أو كانوا يتململون ويمتعضون، ويبذلون جهوداً مسعورة ليعودوا إلى أديم الأرض. وكان كرونسكي، مثل أولريك، يعرف كيف يلعب اللعبة جيداً. ولم يكن يلعبها كما كان يلعبها أولريك، إلا أنه كان يبدو أنه يفعل ذلك إرضاء لمونا. وكان بإمكانك أن تثق به. هكذا كانت تقول مونا لنفسها، كما أشعر. والمشكلة تكمن في أن كرونسكي كان يلعب اللعبة على نحو رائع. فلم يكن يقنع في أن يكون مجرد متواطئ فقط، بل كان يريد أن يرتجل أيضاً. وكان حماسه هذا، الذي لم يكن كله شيطانياً، يضفي على بعض المناقشات الغريبة ـ مناقشات عن تقدم الكتاب الأسطوري ـ متعة خاصة. وكانت اللحظة الحاسمة تأتي دائماً عندما تنفجر مونا في نوبة من الضحك الهستيري. وهذا يعني أنها لم تعد تعرف أين وصلت. أما بالنسبة لي فلم أكن أبذل جهداً كبيراً لمجاراة الآخرين، إذ لم أكن أهتم بالدخول إلى مملكة الكذب والتصنع. ولم

أكن أبدي تأثراً، وأزعم أن كل شيء على ما يرام. وكنت أضحك عندما كنت أريد، أو كنت أوجه نقداً أو أصحح معلومة، لكني لم أكن أعطي انطباعاً بأي شكل من الأشكال، لا بالتلميح ولا بملامح الوجه بأنها كانت مجرد لعبة...

حوادث صغيرة غريبة كانت تحدث باستمرار لتحول دون أن تسير حياتنا على نحو سلس رتيب. وفي بعض الأحيان كان يحدث أكثر من أمر في آن واحد كما يحدث عند انطلاق المفرقعات النارية. فبداية اختفت رسائلنا الغرامية على نحو مفاجئ وغامض، تلك التي كنا قد خبأناها في كيس كبير ووضعناها أسفل الخزانة. ومضى أسبوع أو أكثر قبل أن يتبين لنا أن المرأة التي كانت تأتي لتنظيف المنزل من حين لآخر ألقت الكيس في القمامة. وكادت مونا تنهار عندما سمعت الخبر. وقالت بإلحاح: «يجب أن نعثر عليها!». لكن كيف؟ فقد أنهى الزبّال جولته وذهب. وحتى إذا افترضنا أننا وجدنا المكان الذي ألقاها فيه، فستكون مدفونة الآن تحت جبل من القمامة. إلا أنها لم تقتنع، ورحت أبحث عن مكان مقلب النفايات. وعرض عليّ أومارا أن يرافقني إلى المكان. كان أشبه بالطريق إلى جهنم، في بقعة من منطقة فلاتلاند، كما أظن، أو بالقرب من كانارسي، منطقة مهجورة، غطتها سحابة كثيفة من الدخان. وبذلنا جهداً كبيراً لتحديد البقعة التي ألقى فيها الرجل القمامة في ذلك اليوم. عمل شاق ومجنون. لكني شرحت الوضع برمته للسائق، وتمكنت من أن أقدح شرارة في ضميره الهمجي. وبذل ما بوسعه لكي يتذكر، لكن دون جدوى. وانهمكنا أنا وأومارا في العمل، ورحنا نغرز القمامة بعصا من الخيزران. لقد كشفنا كل شيء تحت الشمس إلا الرسائل الغرامية المفقودة. وبذل أومارا كل ما بوسعه ليثنيني عن جلب كيس من الأشياء الغريبة إلى البيت. وعثر هو على علبة غليون ممتازة، رغم أني لم أعرف ماذا كان يريد أن يفعل بها، لأنه لم يسبق له أن دخّن

غليوناً قط. وقنعت أنا بمدية جيب ذات قبضة من العظم ويعلو نصلها صدأ شديد ويتعذر فتحها. كما حشرت في جيبي فاتورة لشاهدة قبر، صادرة عن القائمين على مقبرة وودلاف.

نظرت مونا إلى فقدان الرسائل نظرة مأساوية. واعتبرت الحادثة طالعاً سيئاً. (بعد سنوات، عندما قرأت ما حدث لبلزاك فيما يتعلق برسائل عشيقته مدام هانسكا، تذكرت هذه الحادثة).

وفي اليوم الذي أعقب زيارتنا إلى مقلب النفايات تلقيت زيارة غير متوقعة من الملازم في مخفر الشرطة التابع لمنطقتنا، الذي جاء يبحث عن مونا التي، لحسن الحظ، لم تكن في البيت آنئذ. وبعد عبارات المجاملة سألته ما المشكلة. فطمأنني أنه لا توجد مشكلة حقيقية، بل كان يريد أن يطرح بضعة أسئلة فقط. وبما أني كنت الزوج فقد تساءلت بصوت مرتفع إن كان بوسعي أن أجيبه عنها. تردد قليلاً لكي يستجيب لهذا الاقتراح المهذب وسألني: «متى تتوقع عودتها؟». قلت: «لا أعرف». «هل هي في العمل»، تجرأ وسأل. قلت: «هل تعني أن لديها عمل؟»، فتجاهل سؤالي وقال: «وألا تعرف أين ذهبت؟». كان مملاً. أجبته أنه ليس لدي أدنى فكرة. وكلما سأل أكثر، ازددت كتماناً. كنت ما أزال لا أعرف ما يدور في خلده.

أخيراً، عرفت ما كان يرمي إليه عندما سألني إن كانت ربما تعمل فنانة. «بطريقة ما»، قلت، بانتظار السؤال التالي. «حسناً»، قال وأخرج من جيبه صورة نحاسية ووضعها أمامي «لعله بوسعك أن تحدثني شيئاً عن هذه».

غمرني ارتياح شديد، قلت «بالتأكيد! ماذا تحب أن تعرف؟».

«حسناً»، بدأ مسنداً ظهره إلى الكرسي ليتمتع بمناقشة طويلة، «ما هذا؟ أعني هذا الاحتيال؟».

ابتسمت. «لا يوجد احتيال. إننا نبيعها».

«لمن؟».

«لأي شخص. كل الناس. هل ثمة خطأ في هذا؟».

سادت لحظة صمت ليحك رأسه.

«هل قرأتها أنت نفسك؟» سأل، وكأنه يوجّه تهمة.

«بالطبع قرأتها، فأنا من كتبها».

«هذه؟ أنت كتبتها؟ ظننت أنها هي الكاتبة؟».

«كِلانا».

«لكن اسمها موقّع عليها».

«هذا صحيح. لدينا أسبابنا الخاصة».

«هكذا إذاً؟» أخذ يعبث بأصابعه، محاولاً أن يركز أفكاره.

انتظرته ليلفظ المفاجأة الكبيرة.

«وهل تكسب عيشك من بيع هذه... هذه الأوراق؟».

«نحاول».

دخلت مونا في هذه اللحظة. قدّمتها إلى الملازم الذي لم يكن يرتدي زياً رسمياً.

ولدهشتي صاحت: «كيف لي أن أعرف أنه الملازم مورغن؟» لم تكن طريقة لبقة للبدء.

إلا أن الملازم لم يشعر بالامتعاض، بل راح يوضح لها طبيعة زيارته بكياسة ولطف.

«الآن، أيتها الشابة»، قال متجاهلاً ما تطوعت لتفسيره «هل تتفضلين وتخبريني لماذا كتبت هذه المقالة القصيرة؟».

هنا تحدثنا نحن الاثنين في وقت واحد. صحت «قلت لك أنا كتبتها!». ولم تعر مونا كلماتي أي اهتمام: «لا أرى أي سبب يدعوني لأن أشرح ذلك للشرطة».

«هل كتبت هذا، يا آنسة. أو بالأحرى يا سيدة ميلر؟».

«نعم».

قلت: «إنها لم تكتبها».

قال الملازم بأسلوب أبوي: «الآن من منكما الذي كتبها؟ أم أنكما كتبتماها كلاكما؟».

قالت مونا: «ليس له علاقة بها».

قلت محتجاً: «تحاول أن تحميني، لا تصدق ولا كلمة مما تقوله».

«ربما كنت أنت تحاول حمايتها!» قال الملازم. لم تستطع مونا أن تكبح نفسها. صاحت «حمايتها؟».

«إلى ماذا تريد أن تصل؟ ما الخطأ في هذا... هذا...؟» وشعرت بالارتباك لما يطلق عليه دليل الجريمة.

«لم أقل إنك ارتكبت جريمة. أريد أن أعرف فقط ما الذي دفعك إلى كتابتها».

نظرت إلى مونا ثم إلى الملازم مورغن وقلت: «دعني أوضح لك؟ فأنا الذي كتبتها. كتبتها لأني كنت غاضباً، لأني أكره أن أرى الظلم. وأريد أن يعرف الناس ذلك. هل هذا يجيب على سؤالك؟».

«إذاً أنتِ لم تكتبيها؟» قال الملازم مورغن مخاطباً مونا. «يسرني أن أعرف ذلك. فلا أستطيع أن أتصور صبية جميلة مثلك تقول مثل هذه الأشياء».

شعرت مونا بالارتباك ثانية. فقد توقعت رداً آخر.

«سيد ميلر»، واصل كلامه مغيّراً نبرته قليلاً «وصلتنا شكاوى حول هذه المقالة اللاذعة، إن جاز لي أن أدعوها ذلك. فالناس لايحبون هذه النبرة في الكلام. إنه كلام تحريضي. يبدو كأنه راديكالي. وأنا أعرف أنك لست راديكالياً، بالطبع، وإلا لما كنت تقيم في بيت كهذا. فأنا أعرف هذه الشقة جيداً. كنت ألعب الورق هنا مع القاضي وأصدقائه».

شعرت بالارتياح. وعرفت الآن أنه سينهي حديثه بتقديم نصيحة لطيفة لكي لا أصبح مشاغباً.

«لماذا لا تقدمين شراباً للملازم؟» قلت لمونا. «ألا تمانع من احتساء شيء معنا، أيها الملازم؟ أظن أنك خارج الخدمة الآن». أجاب: «لا أمانع أبداً، والآن بدأت أعرف أي نوع من الناس أنتما. طبعاً تعرفان أنه يجب أن نبحث في هذه الأشياء. إنه الروتين. هذه منطقة قديمة ورزينة».

ابتسمت ابتسامة تدل على أني فهمت قصده. ثم تذكرت فجأة الشرطي الذي أنبني عندما كنت غلاماً. وقد ألهمتني ذكرى هذه الحادثة. بعد أن رشفت قدحاً من النبيذ دفعة واحدة، تفحصت الملازم مورغن.

«أنا من حي 14th Ward القديم»، قلت له مع ابتسامة مشرقة. «لعلك تعرف الكابتن شورت والملازم أواكلي؟ أو جينيمي دن؟ لا بد أنك تتذكر بات مكارين؟».

«أنا من غرينبوينت»، قال، ماداً يده. «حسناً، حسناً، ما الذي تعرفه!» كنا واضحين.

قلت: «بالمناسبة، هل تفضل أن تحتسي كأساً من الويسكي. لم يخطر لي أن أسألك في البداية (لم يكن لدينا ويسكي لكني كنت أعلم أنه سيرفض)، ثم أضفت: مونا، أين الويسكي الموجود عندنا؟».

«لا، لا!» قال محتجاً. «لا أريد. هكذا جيد».

«إذاً أنت من حي 14th Ward القديم... وإنك كاتب؟ قل لي ماذا تكتب بالإضافة إلى هذه...هه... هذه...؟ ما نوع الكتب التي تؤلفها؟».

قلت: «ألفت عدداً من الكتب، سأرسل لك آخر كتاب ألفته حالما يصدر من المطبعة».

«سيكون ذلك لطفاً منك. وابعث لي شيئاً كتبته زوجتك أيضاً؟

يجب أن أقول أنك اخترت سيدة شابة ذكية. من المؤكد أنها تعرف كيف تدافع عنك».

تحدثنا عن أيام زمان ثم قرر الملازم مورغن أنه مضطر للذهاب.

«سنحتفظ بهذا تحت... ماذا قلت إنك تدعو هذه الأشياء؟».

«صور نحاسية» قالت مونا.

«حسناً. تحت حرف ص إذاً. إلى اللقاء وعسى أن يحالفك الحظ في الكتابة! إذا وقعت في مشكلة تعرف أين تجدني».

تصافحنا وأغلقت الباب وراءه بلطف.

«أووف!» قلت وارتميت على الكرسي.

قالت مونا: «في المرة القادمة أي إنسان يسأل عنّي، قل له إن الذي كتب المقالات هو أنا. من حسن الحظ أني وصلت في هذا الوقت. إنك لا تعرف كيف تتعامل مع هؤلاء الناس».

قلت: «ظننت أني أحسنت التصرف».

قالت: «يجب ألا تكون صادقاً مع الشرطة».

قلت: «هذا يتوقف على الشخص، يجب أن تميزي في المعاملة».

ردت: «لا يمكن الوثوق بهم. يجب ألا تكون لطيفاً معهم... أنا سعيدة أن أومارا لم يكن هنا. إنه أكثر حماقة منك في مثل هذه الأمور».

«ملعون أنا إن فهمت على ماذا تعترضين».

«لقد أضاع وقتنا. لم يكن يتعين عليك أيضاً أن تعرض عليه مشروباً».

«اسمعي، أنت تثيرين مشكلة لأمر تافه. الشرطة إنسانية أيضاً، أليس كذلك؟ ليسوا كلهم وحوشاً».

«لو كان لديهم شيء من الذكاء لما أصبحوا شرطة. لا يوجد واحد فيهم جيد».

«حسناً. لنغلق هذا الموضوع».

«أتظن أن الأمر انتهى ـ لأنه كان لطيفاً معك. هذه هي طريقتهم في خداعك. لقد أصبح اسمنا في سجلاتهم الآن. في المرة القادمة سيطلبون منا الانتقال من هذه المنطقة».

«أوه، هيا، هيا!».

«حسناً، سترى... ذاك الخنزير، كاد يأتي على الزجاجة!».

أما الحادثة المزعجة التالية، فقد حدثت بعد أيام قليلة. فقد دأبت في الأسابيع القليلة الماضية على الذهاب إلى طبيب الأسنان، وهو صديق يدعى الدكتور زابريسكي الذي تعرفت عليه عن طريق آرثر رايموند. وقد يمضي المرء سنوات طويلة وهو جالس في غرفة الانتظار في عيادته. وكان من عادة زابريسكي أن يعمل قليلاً على السن الذي يعالجه في كل مرة. وكان مغرماً بالثرثرة، إذ كنت تجلس وفمك مفتوحاً وفكاك يؤلمانك يمطرك بوابل من الكلمات.

وكان أخوه بوريس يشغل ركناً من العيادة حيث يقوم بتصنيع الجسور وأطقم الأسنان الاصطناعية. وكانا لاعبي شطرنج عظيمين، حيث كان عليّ في أغلب الأحيان أن أجلس وألعب معه الشطرنج قبل أن يبدأ العمل على أسناني.

وكانت الملاكمة والمصارعة من بين الأشياء الأخرى التي كان الدكتور زابريسكي مهووساً بها. فقد كان يحضر جميع المباريات مهما كانت أهميتها. وكالعديد من اليهود في العالم المهني، كان مولعاً أيضاً بالموسيقى والأدب. إلا أن أروع ما فيه أنه لم يكن يلّح عليّ أن أدفع له. إذا كان متساهلاً وخاصة مع الفنانين الذين كان يشعر بالضعف أمامهم.

أحضرت له ذات يوم مخطوطة كنت قد انتهيت من كتابتها للتو،

أمجّد فيها بلغة نثرية مفرطة في البلاغة، هرقل الصغير، المصارع اليوناني جيم لوندوس. وراح زابريسكي يقرؤها، وأنا جالس على الكرسي، فاغراً فمي إلى أقصى ما يمكنني وفكايّ يؤلماني ألماً شديداً. وأحس بنشوة كبيرة وهو يقرؤها: وكان عليه أن يريها إلى أخيه بوريس في الحال، ثم اتصل بآرثر رايموند يحدثه عنها ثم التفت إليّ وقال: «لم أكن أعرف أنه يمكنك أن تكتب بهذا الشكل». وقال إنه يجب أن نتعرف إلى بعضنا أكثر. وتساءل إن كان بوسعنا أن نلتقي في مكان ما ذات مساء ونتجاذب أطراف الحديث في أشياء بعمق أكثر.

حددنا موعداً واتفقنا على اللقاء في مقهى رويال بعد العشاء. وجاء آرثر رايموند وكرونسكي وأومارا. وسرعان ما انضم إلينا أصدقاء زابريسكي. وكنا على وشك أن ننتقل إلى المطعم الروماني، عند منعطف الشارع، عندما اقترب من طاولتنا رجل عجوز ذو لحية يبيع علب عيدان الثقاب وربطات أحذية. لا أعرف ما الذي تملكني ساعتها، إلا أني قبل أن أتمكن من ضبط نفسي، رحت ألهو وأعابث الشيطان المسكين، وأخذت أضايقه بالأسئلة التي لم يتمكن من الإجابة عنها، وأتفحص ربطات الأحذية بدقة، أحشو سيجاراً في فمه. بشكل عام تصرفت معه كوغد وأبله. وراح الجميع ينظرون إليّ بدهشة، ثم باستياء شديد. واغرورقت عينا العجوز بالدموع. حاولت أن أصرف الأنظار بدعابة قائلاً لعله يخفي ثروة في حقيبة قديمة. وساد بعد ذلك صمت مطبق. فجأة أخذني أومارا من ذراعي وغمغم قائلاً: «هيا لنخرج من هنا، لقد بدأت تستخف بنفسك». واستدار نحو الآخرين وقال لهم لا بد أني ثمل، وطلب أن يرافقني لنتمشى قليلاً. وفي طريقنا إلى الخارج وضع قليلاً من المال في يد العجوز، الذي رفع قبضته وراح يكيل لي سيلاً من الشتائم.

ما كدنا نصل إلى منعطف الشارع حتى صادفنا شيلدون، ذاك المجنون.

«سيد ميلر!»، صاح، ماداً يديه والابتسامة ترتسم على وجهه

وانفرجت شفتاه عن صف طويل من الأسنان الذهبية. «سيد أومارا! لقد كنا نشكل أخوية الضالين منذ زمن طويل».

أحطناه أنا وأومارا من جانبيه، أذرعنا متشابكة، ورحنا نسير نحو النهر. كانت البهجة تغمر شيلدون. وقال إنه لم يترك ركناً في المدينة إلا وبحث فيه عني. وأنه على ما يرام الآن، وعنده مكتب لا يبعد كثيراً عن منزله.

«وماذا تفعل حالياً ياسيد ميلر؟».

قلت له بأنني أؤلّف كتاباً.

حين قلت له ذلك، انفصل عنا ووقف أمامنا، ثنى ذراعيه على صدره، وارتسمت على وجهه قسمات جدية على نحو سخيف. وكادت عيناه تغمضان، وزّم شفتيه. وتوقعت أن تنبعث من خلال الشفتين المحكمتي الإغلاق صافرة قوية.

«يا سيد ميلر»، بدأ كلامه بطيئاً وبأسلوب وعظي، وكأنه يدعو العالم كله للإنصات. «كنت أريدك دائماً أن تؤلف كتاباً. إن شيلدون يفهم. نعم في الحقيقة». قال ذلك بفظاظة، ومطّ شفته السفلى إلى الخارج، وأخذ يهز رأسه إلى الأمام والوراء في موافقة عنيفة.

«إنه يكتب عن الكلونديك»، قال أومارا، جاهزاً دائماً لإثارة شيلدون.

«لا، لا!» قال شيلدون، وبدت على وجهه ابتسامة ماكرة، وأخذ في الوقت نفسه يلوّح بسبابته إلى الوراء والأمام أمام وجهينا. «إن شيلدون يعرف أن السيد ميلر يؤلّف كتاباً عظيماً». وأمسكنا فجأة من ساعدينا، ثم أرخى قبضته ووضع سبابته على شفتيه وقال: «هس س س!» وتطلع حوله كمن يريد أن يتأكد من أننا لم نكن نسمع. ثم راح يسير باتجاه الخلف، وأصبعه ما تزال مرفوعة. وراح يحركها إلى الأمام والوراء، مثل جهاز ضبط الإيقاع الموسيقي. ثم همس: «انتظر، إني أعرف مكاناً... هس هس!».

«نريد أن نمشي»، قال أومارا بعنف، ودفعه جانباً وشدّني إلى الأمام. «إنه ثمل، ألا ترى ذلك؟».

بدا شيلدون مذعوراً وأخذ يصيح: «أوه لا! لا، يا سيد ميلر!» ثم مال ليتطلع إلى وجهي من الأسفل، وأخذ يكرر: «لا، فالسيد ميلر لا يسكر أبداً»، وأخذ يهرول الآن، ساقاه مقوستان، وسبابته ما تزال تهتز. أخذ أومارا يغذ الخطى بسرعة. وتوقف شيلدون أخيراً في مكانه، وتركنا نبتعد عنه مسافة طويلة. وجثم هناك وذراعاه مطويتان فوق صدره، لا يتحرك. ثم، وعلى حين غرة بدأ يعدو.

وبعد أن لحق بنا همس «احذرا، فالبولونيون هنا. هس هس!».

ضحك أومارا في وجهه.

«لا تضحك!» قال له شيلدون متوسلاً.

«إنك مجنون!» قال له أومارا هازئاً.

سار شيلدون بجانبنا، بسرعة وبحذر، وكأنه يسير حافياً فوق قطع من الزجاج المكسور. ولاذ بالصمت بضع لحظات. ثم توقف فجأة، وفتح معطفه وسترته الفضفاضة، وزرّر خلسة جيوبه الداخلية، ثمّ الأزرار الخارجية لسترته، ثم معطفه. ومطّ شفته السفلى إلى الأمام، وضيّق عينيه اللتين تشبهان المثقب إلى شقّين، ثم أرخى قبعته إلى الأسفل فوق عينيه، واندفع إلى الأمام. تم كل ذلك بصمت مطبق. ثم مد إحدى يديه وهو صامت، وأخذ يدير خواتمه اللامعة نصف استدارة. ثم دفع يديه داخل جيبي معطفه وهمس: «هدوء!» وأخذ يطأ الآن بحذر أكبر.

«إنه أحمق»، قال أومارا.

«هس هس!».

ضحكت ضحكة مكتومة. وبدأ يتكلم الآن بنبرة مكتومة، على نحو غير مسموع تقريباً، وبالكاد كانت شفتاه تتحركان. وتمكنت من فهم شذرات مما كان يقوله فقط.

«افتح فمك!»، قال أومارا.

«هس هس!» مزيد من الهذر والهمهمة كانت تنتهي احياناً بـ

كوووووووووو أو أيييييييييييي، ويتخللها صيحات مكتومة، مع تلك الصافرة الجهنمية. لقد أصبح الأمر مخيفاً. وكنا نقترب من خزانات الغاز الآن وساحات الأخشاب الكئيبة. وكانت الشوارع الفارغة مثيرة للفزع والكآبة. وفجأة أحسست بأصابع شيلدون تخدش ذراعي. وانطلق صوت غريب من بين شفتيه المتصدعتين الرقيقتين. أخذ يجرني ويومئ برأسه. كان يفعل ذلك كما يرمي الحصان بعرفه إلى الخلف.

تطلعت حولي فجأة. كان على الجانب الآخر من الشارع رجل ثمل يسير مترنحاً باتجاه البيت. رجل ضخم، سترته مفتوحة على وسعها، ولم يكن يضع ربطة عنق، ولا قبعة. وكان بين الحين والآخر يتوقف ليطلق شتيمة.

«أسرع، أسرع!» همس شيلدون، وأمسكني بقوة أكثر.

«شه! حسناً»، غمغمت.

«البولونيون!» همس. كنت أحسّ بجسده يرتعش.

«لنعد إلى الجادة»، قلت لأومارا. «إنه في حالة يرثى لها».

«نعم، نعم» نشج شيلدون. «هذا الطريق أفضل»، وأخرج يداً بحذر وارتعاش عصبي ومرفقه ملتصق بجسده، مثل حركة جهاز السيمافور، وما أن استدرنا حول الناصية حتى بدأ يغذّ الخطى. كان يركض ويمشي في آن واحد، وظل رأسه يميل يمنة ويسرة، يخشى أن يرانا أحد على غفلة منا. وعندما وصلنا إلى محطة المترو استأذناه وانصرفنا، ولكن بعد أن أعطيته عنواني. وكان عليّ أن أكتبه له داخل علبة ثقاب.

لم تتوقف يداه عن الارتعاش، وأسنانه تصطك.

«شيلدون سيراك قريباً» قال يودعنا ملوحاً بيده. ثم توقف عند أسفل الدرجات، استدار، ووضع إصبعه على شفتيه.

«هسسس!» قال أومارا بصوت عال. ابتسم شيلدون ابتسامة

عريضة جدية. ثم، ودون أن يصدر صوتاً، حرّك شفتيه باهتياج. بدا لي أنه يحاول أن يقول *بولوني*. لعله ظن أنه سيصرخ.

«ما كان يجب أن تعطيه عنواننا»، قال أومارا. «هذا الرجل سيطاردنا. إنه آفة. يثير فزعي». واهتز كما الكلب.

قلت «إنه ليس سيّئاً، وإذا ظهر فإني أعرف كيف سأتعامل معه. كما أني أحب شيلدون إلى حد ما».

«أنت!» قال أومارا.

«هل لاحظت الأحجار على أصابعه؟».

«لعلها أحجار مزيفة».

«تعني *ماس*! إنك لا تعرف شيلدون. اسمع، إذا احتجنا إلى مساعدة فهذا الرجل مستعد لأن يرهن قميصه من أجلنا».

«أنا أفضّل أن أجوع على أن اسمع صوته».

«حسناً، فكر كما تشاء. حدسي يقول لي إننا قد نحتاج السيد شيلدون يوماً ما. يا إلهي، كم كان يرتجف عندما رأى ذلك البولوني الثمل!».

لاذ أومارا بالصمت.

قلت متهكماً: «لا يهمك هذا، أليس كذلك؟ إنك لا تعرف ما هي المذبحة...».

«ولا أنت»، قال أومارا بشكل لاذع.

«عندما أنظر إلى شيلدون فأنا أعرف. نعم يا سيدي، فبالنسبة لي فإن هذا اللقيط المسكين لا شيء سوى مذبحة مدبرة متنقلة. لو تحرك ذلك البولوني باتجاهنا لخرئ في سرواله».

فيما كنت أنزع ملابسي استعداداً للنوم، لمحت منفضة السجائر النحاسية الصغيرة، التي جلبت من الهند على ما أظن، والتي كنت شديد الولع بها. فقد كانت واحدة من الأشياء الصغيرة التي انتقيتها

عندما اشتريت الأثاث. وقد تمنيت أن أحتفظ بها إلى الأبد. وعندما رفعتها بيدي، أتفحصها ثانية، أدركت على حين غرة أنه لا يوجد في البيت شيء يمت بصلة إلى الماضي، إلى ماضيّ أنا. فكل شيء جديد هنا. عندها تذكرت الجوزة الصينية الصغيرة التي كنت أحتفظ بها منذ طفولتي في حصالة حديدية صغيرة مركونة على رف الموقد في البيت. كيف حصلت على تلك الجوزة، لم أعد أذكر. ربما أعطاني إياها قريب عائد من البحار الجنوبية. وكنت بين الحين والآخر أفتح الحصالة الصغيرة، التي لم يكن فيها سوى بضعة بنسات، وأخرج الجوزة وأمرر يدي عليها. كانت ناعمة بنعومة جلد الظباء، لونها بني فاتح، وملفوف عليها شريط أسود من الوسط. لم أر في حياتي جوزة مثلها. وكنت في بعض الأحيان أخرجها وأحملها معي أياماً أو أسابيع، لا لأنها تجلب الحظ السعيد، بل لأني كنت أحب ملمسها. كانت شيئاً غامضاً تماماً بالنسبة لي، وكنت سعيداً لأن تظل لغزاً بالنسبة لي. وكنت واثقاً من أن لها تاريخاً قديماً، وأن أيد كثيرة قد تناقلتها، وأنها قطعت فيافي وبحاراً. وهذا ما جعلها عزيزة عليّ. ففي أحد الأيام، وبعد مضي فترة قصيرة على زواجي من مود، شعرت بشوق خاص لرؤية هذا الوثن الصغير، فتوجهت مباشرة إلى بيت أبويّ لاستعادته. ولدهشتي وإحباطي علمت أن أمي أعطتها إلى أحد الصبية الصغار في الحيّ الذي أبدى رغبة في اقتنائها. أيّ صبي؟ أردت أن أعرف. لكنها لم تتذكر. وقالت إنه من السخف أن أقلق على شيء تافه كهذا. تحدثنا عن أمور شتى، حتى يصل أبي لتناول طعام العشاء معاً.

«وماذا عن لعبة المسرح»، سألتها فجأة. «هل تخلصت منها أيضا؟».

«منذ زمن بعيد»، قالت أمي، «أتتذكر آرثر الصغير الذي كان يقيم في البناية في الطرف المقابل من الشارع؟ كان مهووساً بها».

«ولذا أعطيته إياها؟»، في السابق لم أعر اهتماماً كبيراً بآرثر

الصغير. لقد كان ولداً مخنثاً. إلا أن أمي كانت تظن أنه طفل رائع وأن سلوكه ممتاز، وما إلى هنالك.

«هل تظنين أنه مايزال يحتفظ بها؟» سألتها.

«أوه لا، بالطبع لا! لقد كبر الآن، ولم يعد يرغب في اللعب بها».

«لا يمكنك أن تقولي ذلك»، قلت. «لعلي سأقوم بزيارته».

«لقد انتقلوا».

«وأظن أنك لا تعرفين إلى أين؟».

بالطبع لم تكن تعرف، أو على الأغلب كانت تعرف لكنها لم تقل لي. وكررت أنه من الحمق مني أن أرغب في استعادة هذه الأشياء القديمة.

«أعرف»، قلت، «لكني مستعد لأن أقدم كل شيء مقابل أن أراها مرة أخرى».

«انتظر حتى يصبح لديك أطفال، عندها يمكنك أن تشتري لهم ألعاباً جديدة، أشياء أفضل».

«لا يوجد أفضل من تلك» قلت محتجاً بعنف. حدثتها حديثاً طويلاً عن عمي إد مارتيني الذي أمضى شهوراً وشهوراً وهو يصنعها لي. وفيما كنت أتحدث كنت أتصورها وهي قابعة تحت شجرة عيد الميلاد. كان بوسعي أن أرى أصدقائي الصغار الذين كانوا يأتون دائماً لزيارتي أثناء العطل، نتحلّق في دائرة على الأرض، ويتفرجون عليّ وأنا أعالج القطع التي كانت ترافقها.

لقد حسب عمي حساب كل شيء، فلم يحرص على صنع مشاهد عديدة وممثلين مختلفين فحسب، بل أعدّ كذلك الأضواء، والبكرات، والأجنحة، والخلفيات، كل شيء يمكن أن تتخيله. وكنت في كل عيد ميلاد أُخرج لعبة المسرح وألعب بها، حتى بلغت السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمري. وبوسعي أن ألعب بها اليوم بشوق يزيد

على شوقي عندما كنت طفلاً. لقد كانت في غاية الجمال، في غاية المثالية، في غاية التعقيد. لكنها ذهبت ولن أراها ثانية. وبكل تأكيد لن أجد لعبة أخرى مثلها، لأنها صُنعت بالحبّ والصبر، ولا يبدو أن أحداً يمتلك مثلها اليوم. وكانت غريبة أيضاً. فقد تذكّرت ذلك، لأن العم إد مارتيني كان يعتبر دائماً رجلاً تافهاً لا يصلح لشيء، رجلاً يضيّع وقته، كان يشرب كثيراً، ويثرثر كثيراً. لكنه كان يعرف كيف يدخل السعادة إلى قلب طفل!

لم يتبق لي شيء من أيام طفولتي. الصندوق الذي أُعطي إلى جمعية النوايا الحسنة، قصصي التي أعطيت إلى ذلك الصبي الصغير الذي كنت أكرهه. ويمكنني أن أتصور ماذا فعل بكتبي الجميلة تلك. والشيء المثير للسخط في كل هذا، هو أن أمي لن تبذل أدنى جهد لتساعدني في استعادة أشيائي. فأما عن الكتب مثلاً، فقد كانت تجزم بشدة أني قرأتها عدة مرات، وأني لا بد قد حفظت محتوياتها عن ظهر قلب. بكل بساطة لم تفهم، ولن تفهم أني كنت أريد أن أمتلكها. لعلها كانت تعاقبني لا شعورياً للطريقة الطائشة التي كنت أقبل فيها الهدايا.

(كانت الرغبة في تعزيز الروابط التي تشدني إلى الماضي، إلى طفولتي الرائعة، تزداد قوة. وكلما أصبح عالمي اليومي مقيتاً لاطعم له، مجّدت أيام طفولتي الذهبية. وأصبحت أرى أكثر وأكثر وبمزيد من الوضوح مع مرور الوقت أن طفولتي كانت عبارة عن عطلة طويلة ـ كرنفال شباب. لم يكن لأني كنت أشعر بأني أكبر في السن، بل لأني ببساطة أدركت أنني فقدت شيئاً ثميناً).

أصبح هذا الموضوع مؤثراً أكثر، عندما راح أبي، ظناً منه أنه سينعش ذكريات لطيفة، يحدثني عن صديق طفولتي، طوني ماُريلا. وبدأ بقوله «لقد قرأت شيئاً عنه الأسبوع الماضي في مجلة *Chat*». في البداية دار الحديث عن مآثر طوني ماريلا الرياضية، وكيف فاز مثلاً في الماراثون وكاد يسقط ميتاً. ثم أخذ يتحدث عن النادي الذي

أنشأه طوني ماريلا، وكيف أنه سيؤدي إلى تحسين وضع الأولاد الفقراء في الحي. وكانت صورته ترافق المقالة. ومن Chat، التي كانت مجرد مجلة أسبوعية محلية، بدأت صحف بروكلن اليومية تتحدث عنه. كان شخصية يحسب حسابها، وسيكون له صوت مسموع ذات يوم. نعم، لن يكون مفاجئاً إن رشح نفسه لمنصب النائب قريباً. وما إلى هنالك... لم يكن ثمة شك في هذا، طوني ماريلا كان النجم الجديد في سماء قسم بوشويك. لقد بدأ من القاع، وتغلب على جميع الصعاب، ودخل كلية الحقوق. كان مثالاً مشرقاً لما يمكن لابن مهاجر فقير أن يصنعه من نفسه في هذه الأرض المجيدة للفرص.

وبقدر ما كنت أحب طوني ماريلا، بدأ الافتتان به، عندما راح أهلي يتحدثون عنه، يثير في نفسي الغثيان. فقد عرفت طوني في المدرسة الثانوية، وكنا دائماً في ذات الصف وتخرجنا معاً الأوائل في الصف. كان على طوني أن يكافح من أجل كلّ شيء، بينما كان الأمر بالنسبة لي على العكس تماماً. كان طفلاً متمرداً قاسياً، وكانت روحه البهيمية تدفع الأساتذة إلى حافة الجنون. أما مع الصبية الآخرين فكان قائداً بالفطرة. ثم لم أعد أسمع عنه طوال سنوات. ولم أفكر به في حياتي. وفي إحدى أمسيات الشتاء، وبينما كنت أخوض في الثلج، صادفته. كان في طريقه إلى اجتماع سياسي، وكنت أنا على موعد مع فتاة شقراء رائعة تجعلك تصاب بالدوار. وحاول طوني أن يقنعني بمرافقته إلى الاجتماع، وقال إن ذلك سيدخل الحبور إلى نفسي. ضحكت في وجهه. وراح يتحدث معي في السياسة، رغم امتعاضي، وقال إنه سيصلح حزب المحافظين في منطقتنا، المنطقة التي يوجد فيها بيتنا القديم. ضحكت مرة أخرى، هذه المرة ضحكة تنم عن ازدراء. ورداً على ذلك صاح طوني: «ستدلي بصوتك لصالحي بعد سنتين، انتظر وسترى. فهم بحاجة إلى رجال مثلي في الحزب». فقلت له: «انظر يا طوني، فأنا لم أدل بصوتي في حياتي، ولا أظن أني سأفعل ذلك ما حييت. إلا أنك إن

كنت سترشح نفسك، فقد أجعل ذلك استثناءً. فأنا لا أريد شيئاً أكثر من أن أراك رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية. إنك ستكون ذخراً للبيت الأبيض». ظن أني أسخر منه، لكني كنت في غاية الجدية.

أثناء الحديث ذكر طوني اسم منافسه المحتمل، مارتن مالون. «مارتن مالون!» صحت مستغرباً. «ليس مارتن مالون الذي نعرفه؟» «إنه ذاته»، طمأنني. الشخصية التالية في الحزب الجمهوري. عقدت المفاجأة لساني. ذلك الأبله! كيف يمكنه أن يبرز هكذا؟ وشرح لي طوني أنه صعد بسبب نفوذ أبيه. تذكرت العجوز مالون جيداً؛ كان رجلاً طيباً وسياسياً صادقاً، وهو أمر نادر. أما ابنه! فكيف؟ مارتن، الذي يكبرنا بأربع سنوات، كان دائماً في أدنى مراتب الصف. كان يتأتئ ويتلعثم وهو يتكلم، وعلى نحو سيء أيضاً. هذا المغفل يصبح الآن شخصية بارزة في السياسة المحلية. قلت له: «أعلمت الآن لماذا لا أعير اهتماماً بالسياسة». «في هذا أنت مخطئ ياهنري»، قال طوني بحدة. «هل تريد أن ترى مارتن مالون عضواً في الكونغرس؟» قلت: «بصراحة، فأنا لا أعير أي اهتمام لمن يصبح عضواً في الكونغرس لهذه المنطقة أم تلك. هذا لا يهمني على الإطلاق. لا يهمني حتى من سيصبح رئيساً للبلاد. لا شيء يهمّ. فالبلد لا يحكمها إلا هؤلاء الخروات؟» هزّ طوني رأسه غير موافق تماماً وقال: «هنري، لقد خسرت نفسك». «إنك لا منتمي وفوضوي»، وبهذه الكلمات افترقنا، ولم نلتق ثانية إلا بعد سنوات عديدة.

لم يتوقف أبي عن تكرار مزايا طوني على مسامعي. كنت أعرف، بالطبع، كيف كان يحاول أن يبث شيئاً من الحياة فيّ. وبعد أن حدثني أبي عن طوني ماريلا، سألني كيف حال الكتابة معي، وهل بعت شيئاً من أعمالي، وما إلى هنالك. وإذا قلت إنه لم يكن ثمة جديد ذو أهمية، كانت أمي تنظر إليّ تلك النظرة الحزينة، الجانبية، وكأنها ترثي للجهل في أسلوب حياتي، ولعلها كانت تضيف بصوت جهوري أنني كنت أكثر الأولاد ذكاء في الصف، وأنه أتيحت لي كل الفرص،

ومع ذلك فأنا أحاول أن أصبح شيئاً أحمق مثل كاتب. «يا ليتك كنت تكتب شيئاً لصحيفة *ساتردي إيفنينغ بوست*!» كانت تقول، ولكي تضعني في موقف محرج وسخيف أكثر، كانت تقول: «لربما نشرت مجلة *Chat* إحدى قصصك!» (وكانت تطلق على كل شيء أكتبه، على سبيل المصادفة، قصة، رغم أني أوضحت لها عشرات المرات أني لم أكن أكتب «قصصاً». وكانت دائماً تنهي حديثها متحسرة «حسناً، مهما كان في الأمر»).

وعند وداعها كنت أسألها دائماً: «هل أنت متأكدة أنه لم يتبق شيء من أشيائي القديمة؟» وكان الجواب دائماً «انس الموضوع!» وفي الشارع، عندما كانت تقف بالقرب من السياج ملوحة لي الوداع، كانت تطلق دائماً هذه الطلقة الفارسية: «ألا ترى أنه من الأفضل أن تترك الكتابة هذه وتجد لنفسك عملاً؟ إنك لم تعد صغيراً. ربما أصبحت عجوزاً قبل أن تصبح مشهوراً».

كنت أتركهما وأنا نادم، لأني لم أجعل أمسيتهما ممتعة. وفي طريقي إلى محطة المترو كان عليّ أن أمرّ من أمام منزل طوني ماريلا القديم. كان أبوه مايزال يدير دكان إسكافي في الشارع الأمامي. فقد ترعرع طوني في ذلك الكوخ الذي نشأ فيه. ولم يطرأ على الصرح نفسه أي تغيير في الجيل الذي أعقبه. لكن الوحيد الذي تغيّر وتطوّر مع الزمن، هو طوني. وكنت متأكداً أنه ما زال يخاطب أبويه بالإيطالية، ما زال يقبّل أباه بمودّة وحب عندما يحييه، ما زال يعين العائلة بتخصيصه لها جزءاً من راتبه الضئيل. ياله من جوّ مختلف كان يسود تلك العائلة! يالها من متعة حقيقية لأبويه، وهما يشاهدان طوني يشقّ طريقه في العالم! وعندما كان يلقى خطاباته الفخمة لم يكن بقدرتهما فهم ولا كلمة واحدة يقولها. لكنهما كان يعرفان أنه كان يقول الشيء الصحيح. كل شيء يفعله كان صحيحاً في نظرهما. كان حقاً ابناً باراً، وإذا تمكن من تحقيق حلمه فسيكون رئيساً جيداً للبلاد.

وأنا أتذكّر كل ذلك، تذكرت كيف كانت أمي تتحدث عن أبي، عن افتخار أبويه وسعادتهما به. أما أنا فقد كنت الشوكة في خاصرتيهما. لم أجلب لهما إلا المشاكل. من يستطيع أن يقول ماذا سيحدث في المستقبل؟ ربما انقلبت الأحوال ذات يوم. ذات يوم، وبضربة واحدة، ربما تمكنت من تغيير كل ذلك. لعلي أبرهن على أني لم أكن شخصاً ميؤوساً منه، عديم الفائدة. لكن متى؟ وكيف؟

5

كنا نسير في الجادة الثانية في ذلك اليوم الربيعي المشمس. وكانت عملية بيع الصور النحاسية في مراحلها الأخيرة، ولم يكن ثمة جديد في الأفق. وفي محاولة أخيرة جئنا إلى الطرف الشرقي من مانهاتن، إلا أنه لم يتمخض شيء جديد. كان السير قد أنهكنا، وقد أخذ العطش الشديد منا كل مأخذ تحت لهيب الشمس، ورحنا نتساءل كيف يمكننا أن نتدبر مشروباً بارداً مجاناً. وعندما مررنا من أمام دكان لبيع السكاكر، تبين لنا أنه يبيع مياهاً غازية أيضاً، فعزمنا على أن ندخل إلى المحل، ونتناول مشروبنا، ثم ندّعي أننا فقدنا نقودنا في مكان ما.

وراح صاحب المحل، الذي كان ودوداً وبسيطاً، يخدمنا بنفسه. وبأسلوب تعامله معنا جعلنا نشعر وكأننا قادمان من عالم آخر. تلكأنا ونحن نشرب، وأشركناه معنا في الحديث لكي نهيئه للخبر الحزين. وبدا في غاية السرور لأننا أشركناه معنا في الحديث. وعندما حان الوقت، أخذت أتحسّس جيوبي، ولما لم أجد شيئاً، طلبت من مونا بصوت عالٍ أن تبحث عن النقود في حقيبتها، وقلت لا بدّ أني نسيت النقود في البيت. وبالطبع لم تعثر على سنت أحمر. اقترحت على الرجل، الذي كان يراقب حركاتنا بهدوء، أنه إذا لم يكن يمانع، فإننا سندفع له ثمن المشروب الغازي عندما نعود لزيارة الحي في المرة القادمة. وبدماثة شديدة طلب منا أن ننسى مسألة دفع ثمن المشروب إن أحببنا. ثمّ استفسر بأدب من أي طرف

من المدينة قدمنا. ولدهشتنا، فقد تبين لنا أنه يعرف الشارع الذي كنا نعيش فيه بدقة. عندها دعانا لاحتساء مشروب آخر، وقدم لنا قطعاً من الكاتو اللذيذ. وكان من الواضح أنه يرغب في معرفة المزيد عنا. ولما لم يكن ثمة شيء يمكن نخسره، قرّرت أن أعترف له بكل شيء.

إذن نحن مفلسان؟ لقد شكّ في ذلك، لكنه صُعق عندما وجد أمامه شخصين بهذه الدرجة من الذكاء، ويتكلمان لغة إنكليزية جميلة بهذا الإتقان. أمريكيان حتى النخاع، ويجدان صعوبة في العثور على عمل في مدينة مثل نيويورك؟ ادعيّت بالطبع أني أرحب بأيّ وظيفة يمكن أن أجدها. وألمحت إلى صعوبة إيجاد عمل، لأني بالفعل غير قادر على القيام بأيّ عمل سوى أن أخطّ بقلمي، وأضفت ربما لا أصلح لهذا العمل أيضاً. كان تفكيره مختلفاً. فقد قال إنه لو كان بإمكانه أن يقرأ ويكتب باللغة الإنكليزية، لكان يعيش الآن في حي بارك أفنيو. وتتمثل قصته، وهي قصة عامة تقريبياً، في أنه قَدِم إلى أمريكا منذ ثماني سنوات ولم يكن يوجد في جيبه سوى بضع دولارات. وعلى الفور وجد عملاً في مقلع للرخام في ولاية فيرمونت. كان العمل صارماً وشاقاً. لكنه تمكّن من توفير بضع مئات من الدولارات. واشترى بهذا المبلغ بعض النثريات، وضعها في كيس، وانطلق يبيعها كبائع متجول. وبسرعة كبيرة (بدت تقريباً أشبه بقصة هوراشيو ألجير) أصبح يمتلك عربة، ثم حصاناً وعربة. وكان يحلم دائماً بأن يأتي إلى نيويورك، حيث كان يتوق لفتح محل. وعلم بالمصادفة أنه يمكن للمرء أن يحقق كسباً جيداً من بيع السكاكر المستوردة. ثم أنزل من على الرف من خلفه تشكيلة من السكاكر الأجنبية معبأة في علب جميلة. وأخذ يشرح لنا بالتفصيل كيف كان يدور من باب إلى باب ليبيع هذه السكاكر، وكان حي كولومبيا هايتس، حيث نقيم الآن، نقطة انطلاقه. وحقق نجاحاً في ذلك، رغم أنه لا يتكلم سوى لغة إنكليزية ركيكة. وفي أقل من سنة وفّر مبلغاً يكفيه ليفتح دكان. وأردف قائلاً بأن الأمريكيين «يحبون»

السكاكر المستوردة، ولا يبالون بالسعر. وهنا أخذ يسرد لنا أسعار مختلف الأصناف، ثم أخبرنا عن مقدار الربح الذي يمكننا أن نكسبه من كل علبة. وأنهى كلامه بقوله: «إذا كنت أنا قد تمكنت من عمل ذلك، فلماذا لا تستطيعان أنتما؟» ثم اقترح أن يزودنا بحقيبة مليئة بالسكاكر المستوردة، بالدين، هذا إن أردنا أن نجرّب حظنا.

كان شخصاً في غاية اللطف والدماثة، وبدا من الواضح أنه يحاول أن يثبتنا على أقدامنا مرة أخرى، إلى حد أنه لم يعد بوسعنا أن نرفض عرضه. فأخذ يملأ لنا حقيبة كبيرة، وأخذنا النقود التي أعطانا إياها لنستقل سيارة أجرة إلى البيت، وودعناه. وفي الطريق إلى البيت، شعرت بسعادة غامرة للفرصة التي أتيحت لنا لنبدأ مشوارنا من جديد منذ صباح اليوم التالي، ومن حيّنا بالذات. وشعرت أن مونا لم تكن مبتهجة مثلي، لكنها كانت متحمّسة للقيام بهذه المحاولة. وأعترف أن همتي خبت قليلاً أثناء الليل.

(من حسن الحظ أن أومارا كان قد سافر لبضعة أيام لزيارة صديق قديم. لأنه كان سيسخر من هذه الفكرة إلى ما لا نهاية).

وعند ظهيرة اليوم التالي، التقينا ليرى كل منا ماذا فعل الآخر. كانت مونا في البيت عندما وصلت. لم تكن متحمسة جداً لهذه البداية. فصحيح أنها باعت عدداً قليلاً من العلب، إلا أنه كان عملاً شاقاً. وقالت إن جيراننا في الحارة لم يكونوا من النوع المضياف. (أما أنا، بالطبع، فلم أبع ولا علبة واحدة. إذ لم تعجبني فكرة أن أنتقل من باب إلى آخر، وأستجدي الناس لأن يشتروا بعض السكاكر. وفي الحقيقة أصبحت على استعداد لكي أبحث عن عمل).

قالت مونا توجد طريقة أفضل لمتابعة هذا العمل. إذ ستقوم في الغد بزيارة المكاتب التجارية لأنها تفضل التعامل مع الرجال، لا مع ربات البيوت والخادمات. وإذا فشلت في ذلك، فستجّرب النوادي الليلية في حي الفيليج، وربما المقاهي التي تمتد على طول الجادة الثانية. (أعجبتني فكرة المقاهي، وقلت لنفسي إني سأدور عليها أيضاً).

وتبين أن زيارة المكاتب أفضل حالاً من زيارة البيوت، لكن ليس أفضل بكثير. فقد وجدت صعوبة كبيرة حتى تصل إلى الرجل القابع وراء المكتب، وخاصة إذا كنت ستعرض عليه سكاكر. ثم كانت هناك جميع أنواع العروض القذرة التي يتعذر تحملها. وقد اشترى شخص أو شخصان، من النوع الراقي، نصف دزينة من العلب على الفور، ومن الواضح أن ذلك كان بدافع الشفقة. وكان أحدهما شاباً في غاية الرقة، واتفقا على أن يلتقيا ثانية بعد فترة وجيزة. ويبدو أنه حاول الأمرّين لإقناعها أن تترك هذا العمل. وقالت لي: «سأحكي لك عنه المزيد فيما بعد».

لن أنسى ما حييت ليلتي الأولى كبائع متجول. فقد اخترت مقهى رويال كنقطة لانطلاقي، لأنه كان مكاناً مألوفاً بالنسبة لي. (وكان ينتابني الأمل في أن أصادف شخصاً يجعل نهاري يبدأ بداية جيدة). وعندما بدأت جولتي، كان الرواد ما زالوا يطلبون العشاء وأنا أحمل حقيبتي الصغيرة المملوءة بعلب السكاكر. ألقيت نظرة سريعة علىالمكان، لكني لم أر أحداً أعرفه. ورأيت مجموعة من الأشخاص منهمكين في اللهو والطرب جالسين إلى مائدة طويلة. وقررت أن أعرض عليهم بضاعتي أولاً.

لسوء الحظ كانوا في حالة شديدة من الانشراح والبهجة. «سكاكر مستوردة، لا أقلّ من ذلك!» قال أحدهم هازئاً. «لماذا ليست أنواعاً من الحرير المستورد؟». أراد الرجل الجالس بجانبه أن يفحص السكاكر ليتأكد من أنها مستوردة فعلاً وليست محلية. أخذ بضع علب وراح يمررها على الآخرين. وقد جعلتني رؤية النساء وهن يقضمن الطعام، أظن أن كلّ شيء على ما يرام. وزعت العلب حول الطاولة، ثم وصلت أخيراً إلى الرجل الذي بدا أنه راعي الاحتفال. كان يتكلم كثيراً، ويعلّق تعليقات ضاحكة ساخرة. «سكاكر، همهم! محتال جديد. جيد الهندام ويتكلم لغة إنكليزية ممتازة. لعله يشق طريقه في الكلية وشيء من هذا القبيل». وأخذ بضع سكاكر من العلبة وراح يقضمها، ثم أخذ يمررّها إلى الطرف

الآخر، ولم يكفّ عن إطلاق التعليقات الساخرة التي كانت تجعل الآخرين يتلوون من شدة الضحك. وكنت أقف هناك كالعصا. ولم يسألني أحد حتى الآن عن ثمن العلبة، ولم يقل أحد إنه سيشتري شيئاً منها. كانت أشبه بلعبة البرجيس. وعندما لم يبق منهم أحد لم يتفحص السكاكر بتمعن، وبعد أن قضموا بعضها، وألقوا النكات على حسابي، أخذوا يتحدثون عن أمور أخرى، عن كل شيء يخطر في البال، ولم يقل أحد منهم كلمة عن السكاكر، أو عن الشاب، محسوبكم، الواقف هناك منتظراً أن يتكلم معه أحد.

وقفت هناك لفترة من الوقت، أتساءل إلى أي حد سيصل إليه عبث تلك الأرواح المبتهجة. ولم أبذل أي جهد لجمع العلب المبعثرة حول الطاولة. ولم أفتح فمي ولم أفه بكلمة، بل وقفت هناك ورحت أتطلع من واحد إلى آخر نظرة تساؤل، ورويداً رويداً بدأت نظرتي تتحول إلى نظرة ساخطة. وبدأت أشعر بموجة من الحرج تنتقل من واحد إلى آخر. أخيراً أحسّ الرجل، المضيف المرح، والذي كنت أقف بالقرب من مرفقه صامتاً، بأن شيئاً غير متوقّع قد يحدث. فاستدار نصف استدارة، وتطلع إليّ للمرة الأولى، ثم، كما ليتجاهلني قال: «ماذا، ألا تزال واقفاً هنا؟ إننا لا نريد شيئاً من السكاكر. هيا اذهب من هنا!». بقيت صامتاً، ولم أقل شيئاً، بل كنت مقطب الجبين. أخذت أصابعي ترتعش بعصبية، وراودتني رغبة جامحة في أن أمسك بتلابيبه. كنت ما أزال غير مصدّق أنه كان يريد أن يمازحني هذا النوع من المزاح ـ ليس أنا، الأمريكي الأبيض، الفنان حتى النخاع، بالإضافة إلى جميع تلك الأشياء العظيمة الأخرى التي أعزوها إلى نفسي، الذي يقف في هذه اللحظة من لحظات جرح الكبرياء. وبغتة تذكرت ذلك المشهد المخزي الذي افتعلته لتسلية أصدقائي في هذا المقهى بالذات، عندما سخرت بشكل مقزز من ذلك العجوز اليهودي المسكين، وعندها أدركت على حين غرة، الوضع السيء الذي وجدت نفسي فيه. أما الآن، فأنا هو ذلك الشخص المسكين العاجز، الذي لا حول له ولا قوة. ياله من مزاح سمج سقيم.

ياله من إحساس رائع أن تكون أنت الجالس إلى الطاولة، لا الواقف على قوائمك الخلفية ككلب يستجدي بضع فتات. وبدأت تعتريني هبات من الحرارة والبرودة. انتابني خجل شديد من نفسي، وفي الوقت ذاته تحسرت بشدة على نفسي، إلى درجة أني كنت على استعداد لقتل الرجل الذي كان يسبب لي هذا الإزعاج. وشعرت أني أفضل أن أُزجَّ في السجن، ولا أتحمّل المزيد من الذل والمهانة. شعرت أنه من الأفضل أن أحدث جلبة وأكسر الجمود.

لحسن الحظ يبدو أن الرجل قد أحسّ بما يجول في خاطري. إلا أنه لم يعرف كيف يتجاوز دعابته السمجة. سمعته يقول، بصوت مرتعش ـ «ماذا في الأمر؟» ثم لم أعد أسمع شيئاً لبضع دقائق، لا شيء سوى صوتي. ماذا كنت أقول وأنا أصرخ، لا أعرف. ما أعرفه هو أنني كنت أتشدق بكلام كالمجنون. وربما كنت لن أتوقف عن الكلام لو لم يندفع النُدل نحوي ليقذفوا بي خارج المقهى. كانت أذرعهم تطوقني من كل جهة، وكانوا على وشك أن يرموا بي خارجاً، عندما طلب منهم الشخص الذي كان يضايقني أن يتركوني وشأني.

استوى واقفاً، ووضع يده على كتفي وقال. «آسف جداً، لم أكن أتصور أني سببت لك كل هذا الألم. اجلس لحظة». وأمسك زجاجة وصبّ منها قدحاً من النبيذ. تورّد وجهي وكنت ما أزال متجهماً. كانت يداي ترتشعان بقوة. وبدأ الجميع يحدقون بي. وبدوا لي كأنهم كانوا يشكّلون حيواناً ضخماً واحداً بعيون عديدة. وكان الناس الجالسون إلى الطاولات الأخرى يحدقون فيّ أيضاً. أحسست بيد الرجل الدافئة تسترخي فوق يدي. وراح يحثني بصوت لطيف كي أتناول كأساً من الشراب. رفعت الكأس ودلقته في جوفي. ملأه ثانية ورفع كأسه إلى شفتيه وقال: «بصحتك!» وحذا حذوه الآخرون في الحفلة. ثمّ قال: «اسمي سبيلبيرج، ما اسمك، إذا جاز لي أن أسألك؟» قلت له اسمي الصحيح، الذي بدا غريباً جداً إلى أذني، وقرعنا

كأسينا. وفي الحال أخذوا يتكلمون جميعهم دفعة واحدة، كل منهم يحاول أن يعرب لي عن أسفه لسلوكهم الفج الوقح. «ألا تتناول قليلاً من الدجاج؟» سألت صبية جميلة تجلس أمامي. رفعت الطبق وقدمته لي. لم أتمكن من أن أرفض. استُدعي النادل. ألا أحبّ شيئاً آخر؟ قهوة، بالتأكيد، وربما قليلاً من المشروب؟ قبلت. لم أكن قد فهت بكلمة بعد، إلا اسمي. («ماذا يفعل هنري ميلر هنا؟ ظللت أكرّر لنفسي. «هنري ميلر... هنري ميلر»).

من خليط الكلمات التي انهالت على أذني قلت أخيراً «ماذا تفعل هنا بحق السماء؟ هل هذه تجربة؟»، في هذا الوقت تمكنت من أن أرسم ابتسامة على وجهي. «نعم»، قلت بصوت واهن، «بطريقة ما».

كان معذّبي هو الذي أخذ يسعى الآن ليتكلم معي بجدية. «ماذا تفعل حقاً؟» قال. «أعني، ماذا تفعل عادة؟».

أخبرته ببضع كلمات.

«حسناً، حسناً! بدأنا نفهم شيئاً الآن». كان ينتابه شكّ بشيء ما. ربما يمكنه أن يساعدني؟ أفضى إليّ أنه كان يعرف عدداً من المحررين معرفة حميمة، وقال إنه تمنّى ذات مرة أن يكون كاتباً هو نفسه. وهكذا دواليك...

بقيت معهم زهاء ساعة أو ساعتين، أتناول الطعام وأحتسي الشراب، وقد غمرني شعور تام بالانسجام معهم. واشترى كل شخص منهم علبة من السكاكر. وتوجّه شخص أو شخصان إلى الطاولات الأخرى وأقنعا أصدقاءهما بالشراء أيضاً، مما أشعرني بقليل من الحرج. كان سلوكهم يوحي بأن هذا أقل شيء يمكنهم أن يفعلوه لرجل سيُكتب له أن يكون واحداً من أعظم كتّاب أمريكا. ومما أثار دهشتي، المشاعر الصادقة وحسن النية والتعاطف التي أظهروها لي الآن، وقد كنت منذ قليل هدفاً لسخريتهم ونكاتهم الفجة. وتبين لي أنهم كانوا جميعهم من الطبقة المتوسطة من اليهود ممن يبدون اهتماماً بالفنون. وأعتقد أنهم ظنوا أني يهودي أيضاً.

لا يهم. فهذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها بأمريكيين توحي لهم كلمة فنان بالسحر. ومما ضاعف من اهتمامهم بي أني كنت فناناً وبائعاً متجولاً. فقد كان أسلافهم جميعاً باعة جوالين، وإن لم يكونوا فنانين، فقد كانوا علماء، وكنت أنا أسير على هذا النهج.

نعم كنت أسير على هذا النهج. وبتنقلي من أمر إلى آخر رحت أتساءل ما سيقوله أولريك إن رآني. أو ند، الذي ما زال قابعاً وراء ذلك الرجل المسن مكفرلاند. وفيما كنت غارقاً في هذه الأفكار فجأة، رأيت صديقاً يهودياً، طبيب أذن، يقترب. (كنت مديناً له ببعض المال). وقبل أن يتمكن من رؤيتي، هرعت إلى الشارع وقفزت إلى حافلة متجهة إلى شمال المدينة. ورحت ألوّح له من الحافلة. وبعد بضعة شوارع ترجلت، وعدت أجرّ أذيالي إلى حيث الأضواء البراقة، وبدأت البيع من جديد، أبيع علبة أحياناً، إلى يهودي من الطبقة المتوسطة، كما بدا لي، ربما شعر بالأسف عليّ، وربما بقليل من الخجل. كان من الغريب أن أحظى بمواساة أناس مسحوقين. وقد أدى عكس الأدوار إلى هذا الشعور الغامض بالهدوء. وأصابتني رعشة لما يمكن أن يحدث لي إذا دفعني سوء الحظ للوقوع في براثن عصابة من الإيرلنديين.

في حوالى منتصف الليل عدت إلى البيت. كانت مونا قد عادت للتو وكانت في مزاج جيد. فقد باعت حقيبة كاملة من السكاكر، باعتها كلها في مكان واحد. وقد تناولت طعام العشاء واحتست مشروباً أيضاً. أين؟ في مطعم بابا موسكوفيتز. (كنت قد تجاوزت مطعم موسكوفيتز لأني رأيت طبيب الأذن يتجه نحوه).

«ظننت أنك ستبدئين من حي الفيليج هذه الليلة؟»

«هذا ما فعلته»، قالت، ثم ذكرت بسرعة كيف صادفت ذلك المصرفي، ألن كروموبل، الذي كان يبحث عن مكان هادئ ليتجاذبا أطراف الحديث. فاصطحبته إلى مطعم بابا موسكوفيتز حيث راحا يستمعان إلى الموسيقى وما إلى هنالك. على أي حال، اشترى

موسكوفيتز علبة من السكاكر، ثم قدّمها إلى أصدقائه، الذين أصرّ جميعهم على شراء السكاكر. وبعد ذلك، من يأتي سوى ذلك الرجل الذي التقت به في مبنى المكاتب، في اليوم الأول الذي انطلقت فيه لبيعها. كان اسمه ماثياس. كان هو وموسكوفيتز صديقين منذ فترة طويلة. وبالطبع اشترى ماثياس هذا ست علب أيضاً.

وهنا غيرت الحديث لتتحدث عن العمل في العقارات. إذ بدا أن ماثياس متحمس لأن يعلمها أصول هذا العمل. إذ كان واثقاً من أن بوسعها بيع بيوت بالسهولة التي تبيع فيها السكاكر المستوردة. وكان عليها أولاً، بالطبع، أن تتعلم قيادة السيارات. وقالت إنه سيعلمها السياقة هو بنفسه. قالت إن تعلم السياقة فكرة جيدة حتى لو لم تبع عقارات. إذ يمكننا أن نستخدم السيارة للقيام بجولة من حين لآخر. ألن يكون ذلك شيئاً رائعاً؟ وما إلى هنالك...

«وكيف سارت الأمور بينه وبين كروموبل؟» سألتها أخيراً.

«على ما يرام».

«لا، حقاً؟».

«لم لا؟ فهما شخصان ذكيان وحساسان. وكون كروموبل سكيراً لا يعني أنه شخص أخرق».

«حسناً. لكن ما الشيء المهم الذي قاله لك كروموبل؟».

«أوه! لم نتحدث عن ذلك. كان هناك الكثير من الأشخاص على مائدتنا...».

«حسناً. لا بد أنك أبليت بلاء حسناً»، توقفت عن الكلام ثم أردفت. «فقد بعتِ عدداً من العلب».

«أنا أفكر يا فال»، بدأت كلامها، وكأنها لم تسمعني.

عرفت ما الذي كانت ستقوله بعد ذلك. فأشحت بوجهي عنها.

«بجد يا فال، يجب أن تتوقف عن بيع السكاكر. دع هذا الأمر

لي! فكما ترى فإن الأمر في غاية السهولة بالنسبة لي. امكث أنت في البيت واكتب».

«لكن ليس بوسعي أن أكتب ليلاً نهاراً».

«حسناً، اقرأ إذن، أو اذهب إلى المسرح، أو قم بزيارة أصدقائك. إنك لم تعد تذهب لزيارة أصدقائك منذ فترة بعيدة».

قلت إني سأفكر في الموضوع. وفي هذه الأثناء أفرغت محفظتها على الطاولة. يا له منْ مبلغ.

«من المؤكد أن صاحب المحل سيفاجأ»، قلت.

«أوه، ألم أخبرك؟ لقد رأيته الليلة. كان عليّ أن أزوره لأحصل على كمية أخرى من السكاكر. قال إنه إذا واصلنا على هذا المنوال فسنتمكن من فتح محل خاص بنا قريباً».

«أليس هذا شيئاً رائعاً!».

سارت الأمور سيراً حسناً لمدة أسبوعين. وتوصلت أنا ومونا إلى حل وسط: فقد كنت أحمل الحقيبتين وأنتظر في الخارج، وكنت أحمل معي دائماً كتاباً وأقرأ. وفي بعض الأحيان، كان يرافقنا شيلدون. ولم يكن يصّر على حمل الحقائب فحسب، بل كان يلحّ أيضاً على دفع ثمن الطعام الذي كنا نتناوله في منتصف الليل، حيث كنا نتناول طعامنا دائماً في مطعم يهودي على الجادة الثانية. كانت الوجبة رائعة حقاً في كل ليلة. الكثير من القشدة، فجل، بصل، بسطرمة، سمك مدخّن، كلّ أنواع الخبز الأسمر، زبدة حلوة، شاي روسي، كافيار، معكرونة بيض ـ وماء سيلتزر. ثم نعود إلى البيت بسيارة أجرة، دائماً عبر جسر بروكلن. نترجلّ أمام بيتنا المهيب ذي الأحجار البنية، وكنت غالباً أتساءل ماذا سيدور في خلد صاحب البيت وهو يرانا راجعين إلى البيت في تلك الساعة من الصباح نحمل حقائبنا.

كان هناك دائماً معجبون جدد. وكانت مونا تجد صعوبة في إبعادهم عنها. وكان آخر هؤلاء فنان يهودي ـ مانويل سيغفريد. لم يكن يملك مالاً كثيراً، بل كانت لديه مجموعة رائعة من كتب الفن. كنا نستعيرها منه بحرية، خاصة الإيروسية منها. وقد أثار إعجابنا الفنانون اليابانيون كثيراً. وقد حضر أولريك عدة مرات حاملاً معه عدسة مكبّرة، لكي لا تفوت منه ضربة ريشة واحدة.

واقترح أومارا أن نبيعها وأن تدّعي مونا أنها سُرقت. لكنه كان يعلم أن ضميرنا حي ولا يمكننا أن نفعل ذلك.

ذات ليلة، عندما جاء شيلدون لمرافقتنا، فتحت أحد الألبومات التي تحتوي على أكثر الرسوم الحسية إثارة وطلبت إليه أن يتطلع إليها. وما أن ألقى نظرة واحدة إليها حتى أدار ظهره لي، ووضع كلتا يديه على عينيه حتى أطبقت الكتاب.

سألته: «ما مشكلتك؟».

وضع إصبعه إلى شفتيه ونظر بعيداً.

قلت: «إنها لن تعضك».

لم يحر شيلدون جواباً، بل اتجه نحو الباب. وفجأة وضع يديه على فمه وهرع إلى الحمام. سمعته يحاول أن يتقيأ. وعندما عاد اقترب مني وأخذ يدي بين يديه، ونظر في عيني متوسلاً. «لا تدع السيدة ميلر ترى هذه الرسوم!» قال مستجدياً بصوت خافت. وضعت إصبعي على شفتي وقلت: «حسناً، يا شيلدون، كلمة شرف!».

كان يأتي في كل ليلة تقريباً. وحين لم يكن لديّ رغبة في الكلام، كنت أتركه يقف إلى جانبي، كعمود، وأواصل قراءتي. وبعد فترة من الزمن، تبين لي مدى حماقتي وأنا أقوم بجولاتي وإلى جانبي هذا الغبي الذي يرمش بعينيه. وانتاب مونا شعور بالسعادة، عندما أخبرتها بنيتي البقاء في البيت. قالت إنه سيكون بوسعها أن تعمل بحرية أكبر. وأننا سنصبح في حال أفضل.

وهكذا، وفيما كنا نعمل فكرنا أنا وأومارا، الذي انتابته السعادة أيضاً لأني مكثت في البيت، خطرت لنا فكرة أن نشرع في إرسال علب السكاكر بالبريد. وسارع أومارا، الذي كان متأهباً دائماً للمقترحات الجديدة، إلى تقبل الفكرة على الفور. وفي الحال بدأنا نخطط للأمر: عنوان الرسالة الملائم، النشرات التجارية، رسائل المتابعة، قوائم الأسماء، وما إلى هنالك. وعندما أخذت أتذكر الأسماء، بدأت أحسب جميع الكتبة وعمال البرقيات والمديرين ممن كنت أعرفهم في شركة التلغراف. فلم يكن من المحتمل أن يرفضوا شراء علبة حلوى مرة في الأسبوع. كان هذا كل ما نوينا أن نطلب إلى زبائننا المحتملين ـ علبة في الأسبوع. ولم يخطر ببالنا أن أحداً قد يشعر بالملل من تناول علبة سكاكر، حتى لو كانت سكاكر مستوردة، مرة في الأسبوع، لمدة اثنين وخمسين أسبوعاً في السنة.

قررنا أنه من الأفضل ألا نطلع مونا على خطتنا لفترة من الوقت. «تعرف كيف هي»، قال أومارا.

بالطبع لم يسفر الأمر عن أي نتيجة. كانت القرطاسية جميلة، الرسائل رائعة، لكن المبيعات كانت من الناحية العملية صفراً. وفي غمرة حملتنا اكتشفت مونا ما كنا نخطط له. ولم توافق على الفكرة أبداً. وقالت إننا نضيّع وقتنا، فضلاً عن أنها سئمت هذه اللعبة. فقد كان ماثياس، صديقها الذي يعمل في العقارات، قد أخبرها أنه على استعداد لأن تبدأ العمل معه في أيّ يوم. وقالت إنها تعلمت السياقة. (لم يصدق ذلك أحد منا) وأنها ستحقق مبيعات جيدة أخرى، وسرعان ما سيصبح لدينا بيت، وما إلى هنالك من هذا الكلام... ثم كان هناك ألن كرومويل. لم تخبرني بما عرضه عليها، لأنها كانت تنتظر اللحظة المواتية.

سألتها: «حسناً، وما هو هذا العرض؟».

«يريدني أن أكتب مقالة لصحيفة هيرست. مقالة كل يوم بكل تأكيد».

قفزت واقفاً. «ماذا! مقالة في اليوم؟» من سمع في حياته أن صحيفة مثل هيرست تعرض على كاتب مجهول أن يكتب لها مقالاً؟

«هذه مشكلته هو يا فال. إنه يعرف ماذا يفعل».

«ولكن هل سينشرونها؟» أشك في الأمر. أجابت: «لا، ليس على الفور. بل يجب علينا أن نفعل ذلك لبضعة أشهر، وإذا أعجبتهم... على كل حال، هذا ليس مهماً! الشيء المهم هو أن كروموِيل سيدفع لنا مائة دولار أسبوعياً من جيبه. إنه على ثقة تامة بأنه يمكنه أن يبيعها للرجل الذي يدير الاتحاد. إنهما صديقان حميمان».

«وماذا يجبُ عليّ ـ أو عليك، آسف! أن تكتبي كل يوم؟».

«أيّ شيء تحت الشمس».

«إنك لا تعنين ما تقولين!».

«بالتأكيد أعني ما أقول. وإلا لما أعرت هذا الأمر أي اهتمام».

لا بد لي أن أعترف بأن هذا العرض يبدو جيداً... إذن هي تبيع عقارات وأنا أكتب مقالة كل يوم. لا بأس. «تقولين مائة دولار في الأسبوع؟ هذا شيء رائع منه... أعني كروموِيل. لا بد أنه يفكر كثيراً بك» (قلت هذا ولم تظهر على وجهي أية قسمات معينة).

«إنه مجرد مبلغ تافه بالنسبة له يا فال. ببساطة يحاول أن يساعدنا».

«هل يعرف عني؟ أعني هل ينتابه أي شك؟».

«بالطبع لا. هل أنت مجنون؟».

«حسناً، كنت أتساءل فقط. أحيانا شخص مثله... تعرفين... أحيانا يمكنك أن تخبريهم كل شيء تقريباً. أودّ أن أقابله ذات يوم. يدفعني الفضول للتعرف عليه».

«هذا أمر سهل»، قالت مونا، وابتسامة لطيفة ترفرف على شفتيها.

«ماذا تعنين؟».

«حسناً، قابلني في مطعم موسكوفيتز ذات مساء. سأقدّمك إليه باعتبارك صديقاً».

«فكرة جيدة. سأفعل ذلك ذات مساء. سيكون أمراً مسلياً. ويمكنك أن تقدميني إليه بصفتي طبيباً يهودياً. ما رأيك في هذا؟».

أضفت: «لكننا قبل أن نتخلّى عن مسألة بيع هذه السكاكر، أريد أن أجرّب شيئاً. لديّ إحساس بأنه إذا أرسلنا ساعيين اثنين إلى مكاتب التلغراف المختلفة فإننا سننتهي منها. فمن الممكن أن نبيع مائتي علبة منها دفعة واحدة».

«أوه، بالمناسبة»، قالت مونا، «تذكرت أن صاحب محل السكاكر دعانا إلى العشاء معه يوم السبت القادم. يريد أن يدعونا إلى وليمة ليبدي لنا تقديره. أظن أنه سيعرض علينا المساعدة لكي ننشئ عملنا الخاص. لن أرفض العرض، لو كنت مكانك ـ فقد تجرح مشاعره».

«بالطبع هو أمير. فقد قدم لنا مساعدة أكثر من أيّ صديق من أصدقائنا».

أمضيت الأيام التالية في توجيه رسائل شخصية إلى جميع الزملاء في شركة التلغراف. بل أرسلت رسائل إلى بعض العاملين في مكتب نائب الرئيس. وبعد دراسة مخطط المكاتب، أدركت أننا نحتاج إلى ستة سعاة وليس إلى اثنين فقط ـ لو كان بالوسع إحداث الانقلاب بضربة واحدة.

جمعت مبلغ المبيعات المحتملة ـ زاد المبلغ على 50000 دولار. ليس مبلغاً سيئاً أبداً للتخلي عن تجارة السكاكر، قلت في نفسي وأنا أفرك يدي يغمرني الأمل.

حلّ ذلك اليوم. جمعت ستة من الصبية الأذكياء، وأعطيتهم تعليمات صريحة، وأرسلتهم للعمل.

بيد أنهم عادوا أدراجهم قبيل المساء، الواحد تلو الآخر، بخفي حنين. إذ لم تُبع ولا علبة واحدة. ولا واحدة. لم أصدّق عينيّ. دفعت لهم أجرهم - وكان مبلغاً كبيراً! وجلست على الأرض تحيطني الحقائب.

كما أن الرسائل التي ربطتها بعلب السكاكر بأشرطة مطاطية لم تمُس. فأخذت أرفعها واحدة تلو الأخرى، وأخذت أهزّ رأسي عند كل واحدة. «شيء لا يصدق، شيء لا يصدق!» ظللت أكرر. ووصلت أخيراً إلى الرسالتين الموجهتين إلى هيمي لوبشير وستيف روميرو. أبقيت الغلافين في يدي فترة من الوقت، غير قادر على استيعاب الأمر. فإذا لم يكن بوسعي أن أعتمد على صديقين قديمين مثل هيمي وستيف، فعلى من أعتمد إذاً؟

لا شعورياً فتحت المغلف الموجّه إلى ستيف روميرو. كان هناك شيء مدون على طرف العنوان. قبل أن اقرأ كلمة واحدة، انتابني شعور بالراحة. فعلى الأقل فإن ذلك يقدم تفسيراً.

«لقد اعترض سبيل الساعي سبيفاك في مكتب نائب الرئيس، وطلب من الجميع عدم شراء السكاكر. آسف. ستيف».

فتحت مغلف هيمي. الرسالة ذاتها. تملكنّي غضب شديد. «ابن الزانية سبيفاك! هذا هو دأبه لكي يدمرني!» أقسمت على أن أخنقه، في الشارع، حالما أصادفه.

جلست ورسالة كوستيجان في يدي. كوستيجان الشقي. لم أره أو أسمع عنه منذ مدة طويلة. كم سيكون ممتعاً عندما يلقن سبيفاك درساً صغيراً! كل ما عليه أن يفعله هو أن يستدرج سبيفاك ذات مساء، يكمن له في شارع مظلم بالقرب من النهر ويقوم بالواجب. المشكلة تكمن في الدرجة التي وصل إليها هذا الكريه النتن! اتصلت

بدا أنها توافقني. وفجأة قالت وهي تطلي وجهها بالكريم: «لماذا لا نتصل بأولريك ونخرج معاً لتناول طعام العشاء؟ إذ إنك لم تره منذ مدة طويلة».

قلت يا لها من فكرة جيدة. كان الوقت متأخراً بعض الشيء، لكني قررت أن أخابره. ارتديت ثيابي وهرعت خارجاً.

بعد ساعة أو ما يقارب ذلك، كنا نحن الثلاثة نجلس في مطعم بالقرب من دار البلدية. مطعم إيطالي. وكان أولريك قد سعد لرؤيتنا ثانية. وراح يتساءل عما كنا نفعل طوال هذا الوقت. وفيما كنا ننتظر الحساء الإيطالي اللذيذ، رحنا نرشف قليلاً من الشراب. أما أولريك، فكان يعمل كالحمار في حملة دعائية للصابون، وكان سعيداً بهذه الفرصة لينال قسطاً من الراحة. كان في مزاج رائق.

وأخذت مونا تحكي له عن مسألة السكاكر، مجرد رؤوس أقلام. وأخذ أولريك ينصت إلى حكاياتها بشيء من الذهول والافتتان. وانتظر حتى يسمع وجهة نظري قبل أن يبدي أي تعليق. فإن بدوت في مزاج متعاون، فسيستمع بأذنين صاغيتين، تماماً وكأنه يسمع القصة كلها للمرة الأولى.

قال ضاحكاً: «يالها من حياة! كم أتمنى أن تتوافر لدي الشجاعة وأقوم بمغامرة صغيرة. لكن هذه الأشياء لا تحدث معي أبداً. هكذا إذن، فقد أخذتما تبيعان السكاكر في مقهى رويال؟ عليّ اللعنة»، هزّ رأسه وأخذ يضحك.

ثم سألني: «وهل ما زال أومارا معكما؟».

«نعم، لكنه سيغادرنا قريباً. إنه يرغب في الذهاب إلى الجنوب. يظن أن بإمكانه تحقيق نتائج أفضل هناك».

«أظن أنك لن تشتاق إليه كثيراً؟»

قلت: «لا بل سأشتاق إليه. فأنا أحب أومارا رغم كل عيوبه».

هز أولريك رأسه عندما سمع ذلك، وكأن لسان حاله يقول أنا متسامح أكثر من اللازم، لكنها ميزة جيدة.

«وأوسيكي ذاك... ماذا حلّ به؟».

«إنه الآن في كندا. أتتذكر صديقيه، إنهما يتوليان أمر صديقته أثناء غيابه».

«حسناً»، قال أولريك وهو يمرر لسانه يميناً وشمالاً على شفتيه الحمراوين الممتلئتين. «يالها من شهامة!» قال ذلك وضحك ضحكة مكتومة.

«بالمناسبة»، قال متجهاً إلى مونا، «ألا توافقيني أن سمعة حي الفيليج قد ساءت قليلاً هذه الأيام؟ لقد أخطأت واصطحبت بعض أصدقائي من فرجينيا إليه في تلك الليلة. جلنا في أرجائه بسرعة، يمكنني أن أقول. ولم نر سوى حانات سيئة وملاهٍ وضيعة. ربما لم يكن لدينا ما يكفينا تحت أحزمتنا... كان هناك محل، مطعم على ما أعتقد، في ساحة شيريدان. ياله من مكان، لا أجد حرجاً من قول ذلك».

أطلقت مونا ضحكة وقالت: «أتعني ميني دوتشيباج؟».

«ميني دوتشيباج؟».

«نعم، ألم يكن هناك ذلك المجنون الذي يغني ويعزف على البيانو... ويرتدي ملابس نسائية؟».

«بالطبع!» قال أولريك. «لم أكن أعرف أن هذا هو اسمه. يجب أن أعترف أن هذا الاسم يلائمه جيداً. فهو أحمق بكل معنى الكلمة، ياإلهي فقد ظننت في لحظة ما أنه سيتسلق الثريا. ياله من نذل، ولديه لسان قذر أيضاً!». ثم استدار نحوي وقال: «لقد تغيّرت الأمور يا هنري منذ أيامنا. حاول أن تتصورني وأنا جالس مع شخصين وقورين محافظين من فيرجينيا. والحقيقة أنهما لم يكادا يفهمان ولا كلمة واحدة قالها».

الحانات السيئة والملاهي الوضيعة، كما سماها أولريك، كانت بالطبع الأماكن التي كنا نرتادها. ورغم أني تظاهرت بأني أسخر من حساسية أولريك المفرطة، كنت أشاطره الرأي في هذه الأماكن. فقد تدهور حي الفيليج في الواقع واستشرى فيه الفساد. إذ لم يكن فيه شيء سوى الحانات السيئة والملاهي الوضيعة، لا شيء سوى اللوطيين، والسحاقيات، والقوادين، والمومسات، والدجالين والمزورين. ولم أر سبباً يدعوني لأن أخبر أولريك عنها، لكننا كنا في آخر مرّة في حانة بول وجو، المكان الذي يهيمن عليه الشاذون تماماً الذين يرتدون زي البحارة. حيث حاولت قحبة صغيرة فاسقة أن تقضم قطعة من ثدي مونا الأيمن ـ في صالة الطعام. وعندما خرجنا من المطعم صادفنا «بحارين» يتلويان على أرضية الشرفة، سرواليهما عند أسفل قدميهما، ينخران ويشخران مثل خنزيرين متلاصقين. وبدا لي هذا أمراً زائداً عن الحد حتى بالنسبة لحي غرينيتش فيليج. وكما أقول، فلم أر سبباً يجعلني أخبر أولريك بهذه الأمور لأنه لن يتقبلها بسهولة. أما الشيء الذي كان يحب سماعه، فهو حكايات مونا عن الزبائن الذين راودوها عن نفسها، تلك الطيور الشاذة، كما أُطلق عليهم، القادمين من ويهوكن، وميلووكي، وواشنطن، وبورتوريكو، والسوربون، وغيرها من المناطق. وكان يحيره السبب الذي يجعل الرجال من الطبقة الجيدة بهذه الدرجة من الضعف. وكان بوسعه أن يفهم ردة فعلهم مرّة، لكن ليس مراراً وتكراراً.

قال: «كيف يمكنها أن تبعدهم عنها؟» وأبدى حركة وكأنه يعضّ لسانه.

وبغتة غيّر الحديث. «أتعرف يا هنري أن ذلك الرجل مكفرلاند لا يكف عن السؤال عنك. وبالطبع لا يفهم نيد كيف يمكنك أن ترفض عرضاً جيداً كهذا. إنه يقول لمكفرلاند باستمرار أنك ستقوم بزيارته ذات يوم. لا بد أنك تركت انطباعاً قوياً لدى هذا الولد الكبير. أظن أن

لديك خططاً أخرى، *لكن*، إذا غيرّت رأيك فأظن أن بإمكانك أن تحصل على أيّ شيء تريده من مكفرلاند. فقد أسرّ إلى نيد أنه مستعد لطرد جميع موظفي المكتب لكي يحتفظ برجل مثلك. ظننت أنه عليّ أن أخبرك بهذا. وما يدريك...».

حوّلت مونا الحديث بسرعة إلى اتجاه آخر. وسرعان ما انتقلنا للحديث عن العروض الهزلية. وكان أولريك يتمتع بذاكرة شيطانية بالأسماء. إذ لم يكن يتذكر أسماء الكوميديين والراقصات خلال السنوات العشرين الأخيرة فحسب، بل كان بوسعه أيضاً أن يتذكر أسماء المسارح التي شاهدهم فيها، والأغاني التي كانوا يغنونها، سواء كان ذلك في الشتاء أم في الربيع، ويتذكر من كان معه في كل مناسبة. ومن العروض الهزلية، انتقل إلى العروض الكوميدية الموسيقية، ثم إلى حفلات كواتز الراقصة.

كانت هذه اللقاءات، حين كنا نلتقي نحن الثلاثة، حماسية ومشتتة دائماً، ويتخللها الكثير من الهذيان والاستطرادات. أما مونا، التي لم يكن بوسعها أن تركّز أبداً على أيّ شيء لفترة طويلة، فقد كانت لديها طريقة في الاستماع تدفع أيّ رجل إلى حافة الجنون. فكانت دائماً، عندما تصل إلى النقطة الأكثر إثارة في القصة التي ترويها، تتذكر شيئاً على حين غرة، وكان لا بد لها أن تقوله في الحال. ولم يكن ثمة فرق إن كنا نتحدث عن سيمابو، أو سيجموند فرويد أو الأخوة فراتيليني: وكانت الأشياء التي تظن أنها مهمة ويجب أن تخبرنا بها بعيدة كل البعد عن الموضوع الذي نتحدث فيه. ولم يكن من الممكن أن يقوم بمثل هذه التدخلات الغريبة إلا امرأة. ولم تكن من تلك النساء اللاتي يقلن ما في جعبتهن ثم يدعنك تقول مالديك. وكانت العودة إلى النقطة التي كنا نتحدث عنها، أشبه بمحاولة للوصول إلى الشاطئ بالالتفاف حول جدول سريع. دائماً يتعين على المرء أن يترك التيار يجري.

وبدأ أولريك يألف هذا النوع من الحديث بعض الشيء، ولكن

ضد إرادته. وكان من المؤسف أن نخضعه إلى هذا الأمر، لأننا عندما كنا نتيح له المجال بحرية، كان بوسعه أن ينافس الغيتار الإيرلندية.

فتلك العين التصويرية الدقيقة التي يمتلكها، وحاسة اللمس التي يمس بها الأشياء، سيما الأشياء التي يحبها، وذاكرته عن الماضي التي كانت معيناً لا ينضب، وهوسه بالتفاصيل، وثقته، ودقته (بالزمن، والمكان، والإيقاع، والبيئة المحيطة، والعظمة، ودرجة الحرارة) كانت كلها تضفي على حديثه تلك النوعية، كالتي حققها الأساطين القدماء في التلوين. وفي الحقيقة، عندما كنت أستمع إليه في أغلب الأحيان، كان يتكوّن لديّ انطباع بأنني كنت في الواقع في صحبة أحد الأساطين القدامى. وكان الكثير من أصدقائي يقولون عنه إنه شخص ظريف «وجذاب وأصيل» مما يعني أنه ينتمي إلى «الطراز القديم». ومع ذلك لم يكن عالماً، أو متوحداً، ولا غريب الأطوار. كان ببساطة ينتمي إلى زمن آخر. وعندما كان يتحدث عن الرجال الذين أحبهم ـ الرسامين ـ فكان واحداً منهم. إذ لم يكن يتمتع بموهبة التحدث عنهم بهذا القدر من الإعجاب والحب فحسب، بل كان يتمتع أيضاً بالقدرة على التماهي مع أولئك الذين كان يجلّهم.

وكان يقول إن كلامي يجعله منتشياً، ثملاً. وزعم أنه لا يمكنه أن يتحدث في حضوري عن بعض الأمور كما كان يحلو له، وقال إنه يظن من الطبيعي أن أكون حكواتياً أفضل منه لأنني كاتب. لكن الحقيقة كانت عكس ذلك تماماً. باستثناء لحظات نادرة أكون فيها مستثاراً، أو مجنوناً، لكنني عندما استشيط غضباً، كنت أصبح أخرق وأتلعثم.

وكانت حياة الفوضى التي أعيشها وما تحتويه حياتي من قلة خبرة هي التي كانت تثير إعجاب أولريك وولعه بي. ولم يتمكن أبداً من أن يتكيف مع الواقع بأننا، رغم خروجنا من البيئة ذاتها، ونشأتنا في الجوّ الألماني ـ الأمريكي الغبي ذاته، قد أصبحنا كائنين

مختلفين، وأننا ذهبنا في اتجاهين متعاكسين تماماً. وبالطبع، فقد كان يبالغ في هذا الاختلاف. وكنت أرغب في أن أصحح له، وأنا أعلم كم كانت تغمره المتعة عندما يضخّم أطواري الغريبة. فعلى المرء أن يكون كريماً أحياناً، حتى لو جعلك ذلك تحمرّ خجلاً.

قال أولريك: «عندما أتحدث عنك إلى أصدقائي في بعض الأحيان، فإنك تبدو لهم شخصاً رائعاً، حتى بالنسبة لي. ويبدو لي خلال الفترة القصيرة، منذ أن التقينا من جديد، أنك عشت حياتك عشر مرات. وأنني بالكاد أعرف شيئاً عن الفترة التي تفصل بين حياة وأخرى ـ عندما كنت تعيش مع الأرملة وابنها، مثلاً. عندما كنت تعقد تلك الجلسات المترفة مع لو جاكوبس ـ ألم يكن هذا اسمه؟ لا بد أنها كانت فترة غنية، ومجزية، رغم صعوبتها. لا عجب في أن ذلك الرجل، مكفرلاند، قد أحسّ بشيء مختلف فيك. أعرف أني أطأ فوق أرض خطرة عندما أفتح هذا الموضوع ثانية» ألقى نظرة سريعة ذات مغزى إلى مونا وأردف قائلاً: «لكن حقاً يا هنري، حياة المغامرة والحركة التي تتوق إليها هذه... أعذرني، لا أقصد أن أكون فظاً... أعرف أنك رجل مفكر أيضاً...» وكأنه استسلم، ضحك ضحكة مكتومة، ومرر لسانه فوق شفتيه، ورشف بضع قطرات من الكونياك، ثم ربّت على فخذيه، وراح ينقل نظره من واحد إلى الآخر، ثم أطلق ضحكة طويلة من أعماقه وقال: «اللعنة، إنك تعرف ما أقصد قوله! أنا أتحدث مثل تلميذ مدرسة. أظن أني أنوي أن أقول هذا فقط ـ أنت بحاجة إلى مجال أوسع في حياتك. بحاجة إلى أن تلتقي بأشخاص أقرب إلى مقامك ومنزلتك. يجب أن يكون بوسعك السفر، أن يكون لديك مال في جيبك، أن تستكشف، أن تبحث وتتقصى. باختصار ـ كلما ازدادت المغامرات، ازدادت المآثر».

هززت رأسي مبتسماً، أحثّه على الاستمرار.

«وأعرف بالطبع أيضاً أن الحياة التي تعيشها الآن غنية إلى حد يفوق طاقتي... أقصد غنية بالنسبة لك ككاتب، فأنا أعرف أن

الإنسان لا يختار مادة الحياة التي ستشكل فنه. فهذا يصدر عن مزاجه، أو يمليه عليه. فلا شك أن هذه الشخصيات الغريبة التي يبدو أنها تنجذب إليك كالمغناطيس تنطوي على عوالم واسعة يجب سبر أغوارها. لكن بأي ثمن! إن قضاء أمسية مع معظم هؤلاء يستنزف طاقاتي ويرهقني، ورغم أني أجد متعة وأنا أستمع إليك تتحدث عنها، لكني لا أظن أن بإمكاني أن أطيق كل هذا. ما أعنيه يا هنري، على ما يبدو أنها لا تمنحك أيّ شيء بالمقابل للرعاية التي تمنحها إياها. لكني أعود وأكرر، إني مخطئ بالطبع. لا بد أنك تعرف بالغريزة ما ينفعك وما يضرك».

هنا كان لا بد لي أن أقاطعه بقولي: «بالنسبة لهذا الأمر فأنت مخطئ، على ما أظن. أنا لا أفكر بمثل هذه الأشياء ـ ما هو الشيء الجيد أو السيء بالنسبة لي. أتناول ما أصادفه في طريقي وأستفيد منه إلى أبعد الحدود. لا أسعى إلى هؤلاء الناس عمداً. أنت محق، فهم ينجذبون إليّ، لكني أنجذب أنا إليهم أيضاً. وأحياناً أرى أني أنسجم معهم أكثر مما أنسجم معك، أو مع أومارا أو مع أيّ من أصدقائي الحقيقيين. بالمناسبة، هل تظن أنه يوجد لديّ أصدقاء حقيقيون؟ وأنا أعرف شيئاً واحداً، وهو أنني لا يمكنني الاعتماد عليك في أي شيء».

«هذا صحيح يا هنري»، قال هذا وقد تهدل فكه السفلي بزاوية غريبة. «لا أظن أن أياً منا قادر على أن يكون الصديق الذي يجب أن يكون بالنسبة لك. إنك تستحق صديقاً أفضل بكثير».

قلت: «هذا هراء، وأنا لا أقصد أن أكرر ذلك. اغفر لي، كانت تلك مجرد فكرة طائشة».

«ما الذي حدث لصديقك الطبيب... كرونسكي؟ لم أسمعك تتحدث عنه مؤخراً».

قلت: «لا توجد لدي أدنى فكرة، لعله يمر حالياً في طور سبات. لكنه سيظهر ثانية، لا تقلق».

هنا قالت مونا: «إن فال يعامله معاملة سيئة، وأنا لا أفهمه. إن سألتني فهو في رأيي صديق حقيقي. يبدو أن فال لا يقدّر أصدقاءه الحقيقيين. ما عداك يا أولريك. لكني أذكّره في بعض الأحيان بأن يتصل بك. فهو ينسى بسرعة».

«لا أظن أنه سينساكِ بسهولة»، قال أولريك، وصفق فخذيه بقوة وارتسمت على وجهه ابتسامة خجولة. «لم تكن هذه ملاحظة لبقة، أليس كذلك؟ لكني متأكّد أنكما تعرفان قصدي»، ووضع يده على يد مونا وضغطها بلطف.

«سأحرص على ألا ينساني»، قالت مونا بصوت خفيض. «أعتقد أنك لم تظن أن علاقتنا ستدوم هذه المدة الطويلة، أليس كذلك؟».

قال أولريك: «الحقيقة، لا، لكني الآن بعد أن عرفتك، أصبحت أعرف مدى تعلق أحدكما بالآخر».

قلت: «لماذا لا نخرج من هنا؟ لم لا نذهب إلى بيتنا؟ يمكنك أن تبيت عندنا هذه الليلة، إن أحببت. فلن يأتي أومارا هذه الليلة».

«حسناً»، قال أولريك، «موافق. يمكنني أن آخذ إجازة يوم أو يومين. سأطلب من صاحب المطعم أن يعطينا زجاجة أو زجاجتين... ماذا تحبان؟».

عندما أضأنا النور في الشقة، توقف أولريك لحظة عند العتبة وراح يجيل ببصره في أرجاء البيت. ثم قال بشيء من الحزن: «يبدو بيتاً جميلاً، أرجو أن تتمكنا من الاحتفاظ به لفترة طويلة». واتجه نحو الطاولة التي أعمل عليها، ونظر إلى الفوضى والأوراق المبعثرة فوقها، ثم قال متفكراً: «كانت رؤية كيف يرتّب الكاتب أشياءه أمراً يثير اهتمامي. بوسعك أن تحسّ بالأفكار تتدفق على الورق» ـ ووضع ذراعه حول كتفي وأضاف «أتذكرك في معظم الأحيان وأنا أعمل. أراك منكباً على الآلة الكاتبة، أصابعك تتسابق بجنون. هناك دائماً نظرة تركيز رائعة على وجهك. كانت تظهر عليك حتى عندما

كنت صبياً ـ أظنك لا تذكر ذلك. نعم، نعم! يا إلهي، من الغريب كيف تؤول إليه الأمور. أحاول أحياناً أن أحمل نفسي على الاعتقاد بأن هذا الكاتب الذي أعرفه هو صديقي أيضاً، وصديق قديم جداً. ثمة شيء تمتاز به يا هنري، وهو ما كنت أحاول أن أعبرّ عنه عندما كنا في المطعم ـ شيء أسطوري، إن جاز التعبير، إذا لم يكن ثمة مبالغة في هذه الكلمة». وهنا انخفض صوته، وأصبح رخيماً وشجياً للغاية، لكنه صادق، ونقي إلى درجة كبيرة. كانت عيناه تدمعان من الإحساس بالمودة، ولعابه يسيل من فمه. كان عليّ أن أوقف هذا المد وإلا أجهشنا جميعنا في البكاء.

حين عدت من الحمام كان منغمساً مع مونا في حديث جديّ. كان مايزال يرتدي قبعته ومعطفه. يمسك بيده صفحة طويلة كنت قد دوّنت فيها كلمات رائعة وكنت أضعها بجانبي أستمد منها الإيحاء عند الحاجة. وكان من الواضح أنه يحاول انتزاع معلومات من مونا عن عاداتي في العمل. إذ كانت الكتابة فناً يفتنه إلى حد بعيد. وقد أصيب بالدهشة، على ما يبدو، عندما رأى مقدار ما كتبته منذ أن التقينا. وراح يلمس بوله الكتب المكدسة فوق طاولة الكتابة. وسألني «ألا تمانع؟»، وهو يتطلع إلى بضع قصاصات ملقاة بجانب الكتب. بالطبع، لم أكن أمانع. ولو كان بوسعي لفتحت له جلدي وتركته ينظر في داخلي. فقد سرني أن أرى الأشياء الصغيرة التي فعلها. ولم أتمالك نفسي، في الوقت نفسه، من التفكير بأنه الصديق الوحيد من بين أصدقائي، الذي أبدى اهتماماً صادقاً بما أفعله. فما أظهره كان بمثابة توقير للكتابة ذاتها ـ وللرجل، كائناً ماكان، الذي توافرت لديه الشجاعة ليكافح في هذا الوسط. وكان بوسعنا أن نقف هنا الليل بطوله، ونحن نتحدث عن تلك الكلمات الغريبة التي دوّنتها، أو عن المفكرة التي وضعتها «مفكرة مستقبليّ»، التي كنت أعمل عليها.

إذن فهو رجل ينتمي إلى عهد آخر، الرجل الذي كان أصدقائي

يقولون عنه إنه «من الطراز القديم» ! نعم، ففي الحقيقة، هو الذي أظهر مثل هذه الحيرة الساذجة حول كلمات من «الطراز القديم». لقد كان رجال العصور الوسطى من طينة أخرى تماماً. إذ كانوا يمضون ساعات، بل أياماً، أسابيع، وشهوراً وهم يبحثون في تفاصيل لم تعد حقيقة بالنسبة لنا. كانوا قادرين على الاستيعاب، والتركيز، والفهم إلى درجة تبدو لنا هائلة إن لم تكن مرضية. كانوا فنانين بكل معنى الكلمة. كانت حياتهم مفعمة بالفن، وكان الفن كذلك يسري في دمائهم. كانت حياة واحدة شاملة. هذا الضرب من الحياة هو الذي كان أولريك يتوق إليه، رغم أنه يئس من إدراكه. ربما كان ما يأمله سرّاً هو الشيء الذي أمتلكه وأنقله إلى الآخرين في هذه الحياة التي تتسم بالتوحد التي نُسج فيها كلّ شيء ليصبح كلاً بالغ الأهمية.

أخذ يجول الآن يحمل كأساً بيده، تصدر عنه إيماءات، أصوات تخرج من حلقه، يتمطق بشفتيه، وكأنه وجد نفسه بغتة في الجنة. كم كان أحمقَ عندما تحدث بهذه الطريقة في المطعم! أما الآن فقد أصبح بإمكانه أن يرى الجانب الآخر منّي الذي كان قد مسّه مساً خفيفاً من قبل. يا للثراء الذي كان ينضح به المكان! الملاحظات المدوّنة على هوامش كتبي تتحدث ببلاغة عن نشاط غريب عني. هاهنا عقل يعجّ بالأفكار. هاهنا رجل يعرف كيف يعمل. وكان يتهمني بأنني أضيع وقتي!

«هذا الكونياك لا بأس به، أليس كذلك؟» قال وتوقف قليلاً يمنح نفسه قليلاً من الوقت للراحة. «قدر أقل من الكونياك ومزيد من التفكير سيكونان هما طريق الحكمة بالنسبة لي». ولوى قسمات وجهه التي كان يعرف كيف يجمعها في مركّب من الدناءة، والمداهنة، والتملق والطعن والانتصار.

«يا رجل، كيف تجد الوقت الكافي لتفعل كل هذا، هلا أخبرتني؟» قال وغاص في الكرسي بلا مسندين دون أن يريق قطرة واحدة من السائل الثمين. وأردف بسرعة «ثمة شيء واحد واضح

وهو أنك تحبّ ما تفعله. أما أنا فلا! يجب أن آخذ درساً وأغيّر أسلوبي... يبدو في ذلك شيء من الحماقة، كما أظن، أليس كذلك؟ هيا، اضحك، فأنا أعرف كم أبدو سخيفاً في بعض الأحيان».

قلت له إني لم أكن أضحك منه بل أضحك معه. فقال «لا يهم هذا أو ذاك، فأنا لا يهمني إن كنت تسخر مني أم لا. فأنت الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أعتمد عليه في تسجيل ردود أفعالي الحقيقية. أنت لست قاسياً، إنك صادق. ولا أجد هذا بين الأشخاص الذين تربطني بهم صلات. لكني لن أجعلك تمل من سماع هذه الأسطوانة القديمة» وهنا مال إلى الأمام ولاحت منه ابتسامة لطيفة دافئة. «ربما لا يكون ما سأقوله مناسباً، لكني سأقوله لك يا هنري، فأنا لا أشعر أني أعمل بحماس ونشاط وأنني أقترب من الحب، إلا عندما تقف أمامي تلك السوداء، لوسي، لأرسمها. والمصيبة هي أني لم أتمكن قط من إيلاج قضيبي فيها. أنت تعرف لوسي ـ كيف كانت تدعني أداعبها وكلّ ذلك. أصبحت تقف أمامي عارية لكي أرسمها الآن. نعم! يالها من قطعة رائعة»، قالها متهللاً ثانية، بصوت أشبه بالصهيل. «أتمنى أن تأتي وتراها. فإنك ستموت ضحكاً. لكنها كانت في آخر الأمر تتركني معلقاً. حيث كان يتعين عليّ أن أغطّسه في الماء البارد. إنها تخذلني. أوه حسناً...» نظر إلى مونا، الواقفة خلفه، ليرى كيف كان رد فعلها.

ولدهشته المطلقة قالت: «لماذا لا تدعني أقف أمامك لترسمني في بعض الأحيان؟»

أخذت عيناه ترمشان بعنف، ثم نقل بصره منها إليّ ثم عاد إليها وقال: «بحق السماء! كيف لم يخطر ببالي هذا من قبل؟ أظن أن هذا الطير لا يمانع؟»

أمضينا الليلة ونحن نسترجع ذكريات الماضي، نتحدث عن المستقبل، عن حياة الليل، وانتهت كالعادة بالحديث عن أسماء الرسامين العظماء تقرع آذاننا. وكانت ملاحظة أولريك الأخيرة قبل

أن يستغرق في النوم: «يجب أن أقرأ مقالة فرويد عن دافنشي قريباً... أم تقول إنها ليست بهذا القدر من الأهمية؟».

أجبت: «الشيء المهم الآن هو أن ننام جيداً ونستيقظ نشطين».

أبدى موافقته بأن أطلق ضرطة عالية - دون قصد - بالطبع.

تذكّرت أني لم أر ابن عمي جان منذ مدة طويلة جداً. وكل ماكنت أعرفه عنه أنه انتقل من يوركفيل منذ بضع سنوات، وأنه كان يقيم حالياً في كوني آيلاند مع ابنيه اللذين أخذا يكبران.

بعثت إليه ببطاقة بريدية، أخبرته فيها عن رغبتي في أن أراه ثانية، وسألته أين يمكننا أن نلتقي. فأجابني على الفور، واقترح أن نلتقي عند محطة قطار الأنفاق قرب نهاية الخط.

كان في نيتي أن آخذ معي رزمة من الأشياء من البقالية وقليلاً من النبيذ، إلا أنه كان عليّ أن أتدبر قليلاً من القطع النقدية الصغيرة، تكفيني للوصول إلى هناك والعودة، قبل الانطلاق لزيارته. وقلت في نفسي إنه إذا كان يعمل، فلن يكون في عسرة مالية. وفي آخر دقيقة حاولت أن أستدين دولاراً من بائع الصحف الكفيف الذي يقف عادة عند بورو هول، لكن دون جدوى.

أُصبت بشيء من الصدمة حين رأيت جان واقفاً على الرصيف يحمل بيده علبة طعام صغيرة. وكان الشيب قد دبّ في رأسه. وكان يرتدي بنطالاً مرقعاً، وكنزة صوفية سميكة وقبعة. غير أن ابتسامته كانت متألقة، ولقاءه حاراً. وكان ثمة ارتعاشة في صوته. كان مايزال ذلك الصوت العميق، الدافئ الذي ما زلت أذكره منذ أن كان صبياً.

وقفنا هناك لمدة دقيقة أو دقيقتين يحدق أحدنا في الآخر. ثم قال بلكنة يوركفيل التي يرطن بها: «تبدو بخير يا هنري».

قلت: «تبدو أنت أيضاً في حالة جيدة، لكنك أنحف قليلاً فقط».

«بدأت أصبح عجوزاً»، قال جان، ورفع قبعته ليريني صلعته.

قلت: «هراء، إنك ما تزال في الثلاثينيات من عمرك. ما تزال شاباً».

أجاب: «كلا، لقد فقدت همتي. واجهت وقتاً عصيباً يا هنري».

هكذا بدأت الأمور. وأدركت في الحال أنه صادق في كلامه. فقد كان دائماً صريحاً، واضحاً، ومخلصاً.

بدأنا نهبط درجات المحطة المرتفعة واتجهنا إلى منطقة مهجورة، بقعة بائسة. وحدست أنها ستزداد بؤساً كلما تقدمنا أكثر.

أخذ يقصّ عليّ قصته شيئاً فشيئاً، وكان كلما تعمق في رواية قصته، ازدادت مسحة الحزن والألم فيها. فبداية، لم يكن يعمل سوى يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع. إذ لم يعد أحد يريد أن يشتري علب الغلايين الجميلة. وكان أبوه هو الذي وجد له عملاً في المصنع. (بدا ذلك منذ زمن بعيد). ولم يكن أبوه يؤمن في أن يضيّع وقته في الدراسة. ولم تكن هناك حاجة لأن أتذكر كم كان أبوه ساذجاً فظاً: كان يجلس دائماً وهو يرتدي فانيلته الحمراء، في الشتاء أو في الصيف، وأمامه علبة البيرة. كان واحداً من أولئك الألمان الأغبياء الذين لم يتغيروا أبداً.

تزوج جان وأنجب طفلين، وعندما كان الطفلان صغيرين توفيت زوجته بالسرطان، موت بطيء، طويل، مؤلم. وكان قد أنفق جميع مدخراته وغرق في الدين. ثم أقاموا في الريف، كما كان يطلق عليه، بعد وفاة زوجته ببضعة شهور. وفي ذلك الوقت بالذات، سرّحوه من المصنع. حاول أن يتدبر أموره، لكن دون طائل. وتمثلت المشكلة في أنه يجب أن يجد عملاً يؤديه في البيت لعدم وجود أحد يعتني بالطفلين. فقد كان يطهو الطعام، ويغسل، ويصلح، ويكوي الثياب، كان يفعل كل شيء. كان وحده، وحده تماماً. ولم يتمكن من أن ينسى أنه فقد زوجته التي كان يحبها كثيراً.

حدثني بكل هذا ونحن ماضون في طريقنا إلى منزله. ولم يكن

قد سألني بعد أي شيء عن أحوالي، بل كان مستغرقاً تماماً وهو يروي لي معاناته وبؤسه. عندما ترجّلنا من الحافلة أخيراً كان أمامنا مشوار طويل يجب أن نقطعه سيراً على الأقدام عبر شوارع قذرة وكئيبة في الضاحية، على نحو ما بدت وكأنها أرض فضاء، حيث كان ينتصب في نهاية الشارع كوخه الصغير، الكئيب الرثّ، الذي يشبه تماماً مساكن الفقراء البيض في أقاصي الجنوب. وكان هناك أزهار قليلة تحاول أن تشق طريقها بيأس لتستمد الحياة من خارج باب البيت الأمامي. لقد بدوا جميعهم يثيرون الشفقة. دلفنا إلى البيت وحيّانا الصبيان. طفلان وسيمان بديا كأنهما مصابان بشيء من سوء التغذية. فتيان هادئان، جادان، متجهمان ومتحفظان على نحو غريب. لم يسبق لي أن رأيتهما من قبل. شعرت بالخجل الشديد من نفسي لأني لم أجلب لهما شيئاً.

شعرت أنه عليّ أن أقول شيئاً لكي أبرئ نفسي.

قال جان: «ليس من الضروري أن تخبرني فأنا أعرف مثل هذه الأمور».

قلت: «لكننا لسنا مفلسين على الدوام، اسمع، سآتي مرة أخرى في وقت قريب، قريب جداً، أعدك بذلك. وسأحضر زوجتي في المرة القادمة».

قال جان: «لا تتحدث عن هذه الأمور، فأنا في غاية السعادة لأنك أتيت. عندنا قليل من حساء العدس على الموقد، وقليل من الخبز. فلن نموت جوعاً».

راح يتحدث مرة أخرى عن الأيام التي لم يكن عندهم فيها فتات يتناولونه، عندما بلغ به اليأس مبلغاً جعله يتوجه إلى جيرانه ويستجدي قليلاً من الطعام، فقط للطفلين.

قلت: «لكن دايف كان سيساعدك، أنا واثق من ذلك. لماذا لم تطلب منه نقوداً؟».

بدا ممتعضاً. «إنك تعرف الأوضاع جيداً. وأنت لا تريد أن تستدين من أقربائك».

«لكن دايف ليس مجرد قريب».

«أعرف يا هنري، لكني لا أحب أن أطلب مساعدة. أفضّل أن أجوع. لو لم يكن من أجل الطفلين لمتّ جوعاً».

فيما كنا نتحدث، انسل الطفلان إلى الخارج، ثم عادا بعد بضع دقائق يحملان بعض أوراق الملفوف والكرفس والفجل.

«ما كان ينبغي لكما أن تفعلا ذلك»، قال جان موبخاً إياهما بلطف.

«ماذا فعلا؟» سألت.

«أوه، لقد سرقا هذه الأشياء من جار لنا مسافر».

قلت: «حسناً فعلا!عليه اللعنة يا جان، لقد فعلا خيراً. اسمع، إما أنك شديد التواضع، أو أنك مغرور جداً. لا أعرف أيهما». لكني اعتذرت له في الحال. كيف يمكنني أن أوبّخه للاستقامةِ البسيطة التي يتمتع بها؟ إنه جوهر الشفقة، اللطف، التواضع الحقيقي. كان لكل كلمة ينطقها رنين ذهبي. لم يوجّه اللوم لأحد، حتى أنه لم يوجه اللوم للحياة أيضاً. كان يتحدث عنها وكأنها حادث عرضي، جزء من قدره، أمر لا يجب الاعتراض عليه.

«لعلهما يتمكنان من إحضار شيء من النبيذ أيضاً»، قلت مازجاً المزاح بالجد.

قال جان خجلاً: «نسيت، عندنا قليل من النبيذ في القبو. إنه نبيذ محلي الصنع... من البيلسان... هل يمكنك أن تحتسيه؟ أحتفظ به لمثل هذا المناسبات فقط».

انسل الطفلان إلى الطابق السفلي. قلت: «إنهما طفلان وسيمان يا جان. ماذا سيفعلان عندما يكبران؟».

«لن يذهبا للعمل في المصنع، هذا أمر مؤكد».

سأحاول أن أرسلهما إلى الجامعة. أظن أن من المهم حصولهما على تعليم جيد. آرثر، الأصغر، يريد أن يصبح طبيباً. أما الولد الأكبر فهو طائش. يريد أن يذهب إلى الغرب ليصبح راعي بقر. لكني أظن أنه سيغيّر رأيه قريباً. أنت تعرف أنهم يقرؤون قصص رعاة البقر السخيفة تلك».

فجأة، خطر له أن يسألني إن كان عندي طفل.

قلت: «ابنة من زوجتي الأولى».

أصيب بالدهشة عندما علم أني تزوجت مرة ثانية. فقد بدا لي أنه لم يقتنع بمسألة الطلاق.

سألني: «هل زوجتك تعمل أيضاً؟».

«تقريباً» قلت ولم أعرف كيف أوضح له تعقيدات حياتنا في بضع كلمات.

ثم أردف قائلاً: «أظن أنك ما تزال تعمل في شركة الإسمنت».

شركة *الإسمنت*! كدت أقع عن الكرسي.

قلت: «لا يا جان، فأنا كاتب الآن. ألا تعرف ذلك؟».

«*كاتب*؟» جاء دوره ليصاب بالدهشة. أشرق وجهه بهجة. قال: «هذا الأمر لا يفاجئني حقاً. أتتذكر كيف كنت تقرأ لنا نحن الأطفال في الماضي. كنا دائماً نغفو وأنت تقرأ، أتتذكر؟» توقف قليلاً يفكر، مطرقاً رأسه، ثمّ رفع رأسه وقال: «بالطبع لقد نلت تعليماً جيداً أيضاً، أليس كذلك؟» قالها كما لو كان أحد أولاد المهاجرين الذي حُرم من الامتيازات التي يتمتع بها المواطن الأميركي.

حاولت أن أوضح له أني لم أقطع شوطاً كبيراً في الدراسة، وأننا كنا عملياً في الوضع ذاته. وفي غمرة ذلك، سألته بغتة إن كان مايزال يقرأ.

أجاب ببشاشة: «أوه نعم، أقرأ قليلاً. لا توجد عندي أشغال

كثيرة، كما تعرف»، وأشار إلى رفّ يقبع خلفي حيث تصطف كتبه. استدرت لأقرأ العناوين: ديكنز، سكوت، ثاكيري، الأختان برونتي، جورج إليوت، بلزاك، زولا...

«لا أقرأ الكتابات الحديثة التافهة». قال رداً على سؤالي الذي لم أسأله.

جلسنا لتناول الطعام. أخذ الطفلان يأكلان بشراهة شديدة. انتابني شعور بتأنيب الضمير. أدركت أنني لو لم أكن هناك لتناولا ضعف كمية الطعام. وحالما انتهى الحساء انتقلنا إلى سلطة الخضار. لم يكن فيها زيت، أو توابل من أي نوع، بل لم يكن يوجد فيها حتى خردل. انتهى الخبز أيضاً. بحثت في جيبي وأخرجت عشرة بنسات، كل ما كان بحوزتي بالإضافة إلى أجرة العودة إلى البيت. قلت: «دعهما يذهبان ويشتريان رغيفاً من الخبز».

قال جان: «ليس ضرورياً، يمكنهما أن يشبعا بدونه. لقد تعودا على ذلك».

«هيا! يمكنني أن أتناول قليلاً منه؟»

«لكن لا توجد زبدة أو مربى!».

«ما الفرق؟ سنأكله بدون شيء. فعلت ذلك من قبل».

خرج الطفلان لشراء الخبز.

قلت: «يا إلهي، إنك حقاً لا تملك شيئاً، أليس كذلك؟»

قال: «هذا ليس بالشيء السيء يا هنري. كنا نقتات على الأعشاب لفترة من الوقت».

«لا، لا تقل لي ذلك! هذا غير معقول». كنت على وشك أن أغضب منه. قلت: «ألا تعرف، ليس من المفروض أن تجوع؟ هذه البلاد مليئة بالطعام يا جان. سأخرج وأستجدي طعاماً قبل أن آكل أعشاباً. اللعنة، لم أسمع بشيء كهذا».

«الأمر مختلف معك»، قال جان. «لقد جلت في أرجاء العالم. أما أنا فلم أفعل ذلك. لقد عشت كسنجاب في قفص... ما عدا ذلك فقد كنت أعمل على قارب لنقل القمامة».

«ماذا؟ قارب نقل القمامة؟ ماذا تعني بذلك؟».

«هذا ما أعنيه تماماً»، قال جان بهدوء. «نقل القمامة إلى بارن آيلاند. فعلت ذلك عندما كان الطفلان يقيمان مع والديّ زوجتي لفترة من الوقت. أتيحت لي الفرصة لأن أعمل شيئاً للتغيير... أتذكر السيد كيسلنج، النائب؟ لقد دبّر لي العمل. إستمتعت به أيضاً. بالطبع كانت الرائحة مثيرة للغثيان، لكن يمكنك أن تتعود على أي شيء بعد فترة من الزمن. كانوا يدفعون ثمانين دولاراً في الشهر، حوالى ضعفيّ ماكنت أحصل عليه في مصنع الغلايين. كان ذلك ممتعاً أيضاً، أن تبحر إلى الخليج، وحول الميناء، وأعالي النهر. كانت الفرصة الأولى والوحيدة التي جعلتني أخرج إلى العالم. ذات مرة ضللنا طريقنا في البحر، عندما هبت عاصفة قوية. فجرف التيار القارب بنا عدة أيام. والأسوأ من كل ذلك، عندما نفد طعامنا. نعم، فقد اضطررنا لتناول القمامة. كانت تجربة رائعة. يجب أن أقول إني استمتعت بها. أفضل بكثير مما لو كنت في مصنع الغلايين، رغم الرائحة الكريهة الفظيعة...».

توقف لحظة ليستعيد ذكرى تلك الأيام. أفضل أيامه! ثم سألني فجأة إن كنت قد قرأت كونراد، جوزيف كونراد، الذي كتب عن البحر.

أومأت برأسي.

«هناك كاتب يعجبني. لو كان بإمكانك يا هنري أن تكتب قصة مثله، حسناً...» ولم يعرف ماذا يضيف إلى هذا. «أفضل رواية عندي هي «الزنجي النرجسي». لا بد أني قرأتها ما لا يقل عن عشر مرات. وفي كل مرة كانت تبدو لي أفضل من المرة السابقة».

«نعم، أعرف. لقد قرأت كل أعمال كونراد تقريباً. أتفق معك، إنه كاتب رائع... وماذا عن دوستويفسكي، هل سبق لك وقرأت له؟».

لا، لم يقرأه. لم يسمع باسمه من قبل. ماذا كان، روائي؟ بدا له أنه بولوني من اسمه.

قلت: «سأرسل لك أحد كتبه، كتاب بعنوان *منزل الموتى*». ثم أردفت «بالمناسبة، عندي عدد كبير من الكتب. يمكنني أن أرسل لك أي شيء تحب، العدد الذي تريد. أخبرني فقط ماذا ترغب».

قال إنه عليّ ألا أهتم بذلك، فهو يحب أن يعيد قراءة الكتب ذاتها عدة مرات.

«لكن ألا ترغب في أن تطلّع على كتّاب آخرين أيضاً؟».

قال إنه لا يظن أن لديه الطاقة التي تجعله يهتم بالكتّاب الجدد. لكن ابنه، الفتى الأكبر، يحب القراءة. ربما أمكنني أن أرسل له شيئاً.

«أي نوع من الكتب يقرأ؟».

«إنه يحبّ الكتّاب المعاصرين».

«من أمثال؟».

«أوه، هول كين، رايدر هاغارد، هينتي...».

«بالتأكيد» قلت «يمكنني أن أرسل له شيئاً مثيراً للاهتمام».

«أما الطفل الأصغر»، قال جان، «فهو بالكاد يقرأ. إنه مهتم بالعلم. فكل ما يبحث عنه هو المجلات العلمية. أظن أنه يطمح في أن يكون طبيباً. يجب أن ترى المختبر الذي جهّزه لنفسه. لديه كل شيء هناك، كل شيء مجهّز ومعبأ في زجاجات. الرائحة كريهة هناك. لكن إذا كان هذا يجعله سعيداً...».

«تماماً يا جان. إذا كان ذلك يجعله سعيداً».

بقيت حتى موعد الحافلة الأخيرة. سرنا في الشارع الكئيب، المظلم ولم نكد نتبادل كلمة واحدة.

وعندما صافحتهم قلت لهم إني سأعود لزيارتهم قريباً.

«سنقيم احتفالاً في المرة القادمة، أليس كذلك يا أولاد؟».

قال جان «لا تهتم بذلك يا هنري، تعال فقط... وأحضر معك زوجتك أيضاً».

بدا أن لا نهاية لرحلة العودة إلى البيت. لم أشعر بالقنوط والحزن فقط، بل بدوت عابساً، يائساً وكئيباً. لم أنتظر حتى أصل إلى البيت وأضيء النور. فما أن أصبحت داخل عش الحب حتى شعرت بالأمان ثانية. لم تبد لي شقتنا الصغيرة الرائعة مثل رحم مريح كما بدت لي الآن. حقاً، لم نكن نفتقر إلى شيء. فعندما كنا نشعر بالجوع بين الحين والآخر، كنا نعرف أن ذلك لن يدوم إلى الأبد. كان عندنا أصدقاء ـ ونتمتع بموهبة الكلام. نعرف كيف نتدبر أمورنا. أما العالم، فقد كان العالم الحقيقي يقبع داخل جدراننا الأربعة. فقد كان بوسعنا أن نحضر إلى عريننا كل شيء نريده من العالم. صحيح، إني كنت أصبح في بعض الأحيان أكثر حساسية، أو خجولاً، عندما يصل الأمر إلى المس بشخص، إلا أن تلك اللحظات كانت نادرة. وعندما كنا نقع في ضائقة، أستجمع شجاعتي وأقترب من شخص غريب تماماً. بالتأكيد كان من الضروري على المرء أن يبتلع كبرياءه. لكنني كنت أفضل ابتلاع كبريائي بدلاً من بصاقي.

لم تبد لي بورو هول في حلة أفضل من الآن عندما خرجت من محطة المترو. كنت للتو قد وصلت إلى البيت. وبدا لي عابرو السبيل مألوفين. لم يكونوا ضائعين. وبين العالم الذي تركته للتو وبين هذا العالم كان الفرق هائلاً. كانت مجرد أطراف المدينة، حقاً، حيث يعيش جان ـ لكنه كان القفر بالنسبة لي. انتابتني رعشة عندما فكرت لو أن القدر صبّ لعنته عليّ وجعلني أعيش مثل هذه الحياة.

تملكتني رغبة عارمة في أن أجوب الشوارع لفترة من الوقت، وقادتني غريزتي إلى شارع ساكيت، المفعم بذكريات صديقي القديم، أل بيرغر، مررت أمام منزله. بدا خرباً إلى درجة محزنة.

وبدا لي أن الشارع برمته، والبيوت وكل شيء فيه، أخذت تتناقص منذ زيارتي الأخيرة. لقد تقلص كل شيء وتغضن. ورغم كل شيء، ما زال شارعاً رائعاً بالنسبة لي. *شارع الحنين*.

أما الضواحي، البائسة والمهجورة تقريباً ـ فقد مات جميع من عرفتهم ممن ذهبوا للعيش في الضواحي. فلم يغسل تيار الحياة هذه الضواحي قط. وقد يكون ثمة غرض واحد فقط يجعل المرء ينكفئ إلى سراديب الموتى الحية هذه: للتناسل والاضمحلال. فلو كان ذلك عملاً من أعمال نكران الذات لكان مفهوماً، لكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق. إنه دائماً اعتراف بالهزيمة. لقد غدت الحياة روتيناً، أكثر أنواع الروتين مدعاة للملل والضجر. وظيفة مملة، عائلة ذات صدر كبير ينسل المرء فيها، الحيوانات الأليفة الريفية وأمراضها، المجلات ذات الورق المصقول، أغطية السرير الهزلية، روزنامة المزارع. وقت أبديّ يمضيه المرء في دراسة نفسه في المرآة. واحداً تلو الآخر، بانتظام كشمس الظهر، يتساقط الأطفال من الرحم. وتُستحقّ فترة دفع الإيجار بانتظام أيضاً، أو يستحق دفع الفائدة على القرض العقاري. كم من الممتع مراقبة تمديد أنابيب المجاري الجديدة! كم من المثير رؤية شوارع جديدة تُشق، ثم تُرصف بالإسفلت! كل شيء جديد. جديد ورديء. جديد ومقفر. جديد وبلا معنى. مع الجديد أتت أسباب راحة إضافية. كل شيء خُطّط للأجيال القادمة. يرتهن المرء للمستقبل المشرق. رحلة واحدة إلى المدينة، ويحنّ للعودة إلى الكوخ الصغير النظيف وجزّازة العشب والغسالة. أما المدينة فهي مزعجة، مشوشة، وثقيلة. يكتسب المرء إيقاعاً مختلفاً عندما يعيش في الضواحي. ماذا يهم إن كان المرء مطّلعاً؟ فهناك ما يعوض ذلك ـ مثل نعال منزلية دافئة، الراديو، طاولة الكوي التي تخرج من الحائط. حتى التمديدات الصحية جذابة.

لم يكن لدى جان المسكين، بالطبع، مثل هذه التعويضات. لديه هواء نقي، وهذا كل شيء. صحيح أن الضاحية التي يقيم فيها لاتمت

كثيراً بشيء للضواحي. إذ يعيش منعزلاً في تلك الأرض المحايدة حيث يجمع المرء الجسد والروح معاً، بطريقة منكودة تتحدى كلّ المنطق. فقد كانت المدينة الدائمة التوسع تهدد دائماً بالتهامه، أرضه وكل شيء. أو قد ينحسر المدّ لسبب خيالي ويتركهم بلا حيلة. في بعض الأحيان، تبدأ المدينة في الانتشار خارجاً باتجاه محدد، ثم، على حين غرة، تغيّر رأيها. فتترك أي تحسينات تم إدخالها دون اكتمال. ويبدأ المجتمع الصغير يموت ببطء، بسبب نقص الأوكسجين. كلّ شيء يتدهور وينحدر. وفي هذا الجو قد يكتفي بإعادة قراءة الكتب ذاتها ـ أو الكتاب نفسه ـ مراراً وتكراراً. أو يستمع إلى أسطوانة الفونوغراف ذاتها. عندما يعيش المرء في فراغ فإنه لا يحتاج إلى أشياء جديدة، ولا إلى الحماس، ولا إلى المحفّزات الخارجية، بل يكتفي بالعيش حياة عقيمة، جرداء، لينبت كجنين في جرّة.

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة وأنا أفكر بجان. فقد أثارت محنته انزعاجي لأني كنت دائماً اعتبره أخي التوأم. كنت على الدوام أرى نفسي فيه. فقد كان أحدنا يشبه الآخر، وكنا نتكلم الشيء ذاته. وكنا قد ولدنا تقريباً في المنزل ذاته. وكان من الممكن أن تصبح أمه أمي: ومن المؤكد أني كنت أفضّلها على أمي. فعندما كان يجفل من الألم، كنت أجفل. عندما كان يبدي شوقاً لعمل شيء، كان ينتابني ذات الإحساس. كنا مثل فريق متناغم. ولا أذكر أبداً أني اختلفت معه، أو تجاوزته أبداً، لم أصرّ على عمل شيء لم يرد أن يعمله. وما كان يمتلكه كان لي، وما كنت أمتلكه كان له. ولم يخالجنا أي شعور بالغيرة أو المنافسة. كنا شخصاً واحداً، جسداً وروحاً... لم أر فيه الآن رسماً كاريكاتورياً عن ذاتي، بل بالأحرى هاجساً عما سيحدث. فإذا كان القدر قد عامله بهذه القسوة ـ أخي الذي لم يؤذ أحداً في حياته ـ فماذا يمكن أن يخبئ لي؟ إذ لم تكن الطيبة القابعة فيّ سوى غيض من فيض طيبته التي لا تنضب. كانت الرداءة من نصيبي. فقد تراكمت الرداءة فيّ لأننا افترقنا. وعندما افترقنا، فقدت ذلك الصدى

الذي كنت أعتمد عليه لتوجيه ذاتي. لقد فقدت المحك الذي كنت أركن إليه.

كل ذلك كان يجول في عقلي فيما ظللت صاحياً في السرير. لم يسبق أن فكرت بعلاقتنا بهذا الشكل. لكن كم بدت لي واضحة الآن! لقد فقدت أخي الحقيقي. تهت. أرغمت نفسي على أن أكون مختلفاً عنه. ولماذا؟ لأنني لن أركع أمام العالم. فأنا لدي كبرياء. وببساطة فأنا لا أقرّ بالهزيمة. لكن ماذا أردت أن أعطي؟ أشك في أني فكّرت بهذا على الإطلاق، بأنه كان عليّ أن أقدم للعالم شيئاً وآخذ منه أيضاً. أتباهى أمام الجميع بأني كنت كاتباً، كما لو كان ذلك الغاية وسبب كل الوجود. يالها من مهزلة! ندمت لأنني لم أكذب على جان. كان عليّ أن أخبره أني كنت كاتباً في أحد المكاتب، أمين صندوق، أيّ شيء سوى أنني كاتب. كان ذلك أشبه بصفعة على وجهه.

وكم كان من الغرابة، أن يأتي إليّ ابنه «الطائش» كما وصفه، بعد سنوات، حاملاً مخطوطاته طالباً نصيحتي. هل أشعلت شرارة في تلك الليلة ألهبت الابن؟ وكما تنبأ الأب، فقد ذهب الولد إلى الغرب، وعاش حياة مغامر، أصبح أفاقاً متشرداً، في الواقع، وبعد ذلك، كالابن المسرف عاد، وامتهن ذلك العمل الغريب الكتابة ليكسب رزقه. قدمت له ما بوسعي من مساعدة، وألححت عليه أن يتوقف عن الكتابة للمجلات وأن يفعل شيئاً جدياً. ثم لم أسمع عنه ثانية قط. وكنت من حين لآخر، عندما ألتقط مجلة، أبحث عن اسمه. لماذا لاأكتب له رسالة؟ على الأقل أسأله إن كان أبوه مايزال على قيد الحياة. لعلي لا أريد أن أعرف ما حصل لجان ابن عمي. ولعل معرفة حقيقة ما حل به سيثير فزعي.

6

قررت أن أشرع في كتابة مقالتي اليومية دون أن أنتظر موافقة ألان كرومويل. إذ إن كتابة شيء جديد ومثير يومياً، والتقيد بمساحة محددة، يتطلب شيئاً من الممارسة. ورأيت أنه من الجيد أن أحضّر عدداً من المقالات سلفاً. فإذا وفى كرومويل بوعده، كنت عندها جاهزاً. ولكي أحدد الأسلوب الأكثر جاذبية، رحت أجرّب طائفة متنوعة من الأساليب. إذ كنت أعلم أنه سيأتي يوم لن أتمكن أن أكتب فيه كلمة واحدة. وهكذا لن أفاجأ.

في غضون ذلك، وجدت مونا عملاً مؤقتا كمضيفة في أحد النوادي الليلية في حي الفيليج يدعى ريمو. ولم يكن ماثياس، دلّال العقارات، يرى أنها مستعدة لتبدأ العمل معه، ولم أعرف سبب ذلك. وقد يكون السبب، بالطبع، أنها كانت ترغب في أن تهدئ من حدة غلوائه أولاً. ففي بعض الأحيان، كان المعجبون بها هؤلاء يصبحون متهورين ويبدون رغبتهم في الزواج منها بسرعة. هكذا كانت تدّعي.

على أي حال، كان ثمة انسجام بين العمل ومزاجها وخبرتها السابقة. إذ كانت تحرص على ألا ترقص كثيراً. والشيء المهم، هو أنها كانت تشجع الضحية على الشرب قدر الإمكان. فقد كانت المضيفات يحصلن على نسبة مئوية من ثمن المشروبات، هذا إن لم يكن هناك شيء أكثر.

وسرعان ما وقع في حبها كورسي الشاب، الذي كان يملك مؤسسة مشهورة في حي الفيليج - إحدى المعالم الرئيسية -. فكان يأتي لرؤيتها عند الانصراف ويرافقها إلى *منزله*. وكانا لا يحتسيان هناك سوى الشمبانيا. وقبيل الفجر، كان يطلب إلى سائقه أن يوصلها إلى البيت في سيارته الليموزين الجميلة.

وكان كورسي أحد أولئك المتهورين ممن كانوا يرغبون في الزواج منها. وكان يحلم باختطافها إلى كابري أو سورينتو، ويبدآن أسلوباً جديداً في الحياة. ومن الواضح أنه كان يبذل أقصى ما بوسعه لإقناع مونا أن تترك العمل في ملهى ريمو، كما كنت أفعل. وكنت أمضي أحياناً ساعة من الزمن وأنا أتساءل كيف يمكن أن يتوافق رأيه ورأي معاً. *وردودها*.

كانت تتوقع أن يصل كرومويل إلى المدينة في أيّ يوم، وعندها ستبدأ برؤية الأمور بمنظار مختلف. وقد قالت ذات مرّة إنها قد تفعل ذلك.

ومما كان يثير قلقي أكثر من محاولات كورسي الشاب العنيفة في التودد إليها، شعوري بالامتعاض من تعرضها لمضايقات بعض السحاقيات السيئات السمعة في الفيليج. ويبدو أنهن كن قد أتين إلى ملهى ريمو من أجلها، وكن يشترين مشروبات بكثرة كما كان يفعل الرجال. وكما علمت، فقد كان كورسي مستاء أيضاً. وراح يتوسل إليها - أنه إذا كان عليها أن تعمل - فلتعمل معه. وعندما فشل في ذلك، اتخذ سبيلاً آخر. فقد أخذ يحاول أن يجعلها تشرب حتى الثمالة في كل ليلة، بأمل أن تشعر بالاشمئزاز من عملها. لكنه لم يفلح في هذا أيضاً.

والسبب الذي لم يجعلها تغير رأيها، كما علمت مؤخراً، أنها بدأت تعجب بإحدى الراقصات، تلك الفتاة من تشيروكي التي كانت تمر في ضائقة شديدة وكانت بالإضافة إلى ذلك حاملاً حتى ذقنها. كانت دمثة جداً، وصريحة جداً، وكان من الممكن أن تُطرد منذ فترة

بعيدة لو لم تكن مصدر الجاذبية الرئيسية. وبدا أن الناس كانوا يتقاطرون إلى الملهى في كل ليلة، فقط ليشاهدوها وهي تؤدي الدور الذي تقوم به، الذي كان ينتهي دائماً بأن تباعد ساقيها بحيث تمتدان وتتخذان خطاً مستقيماً. إلى متى يمكنها أن تواصل هذه الرقصة دون أن يسقط جنينها، كان سؤالاً خطيراً وهاماً.

بعد أن أخبرتني مونا بحالتها بعدة ليالي، غابت الفتاة عن وعيها وسقطت على الأرض. فنقلوها بسرعة من ساحة الرقص إلى المستشفى، حيث أجروا لها عملية ولادة قبل الأوان، وولد الطفل ميتاً. وكانت حالتها حرجة جداً بحيث اضطرت للبقاء في المستشفى عدة أسابيع. ثم حدث شيء غير متوقع. ففي اليوم الذي كانت ستخرج فيه من المستشفى، أصيبت بنوبة من الاكتئاب الشديد وقفزت من النافذة وانتحرت.

بعد هذه الحادثة المأساوية لم تعد مونا تستطيع أن تيمم نظرها إلى ملهى ريمو. ولفترة من الزمن، لم تحاول أن تعمل أي شيء. ولكي أيسّر الأمور عليها، ولأثبت لها أيضاً أنه بوسعي أن أنقّب أنا نفسي عن الذهب قليلاً، كنت أسعى كل يوم لأضع لمسة هنا وهناك. ولم يصل بنا الأمر إلى حالة ميؤوس منها، بل كنت أفعل ذلك لكي أساعدها، ولأثبت لها أنه إذا كان علينا حقاً أن نعيش حياتنا كما يفعل سمك القرش، فأنا أكاد أكون مثلها. وبشكل طبيعي فقد بدأت بأولئك الذين كنت أثق بهم. وكان ابن عمي، الذي كان يمتلك دراجة السباق الجميلة التي كنت أملكها ذات يوم، أول شخص يتصدر قائمتي. وقد حصلت منه على عشرة دولارات. أعطاني إياها بامتعاض، لا لأنه كان بخيلاً، بل لأنه كان يرفض فكرة الاقتراض والإقراض. وعندما سألته عن الدراجة قال لي إنه لم يسبق له أن ركبها، وأنه باعها إلى صديق له، صديق سوري. توجهت على الفور إلى منزل السوري - كان على بعد بضع حارات - ورحت أحكي له عن سباق الدراجات، والتنافس على الجوائز، وكرة القدم وما إلى ذلك

بحيث أعطاني عشرة دولارات عندما انفصلنا. وألحّ عليّ أن أرافق زوجتي ذات ليلة لنتناول العشاء مع عائلته.

ومن زابروسكي، صديقي القديم، كاتب التلغراف في مكتب التلغراف قرب ميدان تايمز سكوير، حصلت على عشرة دولارات أخرى وعلى قبعة جديدة فضلاً عن وجبة غداء ممتازة. وبالطبع دار الحديث المعهود، عن الخيول، عن العمل بجدّ، عن اتخاذ الحيطة للأيام العصيبة. وكان في غاية اللهفة لأن يعدني بأن أرافقه ذات ليلة لحضور مباراة جيدة. وعندما قلت له أخيراً إني سأكتب مقالة لصحفية هيرست، أخذ يرمقني بدهشة. كما أقول، كان قد منحني الدولارات العشرة. وبدأ يتحدث الآن بحماس. وقال إنه يجب أن أتذّكر إن كنت أحتاج إلى المزيد من النقود بين الحين والآخر - وأن أعده أنه عندما أصبح كاتب عمود معروفاً، بأن أتصل به. قال: «لعله من الأفضل أن تأخذ عشرين دولاراً بدلاً من عشرة». أعدت له ورقة العشرة دولارات وأخذت منه واحدة من فئة العشرين. وعند ناصية الشارع توقفنا عند مخزن لبيع السيجار حيث حشا جيب سترتي بالسيجار الغليظ. ثم لاحظ أن القبعة التي اشتراها لي منذ فترة تبدو رثة نوعاً ما. وقفنا عند بائع الملابس، في طريق عودتنا إلى مكتب التلغراف، واشترى لي قبعة أخرى، من طراز بورساليبنو، من دون كل القبعات. وقال ناصحاً: «يجب على المرء أن يبدو لائقاً، لا تدعهم يشعرون أبداً بأنك فقير». كان يبدو في غاية السعادة بحيث أننا عندما افترقنا، خيّل إلي أنني أنا الذي قدّمت له هذه الأفضال. «لا تنس!» كانت كلمته الأخيرة، وهو يخشخش المفاتيح في جيب بنطاله.

بدوت في حالة رائعة وفي جيبي أربعون دولاراً. كان يوم السبت، وقلت في نفسي عليّ أن أواصل هذا العمل الجيد. فلعلي ألتقي بصديق قديم وأحصل منه على مزيد من الدولارات - بهذه الطريقة. عندما دسست يدي في جيبي، أدركت أنه لم يكن معي ولا قطعة نقدية صغيرة. وكنت أرغب في أن أحافظ على الدولارات كما هي - أربعون دولاراً بالتمام والكمال أو لا شيء.

قلت إنه لم يكن معي قطع معدنية صغيرة. كنت مخطئاً، فقد عثرت في جيب صدريتي على بنسين قديميّ الشكل، بنسين أبيضين. لعلي كنت أحتفظ بهما من أجل الحظ السعيد.

في جادة بارك أفنيو وصلت إلى صالات عرض شركة مينيرفا للسيارات. يالها من سيارة جميلة، المينيرفا تلك. فهي تكاد تكون بجودة الرولز رويس. تساءلت إن كان صديقي القديم أوتو كانست، الذي كان يعمل محاسباً عندهم، ما زال يعمل هنا. لم أر أوتو منذ سنوات ـ تقريباً منذ أن حُلّ نادينا القديم.

دخلت صالة العرض الفخمة وكان هناك أوتو، متجهماً، وقوراً كحانوتي دفن الموتى. لقد أصبح مدير المبيعات الآن. كان يدخن سجائر مرادس، منذ الأيام الخوالي. وكان يضع في إصبعيه خاتمين جميلين أيضاً.

ابتهج لرؤيتي ثانية، لكن بطريقته المتحفظة التي طالما أثارت حنقي.

«تبدو في حالة جيدة»، قلت.

«وماذا تفعل هنا؟» قال وكأن لسان حاله «وماذا تريد هذه المرة؟».

قلت له سأكتب عموداً لإحدى الصحف قريباً.

«حسنا!» همم مقطباً حاجبيه!

خُيّل إليّ أنه يمكنني الحصول منه على عشرة دولارات ليصبح المبلغ الذي بحوزتي خمسين دولاراً. فهو رغم كل شيء مدير مبيعات، وصديق قديم... أليس كذلك؟

رفض طلبي بفظاظة. حتى أنه لم يبال لأن يفسّر سبب عدم رغبته في إقراضي المبلغ. كان الأمر منتهياً، هذا كل ما في الأمر. مستحيل. كنت أعرف أنه من العبث حثّه على إعطائي المبلغ، لكنني فعلت ذلك، لأغيظه فقط. اللعنة، رغم أني لم أكن بحاجة إليها، فلا

يحق له أن يرفض. كان يجب أن يفعل ذلك كرمى لصداقتنا القديمة. كان أوتو يفتل سلسلة ساعته اليدوية وهو ينصت. بدا بارداً كخيارة. لم يشعر بالحرج، ولا العطف أيضاً.

«يا إلهي، أنت لست شحيحاً إلى هذه الدرجة!» قلت.

ابتسم برباطة جأش. «أنا لا أطلب إحساناً، ولا أقدم إحساناً»، رد مداهناً. كان متعجرفاً كبقّة محشورة في بساط. وكأنه كان دائماً مدير مبيعات - أو شيئاً أكثر أهمية. لكن لم يخطر بباله أنه بعد سنوات قليلة سيحاول أن يبيع التفاح في الجادة الخامسة. (حتى أصحاب الملايين لم يكن بوسعهم شراء سيارة مينيرفا خلال فترة الكساد).

«حسناً، انس الموضوع»، قلت. «الحقيقة أن جيبي محشو بالدولارات. كنت أختبرك فقط». وأخرجت الدولارات ولوحتها أمام عينيه... بدا مبلبلاً، ثم تجهم وجهه. وقبل أن يقول كلمة أخرى أخرجت البنسين الأبيضين: «ما جعلني آتي إلى هنا هو لأطلب منك معروفاً. هل يمكنك أن تقرضني ثلاثة سنتات ليصبح معي خمسة بنسات لكي استقل مترو الأنفاق؟ سأردها لك عندما أمرّ من هنا في المرة القادمة».

أشرق وجهه على الفور. كدت أسمع التنهيدة التي انطلقت منه عندما تنفس الصعداء.

«بالطبع يمكنني أن أفعل ذلك»، قال، وراح يبحث في جيبه عن البنسات الثلاثة.

«إنه لطف كبير منك»، قلت، وصافحته بحماسة شديدة، كما لو كنت في الحقيقة ممتناً.

«لا شيء»، قال بجدية تامة، «ولا يتعين عليك أن تعيدها».

«هل أنت متأكد؟»، قلت. وأخيراً بدأ يدرك أني كنت أسخر منه.

«يمكنني دائماً أن أقرضك بضعة بنسات»، قال بحدّة، «لكن ليس

عشرة دولارات. وكما تعرف فإن المال لا ينمو على الأشجار. وعندما أبيع شخصاً سيارة أتصبب عرقاً من أجل ذلك. بالإضافة إلى ذلك فأنا لم أبع سيارة منذ أكثر من شهرين».

«هذا شيء سيء، أليس كذلك؟ أتعرف، تكاد تجعلني أشعر بالأسى من أجلك. حسناً، بلّغ تحياتي للزوجة والأطفال».

رافقني إلى الباب كما يفعل مع الزبائن. وعندما افترقنا قال «تعال ثانية».

«في المرة القادمة سأشتري سيارة - الهيكل فقط».

كشّر ممتعضاً. وفيما كنت أتوجه صوب محطة الأنفاق رحت ألعنه وأشتمه قائلاً ياله من ابن عاهرة فظ، وبخيل وشحيح. وعندما تذكرت كم كنا صديقين حميمين عندما كنا صغاراً لم أستطع أن أتجاوز الأمر. والغريب أني لم أتمالك نفسي عن التفكير بأنه أصبح يشبه أباه العجوز الذي كان الجميع يمقتونه على الدوام. والذي كان يقول عنه «ياله من هولندي عجوز، عنيد، شحيح، وضيع!».

حسناً، كان ذلك صديقاً يمكنني أن ألغيه من قائمتي. فعلت ذلك في ذلك الزمان والمكان، وبمثل تلك الإرادة لم أتمكن من تذكّره بعد سنوات، عندما صادفته في الجادة الخامسة. لقد حسبته مخبراً! ويمكنني أن أسمعه الآن وهو يكرر بحماقة: «ماذا، ألا تتذكرني؟» «لا، لا أتذكرك»، قلت. «أنا حقاً لا أتذكرك. من أنت؟» كان على ذلك التافه المسكين أن يذكر لي اسمه قبل أن أعرف من هو بنفسي.

كان أوتو كانست أعز صديق لي في شارع الأحزان المبكرة. فبعد أن غادرت أمريكا لم أتذكر سوى الصبية الذين لم يكونوا أصدقائي المقربين، مثل المجموعة التي كانت تعيش في البيت الريفي القديم في بداية الشارع. كان ذلك المنزل الوحيد في الحي العريض الكامل الذي شهد أياماً أخرى، الأيام التي كان فيها شارعنا طريقاً ريفياً يطلق عليه اسم مستوطن هولندي، فان

فوريس. على أي حال، في هذا البيت المتداعي، الآيل للسقوط، كانت تقيم ثلاث عائلات. وكانت عائلة فوسليرس، التي هي عبارة عن سلالة من الحمقى والبخلاء، تعمل في مجال الفحم والخشب والثلج والروث؛ وعائلة لاسكيس المكونة من أب يعمل صيدلياً، وأخوين ملاكمين محترفين، وفتاة بالغة لم تكن سوى قطعة من لحم البقر، أما عائلة نيوتن فكانت تتألف من أم، وابن نادراً ما تحدثت معه لكني كنت أكن له احتراماً خاصاً. وكان إد فوسلير، الذي كان بعمري تقريباً، قوياً كالثور ومجنوناً بعض الشيء، وكان أشرماً ويتأتئ ويفأفئ بشكل يثير الشفقة. ولم يدر بيننا أي حديث مطول، لكننا كنا أصدقاء، إن لم نكن أصحاباً. وكان إد يعمل من الصباح حتى الليل، وكان عملاً شاقاً أيضاً، ولهذا كان يبدو أكبر سناً منا جميعاً نحن الذين لم نكن نفعل شيئاً سوى أن نلعب بعد المدرسة. وعندما كنت صبياً لم أكن أتذكره إلا عاملاً متنقلاً. وما كان علينا إلا أن نعرض عليه بضعة سنتات حتى يؤدي المهام التي كنا نزدريها. وكنا نستثيره كثيراً، كما يفعل الأولاد. والغريب أني عندما ذهبت إلى أوروبا كنت أجد نفسي في بعض الأحيان أفكر بهذا الأحمق الشاذ، إد فوسلير. ويجب أن أقرّ أني كنت أتذكره دائماً بمشاعر العطف. لقد تعلمت الآن كم كان عالم البشر متناهياً في الصغر والذي يمكن لأحدنا أن يقول عنه: «إنه رجل يمكنك أن تعتمد عليه». وكنت بين الحين والآخر أبعث إليه بطاقة بريدية، لكني بالطبع لم أسمع منه أبداً. وكل ما كنت أعرفه هو أنه ربما كان قد توفى.

وكان إد فوسلير يحظى بحماية من أبناء عمه من الدرجة الثانية، آل لاسكيس. وخاصة من إدي لاسكي، الذي كان يكبرنا قليلاً، وكان يتمتع بشخصية متميزة أيضاً. أما أخوه توم، الذي كان إدي يقلده في كل شيء، فكان شخصاً لطيفاً حلو المعشر، وعلى وشك أن يصبح شخصية هامة في عالم الملاكمة. وكان توم هذا في حوالى الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره، هادئاً، مؤدباً، وأنيقاً في ثيابه. وكانت تتدلى منه خصلة طويلة ملفوفة من الشعر، على

طريقة تيري مكغوفيرن. وكان شخصاً يصعب على أحد أن يشك بأنه مقاتل عنيف لو لم يكن أخوه إدي يتفاخر به كثيراً. وكنا بين الحين والآخر نتمتع بمشاهدة الاثنين وهما يتلاكمان في الفناء الخلفي حيث كانت تنتصب كومة من الروث.

أما إدي لاسكي فكان يصعب أن تهرب منه. فما أن تقع عيناه عليك، حتى كان يتقدم نحوك ويعترض سبيلك، وتبرز على فمه تكشيرة عريضة شريرة تكشف عن أسنانه الصفراء الكبيرة؛ وكان يتظاهر بأنه سيصافحك لكنه يقوم ببعض الحركات - وبسرعة البرق - يوجه إليك لكمة قوية في أضلاعك، أو ما كان يدعوها «لكزة مازحة في الفك». وكان ذلك الأحمق اللعين عذاباً حقيقياً حتى تتخلص من قبضتيه. وكنا نعتقد جميعنا أنه لن يفوز أبداً على الحلبة. «فلا بد أن يلتقي يوماً بالرجل الغلط!» كان ذلك هو رأينا.

أما جيمي نيوتن، الذي كان على علاقة غامضة بعائلة فوسليرس وعائلة لاسكيس، فكان غريب الأطوار تماماً بينهم. إذ لم يكن هناك أحد أكثر صمتاً منه، ولا أكثر تأدباً وإخلاصاً وأصالة منه. ولم يكن أحد يعرف أين كان يعمل. كنا نادراً ما نراه، وكان التكلم معه أكثر ندرة. وكان من ذلك النوع الذي لا يقول سوى «صباح الخير!» وكنت تشعر أنك أصبحت في حال أفضل. وكان عندما يلقي عليك تحيته الصباحية فكأنه كان يمنحك بركة. وما كان يثير اهتمامنا أكثر به ذلك الإحساس بالكآبة الذي يلازمه والمتأصّل فيه كما يبدو. وكان ذلك حري بشخص يكابد مأساة عميقة غير بادية. وكان يراودنا الشك بأن حزنه لا بد متأتٍ عن أمه التي لم نرها قط. فلعلها كانت عاجزة؟ أم مجنونة؟ أم كسيحة؟ أما بالنسبة إلى أبيه، فلم نعرف قط إن كان ميتاً أو أنه هجرهم.

أما بالنسبة لنا، نحن الأطفال الذين ينعمون بالدعة والهناء ونتمتع بصحة جيدة، فكان يغلّف هذا البيت الغموض والألغاز. ففي تمام الساعة السابعة والنصف من صباح كل يوم كان لاسكي الأب،

الذي كان ضريراً، يغادر البيت برفقة كلبه، وهو ينقر الطريق بعصا قوية من القصب.

كان لهذا بحد ذاته تأثير غريب علينا. لكن البيت نفسه بدا مجنوناً، إذ لم تكن تُفتح بعض النوافذ أبداً على سبيل المثال، وكان خصاص النوافذ مغلقاً دائماً. وفي إحدى النوافذ الأخرى كانت تجلس مولي، ابنة لاسكي، وإلى جانبها عادة علبة بيرة. كانت تجلس هناك، وكأنها في معرض، منذ اللحظة التي ترتفع فيها الستارة. وبما أنه لم يكن يوجد شيء تفعله ولا توجد رغبة في عمل أيّ شيء، كانت تجلس ببساطة هناك طوال اليوم تستمع إلى الثرثرة. فكانت تعرف كل شيء يجري في الحارة. وبين الحين والآخر كان جسدها يتضخم، وكأنها كانت على وشك أن تنجب طفلاً، لكن لم تحدث أية ولادات أو وفيات. كانت ببساطة تتغير مع تبدل الفصول. كسولة إلى حد الفسوق، وقد أحببناها. كانت خمولة إلى حد أنها لم تكن تذهب حتى إلى البقالة عند ناصية الشارع. وكانت ترمي لنا ربع أو نصف دولار من النافذة، التي كانت على مستوى الشارع، وتطلب منا أن نحتفظ بالباقي. وأحيانا تنسى الهدف الذي أرسلتنا من أجله، فتطلب منا أن نحتفظ بما أحضرناه لها.

أما الرجل العجوز فوسلير، الذي كان يدير شركة شاحنات، فكان رجلاً ضخماً فظاً لم يكن يفعل شيئاً سوى أن يلعن ويكيل السباب والشتائم عندما تصادفه. وكان بوسعه أن يرفع أوزاناً ضخمة بسهولة، سواء كان ثملاً أو صاحياً. وبالطبع كنا نقف أمامه وجلين خائفين. لكن دمنا كان يجف عندما نرى كيف كان يركل ابنه ـ فقد كان بإمكانه أن يرفعه من الأرض بإصبع قدمه الكبيرة. وكيف كان يضربه بالسوط! ورغم أننا لم نكن نجرؤ على خداع ذلك الرجل العجوز، كنا غالباً نجتمع مطولاً في الفسحة المفتوحة ونتباحث فيما بيننا كيف يمكننا أن ننتقم منه. وكان إد فوسلير يضع يده على رأسه ويقعي على الأرض ما أن يرى العجوز قادماً. وذات مرة

حاولنا يائسين دعوة إد لنتناقش معه، إلا أنه ما إن عرف عما سنتحدث حتى ولى الأدبار.

ومن الغريب أني كنت غالباً أتذكر تلك الشخصيات، وهي جميعها من ذلك الحي 14 القديم، الذي كنت مولعاً به. وفي شارع الأحزان المبكرة ذاك لم يكن أولئك شخصيات عادية. وقد اعتدت وأنا فتى - في الحي القديم - على الاختلاط بالأغبياء، بأفراد عصابات المبتدئين، بالمحتالين التافهين، بالمقاتلين وبالمصابين بالصرع وبالسكارى وبالعاهرات. كان كل شخص في ذلك العالم القديم العزيز «شخصية متميزة»، أما في الحي الجديد الذي انتقلنا إليه فكان الجميع أشخاصاً عاديين، غير مميزين. وكان هناك استثناء واحد فقط، ما عدا أفراد القبيلة الغريبة التي كانت تسكن البيت الريفي. ولم أعد أتذكر اسم هذا الشاب، لكن شخصيته محفورة في ذاكرتي. فقد قدم حديثاً إلى الحي، وكان يكبرنا جميعنا قليلاً، وكان مختلفاً بشكل واضح. ففي أحد الأيام وفيما كنا نلعب الدحل (الكلال)، قلت شيئاً جعله يتطلع مندهشاً. «من أين أنت؟» سأل. «من دريحز أفنيو في الأصل»، قلت. وفي الحال نهض من على ركبتيه وضمني إليه وراح يعانقني. «لماذا لم تقل لي ذلك من قبل؟» صاح. «أنا من وايث أفنيو، عند ناصية نورث سفنث».

كنا أشبه بأخوين ماسونيين يتبادلان كلمات السر. وفي الحال توطدت العلاقة بيننا. ففي أي لعبة كنا نلعبها، كان دائماً إلى جانبي. وإذا ما هددني أحد الصبية الأكبر سناً، فكان يعترضه على الفور. وإذا أراد أن يسرّ إليّ شيئاً مهماً، كان يرطن بلهجة حينا القديم.

ذات يوم عرّفني على أخته، التي كانت تصغرني قليلاً. كاد يكون حباً من النظرة الأولى. ولم تكن جميلة جداً، حتى لعيني الشابتين، لكن كان في سلوكها شيء يشبه سلوك الفتيات اللاتي كنت أكنّ لهن احتراماً في الحي القديم.

وذات ليلة أقام والدي حفلة مفاجئة من أجلي. ودعي إليها

جميع أطفال الحي ـ ماعدا صديقي الجديد وأخته الصغيرة. شعرت بالامتعاض. وعندما سألت لماذا لم يدعيا قيل لي إنهما لا ينتميان إلى هذا المكان. فهمت الأمر الآن. وفي الحال انسللت خارج المنزل وذهبت أبحث عنهما. وأوضحت بسرعة إلى أمهما أنه حدث خطأ، مجرد سهو، وأن الجميع بانتظار ابنها وابنتها. ربتت على رأسي وارتسمت على وجهها ابتسامة بأنها تعرف وقالت لي أنت ولد طيب. شكرتني كثيراً، في الحقيقة، حتى أني شعرت بالخجل.

رافقت صديقيّ إلى الحفلة مزهواً، لأدرك فقط أني ارتكبت خطأ فاحشاً. إذ لم يعرهما أحد أي اهتمام وعاملوهما ببرود. وبذلت مابوسعي لتبديد جوّ العداوة لكن دون جدوى. وأخيراً لم أعد أحتمل. «إمّا أن تصادقوا صديقيّ»، قلت بجرأة، ممسكاً بهما بذراعيّ، «أو يمكنكم أن تعودوا جميعكم إلى بيوتكم. فهذه حفلتي وأريد أصدقائي هنا».

لهذه الجرأة حصلت على صفعة رنانة من أمي. أجفلت لكني حافظت على توازني.

«هذا ليس عدلاً!» جأرت، وكانت الدموع قد أوشكت أن تنهمر من عينيّ.

وعلى الفور عادت الأمور إلى طبيعتها. فقد كانت أشبه بمعجزة الطريقة التي تحطم فيها الجليد. فما هي إلا لحظات حتى عدنا جميعنا نضحك، ونصيح، ونغني. لم أستطع أن أفهم لماذا حدث كل ذلك فجأة.

خلال المساء أوقفتني الفتاة التي تدعى سادي، عند ناصية الشارع لتشكرني على ما فعلت. وقالت: «كان ذلك رائعاً منك ياهنري»، فتضرج وجهي خجلاً. «لم أفعل شيئاً على الإطلاق»، غمغمت، وشعرت بالسخافة وبالبطولة في آن واحد. تطلعت سادي حواليها لترى إن كان أحد يرانا، ثمّ طبعت بجرأة قبلة على شفتي. وهنا ازددت احمراراً وخجلاً.

«أمي تريد منك أن تأتي للعشاء ذات مساء»، همست. «هل ستأتي؟».

ضغطت على يدها الصغيرة وقلت: «بالتأكيد».

كانت سالي وأخوها يقطنان في البناء ذي الطوابق قبالة الشارع. ولم يسبق أن زرت بيتاً على ذلك الجانب من الشارع. تساءلت كيف يبدو بيتهما. عندما زرتهما كنت في غاية الارتباك بحيث لم ألاحظ شيئاً. وكل ما كنت أذكره هو أن البيت كان يعبق برائحة كاثوليكية. وبالمصادفة، كان كل الناس تقريباً، الذين يقطنون في الشقق - شقق تابعة للسكك الحديدية - ينتمون إلى كنيسة الروم. وكان هذا سبباً كافياً ليعزلهم عن الناس الآخرين في الشارع.

أول شيء اكتشفته، عند زيارة صديقيّ، هو أنهما كانا يعيشان في فقر مدقع. فقد توفي الأب، الذي كان مهندس قطارات؛ أما الأم، التي كانت تعاني من مرض خطير، فلم يكن بإمكانها مغادرة المنزل. لقد كانوا من الكاثوليك. وكان من الواضح على الفور أنهم كانوا شديدي الإيمان. ففي كلّ غرفة، بدا لي، كانت توجد سبّحات، وصور للمسيح المصلوب، وشموع للوفاء بالنذر، وتمثال صغير للسيدة العذراء وطفلها، أو السيد المسيح على الصليب. ورغم أني رأيت أدلة الإيمان هذه في بيوت أخرى، إلا أنى عندما كنت أراها كانت تنتابني رعشة. وكان عدم حبي لهذه الآثار المقدسة - إذا جاز للمرء أن يدعوها هكذا - لأنها ببساطة كانت أموراً سقيمة. وصحيح أني لم أكن أعرف كلمة سقيم آنئذ، إلا أنه بالتأكيد كانت تنتابني مثل هذه المشاعر. فحين كنت ألمح مثل هذه «الأشياء» لأول مرة في بيوت أصدقائي الصغار الآخرين، أذكر أني كنت أهزأ بها وأتهكم منها. والغريب أن أمي التي كانت تمقت الكاثوليك كما تمقت السكارى والمجرمين، هي التي عالجتني من هذا الداء. ولكي تجعلني أكثر «تسامحاً» كانت ترغمني على الذهاب إلى القداس بين الحين والآخر مع أصدقائي الكاثوليك.

غير أني عندما وصفت لها بالتفصيل الوضع في بيت صديقيّ، أبدت قليلاً من التعاطف. وكررت أنها تظن أنه لا يحسن بي أن أرى الكثير من أحوالهم. لماذا؟ أردت أن أعرف. لكنها رفضت أن تجيب على الفور. وعندما اقترحت أن تسمح لي أن آخذ لهم بعض الفاكهة والحلوى من خزانتنا، التي كانت تفيض باستمرار بأطايب المأكولات، عبست وتجهم وجهها، وحين أحسست أنه لا يوجد ثمة سبب وجيه وراء رفضها، قرّرت أن أسرق بعض المأكولات وأهرّبها إلى صديقيّ. وكنت أسرق أحياناً بضعة بنسات من محفظتها وأعطيها إلى سادي أو أخيها. وكنت دائماً أدّعي أن أمي هي التي طلبت مني أن أفعل ذلك.

«لا بد أن أمك امرأة في غاية اللطف»، قالت أم سادي في أحد الأيام.

ابتسمت ابتسامة خفيفة.

«هل أنت متأكد يا هنري أن أمك هي التي ترسل لنا هذه الهدايا؟».

«بالتأكيد»، قلت وعلى وجهي ابتسامة مشرقة جداً. «لدينا أكثر مما نحتاج. يمكنني أن أحضر لك أشياء أخرى أيضاً، إذا أحببت».

«هنري تعال إلى هنا»، قالت أم سادي. كانت تجلس في كرسي هزاز قديم. «الآن استمع إليّ جيداً يا هنري»، وربتت على رأسي بحنان وضمتني إليها. «إنك ولد جيد جداً ونحن نحبك. لكن يجب ألا تسرق لكي تسعد الآخرين. هذه خطيئة. أعرف أن نيتك جيدة، لكن...».

«ليست سرقة» قلت محتجاً. «إنها ستذهب إلى سلة القمامة».

«قلبك كبير»، قالت. «قلب كبير على مثل هذا الولد الصغير. انتظر قليلاً. انتظر حتى تكبر وتكسب قوتك بنفسك. عندها يمكنك أن تعطي كما يحلو لك».

في اليوم التالي انتحى بي شقيق سادي جانباً ورجاني أن لا أغضب من أمه لأنها رفضت هداياي.

«إنها تحبك كثيراً يا هنري»، قال.

«لكن لا يوجد عندكم طعام كاف»، قلت.

«بالتأكيد عندنا»، قال.

«لا يوجد عندكم! أنا أعرف، لأني أعرف كم نأكل نحن».

«سأحصل على عمل قريباً»، قال. «سيتوافر لدينا طعام كثير. في الحقيقة»، ثم أردف، «قد أحصل على عمل الأسبوع القادم».

«ما نوع العمل؟».

«سأعمل لوقت قصير مع حانوتي».

«هذا فظيع»، قلت.

«ليس في الواقع»، أجاب. «ليس من الضروري أن ألمس الجثث».

«هل أنت متأكد؟»

«نعم فلديه رجال آخرون يفعلون ذلك. سأقوم بتوزيع الرسائل، هذا كل ما في الأمر».

«وكم ستقبض؟»

«ثلاثة دولارات في الأسبوع».

تركته متسائلاً إن كان بوسعي أن أجد عملاً أيضاً. لعلي أجد شيئاً أعمله سرّاً. وكنت أفكر بالطبع، أن أقدم لهم ما أكسبه. فثلاثة دولارات في الأسبوع لم تكن شيئاً يذكر، حتى في تلك الأيام. وبقيت صاحياً طوال الليل وأنا أفكر في الموضوع. وكنت واثقاً سلفاً أن أمي لن تسمح لي أن أعمل. فمهما فعلت فإني سأفعله سراً بمكر وبصيرة.

وصادف أن كانت تقطن على بعد بضعة أبواب من بيتنا عائلة

يدير فيها الابن الأكبر عملاً في تجارة البن، كعمل إضافي. إذ تمكن من بيع مزيج من البن كان يقوم بخلطه بنفسه إلى عدد قليل من الزبائن؛ وفي أيام السبت كان يقوم بتوزيع الأكياس بنفسه. وكان يقطع طريقاً طويلاً ولم أكن واثقاً أنه يمكنني أن أقوم بذلك وحدي، لكني قررت أن أطلب منه أن يمنحني فرصة. ولدهشتي وجدت أنه كان سعيداً جداً بفكرة عملي معه؛ فقد كان على وشك أن يهجر مشروعه الصغير.

في يوم السبت التالي انطلقت بحقيبتين مليئتين بأكياس البن. وكنت سأحصل على خمسين سنتاً كراتب وعمولة صغيرة إذا أحضرت زبائن جدداً. وإذا تمكنت من تحصيل أيّ من الديون الميتة فسأحصل على علاوة. حملت كيساً من الكتان ذي خيط لأضع فيه المال الذي أحصل عليه.

وبعد أن دربني على كيفية التحدث مع المدينين، نبهني بشكل خاص أن أحذر من الكلاب في بعض المناطق. ووضعت إشارات بالقلم الأحمر على مخطط الرحلة الذي كان كل شيء فيه واضح - السواقي ومجاري المياه، والجسور، وخزانات المياه، وحدود السياجات، والممتلكات الخاصة، وما إلى هنالك.

حقق يوم السبت الأول ذاك نجاحاً عظيماً. فقد حملق بي رئيسي عندما وضعت المال على المنضدة. وعلى الفور تطوّع ورفع راتبي إلى خمسة وسبعين سنتاً. وكسبت خمسة زبائن جدداً وحصّلت ثلث الديون الميتة. عانقني كما لو أنه عثر على جوهرة.

«تعدني ألا تخبر والديّ بأني أعمل لحسابك؟» قلت راجياً.

«بالطبع لا»، قال.

«لا، عِدني! عِدني بشرفك!» نظر إليّ بغرابة. ثم كرر ببطء «أعدك بشرفي».

في صباح اليوم التالي، يوم الأحد، انتظرت خارج باب بيت

صديقيّ لأراهما في طريقهما إلى الكنيسة. ولم تكن هناك مشكلة لأقنعهما بأن يسمحا لي أن أرافقهما إلى القداس. شعرا بالبهجة، في الحقيقة.

عندما غادرنا كنيسة سانت فرانسيس دو سالس ـ مكان عبادة مروع ـ شرحت لهما ما أنجزنه. وأخرجت النقود ـ بلغت حوالى ثلاثة دولارات ـ وأعطيتها لأخ سادي. ولدهشتي التامة رفض أن يقبلها.

«لكني قبلت العمل من أجلكم فقط» جادلت.

«أعرف يا هنري، لكن أمي لا تريد أن تسمع عن شيء كهذا».

«لكن ليس من الضروري أن تخبرها أنها مني. قل لها إنك حصلت على علاوة».

«لن تصدق ذلك»، قال.

«إذاً قل لها إنك وجدتها في الشارع. أنظر، سأبحث لك عن محفظة قديمة. ضعها في المحفظة وقل لها إنك وجدتها في المزراب خارج الكنيسة. يجب أن تصدق ذلك».

مع ذلك لم يشأ أن يأخذ النقود.

كنت في حيرة من أمري. فإذا لم يقبل النقود ذهبت كل جهودي سدى. تركته بعد أن وعدني بأن يفكّر في الأمر.

كانت سادي التي هبّت لنجدتي. أقرب إلى أمها وتفهم الوضع على نحو عملي أكثر.

على أية حال ظنت أن أمها يجب أن تعرف ماذا كنت أنوي أن أفعله من أجلهم ـ لكي تعرب عن تقديرها.

قبل مضي أسبوع، تحادثنا معاً، أنا وسادي. كانت تنتظرني خارج بوابة المدرسة، في عصر أحد الأيام.

«لقد سوّيت الأمر يا هنري»، قالت منقطعة الأنفاس، «لقد وافقت

أمي على أن تأخذ النقود، لكن لفترة وجيزة فقط ـ إلى أن يحصل أخي على عمل دائم ـ عندها سنسدد لك الدين».

اعترضت بأني لا أرغب في استعادتها، لكن إذا أصرّت أمها فسآخذها. أعطيتها النقود ملفوفة في قطعة من الورق الذي يستخدمه الجزارون.

«أمي تقول إن مريم العذراء ستحميك وتباركك على عطفك»، قالت سادي.

لم أعرف ماذا سأرد على ذلك. فلم يستخدم أحد معي لغة كهذه. بالإضافة إلى ذلك، فإن مريم العذراء لم تكن تعني بالنسبة لي شيئاً على الإطلاق. فلم أكن أؤمن بهذا الهراء.

«هل حقاً تؤمنين بكل ذلك... بأن مريم العذراء؟» سألت.

بدا أن سادي قد أحست بالصدمة ـ أو لعلها شعرت بالحزن. هزت رأسها بأسى.

«من هي مريم العذراء؟» سألت.

«إنك تعرف كما أعرف» أجابت.

«لا. أنا لا أعرف. لماذا يدعونها العذراء؟».

فكرت سادي لحظة، ثم أجابت ببراءة شديدة: «لأنها أم الله».

«حسناً، ما هي *العذراء* على أي حال؟».

«لا توجد سوى عذراء واحدة»، أجابت سادي، «وهي مريم العذراء المباركة».

«هذا ليس جواباً»، قلت معترضاً. «سألت من هي العذراء؟»

«تعني الأم المقدسة»، قالت سادي، غير واثقة من نفسها.

هنا لمعت ببالي فكرة رائعة. سألتها: «ألم يخلق الله العالم؟».

«طبعاً».

«إذاً لا توجد أم. فالله ليس بحاجة إلى أم».

«هذا كفر» كادت سادي تصرخ. «من الأفضل أن تتحدث مع الكاهن».

«أنا لا أؤمن بالكهنة».

«هنري، لا تتكلم بهذه الطريقة! سيعاقبك الله».

«لماذا؟».

«لأن».

«حسناً»، قلت، «إسألي الكاهن أنت! فأنت كاثوليكية، أما أنا فلست».

«يجب ألا تقول أشياء كهذه»، قالت سادي وقد أهينت من الأعماق. «أنت لست كبيراً لكي تسأل مثل هذه الأسئلة. إننا لا نسأل مثل هذه الأسئلة. نحن نؤمن فقط. إن كنت لا تؤمن فلا يمكن أن تكون كاثوليكياً صالحاً».

أجبت: «إني سأؤمن إذا أجاب عن أسئلتي».

«ليست هذه هي الطريقة»، قالت سادي. «أولاً، يجب أن تؤمن. ثم يجب أن تصلّي. واطلب من الله أن يغفر لك ذنوبك».

«ذنوبي؟...؟ لا توجد عندي أيّ ذنوب لأعترف بها».

«هنري، هنري، لا تتحدث بهذه الطريقة، هذا حرام. كل شخص يأثم. لهذا السبب يوجد الكاهن. لهذا نصلّي إلى مريم المباركة».

«أنا لا أصلّي لأحد»، قلت بتحدٍ وأحسست بشيء من الضجر من حديثها الرومانسي.

«هذا لأنك بروتستانتي».

«أنا لست بروتستانتياً. أنا لا شيء. أنا لا أؤمن بشيء *هناك*».

«من الأفضل أن تتراجع عما قلت»، قالت سادي وقد انتابها ذعر شديد. «قد يميتك الله لأنك تتحدث هكذا».

كانت تشعر بذعر شديد من كلامي، بحيث أن عدوى ذعرها انتقلت إليّ.

«أعني»، قلت محاولاً التراجع، «بأنّنا لا نصلّي كما تصلون. نحن لا نصلّي إلا في الكنيسة ـ عندما يصلّي الكاهن».

«ألا تصلّي قبل أن تأوي إلى الفراش؟».

«لا»، أجبت، «لا أصلّي. أظن أني لا أعرف الكثير عن الصلاة».

«إذاً سنعلمك»، قالت سادي. «يجب أن تصلّي كل يوم، ثلاث مرات يومياً على الأقل. وإلا سيحرقك الله في نار جهنم».

افترقنا على هذه الكلمات. وعدتها وعداً قاطعاً بأني سأبذل مجهوداً لأصلي، على الأقل قبل أن آوي إلى الفراش. عندما ابتعدت سألت نفسي بغتة من أجل ماذا سأصلّي. وكنت على وشك أن أعود أدراجي وأسألها. فقد حفرت كلمة «ذنوب» في أعماقي. أية ذنوب؟ ظللت أسأل نفسي. ماذا فعلت حتى أصبح آثماً؟ فقلما كذبت، إلا على أمي. ولم أسرق، إلا من أمي. بماذا سأعترف؟ لم يخطر ببالي أبداً بأني ارتكبت إثماً عندما كنت أكذب على أمي أو أسرق منها. كان عليّ أن أتصرف هكذا لأنها لم تعرف شيئاً أفضل. فما أن ترى الأشياء من وجهة نظري حتى تفهم سلوكي. هكذا كنت أنظر إلى الأمر.

أتذكر حديثي مع سادي، وأفكر بالكآبة المتجهمة التي تسود بيتهم، بدأت أفكر بأن أمي ربما كانت محقة في الارتياب بالكاثوليك. فلم نكن نؤدي أيّ صلاة في منزلنا ومع ذلك كان كل شيء يسير على ما يرام. لم يذكر أحد كلمة الله أبداً في عائلتنا. ومع ذلك فلم يعاقب الله أياً منا. وخلصت إلى أن الكاثوليك يؤمنون بطبيعتهم بالخرافات، مثل الشعوب غير المتمدنة. جهلة، يعبدون الأوثان. أناس متحفظون مترددون لا توجد لديهم الشجاعة لأن يفكروا بأنفسهم. وقررت ألّا أذهب ثانية إلى القداس. كانت كنيستهم أشبه

بزنزانة! وفجأة ـ ومض خاطر في بالي ـ فقد قلت في نفسي إنه لو لم تكن أسرة سادي تفكّر بالله كثيراً لما كانت في هذه الحالة من الفقر المدقع. كل شيء يذهب إلى الكنيسة، إلى الكهنة، الذين لم يكفّوا عن استجداء المال. لم أكن أحب أن أرى كاهناً. فهم كثيرو التملق ومتكلفون جداً بالنسبة لي. ليذهبوا إلى الجحيم! ولتذهب شموعهم إلى الجحيم، سبحاتهم، صلبانهم ومريمهم!

أخيراً أصبحت وجهاً لوجه مع ذلك الرجل اللغز، ألان كرومويل. قدمت له كأساً أخرى من الشراب، ربّت على ظهره، باختصار، أمضينا وقتاً رائعاً معه، هنا في عش حبنا الصغير!

كانت مونا هي التي رتبت اللقاء بتشجيع من دوك كرونسكي. كرونسكي يحتسي الشراب أيضاً، ويصيح ويحرك يديه وقدميه كثيراً. وكذلك زوجته الفأرية النحيلة التي تلعب دور زوجتي في هذه المناسبة. ولم أعد أنا هنري ميلر. بل أعطيت اسماً مستعاراً جديداً لهذه الأمسية: الدكتور هاري ماركس.

مونا الوحيدة الغائبة. «يفترض» أن تصل فيما بعد. تقدّمت الأشياء على نحو رائع منذ اللحظة التي صافحت فيها كرومويل في ذلك المساء. يجب أن أعترف لنفسي، متحدثاً عن الشيطان، أنه كان في الحقيقة شاباً وسيماً. لم يكن وسيماً فقط (على الطريقة الجنوبية) بل لطيفاً وساذجاً كطفل. وأنا لا أقول أنه كان غبياً، لا. بل يثق بالآخرين كثيراً. لم يكن مثقفاً أيضاً، بل ذكياً. لم يكن حاد الذكاء بل بارعاً. رجل طيب القلب، رجل غير متحفظ. يطفح بالنوايا الحسنة.

بدا أنه من المخزي أن نخدعه، أن نسخر منه. وأستطيع أن أرى أن الفكرة كانت فكرة كرونسكي، وليست فكرة مونا. فبسبب إحساسها بالذنب لأننا أهملناه، كرونسكي هذا، لمدة طويلة جداً، لعلها رضخت بدون تفكير. هكذا بدا لي الأمر.

على أي حال، كنا جميعاً في حالة جيدة. كانت الفوضى والبلبلة في أوجهما. ولحسن الحظ، عندما وصل كروموويل كان مبتهجاً كمنطاد. وكان بطبيعته غير شكوك، وقد زادته المشروبات من ذلك. وبدا أنه لم يدرك أن كرونسكي يهودي، رغم أن ذلك كان جلياً حتى بالنسبة إلى طفل. وظن أن كروموويل روسي. أما بالنسبة لي فقد احتار من أين أكون بسبب اسمي ماركس. (وكان كرونسكي هو الذي خرج بالفكرة الرائعة بأن جعلني يهودياً). وكان الكشف عن هذه الحقيقة المذهلة - بأني كنت يهودياً لم تترك أي انطباع لدى كروموويل. وكان من الممكن أن نقول له أيضاً أني كنت من سيوكس أو من الإسكيمو. وانتابه الفضول ليعرف ماذا كنت أفعل لأكسب قوتي. وحسب خطتنا الموضوعة سلفاً قلت لكروموويل بأنني جرّاح، وأنا والدكتور كرونسكي نتقاسم ذات العيادة. تطلع إلى يديّ وأومأ برأسه برزانة.

بالنسبة لي كان الأمر الصعب أن أتذكر، خلال أمسية بدا أنها لن تنتهي، أن زوجة كرونسكي هي زوجتي. وكان هذا بالطبع اختراعاً آخر من مخيلة كرونسكي الخصبة - أسلوب لإبعاد الشك، كما كان يظن. وفي كل مرّة كنت أنظر فيها إلى فأرته تلك كانت تراودني رغبة في أن أسحقها. وقد بذلنا ما بوسعنا لأن نمطرها بالمشروبات. إلا أن كل ما كانت تفعله هو أن تأخذ رشفة صغيرة وتدفع الكأس جانباً. إلا أنه مع مضي المساء بدأت ألعوبتنا تزداد بهجة وجرأة. وبصريح العبارة فقد انفكت عقدة لسانها. ولسبب ما انخرطت في نوبة من الضحك الهستيري حتى ظننت أنها ستمرض مرضاً شديداً. وكان من الأفضل لها أن تجهش في البكاء.

ومن الناحية الأخرى كان كروموويل يضحك بملء شدقيه. وفي بعض الأحيان لم يكن يعرف السبب الذي كان يضحك من أجله، غير أن ضحكنا كان ينتقل بالعدوى، لذلك لم يكترث للسبب الذي كنا نضحك من أجله. وكان يسأل بين الحين والآخر سؤالاً أو سؤالين

عن مونا، التي كان يظن أنها غريبة الأطوار رغم جمالها الفاتن. وبالطبع فقد تظاهرنا بأننا كنا نعرفها منذ أيام الطفولة. ورحنا نمتدح أسلوبها في الكتابة بشكل فاضح، واختلقنا مجموعة كاملة من القصائد والمقالات والقصص التي كانت ستجعلها في أشد حالات التواضع وما كانت لتتذكرها لو أنها هنا. وذهب كرونسكي إلى حد أنه أعرب عن الرأي بأنها ستصبح الكاتبة الأولى في أمريكا عمّا قريب. وتظاهرت أني لست متأكّداً تماماً من هذا لكني وافقت على أنها تمتلك موهبة استثنائية، وإمكانيات خارقة.

سأل إن كان يوجد لدينا أيّ من مقالاتها التي نشرتها، وأكدنا له أننا نجهل ذلك تماماً، بل ودهشنا في الحقيقة، بأنها كانت تفعل شيئاً كهذا.

«يجب أن نضع حداً لهذا»، قال كرونسكي. «من المؤسف أن تضيّع وقتها بهذه الطريقة».

وافقته على رأيه. وبدت الحيرة على وجه كرومويل. فلم يكن يستطيع أن يرى ما هو الشيء الفظيع في كتابة عمود يومي. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت بحاجة إلى نقود.

«نقود؟» صاح كرونسكي. «نقود؟ وماذا بشأننا؟ أنا واثق من أني أنا والدكتور ماركس يمكننا تدبر احتياجاتها». بدا مندهشاً لسماع أن مونا قد تكون في حاجة إلى المال. وشعر بشيء من الألم، في الحقيقة.

أحس كرومويل المسكين أنه ارتكب خطأ وأكد لنا أنه كان مجرد انطباع تكون لديه. لكن بالعودة إلى الموضوع أرادنا أن نلقي نظرة إلى تلك المقالات ونعطيه رأينا بنزاهة عنها. وقال إنه ليس حكماً. فإن كانت حقاً جيدة فهو واثق من أن بإمكانه أن يحصل لها على العمل. وبالطبع لم يذكر شيئاً عن دفع مبلغ المائة دولار في الأسبوع.

جرعنا كأساً أخرى بصحبته، وبدأنا نغير مجرى الحديث إلى مواضيع أخرى. وكان من السهولة بمكان صرفه عن الموضوع الأساسي. ولم تكن تشغل باله سوى فكرة واحدة ـ *وهي متى ستصل*؟ وكان يرجونا بين الحين والآخر أن ندعه يهرع خارجاً ليجري مكالمة هاتفية مع أحد في واشنطن. وبشكل أو بآخر استطعنا دائماً أن نحبط محاولاته تلك. وكنا نعرف أن مونا لن تصل إلا عندما نتمكن من إخراجه من هنا. وكانت قد أعطتنا مهلة حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لنتخلص منه. وكان أملنا الوحيد أن نجعله ثملاً، ثم نحشره في سيارة أجرة ونرسله إلى الفندق.

حاولت عدة مرات أن اكتشف أين يقيم، لكن محاولاتي كلها باءت بفشل ذريع. وقال كرونسكي إن هذا لا يهم ـ فأيّ فندق قديم يفي بالغرض. وفي غمرة ذلك تساءلت لماذا قمنا بهذا العمل الأحمق. فلم يكن له أي معنى. وعلمت فيما بعد أن مونا كانت تظن أنه من المهم أن يرى كروموبل أنها كانت تعيش حقاً وحدها. وكان هناك سبب آخر لذلك، بالطبع، وهو معرفة هل سيكون كروموبل صريحاً معنا أكثر مما كان معها. لكننا توقفنا عن الحديث في الموضوع في أول المساء بفضل كرونسكي. وذلك لسبب غريب من الأسباب التي كان يخرج بها، إذ كان كرونسكي مهووساً بحشو رأس كروموبل بقصص مخيفة عن غرف العمليات. وكان عليّ بالطبع أن أسايره. ولم يكن بوسع أي شخص يمتلك إحساساً صادقاً أن يصدق القصص التي ما فتئ يلفقها.

وكانت قصصه هذه خيالية تماماً، رائعة جداً، ودموية ومرعبة للغاية أيضاً، بحيث رحت أتساءل إن كان كروموبل، رغم أنه كان ثملاً تماماً، قد صدقها. وبالطبع كلما كانت القصة أكثر فظاعة ولا يمكن تصديقها، ازددنا ضحكاً، أنا وكرونسكي. وجرّاء شعورنا بالبهجة انتابت كروموبل الحيرة بعض الشيء، لكنه تقبلها أخيراً على أنها «فظاظة محترفة».

ولتصديق ما كان يرويه كرونسكي، كانت تسع عمليات من أصل عشر عبارة عن تجارب إجرامية بحتة. وباستثناء حفنة نادرة فإن جميع الجراحين ساديون بالفطرة. ولأنه لم يكن مقتنعاً بالأوهام الجامحة عن سوء معاملة البشر، أخذ يلقي خطباً عصماء عن وحشيتنا تجاه الحيوانات. وكانت إحدى هذه القصص ـ قصة فظيعة، راح يرويها لنا وسط نوبات من الضحك، عن أرنب صغير مسكين ذُبح بقسوة، بعد أن زُرق بحقن كثيرة، وبعد أن تلقى صدمات كهربائية، وأجريت عليه شتى أساليب الإنعاش العجائبية. وتوّج حكايته بحديث مستفيض عن كيف قام هو، كرونسكي، بجمع بقايا المخلوق الصغير المسكين، وصنع منه حساء، ولم يتذكر أن الأرنب المسكين كان قد زُرق بالزرنيخ إلا بعد أن ازدرد بضع أجزاء منه. وحين قال هذا انفجر في ضحكة متقطعة. وقال كروmoيل، الذي أفاق قليلاً بعد سماعه هذه الحكاية الدامية، أنه من المؤسف أن كرونسكي لم يمت، ثم انفجر ضاحكاً من هذه الفكرة وبشرود جرع كأساً مترعة من الكونياك الصافي. عندها أصيب بنوبة من السعال بحيث مددناه على الأرض وانكببنا فوقه كرجل انقذناه من الغرق.

هنا غدا كروموبل في غاية الصعوبة. فلكي نفحصه نزعنا عنه معطفه، وسترته، وقميصه وقميصه الداخلي. وكان كرونسكي يقوم بالعمل الرئيسي؛ ولم أكن أفعل شيئاً سوى أني بدأت أصفع كروموبل بين الحين والآخر، أو كنت أفرك صدره. والآن وبعد أن شعر كروموبل أنه ممدد بارتياح، لم يكن يرغب في ارتداء ثيابه. وقال إنه لم يكن يرغب في التزحزح من مكانه. ويريد أن يأخذ غفوة، ولو لبضع دقائق. وحاول أن يصل إلى الأريكة ليتمدد فوقها ويغط في النوم.

كانت فكرة أن يغط في النوم مثيرة للفزع. وبدأ القلق ينهشنا كشقيين حقيقيين، فجعلنا كروموبل المسكين يقف على رأسه، ورحنا نرقص حوله (وبالطبع لدهشته المطلقة)، وأخذنا نلوي

قسمات وجهنا لإضحاكه، نحك جلدنا كالقرود... نفعل أيّ شيء لإضحاكه، أيّ شيء لكي لا يطبق جفنيه. وكلما بذلنا جهداً أكبر أصبحنا مسعورين أكثر لإصراره على أخذ غفوة. وأخذ الآن يحبو على أربع نحو الأريكة المشتهاة. فإذا تمدد عليها، فالله نفسه سيكون عاجزاً على إيقاظه.

«لنضعه في الخارج»، قلت، وأشرت بحركات وإيماءات بقسمات وجهي أنه يمكننا أنه نلبسه ثيابه ونرميه خارجاً.

استغرق الأمر ما يقرب من نصف ساعة حتى تمكنا من جعله يرتدي ثيابه. ورغم أن كرومويل كان ثملاً ونائماً، فإنه لم يكن يسمح لنا بعناد أن نفك أزرار بنطاله، لندس أطراف قميصه فيه. فاضطررنا إلى ترك أزرار فتحة بنطاله مفككة، وقميصه مدلى إلى الخارج. وعندما حان الوقت غطينا قميصه بالمعطف.

فجأة غاب كرومويل عن الوعي ودخل في غيبوبة عميقة، تخللها شخير قذر. كان كرونسكي متألقاً. وأكد لي أنه لم يمر عليه وقت سعيد في حياته أكثر من هذا. ثم، ودون أن يخفض صوته، اقترح بصوت متملق أن نفتش جيوب كرومويل. وأصرّ بقوله «يجب علينا على الأقل أن نستعيد ما قدمناه له من طعام وشراب». لا أعرف لماذا أصبحت فجأة شكوكاً لكني رفضت الفكرة. «لن يفتقد المال أبداً»، قال كرونسكي. «ماذا تعني خمسون أو مائة دولار بالنسبة له؟» فقط ليؤكد لنفسه أنه انتزع محفظة كرومويل. ولدهشته المطلقة لم يكن فيها ولا دولار.

«اللعنة!» غمغم. «هكذا هم الأغنياء. لا يحملون في جيوبهم مالاً. بففف! «

«من الأفضل أن نخرجه من هنا» قلت أحثه.

«حاول وافعل ذلك!» قال كرونسكي، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة مثل تيس.

«ما الضير في أن نتركه هنا؟».

«هل أنت مجنون؟» صحت.

ضحك. ثمّ مضى يقول كم سيكون رائعاً أن نكمل هذه المهزلة حتى النهاية، أي، أن نستيقظ، نحن الخمسة (في صباح اليوم التالي) ويواصل كل منا دوره. وهذا سيمنح مونا فرصة لكي تمثل حقيقة، كما يظن. إلا أن زوجة كرونسكي لم تكن متحمسة لهذا الاقتراح - فقد كان الأمر في غاية التعقيد بالنسبة لها.

بعد كثير من النقاش والهذر قررنا أن نوقظ كروموِيل ونسحبه إلى الخارج من كعبي حذائه، إذا دعت الضرورة وأن نرسله إلى أحد الفنادق. وكان علينا أن نمضي معه ربع ساعة كاملة قبل أن ننجح في جعله يقف مترنحاً. وببساطة لم تطاوعه ركبتاه على الوقوف باستقامة، وكانت قبعته تغطي عينيه، وأطراف قميصه تتدلى من أسفل المعطف الذي لم نتمكن من تزريره. وانفجرنا في نوبة من الضحك الهستيري ولم يكن أمامنا سوى أن نهبط الدرجات دون أن يتعثر أحدنا فوق الآخر. ولم يتوقف كروموِيل المسكين عن الاحتجاج بأنه لم يكن يرغب في الذهاب بعد، وأنه يريد أن ينتظر مونا.

«لقد ذهبت إلى واشنطن لتراك»، قال كرونسكي بخبث. «لقد وصلتنا برقية منها عندما كنت نائماً».

كان كروموِيل مندهشاً لا يفهم ما يجري حول، وبين الحين والآخر يسترخي جسده، مهدداً بالتهاوي في الشارع. وتمثلت فكرتنا في أن نمنحه قليلاً من الهواء نثبتّه قليلاً ثم نحشره في سيارة أجرة. ولكي نعثر على سيارة أجرة كان علينا أن نمشي عدة شوارع. وكان طريقنا يتجه صوب النهر، طريق متعرج، لكننا حسبنا أن السير سيكون مفيداً بالنسبة له. وعندما اقتربنا من أحواض السفن جلسنا جميعنا على مسارات سكة الحديد نسترد أنفاسنا. وتمدد كروموِيل ببساطة بين السكتين، وهو يضحك ويحوزق،

تماماً كما لو كان طفلاً في المهد. وكان بين الحين والآخر يطلب شيئاً يتناوله. فقد كان يريد قليلاً من لحم الخنزير والبيض. وكان أقرب مطعم مفتوح على بعد ميل تقريباً. اقترحت أن أجري إلى المنزل وأحضر له بعض السندويشات. وقال كروموبل إنه لا يستطيع أن ينتظر هذه المدة الطويلة، وكان يريد شريحة لحم خنزير وبيضة في الحال. سحبناه لكي يقف على قدميه ثانية، وهو جهد تطلب منا قوتنا نحن الاثنين، ورحنا ندفعه ونسحبه باتجاه الأنوار المضيئة عند بورو هول. اقترب حارس ليلي وطلب أن يعرف ماذا نفعل هناك في تلك الساعة من الليل. تهاوى كروموبل عند قدمينا. «ماذا يوجد هناك؟» سأل الحارس، وراح ينخس كروموبل بقدميه كما لو كان جثة. «لا شيء، إنه مجرد سكران»، قلت. انحنى الحارس ليشم نَفَسَه. «أبعده من هنا»، قال، «وإلا سألقي القبض عليكم». «نعم يا سيدي، نعم يا سيدي»، قلنا، ورحنا نجر كروموبل من تحت إبطيه، وقدماه تكشطان الأرض. وما هي إلا ثوان قليلة حتى جاء الحارس راكضاً يحمل بيده قبعة كروموبل. وضعناها على رأسه لكنها وقعت ثانية. «هنا»، قلت فاتحاً فمي، «ضعها بين أسناني». كنا نلهث والعرق يتصبب منا بسبب الجهد الذي بذلناه ونحن نجرّه. تطلع إلينا الحارس بضع لحظات باشمئزاز، ثم قال: «اتركه! هنا، ضعه على ظهري... إنكم بلهاء» هكذا وصلنا إلى نهاية الشارع حيث كان خط المترو معلقاً في الأعلى. «فليجلب أحدكم سيارة أجرة»، قال الحارس الليلي. «لا تجره أكثر، إنك ستلوي ذراعيه»، وهرع كرونسكي إلى الشارع يبحث عن سيارة أجرة. جلسنا على الرصيف ننتظر.

وصلت سيارة الأجرة بعد بضع دقائق فدفعناه فيها دفعاً. كانت أطراف قميصه ما تزال تتدلى.

«إلى أين؟» سأل السائق.

«فندق أستوريا!» قلت.

«والدورف أستوريا!» صاح كرونسكي.

«حسناً، احزما أمركما!» قال سائق سيارة الأجرة.

«الكومودور» صاح كروමويل.

«هل أنت متأكد؟» قال السائق. «هذه ليست مطاردة أوز بري، أليس كذلك؟».

«إنه الكومودور، أليس كذلك؟» قلت وأدخلت رأسي في السيارة.

«بالتأكيد»، قال كروමويل بصوت أجش، «أي مكان يناسبني».

«هل يحمل نقوداً؟» سأل سائق سيارة الأجرة.

«معه نقود كثيرة»، قال كرونسكي. «إنه مصرفي».

«أظن أنه من الأفضل أن يرافقه أحدكما»، قال السائق.

«حسناً»، قال كرونسكي وقذف نفسه في السيارة في الحال مع زوجته.

«هيه!» صاح كروමويل، «وماذا عن الدكتور ماركس؟».

«سيلحقنا في سيارة أجرة أخرى»، قال كرونسكي. «عليه أن يجري مكالمة هاتفية».

«هيه!» صاح لي، «وماذا عن زوجتك؟»

«إنها بخير»، قلت، ولوحت بيدي مودعاً.

عندما عدت إلى المنزل اكتشفت حقيبة كروමويل وبعض القطع النقدية الصغيرة التي سقطت من جيوبه. فتحت الحقيبة ووجدت تلة من الأوراق وبعض البرقيات. وكان آخر برقية واردة من وزارة المالية، تحث كروමويل على ضرورة أن يخابر بسرعة شخصياً عند منتصف الليل. كنت أتناول سندويشة، وأنا أتطلع إلى الوثائق القانونية، جرعت كأساً من النبيذ، وقررت أن أتصل بواشنطن نيابة عنه. بعد جهد جهيد تمكنت من الوصول إلى الرجل في الطرف الآخر. أجاب بصوت ناعس، خشن وغضب. أوضحت له أن كروමويل

تعرض إلى حادث عرضي صغير لكنه سيخابره في الصباح. «لكن من أنت... من هذا»، ظل يكرر. «سيخابرك في الصباح» رحت أكرر، متجاهلاً أسئلته المسعورة. ثم أغلقت السماعة. وفي الخارج رحت أركض بأسرع ما يمكنني. كنت أعرف أنه سيتصل ثانية. خشيت أن يرسل الشرطة في أثري. انعطفت لكي أصل إلى مكتب التلغراف، حيث أبرقت رسالة إلى كروموبل، إلى فندق كومودور! وتمنيت بحق السيد المسيح أن يكون كرونسكي قد أوصله إلى هناك. وعندما غادرت مكتب التلغراف أدركت أن كروموبل قد لا يتمكن من استلام الرسالة حتى عصر اليوم التالي. فلعل موظف الاستقبال يبقيها حتى يستيقظ كروموبل. توجهت إلى كافتيريا أخرى واتصلت بفندق كومودور، وألححت على الموظف الليلي أن يوقظ كروموبل حال وصول البرقية. «صب إبريقاً من الماء البارد فوقه إذا دعت الضرورة»، قلت، «لكن تأكد من أنه سيقرأ برقيتي... إنها مسألة حياة أو موت».

عندما عدت إلى المنزل كانت مونا هناك تنظف الأوساخ التي خلفناها وراءنا.

«لا بد أنكم تمتعتم بحفلة رائعة»، قالت.

«بالتأكيد»، قلت.

رأيت الحقيبة ملقاة هناك. سيحتاج إليها عندما يخابر واشنطن. «انظري»، قلت، «يجب أن نستقل سيارة أجرة ونسلمه هذه فوراً. كنت أقرأ هذه الأوراق. إنها ديناميت. من الأفضل ألا تبقى بحوزتنا».

«اذهب أنت»، قالت مونا، «أنا منهكة».

هناك وجدت نفسي في الشارع ثانية، وكما توقع كرونسكي، تبعتهم في سيارة أجرة. عندما وصلت إلى الفندق تبين لي أن كروموبل قد توجه إلى غرفته. أصررت أن يصحبني الكاتب إلى غرفته. كان كروموبل مستلقياً وهو بكامل ثيابه على غطاء الفراش،

مستلقياً على ظهره، وقبعته إلى جانبه. وضعت الحقيبة على صدره وانسللت خارجاً على أطراف اصابعي. ثم جعلت الكاتب يرافقني إلى مكتب المدير، الذي شرحت له الوضع، وجعلت الكاتب يشهد أنه رأى أنني وضعت الحقيبة على صدر كرومويل.

«وهل لي أن أعرف اسمك؟» سأل المدير، مرتاباً بعض الشيء من هذه الأمور غير العادية.

قلت: «بالتأكيد، الدكتور كارل ماركس من معهد البولي تكنيك. يمكنك أن تتصل بي في الصباح إذا جرى شيء غير طبيعي. إن السيد كرومويل صديقي، وهو ضابط في مكتب التحقيقات الفيدرالي. لقد أسرف في الشراب كثيراً. أتمنى أن نعتني به».

«بالتأكيد سأفعل» قال المدير الليلي، وقد بدا عليه شيء من القلق. «هل يمكننا أن نتصل بك في مكتبك في أي وقت يا دكتور ماركس؟»

«سأكون هناك طوال اليوم، بالتأكيد»، قلت. «إن كنت خارج المكتب، فاطلب سكرتيرتي الآنسة رابنوفيتش ـ إنها تعرف أين تتصل بي. يجب أن أنام بعض الشيء الآن... يجب أن أكون في غرفة العمليات عند الساعة التاسعة. شكراً جزيلاً. طابت ليلتك!».

رافقني البواب حتى الباب الدوار. بدا واضحاً أنه كان معجباً بهذه الحكاية. «سيارة أجرة، يا سيدي؟» قال. «نعم»، قلت، وأعطيته القطع النقدية التي جمعتها من الأرض. «شكراً جزيلاً يا دكتور»، قال وهو ينحني ويدلني إلى سيارة الأجرة.

طلبت إلى السائق إن يوصلني إلى ميدان تايمز سكوير. هناك ترجّلت واتجهت إلى محطة الأنفاق. عندما حاولت الدخول تبين لي أني لا أملك ولا سنتاً لعيناً واحداً. فقد أخذ سائق سيارة الأجرة آخر ربع دولار كان بحوزتي. صعدت الدرجات ووقفت عند الرصيف، تساءلت من أين وكيف يمكنني أن أحصل على خمسة بنسات. وفيما

كنت واقفاً هناك، جاء ساع ليلي. حدقت فيه لأرى إن كنت أعرفه. ثم تذكرت مكتب التلغراف في غراند سنترال. كنت واثقاً من أنني سأصادف أحداً أعرفه هناك. عدت سيراً إلى غراند سنترال، مشيت على الرصيف المنحدر، وكما هو متوقع، كان صديقي القديم دريجز يجلس إلى المكتب، بجثته الكبيرة. «دريجز، هل تقرضني خمسة بنسات؟» قلت. «خمسة بنسات؟» قال دريجز. «خذ هذا دولار!» دردشنا قليلاً ثم عدت أدراجي إلى محطة مترو الأنفاق.

ظلت العبارة التي كان كروموبل قد رددها عدة مرات في بداية الأمسية، تدوّي في رأسي: «صديقي وليام راندولف هيرست» فأنا لم أشك أبداً أنهما كانا صديقين حميمين، رغم أن كروموبل ما زال شاباً ومن الصعب أن يكون صديقاً حميماً لقيصر الجرائد. وكلما فكّرت بكروموبل أحببته أكثر. وصممت على أن أراه مرة أخرى قريباً جداً، وحدي هذه المرة. تضرعت إلى الله أن لا ينسى أن يجري تلك المكالمة الهاتفية. تساءلت ماذا سيقول عني عندما يعرف أني عبثت بحقيبته.

بعد انقضاء بضع ليال التقينا ثانية. هذه المرة في مقهى بابا موسكوفيتز. أنا وكروموبل ومونا فقط. كان كروموبل هو الذي اقترح هذا اللقاء. وكان سيغادر إلى واشنطن في اليوم التالي.

وسرعان ما تبدد الشعور بعدم الارتياح الذي ربما انتابني في اللقاء الثاني بسبب ابتسامته الدافئة ومصافحته الحارة النابعة من القلب. وعلى الفور أعلمني كم هو ممتن لي لما فعلته معه، ولم يحدد ماذا فعلت، إلا أني من النظرة التي ألقاها علي تبين لي أنه يعرف كل شيء. «دائماً أتصرف كالحمار عندما أسرف في الشراب»، قال بشيء من الخجل. وبدا لي الآن أكثر طفولية مما كان عليه في الليلة الأولى التي التقينا. وبدا لي أنه لا يتجاوز الثلاثين عاماً. الآن وبعد أن عرفت ما هو عمله الحقيقي، استغربت أكثر من أي وقت مضى

لتصرفه بهذه الطريقة البهيجة، السلسة. كان يتصرف كرجل لايحمل أي مسؤوليات. وخلّف لدي الانطباع بأنه لم يكن سوى شاب مصرفي لامع من عائلة محترمة.

وبدا أنه كان هو ومونا يتناقشان في الأدب. وادّعى، كما في السابق، أنه غير ملمّ بالأحداث الأدبية. وأنه لم يكن سوى رجل أعمال عادي ذي معرفة طفيفة بأمور المال. أما السياسة؟ فهو لايعرفها على الإطلاق. لا، فالعمل المصرفي يشغله بما فيه الكفاية. وباستثناء دمعة تذرف عرضاً كان شخصاً يحب بيته. وقلما شاهد شيئاً سوى واشنطن ونيويورك. أوروبا؟ نعم، كان متلهفاً لرؤية أوروبا. لكن ذلك يجب أن ينتظر حتى يمكنه أن يحصل على إجازة حقيقية.

وادّعى أنه يشعر بالخجل لأنه لا يجيد سوى لغة واحدة وهي الإنكليزية. لكنه قال إنه يظن أن المرء يتدبر أموره إن كانت لديه علاقات جيدة.

وجدت متعة حقيقية وأنا أسمعه يقول هذه الجملة. ولم أفش سره بكلمة أو بإيماءة، حتى أني لم أكن أجرؤ على كشف ما كنت أعرفه عن كروموبل إلى مونا. وبدا أنه فهم أني شخص يؤتمن.

وهكذا تحدثنا وتحدثنا، وكنا نستمع إلى موسكوفيتز بين الحين والآخر، وشربنا باعتدال. وفهمت أنه أوضح لمونا أن المقالة لن تنشر. فقد امتدح الجميع عملها، أما الرئيس الكبير، كائناً من كان، فقد خلص إلى أنها لا تناسب النشر في صحف هيرست.

«ماذا عن هيرست نفسه؟» غامرت وسألته. «هل رفض المقالة؟».

أوضح كروموبل أن هيرست يلتزم بقرارات من يعملون تحت إمرته. وأكد لي أن الأمر في غاية التعقيد. إلا أنه يظن أنه قد يستجد شيء، شيء واعد أكثر. وسيعرف ذلك بعد أن يعود إلى واشنطن.

بالطبع فسرت ذلك بأنه مجرد تعبير مهذب منه، إذ علمت الآن أن كرومويل لن يذهب إلى واشنطن إلا بعد شهرين على الأقل، وأنه خلال سبعة أو ثمانية أيام، في واقع الأمر، سيذهب إلى بوخارست، ليتحدث بلغة أهل تلك البلاد.

«قد أرى هيرست عندما أذهب إلى كاليفورنيا في الشهر القادم»، قال، ولم يهتز له رمش. «سأذهب إلى هناك في رحلة عمل».

«أوه، بالمناسبة»، أردف، كما لو أنه خطر له في تلك اللحظة، «أليس الدكتور كرونسكي صديقك شخصاً غريباً بعض الشيء... أعني، كجراح؟».

«ماذا تعني؟»، قلت.

«أوه، لا أعرف... أحسبه مرابياً، مقرض مال، أو شيئاً من هذا القبيل. ربما كان يصطنع ذلك ليسليني فقط».

«تعني كلامه؟ إنه دائماً هكذا عندما يشرب. لا، إنه حقاً شخص رائع وجراح ممتاز».

«يجب أن أبحث عنه عندما أعود إلى هنا ثانية»، قال كرومويل. «إن قدم ابني الصغير مشوهة. لعل الدكتور كرونسكي يعرف ماذا يمكن أن نفعل بشأنها؟».

«أنا واثق من ذلك»، قلت، ونسيت أن من المفروض أن أكون جراحاً أيضاً.

وكما لو أنه حدس السهو الذي وقعت فيه، ومن باب المداعبة، أضاف كرومويل: «لعلك تستطيع أن تخبرني شيئاً عن هذه الأمور بنفسك يا دكتور ماركس. أم أن هذا لا يقع في مجال اختصاصك؟».

قلت: «لا، إنه حقاً ليس من اختصاصي، رغم أني أستطيع أن أخبرك الكثير. فقد تمكنا من معالجة بعض الحالات. إن ذلك يتوقف على الحالة نفسها. لتفسير لماذا يمكن أن تكون الحالة معقدة نوعاً ما...».

هنا ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال: «أفهم ذلك، لكن يستحسن أن أعرف إن كنت تظن أن هناك شيئاً من الأمل».

«بالفعل هناك أمل»، قلت بحرارة. «إذ يوجد في بوخارست حالياً جراح مشهور يقال إنه تمكن من معالجة تسعين في المائة من مرضاه. فلديه علاجات خاصة به لا نعرفها هنا حتى الآن. وأظن أنه يعالج بالكهرباء».

«تقول في بوخارست؟ إنها بعيدة».

«أجل» قلت موافقاً.

«ما رأيكما بزجاجة أخرى من نبيذ الراين؟» اقترح كرومويل.

«إذا أصررت»، أجبت «سأذهب إلى الحمام ثم يجب أن أغادر».

«امكث قليلاً» قال بإلحاح. «إني أجد متعة في الحديث معك حقاً. إنك تدهشني وتجعلني أظن أنك أديب أكثر من كونك جراحاً».

قلت: «كنت أكتب، لكن كان ذلك قبل سنوات. في مهنتنا لا يجد المرء متسعاً للأدب».

«إنها مثل مهنة المصرفي، أليس كذلك؟» قال كروموبل.

«تماماً» ابتسم واحدنا للآخر ابتسامة ودية.

«إلا أنه يوجد أطباء ألّفوا كتباً، أليس كذلك؟» قال كروموبل. «أعني روايات، مسرحيات، وما إلى ذلك».

«بالتأكيد»، قلت، «الكثير منهم. شنيزلير، مان، سومرست موم...».

«لا تنسى إلي فور»، قال كروموبل. «كانت مونا تحدثني الكثير عنه. لقد كتب في تاريخ الفن، أو شيء من هذا القبيل... أليس كذلك؟» ونظر ثانية إلى مونا للتأكيد. «أنا لم أر عمله أبداً بالطبع. أنا لاأستطيع أن أميّز لوحة جيدة من لوحة سيئة».

«لست متأكداً من ذلك»، قلت «أظن أنك ستعرف اللوحة المزورة إذا رأيتها».

«لماذا تقول ذلك؟».

«أوه، إنه مجرد إحساس داخلي. أظن أنه يمكنك أن تكتشف أي شيء مزوّر».

«لعلك تضفي عليّ فطنة لا أتمتع بها، يا دكتور ماركس. بالطبع، في عملنا يعتاد المرء على أن يكون حذراً من المال المزور. لكن هذا حقاً ليس شأني. فعندنا اختصاصيون لهذا الضرب من الأشياء».

قلت: «من الطبيعي، لكن بجد، مونا محقّة... يجب عليك أن تقرأ إلي فور ذات يوم. تخيّل رجلاً يؤلف كتاباً ضخماً عن تاريخ الفن في وقت فراغه! كان يدون ملاحظات على طرف كمه وهو يقوم بزيارة مرضاه. وكان بين الحين والآخر، يذهب إلى أماكن بعيدة جداً، مثل يوكاتان أو سيام أو جزيرة إيستر. أشك إن كان أيّاً من جيرانه يعرف أنه كان يقوم بمثل هذه الرحلات. إذ كان يبدو عليه أنه يعيش حياة رتيبة، مملة. لقد كان طبيباً ممتازاً، لكنه يعشق الفن. لا تعرف كم أكنّ احتراماً لهذا الرجل».

«أنت تتحدث عنه تماماً كما تتكلم مونا»، قال كروموِيل. «وتقول لي إنه لا يوجد عندك الوقت الكافي لأمور أخرى!».

هنا أدلت مونا بدلوها. فأنا في رأيها رجل متعدد المواهب، ويبدو أنه لدي وقت لكل شيء.

هل راوده شك، مثلاً، بأن الدكتور ماركس كان أيضاً عازفاً بارعاً، لاعباً فذاً في الشطرنج، جامع طوابع...؟

جزم كروموِيل هنا أنه لا يشك في أنني أستطيع القيام بأشياء عديدة ولكن تواضعي يمنعني من البوح بها. فقد كان على قناعة بأنني رجل ذو خيال خصب. وذكر عرضاً أنه لاحظ يديّ في تلك الليلة. ففي رأيه المتواضع فإنهما تكشفان عن قدرة أكبر بكثير من مجرد استخدام المبضع.

وفسرت مونا هذه الملاحظة بأسلوبها، وسألته على الفور إن كان بوسعه أن يقرأ الكف.

«ليس في الواقع»، قال كروموويل وبدا وكأن الخجل قد اعتراه. «بما يكفي، ربما، ليميز المجرم من الجزار، عازف الكمان من الصيدلي. معظم الناس يمكنهم عمل ذلك، حتى دون معرفة قراءة الكف».

في هذه اللحظة، شعرت بالرغبة في المغادرة.

«أبقَ!» قال كروموويل متوسلاً.

«لا، حقاً، يجب أن أذهب»، قلت وأنا أشد على يده.

«أتمنى أن نلتقي ثانية قريباً»، قال كروموويل. «أحضر زوجتك في المرة القادمة. إنها ساحرة. لقد أعجبتني كثيراً».

«إنها كذلك» قلت وقد تضرج وجهي بالحمرة. «حسناً، إلى اللقاء! رافقتك السلامة!».

هنا رفع كروموويل كأسه ولاحظت في عينيه لمحة هازئة قليلاً. وعند الباب صادفت بابا موسكوفيتز.

«من هو ذاك الرجل الجالس إلى مائدتك؟» سأل بصوت خفيض.

«بصراحة، لا أعرف». أجبت. «من الأفضل أن تسأل مونا».

«إذاً فهو ليس صديقك؟».

«من الصعب الإجابة على هذا أيضاً» أجبت «إلى اللقاء» وانسللت خارجاً.

7

مضت أيام عديدة قبل أن أتمكن من من نفض آثار هذا الحلم عني. وبشكل غامض، أثّر أيضاً على مونا، رغم أني لم أحدثها عنه. وقد تملكنا أنا ومونا خلال هذه الفترة شعور بالفتور والتشاؤم لأسباب لا يعلمها إلا الله. وكنت أتوق إلى رؤية شيلدون، إلا أنه لم يكن له أثر. وبدلاً من ذلك تلقينا بطاقة بريدية من أومارا يخبرنا فيها بأنه موجود حالياً على مقربة من أشيفيل حيث يعيش في هناء ورخاء. وقال إنه سيكتب لنا لكي نلحق به حالما تغدو الأمور على أكمل وجه.

وبدافع من السأم قبلت مونا عملاً آخر في حي الفيليج، هذه المرة في ملهى مريب يدعى «الببغاء الأزرق». وعلمت من توني مورير، أحد المعجبين الجدد، أن المليونير ميلووكي سيصل المدينة في أي يوم.

سألتها: «ومن هو توني مورير؟».

أجابت: «رسام كاريكاتير. كان ذات يوم ضابطاً ألمانياً في سلاح الفرسان. إنه شعلة من الذكاء».

«لا تهمني البقية»، قلت. وكنت ما أزال أمرّ في حالة من الحزن والكآبة. ولم تكن لدي رغبة في سماع شيء عن أحد من معجبيها الجدد. كنت في حالة من الكآبة الشديدة. حتى أني لم أكن أحتمل

قراءة إلي فور. إذ لم يكن بوسعي التركيز على أيّ شيء أكثر أهمية من حركة الأمعاء.

أما بالنسبة لزيارة أصدقائي، فكان أمراً مستبعداً. فعندما أكون مكتئباً، قلما أزور أحداً، حتى لو كان صديقاً عزيزاً.

أما المحاولات القليلة التي بذلتها للحصول على بعض النقود فقد ساهمت أيضاً في إحباط روحي المعنوية. وقد كان لوثر غويرينج آخر رجل أطلب منه إقراضي خمسة دولارات ويردني على أعقابي. ولم أكن أنوي الإلحاح عليه في طلبي، لأنه كان أحد أفراد العائلة تقريباً، لكن بما أني صادفته في محطة قطار الأنفاق فقد رأيت أنه من الأجدر أن أستغل هذه المناسبة وأحصل منه على شيء. وكان الخطأ الذي ارتكبته هو أني قاطعته وهو في منتصف إحدى خطبه المطوّلة. فقد كان يروي لي حكايته والنجاح العظيم الذي حققه ويتمتع به (كبائع لشهادات التأمين) من خلال تطبيق تعاليم السيد المسيح. وبما أنه كان دائماً يعتبرني ملحداً، فقد شعر بالبهجة الآن لأنه أصبح بوسعه أن يغمرني بسيل من البراهين عن الجوانب العملية للأخلاق والقيم المسيحية. ورحت أستمع إليه صامتاً على مضض وقد غمرني الملل. وكانت تنتابني أحياناً الرغبة في أن أضحك في وجهه. وفيما كنا نقترب من المحطة التي سنترجل فيها، قاطعت الحديث الأحادي الجانب وسألته إن كان بوسعه إقراضي خمسة دولارات. لا بد أن هذا الطلب صعقه واعتبر طلبي خارجاً عن الموضوع بشكل شنيع، مما جعله يفقد صوابه ويدخله في نوبة غضب شديدة. هذه المرة، لم أعد أستطيع أن أتمالك نفسي فرحت أضحك في وجهه. لوهلة خيل إليّ أنه سيصفعني على وجهي. فقد استشاط غضباً، شفتاه ترتعشان، وأصابعه ترتجف على نحو لاإرادي. وقد أراد معرفة ما هي مشكلتي. فهل سوّلت لي نفسي أن أطلب منه مبلغاً من المال بسبب النجاح الذي حققه مؤخراً في كسب مبلغ جيد، وأني شعرت بالحرية لأن أعتبره مؤسسة خيرية؟ صحيح

أن الإنجيل قال: «اطلبوا تجدوا، اسألوا تُعطوا، اقرعوا يُفتح لكم» إلا أنه لا يجب أن يفهم المرء من هذه الكلمات أنه يجب عليه أن يتخلى عن العمل ويصبح متسولاً. قال: «لقد رعاني الله، لأني رعيت نفسي. فأنا أعمل خمس عشرة أو ست عشرة ساعة يومياً. أنا لاأصلي إلى الله لكي يضع مالاً في جيوبي، بل أتضرع إليه لأن يبارك عملي!». عند هذه النقطة تراخى قليلاً. «يبدو أنك لا تفهم»، قال، «دعني أحاول أن أفسّر الأمر لك. إنه في غاية البساطة».

قلت له أنا لا أعبأ بتفسيراته، وكل ما يهمني أن أعرفه هو إن كان سيقرضني الدولارات الخمسة أم لا؟

«بالطبع لا يا هنري، إذا فهمت الأمر بهذه الطريقة. يجب أن تتعلم أولاً كيف تنال رضا الله وبركاته».

«إلى الجحيم»، قلت.

«هنري، أنت غارق حتى أذنيك في الذنوب والجهل!». وفي محاولة لاسترضائي أمسك بذراعي. لكني أبعدتها. وسرنا في الشارع صامتين. ثم أخذ يتكلم بهدوء بقدر ما بوسعه: «أعرف أن التوبة صعبة. فقد كنت أنا نفسي آثماً ذات يوم. لكني صارعت نفسي بقوة. وأخيراً أراني الله الطريق يا هنري. علمني الله كيف أصلي. ورحت أصلي يا هنري، ليلاً نهاراً. كنت أصلي حتى وأنا أتكلم مع زبائني. وقد استجاب الله لصلواتي. نعم، بسبب طيبته ورحمته غفر لي من قلبه، أعادني إلى جماعة الإيمان. انظر يا هنري... ففي السنة الماضية لم أكد أكسب 1500 دولار. أما في هذه السنة ـ ولما تنتهي بعد ـ فقد تجاوزت أرباحي أكثر من عشرة آلاف دولار. هذا هو البرهان يا هنري. حتى الملحد لا يمكنه أن يجادل هذا المنطق».

رغماً عني شعرت بالتسلية. قررت الإنصات لما سيقوله. أن أتركه يحاول هدايتي. لعلي أستطيع عندئذ الحصول منه على عشرة دولارات بدلاً من خمسة.

«إنك لست جائعاً يا هنري؟» سأل بغتة. «فإذا كنت جائعاً فسنتوقف عند أحد المطاعم ونتناول شيئاً. لعل الله جمعنا معاً من أجل هذا».

قلت له إني لم أصِلْ بعد إلى مرحلة أن أتهاوى وأسقط في الشارع، ملمحاً إلى إمكانية حدوث ذلك.

«هذا جيد»، قال لوثر، بطريقته المألوفة الخالية من الإحساس. «أنت تحتاج إلى قوت روحي أكثر من حاجتك إلى الغذاء الدنيوي. فإذا كان لدى المرء هذا القوت فيمكنه أن يعيش بدون الغذاء العادي - فالله يزوّد دائماً ما يكفي من الأود اليومي، حتى للآثمين. إنه يرعى العصافير... أنت لم تنس التعاليم الجيدة، أليس كذلك؟ فأنا أعرف أن أبويك أرسلاك إلى مدرسة يوم الأحد... ووفرا لك أيضاً تعليماً جيداً. كان الله يرعاك طوال الوقت يا هنري».

يا إلهي «سألت نفسي، إلى متى سيستمر هذا؟».

«لعلك تتذكر رسائل القديس بولص؟» تابع كلامه. وبعد أن رمقته بنظرة فارغة حشر يده في جيبه وراح ينبش فيه وأخرج إنجيلاً مهترئاً. توقف فجأة وبدأ يقلب الصفحات.

قلت: «لا تتعب نفسك، قلها من الذاكرة. يجب أن أصل بسرعة إلى البيت».

قال: «حسناً، إننا في زمن الله الآن. لا يمكن لشيء أن يكون أكثر أهمية من كلمات الإنجيل الثمينة. الله مؤاسينا، تذكّر ذلك ياهنري».

«لكن ماذا لو أن الله لم يستجب لصلوات المرء؟» سألته لكي أثنيه عن البحث عن رسائل القديس بولص.

«إن الله يستجيب دائماً لمن يسعى إليه»، قال لوثر. «ربما ليس من المرة الأولى أو الثانية، لكن في نهاية الأمر نعم. أحياناً يقوم الله باختبارنا أولاً. إنه يريد أن يتأكد من حبنا، من ولائنا، من إيماننا.

سيكون الأمر في غاية التبسيط إذا طلبنا شيئاً ورأيناه يهبط في أحضاننا على الفور، أليس كذلك؟».

قلت: «لا أعرف. لم لا؟ فالله قدير على كل شيء، أليس كذلك؟».

«دائماً ضمن المعقول يا هنري. دائماً حسب ما نستحقه. ليس الله هو الذي يعاقبنا، بل نحن نعاقب أنفسنا. فقلب الله مفتوح دائماً لمن يتوجه إليه. لكن يجب أن تكون حاجة حقيقية. يجب على المرء أن يكون يائساً قبل أن ينزل الله رحمته عليه».

قلت: «حسناً، فأنا أمر في مرحلة من البؤس واليأس الآن. بصدق يا لوثر، إني بحاجة ماسة إلى هذا المبلغ. سيطردوننا من المنزل بعد يوم أو يومين إذا لم يحدث شيء».

من الغريب أن لوثر لم يتأثر أبداً لدى سماعه ذلك. فقد كان منسجماً تماماً مع طرق الله، إذ بدا أن مسألة صغيرة كالإخلاء من المنزل لم تكن تعني له شيئاً. لعل الله يريد ذلك. لعل ذلك تمهيد لشيء أفضل. «ماذا يهم يا هنري»، قال بحماس، «ماذا يهم أين تعيش إذا كان بإمكانك أن تجد الله؟ يمكنك أن تجده في الشارع بسهولة بقدر ما تجده في البيت. إن الله سيحميك بأجنحته المباركة. إنه يرعى المشردين تماماً كما يرعى الآخرين. عينه دائماً علينا. لا، ياهنري، لو كنت مكانك لذهبت إلى البيت وصليت وتضرعت إليه أن يريني الطريق الصحيح. في بعض الأحيان يكون التغيير مفيداً لنا. في بعض الأحيان نشعر بالراحة التامة وننسى من أين تأتينا كل هذه البركات. صلّ له الليلة، اركع على ركبتيك، وبقلب مخلص. اطلب منه أن يمنح يديك عملاً. اطلب أن تخدمه، تذكّر ذلك. يقولون اخدم الله، وحافظ على وصاياه. هذا ما أفعله باستمرار - بعد أن تبين لي النور الآن. وقد أفاء الله عليّ بنعمه، كما قلت لك».

«لكن انظر يا لوثر، إذا كان الله قد أنعم عليك بسخاء، كما تقول، أفلا تستطيع أن تقتسم معي بعض الفتات الذي وهبك الله إياه؟ خمسة دولارات فقط، إنها ليست ثروة».

«بالتأكيد يمكنني أن أفعل ذلك يا هنري - إذا فكرت أن أفعل ذلك فهو الشيء الصحيح. لكنك بين يدي الله الآن: هو الذي سيرعاك».

«كيف سيتدخل ذلك في خطط الله إن أقرضتني خمسة دولارات؟» أصررت. بدأ الملل يعتريني.

«إن طرق الله تفوق معرفتنا»، قال لوثر بجدية. «لعله سيتدبر عملاً لك تذهب إليه في الصباح».

«لكني لا أريد عملاً، اللعنة! فلدي عملي. إني بحاجة إلى خمسة دولارات، هذا كل ما في الأمر».

«ربما سيوفرها لك أيضاً»، قال لوثر. «يجب أن يكون عندك إيمان فقط. فبدون الإيمان، حتى الأشياء الصغيرة التي تملكها ستؤخذ منك».

قلت محتجاً: «لكن ليس لديّ شيء. ليس لديّ أي شيء اللعنة، ألا تفهم؟ لا يستطيع الله أن يأخذ مني أيّ شيء لأني لا أملك شيئاً. تذكر ذلك».

«يمكنه أن يأخذ منك صحتك، يمكنه أن يأخذ منك زوجتك، يمكنه أن يأخذ منك قدرتك على تحريك أطرافك، هل تدرك ذلك؟».

«سيكون قملة كبيرة إن فعل ذلك!».

«لقد أوقع الله يعقوب في بلاء شديد، لا أظن أنك نسيت ذلك؟ وأقام أليعازر أيضاً من بين الأموات. إن الله يعطي والله يأخذ».

«تبدو مثل لعبة خداع».

قال لوثر: «لأنك ما تزال ترزح في أتون الجهالة والحماقة، فلكل واحد درس يريد الله أن يعلمه إياه. يجب أن تتعلم التواضع والقنوط».

قلت: «لو كنت مرتاحاً قليلاً فسأكون عندها على استعداد لتعلّم درسي. كيف يتعلّم الإنسان القنوط عندما يكون مكسور الظهر؟».

تجاهل لوثر الجملة الأخير تماماً. وفيما كان يعيد الإنجيل إلى جيب صدرته، انسلت بعض بوالص التأمين فأخذ يلوح بها في وجهي.

«ماذا؟...!» كدت أصرخ، «لا أظنك تقصد أنك ستبيعني بوليصة؟»

«ليس الآن، اطمئن»، قال لوثر، ممسكاً ذراعي ليهدئ من روعي، «ليس الآن يا هنري، لكن ربما بعد شهر أو نحوه. فالله يظهر عجائبه بطرق غامضة. من يعرف أنك قد تكون بعد شهر من الآن جالساً فوق قمة العالم؟ لو كنت تملك واحدة من تلك فسيكون بوسعك أن تقترض من شركة التأمين. إن ذلك سيوفر عليك الكثير من الإحراج».

هنا استأذنته وغادرته على الفور. كان مايزال واقفاً ويداه ممدودتان، كما لو كان متصلباً في مكانه، عندما وصلت إلى الطرف الآخر من الشارع. رمقته بنظرة فراق واحدة، وانطلق من فمي سيل من الشتائم والاشمئزاز. «إنك أير!» قلت في نفسي. «إنك داعر! فأنا لم أر في حياتي شخصاً مثلك. أتضرع إلى الله؟ أراهن أني سأفعل ذلك. سأتضرع أن تزحف على يديك وركبتيك ذات يوم لتشحذ بنساً. سأدعو أن تصاب رسغاك وركبتاك بالشلل، وأن تزحف على بطنك، أن تُفقأ عيناك وتحشيان بالأوساخ».

كان الظلام مخيماً في البيت عندما عدت. لم تكن مونا موجودة. غصت في الكرسي الكبير وأسلمت نفسي لذكريات مزاجية. وفي الضوء الخافت المنبعث من مصباح منضدتي، بدت الغرفة في حالة أفضل من أي وقت مضى. حتى المنضدة، التي كانت في حالة من الفوضى الشديدة، أدخلت في نفسي السرور. كان من الواضح أنه كان هناك انقطاع طويل. كانت المخطوطات ملقاة في كل مكان، الكتب مفتوحة عند الصفحات التي توقفت عندها عن القراءة. وكان القاموس ملقى أيضاً ومفتوحاً في أعلى المكتبة.

حين جلست هناك أدركت أن روحي كانت تغمر الغرفة. أنا أنتمي إلى هذا المكان، لا إلى مكان آخر. كان من الحمق أن أتنقل من مكان إلى آخر وكأني أملك بيتاً. يجب أن أمكث في البيت لأكتب. يجب ألا أفعل شيئاً سوى الكتابة. لقد تولتني العناية الإلهية برعايتها حتى الآن، فلم لاتتولاني برعايتها إلى الأبد؟ فعندما لا أحرك ساكناً في الأمور العملية كانت الأمور تسير بيسر وسلاسة أكثر. فلم تؤد جولاتي إلى العالم إلا إلى زيادة عزلتي عن البشر.

فمنذ تلك الأمسية الرائعة التي أمضيتها مع كروموبل لم أكتب سطراً واحداً. جلست إلى طاولة الكتابة ورحت أعبث بالأوراق. كانت آخر مقالة كتبتها ـ في ذات اليوم الذي زارنا فيه كروموبل ـ ملقاة أمامي. أعدت قراءتها بسرعة. بدت لي أنها جيدة، رائعة. كانت في واقع الأمر جيدة إلى حد لا تصلح فيه للنشر في الصحيفة. وضعتها جانباً، وبدأت أتابع ببطء رواية قصيرة غير منتهية، وهي «يوميات عن المستقبل»، كنت قد قرأت أجزاء منها إلى أولريك في وقت سابق. لم تثر كلماتي إعجابي فقط، بل حركت عواطفي بعمق. لا بد أني كنت في حالة نفسية جيدة حتى كتبت شيئاً بهذه الروعة.

رحت أقلّب نظري بسرعة من مخطوطة إلى أخرى، أقرأ بضعة سطور في آن واحد. وانتهيت أخيراً إلى الملاحظات التي كنت قد وضعتها. بدت نضرة وملهمة كما كانت عندما دونتّها. وقد استفزني بعضها، التي كنت قد استخدمتها للتو، بحيث أردت أن أعيد كتابة القصص مرة أخرى، أكتبها من زاوية جديدة. وكلما نبشت في داخلي أكثر، ازددت انفعالاً وحماسة. كنت كما لو أن عجلة ضخمة في داخلي بدأت تدور.

دفعت كل شيء جانباً وأشعلت سيجارة. واستسلمت إلى حلم يقظة لذيذ. فكل ما كنت أريد أن أكتبه طوال شهور الخريف الماضي، رحت أكتبه الآن. أخذت الكلمات تنزّ كما ينز الحليب من جوزة هند. لم يكن بإمكاني أن أوقفها. كان ثمة شخص آخر هو

الذي يتحكم في الأمر برمته. كنت مجرد محطة استقبال تبثها إليّ السماء.

قطعت حلمي طرقات خفيفة على الباب. «ادخل»، قلت، لم أتحرك من مكاني. ولدهشتي دخل السيد تاليافيرو، صاحب البيت الذي نسكنه.

«مساء الخير يا سيد ميلر»، قال بطريقته الجنوبية الهادئة. «أرجو أن لا أكون قد أزعجتك؟».

«لا، أبداً» أجبت، «كنت أحلم». وأشرت إليه أن يجلس، وبعد برهة سألته ماذا يمكنني أن أفعل من أجله.

ارتسمت على وجهه ابتسامة طيبة، وأدنى كرسيه مني قليلاً. «تبدو وكأنك غارق في العمل»، قال بلطف شديد. «أنا آسف لأني أزعجك في مثل هذا اللحظة».

«أؤكد لك أني لم أكن أعمل يا سيد تاليافيرو. فأنا مسرور حقاً برؤيتك. كنت أنوي زيارتك منذ فترة من الوقت. لا بد أنك تتساءل».

قاطعني قائلاً: «يا سيد ميلر ظننت أنه وقت ملائم لكي ندردش معاً. أعرف أن لديك الكثير من الأعمال بالإضافة إلى عملك. لعلك لست مدركاً أنك تأخرت في دفع الإيجار منذ بضع شهور. أعرف حقيقة أوضاع الكتّاب».

كان الرجل في غاية اللطف ومتفهماً بحيث لم يعد بوسعي أن أراوغه. لم أكن أعرف عدد الشهور التي تأخرنا عن دفع إيجارها. والشيء الذي كان يثير إعجابي بالسيد تاليافيرو هو أنه لم يضايقنا أبداً. مرة واحدة فقط تجرأ وطرق بابنا، وكان ذلك ليسألنا إن كنا بحاجة إلى أي شيء. وبشعور من الراحة العظيمة أسلمت نفسي له.

لا أعرف كيف حدث هذا، إلا أني، بعد بضع دقائق، كنت جالساً بجانبه على السرير الذي اشتريناه لأومارا. وضع يده على كتفي وأخذ يشرح لي، كما لو كنت أخوه الأصغر، وبصوت لطيف جداً،

مريح جداً، أنه يعرف أني شخص طيب، ويعرف أنه ليس في نيتي أن أؤخر دفع الإيجار لفترة طويلة جداً (تبين لي أنها خمسة شهور)، إلا أني سأتصالح مع العالم إن آجلاً أم عاجلاً.

«لكن يا سيد تاليافيرو، حبذا لو أمهلتنا بعض الوقت فقط».

«يا بني»، قال وضغط على كتفي ضغطة خفيفة، «أنت لا تحتاج إلى الوقت، بل إنك تحتاج إلى اليقظة. لو كنت مكانك لناقشت الأمر مع السيدة ميلر في هذا المساء: لنبحث عن مكان يناسب دخلنا أكثر. لن أحثك على ذلك بسرعة. ابحث عن بيت... خذ وقتك... اعثر على البيت الذي تحب، ثم انتقل إليه. ما رأيك؟».

اغرورقت عيناي بالدموع. «إنك في غاية اللطف»، قلت. «بالطبع أنت محقّ. فمن المؤكد أننا سنجد مكاناً آخر، وبسرعة أيضاً. لا أعرف كيف أعرب لك عن شكري لطيبتك وصبرك. أظن أني حالم. لم أدرك أبداً أنه مر زمن طويل منذ آخر مرة سددنا لك فيها الأجرة».

«بالطبع لم تدرك ذلك»، قال السيد تاليافيرو. «إنك رجل صادق، أعرف ذلك. لكن لا تقلق».

قلت: «لكني قلق بشأن ذلك، فرغم أننا قد نضطر إلى الانتقال دون أن نسدد لك مبلغ الإيجار المتأخر، أريدك أن تتأكد تماماً أنني سأسدد لك المبلغ فيما بعد، ربما بدفعات قليلة».

«يا سيد ميلر، إذا تغيرت الأوضاع التي تمر بها فسيسرني أن أقبل وعدك، لكني لن أطلب ذلك منك الآن. فإذا تمكنت من إيجاد مكان آخر قبل بداية الشهر القادم فسأكون سعيداً. لننسى مبلغ الإيجار المتأخر، اتفقنا؟».

«ماذا عساي أن أقول؟» نظرت إليه بعينين دامعتين، صافحته بحرارة ووعدته بأن نترك البيت في الموعد المحدد.

عندما انتصب واقفاً ليستأذنني في الذهاب قال: «لا تجعل ذلك

يحبط من همتك. أعرف كم تحب هذا المكان. أرجو أن تكون قد تمكنت من القيام بعمل جيد هنا. أنتظر كي أقرأ كتبك في يوم ما»، سادت لحظة من الصمت ثم أردف «أتمنى أن تعتبرنا دائماً أصدقاء».

تصافحنا مرة أخرى، ثم أغلقت الباب وراءه بهدوء. وقفت بضع دقائق مسنداً ظهري إلى الباب، أتطلع إلى الغرفة. غمرني شعور بالارتياح. كما لو كنت قد انتهيت من عملية ناجحة. مجرد دوار خفيف بسبب المخدر. كيف ستتقبل مونا الأمر، لا أعرف. رحت أتنفس بسهولة أكبر. رحت أتخيّل أني أعيش وسط الفقراء، الذين من طينتي. العودة إلى الأرض ثانية. رائع. أخذت أذرع الغرفة طولاً وعرضاً، فتحت الأبواب الدوارة وتهاديت في الشقة الفارغة في الخلف. المذاق الأخير للرفعة. ألقيت نظرة فاحصة على النافذة الزجاجية الملونة، ومررت يدي على قماش الكنبة الحريري الوردي، وانزلقت بضعة أقدام على الأرضية الخشبية المصقولة جداً، أخذت أتطلع إلى نفسي في المرآة الضخمة. ابتسمت ابتسامة عريضة ورحت أكرر «جيد! جيد!».

بعد بضع دقائق أعددت لنفسي إبريقاً من الشاي وسندويشة، سندويشة ممتلئة يسيل لها اللعاب. جلست إلى طاولة الكتابة، أسندت قدميّ على وسادة، واخترت مجلداً من مجلدات إلي فور، وفتحته عشوائياً «... عندما لا يقوم هذا الشعب بقطع الحناجر أو بحرق المباني، عندما لا يُهلك بسبب المجاعة والمجازر، لا يكون أمامه سوى وظيفة واحدة - أن يبني ويزيّن القصور التي بجدرانها العمودية السميكة تكفي لحماية سار، زوجاته، حارسه، وعبيده - عشرون أو ثلاثون ألف شخص - من الشمس، من الاحتلال، أو ربما الثورة والتمرد. وحول المحاكم المركزية العظيمة تنتصب الشقق ذات المصاطب، أو القباب، والقباب الصغيرة، وصور القناطر الصحراوية المطلقة، التي ستعيد اكتشاف الروح الشرقية عندما

يبعثها الإسلام ثانية. وأعلى منها، تنتصب المراصد التي هي في الوقت ذاته معابد، وأبراج هرمية، وأهرامات طليت قاعدتها باللون الأحمر، والأبيض والأزرق والبني والأسود والفضي والذهبي، تشرق من بعيد من خلال حجب الغبار التي تذروها الرياح بحركة لولبية. وخاصة عندما يقترب حلول المساء، الحشود المتحاربة والمهاجمون البدو، الذين يرون حدود الصحراء المتجهمة بإشعاعات البرق الجامد، يرتدّون خوفاً. إنه مسكن الإله، ويشبه درجات الهضبة الإيرانية التي تفضي إلى سقف العالم، المخططة بألوان عنيفة بنار تتأجج تحت الأرض وبلهيب الشمس. والبوابات تحرسها وحوش رائعة وثيران وأسود برأس إنسان، تزحف».

على مسافة بضع حارات، وفي شارع هادئ يقطن السوريون معظمه، عثرنا على غرفة مفروشة بسيطة تقع في الطابق الأرضي خلف المنزل. وكانت المرأة التي استأجرنا منها الغرفة من نوفا اسكوشا، امرأة سليطة تسبب لي القشعريرة في كل مرّة أتطلع إليها. كل شيء يمكن أن تتخيله مكدس في بيتنا: مغاسل، موقد طهي، مدفأة، خوان ضخم، خزانة قديمة، أريكة إضافية، كرسي هزاز محطّم، كرسي ذو مسند مهشم، ماكينة خياطة، أريكة محشوة بشعر الحصان، صندوق مليء بخردة من المخازن الرخيصة، وقفص عصافير فارغ. شككت أن الساحرة العجوز هي التي كانت تقيم في هذه الغرفة قبل وصولنا.

باختصار كان المكان يسوده جوّ من الخرف. وكان منقذنا الوحيد الحديقة الواقعة خارج بابنا الخلفي. فقد كانت حديقة مستطيلة طويلة مسيجة بحيطان عالية من الآجر، تذكّرني لسبب لايمكنني تفسيره بالحديقة في بيتر إبيتسون. على أي حال، كانت مكاناً جيداً لكي أحلم فيه. وكان الصيف قد حلّ، وعند آواخر العصر كنت أخرج الكرسي الكبير ذا المسند وأقرأ. وكنت قد اكتشفت للتو

أعمال آرثر ويجنال ورحت ألتهمها الواحد تلو الآخر. وكنت بعد قراءة بضع صفحات أغوص في أحلام يقظة. كان كل شيء في الحديقة يبعث على الأحلام وأحلام اليقظة ـ الهواء العابق بالرائحة العطرة، أزيز الحشرات، الطيور الكسلى في طيرانها، حفيف الأوراق، دندنة الأصوات الخارجية القادمة من الحدائق المجاورة.

فترة فاصلة من السكون والعزلة.

في هذه الأثناء، رأيت بالمصادفة المحضة صديقي القديم ستانلي، الذي أخذ يتردد علينا بين الحين والآخر برفقة ولديه عادة. وكان ابنه الأصغر يبلغ الخامسة من العمر وابنه الآخر يبلغ السابعة. وكان ستانلي مولعاً بولديه بشدة، ويعرب عن افتخاره بمظهريهما، وأسلوبهما وطريقة كلامهما. وعرفت من ستانلي أن ابنتي تدرس حالياً في مدرسة خاصة. وكان ابنه الأكبر، الذي يدعى ستانلي أيضاً، مغرماً بها، وقال لي مبتهجاً إن مود تنظر إلى حبه لها بريبة. وكان عليّ أن أحصل منه على معلومات تتعلق بأسلوب حياتهما، وطمأنني عنهما إلا أن النبرة التي كان يتحدث بها كانت تشي بأن أحوالهما لم تكن على خير ما يرام. فقد كانت ميلاني العجوز المسكينة ما تزال تعمل بكد في المستشفى، وأصبحت تسير حالياً على عكاز، وتمضي لياليها وهي تدلك وتمسد عروق الدوالي. ولم تكفّ هي ومود عن الشجار. وقال إن مود ما تزال تعطي دروساً في البيانو.

وأعلمني ستانلي أنه بما أنني لم أعد أزورهم، فقد اعتبروني شخصاً ميؤوساً منه، وبأني لا أتحمل أي مسؤولية. وكانت ميلاني، على ما يبدو، تتحدث بالخير عني، لكنها لم تكن سوى عجوز خرفة ضعيفة. (كان ستانلي هذا حاذقاً ولبقاً على الدوام).

«ألا تستطيع أن تيسر لي دخولي سراً إلى البيت ذات يوم عندما لا يكون هناك أحد في البيت؟» سألته متوسلاً. «أريد أن أرى كيف أصبح البيت يبدو. أودّ أن أرى ألعاب الطفلة، على أقل تقدير».

لم يفهم ستانلي الحكمة من وراء هذه الفكرة، غير أنه وعدني بأن يفكر في الأمر.

ثم أردف بسرعة: «من الأفضل أن تنساهم. لقد صنعت لنفسك حياة جديدة، تشبث بها!».

لا بد أحس إنه لا يتوافر لدينا ما يكفينا من الطعام، ففي كل مرة يأتي لزيارتنا، كان يحضر معه شيئاً من الطعام، عادة بقايا طعام بولوني قامت زوجته بطهيه ـ حساء، حلويات، مربى، عصيدة. أشياء كنا نحتاجها حقاً. وفي الحقيقة، بدأنا ننتظر هذه الزيارات بفارغ الصبر.

لاحظت أنه لم يطرأ تغيير كبير على ستانلي، سوى أنفه الذي أصبح يشبه حجر الرحى. وقد أخبرني أنه كان يعمل ليلاً في مؤسسة كبيرة للطباعة في جنوب نيويورك. وكان أحياناً يقف فوق حوض المطبخ محاولاً الكتابة. وتبين له أن التركيز يكاد يكون من شبه المستحيل ـ فهناك الكثير من القلق المنزلي. وكانت نقودهم تنفد عادة قبل انقضاء الأسبوع. على أية حال أصبح يهتم الآن بأطفاله أكثر من اهتمامه بالكتابة. فقد أراد لهما أن يعيشا حياة جيدة. وقال إنه سيرسلهما إلى الجامعة عندما يكبران.

ووجد أنه يتعذر عليه الكتابة، راح يقرأ. وبين الحين والآخر كان يحضر معه أحد الكتب التي كانت تجعله في حالة من النشوة، وكان هذا الكتاب دائماً عملاً لكاتب رومانسي، عادة من القرن التاسع عشر. ومهما كان الكتاب الذي كنا نناقشه، ومهما كان الوضع العالمي، حتى لو كانت هناك ثورة على وشك الحدوث، كانت مناقشاتنا تدور دائماً عن جوزيف كونراد. وإذا لم يكن كونراد، فأناتول فرانس. ولم أعد أهتم بهذين الكاتبين منذ فترة من الزمن. فقد كان كونراد يضجرني. لكن عندما بدأ ستانلي يتغنى به أصبحت مفتوناً به رغماً عني. ورغم أن ستانلي لم يكن ناقداً، إلا أنه كان يتمتع بأسلوب متميز في التحدّث عن الأشخاص الذين يغرم بهم، مما كان يصيبني بالعدوى، كما كان في الماضي، عندما كنا نجلس

بجانب الموقد المتوهج في المطبخ ونمضي ساعات ونحن نتحدث. فقد كانت جعبته مليئة بالحكايات، التي كانت عادة عن قصص تافهة. وكانت هذه الحكايات مضحكة، تتخللها دائماً لمسة من الحقد والسخرية. وكانت كذلك مشحونة بالرقة، هائلة، تنبض بالحنان، وتكاد تكون خانقة. إلا أن رقته، التي يكبتها دائماً، تعوّض عن حقده، ووحشيته، ونزعة الانتقام فيه. كانت تلك من سمات طبيعته التي قلما يضلل الآخرين بها. وبصورة عامة، كان فظاً، جارحاً، وعنيفاً. وببضع كلمات أو إيماءات، كان يمكنه أن يحطم أيّ جو يحيط به. وحتى عندما يلوذ بالصمت، كان ينبثق منه سائل جارف.

أما عندما يتكلم معي فكان يذوب دائماً. ولسبب غريب، كان يرى فيّ ذاتاً منحرفة. ولم يكن ثمة شيء يدخل البهجة إلى قلبه، لا شيء يمكن أن يجعله قلقاً ومهموماً أكثر مما يجعلني في حالة من البؤس أو الشعور بالهزيمة. فضلاً عن ذلك كنا كالأخوة. وكان بوسعه أن يشعر بالراحة، بالاسترخاء، بالزهو بنفسه. ولا بد أنه يظن أننا كنا ملعونين. أفلم يكن يتنبأ على الدوام بأن جهودي ستذهب سدى؟ ألم يكن يتوقع أنني لن أكون أبداً زوجاً جيداً، ولا أباً صالحاً، ولن أصبح في حياتي كاتباً؟ فلماذا ثابرت في هذا الاتجاه؟ فلماذا لم أستقر، كما فعل هو، وأقبل وظيفة مملة وأقبل مصيري؟ وكانت شماتته بهذا الشكل تدخل البهجة إلى قلبه. وكان دائماً يتوقف أثناء حديثه ليذكّرني بأنني لم أكن سوى «ذلك الولد من بروكلِن» ذلك الفتى من حي 14 مثله، مثل لويس بيروسا، مثل هاري مارتن، مثل إدي غويلير، مثل ألفي بيتشا. (وجميعهم فاشلون) لا، لن يصبح أحد منا شيئاً هاماً. فقد حلت علينا اللعنة مقدماً. وقال إنه يجب أن أكون ممتناً وأشكر ربي، لأني لست قابعاً الآن في سجن الإصلاحية، أو لأني لم أصبح مدمن مخدرات. ومن حسن حظي أني نشأت في عائلة محترمة متماسكة.

ومع ذلك، فقد كانت اللعنة تلاحقني.

وفيما كان يواصل تبجحه، كان صوته يزداد رقة. وقد تلون الآن بنبرة حزينة، بصبغة تشي بالحنين. ومن الجلي، رغم ما قاله، أنه لم يكن يتذكر ماضياً أفضل من الحياة التي عشناها ذات مرة مع رفاقنا في الحي القديم الجيد. كان يتحدث عن أصدقائنا المشتركين منذ عهد بعيد كما لو أنه أجرى دراسة مفصّلة عن حياة كل منهم. وكانوا جميعهم شديدي التنوع من حيث شخصياتهم وأمزجتهم، رغم أن لكل واحد منهم خطيئة صنعها هو. وفي رأي ستانلي، لم يكن ثمة أمل لأيّ منهم بالخلاص، ولنا أيضاً. أما بالنسبة للآخرين، فكان ثمة خلاص لهم، وبالنسبة للرفاق في الحي 14 فهم معرضون للخطر، إلى الأبد. كانت هذه هي الحقيقة، هذه هي الحقيقة الحتمية اللذيذة، التي جعلتنا نحب ذكرى أصدقائنا الغابرين. وبالتأكيد، فأنا أعترف أنهم كانوا يمتلكون موهبة عظيمة كأي شخص آخر في بقاع العالم. ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يتمتعون بجميع الخصال التي تجعل من الرجال الآخرين شعراء وملوكاً ودبلوماسيين وعلماء. وقد أثبتوا جدارتهم على إظهار هذه الخصال، كل بطريقته، كلّ على مستواه. أفلم يكن جوني بول يمتلك روح ملك؟ أليس من الممكن أن يكون شارلمان؟ فروسيته، شهامته، إيمانه وتسامحه، ألم تكن من صفات صلاح الدين؟ وكان ستانلي يتحدث ببلاغة أكبر عندما يأتي الحديث عن جوني بول الذي لم يره أيّ منا منذ كنا في التاسعة أو العاشرة من العمر. ماذا حلّ به، كان أحدنا يسأل الآخر. ماذا؟ لا أحد يعرف. سواء بالاختيار أو بالقدر، فقد بقي مجهولاً. كان هناك، في مكان ما، في وسط جمهرة الإنسانية العظيمة، يطعّمها بروحه الملكية المتأججة. كان هذا كافياً لستانلي، ولي أيضاً، في واقع الأمر. والغريب أن مجرد ذكر اسم جوني بول قد يجعل الدموع تغرورق في عيوننا. هل كان حقاً قريباً منا وعزيزاً علينا - أم كنا نضخّم أهميته مع مضي السنين؟ على أي حال، كان يقبع هناك - في قاع الذاكرة - يجسّد كلّ شيء جيد، كلّ شيء كان واعداً. كان أحد المحصنين

الكبار. ومهما كان يمتلك، مهما كان يقدم، فقد كان خالداً. وكنا ندرك ذلك عندما كنا صبية، واقتنعنا بها الآن بعد أن غدونا رجالاً.

وأخذت مونا، التي كانت تداخلها الريبة بستانلي في بادئ الأمر، ولم تكن تشعر بالارتياح لوجوده، ترتاح له أكثر فأكثر مع كل زيارة. وكان حديثنا عن الحيّ القديم، وعن رفاقنا الرائعين، وعن ألعابنا الفضولية والوحشية، وأفكارنا الرائعة (كأطفال)، وعن العالم الذي نعيش فيه، قد كشف لها جانباً من الحياة الذي لم تعرفه في حياتها. وكانت بين الحين والآخر تذكّر ستانلي بأصلها البولندي، أو أصلها الروماني، أو بأن أصلها من فيينا، أو عندما كانت تجمع كل هذه الأصول في «قلب جبال كارباثيان». ولم يكن ستانلي يعير أي اهتمام لكلامها، أو كما يقول اليونانيون koutsaftis، وفي رأيه فإن عدم تمكنها من التفوه بكلمة واحدة باللغة البولونية، كان يكفي لأن يصنفها في الفئة التي يضع فيها كلّ «الغرباء» الآخرين في هذا العالم. بالإضافة إلى ذلك، وبالنسبة لذوق ستانلي فقد كانت ذربة اللسان أيضاً. واحتراماً لي لم يكن يعارضها أبداً، غير أن قسمات وجهه المدمرة كانت تروي مجلدات. وكان الشك والترفع التعبيرين اللذين كان ستانلي يستدعيهما بسهولة كبيرة. وأكثر من أي شيء آخر، كان ستانلي متعجرفاً. وهذه الأنفة التي لم تكد تغادر قسمات وجهه تماماً، التي كان يكتمها أو يقمعها، تتركّز في أنفه. وكان له أنف رفيع طويل، ومنخران منفلشان يسمان البولونيين في أغلب الأحيان. عندما كان يرتاب في شيء، أو يمقت شيئاً أو ينفر منه، كان يتبدى على الفور في هذا العضو. وكان فمه يُظهر مرارة، وتبدو على عينيه قساوة صارمة. وكانت عيناه صغيرتين، بلون العقيق؛ متباعدتين، وكانت نظرتهما تخترقان الشخص اختراقاً. وعندما يكون متهكماً كانت عيناه تتلألآن، كالنجوم القصية الباردة؛ وعندما يتملكه الغضب، تلتهبان كسهمين مغمسين في السمّ.

كان الشيء الذي يجعله مرتبكاً وقلقاً في وجود مونا، هو

طلاقتها، وخفة حركتها، ولمّاحيتها السريعة. وهي صفات لم تكن تعجبه في الجنس الآخر. ولم يكن من قبيل المصادفة أن اختار زوجة بلهاء، بليدة، التي كانت، لتخفي جهلها أو حرجها، تبتسم ابتسامة عريضة بحماقة أو تضحك بارتباك أكثر. وكان يعاملها وكأنها شيء. كانت مجرد تابع. وربما أحبّها ذات مرة، إلا أنه إذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ أن الأمر كان في عالم آخر، ومع ذلك فهو يشعر بالارتياح معها. وكان يعرف كيف يتعامل مع عيوبها وتجاوزاتها.

كان ستانلي شخصاً عجيباً، غريب الأطوار، مزيجاً من التناقضات. إلا أن ثمة شيئاً نادراً لم يكن يفعله، هذا الشاذ ـ إذ قلما كان يطرح أسئلة. وعندما كان يسأل كانت أسئلته مباشرة ويجب الإجابة عنها على الفور ـ وبالطبع، لم تكن الكياسة، بل التفاخر الذي كان يجعله يتصرف بهذه الطريقة الرصينة كما يبدو. وهو يعتبر أن إخباري إياه بأيّ شيء مهم شيء مفروغ منه. وكان يفضل أن أقوم بإفراغ المعلومات من جعبتي من تلقاء نفسي ودون أن يسألني. ومن معرفتي به كنت لا أرى جدوى من أن أفسّر له أسلوبنا في الحياة. فإذا قلت له ببساطة إني سلكت طريق السرقة، فإنه سيتقبل الأمر على الفور. وإذا قلت له إني أصبحت مزوراً، فربما قوّس حاجبيه باستحسان ينم عن هزء وسخرية. أما إذا أخبرته عن طبيعة عملياتنا المخادعة فستنتابه الدهشة والاشمئزاز.

ياله من شخص، هذا البولوني. وكانت مسحة اللباقة هي الشيء الوحيد التي كان يظهرها وهو يروي إحدى حكاياته الغريبة العجيبة. فإذا طلب قطعة من الخبز على المائدة، طلبها وكأنه يوّجه صفعة على الوجه. إذ كان وقحاً ويتعمد إهانة الآخرين. وكان يشعر بالارتياح عندما يرى الآخرين وهم يتلوّون من الألم.

وفي الوقت ذاته، كان ينتابه خجل خيالي. فإذا جلست مونا أمامه ولفت ساقاً على ساق كان يشيح ببصره. وإذا تزينت بوجوده

يتظاهر بأنه لا يراها. وكان جمالها بحد ذاته يجعله خجولاً، مرتبكاً. وكان ذلك يجعله أيضاً مثيراً للارتياب. إذ إن اقتران امرأة جميلة وذكية مثل مونا برجل مثلي يثير لديه التساؤل ـ كان ثمة شيء مريب في عينيه ـ فهو يعرف بالطبع أين وكيف التقيت بها. وكان بين الحين والآخر يلمح إلى ذلك عرضاً، لكن دائماً بصدق. وعندما كانت تتحدث عن طفولتها في بولونيا أو فيينا، كان يحدجني بانتباه شديد، بأمل، كما أظن، أن أنمّق وأدبّج القصة، وأن أملأ التفاصيل الطويلة المفقودة. فقد كانت هناك فجوة في مكان ما، وكان ذلك يضايقه. وذات مرة وصل به الأمر إلى أنه أبدى شكوكه في أنها ولدت في بولونيا. إلا أنه لم يشك أبداً في أنها يهودية. وكان يؤمن إيماناً تاماً أنها أميركية حتى النخاع. لكنها أميركية غير عادية، بالنسبة لأنثى. إذ لم يكن بوسعه ألّا يعجب بطريقة إلقائها، التي لم تكن تشوبها أي لكنة أو لهجة محلية. وكان لا يكف عن السؤال كيف تعلمت التحدث بمثل هذه اللغة الإنكليزية النقية؟ كيف يمكنني أن أثق بأيّ شيء يتعلق بها؟ «إني أعرفك»، كان يقول، «أنتِ رومانسي... تفضّل أن يكون لديك لغز». وهو شيء صحيح. وكان يقول: «أريد أن أعرف كل شيء. أريد أن تكون الأمور صريحة. فأنا لا أحب أن ألعب لعبة الاستغماية». رغم أنه كان هو، ستانلي بذاته، كان مفتوناً أشد الافتتان بهير نايجل، بطل رواية الألغاز. يالها من مناقشات تلك التي كانت تدور بيننا بالقرب من موقد المطبخ عن شخصية هامسن المبهمة! وكان ستانلي على استعداد للتخلي عن ذراعه اليمنى إن تمكن من خلق مثل هذه الشخصية. ولم يكن هير نايجل الشخصية الوحيدة المغلفة بستار من الألغاز، بل كان كذلك طبعه اللطيف، ومزاحه، وتحولاته العكسية التي تروق كثيراً لستانلي. إلا أن طبيعة الرجل المتناقضة، كل ما يعشقه. وكان شعور هير نايجل بالعجز في حضور المرأة التي كان يحبها، ماسوشيته، شيطانيته، عاطفته، هشاشته الشديدة ـ كل هذه الصفات جعلته ثميناً إلى أعلى درجة.

وكان ستانلي يقول: «أقول لك يا هنري، إن هامسن أستاذ بكل معنى الكلمة». وكان يقول ذات الشيء عن كونراد، وبلزاك، وأناتول فرانس، ودي موباسان، ولوتي. وقال ذات الشيء عن ريمونت عندما أنهى قراءة «الفلاحون». (لأسباب مختلفة تماماً) كنت واثقاً من شيء واحد، هو أنه لن يقول ذلك عني أبداً، حتى لو أجمع العالم كله على ذلك. ويجب أن يكون الأستاذ في الأدب، من وجهة نظر ستانلي، من نوع الكتّاب المذكورين أعلاه. فلكي يكون أستاذاً يجب على الكاتب أن ينتمي قبل كل شيء إلى العالم القديم؛ أن يكون رقيقاً، بارعاً، متقناً، دقيقاً. أن يكون لديه أسلوب سلس صقيل؛ يجب أن يكون بارعاً في وضع الحبكة، رسم الشخصيات، المواقف؛ عليه أن يكون على دراية واسعة بالعالم وبالشؤون الإنسانية. وفي رأيه لن أكون قادراً ما حييت على أن أكتب قصة جيدة. بل إنه وجد في شيروود أندرسن، الذي أقرّ مكرهاً ذات مرة أنه راوي قصة ممتاز، عيوباً خطيرة. فقد كان أسلوبه جديداً جداً، لم يكن مصقولاً، أو متقناً تماماً على ذوق ستانلي. رغم أنه ضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع عندما قرأ «انتصار البيض». وقد اعترف مكرهاً. ضحك رغماً عنه. ثم بدأ يتحدث عن جيروم ك. فقد كان جيروم بالتأكيد طيراً غريباً يذكره بشخص بولوني. فستانلي يرى أنه لم يكتب شيئاً فكاهياً أكثر من «ثلاثة رجال في قارب». حتى لم يكن لدى الكتّاب البولونيون أحد يوازيه. غير أن البولونيين نادراً ما يكونون خفيفي الظل. قال ستانلي مرّة: «إذا قال بولوني عن شيء إنه مضحك، فهذا يعني أنه يجده غريباً. فهو على قدر كبير من الجدية، مأساوي جداً، حتى يتمكن من تقدير الفكاهة». وعندما يقول هذا، كانت كلمة طريف تخرج من شفتيه. وكانت كلمة طريف كلمته المفضّلة، وتظهر عدداً من المعاني المتباينة. فكلمة طريف تعني ضمناً شيئاً من البراعة، من التفرد، التي كان يقدرها ستانلي كثيراً. فإذا قال عن مؤلف ـ «إنه شاب طريف» ـ فإنه يعني أنه يمتدحه كثيراً. وقد كان غوغول، مثلاً،

أحد هؤلاء الشبان الطريفين. ومن الناحية الأخرى كان من الممكن أن يصف برنارد شو بأنه شاب طريف أيضاً. أو ستريندبيرج، بل وحتى مايترلنك.

ياله من شخص طريف، ستانلي هذا!

كما قلت، كانت تدور هذه المناقشات في أغلب الأحيان في الحديقة. وإذا توافر لنا قدر من المال كنت أجلب له بضع زجاجات من البيرة. ولم يكن يحب سوى البيرة والفودكا. وكنا بين الحين والآخر ندخل في حديث مع أحد الجيران السوريين، الذي كان يطل علينا من نافذة في الطابق الثاني. كم كان هؤلاء السوريون أناساً طيبين وودّيين ودمثين؛ وكم كانت نساؤهم جميلات وفاتنات. وخيلّ للجميع في بادئ الأمر أن مونا، بخصلات شعرها السوداء، سورية. غير أننا علمنا بعد ذلك، أن صاحبة بيتنا لم تكن تحب السوريين وتكنّ لهم مشاعر الكراهية. فقد كانوا بالنسبة لها حثالة المجتمع وذلك لأنهم كانوا أولاً، سمر البشرة، وثانياً، لأنهم يتكلمون لغة لايفهمها أحد غيرهم. وقالت لنا إن الاهتمام الذي كنا نوليهم إياه يثير فزعها، وأنها واثقة من أننا نمتلك الإحساس الكافي الذي يجعلنا لا ندعوهم إلى بيتنا. وفي النهاية، قالت باختصار إنها تدير نزلاً «محترماً».

ابتلعت ملاحظاتها على مضض، لأني كنت دائماً أضع نصب عيني أني ربما لن أتمكن من دفع الأجرة في موعدها. وصرفتها باعتبارها عجوزاً شمطاء، ساحرة، غريبة الأطوار، والتي مهما قلت عنها فلن أوفيها حقها. واحتطت للأمر بأن نبهت مونا ألّا تترك باب دارنا دون إغلاق بالقفل عندما لا نكون في البيت. فنظرة واحدة منها إلى مخطوطاتي ويُقضى علينا.

بعد إقامتنا في هذا المكان ببضعة أسابيع، أبلغتني مونا في أحد الأيام أنها صادفت في الطريق توني مورير مرة أخرى، الذي

كان هو والمليونير ميلووكي يهيمان على وجهيهما معاً. ويبدو أن توني مورير كان يرغب بصدق في مساعدة مونا. وقد أسرّ لها بأنه يحتال على صديقه ليكتب له شيكاً كبيراً ربما كان بمبلغ ألف دولار.

كان هذا الضرب من التغيير هو ما كنا نضرع من أجله. فبمبلغ كهذا سيكون بإمكاننا أن نسافر ونرى شيئاً من العالم، أو نلحق بأومارا، الذي لم يكفّ يوماً عن إرسال بطاقات بريدية لنا من الجنوب المشمس يخبرنا فيها كيف أن الأمور تسير هناك بسلاسة وسهولة. أما أمورنا فكانت تسير بقليل من النقود في نيويورك.

كانت مونا هي التي لم تحثني على تغيير المكان. وقد انتابها شعور بالانزعاج الشديد لأني لم أعد أبذل أيّ جهد للكتابة. وكدت أقنعها أن الخطأ خطؤها، لأنها ما دامت تعيش حياة مزدوجة، فلا يمكنني أن أفعل شيئاً. (لا لأنني لا أثق فيها، بل لأنها كانت تجعلني قلقاً أكثر مما ينبغي). إلا أنها لم تقتنع تماماً بكلامي. وكانت تعرف أن المشكلة بدأت تزداد عمقاً. وبطريقتها الساذجة البسيطة خلصت إلى أن الطريقة الوحيدة لتعديل الأوضاع تكمن في أن نقوم بتغيير المكان.

وذات يوم تلقت مكالمة هاتفية من توني مورير، يعلمها فيها أن كل شيء أصبح جاهزاً. وكان عليها أن تلتقي به في ميدان تايمز سكوير، حيث ستكون سيارة ليموزين في انتظارها لتقلهما فوق نهر هدسون. وجبة طعام لذيذة في إحدى الحانات وسيكون الشيك في طريقه إليها. (وسيكون بمبلغ سبعمائة وخمسين دولاراً، لا ألف دولار).

بعد أن ذهبت اخترت كتاباً بعنوان *الحكمة والقدر*. ولم أكن قد قرأت سطراً واحداً مما كتبه مايترلنك منذ سنوات: كان أشبه بالعودة إلى حمية خاصة. وقبيل منتصف الليل، وقد بدأ يعتريني قلق واضطراب شديدين، خرجت لأتمشى. وعندما مررت بجانب أحد المخازن الكبيرة، لاحظت معدات للتخييم وألبسة للرياضة قد حُشرت في واجهة المخزن الزجاجية. مما جعلني أحلم بأن أجوب الجنوب.

نعلّق حقائبنا على ظهورنا، ونسافر مجاناً بإيقاف السيارات على الطريق حتى نصل إلى حدود فرجينيا، ثم نسير المسافة المتبقية سيراً على الأقدام. هذه هي الثياب التي أرغب في ارتدائها، وهذا الحذاء الرائع الملائم للسفر. ولشد ما فتنتني الفكرة بدأ الجوع ينهشني. توجهت إلى مطعم جو في بورو هول وطلبت شريحة من لحم البقر المغمسة بالبصل. وبينما كنت ألتهم طعامي أخذت أحلم. فبعد يوم أو يومين سنغادر هذه المدينة القذرة، سننام تحت النجوم، سنعبر الجداول، سنتسلق الجبال، سنتفصد عرقاً، سنلهث، سنغني بملء رئتينا. وظللت أحلم وأنا أتناول القطعة الضخمة من فطيرة التفاح المعدّة في المطعم (صحن عميق) مع فنجان من القهوة القوية. وغدوت جاهزاً الآن لكي أنكش أسناني وأتسكّع عائداً إلى البيت. وبالقرب من صندوق الدفع شاهدت صفاً من أنواع السيجار الممتاز. اخترت سيجاراً من نوع روميو وجوليت، وبشعور من السكينة وحسن النوايا تجاه العالم برمته، قضمت طرف السيجار وبصقته.

لا بد أن الساعة كانت تقارب الثانية بعد منتصف الليل عندما وصلت إلى البيت. خلعت ملابسي وآويت إلى الفراش. استلقيت، وعيناي مفتوحتان على أشدهما، متوقعاً أن أسمع وقع خطواتها في أيّ دقيقة. وقبيل الفجر غفوت.

عند الساعة الثامنة والنصف وصلت وهي تتعثر في مشيتها. لم تكن متعبة أبداً. لم تكن تفكر في النوم. وبدلاً من ذلك أخذت تعد طعام الإفطار - لحم خنزير وبيض، وقهوة، وكعكات حارة كانت قد اشترتها وهي في طريقها. وعزمت على البقاء في السرير حتى آخر لحظة.

«لكن أين كنتِ بحق الجحيم طوال هذا الوقت؟» بذلت ما بوسعي لكي أزمجر محتجاً. كنت أعرف أن كلّ شيء قد سار سيراً حسناً - فقد كانت متألقة جداً، ولا يمكن أن تكون الأمور غير ذلك.

«لنأكل أولاً»، قالت مستجدية. «إنها قصة طويلة».

«هل حصلت على الشيك ـ هذا كل ما أريد أن أعرفه».

لوّحته أمام عينيّ.

في عصر ذلك اليوم طلبنا أشياء كثيرة من المخزن الكبير، وكان من المفترض أن يتم تسليمها في اليوم التالي، وكنا نأمل خلال ذلك أن نصرف الشيك. جاء الغد ولم نصرف الشيك. وبالطبع أعيدت الملابس إلى المخزن الكبير. وبيأس أودعنا الشيك لصرفه عن طريق أحد المصارف، مما يعني تأخيراً لعدة أيام على الأقل.

في غضون ذلك نشبت مشاجرة حادة بين مونا والعجوز الشمطاء، صاحبة البيت السليطة اللسان. فبينما كانت مونا تتحدث مع جارتها السورية الجميلة، اندفعت صاحبة البيت إلى الحديقة وأخذت تكيل الشتائم للمرأة السورية. وبعد أن تملّكها الغضب، راحت مونا تشتم العجوز الشمطاء، فيما أخذت هذه الأخيرة تنعتها بأقذع وأغرب الكلمات، وقالت لها إنها هي سورية أيضاً، وعاهرة، وهذا وذاك. وكادت تنتهي المشاجرة بمبارزة في شد الشعر.

الخلاصة أنها وجهت إلينا إنذاراً بالإخلاء بعد أسبوع. وبما أننا كنا ننوي أن نترك البيت، لم نشعر بالحزن. وبدأت تعتمل في نفسي فكرة واحدة، وهي كيف يمكنني أن أنتقم من هذه الكلبة العجوز؟ وكان ستانلي هو الذي دلّني إلى الطريقة. فبما أننا كنا سنخلي البيت إلى غير رجعة، فلماذا لا ننتقم منها بطريقة ملوكية؟ «حسناً» قلت، «لكن كيف؟» وكان الأمر برأيه في غاية البساطة. وهو أن نحضر الطفلين في اليوم الأخير، ويعطي كل واحد منهما زجاجة من الصلصة والخردل، وشريط ورقي لاصطياد الذباب، وزجاجة حبر، وطحين، كلّ شيء يمكن أن يساعد المرء في القيام بعمل شيطاني. «دعهما يفعلان ما يحلو لهما»، قال. «ما رأيك في هذا؟» ثم أردف: «إن الأولاد يحبون أن يخرّبوا كل شيء».

قلت في نفسي إنها فكرة رائعة. «سأساعدهما أنا بنفسي، فعندما يتعلق الأمر بالقيام بعمل قذر، فأنا إلى حدّ ما مخرّب جيد».

في اليوم التالي من تخطيطنا لحملة السلب والتخريب، أبلغنا المصرف أنه لا يوجد للشيك الذي أودعناه رصيد. أجرينا مكالمات هاتفية مسعورة إلى توني مورير وإلى ميلووكي. لقد اختفى مليونيرنا وكأن الأرض ابتلعته. لقد كنا ضحية خدعة. ضحكت كثيراً في نفسي رغم الشعور بالكدر الذي أصابني.

لكن ما العمل الآن؟

نقلنا الخبر إلى ستانلي. أخذ الأمر على نحو فلسفي. لماذا لاننتقل إلى شقته؟ إذ سيرفع الفراش عن سريره ويضعه على الأرض في صالة الاستقبال لننام. فهم لا يستعملون صالة الاستقبال. أما بالنسبة للطعام، فقد أكدّ لنا أننا لن نجوع.

«لكن أين ستنام؟ أو كيف بالأحرى؟» سألت.

«على النوابض» قال.

«وزوجتك؟».

«إنها لن تمانع. إننا ننام في أغلب الأحيان على الأرضية العارية»، ثم أردف: «في النهاية، هذا مجرد أمر مؤقت. يمكنك البحث عن عمل، وعندما تجد عملاً يمكنك أن تجد مكاناً لك».

«حسناً» قلت وشددت على يده.

«احزم أشياءك»، قال ستانلي. «ماذا عندك لتأخذه معك؟».

«حقيبتان وآلة كاتبة، هذا كل ما في الأمر».

«هيا إذن. ليبدأ الولدان عملهما». وأزاح الأريكة ووضعها أمام الباب، لكي لا يتمكن أحد من الدخول. وفيما أخذت مونا تحزم الحقائب، رحت أعبث بالأشياء في الخزانة. وكان الصبيان يتطلعان بلهفة إلى هذا الحدث. فقد بدآ عملهما بروح من الانتقام. وخلال

عشر دقائق أتى الولدان على الأخضر واليابس. فقد لُطّخ كل شيء يمكن تلطيخه بالصلصة، بالخلّ، بالخردل، بالطحين، بالبيض المكسور. وألصقا على الكراسي أوراق اصطياد الذباب، ونثرا القمامة فوق الأرضية، وأخذا يهرسانها بكعوب أحذيتهما. والأجمل من كل ذلك، التلطيخ بالحبر. إذ أخذا يرشانه على الجدران، والسجاجيد والمرايا. وعملا من ورق التواليت أكاليل يلفان بها قطع الأثاث الملطّخة.

أما أنا وستانلي، فقد وقفنا على المنضدة ورحنا نزخرف السقف بالصلصة والخردل، وبالطحين والحبوب التي جعلناها معجوناً سميكاً. ومزقنا الشراشف وأغطية السرير بالسكاكين والمقص. وبسكين المطبخ الكبيرة، أخذنا نحدث فجوات في الأريكة ونخرج منها كتلاً ضخمة من شعر الحصان. وحول مقعد المرحاض دهنا قليلاً من مربى البرتقال والعسل الفاسدين. وقلبنا كل شيء يمكن أن يُقلب رأساً على عقب، وفككناه، وفصلناه أو قطعناه إرباً إرباً. تم كل شيء بثوران هادئ. وتركت القطعة الأخيرة التي كنا سنخرّبها للولدين لكي يفعلا ذلك، أي تمزيق الكتاب المقدس. فقد غطساه أولاً في حوض الحمام، ثم لطّخاه بالمراهم القذرة، ثم مزقا بعض الصفحات وبعثراها حول الغرفة. ثم وضعنا ما تبقى من الكتاب في قفص للعصافير وعلّقناه في الثريا. أما الثريات، فقد لويناها وجعلناها بأشكال يستحيل تمييزها. ولم يكن لدينا الوقت لكي يغتسل الطفلان، بل مسحناهما بأفضل ما يمكننا بالشراشف الممزقة. كانا في قمة السعادة والبهجة. ياله من عمل! فلن تتاح لهما فرصة أخرى ليفعلا ذلك... وبعد أن انتهينا من عملنا هذا بدأنا نتشاور. وأجلس ستانلي الطفلين على ركبتيه، وأخذ يعطيهما بجدية تعليمات عما يجب أن يفعلاه. كان عليهما أن يغادرا المنزل أولاً، من الباب الخلفي. وأن يسيرا بهدوء وتمهل حتى البوابة الأمامية، وما أن يصلا إلى نهاية الشارع حتى يسرعا الخطى، ثم يركضان بأسرع ما يمكنهما وأن ينتظرانا عند ناصية الشارع. أما نحن فإذا صادفنا

العجوز الشمطاء ذات الأنف الأزرق، فسنسلمها المفاتيح ونودعها بلطف. إذ سيكون أمامها عمل شاق لكي تفتح الباب، بافتراض أنها ارتابت في أن هناك شيئاً على غير ما يرام. عندها نكون قد لحقنا بالطفلين واستقللنا سيارة أجرة.

سار كل شيء حسب الخطة. لم تظهر السيدة العجوز. وكنت أحمل حقيبة، ويحمل ستانلي الحقيبة الأخرى، وكانت مونا تحمل الآلة الكاتبة. وعند الناصية، كان الطفلان بانتظارنا، فرحين. أخذنا سيارة أجرة وانطلقنا إلى بيت ستانلي.

ظننت أن زوجته ستنزعج قليلاً عندما تعلم ماذا فعل الطفلان، لكنها لم تنزعج، بل قالت إنها مزحة رائعة. وشعرت بالبهجة لأنهما استمتعا بوقتهما. وكانت شكواها الوحيدة أنهما لوّثا ثيابهما. كان الغداء بانتظارنا - لحوم باردة وجبن وبيرة وبسكويت مالح. ضحكنا ملء أفواهنا ونحن نتذكر ما حصل هذا الصباح.

«أرأيت ماذا يمكن أن يفعل البولونيون» قال ستانلي. «عندما يتعلق الأمر بالتخريب فنحن لا نعرف حدوداً. إنّ البولونيين وحوش في داخلهم؛ إنهم أسوأ حتى من الروس. عندما يقتلون يضحكون، وعندما يعذبون تغمرهم الغبطة إلى حد هستيري. هذا هو المرح البولوني من أجلك».

«وعندما يبدون عطفهم» أضفت، «فهم مستعدون لأن يقدموا لك آخر قميص لديهم - أو الفراش من سريرهم».

من حسن الحظ أن الوقت كان صيفاً، لأن الغطاء الوحيد الذي كان بحوزتنا هو شرشف ومعطف ستانلي الشتوي. ولحسن الحظ كان المكان نظيفاً، رغم أنهم كانوا فقراء. إذ لم يكن ثمة صحنان متشابهان. وكانت السكاكين والشوكات والملاعق، عبارة عن قطع منفردة غير متشابهة، وقد جُمعت من أكوام الزبالة. وكانت توجد

ثلاث غرف، الواحدة تلو الأخرى، جميعها مظلمة ـ شقة مثالية. فلا مياه ساخنة، ولا حوض حمام، بل ولا حتى دوش. وكنا نستحم الواحد تلو الآخر في مغسلة المطبخ. وكانت مونا قد أعربت عن رغبتها في مساعدة صوفي، زوجته، في الطهي إلا أنها لم تسمح لها بذلك على الإطلاق. وكان كلّ ما علينا أن نفعله هو أن نطوي فرشتنا ونضعها جانباً كل يوم ونكنس الأرضية. وكنا أحياناً نغسل الصحون.

لم يكن الأمر على هذه الدرجة من السوء، وما كان ليكون كذلك بسبب فشل مؤقت. إذ كانت الحارة تبعث الاكتئاب في النفس، فمن المؤكد أننا كنا نعيش في مقلب للنفايات، على بعد بضعة أبواب من سكة القطار القائمة فوق الأرض. والأسوأ من كل ذلك، أن ستانلي كان ينام أثناء النهار. إلا أنه لم يكن ينام سوى خمس ساعات تقريباً. ولاحظت أنه لم يكن يأكل كثيراً. وكانت السجائر هي الشيء الوحيد الذي لم يكن بوسعه الاستغناء عنه. وكان يلف سجائره في بعض الأحيان؛ وهي عادة لازمته منذ أن كان جندياً في حصن أوغليثورب.

كان المال الشيء الوحيد الذي لم يكن بإمكاننا أن نطلبه من ستانلي. إذ كانت زوجته تعطيه عشرة سنتات كل يوم أجرة للركوب. وعندما يتوجه إلى عمله، كان يأخذ معه سندويشتين ملفوفتين بورق الجرائد. واعتباراً من يوم الثلاثاء كان كل شيء يُشترى بالدين. روتين كئيب، إلا أن ستانلي كان يعيش هذا الروتين منذ سنوات. ولا أظن أنه كان يتوقع أن تكون الأمور على غير ذلك، ماداموا يأكلون كلّ يوم، ومادام الطفلان يتغذيان ويكتسيان.

أنا ومونا كنا نختفي قبيل الظهر من كل يوم، وكلّ واحد منا يذهب في حال سبيله، ونعود عندما يحين موعد العشاء. وكنا نعطي الانطباع بأننا نبحث عن عمل. وكانت مونا تركّز على جمع قليل من المال لنقيم به أودنا؛ أما أنا فكنت أتسكع على غير هدى، أزور

المكتبة العامة، متاحف الفن، أو أشاهد فيلماً عندما أستطيع ذلك. ولم تكن لدى أيّ منا النية في البحث عن عمل. ولم نناقش هذا الأمر.

في البداية كانوا مسرورين لرؤية مونا تعود كل يوم وهي تجلب شيئاً للطفلين. فقد كانت تحرص على أن تعود ويداها محملتان. وبالإضافة إلى الطعام الذي كنا بحاجة إليه، كانت تجلب معها أيضاً أطعمة شهية لم يتذوقها ستانلي وزوجته في حياتهما. وكان الطفلان يحصلان دائماً على السكاكر أو الحلويات. كانوا يتربصون بها كلّ مساء عند الباب الأمامي. كان الأمر في غاية المتعة لفترة من الزمن. الكثير من السجائر، الكثير من الكعك والفطائر الرائعة، كلّ أنواع الخبز اليهودي والروسي، المخللات، سمك السردين، سمك التونة، الزيتون، المايونيز، المحار المدخّن، سمك السلمون المدخّن، الكافيار، السمك المملّح، الأناناس، الفريز، لحم السلطعون، وإلى آخر القائمة. وكانت مونا تدّعي أنها هدايا من بعض الأصدقاء. ولم تكن تعترف أنها كانت تبذّر نقوداً على هذه الكماليات. وبدت صوفي بالطبع منبهرة بكل ذلك. فهي لم تر في حياتها مثل هذه الأنواع من الأطعمة المصفوفة في الخزانة. كان من الواضح أن بوسعها تقبّل مثل هذه الأطعمة إلى ما لا نهاية! والطفلان كذلك.

أما ستانلي فلم يكن كذلك. إذ لم يكن يفكر إلا بالفاقة. فماذا سيفعلون عندما نرحل؟ فالطفلان أفسدهما الدلال. وراحت زوجته تتوقع المعجزات التي كانت فوق طاقته. وبدأ يستاء من أساليبنا المترفة. وذات يوم فتح الخزانة، وأخرج بعض العلب والمرطبانات التي تحتوي على أطايب المأكولات، وقال إنه سيستبدلها بالنقود. وكانت هناك فاتورة غاز تأخر تسديدها منذ فترة طويلة. وفي اليوم التالي أخذني جانباً وقال لي بفظاظة أن زوجتي يجب أن تقلل من جلب الحلويات والكعك للأطفال. وبدأ الاكتئاب يتملكه أكثر فأكثر. فلعل الأيام القلقة التي نام فيها على النوابض العارية أنهكته. ولعله حدس أننا لم نكن نبذل أي مجهود للبحث عن عمل.

بدأ التوتر يشوب الوضع. فقلما تحدثنا على المائدة. وبدأ الطفلان يتصرفان كأنهما أرغما على الإذعان. ولم تعد صوفي تتكلم إلا عندما يوافق إلهها وسيدها. وفي بعض الأحيان، لم تكن تتوافر حتى أجرة النقل. وكانت مونا دائماً هي التي تقدم المال. وتوقعت ذات يوم أن أُسأل بصراحة كيف يتوافر لديها مال جاهز على الدوام. أما صوفي، فلم تسأل مونا أبداً أي سؤال. كانت مونا تخلب لبها. وكانت صوفي تلاحقها بعينيها دائماً، تراقبها في كل حركة، كل إيماءة. وكان جلياً أن مونا إلهة في نظرها.

كنت أتساءل، عندما أظل يقظاً طوال الليل، كيف ستكون ردة فعل صوفي إذا سمح لها أن تسلك سلوك مونا ليوم واحد فقط. لنفترض أن مونا كانت على موعد مع ذلك المحارب القديم ذي الساق الواحدة من ويهاوكين، الذي يدعى روثيرميل، وبالطبع سيكون ثملاً كالعادة. ينتظرها في حانة كتلك الحانات الواقعة في أحد تلك الشوارع الفرعية الجنائزية في ويهاوكين. والبيرة تروّل من فمه. وعندما تدخل مونا، يبذل جهداً لينهض من مقعده وينحني بطريقة رسمية، إلا أن ساقه الاصطناعية تعوقه. يصفق بجناحيه بعجز، مثل طير كبير علقت ساقه في مصيدة. يهمهم ويلعن، يمسح البصاق من على صدّرته بمنديل قذر.

«لقد تأخرت ساعتين هذه المرة» يقول متذمراً «كم؟» ويمد يده داخل جيبه ليخرج محفظته الممتلئة.

تتظاهر مونا بالطبع ـ كثيراً ما يمثلان هذا المشهد ـ بأنها أحست بالإهانة. «أعدها إلى مكانها! أتظن أني آتي من أجلها؟»

هو: «عليّ اللعنة إن فكرت بسبب غير هذا. بالتأكيد ليس على حسابي».

هكذا تبدأ. اثنان تدرّبا على هذا المشهد مائة مرة.

هو: «حسناً، ما القصة هذه المرة؟ حتى لو كنت مغفلاً، يجب أن أقول إنني أحترم اختراعك».

هي: «هل يجب أن أذكر لك سبباً دائماً؟ متى ستتعلم كيف تثق بالبشر الآخرين؟».

هو: «ياله من سؤال لطيف. لو بقيت نصف ساعة فلعلي أجيب عنه. متى يجب أن تذهبي؟» ينظر إلى ساعة يده. «الساعة الثالثة إلاّ ربع».

هي: «أنت تعرف أنه يجب أن أعود في الساعة السادسة».

هو: «إذن أمك ما تزال عاجزة؟»

هي: «ماذا تظن ـ أن تحدث معجزة؟»

هو: «ظننت أنه ربّما كان أباك هذه المرة».

هي: «أوه، كفّ عن هذا! إنك سكران مرة أخرى».

هو: «من حسن حظك. وإلا فإني قد أنسى أن أحضر محفظتي معي. كم؟ لننته من هذا الموضوع، عندها ربما تمكنا من تجاذب أطراف الحديث قليلاً. إن الحديث معك نوع من الثقافة».

هي: «من الأفضل أن تجعل المبلغ خمسيناً اليوم».

هو: «خمسون؟ اسمعي يا أختاه، أعرف أني أحمق، لكن لست منجم ذهب».

هي: «هل يجب علينا أن نعود ونتحدث عن هذا الأمر؟» يخرج روثيرميل محفظته حزيناً. يلقيها على الطاولة. «ماذا ستأخذين؟».

هي: «قلت لك».

هو: «أعني ماذا ستشربين؟ فلن تذهبي دون أن تشربي شيئاً، أليس كذلك؟».

هي: «أوه حسناً... اطلب لي كوكتيل شمبانيا».

هو: «أنت لا تحتسين بيرة أبداً، أليس كذلك؟» يعبث بالمحفظة.

هي: «لماذا تعبث بها؟ هل تحاول إذلالي؟».

هو: «يبدو لي أن ذلك سيكون صعباً نوعاً ما». توقف، ثم أردف، «عندما كنت جالساً أنتظرك هنا، أخذت أفكّر كيف يمكنني أن

أجعلك تطربين فرحاً. أعرف أنك لا تستحقين ذلك، لكن خراء! لو كان عندي أيّ إحساس لما كنت جالساً هنا أتحدث إليك». ثم تابع، «هل تريدين أن تعرفي بماذا كنت أفكّر؟ كيف أجعلك سعيدة. أتعرفين، بالنسبة لفتاة جميلة مثلك، فإنك أكثر المخلوقات التي رأيتها في حياتي حزناً. ولا تظنني أنني كتلة من التفاؤل، ولست وسيماً لكي تنظر الفتيات إليّ، وأنا أزداد شيخوخة في كل يوم، لكنّي لا أستطيع أن أقول إني بائس إلى هذه الدرجة. فما تزال لدي ساق واحدة، وبوسعي أن أقفز هنا وهناك. إني أضحك أحياناً، حتى لو كان ذلك على حسابي. لكن، أتعرفين شيئاً ـ فأنا لم أسمعك تضحكين ولا مرة واحدة. هذا شيء فظيع. بل في الواقع شيء مؤلم. أعطيك كل ماتطلبينه مني لكنك لا تتغيرين أبداً، فأنت دائماً متأهبة وحذرة من مجرد لمسة. هذا ليس صحيحاً. إنك تسيئين إلى نفسك، هذا ماأعني...».

هي (تقاطعه): «سيكون كل شيء مختلفاً إذا تزوجتك، هل هذا ما تقصد أن تقوله؟».

هو: «ليس تماماً. فالمسيح نفسه يعرف أنه لن يكون فراشاً من الورود. لكن يمكنني على الأقل أن أعيلك. يمكنني أن أضع حدّاً لهذا الاستجداء والاقتراض».

هي: «لو كنت تريد حقاً أن تحرّرني لما وضعت ثمناً لقاء ذلك».

هو: «لماذا نصف الأمر بهذه الطريقة. إنك لا تفترضين أبداً للحظة...».

هي: «أن نعيش حياة منفصلة؟»

يصل النادل حاملاً كأساً من كوكتيل الشمبانيا.

هو: «من الأفضل أن تعد كأساً أخرى فالسيدة ظمآنة».

هي: «هل يجب أن نعيد هذه المهزلة كلّ مرّة نلتقي فيها؟ ألا تظن أن ذلك أصبح مملاً بعض الشيء؟».

هو: «ليس بالنسبة لي. لم يتبق لدي أية أوهام. لكن هذه هي الوسيلة للتحدث معك. إني أفضّل أن أتحدث في هذا الموضوع على أن أتحدث عن المستشفيات والعجزة».

هي: «إنك لا تصدق ما أقوله لك، أليس كذلك؟».

هو: «أصدّق كل كلمة تقولينها لي ـ لأني أريد أن أصدّق. يجب أن أؤمن بشيء، إذا لم تكوني أنت فقط».

هي: «أنا فقط؟»

هو: «هيا، إنك تفهمين قصدي».

هي: «هل تعني أني أعاملك كمصّاصة دماء».

هو: «لا أستطيع أن أعبّر عنها بدقّة أكبر. شكراً لكِ».

هي: «كم الساعة الآن من فضلك؟».

ينظر روثيرميل إلى ساعة يده. إنه يكذب: «الساعة الثالثة وعشرون دقيقة تماماً». ثم، وبشيء من الذعر: «ستتناولين كأساً أخرى. لقد طلبت منه أن يعد لك كأساً أخرى».

هي: «احتسِه أنت، فلن يكون لدي وقت».

هو (مسعوراً): «هيه، أيها النادل، أين ذلك الكوكتيل الذي طلبته منذ ساعة؟» ينسى نفسه ويحاول أن ينهض عن مقعده. يتعثر ويجلس ثانية، كأنه منهك. «اللعنة على هذه الساق! سأكون أفضل حالاً لو وضعت قطعة خشبية. اللعنة على الحرب الداعرة الدامية! أعذريني، لقد نسيت نفسي».

ملاطفة له، تأخذ مونا رشفة من الكوكتيل، ثم تنهض بغتة. «يجب عليّ أن أذهب»، تقول. تمشي باتجاه الباب.

«انتظري دقيقة، انتظري دقيقة!» يصيح روثيرميل. «سأطلب لك سيارة أجرة». يضع محفظته في جيبه، ويعرج وراءها.

في سيارة الأجرة يدس المحفظة في يدها ويقول: «خذي ما تشائين، تعرفين أني كنت أمزح».

تأخذ مونا ببرود بضع أوراق من الدولارات وتعيد المحفظة إلى جيبه الجانبي.

«متى سأراك ثانية؟».

«عندما أحتاج إلى مزيد من المال، لا شك».

«ألا تحتاجين إلى شيء سوى المال؟».

يسود صمت. تسير السيارة عبر شوارع ويهاوكين المجنونة، التي تشكل العالم الجديد، حسب الأطلس، إلا أنها قد تبدو مثل بثرة صغيرة على كوكب أورانوس. هناك مدن لا يزورها المرء أبداً إلا في لحظات من اليأس ـ أو عندما يتغير القمر وعندما يصبح جهاز الغدد الصم بكامله في حالة من الخبل. فثمة مدن قام رجال من العالم من قبل عهد الطوفان بتخطيطها منذ دهور سحيقة وكان عزاؤهم أنهم يعرفون أنهم لن يقطنوها في حياتهم. وليس ثمة خلل في هذه الخطة التي تنطوي على مفارقة تاريخية للأشياء سوى حيوانات ونباتات من عصر جيولوجي مفقود. كلّ شيء مألوف، ومع ذلك فكل شيء غريب. وعند كل زاوية، يكون المرء مشوشاً.

روثيرميل، الغارق في اليأس، يحلم بحياة زاهية الألوان. يظل محامياً رغم أنه بساق واحدة. لم يكن يكره الألمان الذين تسببوا في بتر ساقه فحسب، بل كان يكره بني جلدته أيضاً. وقبل كل شيء كان يكره البلدة التي ولد فيها. يكره نفسه لأنه يشرب حتى الثمالة. يكره البشرية كلها والطيور والحيوانات والأشجار وأشعة الشمس. كلّ ما خلّفه من ماضٍ هو المال. وهو يكره ذلك أيضاً. يفيق من النوم كل يوم مبللاً ليبدأ حياته في العالم الفضي السريع. يتعامل مع الجريمة وكأنها سلعة، شأنها شأن الشعير والقمح والشوفان. ذات يوم كان يثب على الأرض مرحاً كقبّرة، أما الآن فهو يعرج خلسة، ويسعل، ويئن، ويصدر هسيساً. في صباح يوم المعركة القاتلة كان شاباً صغيراً مبتهجاً شجاعاً. وكان قد أباد ببندقيته الرشاشة وكراً من الألمان، وقُتل اثنان برتبة ملازم من فرقته، وكان على وشك أن

ينهب المطعم. في تلك الأمسية بالذات، كان طريحاً مضرجاً بدمه وينشج كطفل ـ لقد ولى عالم الرجال ذوي الساقين إلى غير رجعة؛ ولن يعود بوسعه أن ينضم إليهم مرة أخرى. وعبثاً راح يصرخ ويعوي مثل وحش. وعبثاً راح يصلي. وعبثاً أخذ ينادي أمه. لقد انتهت الحرب بالنسبة له ـ لقد أصبح أثراً من آثارها.

عندما رأى ويهاوكين ثانية، أراد أن يحبو إلى سرير أمه ويموت. طلب أن يرى الغرفة التي كان يلعب فيها عندما كان طفلاً. وراح ينظر إلى الحديقة من نافذة الطابق العلوي، وبيأس مطلق بصق عليها. حبس نفسه في الغرفة ورفض أن يرى أصدقاءه القدامى وأخذ يشرب. وتمرّ عصور وهو يروح ويجيء على نسيج الذاكرة. وكانت ثروته ضمانته الوحيدة. كانت أشبه بأن تقول لرجل أعمى أن بإمكانه الاتكاء على عكاز أبيض.

وبعد ذلك، وذات مساء، كان جالساً وحده إلى طاولة في إحدى الحانات في حي الفيليج، تقترب منه امرأة وتعرض عليه إحدى تلك الصور النحاسية ليقرأها. يدعوها للجلوس. يطلب لها وجبة طعام. ينصت إلى قصصها. ينسى أن له طرفاً اصطناعياً، ينسى أنه كانت هناك حرب. وعلى حين غرة يشعر أنه يقع في غرام هذه المرأة. لم يكن بحاجة لأن تحبّه، بل كل ما يحتاجه هو أن تكون بقربه. فقط إذا وافقت على أن تراه بين الحين والآخر، لدقائق قليلة فقط، عندها سيكون للحياة طعم مرة أخرى.

هكذا كان يحلم روثيرميل. ينسى كل المشاهد التي تمزق نياط القلب، والتي لطّخت هذه الصورة الجميلة. إنه مستعد لأن يفعل أيّ شيء من أجلها، حتى الآن.

والآن دعونا نترك روثيرميل لبعض الوقت. لندعه يحلم وهو في سيارة الأجرة فيما العبّارة تهدهده بلطف على صدر نهر هدسون. سنلتقي به مرة أخرى، على شواطئ مانهاتن.

في الشارع الثاني والأربعين تندفع مونا إلى محطة المترو

لتعود وتظهر بعد بضع دقائق في ساحة شريدان. وهنا يبدأ مسارها يأخذ طابعاً عصبياً حقاً. فإذا كانت صوفياً وهي ما تزال ترتدي حذاءها ذا الكعب العالي، فإنك ستجد في حقيقة الأمر صعوبة في متابعتها. إن حي الفيليج شبكة من المتاهات التي شكّلتها أحلام اليقظة المتموجة للمستوطنين الهولنديين الأوائل. إذ يجد المرء ذاته وجهاً لوجه مع ذاته عند نهاية شارع ملتو. هناك أزقة، ودروب، وأقبية وغرف عليا، ومربعات، ومثلثات، وساحات، كلّ شيء متنافر ومحيّر: ولا ينقصها سوى جسور ميلووكي. بعض بيوت الدمى، المحشورة بين المباني المتجهّمة والمصانع السقيمة، تغفو في فراغ من الزمن الذي لا يمكن وصفه إلا من حيث العقود. وينضح الماضي الحالم الغافي من الواجهات، أسماء الشوارع الغريبة، من المقياس الصغير الذي قدمه الهولنديون. فالحاضر يعلن عن نفسه في نداءات حادة لفتيان الشارع، في الزئير المكتوم لحركة المرور التي لا تهز الثريات فقط، بل الأساسات ذاتها تحت الأرض. ويسود كلّ شيء امتزاج الأجناس، والألسنة، والعادات. إن الأمريكيين الذين تجمعوا في زمر وفئات، هم بعيدون عن المركز، سواء كانوا مصرفيين، أو سياسيين، أو قضاة، أو بوهيميين أو فنانين أصيلين. كلّ شيء مزيّف وفظّ ورخيص وبخس. إن ميني دوتشيباج لا يختلف في شيء عن السجّان عند الناصية. أما الإخاء كما يحدث الآن، فهو في القعر. فكلّ شخص يحاول أن يبدو أنه في الموقع الأكثر إثارة في المدينة. إنه الحي الذي يعج بالناس؛ يصطدمون ببعضهم كالبروتونات والإلكترونات، دائماً في عالم ذي خمسة أبعاد أساسه الفوضى.

هذا هو العالم الذي كانت تعيش فيه مونا بكليتها في البيت. ففي كل خطوة تخطوها كانت تصادف شخصاً تعرفه. فهذه اللقاءات تشبه إلى حد كبير النمل وهو يصطدم ببعضه أثناء انهماكه في العمل. والحديث بينهم يدور عن طريق الهوائيات التي تدور بشكل مسعور. حدث هيجان مدمر للتو في كثيب النمل؟ ارتقاء الدرج والهبوط منه، التحيات، المصافحات، حك الأنوف، الإيماءات

الوهمية، النقاش، التجشؤ والتقيؤ، الانبعاث الجوي، ارتداء الثياب وخلعها، الهمس، التحذيرات، التهديدات، الاستعطاف، الحفلات التنكرية ـ كل ذلك يجري بأسلوب الحشرات، وبسرعة لا يمكن إلا للحشرات أن تقوم بها. حتى عندما يكسو الثلج حي الفيليج، فلا يتوقف عن الحركة والهياج. ومع ذلك، لا ينم ذلك عن أي شيء ذي أهمية. في الصباح لا شيء سوى الصداع، هذا كل ما في الأمر.

إلا أنه في بعض الأحيان، وفي أحد تلك البيوت التي لا يشاهدها المرء إلا في الحلم، يعيش مخلوق خجول، شاحب، عادة من الجنس المريب، يعود إلى عالم دو مورير، أو تشيخوف أو ألين فورنير. وقد يكون الاسم ألما، أو فريدريكا، أو أورسولا، أو مالفينا، اسم ينسجم مع الخصلات الكستنائية، شكل يعود إلى ما قبل الرافائيلية، عيون من بلاد الغال. مخلوق قلما غادر المنزل، ومن ثم لا يتحرك إلا في ساعات الصباح الأولى.

نحو هذه الأنواع تنجذب مونا حتى الموت. صداقة سرية تغلف علاقتها كلها بالغموض. تلك المهمات التي تبهر الأنفاس تقودها عبر تلك الشوارع التي تجري فيها السواقي، لا لهدف إلا لشراء دزينة من بيض الإوز الأبيض. لا ينفع نوع آخر من البيض. وفي طريقها قد يخطر لها أن تفاجئ صديقتها الملائكية بأن تشتري لها حجراً كريماً ذا نقش قديم بنفسجي اللون، أو كرسياً هزازاً من تلال داكوتا، أو علبة نشوق برائحة الصندل. الهدية أولاً ثم بضع أوراق نقدية صادرة حديثاً من دار سك النقود. تصل منقطعة الأنفاس وتغادر منقطعة الأنفاس، كأنها بين قصف الرعد. حتى روثيرميل لن يشك بالسرعة التي يتبخر فيها ماله. كلنا يعرف، أن من يحيّيها في نهاية يوم محموم، هو ذلك الذي تمكّن من شراء بضعة أشياء من البقالية، ويمكنه أن ينفق عليها شيئاً من المال. وعلى أطراف بروكلن نتحدث عن القروش، التي هي في الصين «النقد». وكالأطفال نلعب بقطع البنسات الخمسة والبنسات العشرة. أما الدولار فلا يستخدم إلا في الأوساط المالية العليا...

مرة واحدة فقط أثناء إقامتنا مع البولونيين، غامرنا أنا وستانلي وخرجنا معاً. وكان ذلك لمشاهدة فيلم عن رعاة البقر كان فيه خيول برية غير عادية. وتذكّر ستانلي أيامه في سلاح الفرسان، كان في غاية الحماس إلى درجة أنه قرّر ألّا يذهب إلى العمل في ذلك المساء. وخلال وجبة الطعام، راح يقص عليّ قصصاً، وكانت كل قصة مفعمة بالحساسية والرومانسية. وفجأة تذكّر المراسلات الكثيرة التي كنا نتبادلها عندما كنا في سن المراهقة.

بدأ كل شيء في ذلك اليوم في «شارع الأحزان المبكرة»، حيث كان جالساً في العربة بجانب الحوذي. (فبعد وفاة عمه، تزوجت عمّة ستانلي حانوتياً، بولونياً أيضاً). وكان على ستانلي دائماً أن يرافقه في عمليات الدفن. كنت أقف في منتصف الشارع، ألعب لعبة القطة، عندما مرّ الموكب الجنائزي. كنت متأكّداً أن ستانلي هو الذي لوّح لي، ومع ذلك لم أصدّق عيني. ولو لم يكن موكباً جنائزياً لجريت بجانب العربة وبادلته التحية. لكني لبثت واقفاً في مكاني، أراقب الموكب وهو يتلاشى ببطء حول الناصية.

كانت هذه الأفكار تطفو إلى السطح دائماً عندما أغادر المنزل لأتمشى. وعلى مسافة غير بعيدة من بيت ستانلي كان يقبع عالم يشبه كثيراً العالم الذي عرفته في طفولتي. وكانت تمر عبره قناة سوداء بلون الحبر تفوح من مياهها الراكدة روائح كريهة أشبه برائحة عشرة آلاف من الخيول النافقة. وكانت تحيط بالقناة حارات ملتوية، شوارع ملتفة، ما تزال مرصوفة بالحصى، وأرصفة بالية تحفها أكواخ حقيرة خُلعت مفصلات مصاريع نوافذها، يتولّد لديك الانطباع بعد ذلك، بأنها أحرف عبرية ضخمة. وقد امتلأ الشارع بقطع من الأثاث والخردوات والأدوات من كل نوع. هامش من هوامش العالم الحضاري.

في كل مرة كنت أقترب فيها من حدود هذا العالم القزم، كنت

أعود ذلك الصبي ذا العشرة أعوام. وكانت تزداد أحاسيسي حدّة، وتغدو ذاكرتي أكثر حيوية، ويزداد جوعي. كان بإمكاني أن أتحدث مع الذات التي كنتها ذات يوم، ومع النفس التي صرتها. من كان ذلك الشخص الذي يمشي ويشم ويستكشف، لا أعرف. ولا ريب أني كنت غير نهائي. هل قدم لي رشوة لأشهد زوراً في المحكمة العليا... في هذه النشوة. كان ستانلي يبدو دائماً رقيقاً. كان الرفيق الخفي الذي كنت أفضي إليه بتلك الأفكار اليرقانية التي تستعصي على التعريف. مهاجر، يتيم، منسي ـ كان يتألف من هذه المكونات الثلاثة. لقد فهم أحدنا الآخر لأننا كنّا على طرفي نقيض. فما كان يحسده كنت أقدمه له بعزة نفس؛ وما كنت أشتهيه كان يلقمني إياه من منقار جيفته. كنا نسبح مثل سمكتين سياميتين على سطح بحيرة الطفولة الأخضر الباهت. لم نكن نعرف من هو حامينا. كنت نشعر بالبهجة في حريتنا المتخيلة.

الشيء الذي كان يفتنني كطفل ما زال يفتنني حتى يومنا هذا، وهو المجد والعجائبي. كانت هناك أيام عطرة في مرحلة الطفولة عندما، ربما بسبب تأخر الزمن الكبير، يخرج المرء إلى عالم يغفو. وهو ليس عالم البشر، ولا هو عالم الطبيعة الغافية ـ إنه عالم الأحجار والمعادن والأجسام الجامدة. عالم جامد آخذ في النمو... وبعيون الطفولة البطيئة الحركة يراقب المرء لاهثاً، فيما تكشف مملكة الحياة الكامنة دقات نبضها ببطء. ويدرك المرء وجود تلك الإشعاعات المخفية التي تنبثق بشكل دائم من أجزاء الكون القصية، والتي تشعّ من الإنسان وكذلك من الكون. «كما هو الحال فوق، هو تحت». وفي ومضة عين ينفصل المرء عن عالم الواقع المادي الوهمي؛ وبكلّ خطوة يضع المرء نفسه مرة أخرى على مفترق طرق هذه الإشعاعات المركزية التي هي الجوهر الحقيقي لواقع شامل ومتغلغل. فليس للموت معنى. والأمر كله عبارة عن تغيير واهتزاز وخلق وإعادة خلق. أغنية العالم، مسجلة في كلّ جزيئة من جزيئات المادة الخادعة التي تدعى الجوهر، تنبعث بانسجام غير مستوي،

الذي يرشح من خلال الكائن الملائكي القابع خاملاً في صدفة المخلوق الطبيعي الذي يدعى الإنسان. وما أن يهيمن الملاك، يزهر الكائن الجسدي. وفي العوالم كلها تتبرعم الزهرة بهدوء ومثابرة.

لماذا إذن، تحب الملائكة، التي نربطها بغباء بالفضاءات الواسعة بين النجوم، كلّ شيء صغير؟

حالما أصل إلى ضفاف القناة، حيث يقبع عالمي المنمنم منتظراً، يسيطر الملاك. لم أعد أتفحص العالم بدقّة ـ فالعالم يقبع في داخلي. أراه بوضوح شديد بعينين مغمضتين كما أراه بعينين مفتوحتين على وسعهما. افتتان، لا سحر. استسلم، والنعمة التي ترافقك تستلم. فقد تغيرت الأشياء التي كانت خراباً، وانحلالاً. فعين الملاك المتناهية في الصغر ترى الأجزاء اللانهائية التي تشكّل السماوي كله؛ إن عين الملاك البعيدة النظر لا ترى سوى الكمال، الذي هو المثالي. في أعقاب الملاك هناك عوالم فقط لينظر المرء إليها ـ الحجم لا يعني شيئاً.

عندما ينظر الإنسان، بإحساسه التافه بالنسبية، من خلال المنظار ويعجب بضخامة الخلق، فإنه يعترف بأنه نجح في تحويل اللامحدود إلى المحدود. إنه يرى، إذا جاز القول، عظمة لا حدود لها للخلق الذي لا يسبر غوره. فماذا يهمّ إن هو نجح في وضع ألف كون ضمن بؤرة منظاره التلسكوبي؟ فعملية التكبير لا تزيده إلا إحساساً بالتناهي في الصغر. لكن الإنسان يشعر بالراحة أكثر لكونه ضئيلاً، أو أنه يتظاهر بذلك، عندما يكشف ما يكمن وراء حدوده. إن الفكرة بأن الكون الذي يعيش فيه قد لا يكون أكبر من كريات دموية دقيقة، تجعله يشعر بالنشوة، تهدّئ من ألمه البائس. إلا أن استخدامه للعين الاصطناعية، مهما كانت درجة تضخيمها، لا تجلب له البهجة أبداً. فكلما كانت رؤيته المادية أعظم، ازداد وجلاً وخشية. إنه يفهم رغم أنه يرفض التصديق، بأنه بهذه العين، لن يخترق لغز الخلق، أو يشارك فيه على أقل تقدير. وليدخل ثانية إلى العالم الغامض الذي

نشأ منه، يدرك، بطريقة غامضة، مبهمة، أنه بحاجة إلى عيون أخرى.

بعين ملائكية ينظر الإنسان إلى عالم جوهره الصحيح.

هذه العوالم الصغيرة، حيث الكلّ غارق، صامت، ومتحول، لا تظهر هكذا في أغلب الأحيان في الكتب. فقد أحدثت فيّ قراءة صفحة واحدة من كتاب هامسن، ذاتَ التناغم الغامض من السحر والافتتان وأنا أسير بمحاذاة القناة. ولوهلة، ينتاب المرء الدوار ذاته، كما يحدث عندما يغادر السائق عربته هارباً ويترك المحرّك يهدر. الاستسلام مرة أخرى. الاستسلام للفتنة التي تجعل المؤلف غير مجدٍ. وعلى الفور، يتباطأ إيقاعه. يتوانى أمام التراكيب الشفوية التي تخفق كالبيوت الحيّة. ويعرف المرء أن شخصاً ما لم يُر من قبل، ولن يُرى بعد ذلك، سيظهر أحدهم ويستحوذ على كل شيء. قد تكون شخصية بارزة غير ضارة كصوفي. قد تهيمن على كل شيء بيضة إوزة بيضاء كبيرة. وقد يصبح الحوار محض هراء. وقد أوضح المؤلف أنه غائب. ويصبح القارئ وجها لوجه أمام رياضة ملائكية. سيعيش هذا المشهد، هذه اللحظة الطويلة، مراراً وتكراراً، وبإحساس حادٍ بالحقيقة على حافة الهلوسة. شارع صغير فقط ـ لعله لا يبعد أكثر من شارع. حدائق صغيرة يقوم على رعايتها أقزام. شمس مشرقة دائماً. وتذكّرت الموسيقى، تخفت حتى تمتزج بطنين الحشرات وحفيف الأوراق. البهجة، البهجة، البهجة. الوجود الودي للزهور، للطيور، للأحجار التي حافظت على سجل الأيام السحرية المماثلة.

أفكر بهامسن لأني شاطرت ستانلي في أغلب الأحيان هذه الخبرات الاستثنائية. إن حياتنا الغريبة، المتنافرة في الشارع، عندما كنا صبية، جعلتنا مستعدين لهذه اللقاءات الغامضة. بطريقة مجهولة مارسنا شعائر التلقين الملائمة. كنا، دون أن نعرف ذلك، عضوين في تلك الجمعية التقليدية السرية التي تنفث في فترات

مناسبة أولئك الكتاب الذين سيُدْعون فيما بعد بالرومانسيين، أو الصوفيين، أو الحالمين أو عبدة الشيطان. ولأمثالنا كُتبت بعض المقاطع الغريبة ـ كنا آنذاك كائنات جنينية مجردة ـ فنحن الذين نبقي هذه الكتب حيّة، المهددة دائماً بأن تصبح في طي النسيان. كنا نكمن، مثل وحوش مفترسة، للحظات من الحقيقة التي لن تجارى فقط، بل وستؤكد وتجزم بقوة، هذه الروعة الأدبية. ننمو مثل لولب لفتح سدادة القنينة، نفقد توازننا، نغمض أعيننا نصف إغماضة ونتلعثم في سعي عقيم لكي نكيّف عالمنا مع العالم القائم. فينا ينام الملاك نوماً خفيفاً، مستعداً عند أقل هزّة لاتخاذ زمام القيادة. لايعيدنا إلى عالمنا إلا حلم اليقظة الفردي. فقط عندما ننفصل بقسوة، نتصل ببعضنا بعضاً.

في أغلب الأحيان نتواصل في الأحلام... أجد نفسي في شارع مألوف أبحث عن منزل معيّن. وما أن تطأ قدمي هذا الشارع، حتى يبدأ قلبي يدق بعنف. ورغم أني لم أر الشارع أكثر ألفة، أكثر أهمية من أيّ شارع عرفت. إنه الشارع الذي أعود فيه إلى الماضي. كلّ منزل، كلّ شرفة، كلّ بوابة، كلّ مرج، كلّ حجارة أو عصا أو غصين أو ورقة تتحدث ببلاغة. إنّ الإحساس بالإدراك المكوّن من طبقات لاتعد ولا تحصى للذاكرة، تكون من القوة بحيث أكاد أذوب.

ليس للشارع بداية ولا نهاية. لأنه جزء مفصول يسبح في هالة ضبابية وتامّة في حد ذاتها. جزء حيوي من الأزل كله. رغم عدم وجود أيّ نشاط في هذا الشارع، فهو ليس فارغاً أو مهجوراً. في الواقع، هو الشارع الأكثر حيوية الذي يمكنني أن أتذكره. إنه مفعم بالذكريات، مثل بستان غامض يتبرعم بأسراب من المضيفين المخفيين. لا يمكنني أن أقول أنني أتمشى في هذا الشارع، ولا يمكنني أن أقول أيضاً إني أنسل من خلاله. الشارع يغمرني. يلتهمني. لعله لا توجد إلا في عالم الحشرات أحاسيس تجاري هذا الشكل الفظيع من النعمة. أن يأكل المرء فهذا شيء رائع، أما أن

تؤكل فهي متعة تفوق الوصف. لعلها نوع آخر ينبض بالحياة من الاتحاد بالعالم الخارجي. نوع معكوس من تبادل الأفكار.

إن هذه الطقوس تنتهي دائماً النهاية ذاتها. بغتة أدرك أن ستانلي ينتظرني. لا يقف عند نهاية الشارع، لأنه لا توجد نهاية له... يقف عند تلك الحافة الضبابية حيث يندمج الجوهر والضوء. دعوته دائماً مقتضبة وعنيفة: «تعال، لنذهب!» بغتة أكيّف سرعتي مع سرعته. *إلى الأمام* سر! الشارع المحبوب ينساب بهدوء حولي، مثل قرص دوّار يحركه عامل غير مرئي، وما أن نصل إلى الناصية، يندمج بهدوء وإصرار مع الشوارع المتقاطعة التي تشكّل نمط منطقة طفولتنا. ومن هنا، يصبح استكشافاً للماضي، لكنه ماض مختلف عن ماضي ذلك الشارع التذكاري. فهذا الماضي حيوي، مفعم بالأشياء التذكارية، لكنها أشياء تذكارية تغوص في العمق فقط. أما الماضي الآخر، فهو عميق جداً، سلس جداً، متألق جداً، لا فرق بينه وبين الحاضر والمستقبل. إنه سرمدي، وإذا تكلمت عنه كماضٍ، فلأقترح فقط العودة إليه وما هي حقاً بعودة، بل استعادة. إذ تسبح السمكة عائدة إلى منبع كينونتها.

حين تبدأ الموسيقى غير المسموعة بالعزف، يتأكد المرء أنه مايزال حياً.

إن دور ستانلي في النصف الثاني من الحلم هو لتأجيج اللهب. أستأذنه عندما يكون قد وضع كل الشعيرات الذاكرية في حالة تأهب. هذه الوظيفة، التي يؤديها بدهاء فطري، قد تُشبَّه بذبذبات إبرة البوصلة المرتعشة. يقودني إلى الطريق، طريق متعرّج ملتو، لكنه مشبع بالذكريات. كالنحل ننتقل من زهرة إلى زهرة. عندما نستخلص حصتنا من الرحيق نعود إلى قرص العسل. عند المدخل أستأذنه، أغوص في مدار الانسلاخ. أذناي تدويان بدندنة واسعة. الذاكرة كلها مخنوقة. أغوص في عمق تيه الصدفة، آمناً وحياً كجزيئة الطاقة العائمة في بحر النور. إنه النوم العميق الذي يعيد

الروح. عندما أصحو أولد من جديد. اليوم يمتدّ أمامي مثل مرج مخملي. لا أتذكّر شيئاً. أنا قطعة من عملة معدنية مسكوكة حديثاً وعلى أهبة للسقوط في كف أول قادم.

في مثل هذا اليوم أنحو لأن أُجري إحدى تلك اللقاءات العشوائية التي ستغير مسار حياتي. الغريب القادم نحوي يحيّيني كصديق قديم. نتبادل بضع كلمات فقط ولغة الاختزال الحميمة للأخوة القدماء التي تحل محل اللغة الاصطلاحية الحالية. الاتصال غامض وملائكي، يتم بسهولة وبسرعة أصم أبكم. بالنسبة لي ليس لها إلا معنى واحد ـ لإعادة التوجيه. إذ إن تغيير مسار حياتي، كما قلت من قبل، يعني ببساطة ـ *تصحيح موقعي الفلكي*. أما الغريب، القادم حديثاً من العالم الآخر، فهو يحذرني. أصلي صلواتي الحقيقية. أقطع مساحة جديدة عبر عوالم القدر. وبينما يتأرجح الحلم بهدوء ويعود إلى مكانه، أتحرّك الآن بحيوية. إنّ البانوراما التي أتحرك فيها رهيبة ومهيبة. مشهد من جبال التيبت يومئ إليّ بأن أتقدم. لا أعرف إن كان من خلق العين الداخلية، أو اضطراباً من العالم الخارجي يناغم ذاته مع إعادة التوجيه العميقة التي أحدثتها للتو. لا أعرف إن كنت أشعر بالوحدة أكثر من أي وقت مضى. فكل شيء سيحدث الآن سينطوي على الصدمة والاكتشاف. إني لست وحدي. *أنا وسط* معزولين آخرين. ويتكلم كلّ منا لغته الفريدة! إنه أشبه بالتقاء آلهة بعيدة، كل واحد متدثر بهالة عالمه الغامض الذي لا يسبر أغواره. إنه اليوم الأول من الأسبوع في دورة الوعي الجديدة. إنها دورة، إن جاز لي القول، قد تدوم أسبوعاً أو مدى الحياة. *إلى الأمام، أقول. هيا بنا. لقد وصلنا.*

8

كان ماكسي شناديج هو الذي عرفنّي على كارين لانجرين قبل بضع سنوات؛ ولا يمكنني أن أتخيل بأي شكل من الأشكال، ما الذي يمكن أن يجمع بين هذين الشخصين. إذ لم تكن تجمعهما أية أرضية مشتركة، لا شيء البتة.

كان كارين لانجرين سويدياً درس في أكسفورد، حيث لفت إليه الانتباه بسبب مهارته الرياضية العالية، وتفوقه الدراسي النادر. كان عملاقاً ذا شعر أشقر مجعّداً، لطيفاً، حلو الكلام وشديد التأدب. وكان يجمع بين غرائز النمل والنحل وكلب الماء. عنيد، منظّم، مجتهد مثل كلب البولدغ، ومهما كان العمل الذي بين يديه، فإنه يقوم به بأقصى ما بوسعه. وعندما يلعب كان لعبه بذات الجدية التي يعمل بها. كان شغوفاً بالعمل. وكان بإمكانه أن يعمل وهو واقف، جالس، أو مستلق على السرير. ومثل جميع العمال المجدّين، كان كسولاً في قرارة نفسه. وكان حينما يتهيأ للقيام بأي شيء، كان عليه أن يبتكر أولاً الوسائل والسبل للقيام بها بأدنى جهد. وغني عن القول أن التفكير بهذه الأمور كان يستنفد منه وقتاً وجهداً كبيرين، إلا أنه كان يشعر بالمتعة وهو يبذل جهداً كبيراً في استنباط تلك الأساليب. وباختصار كانت الكفاءة ملازمة لاسمه، فهو لم يكن سوى أداة سيّارة، ناطقة، توفّر الوقت.

ومهما كان الموضوع بسيطاً، كان كارين يعقّده. وكان لي

نصيب جيد من أطواره الغريبة عندما عملت مساعداً له في مكتب للبحوث الأنثروبولوجية منذ سنوات. فقد لقنني مبادئ نظام فهرسة عشري غريب التعقيد، مما جعل نظام ديوي يبدو كلعبة من لعب الأطفال. فبنظام كارين، كان بوسعنا أن نقوم بفهرسة أيّ شيء تحت الشمس، بدءا من زوج جوارب من الصوف الأبيض وانتهاء بالبواسير.

أقول إنه انقضت سنوات عديدة منذ أن رأيت كارين آخر مرة. وكنت أعتبره دائماً غريب الأطوار، لا يكنّ احتراماً لذكائه الذي يتبجح به، ولا لمهارته الرياضية العالية. مملّ ومجدّ، كانت هاتان هما الميزتان الرئيسيتان اللتان يتصف بهما. ومن حين لآخر كان يستغرق في ضحكة من القلب. فقد كان يضحك بحماس شديد، ودائماً في الوقت أو للسبب غير المناسبين. وكان قد درّب نفسه على هذه القدرة على الضحك، على النحو الذي نمّى عضلاته في السابق. إنه مهووس بأن يعرف كلّ شيء. كان لديه هذا الهوس، لكن لم تكن لديه الموهبة لذلك.

أعرض هذه الصورة المقتضبة عنه، لأنه اتفق لي أن بدأت العمل معه مرة أخرى، ورحت أعمل لحسابه، أنا ومونا أيضاً. أخذنا نعيش جميعنا في كوخ بناه هو بنفسه على الشاطئ في فار روكواي،. ولكي أكون أكثر دقة، لم يكن البيت كامل البناء، ولهذا السبب كنا نقيم فيه. كنا نعمل بدون تعويض، قانعين بغرفة وطعام مع كارين وزوجته. كانت هناك أمور كثيرة يجب إكمالها. أمامنا عمل كثير. وكان العمل يبدأ من اللحظة التي أفتح فيها عيني، إلى أن أسقط من الإعياء.

لنرجع إلى الوراء خطوة واحدة... فقد كانت مصادفتي لكارين في الشارع نعمة من الله علينا. فعندما ظهر لنا كنا مفلسين تماماً ولا نملك شروى نقير. وكما ترون، فقد أخبرنا ستانلي، ذات مساء، وهو خارج إلى العمل، أنه ضاق ذرعاً بنا. وأنه علينا أن نحزم

أشياءنا ونخرج فوراً. وعرض علينا أن يساعدنا في حزم أمتعتنا وأن يرافقنا إلى محطة قطار الأنفاق. لم ينبس أحدنا بكلمة. بالطبع كنت أتوقّع أن يحدث شيء من هذا القبيل في أيّ يوم. لم أتضايق منه على الإطلاق، بل بالعكس، فقد اعتراني السرور بذلك.

عند مدخل محطة قطار الأنفاق سلّمنا الحقائب، ووضع في يدي عشرة بنسات، أجرة الركوب، ودون أن يصافحني، استدار فجأة وابتعد مسرعاً. حتى أنه لم يودعنا. دخلنا قطار الأنفاق بالطبع، لا نعرف ماذا سنفعل، واستقلينا القطار. ركبنا ذهاباً وإياباً مرتين أو ثلاث مرات محاولين أن نقرر ما هي الخطوة التالية. أخيراً خرجنا عند ساحة شريدان. لم نكد نسير بضع خطوات، حتى رأيت مندهشاً كارين لانجرين. بدا مسروراً على نحو غير عادي لأنه وجدني ثانية. ماذا كنت أفعل؟ هل تناولنا طعام العشاء بعد؟ وما إلى هناك من هذه الأسئلة.

رافقناه إلى شقته التي كان يدعوها شقة المدينة، وبينما راحت زوجته تعد وجبة طعام انتابنا شعور بالراحة. وقد ازداد إحساسه بالسعادة عندما أخذ يستمع إلينا نحكي عن ظروفنا. «إن طلبك عندي يا هنري»، قال ببهجته المعتادة الخالية من أي إحساس. وبدأ على الفور يوضح طبيعة عمله، الذي بدا لي كالرياضيات العليا، وفي هذه الأثناء، راح يقدم لنا الكوكتيل وسندويشات الكافيار. وعندما بدأ حديثه اعتبر أني سأوافق على مشروعه دون مناقشة. ولأجعل الأمر يبدو أكثر أهمية، ادّعيت بأني سأفكّر في الموضوع، وبأنه لديّ أشياء أخرى تجول في ذهني. وبالطبع فقد زاده هذا إثارة وحماسة.

«ابقيا عندنا هذه الليلة» قال متوسلاً، «وقل لي رأيك في الصباح».

وقال إنه بالإضافة إلى عملي كسكرتير وضارب آلة كاتبة، ربما احتاج إلى مساعدتي في بناء البيت. وحذّرته بصراحة بأني لم

أكن أجيد استخدام يديّ، لكنه اعتبر ذلك أمراً غير ذي أهمية. فمن العبث أن يكرس المرء بضع ساعات ليقوم بأعمال يدوية وضيعة بعد العمل العقلي. ودعا ذلك نوعاً من الاستجمام. فبالإضافة إلى وجود الشاطئ: حيث سيكون بوسعنا أن نسبح، ونلعب الكرة، وربما نمارس قليلاً من التجذيف بالقارب. وفي إشارة عابرة ذكر مكتبته، ومجموعة الأسطوانات التي يمتلكها والشطرنج، وكأنه يلمح إلى أنه ستتوافر لنا جميع ضروب الرفاهية التي قد تتوافر في نادٍ من الدرجة الأولى.

ومن الطبيعي أبلغته في الصباح بأني موافق. وكانت مونا متحمسة. ولم تكن تعتريها الرغبة في مساعدة زوجة كارين فقط، بل كانت متلهفة أيضاً لمساعدتها في القيام بالأعمال الشاقة. وقلت في نفسي «حسناً، لا ضير من المحاولة».

ذهبنا بالقطار إلى فار روكواي. وخلال الرحلة كلها لم يتوقف كارين عن الحديث عن عمله. وعلمت أنه كان منهمكاً في تأليف كتاب عن الإحصاء. وفي رأيه سيكون مساهمة فريدة في الموضوع. فالبيانات التي جمعها كانت هائلة، هائلة جداً إلى درجة أنني ذعرت حتى قبل أن أحرك إصبعي. وبطريقته المألوفة، كان قد جهّز نفسه بجميع الأدوات والوسائل، آلات طمأنني أنني سأستوعبها خلال فترة قصيرة جداً، وكان إحداها جهاز الإملاء الصوتي. فقد شرح لي أنه وجد من الملائم أن يملي على الجهاز، الذي هو أداة غير شخصية أكثر مما يملي على سكرتيرة. وبالطبع كانت هناك أوقات يشعر فيها أنه مدفوع ليملي مباشرة، وفي هذه الحالة يمكنني أن أطبع ما يمليه على الآلة الكاتبة. وأضاف: «لا تقلق بشأن التهجئة». ويجب أن أقول أنه انقبض صدري عندما سمعت بجهاز الإملاء الصوتي. لكني لم أفه بكلمة، بل ابتسمت فقط وتركته ينتقل من موضوع إلى آخر.

الشيء الذي نسي أن يخبرنا به هو البعوض.

كان هناك مخزن صغير، لا يتسع إلا لسرير يصدر صريراً، قال

إنه المكان الذي سننام فيه. وما أن رأيت الشبكة فوق السرير، حتى عرفت في الحال ما سنواجهه. لقد بدأ كل شيء في الحال، منذ الليلة الأولى. لم يغمض لنا جفن. أما كارين فقد حاول أن يحيد عن الموضوع بالسخرية وحثنا على أن نتحمل مدة يوم أو يومين حتى يسويّ الأمر. حسناً، قلت في نفسي. ياله من رجل محترم. جنتلمان حقيقي من أكسفورد! لكن لم يغمض لنا جفن في الليلة الثانية أيضاً، رغم الشبكة التي كانت توفر لنا الحماية، ورغم أننا طلينا أنفسنا بالزيت كما يفعل السباحون الذي يعبرون القناة البريطانية. وفي الليلة الثالثة، أحرقنا خشباً جافاً وبخوراً صينياً. وعند مطلع الفجر غفونا، بعد أن أصابنا الإعياء، وأتلفت أعصابنا. وحالما أشرقت الشمس، غططنا في النوم.

وبعد أن تناولنا طعام الفطور في ذلك الصباح، قال كارين إنه يجب أن نبدأ العمل بجد وحماس. وانتحت زوجته مونا جانباً لتشرح لها واجباتها. واستغرق كارين الصباح كله تقريباً ليشرح لي آلية مختلف الأدوات التي قال إنها لا تقدر بثمن من أجل عمله. فقد كان هناك جبل حقيقي من السجلات المكوّمة التي كان عليّ أن أنسخها على الآلة الكاتبة. أما بالنسبة للمخططات والرسوم البيانية، والمساطر، والبوصلات والمثلثات، والمساطر الحاسبة، ونظام التصنيف، وآلاف التفاصيل فقد كان عليّ أن أتعرف إليها، والتي يمكنها أن تنتظر بضعة أيام. كان عليّ أن أخفف من حجم كومة السجلات، ثم إذا كان مايزال هناك ضوء كاف، كان عليّ أن أساعده على سطح البيت.

لن أنسى ما حييت ذلك اليوم الأول الذي تعاملت فيه مع جهاز الإملاء (الدكتافون) ذاك اللعين. فقد خيل لي أني سأفقد عقلي. كان مثل تشغيل آلة خياطة ولوحة مفاتيح في وقت واحد. فقد كان عليّ أن أستعمل يدي وقدميّ وأذنيّ وعينيّ في آن معاً. ولو كان بوسعه لجعلني أكنس الغرفة في الوقت نفسه. وبالتأكيد لم تكن الصفحات

العشر الأولى ذات معنى. إذ لم أدوّن الأشياء خطأ فحسب، بل نسيت جملاً كاملة، وبدأت بطباعة جمل أخرى في وسطها أو قريب منها. تمنيت لو أنني احتفظت بنسخة من عمل اليوم الأول ذاك - لكانت شيئاً يمكنك أن تضعه في مصاف الهراء الذي تكتبه جيرترود ستاين. وحتى لو كنت قد طبعتها بشكل صحيح، فلم يكن للكلمات معنى كبير بالنسبة لي. إذ بدت المصطلحات كلها، إن لم نتحدث عن أسلوبه المتثاقل، المتخشب، غريبة تماماً بالنسبة لي. وكان من الأجدر أن أقوم بكتابة أرقام الهواتف.

أما كارين، فكان رجلاً يتحلى بالصبر والمثابرة اللانهائية، مثل رجل اعتاد على تدريب الحيوانات، وقد ادعى أن عملي لم يكن سيئاً إلى هذه الدرجة. بل حاول أن يمازحني قليلاً، وهو يقرأ بعض الجمل السخيفة. قال: «تحتاج إلى بعض الوقت، لكنك ستتحسن». ثم قال بشيء من الوقاحة: «أنا حقاً أشعر بالخجل من نفسي لأني طلبت منك أن تقوم بعمل من هذا النوع يا هنري. فأنت لا تعرف كم أقدّر لك مساعدتك هذه. لا أعرف ماذا كان يمكنني أن أفعل لو لم تأتِ». وكان يتحدث كما لو أنه يعطيني دروساً في المصارعة اليابانية، التي كان من المفترض أنه معلم فيها. وكان بإمكاني أن أتصوّره وهو يرفعني بعد أن فتلني ولوح بي في الهواء، وهو يقول باهتمام: «آسف، أيها الرجل العجوز، لكنك ستتعلّم ذلك بعد بضعة أيام. لم أتمالك نفسي. هل أصبت بأذى شديد؟».

ما أردته أكثر من أيّ شيء آخر في تلك اللحظة هو الحصول على مشروب جيد. أما كارين فكان نادراً ما يشرب. فعندما يريد أن يسترخي، كان يستخدم طاقاته في نوع مختلف من العمل. كان شغوفاً بالعمل. إذ كان يعمل وهو نائم، وأعني هذا تماماً. فحين يخلد إلى النوم، كان يضع مسألة حسابية ويترك لعقله الباطن أن يحلها أثناء الليل.

كان أقصى شيء يمكنني أن أحصل عليه منه هو زجاجة

كوكاكولا. وحتى هذه لم يكن بوسعي أن أتمتع باحتسائها بسلام، فبينما كنت أرشفها باسترخاء، كان يشغل نفسه في شرح الأعمال التي سنقوم بها في اليوم التالي. وكانت طريقته في شرح الأشياء تثير حنقي وتضايقني أكثر من أيّ شيء آخر. فقد كان أحد أولئك البلهاء ممن يعتقدون بأن المخططات تجعل الأشياء أسهل للفهم. أما بالنسبة لي، فأيّ شيء على شكل مخطط أو رسم بياني، يعني تشويشاً واضطراباً لا أمل يرتجى منه. إذ كان عليّ أن أقف على رأسي لأتمكن من قراءة أبسط المخططات. وقد حاولت أن أقول له هذا، لكنه كان يصرّ على أنني لم أتعلم جيداً، وأني لو صبرت قليلاً، لتعلمت في وقت قصير كيف أقرأ المخططات والرسوم البيانية بسهولة. «إنها كالرياضيات»، قال لي.

«لكني أمقت الرياضيات»، قلت محتجاً.

«لا يجب على المرء أن يقول شيئاً كهذا يا هنري. فكيف يمكن للمرء أن يمقت شيئاً مفيداً؟ فالرياضيات ما هي إلا أداة أخرى لخدمتنا». وراح يسترسل في الكلام حتى الغثيان عن عجائب ومنافع علم ليس لدي أدنى اهتمام فيه. لكني كنت دائماً مستمعاً جيداً. واكتشفت للتو، خلال سحابة أيام قليلة فقط، أن إحدى الطرق لأضيع قليلاً من وقت العمل هي أن أشغله في مثل هذه المناقشات الطويلة. فقد جعله استماعي له بطيبة قلب شديدة، يشعر بأنه كان يغويني حقاً. ومن حين لآخر، كنت أطرح عليه سؤالاً، ليؤخر لبضع دقائق أخرى العودة الحتمية إلى الموضوع الرئيسي. وبالطبع، لم يحدث أي شيء حدثني به عن الرياضيات أدنى أثر عليّ. فقد كان يدخل من أذن ويخرج من الأذن الأخرى.

«أترى»، كان يقول، بجدية أولئك الحمقى، «إنها ليست معقّدة كما يخيل إليك. سأجعل منك عالم رياضيات في وقت قصير جداً».

في هذه الأثناء كانت مونا تحصل على نصيبها من التعليم في المطبخ. فطوال النهار كنت أسمع قرقعة الصحون. وكنت أتساءل

ماذا تفعلان هناك بحق السماء. إذ كانت تبدو مثل عملية التنظيف عند قدوم الربيع. وعندما أوينا إلى الفراش أعلمتني أن لوتا، زوجة كارين، كانت تترك الصحون القذرة تتجمع لمدة أسبوع. فعلى ما يبدو لم تكن تحب العمل المنزلي، لقد كانت فنانة. ولم يتذمر كارين أبداً. فقد كان يرغب في أن تكون فنانة ـ أي، بعد أن تكون قد أنهت أعمالها المنزلية وساعدته بكل طريقة ممكنة. أما هو فلم تطأ قدمه المطبخ. ولم يلحظ أبداً حالة الصحون أو السكاكين والملاعق والشوك، حتى لم يكن يلاحظ ما هو نوع الطعام الذي يقدم له. فقد كان يأكل بدون تلذذ، ليذكي الفرن فقط، وعندما ينهي طعامه، كان يدفع الصحون جانباً ويبدأ يرسم أشكالاً على مفرش المائدة، وإذا لم يكن هناك مفرش للمائدة، فكان يرسم على ألواح الخشب العارية. كان يفعل كل شيء بروية، وبتأن شديد، ما يكفي ليجعلني شديد الاهتياج. وحيثما كان يعمل، كانت هناك أوساخ وفوضى وركام من الأشياء غير الضرورية. فإذا أراد أن يصل إلى شيء كان عليه أولاً أن يزيل من أمامه دزينة من العوائق. وإذا كانت السكين التي يمسكها قذرة كان يمسحها ببطء بمفرش المائدة، أو بمنديله. دائماً بدون جلبة أو انفعال. كان دؤوباً، مثل كتلة جليدية تسير بشكل حثيث. وكانت توجد أحياناً في متناول يده ثلاث سجائر تحترق في وقت واحد. فلم يكن يكف عن التدخين، ولا حتى في السرير. وكانت أعقاب السجائر تتكوّم كروث الماشية. وكانت زوجته أيضاً مدمنة على التدخين، ولم تكن السيجارة تفارقها.

كانت السجائر شيئاً يتوافر منه الكثير. أما الطعام فكان مسألة أخرى. إذ كان الطعام شحيحاً وتوزع كميات قليلة جداً منه علينا. وكانت مونا، بالطبع، قد عرضت على أن تعفي لوتا من عبء الطهي، لكن لوتا رفضت ذلك رفضاً قاطعاً. وسرعان ما اكتشفنا سبب ذلك. فقد كانت بخيلة، وكانت تخشى أن تقوم مونا بإعداد وجبات دسمة يسيل لها اللعاب. لعنة الله عليها. إذ كانت السيطرة على المطبخ

وإعداد وليمة، الفكرة الرئيسية التي تشغل بالنا. وكنا ندعو الله دائماً أن يذهبا إلى المدينة لبضعة أيام لكي نهيمن على الجو ونفعل ما يحلو لنا. وعندها يمكننا أن نستمتع بوجبة طعام لذيذة.

«ما أريده»، قالت مونا، «قطعة لحم مشوية جيداً».

«أعطيني دجاجة أو بطّة مشوية جميلة».

«أريد أن أتناول بطاطا حلوة للتغيير».

«هذا يناسبني، يا حبيبتي، أحضري قليلاً من المرق الدسم معها».

كانت مثل ريشة التنس. فقد كان الطعام اللذيذ يتنقل جيئة وذهاباً كطاووس يتضور جوعاً. يا ليتها كانت تهب كالنسيم! ياإلهي، فقد سئمنا من النظر إلى علب السردين، علب شرائح الأناناس، أكياس رقائق البطاطا التي كان الاثنان يقضمانها كالفئران طوال اليوم اللعين. أما النبيذ فلا أثر له، ولا قطرة واحدة من الويسكي. لا شيء سوى الكوكا كولا.

لا أستطيع أن أقول إن كارين بخيل. لا، فهو لا يكترث، غير مبال، عديم الإحساس. فعندما قلت له ذات يوم إننا لم نكن نحصل على ما يكفينا من الطعام تظاهر بأنه أحس بالهلع وسأل: «ماذا تحب؟» وتوقف في الحال عن عمله، واستعار سيارة من أحد جيرانه، واصطحبنا إلى المدينة حيث رحنا ننتقل من مخزن إلى آخر نطلب ما نحتاج. وكان من طبيعته أن يستجيب بهذه الطريقة، التطرف في كل شيء دون وعي منه. ويخيل إليّ أنه كان يفعل ذلك لكي يجعلك تقرف من نفسك. «طعام؟ أهذا هو كل ما تريد؟» كان يقول. «هذا أمر في غاية السهولة، سنشتري أكداساً منه، ما يكفي لخنق حصان» كان ثمة معنى آخر في رغبته المبالغ فيها ليرضيك. «طعام؟ لماذا، إنه مجرد أمر تافه. بالطبع يمكننا أن نأتيك بالطعام. كنت أظن أن لديك هموماً أكبر».

وبطبيعة الحال فقد اعترى زوجته الهلع عندما رأت كميات الطعام التي أحضرناها. وكنت قد طلبت من كارين ألا يقول شيئاً لزوجته عن جوعنا. لذلك ادعى أنه أتى بهذه الكميات من المؤن تحسباً لليوم السيء. وقال لها مفسراً: «إن كميات الطعام أخذت تقل في المخزن»، إلا أنه عندما أضاف أن مونا ترغب في أن تعدّ لنا وجبة من الطعام عند العشاء، بدا الامتعاض على وجهها. وللحظة اكتسى وجهها بقسمات الذعر التي تنتاب البخيل عندما يتعرض مايختزنه إلى الخطر. وتدخل كارين مرة أخرى. «ظننت يا عزيزتي أنك ستستمتعين بقيام شخص آخر بطهي الوجبة على سبيل التغيير. إن مونا طباخة ماهرة، كما يبدو. سنتناول شريحة مينيون هذا المساء ـ ألا ترغبين في ذلك؟» بالطبع، تظاهرت لوتا بأنها سعيدة.

لقد جعلنا من العشاء حدثاً حقيقياً. فبالإضافة إلى البصل المقلي والبطاطا المهروسة، كان هناك شوندر، وكرنب وكرفس، وقليل من الزيتون والفجل. ثم احتسينا نبيذاً أحمر وأبيض، أفضل ما أمكننا الحصول عليه. وكان هناك ثلاثة أنواع من الجبن، أعقبها فراولة وكريمة دسمة. وللتغيير احتسينا قليلاً من القهوة الممتازة، التي أعددتها بنفسي. قهوة قوية لذيذة. وكان ينقص كل ذلك مشروب كحولي جيد وسيجار هافانا.

وجد كارين متعة كبيرة في وجبة الطعام. وقد تصرّف كرجل مختلف. راح يلقي بعض النكات، ويروي قصصاً، وضحك بشدة حتى آلمته خاصرته، ولم يأت على ذكر عمله أبداً. وعند نهاية وجبة الطعام حاول حتى أن يغني.

«لا بأس، إيه؟» قلت.

«هنري، يجب أن نكرر ذلك أكثر»، أجاب. ونظر إلى لوتا ليحصل على موافقتها. ابتسمت له ابتسامة باردة جعلت وجهها يتصدع. كان من الواضح أنها كانت تحاول حساب كلفة العشاء.

بغتة دفع كارين كرسيه إلى الوراء وهبّ واقفاً. ظننت أنه سيجلب مخططاته ورسومه البيانية إلى المائدة. لكنه دخل إلى الغرفة المجاورة وعاد بعد لحظة يحمل كتاباً أخذ يلوّحه أمام عيني.

«هل قرأت هذا يا هنري؟» سأل.

نظرت إلى العنوان. «لا»، قلت. «لم أسمع عنه».

مرر كارين الكتاب إلى زوجته وطلب منها أن تقرأ لنا مقطعاً صغيراً. توقّعت شيئاً يبعث على الكآبة، وبدافع غريزي صببت مزيداً من النبيذ.

قلبت لوتا الصفحات بجدية، باحثة عن إحدى الفقرات المفضّلة لديها.

«إقرئي من أي مكان»، قال كارين. «الكتاب كله جيد».

توقفت لوتا عن تقليب الصفحات ونظرت إلى الأعلى. تغيّرت ملامح وجهها فجأة. للمرة الأولى أرى محياها مضيئاً. حتى صوتها تغيّر. لقد أصبحت ممثلة لتسلية الجمهور.

بدأت بقولها «إنه الفصل الثالث من خزف *الذهب*، للكاتب جيمس ستيفينس».

«وياله من كتاب عزيز!» قاطعها كارين جذلاً. ودفع كرسيه إلى الخلف قليلاً وأسند قدميه الكبيرتين على مسند الكرسي بجانبه. «الآن ستستمعان إلى شيء جيد، أنتما الاثنان».

بدأت لوتا تقرأ: «إنه حوار بين فيلسوف ومزارع يدعى ميهاول ماكمراتشو. وقد حيّا أحدهما الآخر للتو».

«أين الآخر؟» قال (المزارع).

«آه!» قال الفيلسوف.

«لعله في الخارج؟».

«لعله يكون في الخارج فعلاً»، قال الفيلسوف برزانة.

«حسناً، لا يهم»، قال الزائر، «لأن لديك من المعارف ما يكفي

لمؤونة دكان. إن سبب قدومي إلى هنا اليوم هو لأطلب نصيحتك المشرّفة عن لوح غسيل زوجتي. فهو عندها منذ سنتين، وقد استعملته آخر مرّة، عندما غسلت قميصي الذي أرتديه يوم الأحد وقميصها الأسود الموشىّ بالأحمر ـ أتعرفه؟».

«لا، لا أعرفه»، قال الفيلسوف.

«حسناً، على أية حال، لقد اختفى اللوح، وتقول زوجتي إنه إما أن تكون الجنيات قد أخذته أو أن بيسي هانيجان قد أخذته ـ إنك تعرف من هي بيسي هانيجان؟ لها سالفان مثل عنزة وساق عرجاء!».

«لا أعرف»، قال الفيلسوف.

«لا يهم»، قال ميهاول ماكمراتشو. إنها لم تأخذه، لأن زوجتي أخرجتها في الأمس وظلت تكلمها لمدة ساعتين، بينما بحثت في كلّ شيء في منزلها الصغير ـ لم يكن اللوح هناك.

«لن يكون هناك» قال الفيلسوف.

«لعل فخامتكم يستطيع أن يخبر العبد الفقير لله؟».

«ربما أستطيع ذلك»، قال الفيلسوف. «هل تنصت إليّ؟».

«نعم»، قال ميهاول ماكمراتشو.

سحب الفيلسوف كرسيه وقرّبه من الزائر، حتى تشابكت ركبتاهما معاً. وضع كلتا يديه على ركبتي ميهاول ماكمراتشو...

قال: «إن الغسيل عادة استثنائية، نغتسل عندما نأتي إلى العالم وعندما نغادره، ولا نجد متعة في الغسيل الأول، ولا نستمد أي فائدة من الغسيل الأخير».

«صحيح يا سيدي» قال ميهاول ماكمراتشو.

«الكثيرون يعتبرون أن العذابات ليست إلا بسبب العادة. إن العادة هي استمرارية للعمل، شيء مقيت جداً، ومن المتعذر الإفلات

منها. سيجري مثلاً سائراً ولن يدوّن شيء، وتصبح حماقات أسلافنا بالنسبة لنا أهم بكثير مما هي بالنسبة لخير وصلاح أجيالنا القادمة».

هنا قاطع كارين زوجته ليسألنا إن كنا قد أحببنا المقطع.

«بالتأكيد»، قلت. «دعها تواصل!».

«تابعي!» قال كارين، غائصاً أكثر في كرسيه.

تابعت لوتا القراءة. كان لديها صوت رائع، وكان بإمكانها أن تنطق بلهجة إيرلندية رائعة. وبدأ الحوار يصبح مسلياً أكثر وأكثر. وأخذ كارين يضحك ضحكة مكبوتة في البداية، ثم راح يضحك مثل ضبع. كانت الدموع تسيل على وجهه.

«كن حذراً يا كارين،» قالت زوجته متوسلة وقد أنزلت الكتاب قليلاً. «أخشى أن تصيبك الحازوقة».

«لا يهمني»، قال كارين، «إنه يستحق أن تصيبني الحازوقة».

«لكنك تذكر آخر مرّة حدثت واضطررنا لاستدعاء الطبيب».

«لا يهم»، قال كارين. «أريد أن أسمع النهاية». وجلجل مرة أخرى في نوبات مدوية من الضحك.

كان من المفزع أن تسمعه وهو يضحك. لم تكن لديه القدرة على السيطرة على نفسه. تساءلت بيني وبين نفسي إن كان بإمكانه أن يبكي بهذا القدر من الشجاعة. إنه شيء يثير أعصاب المرء.

انتظرته لوتا حتى يهدأ، ثم تابعت قراءتها.

«هل سمعت يا سيدي، عن السمك الذي اصطاده بودين ماكلوجوين في قبعة الشرطي؟».

«لا، لم أسمع به» قال الفيلسوف. «من المحتمل أن يكون الشخص الأول الذي اغتسل شخصاً يريد أن يحظى بسمعة رخيصة. إذ يمكن لأيّ أحمق أن يغتسل، لكن أيّ رجل حكيم يعرف أنه عمل

غير ضروري، لأن الطبيعة ستعيده بسرعة إلى وساخة طبيعية وصحية مرة أخرى. لذلك، يجب أن لا نبحث عن كيف ننظف أنفسنا، بل كيف نكتسب وساخة فريدة وأكثر روعة، ولعل الطبقات المتراكمة للمادة، بتأثير جيولوجي عادي، تتحد بأديم البشرة الإنسانية وبذا تصبح الملابس غير ضرورية».

«وماذا عن لوح الغسيل»، قال ميهاول «كنت سأقول...».

«لا يهم»، قال الفيلسوف. «في مكانه الصحيح، أنا...».

هنا أغلقت لوتا الكتاب. أما كارين فكان غارقاً في الضحك بشكل لا يمكنه التحكم بنفسه، وكادت عيناه تخرجان من رأسه. ظننت أنه سيدخل في إحدى النوبات.

«عزيزي، عزيزي!» انطلق صوت لوتا القلق، يظهر قلقاً لم أكن أتصور أنها قادرة عليه. «أرجوك، يا عزيزي، هدئ من روعك».

انتابت كارين تشنجات بدت الآن كأنه ينشج. نهضت وضربته بقوة على ظهره. وبغتة خمد الاضطراب. نظر إليّ بامتنان. ثم سعل وتمخّط بشدة، ومسح دموعه بكم معطفه.

«في المرة القادمة يا هنري، استخدم مطرقة خشبية»، غمغم. «أو مطرقة ثقيلة».

«سأفعل ذلك»، قلت.

أخذ يضحك ثانية.

«أرجوك لا تفعل!» قالت لوتا متوسلة. «لقد ضحكت كفاية هذا المساء».

«كانت حقاً أمسية رائعة»، قالت مونا. «بدأت أحب العيش هنا. وأسلوبك الرائع في القراءة»، قالت مخاطبة لوتا.

«كنت ممثلة في المسرح»، قالت لوتا بتواضع.

«حسبت ذلك»، قالت مونا. «وكنت أنا كذلك فيما مضى».

قوّست لوتا حاجبيها. «كنت تمثلين؟» كانت هناك مسحة من التهكم في صوتها.

«نعم»، قالت مونا بهدوء، «فقد مثّلت مع فرقة ثياتر غيلد».

«اسمع، اسمع!» قال كارين عائداً إلى أسلوبه الأكسفوردي.

«ما وجه الغرابة في هذا؟» سألته «ألا تظنان أن لديها أيّ موهبة».

«لماذا يا هنري»، قال كارين، شابكاً ذراعي، «إنك وحش حساس، أليس كذلك؟ كنت أهنّئ نفسي بحظنا السعيد. سنقرأ جميعنا كل بدوره ذات ليلة. لقد كنت على المسرح أنا نفسي، كما تعرف».

«وأنا كنت ذات مرة فنان بوهيمي»، رددت.

«حقاً!» صدرت من لوتا وكارين في وقت واحد.

«ألم أخبركما أبداً؟ ظننت أنكما تعرفان».

لسبب غريب أثارت هذه الأكذوبة البريئة إعجابهما. فلو قلت إنني كنت وزيراً في يوم من الأيام، لما نجم عنه هذا التأثير. ومن المدهش كيف كان إحساسهما بخفة الدم محدوداً. ومن الطبيعي رحت أسهب بالتفصيل عن براعتي. وكانت مونا تتدخل بين الحين والآخر لمساعدتي. أخذا يستمعان مذهولين.

عندما انتهيت قال كارين بجدية: «من بين الأشياء الأخرى ياهنري، أنك لست حكواتياً سيئاً. يجب أن تروي لنا المزيد من الحكايات عندما نكون في مزاج رائق».

في اليوم التالي، وكأنما للتعويض عن التفاخر العظيم، صمم كارين على البدء في عمل السقف. كان علينا أن نعد السقف ثم نطليه بالقطران. وكنت أنا، الذي لم يكن بوسعي أن أدقّ مسماراً، سيقوم بهذا العمل - بتوجيهات منه بالطبع. ولحسن الحظ استغرقنا وقتاً

طويلاً حتى عثرنا على السلم المناسب، وعلى المسامير المناسبة، وعلى المطرقة والمنشار ودزينة من الأدوات الأخرى التي ظن أنها كانت موجودة في المتناول. وما أعقب ذلك كان مشهداً من فيلم لوريل وهاردي؛ فقبل كل شيء أصررت على أن أضع زوجاً من القفازات القديمة لكي لا تحدث خدوش في يدي. وشرحت له وفق النظرية الإقليدية أنه إذ حدثت خدوش في أصابعي فلن أتمكّن من الطباعة على الآلة الكاتبة، وبما أني لن أكون قادراً على الطباعة فإن ذلك يعني عدم العمل على الدكتافون. بعد ذلك أصررت على أن أنتعل حذاء رياضياً لكي لا أنزلق وأكسر رقبتي. وأومأ كارين موافقاً بجدية تامة. ولكي يحصل منك على أكبر قدر من العمل فهو مستعد لأن يحملك إلى المرحاض، وإذا استدعى الأمر كان على استعداد لأن يمسح لك مؤخرتك. وكان من الواضح في هذا الوقت أنني كنت بحاجة شديدة إلى المساعدة لتثبيت السقف. وكان على مونا أن تقف بجانبي في حال وقع أيّ شيء على الأرض؛ وكان عليها أيضاً أن تجلب لنا قليلاً من شراب الليمون المثلّج بين الحين والآخر. أما كارين، وبطبيعة الحال، فقد رسم عدة مخططات توضّح كيف سيتم تثبيت الألواح الواحد بجانب الآخر. وبشكل طبيعي لم أستفد أبداً من كل هذه الشروح. بل كانت تدور في رأسي فكرة واحدة فقط، وهي أن أبدأ بالدق بالمطرقة مثل شيطان وأترك الرقائق تتساقط أينما شاءت.

ولكي أتدرّب قليلاً اقترحت أن أسير أولاً على طول مجاز السطح. أما كارين، الذي كان مايزال يهز رأسه موافقاً، فقد أراد أن يعيرني مظلّة، وهنا انفجرت مونا بضحكة مجلجلة، بحيث تجاهل الفكرة. انطلقت ارتقي درجات السلم بخفة قطة، ورفعت نفسي إلى مجاز السطح وأخذت أسير على الحبل البهلواني. وراحت لوتا تنظر إليّ بخوف مكتوم، مشغولة البال، فمما لا شك فيه أنها كانت تحسب نفقات المستشفى إذا حدث وانزلقت وانكسرت ساقي. كان يوماً

قائظاً، وأسراب الذباب تهاجمك وتلدغك بغضب. وكنت أضع قبعة مكسيكية ضخمة ما برحت تسقط فوق عيني. وعندما هبطت إلى الأسفل، راودتني فكرة أن أغيرّ ثيابي وأرتدي سروال السباحة. وفكر كارين أن يفعل ذات الشيء. وهذا استغرق مزيداً من الوقت.

أخيراً أزفت ساعة العمل. فقد تسلّقت درجات السلم والمطرقة تحت ذراعي، وكنت أمسك برميلاً صغيراً فيه المسامير. كان ذلك قبيل الظهيرة. وكان كارين قد جهّز منصة تقوم على عجلات أخذ يفرغ منها الألواح ويعطي التوجيهات. بدا مثل أحد سكان قرطاجة وهو يقيم دفاعات المدينة. كانت المرأتان تقفان في الأسفل، توصوصان كالدجاج، وكانتا على أهبة الاستعداد للإمساك بي إن سقطت.

ركّزت اللوح الأول، والتقطت المطرقة لتثبيت المسمار الأول. انحرفت يدي عن المسمار بمقدار بوصة أو بوصتين، فطار اللوح الخشبي باتجاه البيت مثل طائرة ورقية. أصابتني الدهشة، اعتراني الذهول، إلى درجة أن المطرقة سقطت من يدي ووقع برميل المسامير على الأرض. وأصدر كارين، الذي كان رابط الجأش، أوامره بأن أبقى حيث أنا، وأن تقوم المرأتان بجمع المطرقة والمسامير. وكانت لوتا هي التي هرعت إلى المطبخ لتأتي بالمطرقة. وعندما عادت علمت أني كسرت إبريق الشاي وبضعة صحون. وهرعت مونا لالتقاط المسامير، وأخذت تلتقطها بسرعة بحيث كانت تعود وتفلت من يدها قبل أن تتمكن من وضعها في البرميل.

«رويدك، رويدك!» صاح كارين. «حسناً يا هنري؟ ثبت نفسك الآن!».

وهنا أخذت أضحك ضحكة مجلجلة. فقد ذكّرتني هذه الحالة بوضوح شديد بتلك اللحظات المخيفة في الماضي عندما كانت أمي

وأختي تساعداني في تثبيت المظلات ـ في مدخل الردهة في الطابق الأرضي. فليس لأحد سوى صانع المظلات أدنى فكرة كم كان تثبيت المظلات أمراً في غاية الصعوبة. إذ لم تكن هناك القضبان والمصاريع والمزاليج والبراغي والبكرات والحبال فقط، بل كانت هناك مائة مشكلة مربكة تظهر لك بعد أن ترتقي السلم، وتصبح معلقاً بحذر على حافة النافذة المزدوجة. وبشكل ما كان يبدو دائماً أن عاصفة تهب في اليوم الذي تقرر فيه أمي أن أثبّت المظلة. حاملاً أطراف المظلة بيد، والمطرقة باليد الأخرى، كانت أمي تحاول أن تناولني الأشياء العديدة التي كنت أحتاجها، والتي كانت أختي تعطيها إياها. ولكي أثبّت نفسي، كنت أتمسك بقوة بساقيّ لكي لا أدع المظلة ترفعني إلى الأعلى، كان عملاً بطولياً في حد ذاته. وكان التعب ينال من ذراعي قبل أن أكون قد ثبّت البرغي الأول. كما كان عليّ أن أحلّ تلك الأداة اللعينة الغريبة الشكل، وأقفز إلى الأسفل لآخذ نفساً. وكانت أمي طوال الوقت تغمغم متذمرة ـ «إنه أمر في غاية البساطة، كان بإمكاني أن أثبتها بنفسي في بضع دقائق لو لم أكن مصابة بالروماتيزم». وعوداً على بدء، كان يجب عليها أن تشرح لي الأمر من جديد، أي طرف يجب أن يكون إلى الخارج، وأيها يجب أن يكون إلى الداخل. كان بالنسبة لي أشبه بعمل متخلف. وما أن أعود إلى موقعي ثانية حتى كانت المطرقة تسقط من يدي، وأقعد هناك أتصارع مع باطن المظلة فيما تهرع أختي في الأسفل لتجلبها لي. وكان رفع مظلة واحدة يستغرق ما لا يقل عن الساعة. وعند هذه المرحلة كنت أقول دائماً: «لماذا لا نترك المظلات الأخرى إلى الغد؟»، عندها كانت أمي تستشيط غضباً، فقد كانت فكرة ماذا سيقول الجيران عندما يرون مظلة واحدة فقط مثبتة في مكانها تثير فزعها. وكنت أحياناً أقترح أن نطلب من أحد الجيران أن يقوم بإنهاء العمل، ونعرض عليه مبلغاً جيداً أدفعه له من جيبي. إلا أن هذا كان يغضبها أشد الغضب. فقد كان من الإثم، في رأيها، أن ندفع

مالاً لقاء عمل يمكننا نحن أن نقوم به بأنفسنا. وفي نهاية الأمر، كنت أصاب دائماً ببعض الكدمات. «تستحق ذلك»، كانت أمي تقول. «يجب أن تخجل من نفسك. فلا فائدة ترجى منك كأبيك».

كنت أجلس منفرج الساقين على جائز السطح. وكنت مسروراً بأننا سنفعل شيئاً مختلفاً عن العمل بجهاز الإملاء. وكنت على ثقة بأن الشمس ستلفع ظهري بحلول المساء ولن يكون بوسعي أن أفعل أي شيء يوم الغد. وبأني سأستلقي على بطني طوال اليوم. جميل. فهذا سيمنحني فرصة لقراءة شيء مثير للاهتمام. كنت قد أصبحت غبياً وأنا لا أستمع إلا إلى تعاويذ إحصائية. وأدركت أن كارين سيحاول أن يجد لي شيئاً «خفيفاً» لكي أعمله وأنا مستلق على بطني، لكني كنت أعرف كيف أحبط مثل هذه المحاولات.

حسناً، أعدنا الكرة، ببطء وروية هذه المرة. فالطريقة التي ثبتّ فيها مسماراً واحداً كفيلة بأن تفقد عقل أي شخص طبيعي. أما كارين فكان أبعد ما يكون عن شخص طبيعي. فمن برجه القرطاجي كان يمطرني بوابل من توجيهاته وتشجيعاته. لم يفهم لماذا لم يقم هو بتثبيت الألواح وأناوله إياها، لم أستطع أن أفهم ذلك. لكنه لم يكن يرتاح إلا عندما يعطي توجيهات. حتى عندما كان سيفعل شيئاً بسيطاً، كان يقسمه إلى أجزاء ومكونات كثيرة، مما يستدعي مساعدة أشخاص آخرين. ولم يكن يهمه أبداً كم سيستغرق العمل؛ بل كل ما يهمه هو أن يفعله بطريقته، أي أطول الطرق وأكثرها تعقيداً. وكان يدعو ذلك «الفعالية». فقد تعلم ذلك في ألمانيا عندما كان يدرس كيف يصنع آلة الأرغن. (لماذا الأرغن؟ لكي يتمكن من تذوق الموسيقى على نحو أفضل).

كنت قد ثبّت بضعة ألواح فقط عندما جاءت الإشارة بأن موعد طعام الغداء قد حان. كان غداء بارداً من بقايا وجبة البارحة، أطلقت عليها لوتا اسم «سلطة». ولحسن الحظ كانت هناك بضع زجاجات

من البيرة لجعل الوجبة مستساغة. حتى أننا تناولنا قليلاً من العنب. رحت أتناوله ببطء، حبة حبة، لكي أطيل الدقائق. بدا أن ظهري قد انسلخ عن جلده. أرادت مونا أن أرتدي قميصاً. فطمأنتهم إلى أن الشمس تلفحني بسرعة. وأني لم أفكّر بارتداء قميص. أما كارين الذي لم يكن شديد الحماقة، فقد اقترح أن نؤجل عمل السقف حتى العصر، ونبدأ بعمل شيء «خفيف». وبدأ يوضح أنه أعدّ بعض المخططات المعقدة التي يجب تصحيحها وإعادة عملها من جديد.

«لا، دعنا نواصل العمل على السقف»، قلت ملحاً. «لقد بدأت الأمور تسير على ما يرام».

عندما بدا له الأمر معقولاً ومنطقياً، ارتأى أن نعود ونشتغل على السقف ثانية. مرة أخرى ارتقينا السلم، ثبتنا أقدامنا على جائز السطح استعداداً لتثبيت المسامير. وبعد مضي مدة قصيرة بدأ العرق يتصبب مني كالمطر. وكلما تصبب العرق مني أكثر ازداد طنين الذباب ولسعه عليّ. وأحسست كأن ظهري شريحة من اللحم النيئ. أخذت أسرع من وتيرة عملي.

«أحسنت يا هنري!» هتف كارين. «بهذه السرعة يمكننا أن ننهي العمل خلال يوم أو يومين».

لم يكد يتفوه بهذه الكلمات حتى طار أحد الألواح نحو السماء ثم سقط على عينه، وأحدث جرحاً بليغاً وأخذ الدم يقطر من عينه.

«أوه يا عزيزي، هل أصبت بأذى؟» صاحت لوتا.

«لم يحدث شيء»، قال. «تابع يا هنري».

«سأحضر بعض اليود»، هتفت لوتا، وهرعت إلى المنزل.

دون قصد مني، وقعت المطرقة من يدي. سقطت من خلال فتحة في الغلاف على جمجمة لوتا. فأطلقت صرخة كأنّ سمكة قرش قد عضتها، عندها نهض كارين من مقعده.

حان الوقت لكي نتوقف. يجب أن تستلقي لوتا على السرير وتضع كمادة باردة على رأسها. وكان كارين يضع على عينه اليسرى ضمادة كبيرة. لم يتذمر بأي كلمة.

«أظن أنه يجب أن تحضّري العشاء مرة أخرى هذه الليلة»، قال مخاطباً مونا. وبدا لي أنه توجد مسحة خفية من المتعة في صوته. ووجدت أنا ومونا صعوبة في كبت بهجتنا. انتظرنا فترة وجيزة قبل أن نثير موضوع قائمة الطعام.

«افعلي ما تشائين»، قال كارين.

«ما رأيكم بقطع من لحم الخروف؟» قلت «قطع من لحم الخروف بالبازلاء الفرنسية، وقليل من المعكرونة وربما أرضي شوكي أيضاً ـ كيف يبدو ذلك؟».

قال كارين إن ذلك رائع. «إنك لا تمانعين، أليس كذلك؟» سأل مونا.

«لا أبداً»، قالت، «أنا استمتع بذلك».

ثم استدركت قائلة: «ألم نحضر شيئاً من ريسلنج في الأمس؟ أظن أن زجاجة ريسلنج تناسب قطع اللحمة تلك».

«الشيء المطلوب»، قال كارين.

أخذت حماماً وارتديت بيجامتي. فقد أنعشتني فكرة التمتع بوجبة طعام جيدة أخرى. كنت على استعداد لأن أجلس وأعمل على جهاز الإملاء لكي أظهر له تقديري.

«أظن أنه من الأفضل أن ترتاح»، قال كارين. «ستشعر بشيء من الألم في عضلاتك غداً».

قلت: «وماذا عن تلك المخططات؟ إني حقاً أحبّ أن أفعل شيئاً، كما تعرف. أنا آسف لأني كنت أخرق».

«لا تقل ذلك»، قال كارين. «لقد أديت عملاً جيداً اليوم. خذ قسطاً من الراحة حتى وقت العشاء».

«حسناً، إذا كنت تصرّ على ذلك».

فتحت زجاجة بيرة وارتميت على الكرسي.

ذات يوم فاجأني وأنا أقرأ أحد مجلدات *إلي فور* الذي عثرت عليه. وكنت قد قرأت للتو الفقرة التي تبدأ الفصل عن *مصادر الفن اليوناني*... «يجب أن نحترم الآثار، أن لا نعيد بناءها، ويجب علينا بعد أن نبحث في أسرارها، أن نترك رماد القرون يستعيدها، عظام الموتى، القدر المتزايد من الخراب الذي كان ذات يوم نباتات وأجناساً، الستارة الأبدية من أوراق الشجر والنباتات ـ قدرها قد يحرّك عواطفنا. فمن خلالها نمسّ أعماق تاريخنا، بينما نرتبط بجذور الحياة بالحزن والآلام التي شكلتنا. إن النظر إلى الآثار مؤلم فقط للإنسان الذي يعجز عن المشاركة بنشاطه في غزو الحاضر».

دهمني في اللحظة التي انتهيت فيها من قراءة هذه الفقرة.

«ماذا!» صاح. «أتقرأ *إلي فور*؟»

«لم لا؟» انتابني شعور بالارتباك لعدم فهم سبب دهشته.

تردد لحظة، حك رأسه ثم أجاب متردداً: «لا أعرف يا هنري... لم أظن في حياتي... حسناً، فلتحل عليّ اللعنة! هل تجده حقاً مثيراً للاهتمام؟».

رددت: «الاهتمام؟ إني مغرم *بإلي فور*».

«أين وصلت؟» سأل، ومدّ يده إلى الكتاب. «آه، نعم». وقرأ الفقرة بصوت عال. «أتمنى أن يكون لديّ الوقت لقراءة هذا النوع من الكتب ـ إنه يعتبر ترفاً بالنسبة لي».

«لم أفهم قصدك».

«يجب على المرء أن يبتلع مثل هذه الكتب في وقت مبكر من حياته»، قال كارين «إنه شعر مطلق، كما تعرف فليس لدي الكثير من

الوقت. إنك محظوظ لأنه يتوافر لديك الوقت لهذا. أنت ما تزال مولعاً بالجمال».

«وأنت؟»

«مجرد حمار عمل، كما أظن. لقد ألقيت أحلامي وراء ظهري».

«كلّ تلك الكتب الموجودة هناك...» أومأت باتجاه المكتبة. «هل قرأتها؟».

«معظمها» أجاب، «احتفظ ببعضها حتى يصبح عندي وقت فراغ».

«لاحظت أنه يوجد لديك عدّة كتب عن باراسيلسوس. ألقيت نظرة عليها - إنها تعجبني حقاً».

تمنيت أن يكون قد التقط الطعم، لكنه تجاهل الموضوع بقوله، وكأنه يشير إلى نفسه، إن المرء يمضي عمره كله وهو يبذل جهده لكي يفهم معنى نظريات باراسيلسوس.

«وماذا عن نوستراداموس؟» سألته، مصمماً على تحريضه قليلاً.

ولدهشتي أشرق وجهه وأجاب: «آه، هذه قصة أخرى، لماذا تسأل - هل كنت تقرأه؟».

«لا يقرأ المرء نوستراداموس. كنت أقرأ عنه. ما يثيرني هو المقدمة التي وجهها إلى ولده الرضيع، قيصر. إنها وثيقة استثنائية، في أكثر من جانب. هل لديك دقيقة؟».

أومأ موافقاً. نهضت، أعدت الكتاب، وبحثت عن الصفحة التي ألهبتني منذ أيام قليلة.

«استمع إلى هذا»، قلت. ورحت أقرأ له بضع فقرات بارزة، ثم توقفت فجأة. «توجد فقرتان في هذا الكتاب... حسناً، تحيراني. لعل بإمكانك تفسيرهما لي. الأولى هي: يتصور إم. إي بيليتير (يقول

المؤلف) أن «مجيء المسيح»، منذ موت لويس السادس عشر وحتى عهد المسيح الدجال، هو من المواضيع الهامة عند نوسترادامو س. سأعود إلى هذا بعد قليل. أما المقطع الثاني فيقول: بصفته شخصاً صاحب رؤيا هامة، فلعل تأثره (نوسترادامو س) بالخيال أقل من تأثر أي شخص آخر من نوعه» ثم أردفت «ماذا تفهم من هذا؟».

لم يتعجل كارين في الإجابة. ظننت أنه كان يجري حواراً داخلياً أولاً، فيما إذا كان بوسعه أن يعطي من وقته ليقدم إجابة شافية عن السؤال، وثانياً، فيما إذا كان يستحق هذا أن يهدر من ذخيرته على شخص مثلي.

ثم انطلق يقول: «إنك تعرف يا هنري أنك تطلب مني أن أفسر لك شيئاً في غاية التعقيد. دعني أسألك أولاً، هل قرأت شيئاً لإفلين أندرهيل، أو لـ أ. أ. ويت؟» هززت رأسي بالإيجاب. تابع قائلاً: «ظننت هذا، من الطبيعي أنك ما كنت لتطلب رأيي لو لم تشعر بطبيعة الأقوال المربكة. أودّ أن أسألك سؤالاً آخر، إذا لم يكن لديك مانع. هل تعرف الفرق بين النبي، والصوفي، وصاحب الرؤيا والعرّاف؟».

تردّدت لحظة، ثم قال: «ليس من الواضح أنك تعرف، لكني أفهم ماذا تعني. أظن، على أية حال، إنك إذا منحتني وقتاً لأفكر في هذا لأمكنني أن أجيب عن سؤالك».

«حسناً، دعنا لا نزعج أنفسنا الآن بهذا»، قال كارين. «لقد أردت فقط أن أختبر معلوماتك».

«افرض جدلاً أنها صفر»، قلت، وقد انتابني شيء من الانزعاج لهذا التمهيدات.

«يجب أن تعذرني»، قال كارين، «إن البدء بهذه الطريقة ليس أمراً لطيفاً، أليس كذلك؟ هذا من الآثار البغيضة التي بقيت معي منذ أيام المدرسة، على ما أظن. انظر هنا يا هنري... الذكاء شيء - أعني الذكاء الفطري. والمعرفة شيء آخر. المعرفة والتدريب، يجب

أن أقول، لأنهما يسيران جنباً إلى جنب. إن ما تعرفه هو الذي تعلمته بالمصادفة. لقد خضعت إلى نظام صارم. أقول هذا لتفهم لماذا ألفّ وأدور بدلاً من الإجابة مباشرة. فإننا ففي هذه الأمور نتحدث بلغات مختلفة، أنا وأنت. فبطريقة ما ـ واعذرني لهذه الفكرة! ـ إنك أشبه بصنف همجي متفوق. ربما كان مستوى ذكائك بمستوى ذكائي نفسه، وربما أعلى. لكننا ننظر إلى مجال المعرفة بنظرتين متناقضتين تماماً. فنتيجة لتدريبي وخلفيتي، فإني أميل إلى التقليل من قدرتك على إدراك ما أعرفه أنا. أما أنت، من جانبك، فإنك تنحو للاعتقاد بأني أهدر الكلمات، وأماحك في الأمور التافهة، وأستعرض سعة إطلاعي».

قاطعته قائلاً: «إنك تتخيل كلّ هذا، فليس لدي أية أفكار مسبقة على الإطلاق. فلا يهمني كيف تمضي في أمورك، طالما أجبتني إجابة قاطعة».

«هذا تماماً ما توقعت أن أسمعه منك، أيها العجوز. فكل شيء بالنسبة لك بسيط وفي غاية السهولة. ليست الأمور هكذا بالنسبة لي! فأنا تعلّمت أن أؤجل الإجابة عن استفسارات من هذا النوع حتى أصل إلى قناعة بأني عثرت على الجواب... على أية حال، فكل هذا ليس هو الجواب، أليس كذلك؟ الآن لنرى... ما الشيء الذي كنت ترغب في معرفته بالتحديد؟ من المهم أن يكون ذلك مباشراً، وإلا انتهى بنا المقام في مستنقعات بونتين».

قرأت المقطع الثاني مرة أخرى، وأخذت أشدّد على الكلمات «أقل تأثراً بالخيال».

ولدهشتي وجدت نفسي أقول: «لا يهم، فقد فهمتها تماماً الآن».

«صحيح؟» صاح كارين. «هه! إذاً اشرحها لي؟».

قلت: «سأحاول، رغم أنه يجب أن تدرك أن فهمك لأمر بنفسك

شيء، وشرحه لشخص شيء آخر». (واحدة بواحدة قلت لنفسي). ثم تابعت بصدق وحماس: «لو كنت نبياً بدل أن تكون خبيراً في الإحصاء أو عالم رياضيات، فإني أقول يوجد ثمة تشابه بينك وبين نوستراداموس. أعني بالطريقة التي تعالج فيها الأمور. فالقدرة على التنبؤ نعمة من الله، وكذلك الميل نحو الرياضيات، إذا جاز لي أن أدعوها هكذا. فكما يبدو أن نوستراداموس، رفض أن يستغل مواهبه الطبيعية بالطريقة المعتادة. فكما تعرف، هو لم يكن متضلعاً في التنجيم فقط، بل في الفنون السحرية كذلك. فقد كانت لديه معرفة بالأشياء الخفية ـ أو المحرّمة ـ على العالم. ولم يكن طبيباً فحسب، بل كان عالماً نفسانياً كذلك. لقد كان يجمع بين العديد، والعديد من الأشياء معاً. باختصار، لقد كان متمكناً من الكثير من الإحداثيات التي شذبت من أجنحته. لقد قيّد نفسه ـ وأقول هذا بتبصّر ـ بما مُنح إياه، مثل العالم. وفي رحلاته المنفردة كان ينتقل من مستوى إلى آخر بدقة شديدة، كان دائماً مجهّزاً بالأدوات، والمخططات، والطاولات والمفاتيح الخاصة.

ومهما بدت نبوءاته رائعة بالنسبة لنا، فإني أشكّ إن كانت قد نشأت عنده في الحلم أو في أحلام اليقظة. لا شك أنها جاءته عن طريق الإلهام، لا مجال للشك في هذا. لكن توجد أسباب تدعو المرء للاعتقاد بأن نوستراداموس قد رفض عمداً إطلاق العنان لمخيلته. فمثلاً مضى بموضوعية، حتى عندما (ولو بدا ذلك متناقضاً) كان يخضع لتأثير الغيبوبة. وهي السمة الشخصية التي تسم عمله... وأنا أتردد في أن أسمي ذلك إبداعه أو خلقه... إذ تتركز حول تقديم نبوءات بشكل مقنع، وهو السبب الذي أوضحه في كتابه «مقدمة إلى ابنه قيصر». فهناك نغمة محايدة تتسم بها النبوءات التي يشعر بها المرء والتي لا تُعزى كلها إلى تواضع من جانب نوستراداموس. إنه يشدّد على حقيقة أن كل ذلك كان بفضل الله! فصاحب الرؤى الحقيقي يكون متحمساً جداً للأمور التي تُكشف له؛ فهو يسرع ليعيد

إنشاء العالم، وفقاً للحكمة الإلهية التي ذاقها، أو يسرع ليتوحد مع خالقه. أما النبي، الأكثر أنانية، فهو يستخدم ما يُلهم به لينتقم من أتباعه... إني أجازف في قول كل هذا جزافاً». نظرت إليه نظرة سريعة وحادة لأتأكد أنه علق في مصيدتي، ثم تابعت كلامي، «والآن أظن أني بدأت أفهم المعنى الحقيقي للفقرة الأولى. أعني ذلك الجزء عن نوستراداموس الكبير، الذي، كما تذكر، أرادنا المفسّر الفرنسي أن نعتقد أنه لم يكن أكثر من مجرد رغبة في إعطاء أهمية كبيرة للثورة الفرنسية. وأنا أعتقد أنه إذا كان لنوستراداموس أيّ دافع خارجي في التركيز على هذا الحدث إلى درجة كبيرة جداً، فهو لكي يكشف لنا الطريقة التي تتم فيها تصفية التاريخ. ماذا تعني عبارة «نهاية الزمن» ؟ هل يمكن أن تكون هناك حقاً نهاية للزمن؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل من الممكن أن تعني أن نهاية الزمن هي حقاً بدايتنا؟ كما يتنبأ نوستراداموس بقدوم الألفية ـ في وقت ليس ببعيد كثيراً. وأنا لم أعد واثقاً حالياً أنها ستعقب يوم الحساب أم ستسبقه. ولست واثقاً أيضاً فيما إذا كانت رؤيته تمتد حتى نهاية العالم أم لا. (إنه يتحدث عن عام 3797، إذا لم تخني ذاكرتي، كما لو أن ذلك كان أبعد زمن بوسعه أن يراه) ولا أظن أنه كان يقصد أن الاثنتين ـ يوم القيامة ونهاية العالم ـ سيتمان في وقت واحد. *فالإنسان لا يعرف أي نهاية، هذا هو اعتقادي*. فقد ينتهي العالم، لكن إذا كان الأمر كذلك، فسيكون العالم الذي يتخيله العلماء، لا العالم الذي خلقه الله. فعندما *ستأتي النهاية* سنأخذ عالمنا معنا. لا تطلب مني أن أوضّح لك ـ فأنا أعرفها كحقيقة فقط... لكن لكي ننظر إلى مسألة النهاية من زاوية أخرى، فكلّ ما يمكن أن تعنيه، كما أراها الآن ـ وأنا متأكد من ذلك، وهذا كافٍ! ـ ظهور فوضى جديدة وخصبة. لو كنا نعيش في زمن أورفيك لكنا تحدثنا عنها بأنها حلول نظام جديد من الآلهة، أي إذا أحببت، تنصيب ضمير جديد وأعظم، شيء يتجاوز *الوعي الكوني*. فأنا أعتبر أن نبوءات

نوستراداموس عمل شخص أرستقراطي. ليس لها معنى سوى للأفراد الحقيقيين... لنعد إلى مجيء المسيح، اعذر لي استطراداتي! فالعبارة مستخدمة كثيراً اليوم ـ الإنسان العادي ـ تبدو لي أنها لا تحمل أي معنى. فلا يوجد شيء يشبه هذا الحيوان. ولو كان للعبارة أي معنى، فأظن أن نوستراداموس أدخل فيها دلالات كثيرة عندما تحدث عن مجيء المسيح، وهي تعني أن كلّ ما هو مجرّد وسلبي، أو ارتكاسي، قد أصبح هو السائد الآن. فسواء كان الإنسان العادي موجوداً أم لا، ثمة شيء واحد أكيد وهو نقيض المسيح أو الشيطان. والعبارة نفسها يبدو أنها تعني ضمناً عدم وجود الولاء، عدم وجود الإيمان، عدم وجود مبدأ توجيهي ـ بل حتى الغريزة. إن الديمقراطية كلمة فارغة مبهمة، تدل ببساطة على التشويش الذي يتسم به الإنسان العادي، والذي يزدهر فيه كالعشب. والأجدر بالمرء أن يقول ـ سراب، وهم، فوضى. هل سبق وأن فكرت بأنه حول هذه الملاحظة ـ حول نشوء الجسد المنقوص غير المكتمل وسيادته، بأن التاريخ سينتهي؟ لعله يجب علينا أن نبدأ من جديد من حيث انتهى كروماغنون. ويبدو ثمة شيء جلي بالنسبة لي، وهو أن تلك الملاحظة عن الموت والدمار، التي تظهر بقوة في كلّ النبوءات، تنبع من المعرفة الأكيدة بأن العنصر التاريخي أو العالمي في حياة الإنسان ما هو إلا لحظة عابرة. فالمتنبئ يعرف كيف، ولماذا وأين انحرفنا عن المسار. ويعرف أيضاً أنه لا يمكن عمل الكثير حيال ذلك، من حيث العدد الهائل للبشرية. ونحن نقول إنه يجب على التاريخ أن يأخذ مساره. صحيح، لكن لأن التاريخ فقط هو الأسطورة، الأسطورة الحقيقية عن سقوط الإنسان الذي تبدى في الزمن. إن سقوط الإنسان إلى مملكة المادة الوهمية يجب أن يستمر حتى لا يعود هناك شيء يمكن عمله سوى السباحة إلى سطح الحقيقة ـ والعيش في ضوء الحقيقة الأبدية. إن الأشخاص الروحيين يحثوننا دائماً على تعجيل النهاية ليشرعوا من جديد.

وربما لهذا السبب يطلق عليهم اسم الفاراقليط أو روح القدس أو مناصري المقدس. المعزّون إن أحببت. فهم لا يغتبطون أبداً بحلول الكارثة، كما يفعل الأنبياء أحياناً. إنهم يبينون لنا، وعادة يظهرون لنا بحياتهم، كيف يمكننا أن نحوّل ما قد يبدو أنه كارثة إلى غايات مقدسة. بمعنى آخر، إنهم يظهرون لنا، أي للبعض منا ممن هم مستعدون ومدركون له، كيف نكيّف أنفسنا ونجعلها تتواءم مع الواقع الأبدي الذي يستحيل تدميره. إنهم يجعلون مطالبتهم...».

هنا أشار لي كارين أن أتوقف وصاح قائلاً: «بحق المسيح، يارجل، كم من المحزن أنك لا تعيش في العصور الوسطى! لكنت أصبحت أحد عظماء المتكلمين. إنك تؤمن بالغيبيات، يا للعجب. تطرح السؤال وتجيب عنه كأحد أساطين الجدل». توقف لحظة ليأخذ نفساً عميقاً. «قل لي»، قال وأسند إحدى يديه على كتفي، «كيف توصلت إلى كلّ هذا؟ هيا، لا تتظاهر بأنك متواضع. إنك تعرف ما الذي أرمي إليه».

همهمت وحمحمت.

«هيا، هيا!» قال.

كانت جديته طفولية على نحو يثير الشفقة. وكان الجواب الوحيد الذي أمكنني أن أجيبه هو أن تضرج وجهي بالحمرة خجلاً.

«هل يفهمك أصدقاؤك عندما تتحدث إليهم بهذه الطريقة؟ أم هل تتحدث مع نفسك فقط بهذه الطريقة؟».

ضحكت. كيف يمكن للمرء أن يجيب عن هذه الاستفسارات دون أن تظهر على وجهه قسمات التأثر؟ رجوته أن يغير الموضوع.

أومأ بصمت. ثم قال: «لكن ألم تفكّر بأن تستفيد من مواهبك؟ فبقدر ما أراه، فإنك لا تفعل شيئاً سوى أنك تبدّد وقتك. تضيّعه على حمقى من أمثال ماكجريجور وماكسي شناديج».

«قد يبدو الأمر بالنسبة لك هكذا» قلت ممتعضاً بعض الشّيء

«أما بالنسبة لي، فيبدو الأمر غير ذلك. فليس في نيتي أن أكون مفكراً، كما تعرف. أنا أريد أن أكتب. أريد أن أكتب عن الحياة، كما هي. عن البشر، أيّ نوع من البشر، هم غذائي وشرابي. من المؤكد أني أجد متعة في التحدث عن الأشياء الأخرى. إن المحادثة التي دارت بيننا الآن، ما هي إلا رحيق وطعام لذيذ بالنسبة لي. أنا لا أقول إنها لا توصل المرء إلى شيء، لا، أبداً، لكني أفضّل أن أحتفظ بهذا النوع من الغذاء لمتعتي الخاصة. كما ترى، فأنا في أعماقي لست إلا واحداً من أولئك الرجال العاديين الذين كنّا نتحدث عنهم. وأنا لا أدخل في أحاديث كهذه إلا بين الحين والآخر، ويخال لي أحياناً أني فنان. وأرى نفسي في أحايين كثيرة أني صاحب رؤيا، لكن لست نبياً أو عرافاً. ما يجب أن أساهم به، لا بد أن يتم بشكل غير مباشر. عندما أقرأ عن نوستراداموس أو عن باراسيلسوس مثلاً، فإني أشعر بالألفة. لكني أظن أني ولدت في زمن آخر. سأكون سعيداً لو تعلمت كيف أروي قصة جيدة. أحب فكرة ألّا أصل إلى نتيجة. أحب فكرة اللعب حباً باللعب. والأهم من ذلك، مهما بدا الأمر فظيعاً وفاشلاً وتعيساً، فإني أحب عالم البشر هذا. لا أريد أن أمضي على غير هدى. لعل ما يفتنني في أن أكون كاتباً هو أنه يتعين عليك أن تتواصل مع كل من هبّ ودبّ. حسناً، على أية حال، هذا كل ما أفكر به».

قال كارين: «هنري، لقد بدأت أعرفك الآن. لقد أسأت الظن بك. يجب أن نتناقش أكثر ـ في وقت آخر».

عندها استأذنني وتوجّه إلى غرفة مكتبه. جلست هناك بعض الوقت، في حالة أشبه بالغيبوبة، أتفكر في شذرات من حديثنا. وبعد لحظات، مددت يدي بشرود إلى الكتاب الذي كان قد وضعه. وبشرود رحت أقرأ: «بالنسبة للأعمال الإلهية، التي هي كونية بحتة، فإن الله سيكملها؛ أما أولئك الذين يعتمدون على الغير، أو الأشخاص العاديين، فإن ملائكة الخير هي التي تسدد خطاهم؛ أما النوع الآخر فيأتي في خانة: ملائكة الشر». (من مقدمة إلى قيصر،

ابن نوسترادامو س). هذه الأسطر القليلة ظلت تدوي في رأسي أياماً عديدة. كان لديّ أمل مبهم في أن كارين سيأتي ونعقد جلسة مغلقة أخرى نتناقش فيها عن أعمال ملائكة الخير: إلا أن أمه بعد ثلاثة أيام، وصلت بصحبة صديق قديم. وأخذت أحاديثنا منحى آخر تماماً.

أم كارين! امرأة مهيبة تجمع في شخصيتها صفات الأم والمومس والإلهة. كانت كلّ شيء لم يكنه كارين. ومهما فعلت كانت تشع دفئاً؛ فقد كانت ضحكتها الرنانة تحلّ كلّ المشاكل، تؤكد للمرء ثقتها، إيمانها، وحبها للخير. كانت إيجابية من الداخل والخارج، لكنها لم تكن متعجرفة أو عدوانية: وكانت تتكهن على الفور بما كنت تسعى لقوله. كانت تمنحك موافقتها قبل أن تخرج الكلمات من فمك. كانت روحاً متألقة صافية في شكل جسدي أكثر فتنة وسحراً.

أما الرجل الذي كان برفقتها، فقد كان شخصاً ناضجاً، ذا مزاج مثالي، وكان قد رشح نفسه عدة مرات لمنصب المحافظ، وكان يمنى دائماً بالهزيمة. كان يتحدث عن الشؤون العالمية بمعرفة وبصيرة، دائماً بحياد ومرح ماكر. كان في حاشية ويلسن في فرساي، وكان يعرف سمتس من جنوب أفريقيا، وصديقاً حميماً ليوجين ف. دبيس. وقد ترجم أعمالاً غامضة لإغريق ما قبل سقراط، وكان لاعب شطرنج محنك، وألّف كتاباً عن أصول اللعبة وتطورها. وكان كلما تحدث أكثر، ازددت إعجاباً بتعدد جوانب شخصيته الثرية. يا للأماكن التي زارها: هضبة التيبت، الجزيرة العربية، جزيرة إيستر، تيرا ديل فويجو، بحيرة تيتيكاكا، غرين لاند، منغوليا. ويا للأصدقاء الذين صادقهم - مجموعة متنوعة جداً - خلال أسفاره! أتذكر من هؤلاء: كيبلنج، مارسيل بروست، رابندرانت طاغور، ألكساندر بيركمان، أسقف كانتربيري، الكونت كيسيرلنج، هنري روسيو، ماكس جاكوب، آريستيدي بريانْد، توماس أديسون، إيزادورا دنكان، شارلي تشابلن، وإلينورا دوس.

كان الجلوس معه إلى المائدة أشبه بحضور وليمة يقدمها

سقراط. ومن بين الأمور الأخرى، كان ذوّاقة نبيذ، وكان يحرص على أن نأكل ونشرب جيداً، يزيّن الحديث على العشاء بأطايب الطعام مثل الكوارث العظيمة، المعاني الخفية للأبجدية الأزتية، الإستراتيجية العسكرية لأتيلا، معجزات أبولونيوس من تيانا؛ حياة ساداكيتشي هارتمان، التراث التقليدي السحري للكهنة، الأعمال الخفية للزمرة المالية التي تحكم العالم، رؤى ويليام بليك، وما إلى هنالك. وكان يتحدث عن الموتى بذات الرقة العميقة التي يتحدث فيها عن الأحياء. كان يعرف جميع الأصقاع، كلّ العهود البشرية. كما كان يعرف عادات الطيور والأفاعي، كان خبيراً بالقانون الدستوري، يستنبط مشاكل الشطرنج، كتب مقالات عن انجراف القارات، عن القانون الدولي، عن القذائف البالستية، عن فن العلاج.

أما والدة كارين فكانت تضيف البهارات على أحاديثنا. وكانت تنم عنها ضحكة رنانة معدية. ومهما كان الموضوع الذي نناقشه، كان بوسعها أن تجعله شهياً بتعليقاتها. وبدا أنها على قدر من المعرفة شأن رفيقها، لكنها كانت تتناول المواضيع بخفة أكثر. وبدا كارين فجأة مراهقاً، لم يبدأ يعيش حياته بعد. وكانت والدته تعامله كطفل كبير. وكانت تقول له بين الحين والآخر بوضوح أنه مجرد أحمق، «كان عليك أن يكون لديك خمسة أطفال الآن»، أو «لماذا لا تذهب إلى المكسيك لبضعة شهور، لقد بدأت تتعفن».

أما هي، فكانت تستعد للسفر إلى الهند. وكانت قد سافرت في السنة الماضية إلى أفريقيا، لا للصيد، بل كمتخصصة في علم الأجناس. وقد تغلغلت إلى مناطق لم تطأها قدم امرأة بيضاء من قبل. كانت جريئة لكنها لم تكن متهورة. وبوسعها أن تكيّف نفسها وفق جميع الظروف، تتحمّل المشاق التي تجعل، حتى الجنس الأقوى، يحجم عن ذلك. كانت تتمتع بإيمان وثقة منيعتين. ولم يكن بوسع أحد أن يجلس في حضرتها ولا يزداد غنى وثقافة. كانت

أحيانا تذكرني بالنساء البولينيزيات في أقاصي المحيط الهادئ، ذوات النسب الملكي اللاتي حافظن على البقايا الأخيرة للجنة الدنيوية. هاهي الأم التي كنت أودّ أن أختارها قبل أن أدخل الرحم. هاهي الأم التي شخّصت العناصر الأساسية لكينونتنا، التي تتناغم فيها الأرض والبحر والسماء. إنها سليلة طبيعية لأسلاف العظماء، تجسّد قوام الأسطورة والخرافة. كانت دنيوية حتى النخاع، إلا أنها كانت تعيش في مملكة فائقة الأبعاد. وكان وعيها يتوسّع أو يتقلّص حسب رغبتها. وكانت تبذل ذات الجهد، سواء كان العمل عظيماً أو متواضعاً جداً. كانت مجهّزة بأجنحة وزعانف وذيل وقدمين ومخالب وخياشيم. تحلق في السماء وكانت برمائية. تفهم جميع اللغات لكنها كانت تتكلم كطفل. لا شيء يمكن أن يثبط من حماسها أو يوقف جماح بهجتها التي لا يمكن أن تكبتها. كان مجرد النظر إليها يزيدك شجاعة. لم تعد توجد مشاكل. تبدو مغرقة في الواقع، لكنه الواقع الإلهي، المقدس.

للمرة الأولى في حياتي أتيح لي شرف التحديق في أمّ. لم تكن صور السيدة العذراء تعني لي شيئاً على الإطلاق: كانت زاهية إلى حد كبير، نصف شفافة إلى درجة كبيرة، بعيدة جداً، أثيرية للغاية. لقد شكّلت أنا بنفسي صورة أكثر فعالية، أكثر غموضاً، أكثر قوة. لم أتوقع أبداً أن أراها من لحم ودم. كنت أتخيّل أنه توجد مثل هذه الأنواع، لكن في أماكن قصية من هذا العالم فقط. كنت أحس بوجودها في الأزمنة السابقة؛ في إترووريا، في بلاد فارس القديمة، في عصور الصين الذهبية، في أرخبيل ملاوي، في إيرلندة الأسطورية، في شبه الجزيرة الأيبيريه، في بولينيزيا. لكن أن تصادف واحدة من لحم ودم، في محيطك اليومي، تأكل، تتكلّم، تضحك معها ـ لا، لم أكن أعتقد أن هذا ممكن. كنت في كلّ يوم أدرسها من جديد. وفي كلّ يوم أتوقع أن ينقشع الحجاب. لكن لا، كانت مكانتها تزداد رفعة يوماً بعد يوم، إنها تزداد روعة وإدهاشاً،

تصبح حقيقية أكثر، كما تصبح الأحلام عندما نغوص بعمق أكثر وأكثر في شباكها.

ما فهمت أنه إنساني، إنساني بكل معنى الكلمة، تضخم إلى درجة لا حدود لها. لم يعد ضرورياً انتظار مجيء السوبرمان. بغتة لم يعد ثمة حدود للعالم الإنساني، فهم يقولون لنا المرة تلو المرّة إننا أُعطينا كلّ شيء. وما أراه بوضوح الآن أن كلّ ما هو مطلوب منا، هو أن ندرك طبيعتنا. فالمرء يتحدث عن طبيعة الإنسان الكامنة، كما لو كانت نقيضاً لطبيعته التي يكشف عنها. رأيت ذلك الكمون يترعرع في والدة كارين، لاحظت أنها تنزع القشرة الخارجية الفظة التي تغلفّها. فهمت أن التطور قائم وحقيقي، دلالة على الحيوية. رأيت أن الإنسان قد سلب المبدأ الأنثوي. فهمت أن هبة العنصر الإنساني الأعظم أيقظت إحساساً أعظم بالحقيقة. فهمت أنه مع ازدياد قوة الحياة، فإن الكائن الذي يجسّدها يزداد قرباً منا، يصبح أكثر رقة، يصبح لا غنى عنه. ليس الكائن المتفوق، كما كنت أفترض سابقاً، أكثر بعداً، أكثر انفصالاً، أكثر تجرداً. بل على العكس تماماً. إن الكائن المتفوق فقط هو الذي يثير فينا الجوع المبرّر، الرغبة في أن نتجاوز أنفسنا لنصبح ما نحن عليه حقاً. ففي وجود الكائن المتفوق ندرك قوانا العظيمة؛ إننا لا نتوق لأن نكون ذلك الشخص، بل نتوق فقط لأن نثبت لأنفسنا أننا في الواقع ذلك اللبّ والمادة ذاتها. نندفع إلى الأمام لنحيي أخوتنا وأخواتنا، نعرف دون أدنى شك أننا جميعنا أقارب.

للأسف، لم تدم زيارة أمه ورفيقها أكثر من بضعة أيام. وما كادا يذهبان حتى قرر كارين أنه يجب أن نعود جميعنا إلى المدينة، حيث توجد لديه بعض الأمور التي يجب أن يقوم بها. وكان يرى أنه من المستحسن لنا أن نذهب إلى المسرح، أن نحضر حفلة موسيقية أو حفلتين، ثم نعود إلى الشاطئ لنعمل بهمة ونشاط. أدركت أن زيارة أمه أربكته تماماً.

كانت شقّة المدينة، كما كان يطلق عليها، في حالة يرثى لها. ولا يعلم إلا اللّه متى استُخدمت فيها مكنسة آخر مرّة. فقد كانت القمامة مبعثرة في المطبخ منذ أسابيع. فئران، نمل، صراصير، قمل الفراش، جميع أنواع الهوام كان يجتاح المكان. المناضد، الأسرّة، الكراسي، الأرائك، الخزائن كانت كلها مليئة بالأوراق، بصناديق الملفات المفتوحة، بالبطاقات، بالرسوم البيانية، بالجداول الإحصائية، بالآلات من جميع الضروب والأنواع. وكان هناك ما لا يقل عن خمس قناني حبر منزوع الغطاء عنها. سندويشات مقضوم جزء منها وملقاة بين أكوام الرسائل. أعقاب السجائر كانت بالمئات.

كان المكان في الواقع في غاية القذارة، إلى درجة أن كارين وزوجته قررا التوجه إلى فندق لقضاء هذه الليلة، على أن يعودا مساء اليوم التالي بعد أن نكون قد رتّبنا المكان على أفضل وجه. وكان عليّ أن أبذل ما بوسعي لأرتبّ له ملفاته.

بقاؤنا لوحدنا جعلنا في غاية السرور للتغيير، بحيث لم نبدِ اهتماماً بالمهمة الموكلة إلينا. استدنت عشرة دولارات من كارين لنجلب شيئاً من الطعام. وحالما غادرا البيت خرجنا لتناول الطعام، وتناولنا وجبة جيدة. عشاء إيطالي مع قليل من النبيذ الأحمر الجيد.

لدى عودتنا إلى الشقة شممنا الرائحة الكريهة بينما كنا نرتقي الدرج. «لن نمسّ شيئاً»، قلت لمونا. «لنخلد إلى النوم ونغادر في الصباح. لقد سئمت».

«ألا ترى أنه يجب علينا أن نراهما على الأقل ونخبرهما بأننا سنغادر؟».

«سأترك لهما رسالة»، قلت. «أصبحت أشعر بالاشمئزاز من إطالة الأمر. لا أشعر بأننا ندين لهما بشيء».

استغرق تنظيف غرفة النوم ساعة لكي ننام فيها هذه الليلة.

وكان علينا أن ننام بين لحافين ملوثين. ومهما لمست هنا، كان شيئاً غير طبيعي. وكان إنزال خصاص النافذة مثل حساب مسألة رياضية. وخلصنا إلى أنهما كانا يعانيان من حالة متوسطة من الخرف. وفيما كنت على وشك أن أدلف إلى الغرفة لاحظت على الرف فوق السرير صفاً من علب قبعات وعلب أحذية. وكُتب على كل واحدة منها رقم متسلسل، يشير إلى حجم ولون وحالة القبعة أو الحذاء. فتحتها لأرى إن كانت فعلاً تحتوي على قبعات وأحذية. كانت تحتوي عليها فعلاً. ولم يكن أيّ منها في حالة يرضى أن يرتديها حتى الشحاذ على قارعة الطريق. كان ذلك القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لي.

«كنت أقول لك» همهمت ساخراً، «هذا الرجل مجنون... مجنون كوغد».

استيقظنا باكراً، لم يغمض لنا جفن بسبب قمل الفراش. أخذنا حماماً سريعاً، وفحصنا ثيابنا بدقة للتأكد من خلوها من القمل؛ واستعدينا للمغادرة. (كنت في مزاج أن أدوّن له رسالة). قررت أن تكون رسالة جيدة، لأني عزمت على ألا أراهما ثانية. بحثت عن قصاصة مناسبة من الورق. وقع بصري على خريطة كبيرة على الحائط، مزقتها، واستعلمت طرف مقبض المكنسة كقلم، وغمسته في وعاء من الطلاء، وخربشت كلمة الوداع بكلمة هيروغليفية طويلة يمكن للمرء أن يقرأها من على بعد ثلاثين ياردة. وبقفا يدي دفعت الأشياء من فوق طاولة العمل الكبيرة إلى الأرض. ووضعت الخريطة على الطاولة، ووضعت في وسطها كومة من أقدم القمامة وأكثرها نتانة. كنت واثقاً أنه سيراها. ألقيت نظرة نهائية حولي، لكي أحتفظ بانطباع أبدي للمشهد. مشيت صوب الباب، ثم عدت فجأة. ثمة شيء آخر يجب عليّ أن أفعله ـ أن أضيف حاشية على الرسالة. اخترت قلم رصاص حادّ مدبّب وكتبت بخط صغير للغاية: «تُصنف تحت حرف جيم: زكام، نظافة، حشرة، جرس معلق في رقبة بقرة، الصين،

إمساك، روث بقرة، دليل سياحي، صراصير، مقابر، نسيج، كرنب، علف خنازير، سيترات أوكسيد المغنيسيوم، وفرة، إخصاء، نزوة، ألواح مسمارية، صهريج، لقب، رجال الكونغو، أكورديون صغير، جيب تمام، طلاء، كفل فرس، جماع، كليتيمنيسترا، تشولجوز، وصلصة طماطم ماركة اللوحة الزرقاء».

كان أسفي الوحيد، ونحن نهبط الدرج، أنني لم أتمكن من ترك بطاقتي على الطاولة أيضاً.

تناولنا فطوراً صغيراً مرحاً في عربة غداء أمام المقابر، ناقشنا خلالها مستقبلنا، الذي كان فارغاً تماماً.

«لماذا لا تذهب إلى السينما عصر اليوم؟» قالت مونا. «أنا سأذهب إلى هوبوكين أو إلى مكان آخر وأرى ما يمكنني أن أجمعه. لنلتقي عند أولريك وقت العشاء، ما رأيك في هذا؟».

قلت: «حسناً، لكن ماذا سأفعل أنا هذا الصباح؟ هل تدركين أن الساعة هي الثامنة فقط؟».

«لماذا لا تذهب إلى حديقة الحيوانات؟ استقل الحافلة. ستصبح أفضل حالاً».

لم يكن هناك اقتراح أفضل. فقد كنت في مزاج يدفعني للتفرج على عالم الحيوانات. وبما أني كنت طليقاً وحراً في تلك الساعة المبكرة جداً من الصباح، فقد منحني ذلك إحساساً بالتفوق. جلست في الطبقة العليا من الحافلة، ورحت أراقب الكادحين المشغولين ينطلقون إلى أشغالهم. وتساءلت لبرهة ماذا يمكن أن تكون رسالتي في الحياة. وكدت أنسى تماماً أني نويت أن أكون كاتباً. كنت أعرف شيئاً واحداً فقط ـ وهو أني لم أُخلق لأكون نابش فضلات. ولا كادحاً. ولا ناسخاً.

عند الناصية انفصلت عن مونا. في الجادة الخامسة قفزت إلى حافلة متوجهة شمالاً وصعدت إلى الطبقة الثانية. حرّ مرة أخرى! أخذت نفساً عميقاً من الأوزون. وعندما أصبحنا بجانب حديقة

سنترال بارك ألقيت نظرة فاحصة على القصور الباهتة التي تحفّ بالجادة الخامسة. كنت أعرف العديد منها عندما كنت أدخلها من باب الخدم أو البوابين. نعم، كان هناك بيت آل روزفلت الذي كنت أسلّم لهم البدلات عندما كنت صبياً في الرابعة عشرة، بدلات سوداء رسمية، سترات من صوف القرمل للمسنين. تساءلت إن كان السيد الأكبر روزفلت، المصرفي، وأبناؤه الأربعة العمالقة ما زالوا يذهبون معاً إلى مكتبهم في وول ستريت كل صباح ـ بعد أن كانوا يمتطون الفرس عبر الحديقة، بالطبع. وعلى مسافة أبعد قليلاً رأيت قصر أخيه الرجل العجوز بنديكس، الذي كان مولعاً بالسترات المبهرجة ذات الأزرار، وقد مات منذ فترة طويلة. أما هـ. دبل يو، فلعله ما زال حياً، ولعله ما زال يتذمر بأن الخياط نسي أن يضع بطانة في الجانب الأيمن. كم كنت أمقت ذلك الرجل! ابتسمت عندما تذكرت كيف أفرغت فيه غضبي في تلك الأيام. لعله أصبح الآن عجوزاً ضعيفاً وحيداً، يقوم على خدمته خادم مطيع، وطباخ، وكبير خدم، وسائق وما إلى ذلك.

كان مشغولاً دائماً! حقاً، يجب أن نرثي لحال الأغنياء.

هكذا سارت الأمور... ذكريات تترى. فجأة تذكرت روثيرميل. أستطيع أن أتخيله وهو يغادر السرير مصاباً بدوار وصداع من أثر الخمرة في الليلة السابقة، يتعثر بمبولته، يرغي ويزبد ويتقافز كغراب على ساق واحدة. حسناً، سيكون يوماً مشهوداً بالنسبة له، بعد أن يرى مونا ثانية.. (كنت واثقاً أنها ذهبت إليه).

أفكر بروثيرميل في وقت مبكر من الصباح. أفكّر كيف كان الناس الذين عرفتهم على مختلف مشاربهم يستقبلون يوماً جديداً. كانت لعبة ممتعة. ومن الأصدقاء والمعارف انتقلت إلى مملكة مشاهير الفنانين والممثلين والممثلات، الشخصيات السياسية، المجرمين، الزعماء الدينيين، من جميع المشارب ومن جميع المستويات. وبدأ الأمر يصبح أكثر متعة عندما أخذت أنبش في

عادات الشخصيات التاريخية العظيمة. كيف كان كاليجولا يستقبل نهاره؟ وفجأة استحوذت على عقلي مجموعة من الشخصيات: السير فرانسيس بيكون، محمد العظيم، شارلمان، يوليوس قيصر، هانيبال، كونفوشيوس، تاليرلان، نابليون والقديسة هيلين، هيربرت سبنسر، مودجيسكا، السير والتر سكوت، غوستافوس أدولفوس، فريدريك باربروسا، ب. ت. بارنوم.

حين اقتربت من حديقة البرونكس نسيت ما الذي قادني إلى هذه البقعة. كنت أستعيد انطباعاتي الأولى عن السيرك ذي الحلقات الثلاث، تلك اللحظة المدهشة في حياة صبي عندما يرى معبوده بلحمه وعظمه. وكان معبودي بوفالو بيل. كنت أحبه. إذ إن رؤيته وهو يجري وسط الدائرة المغطاة بنشارة الخشب، ويخلع قبعته الضخمة مع تصفيق المشاهدين، كان شيئاً لا ينسى. وكانت تتدلى منه خصلات شعر طويلة، وتزين وجهه لحية صغيرة عند الذقن، وشارب كبير معقوف. كانت هناك متعة في مشاهدته وهو يؤدي أدواره الممتعة. يضع يداً على خاصرته، وبالأخرى يمسك بندقية. ثم يبدأ بعرض مهارته في إصابة الهدف. يدور دورة كاملة حول الدائرة أولاً، جواده الفخور ينفث ناراً. ياله من رجل رائع! أصدقاؤه زعماء قبائل الهنود العنيفين سيوكس، كومانتشيس، كراوز، بلاكفيت.

ما يثير إعجاب الصبي هو القوة دون مباهاة ـ المهارة، التوازن، المرونة. كان بوفالو بيل مثالاً عن كل ذلك. لم نره أبداً إلا في لباسه الكامل، ومرة واحدة فقط كل سنة ـ إذا حالفنا الحظ. في تلك اللحظات القليلة التي كان يخصصها لنا، لم يكن يخطئ تسديد أي طلقة، لم يقم بأي حركة خرقاء، لم يجعلنا نغيّر رأينا ولا بقدر ضئيل في الصورة المثالية التي كنا نحملها عنه في قلوبنا. لم يخدعنا أبداً، لم يضللنا. بقي دائماً كما عهدناه.

كان بوفالو بيل بالنسبة لنا كما كان صلاح الدين بالنسبة

لأتباعه ـ ولأعدائه أيضاً. فالولد لا ينسى معبوده أبداً. حسناً، ها نحن في حديقة الحيوانات. أول شيء أراه هو الزرافة. ثم نمر بنغالي، ثم وحيد القرن، ثم حيوان التابير الذي يشبه الخنزير. آه؛ هاهي القرود! ثم العودة إلى البيت ثانية. لا شيء ينقي الجهاز النفسي مثل النظر إلى الحيوانات البرية، *صفحة بيضاء نقية*. أسماء البيئات التي جُلبت منها ملهمة في حد ذاتها. ينجرف المرء إلى العالم الآدمي القديم حيث كان الثعبان هو السيد الأعلى. نظرية النشوء لاتفسر شيئاً. لقد كنا جميعنا هناك معاً، منذ البداية، وسنبقى معاً إلى الأبد. النجوم والأبراج تنحرف عن مسارها، القارات تنحرف، الإنسان ينجرف مع أخوانه منذ أيام الطوفان ـ المدرّع، طائر الدودو، الديناصور، النمر ذو الأنصال، الحصان الضئيل الحجم. منغوليا العليا. كلّ شيء في الكون ينجرف نحو نقطة الانحراف في الفضاء. وربما كان الله العلي القدير ينجرف أيضاً مع خلقه.

أنجرف إلى حديقة الحيوانات مع روادها، فجأة أتذكر بوضوح ريني تيتجين. فقد كانت ريني أخت ريتشي تيتجين الذي كنت ألعب معه عندما كنت صبياً في العاشرة من عمري، كان ريتشي هذا مثل زواوي المتعطش للدماء. إن أغضبته، كان على استعداد لأن ينهش قطعة من لحمك. وكان من المهم، عند اختيار فريقين للعب لعبة السجين، أن يكون ريتشي من فريقك. وفي بعض الأحيان كانت ريني، أخته، تقف عند البوابة تراقبنا. كانت تكبره بحوالى ست سنوات، امرأة مكتملة، وكانت بالنسبة لنا نحن الأطفال تسحر الألباب. فما أن تقترب منها حتى تتنشق رائحة العطر التي تتضوع منها ـ أم كانت رائحة عطر لحمها اللذيذ؟ ومنذ أن توقفت عن اللعب في ذلك الشارع لم أعد ألقي بالاً لريني تيتجين. الآن وعلى حين غرة، وبدون أي سبب، رحت أفكّر بها، وأخذت صورتها تتراقص أمامي. كانت تتكئ على السياج الحديدي بجانب البوابة، والريح تهب على ثوبها الحريري الرقيق فيتطاير ويلتف عليها ويلتصق بأطرافها. الآن أدركت ما الشيء الذي كان يجعلها فاتنة وعصية:

كانت نسخة طبق الأصل عن رسوم المادونا الفرنسية في القرون الوسطى. كلها خفة ونور مشع وعفة، فاتنة بخصلات شعرها الذهبي وعيونها الخضر بلون البحر. كانت صامتة دائماً، ملائكية دائماً. كانت تتثنى يمنة ويسرة كصفصافة صغيرة. نهداها، اللذان كانا كرتين ناضجتين، والرابية الصغيرة التي كانت تزيّن حوضها، بدت نابضة بالحياة ومرهفة الحس. كانت تواجه الريح كمحيط جؤجؤ السفينة الناتئ. وعلى مسافة بضعة أقدام منها، كنا ننطلق مثل ثيران جامحة، نمزّق، نقطع، نعضّ، نئن، كما لو أننا قد أصبنا بمسّ. كانت ريني تقف هناك دائماً بهدوء، شفتاها تفتران عن ابتسامة مبهمة. البعض قال إنه كان لديها حبيب وهجرها. البعض الآخر قال إنها كانت عرجاء. لم يكن لدى أحدنا الشجاعة لمخاطبتها. كانت تأخذ مكانها عند السور وتقف هناك كتمثال. في بعض الأحيان، كانت الريح تهب وترفع تنورتها، فتتفغر أفواهنا عندما نرى اللحم الأبيض بلون الحليب فوق ركبتيها. وقبيل المساء كان تيتجين العجوز يعود متثاقلاً إلى البيت، يحمل سوطاً طويلاً بيده. وكان عندما يرى ريتشي، بملابسه الممزقة، وجهه الملوث بالطين والدم، ينهال العجوز عليه العجوز ضرباً بالسوط. ولم يكن يصدر عن ريتشي أي صوت. ويحيّي العجوز ابنته بفظاظة ويختفي وراء الباب الأمامي. مشهد غريب لم نكن نعرف تتمته.

عاد إليّ كل هذا بوضوح شديد مما جعلني أسرع لتدوين بضع ملاحظات على الفور. هرعت بشكل مسعور خارج الحديقة بحثاً عن ورقة وقلم رصاص. كنت أتوقف بين الحين والآخر للتبوّل. أخيراً وجدت دكاناً صغيراً لبيع القرطاسية تديره امرأة يهودية عجوز. كانت ترتدي إحدى تلك الباروكات القبيحة بلون أجنحة صرصور. لسبب ما وجدت صعوبة في فهمي. رحت أرسم إشارات في الهواء. ظنت أني أصم، وأخذت تصرخ في وجهي. ورحت أصرخ عليها أيضاً وأكيل لها الشتائم. خافت وهرعت إلى خلف المخزن لطلب النجدة. مذهولاً، وقفت هناك لحظة، ثم هرعت إلى الشارع. كانت

الحافلة تقف عند المنعطف. ركبت الحافلة. كانت صحيفة ملقاة إلى جانبي. أخذتها ورحت أدوّن ملاحظاتي، في البداية على الهوامش، ثم بين السطور السوداء. عندما وصلنا إلى مورنينجسيد بارك رميت الصحيفة من النافذة. شعرت بالارتياح، الارتياح الذي ينتابني بعد مضاجعة لذيذة. وتلاشت ريني كما تلاشت الزرافات والجمال، والنمور البنغالية، وقشور الفستق. وزئير الأسود الغاضبة. سأحكي لأولريك كل هذا، وسيجد متعة وهو يستمع إليّ، ما لم يكن منهمكاً في حملة لترويج الموز.

9

عدنا للإقامة في حيّ راقٍ، غير بعيد عن فورت غرين بارك. الشارع عريض جداً، والبيوت ترتد قليلاً إلى الخلف عن الرصيف، ومعظمها مبني من الآجر البني ومزخرفة بأقواس عالية. كانت بعض البيوت قصوراً حقيقية تحفّ بها مروج شاسعة وتزينها التماثيل والشجيرات. وكانت تضم حظائر سيارات واسعة تفضي إلى الإسطبلات وغرف الخدم في الخلف. كانت تعبق في جو هذا الحيّ القديم رائحة الثمانينات والتسعينات من القرن التاسع عشر. والشيء الرائع في هذا الحي هو أنه كان محافظاً على حالته. حتى أماكن وضع العربات كانت ما تزال سليمة ومصقولة، وكأنها نظفت للتو بالزيت. كانت فخمة، أنيقة، باذخة، وبدت لنا ملاذاً رائعاً.

وبالطبع كانت مونا هي التي وجدت الغرفتين. وكانت صاحبة البيت هذه المرة سيدة طيبة، واحدة من تلك الأرامل الأمريكيات الشابات الغبيات اللواتي لم يعرفن ماذا يفعلن بأنفسهن. أخرجنا أثاثنا من المخزن وقمنا بتأثيث الغرفتين. وقد شعرت صاحبة البيت بسعادة كبيرة لأننا نحن كنا المستأجرين. وفي أوقات كثيرة كانت تتناول الطعام معنا. كانت مرحة، ذات صوت رخيم ومتراخية كروح تائهة. وبدا أن الأمور ستسير على ما يرام؛ كان الإيجار رخيصاً، وكانت الكهرباء والغاز والماء تعمل كلها بصورة رائعة، وكانت هناك كميات وفيرة من الطعام الجيد، وكنا نشاهد أفلاماً بعد الظهر، وكنا في الأمسيات، إذا رغبنا، نلعب الورق بين الحين والآخر،

لندخل البهجة إلى قلب صاحبة البيت، ولم يكن يُسمح لنا بإحضار الزوار. ولم يعرف أحد أبداً عنواننا. لم أكن متأكداً من أين تأتي النقود. فقد كان ماثياس مايزال هناك، وروثيرميل حيّ أكثر من أي وقت مضى، وكنت أعرف أنهما كانا يساهمان بالقدر الأكبر من هذا المبلغ. لكن لا بد أن يكون هناك آخرون، أيضاً، لأننا كنا نعيش في الأعالي. وبالطبع كانت صاحبة البيت سخية في الطعام والشراب، وكانت تدعونا في أحيان كثيرة إلى المسرح أو تصحبنا إلى الملهى. وعلى حد قولها فقد انجذبت إلينا لأننا كنا فنانين ـ «بوهيميين». وكان زوجها ممثل شركة تأمين وقد ترك لها مبلغاً جيداً. لكنه كان طيراً مضجراً، كما قالت، وهي تنوي أن تعيش حياة مفعمة بالمرح والبهجة الآن بعد وفاته.

استأجرت آلة كاتبة وبدأت أكتب مرة أخرى. كان كل شيء في غاية الروعة. رداء الحمّام الحريري الجميل؛ البيجاما، النعل المغربي الذي كنت أنتعله، كانت كلها هدايا قدمتها لي صاحبة البيت: أملاك موروثة... كانت أوقات الصباح رائعة. ننهض من السرير في حوالى الساعة العاشرة، نستحمّ بتمهل فيما يصدح الفونوغراف بالموسيقى، ثم نجلس لتناول طعام فطور لذيذ، كانت صاحبة البيت هي التي تعده عادة. وكانت هناك دائماً فواكه طازجة وتوت مغمّس بالكريم، وفطائر طازجة خارجة لتوها من الفرن، وقطع سميكة من لحم الخنزير، ومربى البرتقال، وقهوة مايزال البخار يتصاعد منها تعلوها القشطة المخفوقة. شعرت كأنني باشا. وكنت مجهزاً بعلبتي سجائر جميلتين وحامل سجائر طويل، لم أكن استخدمه إلا عند تناول الطعام، وذلك لكي أدخل السرور إلى قلب صاحبة البيت الطيبة التي قدمتها لي.

يجب أن أتوقف عن مناداتها «صاحبة البيت». فقد كان اسمها مارجوري. كان فيها شيء شهواني، داعر كأنها كانت دائماً تلتقط الرائحة. كان جسدها جميلاً وتعرضه بمتعة وحرية، خاصة في

الصباح عندما لم تكن ترتدي شيئاً سوى روب حمّام شفاف. ولم يستغرق الأمر كثيراً عندما بدأ أحدنا يربت على ردف الآخر برقة وحنان. وكانت من ذلك الضرب من النساء اللاتي يمسكن قضيبك ويجعلنك تضحك في الوقت نفسه. ولم يكن بوسع المرء ألا يحبها، حتى لو كانت تنتشر آثار الجدري على وجهها، وبالطبع لم تكن كذلك. وكان كل شيء نفعله علنياً وصريحاً. فإذا أبديت لها مجرد رغبة، كانت تسعى في الحال لإشباعها. كان كل شيء تمتلكه يصبح لك ما أن تطلبه.

ياله من تغيير هام عن مؤسسة كارين! فوجبات الطعام وحدها تكفي لأن تجعل المرء في حالة من الرضا الإلهي، وكانت غرفتها تجاور غرفتينا، لكن الباب الفاصل بيننا لم يكن يُقفل أبداً. كنا نتنقل بين الغرف بسهولة، كما لو كنا نتشارك في بيت واحد.

دأبت على التمشي بعد طعام الفطور، لإثارة شهيتي لطعام الغداء. كان الوقت مطلع الخريف والطقس رائع. وكنت في معظم الأحيان أتمشى نحو الحديقة لأرتمي على أحد المقاعد وأغفو تحت أشعة الشمس المشرقة. تملكني إحساس رائع بالسعادة. لا قلق من أيّ نوع، لا مسؤوليات، لا أحد يتدخل في شؤونك. كنت سيد أمري تماماً، وكانت تقوم على خدمتي امرأتان جميلتان متلهّفتان كانتا تعاملانني كطاووس. وكنت أكتب يومياً باندفاع شديد لمدة ساعة أو ساعتين؛ وفيما تبقى من اليوم ـ كنت أمارس الجنس، وأتناول أطايب الطعام، وألهو وأمرح. لا بد أن ما كتبته كان ذا أثر طفيف ـ ربما أحلام وتخيلات. لقد كانت حياة مريحة جداً بحيث لا تجعلك تفكر بالقيام بعمل جدّي. كنت أكتب لكي لا أتوقف عن الممارسة. وبين الحين والآخر، كنت أكتب شيئاً معبّراً من أجل مارجوري، شيئاً غريب الأطوار ومضحكاً، كنت أقرأه بصوت عال ونحن نجلس إلى المائدة بين رشفات الكونياك أو نحتسي مشروباً كحولياً قيمّاً من معينها الذي لا ينضب. ولم يكن من الصعب إرضاء هاتين

المرأتين. فقد كان كلّ ما كانتا تطلبانه مني أن أتّخذ الخطوات المطلوبة.

«كم أتمنى لو كنت أعرف كيف أكتب»، كانت مارجوري تردد في بعض الأحيان. (فقد كان فن الكتابة بالنسبة لها سحراً مطلقاً). وكانت تتساءل مثلاً، من أين كنت آتي بأفكاري. «إنها تفقس كالبيض»، كنت أقول. «وتلك الكلمات الكبيرة يا هنري؟» كانت شغوفة بها، تتعمد أن تخطئ في لفظها، تمطها على لسانها بشكل شهواني. «بالتأكيد يمكنك أن تتلاعب بها» كانت تقول. أحياناً كانت تختلق لحناً لكلمة صعبة اللفظ. كانت متعة حقيقية وأنت تسمعها تدندن لحناً ـ أو تصفرها بنعومة! كان يبدو وكأن فرجها يصعد إلى حنجرتها. وكانت غالباً ما تنفجر في الضحك وهي في وسط اللحن.

بين الحين والآخر، كنت أخرج وأتمشى وحدي. فقد كنت أعرف الحيّ جيداً، بعد أن أقمت فترة من الزمن في الطرف المقابل للحديقة. على مسافة بضع بنايات فقط ـ كانت جادة ميرتل هي خط الحدود ـ حيث تبدأ الأحياء الفقيرة. فبعد أن أتسكع عبر الأحياء الفخمة، كان من المثير أن تعبر الخط، لتختلط بالإيطاليين، والفليبينيين، والصينيين وغيرهم من «المكروهين». كانت تفوح رائحة لاذعة في الأحياء الفقيرة: مزيج من رائحة الجبن، والسلامي، والنبيذ، والبلوط، والبخور، والفلين، وقشور السمك المجفّف، والتوابل، والقهوة، وبول الأحصنة، والعرق وروائح السباكين الكريهة. وكانت الدكاكين تمتلئ بسلع فيها حنين إلى الطفولة. لقد كنت أحبّ صالة الجنائز (لا سيما الإيطالية منها)، والأماكن الدينية، ومحلات بيع الخردوات، ومخازن بيع الأطعمة، ومكتبات بيع القرطاسية. كان ذلك أشبه بالعبور من ضريح طاهر، نقي إلى وسط الحياة. للغات المستخدمة هنا وقع موسيقي، حتى لو لم يكن هناك شيء سوى تبادل الشتائم. كانت الثياب مختلفة، كلّ يرتدي بأسلوبه المعتوه. كان الحصان والعربة ما يزالان موجودين. الأطفال

منتشرون في كل مكان، يتسلون بتلك الغزارة الشهوانية التي لا يظهرها إلا أطفال الفقراء. لم تعد ترى الوجوه المتصلبة النمطية التي تميّز الأمريكيين الأصليين، بل أصبحت ترى أنماطاً عرقية، كلّ منها مشبع بشخصيتها.

إذا تابعت السير باتجاه معين، فسأصل في النهاية إلى شارع الولايات المتحدة. إنه يقع في مكان قريب من هنا حيث ولد صديقي أولريك. هنا كان من السهل أن تتسكع على غير هدى؛ ففي كلّ اتجاه تتبدى لك انعطافات خلابة. في الليل كان المرء يسير بقدمين حالمتين. بدا كلّ شيء وقد أصبح مقلوباً. أحياناً كنت أجد نفسي أتجه صوب بورو هول، وفي أحيان أخرى أجد نفسي في شارع ويليامسبرغ. دائماً ضمن مسافة قريبة من نيفي يارد، سوق والبوت الرائع، ومعامل تكرير السكر، والجسور الضخمة، والطواحين الدوارة، وصوامع الحبوب، والمسابك، ومصانع الدهان، والمقابر، وإسطبلات الأحصنة، ومصانع الزجاج، والسرّاجين، ومطاعم الشواء، وأسواق السمك، والمسالخ، ومصانع صناعة الصفيح - تجمّع هائل من رعب العمل اليومي الذي يغطي السماء بسحابة من الدخان المشبعة بالروائح الكريهة الناجمة عن احتراق المواد الكيمائية، وتفسخ اللحوم، وحرق المعادن.

عندما أفكّر بأولريك في مثل هذه النزهات سيراً على الأقدام، كانت تخطر لي العصور الوسطى أيضاً، بريوجهيل العظيم، وهيرونيموس بوش، أو بيترونيوس أربيتر، لورينزو العظيم، وفرا ليبو ليبي... ما عدا الأقزام السبعة، والعائلة السويسرية روبنسن، والسندباد البحري. لا يمكن للمرء أن يجمع الوحوش والأشياء الشاذّة والغريبة في هذا العالم إلا في حفرة مهجورة مثل بروكلن. ففي مسرح النجمة، الذي تحوّل إلى مسرح هزلي، مرفقك يحتكّ بمرافق الروّاد الذين يكسوهم شعر كثيف في هذه المنطقة المدهشة. وكان العرض دائماً بمستوى خيال الجمهور الذي كاد

ينقرض. فلا يوجد شيء محظور، ولم تكن هناك حركة يمكن اعتبارها مخلّة بالآداب، ولم تكن البذاءات التي تصدر من لسان الكوميدي سيئة جداً. كان دائماً احتفالاً بصرياً وسمعياً كالذي يشتهيه مختلس النظر. كنت منسجماً تماماً مع هذا المزيج من البذاءات.

لدى وصولي إلى البيت بعد إحدى تلك النزهات، كنت أجد عادة مارجوري ومونا بانتظاري، المائدة معدّة لتناول وجبة خفيفة. وكانت الوجبة التي تدعوها مارجوري «وجبة خفيفة» تتألف من شرائح اللحم والجبن، والسلامي، والزيتون، والمخللات، والسردين، والفجل، وسلطة البطاطا، والكافيار، والجبن السويسري، والقهوة، وفطيرة جبن ألمانية أو فطيرة التفاح، ويتوّج كلّ ذلك كأس من نبيذ البورت أو المالاجا. وخلال احتسائنا للقهوة أو بعض المشروبات الكحولية، كنا ننصت أحياناً إلى أسطوانات جون جاكوب. وكنت أفضّل أغنية كنا نحب الاستماع إليها وهي «*أندهش وأنا أهيم على وجهي*»، التي كان يغنيها بصوت واضح عالي النبرة وتلك البحة التي تميزه.

حلّ شهر أيلول الرائع، الذي يصفه تقويم المزارعين القديم بأنه الشهر الذي «تتناول فيه حيوانات النيّص ما يكفيها من التفاح الناضج، وتمضغ الأيّل حبات الفول الخضراء الملساء التي رعاها المرء بعناية». فترة من الخمول البطيء، وليس هناك شيء يدعو للقلق. ومن نافذتنا نتطلع إلى صفّ من الحدائق الجميلة التي تحفها الأشجار المهيبة. كلّ شيء مرتب في نظام كامل، كلّ شيء رائق وصاف: وقد أصبح لون أوراق الأشجار ذهبياً مائلاً للأحمر، وأخذت تتساقط فوق المروج والأرصفة، وتتناثر فوقها بتوهج. وكنت أجلس إلى مائدة الفطور، وأطلّ من موقعي على مشهد الحدائق الخلفية للمنازل، وأغرق في حلم يقظة لذيذ. وفي أيام محددة، لاتهتز ورقة أو غصين؛ ولم تكن هناك سوى عظمة الشمس بأشعتها

الساطعة، وطنين الحشرات الذي لا يتوقف. وكان من العسير على المرء أن يصدق أني عشت في هذا الحي منذ عهد ليس بالبعيد مع زوجة أخرى، وبأنني كنت أدفع أمامي عربة طفلتي الرضيعة في تلك الشوارع، أو أحمل الطفلة إلى الحديقة وأراقبها وهي تلهو فوق العشب. جالساً هناك بالقرب من النافذة. غدا ماضيّ قاتماً وثقيل الوطأة؛ كان أشبه بتجسيد آخر. يغمرني شعور لذيذ بالعزلة وأنا أسبح في الذاكرة وأعود إلى الماضي، بروّية، بمرح كالدولفين، في مياه الماضي المتخيلة الغامضة. في هذا المزاج ألمح مونا تتهادى أمامي بقميصها الداخلي الصيني، أنظر إليها كما لو كانت غريبة تماماً. وفي بعض الأحيان كنت أنسى اسمها. وفيما كنت أنظر بعيداً، أحسّ فجأة بيد على كتفي وأسمعها تقول: «بماذا تفكر؟». (حتى الآن أتذكّر بوضوح كيف كان يأتيني صوتها من بعيد) «*أفكر... أفكر*؟ لم أكن أفكر بأيّ شيء». وتشير إلى تلك النظرة المركّزة في عينيّ. «لا شيء»، أقول، «كنت أحلم فقط». ثم أسمع صوت مارجوري: «أظن أنه يفكّر بما سيكتبه»، فأقول، «لقد أصبت يا مارجوري». ثم تنسلان خارج الغرفة وتتركاني وحيداً مع ذاتي.

هل كانت مصادفة أن ألتقي في اليوم التالي صديقي أولريك، الذي أخبرني أن مود قد رأته في اليوم السابق، ورجته أن يتحدث إليّ، ويحثّني على أن أعود إليها؟ وقال لي بأسى إنها في وضع يرثى له. وقال إنها لم تكفّ عن البكاء منذ اللحظة التي زارته فيها في مرسمه الخاص حتى مغادرتها له. حتى أنها جثت على ركبتيها، وتوسلت إليه أن يعدها بألّا يترك وسيلة إلا ويطرقها لإنجاز مهمته.

قال أولريك: «قلت لها بصدق إني لا أعرف أين أجدك. قالت لابد أن تكون هناك وسيلة لتعقبك. إنها تطلب منك أن تصفح عنها كما غفرت لك. وقالت إن الطفلة تسأل عنك باستمرار. وقالت أيضاً إنها لن تعبأ بما ستفعله إن رجعت إليها... أقول لك يا هنري، لقد كانت محنة حقيقية. لقد وعدتها بأن أفعل كلّ ما بوسعي، رغم أني

أعرف أنه لا فائدة ترجى من ذلك. أعرف أن الاستماع إلى ذلك سيسبب لك الألم». تردد لحظة، ثم أردف: «ثمة شيء أودّ أن أطلبه منك، إن لم يكن هذا يثقل عليك ـ هل تمانع إذا اتصلت بها أنت نفسك؟ لا أظن أنه يمكنني أن أواجه لقاء آخر كهذا. إنه شيء يثير أعصابي».

أكدّت له أني سأعالج الأمر بنفسي. وطلبت منه ألا يقلق على أيّ منا. «اسمع يا أولريك، دعنا ننسَ هذا الأمر الآن. تعال معي وتناول طعام الغداء معنا. إن مونا ستسر برؤيتك مرة أخرى. وأظن أنك ستحبّ مارجوري». لمعت عيناه في الحال، وبلل شفتيه الغضتين بطرف لسانه.

«حسناً، قبلت»، قال وصفع فخذه «يا إلهي يجب أن نلتقي. تعرف، لقد بدأت أشك في أني سأراك ثانية. لا بدّ أن في جعبتك الكثير تريد أن تخبرني عنه».

كما حدست، حصل انسجام تام بين مارجوري وأولريك. تناولنا غداء رائعاً مع زجاجتين من نبيذ الراين. وبعد الغداء تمدد أولريك على الأريكة وأخذ غفوة. قال إنه يعمل ساعات طويلة لحملة دعائية عن الأناناس. وبعد أن يحصل على قسط من الراحة سيحاول أن يرسم لوحة أو لوحتين. ويتمنى أن تقبل مارجوري وتقف أمامه كموديل ليرسمها، نعم؟ أغمض عيناً واحدة. وكانت العين الأخرى حيوية وتتمايل تحت حاجبه ذي الشكل الخنفسي. «لا بد أنكم تأكلون جيداً هنا»، قال وشبك يديه فوق بطنه. نهض قليلاً على أحد مرفقيه وظلّل عينيه بيده. «هل تمانعون إذا أنزلتم خصاص النافذة قليلاً؟ تماماً، هذا جيد». أطلق تنهيدة خفيفة وسرعان ما غط بهدوء في النوم.

«إن لم تمانعي»، قلت لمارجوري «سنأخذ غفوة. نادِنا عندما يستيقظ».

قبيل حلول المساء، وجدنا أولريك جالساً على الأريكة يرشف شراباً بارداً. كان منتعشاً تماماً وفي مزاج رائع.

«يا إلهي، من الممتع أن أكون معكم ثانية»، قال، زامّا شفتيه، محركاً ذلك الحاجب الجهنمي إلى الأعلى والأسفل. «كنت أحكي لمارجوري عن حياتنا في الماضي». ابتسم لنا ابتسامة رقيقة، ووضع شرابه بعناية على الطاولة الصغيرة بجانبه، وأخذ نفساً عميقاً. «عندما لا أراك لفترة طويلة، تظهر أشياء كثيرة أريد أن أسألك عنها. أدوّن مئات الملاحظات ولكني عندما أراك أنسى كلّ شيء... ألم تكن تقيم في منطقة قريبة من هنا في الماضي مع أومارا: ماذا كان اسمه ثانية، ذلك الهندوسي المجنون... ذلك الشخص ذو الشعر الطويل والضحكة الهستيرية؟».

«تعني غوفيندار»، قلت.

«هو بذاته. كان غريب الأطوار، وكنت تبدي له تقديراً كثيراً كما أذكر. ألم يكن يؤلّف كتابا في ذلك الوقت؟».

«لقد ألّف عدة كتب»، قلت. «كان أحدها دراسة طويلة عن الغيبيات، كانت دراسة رائعة جداً. لم أدرك أنها رائعة إلا بعد سنوات، عندما بدأت أقارن عمله بالمجلدات التي تبعث على النوم التي كتبها كتابنا الأغبياء المشهورون. يمكنني القول إن غوفيندار دادائي غيبي. لكنه لم يكن بالنسبة لنا في تلك الأيام سوى مزحة. كنت فظاً عديم الإحساس، كما تعرف. لم أكن أعير اهتماماً للفلسفة الهندوسية آنذاك؛ كان من الأجدر به أن يؤلّف كتبه بالسنسكريتية. لقد عاد إلى الهند الآن - قيل لي إنه أصبح واحداً من أهم أتباع غاندي. لعله كان أكثر الهندوس الذين التقيت بهم غرابة».

قال أولريك: «لا بد أنك تعرف، أن لديك عدداً كبيراً منهم. وهناك كذلك أولئك المصريون - خاصة ذلك الأحول...».

«تعني شكر الله!».

«يالها من ذاكرة! نعم، أتذكّر الاسم الآن. والشخص الآخر الذي كتب لك تلك الرسائل الوردية التي لم تكن لها نهاية؟».

«محمد علي ثروت».

«يا إلهي، يا لها من أسماء! كان لولو يا هنري. أتمنّى أنك تحتفظ بتلك الرسائل».

«وذلك الشاب الذي لا يمكنني أن أنساه أبداً يا أولريك. ذلك الشاب اليهودي سد هاريس. هل تتذكّره ـ عيد ميلاد سعيد، أيها الرئيس كارمايكل، ولا تنسى أن تطلب من بابا نويل أن يعطي جميع الصبية السعاة علاوة!»، ياله من شاب! يمكنني أن أراه مرة أخرى، وهو جالس إلى جانبي يملأ استمارة الطلب؛ سد هاريس، ولد في رحم أمه، العنوان على الجانب الشرقي، الدين مجهول، العمل السابق: ساعي، ماسح أحذية، تأمين ضد الحريق، مفتاح المفاتيح، رجاّج ماء صودا، منقذ، شراب للسعال، وعيد ميلاد سعيد للعلم الأمريكي الذي يرفرف من فوق تمثال الحريّة».

«أظن أنك لم تمنحه الوظيفة؟»

«لا، لكنه لم يكفّ عن المجيء كل أسبوع ويملأ استمارة فارغة. كانت الابتسامة لا تفارق وجهه، كان يصفر، يصرخ: عيد ميلاد سعيد للجميع، وكنت أرمي له ربع دولار ليذهب إلى السينما. وكنت أتلقى في اليوم التالي رسالة منه يخبرني فيها عما شاهده، سواء جلس في الصف الثالث أو الرابع، كم حبة فستق أكل، وما هو البرنامج القادم، وفيما إذا كانت توجد مطافئ حريق أم لا. وفي النهاية كان يوقّع اسمه بالكامل: سيدني روزفلت هاريس، أو سيدني ر. هاريس، أو س. روزفلت هاريس، أو س. ر. هاريس، أو مجرد سيدني ـ الواحدة بعد الأخرى، واحدة تحت الأخرى، تليها بالطبع تحية عيد الميلاد الدائمة. وأحيانا كان يضيف حاشية يقول فيها إنه يفضّل أن يكون ساعياً ليلياً، أو عامل برق، أو مجرد مدير. إنه مصدر إزعاج،

بالطبع، لكني كنت أجد متعة في زياراته ـ كانت تجعلني أشعر بالحبور. ذات مرة قدمت له بوقاً قديماً كنت قد وجدته في كيس قمامة. كان يبدو في حالة يرثى لها، وكانت جميع المفاتيح مهترئة. فلمّعه وصقله، وربطه حول كتفه بخيط، وجاء إلى مكتبي ذات صباح، كالملاك جبريل. لم يلحظه أحد وهو يصعد الدرج.

كان هناك حوالى خمسين صبياً ينتظرون توظيفهم، وكانت الهواتف ترن بجنون ـ في تلك الأيام ظننت أن أحد شراييني سينفجر. وفجأة حدث انفجار كبير. كدت أسقط من مكاني. هناك كان يقف سيدني الصغير، يحاول أن ينفخ في البوق. وعلى الفور علت الضوضاء. وقبل أن نتمكن من الإمساك بتلابيبه، أخذ سيدني يغني النشيد الوطني؛ وبالطبع انضم إليه الأولاد الآخرون، يسخرون، يضحكون، يشتمون، يقلبون المحابر، يرمون الأقلام مثل أسهم صغيرة، يرسمون خطوطاً على الجدران بالطباشير، وبشكل عام كانوا يثيرون كثيراً من اللغط والشجار. تعين علينا أن نخرج من المكتب ونقفل باب الطابق السفلي. وفي الخارج كان البوق مايزال يصدر أصواته اللعينة... كان سيدني مثل حمام الوقواق، ولكن بطريقة تبعث على البهجة. لم يكن بوسعي أن أغضب منه. حاولت أن أعرف أين يقيم، لكن ذلك كان مستحيلاً. لعله لم يكن لديه منزل، ربما كان ينام في الشوارع. وفي الشتاء كان يرتدي معطف رجل يصل إلى الأرض، وقفازات من الصوف. ولم يرتد في حياته قبعة، إلا على سبيل المزاح. ذات يوم في منتصف الشتاء جاء وهو يرتدي ذلك المعطف والقفازات المشوّهة ـ ويضع على رأسه قبعة ضخمة من القش، من النوع المكسيكي ذات تاج مخروطي عملاق. جاء إلى مكتبي، انحنى قليلاً، وخلع قبعته الضخمة. كانت مليئة بالثلج. نفض الثلج على مكتبي، ثم أخذ يجري كالجرذ. ثم توقف عند الباب لحظة وصاح عيد ميلاد سعيد، ولا تنسى أن تبارك الرئيس كارمايكل».

«بالتأكيد أذكر تلك الأيام»، قال أولريك، مزدرداً بقايا شرابه.

«لا أفهم أبداً كيف استطعت أن تحتمل تلك الوظيفة. أنا واثق أنه لا يوجد مدير توظيف مثلك في نيويورك كلها».

«تعني في أمريكا كلها»، قالت مونا.

تطلع أولريك حواليه وقال: «إنها حياة أخرى تماماً، هذه. أنا أحسدك... ما سأتذكّره عن ذلك الشخص» ـ جال بنظره من واحد إلى آخر بوهج شديد ـ «مرحه الذي لا يخبو. لا أظن أني رأيته مكتئباً أكثر من مرة أو مرتين طوال الفترة التي عرفته بها. طالما هناك طعام ومكان يقيم فيه... أليس كذلك؟» ورمقني بنظره مفعمة بالمودة وقال «يسألني بعض أصدقائي ـ تعرف من أعني ـ من حين لآخر إن كان فيك مس من الجنون. وأقول لهم دائماً، بالتأكيد... ومن المؤسف أننا ليس فينا جميعاً مس من الجنون مثلك. ثم يسألوني كيف تعيل نفسك وعائلتك، وهنا أستسلم».

أخذنا نضحك جميعنا بشكل هستيري. وضحك أولريك من قلبه أكثر منا. وقد ضحك من نفسه لأنه أثار هذه المسألة السخيفة. أما مونا، بالطبع، فقد كان لديها سبب مختلف للضحك.

«أحيانا ينتابني إحساس بأني أعيش مع مجنون»، قالت والدموع تطفر من عينيها.

«نعم؟» قال أولريك يمط الكلمة.

«في بعض الأحيان يستيقظ في منتصف الليل ويأخذ في الضحك. إنه يضحك على أشياء حدثت منذ ثماني سنوات. عادة ما يكون شيئاً مأساوياً».

«لتحل بي اللعنة»، قال أولريك.

«في بعض الأحيان يضحك هكذا بعد أن تبلغ الأمور مبلغاً ميؤوساً منه ولا يعرف ماذا يفعل. إنه يثير قلقي حين يضحك بهذه الطريقة».

«هيا»، قلت، «إنها وسيلة أخرى للبكاء».

«اسمع هذا!» قال أولريك. «يا إلهي، أريد أن أرى الأشياء بهذه الطريقة». رفع الكأس الفارغ لمارجوري لكي تملأه له.

«لعله من السخف أن أسأل» واصل كلامه، وقد أخذ جرعة كاملة من الشراب، «لكن عندما تدخل في حالة كهذه، ألا يتبعها عادة نوبة مؤلمة نوعاً ما من الكآبة؟».

هززت رأسي موافقاً. «يمكن أن يعقبها أيّ شيء»، أجبت. «المهم هو أن أتناول أولاً وجبة طعام جيدة. هذا يجعلني أشعر بالانتشاء، يجعلني أتوازن».

«إنك لا تشرب لكي تزيل عنك المزاج السيء، أليس كذلك؟ ففف! لا تجب إن أردت... أعرف أنك لا تفعل ذلك. وثمة شيء آخر أحسدك عليه... وجبة طعام جيدة فقط، كما تقول. كم هو الأمر بسيط بالنسبة لك!».

«أتظن ذلك؟» قلت. «كنت أتمنى أن يكون الأمر كذلك... حسناً، دعنا نتجاوز هذا الموضوع! بالنسبة لمارجوري، لم يعد الطعام مشكلة. فأنا لم أتناول طعاماً في حياتي ألذّ من هذا».

«أظن ذلك»، قال أولريك ملمِّظاً شفتيه. «منَ الغرابة بالنسبة لي - أن العمل هو الذي يثير شهيتي غالباً. أظن أني من النوع القلق. أشعر دائماً بوخز الضمير. لقد ورثت جميع صفات أبي السيئة. ومنها هذه»، وأخذ ينقر الكأس الذي كان يحمله.

«هراء»، قلت، «إنك تنشد الكمال فقط».

«يجب عليك أن تتزوّج»، قالت مونا، وهي تعلم أن ذلك سيثير ردة فعله.

«هذا أمر آخر»، قال أولريك، بشيء من التجهم «أعامل فتاتي بطريقة سيئة. إننا نعيش معاً منذ خمس سنوات - لكنها إذا تجرأت وذكرت كلمة زواج فهذا يصيبني بالغثيان. إن مجرد التفكير بذلك يرعبني. إني أناني إلى درجة أني أريدها أن تكون لي ومع ذلك فإني

أدمّر فرصها في الزواج. أحياناً أطلب منها أن تتركني وتجد شخصاً آخر. بالطبع، هذا يجعل الأمور أسوأ. ثم أعدها بفتور أني سأتزوجها، وهذا ما أنساه في اليوم التالي. المسكينة لا تعرف ماذا تفعل». نظر إلينا نظرة مشوبة بالخجل والخبث. «أظن أني سأبقى عازباً طوال حياتي. أنا أناني حتى النخاع».

هنا انفجرنا جميعنا في ضحكة مجلجلة.

«أظن أن علينا التفكير بالعشاء بعد قليل»، قالت مارجوري. «لماذا لا تذهبا وتتمشيا في الخارج قليلاً؟ عودا بعد ساعة وسيكون طعام العشاء جاهزاً».

قال أولريك إنها فكرة جيدة.

«حاولا أن تجلبا قطعة جيدة من جبن روكوفورت»، قالت مارجوري ونحن خارجان. «ورغيف من الشعير الحامض، إذا تمكنتما».

رحنا نسير على غير هدى في أحد الشوارع الواسعة الراقية التي يتسم بها هذا الحيّ. كنا نخرج ونتمشى في أحياء مشابهة. ورحت أذكّر أولريك بالأيام الخوالي عندما كنا نتنزّه في جادة بوشويك عصر أيام الأحد، لننظر إلى الفتيات الصغيرات الخجولات اللاتي كنا مغرمين بهن. كان أشبه باستعراض عيد الفصح، كل يوم أحد - من الكنيسة البيضاء الصغيرة حتى الخزان بالقرب من مقبرة تلّ السرو. وعند منتصف الطريق يعبر المرء كنيسة فرانسوا دو سال الكاثوليكية الجنائزية، القابعة بعد شارعين من حديقة ترومر. إني أتحدث عن فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، الفترة التي بدأت فيها شهرة رجال في فرنسا من أمثال بيكاسو، دراين، ماتيس، فلامنك وآخرين في الظهور. كان الوقت مايزال فترة نهاية القرن. وكانت الحياة سهلة، راغدة، رغم أننا لم نكن ندرك ذلك. ولم يكن ثمة شيء يدور في رؤوسنا سوى الفتيات. فلو تمكنا من إيقافهن وتجاذبنا أطراف الحديث معهن لبضع دقائق لأصبحنا في السماء

السابعة. وكنا نكرر هذه النزهات في المساء خلال أيام الأسبوع. ثم بدأنا نصبح أكثر شجاعة ووقاحة. فإذا حالفنا الحظ وصادفنا فتاتين ـ قرب الخزان أو في طرقات الحديقة المظلمة، بل حتى عند حدود المقبرة ـ كنا حقاً نحاول مناغاتهن بجرأة أكبر. وكان بوسع أولريك أن يتذكّر أسماءهن كلّهن. ثمة فتاتان تذكرهما بشكل خاص وهما تينا وهنرييتا. كانتا في صف التخرج الذي كنت فيه، لكنهن كانتا تكبران باقي طلاب الصف، لأنهن كانتا متخلفتين سنتين أو ثلاث سنوات، مما يعني أنهما كانتا ناضجتين. ولم تكونا ناضجتين فقط، بل كانتا تطفحان جنساً. وكان الجميع يعرف أنهما كانتا فتاتين فاسقتين. فقد كانت تينا جريئة جداً، كإحدى نساء ديغا؛ أما هنرييتا فكانت أضخم، وتقطر شهوة. وكانتا دائماً تتهامسان بقصص مثيرة سافلة، لإمتاع وتسلية طلاب الصف. وكانت الواحدة منهن ترفع أحياناً ثوبها فوق ركبتيها لنتمكن من إلقاء نظرة. أو كانت تينا أحياناً تمسك هنرييتا من حلمة نهدها وتقرصها وتعصرها مداعبة ـ كل ذلك يجري في الصف، من وراء ظهر المعلمة، بالطبع. ألم يكن من الطبيعي، أن نكون لهما بالمرصاد عندما نخرج لنتمشى في المساء؟ كان ذلك يحدث بين الحين والآخر. وبالكاد كنا نتبادل أية كلمات. بل كنا ندفعهما ونجعلهما تستندان إلى السور الحديدي، أو إلى شاهدة قبر، ويسيل لعابنا فوق جسديهما، نداعبهما، نلمسهما ـ إلا ذلك الشيء الحقيقي. وكان الأولاد الأكثر تجربة والأكبر سناً يفعلون ذلك. في أحسن الأحوال، كنا ننيكهما على الناشف. وكنا نعود إلى البيت مترنحين، خصيتانا تؤلمانا مثل ألم ستين ضرساً.

«هل قلت لك قبل الآن»، قال أولريك، «كيف حاولت أن أضاجع الآنسة بيرنسفيثر، معلمتنا في صف التخرج؟ أعني، بالطبع، بعد عدّة سنوات من تخرّجنا. كم كنت أحمق في ذلك الوقت! حسناً، كنت تعرف كم كانت لذيذة وجيدة للنيك... لم تكن تغيب عن بالي. وذات يوم كتبت لها رسالة ـ كنت قد استأجرت مرسماً صغيراً وخيل لي أني أصبحت

فناناً ـ ولدهشتي ردت على رسالتي برسالة تحثّني فيها على الاتصال بها. كنت مستثاراً للغاية حتى كدت أبول في سروالي. خابرتها ودعوتها إلى المرسم. بالطبع أعددت العدة لمجيئها ـ كلّ أنواع المشروبات، وأنواع من الحلوى اللذيذة. كانت لوحاتي مبعثرة في المرسم، وكنت قد وضعت بضع لوحات عارية على الأريكة بشكل ظاهر، وما إلى هنالك. تعرف ما أعني. ما نسيته هو الفرق في العمر. كانت ما تزال شهية، بالطبع، لكنها كانت امرأة تماماً إلى حد أنها أثارت مخاوفي. استغرق الأمر شيئاً من المناورة لكي أهيء الأجواء. حاولت مساعدتي، لكني كنت خجولاً جداً، أخرق جداً، بحيث كدت أصاب بانهيار عصبي. باختصار، ليس من السهل أن تنزع سروال معلمتك المفضّلة».

توقف وأخذ يضحك وأذناه تهتزان. «هل فعلتها في النهاية؟» سألته أحثه على مواصلة حديثه.

«فعلتها في الحقيقة»، قال، «لكن بعد أن جرعت قدراً كبيراً من المشروب. في ذلك الوقت كانت في غاية اللهفة والإثارة، بحيث أنها دست يدها في بنطالي وراحت تبحث عن قضيبي، ثم أخرجته وجذبتني فوقها. كان لدي انتصاب كالانتصاب الذي يأتيك أحياناً بسبب الشراب. لقد فعلنا كل شيء تقريباً وظل منتصباً. كانت مستلقية على الأريكة لا ترتدي سوى بلوزتها، تلهث مثل كلبة. غسلته بالماء البارد، بأمل أن تنجح هذه الخدعة. «تعال»، قالت، «أريد أن أمتّع نظري بقضيبك». «أولريك، لماذا لم تعلمني بهذا عندما كنت في صفي؟» نظرت إليها مندهشاً.

«أتعنين أنك ستدعيني أفعل...؟». «*أدعك*؟» قالت ـ «سآكلك حيّاً. ألم يخبرك الأولاد الآخرون عني أبداً؟»، لم أكد أصدق أذنيّ. فقد كنت واقفاً فوقها طوال الوقت يا هنري، وقضيبي متجه إلى الأعلى. بغتة، نهضت واستوت في جلستها وأمسكت به؛ ظننت أنها ستشطره إلى شطرين. وسرعان ما جثت على ركبتيها، وراحت تمصه. حتى

تلك اللحظة لم أقذف. بدأت أصبح مسعوراً. وأخيرا قلبتها على قفاها، وأولجته فيها من الخلف ـ حتى بدأت تتأوه. ثم استليته منها، سحبتها من فوق الأريكة، ورفعتها من خصرها، وجعلتها تسير على يديها حول المرسم. كان أشبه بدفع عربة يدّ مقولبة عاليها سافلها... ورغم ذلك، لم يكن لذلك أي تأثير. يائساً، جلست في الكرسي الكبير وامتطيتها. «لنجلس وأضاجعك»، قلت «أو دعينا نتوقف إلى أن يذوي». جلسنا هناك وتناولنا كأساً أخرى. كان مايزال كطير متوحش عندما انفصلت عنها. إلاّ أنه لم يرتخِ... لكن اسمع يا هنري. ماذا تظن أنها قالت لي في تلك اللحظة؟

نظرت إليه نظرة لا معنى لها. ثم قلت: «لا تقل لي! بحق المسيح، دعنا نعود. أشعر أني أريد أن أنال إحداهن قبل أن نجلس لتناول الطعام».

رمش بعينيه كبومة. كان على وشك أن يفتح فمه ثانية عندما قلت: «بالمناسبة، هل حاولت مع مارجوري؟ إنها تموت عليه، كما تعرف».

«ليست فكرة سيئة»، قال أولريك. «هل تظن أنه يمكننا أن نتدبرها... بحذر؟».

«اترك الأمر لي».

أخذنا نغذ الخطى. عندما وصلنا إلى باب البيت، كنا قد أخذنا نهرول بخطوات مضاعفة. أخذت مونا جانباً، وطرحت عليها الفكرة.

«لماذا لا تنتظر حتى ننتهي من العشاء؟» اقترحت. «أعني بالنسبة لمارجوري وأولريك». أغلقنا الباب وراءنا وضاجعتها بسرعة، فيما كان أولريك ومارجوري ما يزالان يتناقشان في الأمر. وعندما انضممنا إليهما ثانية، كانت مارجوري تجلس في حضن أولريك، تنورتها منحسرة فوق ركبتيها.

«لماذا لا ترتدين شيئاً مريحاً؟» قالت مونا. «شيئاً كهذا»،

وفتحت الكيمونو الذي كانت ترتديه على وسعه وكشفت عن لحمها العاري.

وعلى الفور حذت مارجوري حذوها. وارتديت أنا وأولريك بيجاما. وبهذه الطريقة جلسنا لتناول طعام العشاء.

تغلغلت وجبة الطعام التي ستتوجها حفلة جنسية جماعية في الأعضاء التي تحتاج إلى غذاء مباشرة. كما لو كانت العامل الضئيل الذي كان مسؤولاً عن تنظيم المرور في النظام المستقل برمته. فقد بدأت بالمحار القابع فوق الصدفات نصف المفتوحة والكافيار، أعقبها حساء لذيذ، وشرائح لحم البقر، وبطاطا مهروسة، وبازلاء فرنسية، وجبن، وشرائح من الخوخ والكريم، منسجمة تماماً مع البومارد الحقيقي الذي كشفت عنه مارجوري. ومع القهوة والمشروبات الكحولية تناولنا حلوى ثانية - آيس كريم فرنسية مشبعة بالبنيديكيتي والويسكي. وبين الوجبات كانت مارجوري تداعب قضيب أولريك. وانفتحت أثواب الكيمونو على مصراعيها الآن، وانكشف الثديان، وكانت سرة البطن تعلو وتهبط برقة. وعرضاً سقطت إحدى حلمتي مارجوري في الكريمة المخفوقة، مما أتاح لي الفرصة لأمتص ثديها للحظة أو لحظتين قصيرتين. وحاول أولريك أن يوازن طبقاً على قضيبه، لكنه لم يفلح. كانت البهجة تعم المكان.

كنا ما نزال نلتهم التورتة، والفطائر المنفوشة المكسوة بالكريمة، وكل ما قدمته لنا المرأتان، ودخلنا في حديث عن الأيام الجميلة الماضية. وغيّرت المرأتان موقعيهما وأصبحتا تجلسان الآن في أحضاننا. ولم يأخذ الأمر سوى قليل من التلوّي والارتعاش قبل أن يعدّلن من جلستهما. وكانت تأتي أحدنا هزة الرعشة بين الحين والآخر، فكان يلوذ بالصمت قليلاً ويهدأ، ثم سرعان ما يستعيد نشاطه مع قليل من الآيس كريم، والبنيديكيتي والويسكي.

بعد قليل انتقلنا من المائدة إلى الأرائك، وبين الغمزات، واصلنا أحاديثنا عن أكثر المواضيع تنوعاً. كان حديثاً طبيعياً سلساً، ولم

يشعر أحدنا بالخجل إذا ما أخذ غفوة. أطفئت الأنوار، وكان نسيم معطّر دافئ يهب عبر النوافذ المفتوحة، وكنا قد شبعنا وارتوينا جيداً، بحيث لم يكن يهمنا في أقل تقدير ما كان يقال، أو ما الرد على ذلك.

وغفا أولريك أثناء حديثه مع مارجوري. ولم يمض على غفوته أكثر من خمس دقائق حتى صحا جافلاً، كأنه يصيح لنفسه: «يا إلهي، ظننت ذلك!»، وعندما أدرك أنه لم يكن وحده، غمغم شيئاً غير مفهوم وارتفع قليلاً على أحد مرفقيه.

«هل نمت طويلاً؟» سأل.

«حوالى خمس دقائق»، قالت مارجوري.

«هذا مضحك. بدت لي كأنها ساعات. لقد حلمت بأحد تلك الأحلام ثانية». استدار نحوي وقال: «أتعرف يا هنري، تلك الأحلام التي تحاول أن تثبت فيها لنفسك أنك تحلم فقط».

كان عليّ أن أعترف أنه لم يسبق لي أن حلمت هكذا حلم.

كان بمقدرة أولريك دائماً أن يصف أحلامه بتفصيل شديد. إنها تفزعه بعض الشيء لأنها كانت تشير في رأيه إلى أنه لم يدخل قط في حالة من اللاالشعور التام. ففي الحلم يصبح عقله أكثر نشاطاً مما هو في حالة اليقظة. كان عقله المنطقيّ هو الذي يحتل المقدمة وهو نائم. وقد أثار هذا الأمر قلقه. وتابع وصفه للآلام التي لا نهاية لها التي تعرّض لها وهو يحلم، لكي يبرهن لنفسه أنه لم يكن يقظاً بل يحلم. فكان يأخذ، مثلاً كرسياً ثقيلاً ذا مسند، ويرفعه عالياً في الهواء بإصبعين، وفي بعض الأحيان عندما يكون أخوه جالساً على الكرسي. وفي الحلم كان يقول لنفسه: «هناك، لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك وهو في حالة اليقظة ـ مستحيل!»، ثم كان يؤدّي أعمالاً مستحيلة أخرى، بعضها استثنائي تماماً، كالطيران عبر نافذة مفتوحة قليلاً ثم يعود من ذات المكان، دون أن يجعّد ملابسه أو

يشعّث شعره. «حسناً، سأشرح لك الأمر يا هنري: لكي تبرهن لنفسك أنك تحلم يجب أن تكون مستيقظاً، وإذا كنت مستيقظاً فلا يمكن أن تكون تحلم، أليس كذلك؟».

وفجأة تذكّر أن الشيء الذي جعله يبدأ يحلم، هو عندما أبصر نسخة من مجلة «*التحول*» ملقاة في الخزانة. وذكّرني أنني كنت قد أعرته ذات مرة نسخة منها تضم فقرة رائعة عن تفسير الأحلام. «إنك تعرف من هو الرجل الذي أقصده»، قال، وهو يقضم أصابعه.

«غوتفريد بن؟»

«نعم، إنه هو... غريب ذلك الرجل. أتمنى أن أتمكن من قراءة المزيد من أعماله... بالمناسبة، ألا يوجد لديك ذلك العدد؟».

«نعم، عندي يا أولريك. هل تودّ أن تراه؟»

«انظر»، قال، «أريدك أن تقرأ هذا المقطع لنا بصوت عال ـ هذا إذا لم يمانع الآخرون في ذلك؟».

وجدت نسخة من «*التحول*» وقلبت على الصفحة.

«لننتقل الآن إلى الحقائق النفسية. في الليل تبدأ جميع نوافير الماء المتصاعدة تتحدث بنغمة أعلى؛ روحي أيضاً هي نافورة متصاعدة»، يقول زرادشت؛... «في حياة الليل تبدو منفية» ـ هذه هي الكلمات المشهورة من كتاب فرويد «*تفسير الأحلام*» ـ في الليل تبدو الحياة التي كانت تتحكم أثناء النهار منفية». *هذه الجملة تلخص علم النفس الحديث كله*. تكمن فكرتها العظيمة في طبقات النفس، المبدأ الجيولوجي. فأصل الروح في الطبقات وهي مبنية فيها، وإن ما تعلمناه من قبل في المجال العضوي في ما يتعلق بتكوين الدماغ الكبير من وجهة النظر التشريحية التطورية للدهر المتلاشي، يبينه الحلم، يكشفه الطفل، يكشفه الاختلال العقلي كحقيقة ما تزال قائمة. إننا نحمل معنا القديم».

«اسمع، اسمع!» صاح أولريك.

«إننا نحمل القدماء في أرواحنا وعندما يسترخي العقل المكتسب، كما في الحلم أو في حالة الثمالة، تظهر بشعائرها، بأسبابها المنطقية، وتمنحنا ساعة من المشاركة الباطنية... عندما...».

قاطعني أولريك ثانية وقال: المعذرة، لكني أتساءل إن كان بوسعنا أن نسمع تلك الفقرة مرة أخرى؟».

«بالتأكيد، لم لا؟» أعدت قراءتها ببطء، تاركاً المجال لاستيعاب كل عبارة بدقة.

«الجملة التالية جميلة أيضاً»، قال أولريك. «أكاد أحفظها عن ظهر قلب».

تابعت: «حين يتفكك الهيكل العلوي المنطقي، ويصبح الرأس متعباً نتيجة هجمة الحالات ما قبل القمرية...».

«يا إلهي، يا لها من لغة رائعة! آسف يا هنري، لم أقصد أن أقاطعك ثانية».

«عندما يصبح الرأس متعباً من هجمة الحالات ما قبل القمرية، تنفتح حدود الوعي التي يجري بسببها صراع دائم، ثم يظهر الماضي، العقل الباطن، في الصيرورة السحرية والتعرف إلى «الأنا» في التجربة المبكرة في كل مكان وفي الأبدي. الميراث الوراثي...».

«الدماغ الأوسط!» صاح أولريك. «يا إلهي يا هنري، يا لها من جملة جميلة! أريدك أن تفسرها لي أكثر. لكن لا، ليس الآن... ربما في وقت لا حق. المعذرة»، ثم أضاف «شكراً يا هنري، كان ذلك رائعاً حقاً» ثم استدار نحو الفتاتين وقال: «هل تتساءلان لماذا أنا مولع بهذا الرجل؟ (ألقى نظرة متوهجة نحوي). لا يوجد أحد يأتي إلى مرسمي يمكنه أن يجلب لي مثل هذا الغذاء العقلي. لا أعرف من أين يأتي بهذه الأشياء ـ بالتأكيد لا يمكنني أن أعثر عليها وحدي. ولا ريب أن هذا يظهر كيف أننا مختلفان».

توقف لحظة لملء كأسه. «أنت تعرف يا هنري، إن كنت لا تمانع في قولي هذا، يمكنك أنت أن تكتب فقرة كهذه، ألا تظن ذلك؟ ربما لهذا السبب أحبّ غوتفريد بن كثيراً». ثم نظر إلى مارجوري ومونا وقال: «اغفرا لي التحدث عن هذه الأشياء. أعرف أنها ليست اللحظة المناسبة للدخول في مثل هذه المناقشات المعقدة. كنت سأسأل هنري عن شيء حول الصفة الوراثية للدماغ الأوسط، لكني أظن أنه يمكننا أن نؤجله إلى وقت أنسب. ماذا عن كأس أخيرة للوداع؟ وبعدها سأذهب».

ملأ كؤوسنا، ثم توّجه إلى رفّ الموقد واتكأ عليه.

«أظن أنه سيكون على الدوام أمراً يدعو للتساؤل ولغزاً بالنسبة لي»، قال ببطء، وهو يمط كلماته، «كيف التقينا في ذلك اليوم في الجادة السادسة بعد سنوات عديدة من الانقطاع. كان يوم سعد بالنسبة لي! قد لا تصدق ذلك، لكني في أغلب الأحيان عندما أكون في مكان غريب ـ في وسط الصحراء الكبرى مثلاً ـ كنت أقول لنفسي: أتساءل يا ترى ما كان سيقول هنري لو أنه هنا معي. نعم، كنت غالباً في بالي، رغم أننا فقدنا أي اتصال مع بعضنا البعض. لم أكن أعرف أنك أصبحت كاتباً. لا، لكني كنت أعرف دائماً أنك ستصبح شيئاً أو شخصية هامة. حتى عندما كنت طفلاً كنت تمنح شيئاً مختلفاً، شيئاً فريداً. كنت دائماً تضفي جواً أكثر حدة، أكثر توهجاً. كنت تشكل تحدّياً لنا جميعاً. ربما لم تكن تدرك ذلك. وحتى الآن مايزال الأشخاص الذين التقوا بك مرة واحدة يسألوني ـ كيف حال هنري ميلر؟ *هنري ميلر* ذاك! تفهم ما أقصد؟ إنهم لا يقولون ذلك عن أي شخص آخر أعرفه. أوه حسناً... أعرف أني قد سمعت هذا عشرات المرات».

«لماذا لا تأخذ قسطاً من الراحة وتنام هنا الليلة؟» قالت مونا.

«لا أريد شيئاً أفضل من هذا، لكن...» قوّس حاجبه الأيسر وزمّ شفتيه، وأخذ يهيئ نفسه للرحيل وبدأ يصافحنا. ثم تابع قائلاً: «أنا

واثق بأني سأحلم حلماً رائعاً الليلة. لا حلماً واحداً بل العشرات منها! سأغوص في الرواسب الطينية الأساسية، في محاولة لأن أبرهن لنفسي بأنني أعيش في العصر الجليدي. ولعلي سألتقي بالتنين وربما بالديناصورات ـ ما لم تكن الاضطرابات العقلية السابقة قد حطمت الغطاء كليّا». تمطّق بشفتيه، وكأنه ابتلع دزينة من المحارات المسيلة للعاب. كان قد أصبح على عتبة الباب الآن. «بالمناسبة، أتساءل إن كنت أثقل عليك إن طلبت منك أن تعيرني كتاب فوريل مرة أخرى؟ ثمة مقطع عن الاستبداد العشقي الذي أودّ أن أعيد قراءته».

فيما كنت على وشك أن آوي إلى الفراش فتحت «الصيرورة» عشوائيا. ووقعت عيناي على هذه الجملة: «إن وجودنا الحيوي الإنساني يحمل في كينونته مائتي أساس مبدئي: كم تحمل الروح أشياء غير معروفة».

كم تحمل الروح! بهذه العبارة ذهبت في غيبوبة عميقة. في نومي أستعيد مشهداً من الحياة... أنا مع ستانلي ثانية. نغذّ الخطى في الظلام نحو المنزل حيث تقيم مود والصغيرة. ستانلي يقول إن عمل ذلك شيء عقيم وسخيف، لكني بما أن هذه هي رغبتي فسيتابع الأمر معي. لديه مفتاح الباب الأمامي؛ يواصل تأكيده لي أن لا أحد في البيت. كنت أريد أن أرى كيف تبدو غرفة الطفلة. لقد مضى زمن طويل منذ أن رأيتها وأخشى أني عندما أراها في المرة القادمة ـ متى؟ ـ لن تعود تعرفني. أسأل ستانلي كيف أصبح حجمها، ماذا تلبس، كيف تتكلّم وما إلى ذلك. ستانلي يجيب بخشونة وفظاظة، وكالعادة لا يرى من داعٍ لهذه الزيارة.

ندلف إلى المنزل، وأفتش الغرفة بدقة. ألعابها المتناثرة في كل مكان تثير اهتمامي. أبكي بصمت، وأنا أتفحص ألعابها. بغتة أرى دمية قديمة محشوة محطّمة ملقاة على أحد الرفوف في الزاوية... أدسّها تحت إبطي وأشير إلى ستانلي أن نغادر المكان، لا أستطيع أن أتفوه بكلمة، جسدي كله يرتعش.

عندما استيقظت في اليوم التالي، كان الحلم مايزال ماثلاً في مخيلتي. وكالعادة ارتديت ثيابي: قميص مهترئ من الدونيم، بنطال ممزق حائل اللون، حذاء بالٍ. لم أكن قد حلقت ذقني منذ يومين. كان رأسي ثقيلاً، ولم أكن أشعر الارتياح. كان الطقس قد تغير في الليل. هبّت رياح خريفية باردة منذرة بهطول أمطار غزيرة. خائر النفس، رحت أقتل ساعات الصباح. بعد الغداء ارتديت سترة صوفية مثقوبة عند المرفقين، وأملت قبعتي فوق أذني، وخرجت. أصبحت مهووساً بضرورة أن أرى الطفلة ثانية، مهما كلف الأمر.

خرجت من محطة قطار الأنفاق على بعد مسافة قليلة من المنزل، وبعينين مفتوحتين بحذر توجهت صوب منطقة الخطر. اقتربت من المنزل حتى وصلت إلى المنعطف على بعد نصف شارع فقط. وقفت هناك فترة طويلة من الزمن، عيناي مثبتتان على البوابة، متمنياً أن أرى الصغيرة تظهر في أيّ لحظة. أخذ البرد يشتد. رفعت طرف ياقتي وأنزلت قبعتي إلى الأسفل فوق أذنيّ. رحت أذرع الرصيف جيئة وذهاباً أمام الكنيسة الكاثوليكية الجنائزية المشيدة من حجارة بلون الأشنة الخضراء.

لم يكن ثمة أي مؤشر على وجودها. بقيت على الرصيف المقابل من الشارع، ورحت أسير بخطى سريعة أمام المنزل، تغمرني أمنية أن أرى إشارة تدل على وجود حياة داخل المنزل. لكن الستائر كانت مسدلة. عند الناصية توقفت وبدأت أذرع الرصيف ذهاباً وإياباً مرة أخرى. استمر هذا الأمر خمس عشرة دقيقة، عشرين دقيقة، ربما أكثر. شعرت بأني قميء، وضيع، خسيس، مثل جاسوس، ومذنب ذنباً لا يغتفر.

كدت أقرر أن أعود إلى المنزل، عندما اندفعت فجأة مجموعة من الأطفال عند الناصية البعيدة أمام الكنيسة. كانوا يركضون عبر الشارع، يصرخون ويغنون. أصبح قلبي في حنجرتي. انتابني إحساس أنها بينهم. لكن من المكان الذي كنت أقف فيه كان يستحيل

عليّ أن أراها. غذذت الخطى الآن نحو الناصية الأخرى. عندما وصلت إلى هناك، لم أعد أرى شيئاً منهم. شعرت بالارتباك. وقفت هناك مثل روح تائهة لبضع دقائق، ثم قرّرت أن أنتظر. بعد بضع لحظات رأيت دكان بقالة على مسافة بضعة أبواب وراء الكنيسة. لعلهم دخلوا إلى الدكان. بحرص شديد اتجهت بسرعة إلى الشارع الفرعي. وعلى مسافة لا تبعد كثيراً من الدكان، وعلى الطرف المقابل من الشارع، بالطبع، أسرعت ووقفت في أعلى الدرجات. كان قلبي يخفق بشدة.

كنت واثقاً الآن بأنهم دخلوا جميعهم إلى دكان البقالة. لم تبتعد عيناي عن الباب لثانية واحدة. فجأة أدركت أنني مرئي، وأنا أقف هناك فوق قمة الدرجات. استندت إلى الباب وحاولت أن أتوارى قليلاً. ارتعشت، لا من البرد، بل من الخوف. ماذا سأفعل إن رأتني؟ ماذا سأقول لها؟ ماذا يمكنني أن أقول أو أفعل؟ كنت في حالة من الفزع، كدت أتهاوى من فوق الدرجات وأعدوا هارباً.

في تلك اللحظة بالذات فُتح الباب بقوة وخرج ثلاثة أطفال بسرعة. اندفعوا مباشرة نحو وسط الشارع. رآني أحدهم واقفاً. فجأة أمسك الآخرين من يدهم وهرعوا إلى داخل البقالة. اعتراني شعور بأن طفلتي هي التي فعلت ذلك. أشحت ببصري من الخوف لبضع لحظات، محاولاً أن أبدو غير مكترث أو مبالٍ بسلوكهم، كما لو كنت أنتظر شخصاً حتى يخرج من البيت في الطابق العلوي. عندما نظرت ثانية رأيت وجهاً صغيراً منضغطاً على لوح زجاج نافذة الباب عبر الشارع. كانت تنظر إليّ. نظرت إليها طويلاً وبثبات، غير قادر على أن أميّز إن كانت هي أم لا.

انسحبت وأتت طفلة أخرى وراحت تضغط أنفها على اللوح الزجاجي. ثم طفل آخر وآخر. ثم تراجعوا جميعهم إلى داخل البقالة.

تملكني شعور بالفزع الآن. كانت هي. أصبحت واثقاً من ذلك الآن. لكن لماذا كانوا خجلين هكذا؟ أم أنهم كانوا خائفين مني؟

بدون أدنى شك، كان يتملكهم الخوف. حين نظرت إليّ لم تبتسم. نظرت بإمعان للتأكد من أنني أنا، أبوها، ولست شخصاً آخر.

فجأة أدركت كيف كان مظهري مشيناً. رحت أتحسس لحيتي، التي بدا أن طولها ازداد بوصة أخرى. نظرت إلى حذائي وإلى أكمام سترتي. اللعنة، ربما ظنوا أني خاطف أطفال.

خاطف أطفال! لعل أمها علمتّها أنها إذا صادفتني في الشارع فيجب ألا تنصت إليّ. «اهرعي إلى البيت فوراً وأخبري ماما».

كنت محطماً. ببطء، وبألم ممض، كشخص مكسور ملئ بالكدمات، رحت أهبط الدرج. وعندما وصلت قرب دكان البقالة، فُتح الباب فجأة واندفع منه الأطفال جميعهم، ستة أو سبعة منهم. أخذوا يجرون كأنّ الشيطان نفسه يلاحقهم. عند المنعطف، رغم أن السيارات كانت تمر مسرعة، استداروا وأخذوا يجرون نحو المنزل - «منزلنا». وبدا لي أن طفلتنا هي التي توقفت في منتصف الشارع لثانية فقط، وراحت تنظر حولها. بالطبع قد تكون واحدة أخرى. كلّ ما كنت واثقاً منه هو أنها كانت ترتدي قلنسوة صغيرة مشذّبة بالفراء.

سرت متمهلاً حتى المنعطف، وقفت هناك دقيقة كاملة أحدق باتجاههم، ثم هرعت بسرعة نحو محطة قطار الأنفاق.

يالها من مصيبة قاسية! طوال الطريق إلى محطة قطار الأنفاق رحت ألوم نفسي على غبائي. أن أفكر أن ابنتي تخاف مني، أن تهرب مني، مذعورة! ياله من شيء محزن.

في محطة الأنفاق وقفت أمام آلة البيع. بدوت مثل متشرد، منبوذ. إن مجرد تفكيري بأني قد لا أراها مرة أخرى، أن أفكر بأنها قد تكون قد أخذت هذا الانطباع الأخير عني وأنها ستحتفظ به!

أبوها قابع عند المدخل، يتجسس عليها كخاطف أطفال كان أشبه بفيلم مرعب رخيص.

فجأة تذكرت وعدي لأولريك - أن أرى مود وأن نتحدث في أمورنا. لقد أصبح الآن شيئاً مستحيلاً، من رابع المستحيلات. لماذا؟ لا أستطيع القول. كنت أعرف فقط أن الأمر كذلك. لن أرى مود في حياتي ثانية، إذا كان الأمر بيدي. أما بالنسبة للطفلة - فإني أتضرع إلى الله، نعم، أتضرع إلى الله أن يمنحني فرصة أخرى. لا بد أن أراها وأتحدث إليها. لكن متى؟ في يوم ما. في اليوم الذي تستطيع أن ترى فيه الأشياء بمنظار أفضل. تضرعت إلى الله أن لا تكرهني... والأهم من كل ذلك، أن لا تخشاني. «إنه لأمر فظيع، فظيع جداً»، لم أكف عن الدمدمة إلى نفسي. «إني أحبك حباً جماً ياصغيرتي. أحبك كثيراً، كثيراً...».

جاء القطار، وعندما انزلق الباب وانفتح رحت أنشج. أخرجت منديلاً من جيبي ووضعته على فمي. هرعت إلى الممر حيث تواريت في إحدى الزوايا، بأمل أن يغطي صوت العجلات الطاحن صوت نشيجي وبكائي.

لا بد أني وقفت هكذا بضع دقائق، لا أعي شيئاً يدور حولي سوى بؤسي الممض، عندما أحسست بيد تلامس كتفي بلطف. كنت ما أزال أضع المنديل على فمي عندما استدرت. كانت سيدة في متوسط العمر متشحة بالسواد تنظر إليّ وابتسامة مرهفة ترتسم على وجهها.

«يا عزيزي»، بدأت بصوت هادئ رقيق، «يا عزيزي، ماذا يمكن أن يكون قد حدث لك؟».

عندها أخذت أنتحب. وغشت الدموع عيني. وكل ما استطعت رؤيته غشاوة حنونة أمامي.

«أرجوك، أرجوك»، قالت متوسلة «حاول أن تتماسك!».

واصلت البكاء والنشج. ثم توقف القطار. دخل بعض الركاب واشتد الزحام عند الباب.

«هل فقدت عزيزاً؟» سألتني. كان صوتها رقيقاً، في غاية النعومة.

هززت رأسي موافقاً رداً على سؤالها.

«مسكين يا عزيزي. أعرف كم هو مؤلم». مرة أخرى أحسست بضغط يدها.

كانت الأبواب على وشك الانغلاق. فجأة، رميت المنديل، وشققت طريقي عبر الناس وخرجت. صعدت الدرج جرياً بأقصى ما بوسعي ورحت أمشي كالمجنون. بدأ المطر يهطل. أخذت أمشي تحت المطر مطأطئ الرأس، أضحك وأبكي. اصطدم بالناس. دفعني أحدهم دفعة جعلتني أدور في مكاني وأقع. لم أتطلع حولي. تابعت سيري مطأطئ الرأس وحبات المطر تتساقط على ظهري. أردت أن يبللني المطر. أردت أن أتطهر من جميع خطاياي. نعم هكذا قلت في نفسي ـ *أتطهر من جميع خطاياي*. أردت أن يبللني المطر حتى العظام، ثم أطعن، ثم يُقذف بي في المجاري، ثم تدهسني شاحنة ثقيلة، أن أُمرغ في الأوساخ، أن أُمحى، أن أُباد إلى الأبد.

10

مع حلول فصل الصيف، انفرجت أمامنا مرحلة جديدة من الوجود ـ لا في الجنوب المشمس، بل في حي غرينتش. المرحلة الأولى من حياتنا السرية. فأن تدير حانة، وهذا ما نفعله في الواقع، وأن تقيم فيها في الوقت ذاته، ما هي إلا واحدة من تلك الأفكار الرائعة التي لا يمكن أن تخطر إلا ببال الأشخاص الذين يفتقرون تماماً للشخصية العملية.

ينتابني الخجل عندما أتذكر القصة التي كنا قد اختلقناها لنتملق أمي ونحصل منها على المال الذي كنا نحتاِجه لفتح هذا المكان.

ظاهرياً كنت أنا مدير هذا البار. كما كنت أتنقل من طاولة إلى أخرى، وأسجّل الطلبات الصغيرة، وأُفرغ القمامة، وأُسلم الطلبات، وأُرتبّ الأسرّة، وأُنظف المكان، وبصورة عامة أبذل ما بوسعي لكي أجعل من نفسي شخصاً مفيداً. (الشيء الوحيد الذي لن أتمكن أبداً من عمله هو أن أنظّف الغرف من الدخان. إذ يتعين علينا إبقاء النوافذ مغلقة أثناء العمليات، للأسباب التي سأوضحها في الحال). المكان ـ شقة مثالية في قبو، تقع في الطرف الفقير من حي الفيليج ـ مؤلفة من ثلاث غرف صغيرة، تستخدم إحداها كمطبخ. والستائر مسدلة بإحكام على النوافذ، إلى درجة أن الضوء لا يكاد ينفذ إلى الداخل إلا بصعوبة، حتى في النهار. ومن المؤكد فيما إذا قيض

لمشروعنا النجاح، فلا بد أن نكون قد أصبنا بالسل. وكنا ننوي أن نفتح في المساء ونغلق عندما يغادر آخر زبون، وقد يكون ذلك قبيل الفجر.

لن يكون بإمكاني أن أكتب هنا، يمكنني أن أرى ذلك بوضوح. وسأكون محظوظاً إن تمكنت من إيجاد الوقت لكي أتمشى وأحرّك ساقيّ مرة في اليوم.

لا يعرف أحد أننا نعيش هنا إلا أصدقاءنا المقربين جداً ـ وبأننا متزوجان. سيحاط كل شيء بالكتمان والسرية. مما يعني أنه إذا قرع الجرس، واتفق أن كانت مونا خارج البيت، فلن أفتح الباب. وكان عليّ أن ألتزم الصمت دون أن آتي بحركة في العتمة إلى أن يذهب الشخص. وكنت أختلس النظر لأتبين هوية الشخص إذا كان بوسعي أن أفعل ذلك ـ فلعل وعسى؟ فقد يكون مخبراً أو جابي الفواتير، أو أحد العشاق الجهلة الجريئين الحديثي النعمة.

هذا هو المكان باختصار. وأعرف سلفاً أننا لن نجني من كل هذا سوى الغضب والقلق. وكانت مونا بالطبع تحلم بأن نعتزل هذا العمل بعد بضعة شهور، وبعد أن نتمكن من شراء بيت في الريف. آمال كاذبة. لقد سمعت منها أشياء كثيرة، لذلك أصبحت محصناً منها. والطريقة الوحيدة لتفقأ الفقاعة هي أن تساير الشيء بشكل مثالي. عندي أحلام أخرى، لكن لديّ القدرة على أن أبقيها تحت سيطرتي.

مدهش عدد الأصدقاء الذين وعدونا بالتواجد في ليلة الافتتاح. كان بعضهم مجرد أسماء بالنسبة لي ـ جميعهم من حاشية مونا، ممن قدموا لنا يد المساعدة خلال وضع الأمور في نصابها. وسيتبين لي أن سيدريك روس، الغندور، ذا النظارة بعين واحدة، ويدّعي بأنه خبير في الأمراض؛ روبيرتو دي سندرا، أحد «العشاق المولّهين» وطالب تشيلي يشاع عنه أنه فاحش الثراء؛ جورج إنيس،

فنان يشارك في جلسات الأفيون في بعض الأحيان، مبارز ماهر بالسيف؛ جيم دريسكول، الذي رأيته في الحلبة، مصارع يدعيّ أنه مثقف؛ تريفليان، كاتب إنكليزي ذو ماض، يعمل في صرافة النقود؛ كاتشيكاتشي، الذي يفترض أن أبويه يمتلكان مقلعاً للرخام في إيطاليا، مهرّج موهوب برواية قصص مدهشة. وهناك باروني، الأكثر تزلّفاً من الجميع، الذي لا يمكنه أن يعمل ما يكفي، ليجعل من المغامرة نجاحاً. ويدعي أنه رجل دعاية وإعلان.

والمفاجأة الكبيرة التي انتابتني هي ظهور عاشقين قديمين في وقت واحد في الليلة التي سبقت ليلة الافتتاح، وبالطبع لا يعرف أحدهما الآخر. وأعني كاروثرس وهاريس، ذلك الرجل الذي دفع مبلغاً سخياً لينال شرف افتضاض بكارة زوجتي. وقد وصل هذا الأخير بسيارة رولز رويس تحيط به فتاة من كل جانب. أمّا كاروثرس فكانت ترافقه فتاتان أيضاً، كانتا صديقتين لمونا.

بالطبع كان جميع أصدقائي الحميمين القدامى قد أقسموا على حضور ليلة الافتتاح، بمن فيهم أومارا الذي عاد لتوه من الجنوب. وكان من المتوقع أن يأتي كرومويل أيضاً، رغم أنه لن يتمكن من البقاء سوى بضع دقائق. أما روثيرميل، فقد حاولت مونا إقناعه بعدم المجيء لأنه كثير الثرثرة. تساءلت إن كان شيلدون سيأتي ـ بالمصادفة. بالتأكيد سيأتي واحد أو اثنان من أصحاب الملايين، ربما صانع الأحذية، أو ملك الأخشاب.

هل سيكون لدينا قدر كافٍ من المشروبات؟ كان هذا ما يقلقنا. ووعدتنا مارجوري أن بوسعنا أخذ ما ينقصنا من مخزونها الخاص.

وكنا قد اتفقنا أنا ومونا، أنه إذ حدث وثمل أحدنا، فسيبقى الآخر صاحياً. وبالطبع لم يكن أحد منا يجيد احتساء الخمر، أما... المشكلة الرئيسية فهي كيف سنتخلّص من السكارى. إذ ستكون

الشرطة جاثمة على رقابنا، لا فائدة من أن نخدع أنفسنا بغير ذلك. وكان من الطبيعي، في مثل هذه الظروف، أن نركن جانبا مبلغاً للرشوة. لكن مونا كانت على ثقة بأننا سنحظى بحماية أفضل وأكبر. إذ لم تنقطع أحاديثها عن أصدقاء روثيرميل من منطقة المستنقعات - قضاة، سياسيون، مصرفيون، أصحاب مصانع ذخيرة. روثيرميل ذاك! أكاد أموت لتقع عينيّ عليه.

ثمة تفصيل صغير عن المؤسسة الجديدة لا يدخل السرور إلى نفسي، وهو صندوق الثلج. فهو مليء بالمأكولات اللذيذة، ويجب أن يبقى مملوءاً مهما حدث. لا أكف عن فتح الجهاز الملعون وإغلاقه، فقط لأحدق في كل الأشياء اللذيذة الرائعة للأكل. الخبز ممتاز أيضاً - خبز من مخبز يهودي في الطرف الشرقي. عندما ينتابني الملل أجلس وحيداً وأتمتّع بوجبة خفيفة صغيرة. ما هو أفضل من سندويشة كافيار في خبز أسود مدهونة بالزبدة الحلوة - في الساعة الثانية صباحاً؟ مع كأس من شراب شابلي أو الريسلنج لغسلها. وربما أتوّج ذلك بطبق من الفريز الذي يعوم في الكريمة، وإن لم يكن هناك فريز، فسأتناول التوت الأسود، أو العليق أو توت العليق. وأرى الحلاوة بالطحينة والبقلاوة أيضاً. رائع! أما بالنسبة للويسكي، فعندنا دزينة من الأصناف المختلفة - تجعلني أشعر بالبرودة، والبيرة أيضاً. البيرة والويسكي - إنها للكلاب. أي للزبائن.

وكما أرى تتوافر لدينا كمية ممتازة من السيجار، من جميع الأصناف الممتازة. للزبائن بالطبع. وبين الحين والآخر، كنت أمتّع نفسي بسيجار - سيجار هافانا اللذيذ. لكني أستطيع أيضاً أن أعيش بدونه. وفي رأيي فإنك لكي تتمتّع بتدخين سيجار، يجب عليك حقاً أن تكون في حالة سلام مع العالم. لكني متأكّد من أن الزبائن سيحشون جيوبي بها.

لا، لم نعد نفتقر إلى الطعام والشراب، هذا أمر مؤّكد. لكن ماذا عن ممارسة الرياضة، وتنشق الهواء النقي...؟ لقد بدأت أحس بالشحوب حول خياشيمي.

بصراحة كان كل ما نفتقر إليه هو صندوق لحفظ النقود. إذ أرى نفسي أجري يومياً إلى المصرف حاملاً حقيبة مليئة بالعملة الورقية والمعدنية.

كانت ليلة الافتتاح شيئاً مهولاً. لا بدّ أن المبلغ الذي جمعناه قارب الخمسمائة دولار. للمرة الأولى في حياتي أكون محشواً بالمال؛ كانت جيوبي كلها، بما فيها جيوب سترتي، محشوة بالدولارات. لا بدّ أن كاروثرس الذي جاء برفقة فتاتين جديدتين هذه المرة قد أنفق مائة دولار وهو يوزع الشراب على جميع أصدقائنا. وجاء أيضاً اثنان من الأثرياء، لكنهما لم يخالطا أحداً وغادرا في وقت مبكر. أما ستيف روميرو الذي لم أره منذ فترة طويلة، فقد جاء بصحبة زوجته. بدا رائعاً كعهده، ذلك الثور الإسباني... القادم من رومستيفيل. سمعت كلاماً عن أصدقائي في الشركة الشيطانية، الذين مازال معظمهم يعمل هناك، وجميعهم يقوم بأعمال جانبية ليتدبروا أمور معيشتهم. وسررت عندما علمت أن سبيفاك قد فقد حظوته، ونُقل إلى مكان جميل في ولاية ساوث داكوتا. وعلمت أن هيمي أصبح وكيل تأمين، وقال إنه سيأتي لزيارتنا ذات مساء، ونتحدث نحن الثلاثة. أما بالنسبة لكوستيغان التافه، المسكين فقد أصبح نزيل إحدى المصحات ـ فجأة أصيب بالسل.

وصل ماكجريجور قرابة منتصف الليل، احتسى بضعة كؤوس على حساب المحل، وغادر بعد فترة قصيرة. لم يثر ذلك إعجابه أبداً. فقد قال إنه لا يفهم كيف أن رجلاً بذكائي ينحدر إلى هذا الدرك الأسفل. «كسول لأن تقبل أي وظيفة، لكنك لا تمانع في أن تقوم

بتقديم المشروبات طوال الليل... ها ها.. ها.. ها!» لدى مغادرته وضع بطاقة في قفازي. «إذا وقعت في مشكلة، فتذكّر أني محامي. لا توكّل محامياً نصاباً يمنّيك بالوعود!».

عندما غادر همس لي أنه إذا أرسل أياً من أصدقائه، فإنه سيعطيهم كلمة السر «الأخوة الأوفياء» ؛ (ومن الطبيعي أن أحداً لم يعد يتذكرها). كما نبّه أحدنا الآخر أن يركن سيارته على مسافة شارع أو شارعين.

أول شيء اكتشفته عن العمل الجديد، هو أنه كان قاسياً على القدمين والعينين. فقد كان الدخان لا يطاق: فما أن ينتصف الليل حتى تغدو عيناي مثل قطعتين من الرماد المحترق. وعندما كنا نأوي إلى الفراش في آخر الأمر ونسحب الغطاء، كانت رائحة البيرة والنبيذ والتبغ تعبق في المكان. وبالإضافة إلى الدخان ورائحة المشروبات، كان يخيّل لي أني أشم رائحة أقدام كريهة. لكننا كنا نغط في سبات عميق على الفور. وأثناء نومي كنت ما أزال أقدم المشروبات والسندويشات، وما أزال أعيد للزبائن الصرافة.

كنت أنوي النهوض في ظهيرة اليوم التالي، إلا أن الساعة كانت تقارب الرابعة بعد الظهر عندما غادرنا السرير. كنا أمواتاً أكثر منّا أحياء. وكان البار يبدو في حالة يرثى لها.

«أفضّل أن تخرجي وتتناولي طعام فطورك في الخارج»، قلت لها. «سأتدبر لنفسي شيئاً بعد أن أرتب المكان قليلاً».

استغرق ترتيب المكان حوالى ساعة ونصف. في ذلك الوقت كنت مرهقاً جداً إلى درجة أني لم أعد أفكر بأن أعدّ لنفسي طعام الفطور. صببت لنفسي قدحاً من عصير البرتقال، وأشعلت سيجارة، وانتظرت حتى تعود مونا. إذ سيبدأ الزبائن في الظهور في أيّ دقيقة الآن. وبدا لي أن آخر زبون كان قد غادر منذ دقائق قليلة فقط. فقد كان الظلام قد حل في الخارج.

كانت رائحة الدخان النتنة والمشروبات الفاسدة ما تزال تعبق في الغرف. رحت أفتح النوافذ وأغلقها بسرعة لأحدث تياراً، وانتابتني نوبة من السعال الشديد. وكان المرحاض هو المكان المناسب لإصلاح ذلك. أخذت معي كأساً من عصير البرتقال. جلست على مقعد المرحاض، وأشعلت سيجارة أخرى. شعرت بالإنهاك.

سمعت قرعاً على باب المرحاض. كانت مونا بالطبع.

«ما بك؟» صاحت. اتخذت مكاني على المقعد، الكأس في يد، والسيجارة في اليد الأخرى.

قلت: «إني أرتاح قليلاً، ويوجد تيار شديد من الهواء هناك».

«ارتدِ ثيابك واخرج وتمشَ قليلاً. سأتدبر الأمر الآن. سأعدّ لك الفطور عندما تعود».

«الفطور؟»، صرخت. «هل تعرفين كم هي الساعة الآن؟ إنه وقت العشاء، لا الفطور. يا إلهي أبدو في حيرة تامة».

«ستتعود على ذلك. الجو رائع في الخارج... أسرع! الطقس جميل ومعتدل جداً. كأنه ربيع ثان».

تأهبت للذهاب. بدا من الجنون أن أخرج لنزهة صباحية فيما القمر بدأ يبزغ.

فجأة فكّرت بشيء. «أتعرفين ماذا؟ لقد فات الأوان للذهاب إلى المصرِف».

«المصرِف؟» حدّقت فيّ.

«المصرف، نعم! حيث نودع المال الذي نجمعه».

«أوه هكذا إذن! لقد نسيت كل شيء يتعلق بالمال».

«حسناً، اللعنة، لقد نسيت ذلك! هكذا أنت دائماً».

«هيا، اذهب وتمشَ قليلاً. يمكنك أن تودع النقود غداً ـ أو بعد غد، فهي لن تذوب».

كنت طوال الطريق أتحسس المال بأصابعي. جعلني ذلك متوفزاً، عصبياً. أخيراً انزويت كلص في بقعة منعزلة حيث يمكنني أن أعدّها. هل قلت حوالى خمسمائة دولار؟ يوجد أكثر من خمسمائة! غمرني شعور بالبهجة بحيث هرعت إلى البيت لأريها لمونا.

لكني بدلاً من أن أجري، أخذت أسير بخطى عادية. نسيت لفترة أنني كنت قد خرجت لتناول الفطور. ثم خطر لي أني لا بدّ أن أكون قد عددتها خطأ. فتحت عيني بحذر، توقفت عند ظل منزل مهجور وأخرجت النقود ثانية. رحت أعدّها بدقة أكبر هذه المرة، كما يقولون. كان المبلغ خمسمائة وثلاثة وأربعين دولاراً وتسعة وستين سنتاً بالضبط. انتابتني رعشة. شعرت بشيء من الخوف أيضاً، لأني أسير في الظلام وأنا أحمل مبلغاً كهذا. من الأفضل أن أسير تحت الأنوار المضيئة، قلت لنفسي. عجّل الخطى يا رجل وإلا سيأتيك شخص خلسة من الوراء!.

المال! وهم يتحدثون عن دواء البنزدرين للتخلص من الاكتئاب... بدلاً من زرقة في الذراع أعطني نقوداً في أي وقت!.

لم أتوقف عن الحركة. لم تكن قدماي تلمسان الأرض: كنت أتدحرج على مزلاجين، وكانت عيناي مفتوحتين بحذر، أذناي مشنفتان. كنت مصاباً بالدوار، مفعماً بالنشاط، بحيث كان بوسعي أن أعدّ حتى المليون وبالعكس دون أن أنسى رقماً واحداً.

شيئاً فشيئاً بدأ الجوع يعضني. جوع شديد. أهرول عائداً إلى البار، أضغط بإحدى يديّ على جيب سترتي حيث أضع المحفظة. كانت قائمة الطعام قد أعدت لي للتو: عجة خفيفة مع سمك مدخن بارد، قليل من الجبن والمربّى، قليل من الخبز المدهون بالزبدة الحلوة، قهوة بالكريمة، صحن من الفراولة بكريمة حامضة أو بدونها.

عند باب المنزل تبين لي أني نسيت المفتاح. قرعت الجرس، لعابي يسيل وأنا أحلم بالفطور. استغرقت مونا عدة دقائق لتفتح الباب. جاءت إلى الباب ووضعت إصبعاً على شفتيها. «هسس! روثيرميل هنا. إنه يريد أن يتحدث إليّ على انفراد. عد بعد حوالى ساعة». عادت ودخلت بسرعة.

وقت العشاء ـ بالنسبة لبقية الناس ـ وأنا أبحث عن الفطور. ومن يأسي توجهت إلى مطعم وطلبت لحم خنزير وبيض. بعد أن أنهيت فطوري، سرت باتجاه ميدان واشنطن. ارتميت على أحد المقاعد وأخذت أراقب حالماً الطيور وهي تلتهم الفتات. اقترب مني متسول، وبدون تفكير أعطيته ورقة من فئة الدولار. انتابته الدهشة فوقف هناك، أمامي مباشرة، يتفحص الورقة لعلها تكون مزورة. وبعد أن اقتنع بأنها أصلية، شكرني بحرارة ـ ومثل عصفور ـ راح يتقافز بعيداً.

قتلت ساعة كاملة من الوقت، وفي طريق عودتي تذكرت أن مونا قالت لي: «لا تنسَ أن تحضر قليلاً من الثلج». بدأت ثانية عملية البحث عن الثلج.

«متى»، سألت نفسي، «سيأتي اليوم؟» بذلت جهداً في البحث عن صانع الثلج. كان يعيش في أحد الأقبية قرب ساحة أبنجدون، كان بولونياً عنيفاً فظّاً ضخم الجثة. قال إنه حاول مرتين إيصال الثلج لكن لم يرد أحد على قرع الجرس. تأملني ملياً من رأسي حتى قدمي كأنه يقول «كيف ستوصلها إلى البيت؟». فهمت منه أنه لا توجد لديه النية في مساعدتي في إيصال الثلج إلى البيت مرة ثالثة.

بخمسمائة دولار في جيبي، لم أر داعياً يجعلني لا أستقل سيارة أجرة.

اضطررت للتنقل مرتين ذهاباً وإياباً بين الغرف وأنا أحمل ألواح الثلج على كتفي. كان هناك ثمانية أو عشرة زبائن ـ بدا الأمر

مسلياً وممتعاً. عرض عليّ أحدهم المساعدة. إنه باريوني، مروّج البضائع. قال إنه يرغب في التحدث إليّ. يشتري لي مشروباً ليعزز الصداقة بيني وبينه. نقف هناك في المطبخ نتجاذب أطراف الحديث، عيناي مثبتتان نحو بقعة فوق رأسه تماماً حيث عُلقت صورة لابنتي تعتمر قبعة صغيرة محفوفة بالفراء. لم يتوقف باريوني عن الكلام. كنت أومئ برأسي وأرمي له ابتسامة بين الحين والآخر. ترى ماذا تفعل في هذه اللحظة، أتساءل؟ هل أوت إلى الفراش الآن؟ أظن أن مود ما تزال تتصرف كامرأة مجنونة.

طلب أحدهم سندويشة بسطرمة على خبز الجاودار. غاص باريوني على الفور في لوح صندوق الثلج. وأخرج لي البسطرمة. ثم قطع الخبز إلى شرائح. كانت عيناي ما تزالان مثبتتان إلى تلك البقعة.

من بعيد سمعته يقول لي إنه يريد أن يلاعبني الشطرنج ذات ليلة. هززت رأسي وأعددت لنفسي سندويشة وأنا شارد الذهن، ورحت أقضمها بين رشفات من مشروب دوبونيت.

مدت مونا رأسها. أرادت أن تقول لي إن جورج إنيس يرغب في التحدث إليّ بضع كلمات ـ عندما يكون لدي وقت. إنه جالس في غرفة النوم مع صديقه التيشلي روبرتو.

«ماذا يريد؟».

«أسأله».

«لماذا يريد الجميع أن يتحدثوا إليّ؟».

«لأنك كاتب، على ما أظن» (ياله من جواب).

في الزاوية، كان تريفيليان وكاتشيكاتشي ينحنيان فوق بعضهما. كان ثمة جدال عنيف يدور بينهما. كان تريفيليان يحمل سمات نسر. أما الآخر فيشبه مهرجاً خارجاً من أوبرا إيطالية. من الغريب كيف يلتقي هذان الشخصان.

في زاوية أخرى، كان يجلس مانويل سيغفرايد وسيدريس روس، عاشقان منبوذان. كان أحدهما يحدق في الآخر وكانا متجهمين. الآن جاءت مارجوري تتقافز، ذراعاها مليئتان بالأكياس. على الفور ساد المكان المرح. وبعد بضع دقائق، مثل قطار يدخل المحطة، وصل نيد، وتبعه أومارا، ثم أولريك نفسه. روح النادي القديم. «الأخوة الأوفياء». تعرّف كل واحد الآن على جاره. كان الجميع يتحدثون في وقت واحد، ويشربون! هذه هي وظيفتي: الحرص على أن يكون لدي الجميع كأس مترعة. كنت بين الحين والآخر، أجلس وأدردش مع أحدهم. لكن متعتي الحقيقية كانت في أن أقوم على خدمة الزبائن، أجري ذهاباً وإياباً، أشعل سيجارهم، أُصلح الطلبات الناقصة، أفتح القناني، أُفرغ منافض السجائر، أمضي نهاري معهم، وهذا الضرب من العمل. هذا النشاط المتواصل، يجعلني قادراً على الاستمتاع بآرائي الخاصة. يبدو أنني كنت على وشك تأليف كتاب كبير آخر في رأسي. أدرس حركات جفونهم، انحناءة شفاههم، تعابير وجوههم، ارتفاع وانخفاض طبقات أصواتهم، كما لو كنت أتدرّب على مسرحية، والزبائن يرتجلون الأدوار. التقطت أذني عبارة صغيرة وأنا متجه إلى المطبخ، أحولها إلى جملة، إلى فقرة، إلى صفحة. إذا سأل أحدهم جاره سؤالاً فكنت أجيبه عنه ـ إنه هنا في رأسي. تأثيرات طريفة. ياله من أمر مثير جداً. كنت بين الحين والآخر، أتناول كأساً صغيرة، أو أتناول سندويشة أخرى وأنا واقف إلى جانب طاولة المطبخ.

كان المطبخ مملكتي حيث أسرح بخيالي بفقرات كاملة من القدر والسببيّة.

«حسناً يا هنري»، قال أولريك، وحصرني قرب المغسلة، «كيف تسير الأمور؟ نخب نجاحك!» رفع كأسه وجرعه دفعة واحدة. «شراب جيد! يجب أن تعطيني عنوان المهرب الذي تتعامل معه فيما بعد».

احتسينا قليلاً من الشراب معاً فيما كنت آخذ بعض الطلبات. قال: «ياإلهي، من المؤكد أنك تبدو مضحكاً وأنت تحمل هذه السكين في يدك».

قلت: «إنها ليست طريقة سيئة لتزجية الوقت. هذا يمنحني الفرصة للتفكير بما سأكتبه ذات يوم».

«إنك لا تعني ذلك!».

بالطبع. لم أكن أنا من كان يعدّ هذه السندويتشات ـ بل كان شخصاً آخر. إنه كالمشّاء أثناء النوم... «ما رأيك بقطعة ظريفة من السلامي؟ يمكنك أن تتناول النوع اليهودي أو الإيطالي. هاك، جرب حبات الزيتون اليوناني هذه! أتعرف، لو كنت مجرد عامل بار فسأكون بائساً».

«هنري»، قال، «لا يمكن أن تكون بائساً مهما كنت تعمل. إنك تجد الحياة دائماً مثيرة، حتى لو كنت في الدرك الأسفل. أنت مثل متسلقي الجبال الذين، عندما يسقطون في عمق الأخدود، يرون النجوم تتلألأ في الأعلى... في رابعة النهار. إنك ترى النجوم حيث لا يرى الآخرون سوى البثور أو الثآليل ذات الرؤوس السوداء».

ابتسم لي ابتسامة الشخص العارف، ابتسامة رقيقة، ثم اتخذ فجأة وضعية جدية. «ظننت أنه يجب أن أخبرك شيئاً»، بدأ يقول «عن نيد». «لا أعرف إن كان قد أخبرك، لكنه فقد عمله مؤخراً. اشرب. إنه لا يستطيع أن يتحمل ذلك. أقول لك هذا لكي تراقبه عن كثب. كما تعرف هو يكنّ لك احتراماً كبيراً، من المحتمل أن يأتي إلى هنا كثيراً. حاول أن تبقيه تحت نظرك، أليس كذلك؟ إن الكحول سمّ بالنسبة له».

وأردف قائلاً: «بالمناسبة، هل تظن أنه يجب أن أجلب معي الشطرنج ذات مساء؟ أعني، عندما تهدأ الأمور قليلاً. ستكون هناك بعض الليالي التي لن يأتي فيها أحد. لنلعب جولة واحدة فقط.

بالمناسبة، أنا أقرأ ذلك الكتاب الذي أعرتني إياه ـ عن تاريخ اللعبة. إنه كتاب رائع. يجب أن نذهب ذات يوم إلى المتحف ونتفرج على ألواح الشطرنج من القرون الوسطى، ما رأيك؟».

«بالتأكيد»، قلت، «إذا تمكنا من النهوض بحلول الظهر!».

دخل أصدقائي المطبخ واحداً تلو الآخر. دخلوا للدردشة معي. في معظم الأحيان كانوا يقومون على خدمة الزبائن عني. وفي بعض الأحيان كان الزبائن يأتون بأنفسهم إلى المطبخ لطلب كأس من الشراب، أو لمجرد رؤية ما يجري.

بالطبع لم يتزحزح أومارا من المطبخ. لم يكفّ عن الحديث عن مغامراته في الجنوب الساطع. قلت لنفسي بأنها فكرة جيدة أن نعود نحن الثلاثة إلى هناك، ونبدأ حياة جديدة. «من المؤسف جداً أنه لا يوجد لديكم سرير إضافي هنا» قال. حك رأسه متأملاً. «ربما يمكننا أن نضع منضدتين بجانب بعضهما ونمد مفرشاً فوقهما؟».

«ربما فيما بعد».

«بالتأكيد، بالتأكيد»، قال أومارا. «في أي وقت. إنها مجرد فكرة. على أية حال، يستحسن أن أراك مرة أخرى. ستعجبك الحياة في الجنوب. الهواء نظيف وعليل هناك، أولاً... هذا زبالة! إنه انحدار من ذلك المكان! بالمناسبة، أما تزال ترى ذلك المجنون ـ ماذا كان اسمه؟».

«أتعني شيلدون؟».

«نعم، شيلدون، ذاك هو الرجل. إنه سيظهر ثانية، انتظر فقط! أتعرف ماذا يفعلون بحشرة مثله هناك في الجنوب؟ إنهم يمسكون به من مقعد بنطاله ويسحلونه ـ أو يعدمونه من دون محاكمة».

«بالمناسبة» تابع كلامه وأمسكني من ردني، «من هي تلك السيدة الواقفة في الزاوية هناك؟ اطلب منها أن تأتي إلى هنا؟ فأنا

لم أضاجع مضاجعة جيدة منذ أسبوعين. أرجو ألّا تكون فتاة يهودية حقيرة؟ لا لا يهمني ذلك... إنهنّ يتمسّكن بك من عنقك، كما تعرف». أطلق ضحكة صغيرة قذرة، ورشف من كأس البراندي.

«هنري، سأخبرك ذات يوم عن الفتيات اللاتي ضاجعتهن هناك. كان شيئاً أشبه بمقطع من كتاب *تاريخ الأخلاق الأوروبية*. تمتلك إحداهن منزلاً كبيراً وحاشية من الخدم، كان من المفترض أن يجعلني هذا أن أقع في شباكها مدى الحياة. كدت أقع في غرامها أيضاً - كانت جميلة جداً. كان ذلك في بطرسبرغ. في تشاتانوجا صادفت فتاة شبقة. كادت أن تمتص كل عرق فيّ. كلهن شاذات نوعاً ما. لقد نال فوكنر منهن، لا غرو في ذلك. إنهن مفعمات بالموت - أو بشيء ما. الأسوأ من كل ذلك أنهن يدللنك. لقد دُلّلت حتى الموت. لهذا السبب رجعت. يجب أن أعمل شيئاً. يا إلهي، لكن نيويورك تبدو كمشرحة! لا بد أن يكون الناس مجانين حتى يمكثوا هنا طوال حياتهم».

الفتاة الجالسة في الزاوية التي كان يرمقها، أعطته إشارة. «اعذرني يا هنري»، قال «إنها هي»، واتجه نحوها. عندما بدأ آرثر رايموند يأتي بانتظام، أخذت الأمور تدخل منعطفاً مثيراً. ودأب على مرافقته صديق عمره، سباد جايسون، وألاميدا، «عشيقة هذا الأخير». لم يكن آرثر رايموند يحب شيئاً أكثر من أن يجادل ويشاكس، وكان ينهي هذه الجلسات وهو يتربع على الأرض. لم يكن ثمة شيء يمتّعه أكثر من أن يلوي ذراع أحدهم أو يخلع كتفه. كان جيم دريسكول معبوده، الذي أصبح محترفاً في الآونة الأخيرة. ربما عشقه لأن جيم دريسكول درس ليصبح عازفاً.

كما كنت أقول، كان آرثر رايموند يسعى دائماً لافتعال المشاكل. وإذا لم يتمكن من استدراج الآخرين إلى جدال ونزاع، كان يلجأ إلى رفيقه جايسون. وكان هذا الأخير بوهيمياً أصيلاً، رساماً

ذا موهبة كبيرة. مستعد لأن يتوقف عن عمله لأقل عذر. يقطن في حظيرة خنازير، وكان هو ونافثة اللهب، ألاميدا، يتمرغان فيها. وكان بوسع أي شخص أن يطرق بابه في أيّة ساعة من ساعات النهار أو الليل. كان طباخاً ممتازاً، يتمتع دائماً بروح مرحة، يقبل أيّ اقتراح أو عرض، مهما كان. كما أنه يحمل دائماً شيئاً من النقود التي يقرضها بحرية.

لم تول مونا أي اهتمام بسباد جايسون. وكانت تمقت «الكلبة الإسبانية الصغيرة»، كما تسمي ألاميدا. وكانا يجلبان معهما عادة ثلاثة أو أربعة زبائن آخرين. وكان بعض الرواد يغادرون فور وصول هذه العصابة ـ من أمثال توني مورير ومانويل سيغفريد وسيدريك روس. أما كاتشيكاتشي وتريفليان، من الناحية الأخرى، فكانا يرحبان بهم دائماً ويأخذونهم في الأحضان. فبالنسبة لهما كان ذلك يعني مشروبات مجانية ووجبة طعام. عدا أنهما كانا يستمتعان برؤية المشادات والمشاجرات.

وحتى لو لم يقم كاتشيكاتشي بزيارة إيطاليا منذ سنتين، إلا أنه كان يروي حكايات رائعة عن فلورينتين العظيم، بل وكان يتقمصه. علماً أن كلّ القصص التي يرويها كانت خيالية محضة. وكان يكرر بعض هذه الحكايات، يحوّرها ويسهب فيها، وذلك حسب استعداد مستمعيه لقبول ذلك.

تدور إحدى هذه الحكايات التي كان «يختلقها» عن إنسان آلي يعود إلى القرن الثاني عشر، اخترعه عالم من القرون الوسطى لا أذكر اسمه الآن. وقد أسهب كاتشيكاتشي في وصف هذه الآلة العجيبة الغريبة (الذي أصرّ على أنها تشمل الجنسين) وقال إنها تعمل دون كلل، وتستطيع القيام بجميع أنواع الأعمال الحقيرة، وبعضها طريف. إلا أنه بينما كان ينمق حكايته، كان يطلق على هذا الإنسان الآلي اسم بيكودريبيبي؟ وشيئاً فشيئاً، أخذ يكتسب قوى

ونزعات كانت، على أقل تقدير، مثيرة للدهشة. فمثلاً، بعد أن تعلم كيف يقلد صوت الإنسان، أمر سيد بيكودريبيبي خادمه الآلي أن يؤدي بعض الفنون والعلوم المفيدة لسيده؟ حفظ الأوزان والمقاييس عن ظهر قلب، النظريات واللوغاريتمات، بعض الحسابات الفلكية، الأسماء ومواقع الأبراج في جميع المواسم خلال السنوات السبعمائة الماضية. وعلّمه أيضاً كيف يستخدم المنشار والمطرقة والإزميل والبوصلة والسيف والحربة، فضلاً عن بعض الآلات الموسيقية البدائية. ونتيجة لذلك لم يعد بيكودريبيبي خادماً منزلياً ومساعداً وسكرتيراً وناسخاً ومخزّناً للمعلومات المفيدة فحسب، بل كان روحاً مهدّئة يمكنه أن يهدهد سيده كي ينام على أنغام غريبة من مقام دوريك. وكالببغاء في القفص أصبح بيكودريبيبي مولعاً بالكلام الذي تجاوز كلّ الحدود. وأخذ سيده أحياناً يلاقي صعوبة في قمع هذا الميل. أما الإنسان الآلي، الذي تعلم كيف يلقي قصائد طويلة باللاتينية واليونانية والعبرية ولغات أخرى، فكان يخطر له في بعض الأحيان أن يلقي كامل معرفته الفنية دون أن يتوقف لالتقاط أنفاسه، وطبعاً، دون أن يلقي بالاً لراحة سيده. وبما أنه لم يكن يعرف الإعياء، فإنه لم يكن يتوقف عن الكلام في بعض الأحيان بهذا الأسلوب الذي لا ينم عن أية مشاعر، إذ كان يتكلم عن الأوزان والمقاييس والجداول اللوغاريتمية والتواريخ والأرقام الفلكية، وما إلى هنالك، حتى بدأ سيده، الذي أخذ يستشيط غضباً وهياجاً يهرب من المنزل. ومع مرور الوقت، بدأت تظهر أمور غريبة أخرى. فلكونه بارعاً في مصارعة الدفاع عن النفس، كان بيكودريبيبي يدخل مع ضيوف سيده في معركة لدى أدنى استفزاز، فكان يلقي بهم أرضاً مثل لعبة القناني الخشبية، يوسعهم ضرباً ويملأ أجسادهم بالكدمات بلا رحمة. وكان يسبب لسيده إحراجاً شديداً بسبب العادة التي اكتسبها في المشاركة خلال المناقشات التي تدور بين ضيوف سيده، وعلى حين غرة، كان يلقي أرضاً العلماء العظماء ممن

تجرؤوا وطرحوا أسئلة معقدة على سيده، على شكل ألغاز، والتي لم يكن لها إجابات بالطبع.

وشيئاً فشيئاً، أصبح سيد بيكودريبيبي يغار من اختراعه. ومما أثار غضبه أكثر من كل شيء آخر، وبشيء يدعو للفضول، أن هذا الإنسان الآلي لا يكل ولا يمل. إذ إن قدرته على الاستمرار أربع وعشرين ساعة في اليوم، وموهبته في الكمال، رغم أنها لم تكن ذات معنى، والسهولة والسرعة اللتين كان ينتقل فيهما من موضوع إلى آخر - هذه الصفات أو المواهب حوّلت بعد فترة وجيزة «الأبله»، كما أخذ يطلق على اختراعه الآن، إلى خطر ومهزلة. ولم يعد يكاد هناك شيء لا يمكن «للأبله» أن يفعله أفضل مما يفعله السيد نفسه.

وكانت هناك بعض المهارات التي لم يتمكن الوحش من امتلاكها، ولم يكن السيد نفسه شديد الافتخار بوظائف الحيوان التي كان يقوم بها. ولكي يستعيد راحة باله، كان ثمة شيء يتعين عليه أن يفعله، وهو أن يحطم اختراعه الثمين! لكنه كان يكره أن يفعل ذلك. فقد استغرق استنباط الوحش عشرين عاماً. ولم يكن في العالم كله شيء يساوي هذا الأبله. علاوة على ذلك، لم يعد يتذكر العمليات الغامضة والمعقّدة التي مكنته من اختراعه هذا. فقد بدأ بيكودريبيبي ينافس الإنسان الذي يشبهه في كلّ شيء. وبالفعل لم يعد بوسعه أن يكرر إنتاج هذا الضرب من الآلة، إلا أنه شأن كلّ شيء شاذ وغريب يمكن للإنسان أن يختلقه، كان يترك بلا ريب في ذاكرة الإنسان صورة محزنة ومقلقة.

وكاد العالم العظيم يفقد صوابه. وبما أنه لم يكن بوسعه أن يحطم اختراعه، أعمل فكره ليتوصل إلى طريقة يتخلص فيها منه وفي أي مكان. فقد خطر بباله أن يضعه في صندوق حديدي ويدفنه في الحديقة، بل فكّر في أن يسجنه في أحد الأديرة. لكن الخوف، الخوف من الخسارة، الخوف من الضرر، شل قدرته على التفكير.

وبدأ يقتنع أكثر فأكثر أنه يتوجب عليه أن يعيش معه إلى الأبد، بما أنه المسؤول عن خلق بيكودريبيبي. ووجد نفسه يفكّر بأن يُدفنا معاً، سراً، عندما يحين الوقت. كانت فكرة غريبة! فقد أفزعته فكرة أن يصطحب معه إلى القبر مخلوقاً ليس حيّاً، ورغم ذلك، وبأشكال شتى كان حياً أكثر منه هو نفسه. وبدأ يقتنع أن هذه الأعجوبة التي خلقها، ستؤرقه حتى في العالم الآخر، بل لعلها ستغتصب امتيازاته السماوية. وأخذ يدرك، في امتلاكه لقوى الخالق، أنه نزع عن نفسه النعمة التي يمنحها الموت حتى لأقل الناس إيماناً. ورأى نفسه ظلاً يرفرف إلى الأبد بين عالمين؟ والآلة التي اختلقها تتبعه. وراح يصلّي لأوقات طويلة وبحماس شديد لكي ينجو. وكان يجثو على ركبتيه ويصلي ويتضرع إلى الله أن يتدخل ويرفع عن كاهله العبء الرهيب الذي اختلقه لنفسه دون تفكير. لكن الله لم ينصت إلى تضرعاته.

وبعد أن نال منه اليأس والشعور بالمهانة، اضطر أخيراً لمناشدة البابا. فقام بالرحلة مع رفيقه الغريب سيراً على الأقدام ـ من فلورنسة إلى أفنيون. وعندما وصل كان قد تجمّع وراءه حشد كبير من الناس. ولم ينج من الرجم حتى الموت إلا بمعجزة فقط، وذلك لأن أوروبا كلها أيقنت أن الشيطان ذاته يسعى للقاء قداسته. بيد أن البابا، الذي كان رجلاً متعلماً ومتبحراً في علوم السحر والتنجيم، بذل جهداً عظيماً لحماية هذا الحاج الفضولي هو واختراعه. وأشيع أن قداسته ينوي أن يتبنى الوحش نفسه، لا لسبب إلا لجعله مسيحياً صالحاً. واستقبل البابا العالم النادم واختراعه الغامض في حضور الكاردينال الأثير لديه في غرفته الخاصة. ولا يعلم أحد ماذا جرى في الاجتماع الذي دام أربع ساعات ونصف. وكانت النتيجة، إن أمكننا أن ندعوها كذلك، هي أن العالم مات ميتة عنيفة في اليوم التالي. وفي اليوم الذي تلاه أُحرق جسده علناً ونُثر رماد جسده تحت جسر أفنيون.

هنا توقف كاتشيكاتشي عن رواية القصة، منتظراً السؤال الحتمي «ماذا حدث لبيكودريبيبي؟» ارتسمت على وجه كاتشيكاتشي ابتسامة غامضة، ورفع كأسه الفارغة، سعل، وتنحنح، وقبل أن يستأنف كلامه سأل إن كان بإمكانه أن يحصل على سندويشة أخرى.

«بيكودريبيبي! آه، تسألني الآن! هل قرأ أحدكم أوكام ـ أو الأوراق الخاصة لالبيرتوس ماجنوس؟ أنا واثق من أن أحداً منكم لم يقرأه».

«بين الحين والآخر»، تابع كلامه، لكون السؤال تقريرياً تماماً، «يسمع المرء عن وحش بحري يظهر على مقربة من ساحل لابرادور أو في مكان غريب آخر. ماذا تقولون إذا سمعتم في الغد أنه شوهد وحش إنساني غريب يتجول في غابة شيروود؟ كما ترون، لم يكن بيكودريبيبي فريداً من نوعه. حتى في العهود المصرية شهدت الأساطير أناساً آليين مثل بيكودريبيبي. وتوجد في متاحف أوروبا الكبيرة وثائق تصف بالتفصيل أناساً آليين مختلفين أو رجالاً آليين، كما ندعوهم حالياً، صنعهم السحرة في قديم الزمان. لكن لا يوجد أيّ سجل في أي مكان، يذكر أن هذه الوحوش التي صنعها الإنسان قد دُمرت. وفي الحقيقة فإن كلّ المصادر المتاحة لدينا حول الموضوع تخلص بنا إلى نتيجة مثيرة مفادها أنّ هذه الوحوش كانت تنجح دائماً في الهرب من أيدي سادتها».

توقف كاتشيكاتشي مرة أخرى عن الكلام، ونظر حوله مستفسراً.

«لا أقول إن الأمر كذلك»، تابع كلامه، «إلا أنه يوجد دليل هام يؤيد الرأي بأن هذه المخلوقات الشيطانية ما تزال توجد في بقعة بعيدة يصعب الوصول إليها. ولعلها تمكنت الآن من إقامة مستعمرة حقيقية لها. لم لا؟ فهي خالدة، ومحصّنة من الأمراض، ولا تعرف الموت. مثل ذلك الحكيم الذي تحدّى الإسكندر الأكبر، وتبجح بأنه محصّن من الهلاك. ويقول بعض العلماء إن هذه المخلوقات

المفقودة والخالدة قد تكون أقامت بطريقتها الفريدة وسيلة للاتصال فيما بينها؟ والأنكى من ذلك، أنها تعلمت كيف تتناسل، ميكانيكياً، بالطبع. ويقولون إذا كان الإنسان قد نشأ من الوحش الأخرس، فلماذا لا تكون هذه المخلوقات قد نشأت بهذه الطريقة؟ وفي زمن أقل؟ فالإنسان غامض كغموض الله. وكذلك عالم المخلوق. وكذلك العالم الجامد، إذا فكّرنا في ذلك. إذا كانت تلك المخلوقات الآلية تتمتع بالحكمة والإبداع اللذين يمكنانها من الهرب من أسيادها المتيقظين، من حالتها المروّعة من العبوديّة، فقد لا يكون بوسعها أن تحمي نفسها إلى ما لا نهاية، أن تتواصل اجتماعياً مع نوعها، أن تتزايد وتتكاثر؟ من يستطيع أن يجزم بأنه لا توجد قرية رائعة في مكان ما في هذه الكرة الأرضية؟ ربّما مدينة متألقة! مأهولة كلية بهذه الأنواع التي لا أرواح لها، التي يعمّر العديد منها أكثر مما تعمّر شجرة التبلدي؟».

«لكني نسيت بيكودريبيبي... ففي اليوم الذي انتهى فيه سيده تلك النهاية العنيفة واختفى، أخذوا يبحثون عنه في جميع أنحاء الأرض، لكن دون جدوى. لم يكن ثمة أثر له. وبين الحين والآخر كان الناس يسمعون عن حدوث وفيات غامضة، عن حوادث عرضية وكوارث لا تُعرف أسبابها، عزيت كلها إلى بيكودريبيبي المفقود. واضطُهد الكثير من العلماء، ووُضع بعضهم على الخازوق، للاعتقاد بأنهم وفروا مأوى للوحش، بل وأشيع أن البابا قد طلب أن تُصنع «نسخة» من بيكودريبيبي، وأنه استخدمه في أعمال السحر. وبالتأكيد لم يكن ذلك سوى إشاعات وتخمينات. لكن في الواقع توجد في بطون سجلات الفاتيكان أوصاف لرجال آليين آخرين معاصرين تقريباً. أما اليوم، بالطبع، فلدينا أنواع عديدة من الإنسان الآلي، أحدها، كما تعرفون، يأخذ أول نفس له في الحياة، من لمعان نجم بعيد. لو كان عمل ذلك ممكناً في بداية العصور الوسطى، فكّروا، حاولوا أن تفكّروا بالخراب الذي كان سيلي ذلك. إذ كان المخترع سيركز جلّ اهتمامه على محاولة استخدام الشعوذة والسحر الأسود.

أما كان قد أحرق على الخازوق، أليس كذلك؟ لكن قد تكون هناك نتيجة أخرى، رائعة وشرّيرة في الوقت نفسه. فبدلاً من الآلات، لعلنا كنا سنستخدم تلك الكائنات الوضيعة التي تدفعها النجوم. ربّما اضطلع هؤلاء العبيد الجياع بشؤون العالم...».

هنا توقّف كاتشيكاتشي برهة، ابتسم بارتباك، ثمّ أردف فجأة: «ومن سيتصدى لإعتاقهم؟ أتضحكون. لكن أليست الآلة عبداً لنا؟ وألا نعاني من هذه العلاقة الباطلة كما عانى السحرة القدماء من الأشخاص الآليين الذين استحدثوهم؟ ففي عمق رغبتنا المتأصلة في تجنب العمل الشاق يكمن التوق إلى الجنة. فالجنة لا تعني للشخص الحالي التحرر من الخطيئة فقط، بل تعني التحرر من العمل، لأن العمل غدا مقرفاً ومهيناً. فعندما أكل الرجل من شجرة المعرفة اختار أن يجد طريقاً مختصراً للألوهية. حاول أن يسرق من الخالق السرّ الإلهي، الذي كان يعني بالنسبة له القوة. فماذا كانت النتيجة؟ الخطيئة، المرض، الموت. الحرب الأبديّة، القلق الأبدي. إن القليل الذي نعرفه نستخدمه لتدمير أنفسنا. إذ إننا لا نعرف كيف نتفادى استبداد الوحوش التي نخلقها. إننا نضلّل أنفسنا في الاعتقاد بأننا، بوساطتها، سنتمتّع ذات يوم بالراحة، لكن كل ما ننجزه، لكي نكون صادقين، هو أننا نخلق لأنفسنا مزيداً من العمل، مزيداً من المحن، مزيداً من العداء، مزيداً من المرض، مزيداً من الموت. إننا باختراعاتنا العبقرية واكتشافاتنا نغيّر شيئاً فشيئاً وجه الأرض ـ حتى تفقد معالمها وتغدو قبيحة. حتى تصبح الحياة نفسها لا تطاق... شعاع الضوء الصغير القادم من نجم بعيد ـ أسألكم، إذا كان شعاع الضوء الخالد ذاك قد يؤثّر على كائن من غير البشر، فلماذا لا يكون له ذات القدر من التأثير علينا؟ فرغم وجود كلّ هذه النجوم في السماوات التي تغدق علينا سلطانها المتألق، وبوجود الشمس، والقمر وجميع الكواكب، لماذا نبقى في الظلام والإحباط؟ لماذا نبلى بسرعة، في حين أن العناصر التي نتكوّن منها منيعة وراسخة؟ ما هو الشيء الذي يبلى؟ لا الشيء الذي صنعنا منه، هذا أمر مؤكد. إننا

نذبل ونتلاشى، نموت، لأن الرغبة في الحياة قد انطفأت فينا. ولماذا يخبو ذلك اللهب الأكثر قوة وقدرة؟ بسبب عدم الإيمان. فمنذ أن نولد يقال لنا إننا هالكون. ما أن نصبح قادرين على فهم الكلمات، حتى يعلموننا أنه يجب علينا أن نقتل لكي نبقى على قيد الحياة. في كل مناسبة يذكروننا بأننا، مهما تمتعنا بالذكاء، بالعقل أو بالحكمة، سنمرض وسنموت. إننا نُلقّح بفكرة الموت منذ أن نولد. هل ثمة غرابة في أننا نموت؟».

أخذ كاتشيكاتشي نفساً عميقاً. كان يحاول جاهداً أن ينقل لنا فكرة ما، شيئاً يتجاوز الكلمات، إن جاز التعبير. كنت تشعر أنه كان يحاول أن يقنع نفسه بشيء ما. وتكوّن لديّ انطباع بأنه حكى هذه القصة مراراً وتكراراً لكي يصل إلى نتيجة تتجاوز مداركه. لعله كان يعرف في أعماقه أن للحكاية أهمية حيّرته، لأنه كان يفتقر إلى الشجاعة لمتابعتها حتى النهاية. قد يكون الشخص حكواتياً، قاصاً، كذاباً أشِراً، لكن كان في كلّ قصة وكذبة شيء جوهري من الحقيقة. لقد كان مخترع بيكودريبيبي حكواتياً أيضاً، كلّ حسب طريقته. فقد خلق خرافة أو أسطورة آلية بدلاً من أن تكون شفوية. لقد خدع أحاسيسنا بالقدر الذي يفعله أي حكواتي. على أية حال.

«أحياناً»، بدأ كاتشيكاتشي يقول بجدية وبكلّ الإخلاص الذي استطاع أن يجمعه، «إني على قناعة بأنّه لا يوجد هناك أمل للبشرية ما لم ننقطع عن الماضي انقطاعاً تاماً. أعني ما لم نبدأ نفكر على نحو مختلف، ونعيش بشكل مغاير. أعرف أن ذلك قد يبدو أمراً تافهاً... فقد قيل آلاف المرات ولم يحدث شيء. أترون، إني ما أزال أفكر بالشموس العظيمة التي تحيط بنا، هذه الأجرام الشمسية الواسعة التي تسبح في السماوات التي لا يعرف عنها أحد شيئاً، سوى أنها موجودة. ومن المعلوم أننا نستمد حياتنا من إحداها. بعضهم يعتبر القمر عاملاً حيوياً في وجودنا الدنيوي. آخرون يتحدثون عن تأثير كواكب السعد أو النحس. لكنكم، إذا توقفتم عن التفكير، عن كلّ شيء ـ وعندما أقول كلّ شيء فأنا أعني كلّ شيء! ـ

سواء كان مرئياً أو خفياً، مجهولاً أو معروفاً، أو كان حيوياً بالنسبة لوجودنا. إننا نعيش وسط شبكة من القوى المغناطيسية التي لا تتوقف عن العمل، وهي غير محسوبة ويتعذر وصفها. والتي لم نخلق أياً منها نحن أنفسنا. بل تعلّمنا كيف نسخّر بعضها، نستغلها، إذا جاز لي التعبير. وإن الفخر يملؤنا بسبب إنجازاتنا التافهة. لكن حتى السحرة منا الأكثر شجاعة، الأكثر فخراً، سيعترفون حتماً بأننا لا نفقه سوى الشيء المتناهي في الصغر قياساً بما لا نعرفه. أرجوكم، توقفوا لحظة وفكروا ملياً!

هل يوجد أحد هنا يؤمن أننا سنتمكن من معرفة كل شيء ذات يوم؟ أضيف... أسألكم بكلّ إخلاص - هل تعتقدون أن خلاصنا سيتوقف على المعرفة؟ لنفترض للحظة أن دماغ الإنسان قادر على أن يحشو في خلاياه الغامضة، كل العمليات السرية التي تحكم الكون، وماذا بعد؟ نعم، ماذا بعد؟ ماذا سنفعل، نحن البشر، بهذه المعرفة التي لا يمكن تصورها؟ ماذا يمكننا أن نفعل؟ هل سبق وأن سألتم أنفسكم هذا السؤال؟ يبدو أن الجميع يسلم جدلاً بأن هذا التراكم المعرفي شيء جيد. لا أحد يقول لا - «وماذا أفعل بها عندما أمتلكها؟» لا أحد يجرؤ ويظن أنه خلال فترة الحياة القصيرة، يمكن اكتساب حتى جزء من الدقيقة من كم المعرفة الإنسانية المتاحة».

توقف مرة أخرى ليلتقط أنفاسه. كنا جميعنا مستعدين للشراب الآن. كان كاتشيكاتشي مايزال يتحدث. خرج عن الموضوع. لم تكن المعرفة، أو الافتقار إليها، هي ما يهمه كثيراً. كنت أدرك الجهد الصامت الذي كان يبذله ليعود إلى الدرب الذي سلكه؛ شعرت به يتخبّط في سعي منه لكي يعود إلى الموضوع الرئيسي.

«الإيمان! كنت أتحدث عن الإيمان قبل قليل. لقد فقدناه. فقدناه تماماً. أعني الإيمان بكلّ شيء. رغم أن الإيمان هو الشيء الوحيد الذي يعيش عليه الإنسان. لا المعرفة، التي لا تنضب في الحقيقة، وفي النهاية تصبح عقيمة أو مدمرة. أما الإيمان. الإيمان لا ينضب

أيضاً. فقد كان دائماً، وسيبقى دائماً. إن الإيمان هو الذي يلهم الأعمال، الإيمان هو الذي يجعل المرء يتغلّب على الصعاب ـ إنه يحرّك الجبال، كما يقول الإنجيل. الإيمان بماذا؟ مجرد الإيمان. الإيمان بكلّ شيء، إذا أحببتم. ولعل القبول ستكون كلمة أفضل. غير أن فهم القبول أصعب من فهم الإيمان. وبمجرد أن تنطقوا الكلمة، ثمة من يتساءل: «وماذا عن الشر؟»، فإذا أجاب أحدهم بأجل، سدوا عليه الطريق. إنهم يسخرون منك، يتجنّبونك مثل شخص مصاب بالجذام. كما ترون فإنه يمكن التشكيك بالخير، أما الشرّ ـ وهذا تناقض ـ الشرّ، رغم أننا نكافح باستمرار للقضاء عليه، فهو يعتبر دائماً أمراً مسلماً به. لا أحد يشك بوجود الشرّ، رغم أنه تعبير مجرد ذو صفة متغيرة باستمرار والذي غالباً ما يتبين، عند التحليل الدقيق، أنه شيء جيد. لا أحد يقبل الشرّ بمعناه الظاهري. إنه كذلك، وهو ليس كذلك. فالعقل يرفض قبوله بدون شرط. إذ يبدو وكأنّه موجود لتحويله إلى نقيضه فقط. إن أسهل طريقة وأبسطها لعمل ذلك، بالطبع، هو قبوله. لكن من هو الحكيم الذي سيتخذ هذا المسار؟

أفكر ببيكودريبيبي مرة أخرى. هل كان ثمة شيء «شرير» في ظهوره أو وجوده؟ رغم أن العالم تملكه الفزع منه. فقد أُعتبر انتهاكاً للطبيعة. لكن أليس الإنسان نفسه انتهاكاً للطبيعة؟ إذا تمكنا من استحداث بيكودريبيبي آخر، أو حتى واحد يقوم بوظائف محددة، ألن نشعر بالنشوة؟ لكن لنفترض أننا، بدلاً من استحداث إنسان آلي أكثر روعة، نواجه فجأة إنساناً عبقرياً يتمتع بصفات تفوق بكثير صفاتنا إلى درجة أنه يكون شبيهاً بإله؟ بالطبع هذا سؤال افتراضي، ومع ذلك فقد كان يوجد، ويوجد دائماً، أشخاص شاهدوا مثل هذه الكائنات القدسية، ويمكننا أن نتذكر أسماء مناسبة. فأنا نفسي أفضّل التفكير بكائن أسطوري، كائن لم يسمع به أحد من قبل، ولم يره، ولن يعرفه في هذه الحياة. شخص ما، باختصار، يمكنه أن يكون كائناً ويفي بالمتطلبات التي أتحدث عنها...».

هنا حاد كاتشيكاتشي عن الموضوع. فقد أُرغم على الاعتراف بأنه لم يكن يعرف ما الذي دفعه لهذا الحديث، وإلى أين هو سائر. ظل يحك رأسه ويدمدم مرات عديدة: «غريب غريب، لكني كنت أحسب أن لدي شيئاً أقوله هنا».

فجأة أشرق وجهه بهجة. «آه نعم، الآن أتذكر. اسمعوا... لنفترض أننا اعترفنا بأن هذا الكائن يتفوق علينا في كلّ شيء، فيجب علينا أن نقبل الأمر هكذا ونخاطب العالم بهذا الأسلوب: توقفوا حيث أنتم، أيها الرجال والنساء، أعيروني انتباهكم! إنكم تسيرون في المسار الخاطئ. تتجهون نحو الدمار. لنفترض أن البلايين التي تشكل الإنسانية في كل بقعة من هذه الكرة الأرضية، قد توقفت عما تقوم به وراحت تستمع. حتى لو لم يقل هذا الكائن الإلهيّ شيئاً أكثر مما وضعت في فمه، فما هو تأثير ذلك في رأيكم؟ هل سبق وأن توقف العالم برمته ليستمع معاً إلى كلمات الحكمة؟ تخيلوا إن استطعتم، صمتاً صارماً كليّاً، الجميع مشنفون آذانهم لسماع الكلمات القاتلة! بل هل سيكون من الضروري أن نلفظ الكلمات؟ ألا تستطيعون أن تتصوروا أنه يمكن لكلّ شخص، في صمت قلبه، أن يقدم الجواب بنفسه؟ هناك ردّ واحد فقط تتوق الإنسانية للإجابة عنه؟ وهو يتكون من كلمة واحدة صغيرة: الحبّ. هذه الكلمة الصغيرة، ذلك الفكر الهائل، ذلك الفعل الدائم، واضح، إيجابي، فعّال إلى الأبد ـ فإذا استوعبتها البشرية كلها، ألن يتغير العالم على الفور؟ من بوسعه أن يقاوم، إذا أصبح الحبّ نهجنا اليومي؟ من يريد القوة أو المعرفة ـ إذا كان قد استحم في مجد الحب الدائم؟

وكما تعرفون يقال إنه توجد في أماكن نائية من جبال التيبت مجموعة صغيرة من الرجال يتفوقون علينا بشكل يفوق الوصف ويطلق عليهم «السادة». إنهم يعيشون في منفى طوعي عن بقية العالم. ومثل الأشخاص الآليين الذين تحدثت عنهم سابقاً، فهم أبديون أيضاً، محصّنون ضد المرض، ومنيعون. لماذا لا يختلطون

بنا، لماذا لا ينوّروننا ويجعلوننا نبلاء من خلال وجودهم؟ هل اختاروا العزلة أم نحن الذين ننأى بأنفسنا عنهم؟ قبل أن تحاولوا الإجابة، اسألوا أنفسكم سؤالاً آخر ـ ماذا لدينا لنقدمه لهم وهم لا يعرفونه، لا يمتلكونه، أو يتمتعون به؟ إذا كانت هذه الكائنات موجودة، وإني أعتقد أنها موجودة، فالعائق المحتمل الوحيد هو الوعي. درجات الوعي، لكي أكون أكثر دقة. عندما نصل إلى مستويات أعمق من الفكر والكينونة سيكونون هناك. إننا ما نزال غير مستعدين، ولا راغبين في الاختلاط بالآلهة. لقد عرف الناس في الماضي الآلهة: شاهدوها وجهاً لوجه. لمَ استُبعد الإنسان في الوعي، من المراتب العليا أو الدنيا من الخلق. لقد أصبح الإنسان اليوم معزولاً. إن إنسان اليوم يعيش عبداً. بل الأسوأ من ذلك، فكل واحد منا عبد للآخر. لقد خلقنا أوضاعاً مجهولة حتى الآن، أوضاعاً فريدة: أصبحنا عبيد العبيد. ولاشكّ أننا في اللحظة التي نريد فيها الحرية سنصبح أحراراً. لكن ليس في فترة قريبة! إننا نفكر الآن كالآلات، لأننا أصبحنا آلات. نتوق إلى السلطة، إننا ضحايا السلطة ولا حول لنا ولا قوة... وفي اليوم الذي نتعلم فيه كيف نعبّر عن الحب، سنعرف الحب، وسننال الحب ـ وكلّ ما عدا ذلك سيتلاشى. إن الشرّ من خلق العقل البشري. إنه عاجز إذا قبلناه بمعناه الظاهري. حيث لا قيمة له في حد ذاته. والشرّ لا يوجد إلا كتهديد لتلك المملكة الأبديّة من الحب التي لا نفقه منها إلا النذر اليسير. نعم لقد راودت الإنسان رؤى عن إنسانية محرّرة. راودته رؤى وهو يجوب الأرض كإله. ولا بد أن الذين ندعوهم «السادة» قد عثروا على طريق العودة. ولعل الإنسان الآلي اتخذ طريقاً آخر. كلّ الطرق، صدقوا أو لا تصدقوا، تفضي في نهاية الأمر إلى ذلك المصدر الذي يمنح الحياة والذي هو محور الخلق ومعناه. وكما قال لورانس وهو على فراش الموت ـ «إن أعجب شيء في الإنسان هو أنه مايزال حياً. بالنسبة للإنسان، وشأن الزهرة والحيوان

والطير، فإن النصر العظيم بالنسبة لها هو أن يكون في قمة الحيوية، قمة الكمال، حياً...» بهذا المعنى، لم يكن بيكودريبيبي حياً أبداً. بهذا المعنى، لا أحد منا حيّ. لنصبح أحياء تماماً، هذا ما أحاول أن أقوله».

استأذننا كاتشيكاتشي بغتة ونحن في غمرة الارتباك والاضطراب بعدما أصيب بالإنهاك من قول كل هذا دون قصد منه. نحن الذين كنا ننصت بصمت ظللنا جالسين في الزاوية بالقرب من النافذة. وبدا أن أياً منا لم يكن قادراً على أن يأخذ نَفَساً لبضع دقائق. وأخذ آرثر رايموند، الذي كان لا يتأثر عادة بمثل هذه الأحاديث، يتطلع من واحد إلى آخر بتحدٍ، وكان على استعداد للانقضاض لدى أقل استفزاز. وكان سباد جايسون و «قرينته» صامتين. لم يصدر أي كلام من تلك الجهة! وأخيرا كسر باروني الجليد، وقال بصوت حائر لطيف إنه لم يكن يتخيّل كاتشيكاتشي بهذه الدرجة من الجدية. همهم تريفليان ساخراً، كأنه يقول «إنكم لا تعرفون النصف الآخر!». ولدهشتنا، وبدون تمهيد، بدأ مناجاة طويلة حول مشاكله الخاصة. فقد شرع يتحدث كيف أن زوجته، التي لم تكن حاملاً فحسب بل مجنونة أيضاً، حاولت أن تخنقه في السرير وهو يغط في النوم في الليلة السابقة. واعترف بأسلوبه البدائي، المقموع والخالي من العاطفة ـ كان بريطانياً حتى النخاع ـ بأنه كان يعاملها معاملة سيئة. وأوضح على نحو ممض أنه كان يكرهها منذ البداية. وقد تزوجها بدافع الشفقة، لأن الرجل الذي أنجب منها طفلاً هرب. كانت شاعرة، ويكنّ لأعمالها احتراماً شديداً. أما الشيء الذي لم يتمكن من تحمله فهو مزاجها. فقد كانت تجلس لساعات، وهي ترتق جوارب صوفية لم يلبسها في حياته. أو كانت تجلس على الكرسي الهزاز، لا تفعل شيئاً على الإطلاق، تدندن لساعات وهي تتأرجح جيئة وذهاباً. أو كانت تنتابها بغتة نوبة للحديث، فتحصره في زاوية المطبخ أو في غرفة النوم، وتمطره بأشياء حالمة كانت تدعوها إلهاماً.

«ماذا تعني؟ أشياء حالمة؟» سأل أومارا، وعلى وجهه ترتسم ابتسامة عريضة تنم عن خبث.

«أوه»، قال تريفليان، «قد تكون أشياء عن الضباب، عن الضباب والمطر... كيف تبدو الأشجار والغابات عندما ينحسر الضباب فجأة. قد تكون بلون الضباب، جميع الظلال الرمادية التي يمكن أن تميزها بعينيها الشبيهتين بعيني القطة. وكانت تعيش على ساحل كورنوال خلال طفولتها - جميعهم شبه مجانين هناك - وتتذكر جولاتها على الأقدام في الضباب، تجاربها مع العنزات والقطط، أو مع أبله القرية. في هذا المزاج كانت تتكلم لغة أخرى - لا أعني لهجة خاصة، بل أعني لغة لا يمكن لأحد أن يفهمها. كانت تثير الذعر في أوصالي. كانت نوعاً من لغة قططية، وهذا أفضل وصف لها. كانت تولول أحياناً، عويل حقيقي يجعل دمّك يتخثّر. في بعض الأحيان تقلد الريح، كلّ أنواع الرياح، من نسيم لطيف إلى عاصفة هوجاء. ثم تبدأ بالشخير والبكاء، في محاولة منها لإقناعي أنها تندب الزهور التي قُطفت - وخاصة أزهار الثالوث والزنبق - وأنها لا يمكنها أن تفعل شيئاً حيال ذلك. وفجأة تسير في أماكن غريبة، تصفها بحميمة، كأنها عاشت فيها طوال حياتها. أماكن مثل ترينيداد، كيوراكاو، موزامبيق، غواديلوب، مدراس، كاونبور وما شابهها. إنه أمر مخيف؟ يمكنني أن أقول لكم أني ظننت لفترة أنها تتمتع بالاستبصار... بالمناسبة، ألا يمكننا أن نحتسي كأساً أخرى؟ ليس لدي ربع بنس، لعلكم تعرفون ذلك...».

«إنها امرأة غريبة الأطوار، وعنيدة للغاية أيضاً. ادخل في مشادّة معها ويُقضى عليك. إنها تعرف كيف تسد عليك كلّ المنافذ. فما أن تدخل في جدال معها حتى تقع في الفخ. لم أكن أعرف أن النساء قد يكنّ منطقيّات إلى هذه الدرجة. لا يهم ما تناقشه؟ الروائح أو النباتات أو الأمراض أو النمش. فلها دائماً الكلمة الفصل، مهما كان الموضوع. أضف إلى كلّ ذلك، جنونها في التفاصيل، جنونها

لأتفه وأدق الأمور. عندما تجلس إلى مائدة الفطور مثلاً، تحمل تويجة مقطوفة في يدها، وتفحصها ساعة كاملة. تطلب منك أن تركّز على قطعة دقيقة من ورقة التويجة هذه التي لا يزيد حجمها على حجم شظية فضية. وتدّعي أنها تستطيع أن ترى كلّ الأشياء المثيرة للفضول والمدهشة في هذه القطعة من اللا شيء. وكل ذلك بالعين المجردة. عيناها ليستا عيني بشر، أقسم بالله. فهي تستطيع أن ترى في الظلام، حتى أفضل من قطة. تستطيع أن ترى وعيناها مغمضتان، صدّقوا أو لا تصدّقوا. لقد أثبتت لي ذلك ذات ليلة. لكن الشيء الذي لا تستطيع أن تراه هو الشخص الآخر! إنها تحتقرك عندما تتكلم إليك. لا ترى إلا ما تتحدّث عنه، سواء كان ضباباً، أم قططاً، أم حمقى، أم مدناً بعيدة، أم جزراً عائمة أو كلى عائمة. في البداية كنت أمسكها من ذراعها وأهزّها ـ كنت أظن أنها في غيبوبة. لا شيء من هذا! بل تكون يقظة تماماً بالقدر نفسه عندما أكون يقظاً أو تكونون يقظين، بل حتى أكثر يقظة منا جميعاً. لا شيء يفوتها. «هل سمعت ذلك؟» كانت تقول أحياناً، في منتصف جملة. «اسمع ماذا؟» ربما كانت كسرة من مكعب الثلج قد انزلقت قليلاً في صندوق الثلج. ربما سقطت ورقة شجرة على الأرض في الحديقة الخلفية. ربما سالت قطرة ماء من حنفية المطبخ. «هل سمعت ذلك؟» كنت أثب واقفاً عندما تقولها. وبعد فترة، بدأ ينتابني الاعتقاد بأني أصبحت أصمّاً ـ كانت تولي هذه الأشياء غير المسموعة أهمية كبيرة. «لا شيء» كانت تقول، «إنها أعصابك». وبكلّ هذه القدرة على السمع المرهف لم يكن لديها أذن موسيقية. فكل ما تسمعه هو خدش الإبرة: وتستمد متعتها من معرفة فيما إذا كان المسجّل قديماً أم جديداً، ومدى جدته، أو مدى قدمه. إنها لا تعرف الفرق بين موزارت، وبوتشيني وساتي. تحبّ التراتيل. التراتيل الحقيرة السوداوية. التي لا تتوقف عن دندنتها دائماً وعلى وجهها ترتسم ابتسامة ملائكية، كما لو أنها في وسط الملائكة. لا، حقاً، إنها أحقر

كلبة مقيتة يمكن أن يتخيلها المرء. لا يوجد بريق من البهجة أو المرح فيها. إذا رويت لها قصة مضحكة، شعرت بالضيق والضجر. إذا ضحكت انتابها الغضب. إذا عطست تقول إن سلوكك غير جيد. إذا احتسيت كأسا فأنت سكّير... وإذا مارسنا الجنس؟ إذا كان بوسعكم أن تطلقوا عليه ذلك؟ ثلاث مرات تقريباً، على ما أظن. فهي تغمض عينيها، تستلقي متصلبة كلوح خشبي، وتتوسل إليك أن تنتهي بسرعة. حالما تنتهي ترتمي على السرير وتكتب قصيدة لتطهّر نفسها على ما أظن. قد أقتلها ذات يوم».

«وماذا عن الطفل؟» قال أومارا، «هل تريد الطفل؟».

«أعوذ بالله!»، قال تريفليان. «إنها لا تذكر هذا الموضوع أبداً. كأنك تتحدث عن ورم خبيث. من حين لآخر، تقول إنها أصبحت مكتنزة... إنها لا تقول «بدينة» فهذه كلمة فظة. «مكتنزة». كما لو كان من الغريب أن تنتفخ كالمنطاد عندما تكون حاملاً في شهرها السابع».

«وكيف تعرف أنها حامل» سأل سباد جايسون ناعساً. «أحيانا يكون مجرد حمل كاذب».

«حمل كاذب، هه! أدعو الله أن يكون ذلك؛ نعم إنها حامل... تحسسته يتحرك في داخل بطنها».

«قد يكون ريحاً»، قال أحدهم.

«ليس للريح أذرع وأرجل»، قال تريفليان غاضباً. «الريح لا تتقلب، ولا تصيبها نوبات هستيرية».

«لنخرج من هنا»، قال سباد جايسون. «إنك تعطيه أفكاراً»، ولكز رفيقته في أضلاعها فكاد يوقعها من على الكرسي.

كما لو كانت لعبة يعيدان لعبها مراراً وتكراراً، نهضت ألاميدا بهدوء، مشت حوله، ثم صفعته صفعة مدوّية على وجهه براحة يدها.

«هكذا إذاً؟» صاح سباد جايسون، وقفز من على كرسيه ولوى ذراعها. وبيده الأخرى أمسك شعرها الطويل وشدّه بقوة. «أحسني التصرف، وإلا وجهت لكمة إلى عينيك!».

«ستفعل ذلك، أليس كذلك؟» قالت ألاميدا وهي تلوّح بقنينة فارغة.

«اخرجا أنتما الاثنان!» صاحت مونا. «ولا تعودا إلى هذا المكان مرة أخرى، من فضلكما!».

«بكم أنا مدين لك؟» قال سباد جايسون خجلاً.

«إنك لا تدين لنا بشيء»، قالت مونا. «أخرجا من هنا ولا تعودا».

11

لدهشتي جاء ماكريجور في إحدى الليالي، وطلب مشروباً، ودفع ثمنه دون تذمر. كان لين العريكة على نحو غير معتاد. وسأل باهتمام كيف تسير الأمور معنا، وما هي توقعاتنا، وهل كنا بحاجة إلى أية مساعدة ـ المساعدة القانونية ـ وما إلى ذلك. لا يمكنني أن أتبين ما الذي حدث له.

وبغتة قال، عندما أدارت مونا ظهرها: «ألا يمكنك أن تخرج من هذا المكان لبضع ساعات ذات ليلة؟».

ودون أن ينتظر مني رداً بالإيجاب أو بالسلب، واصل كلامه ليخبرني بأنه غارق في العشق حتى أذنيه. «أظن أنّك تستطيع أن تحدس ذلك، أليس كذلك». وأخبرني إنها فتاة غريبة الأطوار إلى حد ما. مطلّقة، ولديها طفلان. «ما رأيك بذلك؟» ثم قال إنه يرغب في أن يفشي لي سراً في غاية الأهمية. علماً أنه كان يعرف أنه يصعب عليّ ألّا أبوح بالسر، ومع ذلك فإنه سيفضي به إليّ... «تعرف أن تيس لا تشك في شيء. وأنا لن أسبب لها أي أذى. اللعنة! لا تضحك! أقول ذلك فقط لأنك قد تفشي السر ذات يوم عندما تكون في أحد أمزجتك النبيلة».

ابتسمت ابتسامة عريضة.

وهكذا كان الأمر. كانت تريكس، الجديدة تعيش في البرونكس.

«إلى أبد الآبدين»، كما قال. وكان يمكث خارج البيت كل ليلة حتى الساعة الثالثة، أو الرابعة أو الخامسة صباحاً. «تظن تيس أني ألعب القمار. وبالطريقة التي أنفق فيها المال، قد أكون أرتكب حماقات في كل ليلة، لكن الأمر ليس هكذا. إن سؤالي لك هو ـ هل يمكنك أن تنسل ذات ليلة، فقط لبضع ساعات؟» لم أقل شيئاً، ابتسمت ابتسامة عريضة مرة أخرى. «أريدك أن تراها... وأن تخبرني إن كنت أحمق أم لا». هنا توقف دقيقة، كأنه محرج. «لنركز أكثر على الموضوع ياهنري، دعني أخبرك هذا: فبعد العشاء من كل ليلة، تأتي بالطفلين ليجلسا على حضني، واحد على كل ركبة. وماذا تظن أني أفعل؟ أحكي لهما قصص وقت نوم! هل يمكنك أن تتصوّر ذلك؟» أطلق قهقهة عالية. «تعرف يا هنري، فأنا نفسي لا أكاد أصدق هذا. لكنها الحقيقة. كنت أرعاهما أكثر مما لو كانا طفليّ. يا إلهي، لقد أحضرت لهما حديقة حيوانات كاملة من الألعاب. ولو لم تكن تيس تغسل أجزاءها الداخلية تماماً، لكنا أنجبنا ثلاثة أو أربعة أطفال بأنفسنا. لربّما كان هذا أحد الأسباب الذي جعل أحدنا يهيم بالآخر. إن لتيس يا هنري ـ قلب من ذهب. لكنها ليست تلك المرأة التي يمكنك أن تتحدث إليها كثيراً. إنها مهتمة بعملها في القانون، وهذا كل ما في الأمر. فإذا بقيت في البيت في الليل فإني أنام، أو أسكر. لماذا بحق الجحيم تزوّجتها، لا أعرف. أنت، يا ابن الزنا، لم تفه بكلمة واحدة حتى الآن: تركتني أقول كل شيء. ظننت أن ذلك أفضل بالنسبة لي، أليس كذلك؟ حسناً أعرف أنني أخرج عن الموضوع بسرعة. أحياناً، عندما أستمع إلى نفسي، أسمع أبي يتكلم. إنه لا يستطيع أن يركّز على نقطة أكثر من دقيقتين. أمي كذلك... ماذا عن شراب آخر؟ سأدفع ثمنه، لا تقلق».

ساد صمت لبضع لحظات، ثم سألته بصراحة شديدة لماذا يريدني أن ألتقي بفتاته الجديدة. ثم أضفت «فأنا أعرف تمام المعرفة أنك لا ترغب في الحصول على موافقتي».

«لا يا هنري»، ونظر إلى سطح المائدة، «بجدّ أريدك أن تأتي على العشاء ذات ليلة عندما يشاركنا الطفلان الطعام و...».

«وماذا؟».

«تعطيني بعض المؤشرات عن قصص الجان اللعينة تلك. وكما تعرف فإن الطفلين يأخذان هذه الأشياء على محمل الجدّ. أشعر أني أقوم بعمل غبي. لعلي أحكي لهما أشياء يجب ألا يسمعاها إلا بعد أن يكبرا خمس سنوات أخرى...».

«إذاً هكذا هو الأمر؟»، قلت، «حسناً، اللعنة! وما الذي يجعلك تعتقد أنني أعرف شيئاً عن هذه الأمور؟».

«لقد كان عندك طفلة، أليس كذلك؟ بالإضافة إلى ذلك فإنك كاتب. أنت تفهم كل هذا الهراء. أبدأ قصة ولا أعرف كيف أنهيها. أصبح في متاهة، أقول لك».

«أليس لديك خيال؟».

«هل تمزح؟ اسمع، أنت تعرفني. كلّ ما أعرف عنه هو القانون، وربّما ليس الشيء الكثير منه. إن عقلي ذا مسار واحد. على أية حال، ليس هذا هو السبب الوحيد الذي أريدك أن تجيء من أجله... أريدك أن تلتقي بتريكس. أظن أنك ستحبّها. يا إلهي، إنها طباخة ماهرة! أما تيس، بالمناسبة؟ حسناً، ليس من الضروري أن أخبرك؟ لكن ليس بوسع تيس أن تقلي بيضة. هذه المرأة تجعلك تعتقد أنك تتعشّى في مطعم الريتز. لها نَفَس رائع في الطهي. يوجد عندها قبو، أيضاً ـ ربّما فهمت قصدي. اسمع، بماذا تدمدم وتهمهم؟ أريدك أن تستمتع بوقت جيد، هذا كلّ ما في الأمر. يجب أن تغيّر من حين إلى حين. يستطيع أومارا أن يشرف على المكان بضع ساعات، أليس كذلك؟ هذا إذا كنت تأتمنه! أنا شخصياً لا يمكنني أن أأتمنه إذ وقع خارج بصري...».

في تلك اللحظة دخل توني مورير يتأبط تحت ذراعه كتاباً

سميكاً. وكدأبه كان ودّياً جداً. جلس إلى الطاولة بجانبنا وسأل إن كنا نرغب في مشاركته الشراب. رفع الكتاب عالياً لأتمكن من قراءة العنوان: «*انحطاط الغرب*».

«لم أسمع به»، قلت.

«ستسمع به قريباً» أجاب. «كتاب عظيم. تنبؤي».

اندفع ماكجريجور قائلاً: «انسَ الموضوع! ليس لديك وقت للقراءة على أية حال».

«هل يمكنني أن أستعيره عندما تنتهي من قراءته» سألته.

«بالطبع»، قال توني مورير. «سأقدمه لك هدية».

وليبدي اعتذاره عما بدر منه، سأل ماكجريجور إن كان عملاً صوفياً. وبطبيعة الحال، لم يكن لديه أدنى اهتمام بذلك، لكن تبين له أن توني مورير ليس غبياً.

بعد أن قال إنه عن فلسفة التاريخ، غمغم: «إنه لك».

احتسينا بضع كؤوس مع توني مورير، وأحسست في تلك اللحظات بشيء من الانتشاء. وخطر ببالي إننا قد نمضي أمسية رائعة، أو عشاء على الأقل، عند تريكس. كان اسمها الكامل تريكس ميراندا.

أعجبني الاسم.

«ما هي القصّة التي يفضلانها عند النوم؟» سألت.

«شيء عن الدببة الثلاثة».

«أتقصد قصة الفتاة ذات خصلات الشعر الذهبي والدببة الثلاثة؟». يا إلهي، أعرف أن هذا شيء متخلّف. إني أفكر... ما رأيك بالليلة بعد القادمة؟».

«الآن بدأت تتكلم يا هنري. أعرف أنك لن تخذلني. بالمناسبة، ليس من الضروري أن تفعل ذلك بالطبع، لكن إذا كان بإمكانك أن

تجلب معك زجاجة من النبيذ، فإن تريكس ستقدّر لك ذلك كثيراً. نبيذ فرنسي، إذا كان بإمكانك ذلك».

«أسهل شيء في العالم! سأجلب زجاجتين أو ثلاثاً».

نهض استعداداً للمغادرة، وفيما كان يصافحني قال: «اصنع لي معروفاً؟ لا تسكر قبل أن يأوي الطفلان إلى السرير».

«اتفقنا. والآن سأطلب منك معروفاً. دعني أحكي لهما قصة الدببة الثلاثة، إيه؟».

«حسناً يا هنري؟ لكن بدون تصرفات غير لائقة».

بعد مضي ليلتين كنت أتناول طعام العشاء مع ماكجريجور وتريكس؟ في أحد الأركان البعيدة من البرونكس. الطفلان موفورا الصحة. الصبي في الخامسة من العمر، والبنت في حوالى الثالثة والنصف. طفلان فاتنان لكنهما ناضجان قبل أوانهما تقريباً. فعلت ما بوسعي لكي لا أسكر قبل أن يأوي الطفلان إلى السرير. لكننا كنا قد احتسينا ثلاثة أقداح من المارتيني بانتظار العشاء، وبدأنا الآن نجرّب نبيذ تشامبيرتين الذي جلبته معي.

تريكس امرأة طيبة، كما يقول ماكجريجور. ليست جميلة، لكنك تجد متعة في النظر إليها. مرحة وبشوشة. أما العيب الوحيد الذي اكتشفته فيها حتى الآن فهو أنها تصاب بنوبات هستيرية.

مضى كل شيء بيسر وسلاسة. شعرت بالارتياح تجاه الطفلين. لم يكفّا عن تذكيري بأني وعدتهما بأن أحكي لهما حكاية الدببة الثلاثة.

«هيا يا هنري» قال ماكجريجور.

في الحقيقة لم تعد لديّ أدنى رغبة الآن في أن أروي لهما حكاية ما قبل النوم تلك. حاولت أن أطيل الوقت بقدر ما أستطيع على

وجبة الطعام. كنت ثملاً بعض الشيء. لم أتذكر بداية تلك الحكاية اللعينة.

فجأة قالت تريكس: «يجب عليك أن تحكيها لهما الآن يا هنري. لقد تأخرا عن موعد نومهما كثيراً».

«حسناً!» قلت متذمراً، «أعديّ لي كوباً آخر من القهوة السادة وسأبدأ».

«أنا سأبدأها لك» قال الصبي.

«لا تفعل شيئاً كهذا!» قالت تريكس، «سيروي لكما هنري هذه الحكاية - من بدايتها حتى نهايتها. أريدكما أن تنصتا بعناية. اصمتا الآن».

جرعت قليلاً من القهوة السادة دفعة واحدة، غصصت بها، رشرشت حولي وفأفأت.

«كان يا مكان في قديم الزمان دبّ كبير أسود...».

«إنها لا تبدأ بهذه الطريقة» وصوصت البنت الصغيرة.

«حسناً، كيف تبدأ إذن؟».

«في قديم الزمان وسالف العصر والأوان...».

«بالتأكيد، بالتأكيد... كيف يمكنني أن أنسى؟ حسناً، هل تنصتان الآن؟ ها إني أبدأ... في قديم الزمان وسالف العصر والأوان كان هناك ثلاثة دببة؟ دبّ قطبي، ودبّ أمريكي، ودبدوب...».

(انطلقت أصوات ضحك وسخرية من الطفلين).

«كان لدى الدب القطبي نطاق من الفراء الأبيض الطويل؟ ليحافظ على الدفء، بالطبع. وكان الدب الأمريكي...».

«إنها لا تبدأ بهذه الطريقة يا أماه!» صرخت الفتاة الصغيرة.

«إنه يؤلفّها من عنده»، قال الصبي.

«اصمتا أنتما الاثنان!» صاحت تريكس.

«اسمع يا هنري»، قال ماكجريجور، «لا تدعهما يزعجانك. خذ وقتك. تذكّر، قلها بسهولة. هيا، خذ رشفة أخرى من الكونياك، إنه سيعدل مزاجك».

أشعلت سيجاراً غليظاً، جرعتُ رشفة أخرى من الكونياك، وحاولت أن أعود إلى القصة. وفجأة خطر لي أنه لا توجد سوى طريقة واحدة لأحكيها لهما، وهي أن أحكيها بسرعة البرق. فإذا توقفت عن التفكير فإني سأغرق.

«اسمعا»، قلت، «سأبدأ من جديد. لا تقاطعاني مرة أخرى، ايه؟» وغمزت الفتاة الصغيرة، ورميت للصبي عظمة ما زالت مكسوة بشيء من اللحم.

«من المؤكد أن يواجه رجل يتمتع بخيالك صعوبة في ذلك» قال ماكجريجور. «يجب أن تساوي هذه القصة مائة دولار، مع كلّ التمهيدات التي مررت فيها. هل أنت واثق من أنك لست بحاجة إلى أسبيرين؟».

«هذه القصة تساوي ألف دولار» أجبت واستجمعت نفسي الآن تماماً. «لكن لا تقاطعني!».

«هيا، هيا، كفاك ابتزازاً! في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، هكذا تبدأ»، قال مايجريجور.

«حسناً... في قديم الزمان وسالف العصر والأوان... نعم، هكذا. في قديم الزمان وسالف العصر والأوان كان هناك ثلاثة دببة: دبّ قطبي، ودبّ أمريكي، ودبدوب...».

«قلت ذلك من قبل»، قال الصبي.

«اصمت» ! صاحت تريكس.

«كان الدب القطبي عارياً تماماً ذا فراء أبيض طويل يصل إلى

الأرض. وكان الدب الأمريكي قاسياً مثل شريحة لحم بقر، ويوجد الكثير من الدهن بين أصابع قدمه. أما الدبدوب فكان في حالة سليمة، لا سميناً جداً ولا نحيفاً جداً، لا قاسياً ولا طرياً، لا حاراً ولا بارداً...».

أصوات ضحكات مكتومة من الأطفال.

«لم يكن الدب القطبي يأكل شيئاً سوى الجليد ـ جليد بارد. أما الدب الأمريكي فكان يقتات على نبات الأرضي شوكي، لأنه مليء بالقشور والقراص».

«ما هي القشور، ماما؟» قالت البنت الصغيرة بصوت كالصفير.

«اصمتي!» قالت تريكس.

«أما الدبدوب، فلأنه لم يكن يشرب سوى حليب خال من الدسم، فكان ينمو جيداً، كما تريان، ولم يكن بحاجة إلى فيتامينات. ذات يوم كان الدب الأمريكي في الخارج يجمع حطباً ليوقد النار. ولم يكن يكسوه شيء سوى جلده، وكان الذباب يجعله متوفز الأعصاب. لذلك راح يجري ويجري ويجري. وسرعان ما أصبح في وسط الغابة. وبعد قليل، جلس بجانب جدول وغط في سبات عميق...».

«لا أحبّ الطريقة التي يقولها»، قال الصبي، «إنها مشوشة».

«إذا لم تسكت، سآخذك إلى السرير!».

«وفجأة دخلت ذات الخصلات الذهبية الصغيرة إلى الغابة. كانت تحمل سلة الطعام المملوءة بجميع الأنواع والأصناف، بالإضافة إلى زجاجة صلصة ذات العلامة الزرقاء. كانت تبحث عن المنزل الصغير ذي الدرفات الخضراء. فجأة سمعت أحدهم يشخر، وبين أصوات الشخير كان يسمع صوت جهوري يصيح: «أريد فطيرة بلوط! أريد فطيرة بلوط!». نظرت ذات الخصلات الذهبية أولا إلى اليمين ثم إلى اليسار. لم تر أحداً. لذلك أخرجت بوصلتها، فاتجه المؤشر نحو الغرب، وسارت في هذا الاتجاه. وبعد ساعة، أو ربّما

ساعة وربع، وصلت إلى مكان فارغ في الغابة. وكان هناك المنزل الصغير ذي الدرفات الزيتونية القاتمة».

بعد أن انتهت رواية الحكاية، توجه الطفلان إلى سريرهما. وأصبح بإمكاننا الآن أن نجلس بارتياح ونحتسي الشراب، ونأكل أطايب الطعام. ولم يكن ماكجريجور يفضّل شيئاً أكثر من الكلام عن الأيام الخوالي. كنّا في الثلاثينات من عمرنا، إلا أنه كان قد مضى على صداقتنا المتينة عشرون عاماً، فضلاً عن ذلك، يبدو المرء في ذلك العمر أكبر مما لو كان في الخمسين أو الستين من عمره. في الحقيقة، كنا ما نزال أنا وماكجريجور نمر في فترة مراهقة طويلة.

كان ماكجريجور كلما تعرّف إلى فتاة جديدة يبحث عني، ليحصل على موافقتي عليها، ثم يدخل في حديث عاطفي لمدة طويلة. لقد فعلنا ذلك مرات عديدة، وكنا كأننا نعزف لحناً ثنائياً. وكانت الفتاة تجلس هناك مسلوبة - لتقاطعنا بين الحين والحين بسؤال وثيق الصلة. وكان الثنائي يبدآن دائماً بأن يسأل أحدنا إذا كان الآخر قد رأى أو سمع شيئاً مؤخراً عن جورج مارشال. لا أعرف لماذا كنا نختار غريزياً هذه الافتتاحية. كنا مثل بعض لاعبي الشطرنج نفتتح دائماً بالمناورة الإسكتلندية، مهما كان الخصم.

«هل رأيت جورج مؤخراً؟» سألته، هكذا بدون مناسبة.

«أتعني جورج مارشال؟».

«نعم، يبدو أني لم أره منذ زمن بعيد».

«لا يا هنري، أقول لك الحقيقة. أظن أنه مايزال يذهب إلى حي الفيليج عصر أيام السبت».

«ليرقص؟».

ابتسم مايجريجور وقال: «إن أردت أن تدعوها كذلك يا هنري.

إنك تعرف جورج!» توقف برهة ثم أردف: «جورج شخص غريب الأطوار. أظن أني ما أزال لا أعرف عنه الكثير».

«ماذا؟».

«كما قلت لك يا هنري. هذا الرجل يعيش حياة مزدوجة. يجب أن تراه في البيت، مع زوجته وأطفاله. إنك لا تعرفه».

قلت إني لم أر جورج منذ أن تزوّج.

«أنا لم أحبّ زوجته أبداً».

«عليك أن تتكلم مع جورج بشأنها ذات يوم. إن بقاءهما معاً معجزة. يعطيها ما تطلبه، وبالمقابل فهو يسلك طريقه الخاص. يا إلهي، عندما تزورهما، كأنك تتزلج فوق ديناميت... أنت تعرف ذلك الحديث الخادع الذي يبدأه جورج...».

«اسمع»، قاطعته، «أتذكّر تلك الليلة في غرينبوينت، عندما كنا جالسين في إحدى الحانات الرخيصة وبدأ جورج يحكي كلاماً معسولاً عن أمه، كيف أن الشمس تشرق في مؤخرتها وتغرب فيها؟».

«يا إلهي يا هنري، من المؤكد أنك تفكر بأشياء غريبة. بالتأكيد، إني أتذكر. أتذكر كلّ حديث دار بيننا على ما أظن. والزمان والمكان. وسواء كنت ثملاً أم صاحياً» استدار نحو تريكس. «هل نزعجك؟ كنا نحن الثلاثة أصدقاء حميمين في الماضي. لقد أمضينا أوقاتاً طيبة معاً، أليس كذلك يا هنري؟ هل تذكر ماسبيث - تلك المسابقات الرياضية؟ لم يكن لدينا شيء نقلق من أجله، أليس كذلك؟ هل كنت مرتبطاً بتلك الأرملة آنذاك، أم كان ذلك فيما بعد؟ اسمعي هذا يا تريكس... لم يكد يخرج هذا الرجل من المدرسة حتى وقع في حبّ امرأة مسنة بعمر أمه. أراد أن يتزوجها، أيضاً، أليس كذلك يا هنري؟».

ابتسمت ابتسامة عريضة وأومأت برأسي إيماءة مبهمة.

«إن هنري يقع دائماً على رأسه. هذا النوع الجدّي، رغم أن ذلك لا يخطر ببالك عندما تنظرين إليه... أما عن جورج. كما كنت أقول من قبل يا هنري، فإن جورج رجل مختلف. لم يكن لديه عمل. كان يكره عمله، يحتقر زوجته، والأطفال يشعرون بالضجر منه حتى الموت. كان كلّ ما يفكر فيه هو أن يحصل على فتاة جميلة. يا إلهي، هل كان يركض وراء ذلك! كان يعثر عليهن، صغيرات السن. آخر مرّة رأيته فيها كان في ورطة مع فتاة في الخامسة عشرة من عمرها؟ كانت طالبة في مدرسته. (لا يمكنني أن أتصور جورج مديراً، أليس كذلك؟ أظن كل شيء قد بدأ في مكتبه). ثمّ أخذ يلتقي بها في المرقص. وأخيراً بلغت به الجرأة أن أخذها إلى فندق ـ على أنهما زوج وزوجة... وآخر شيء سمعته أن أحدهما كان يداعب الآخر في أرضٍ فضاء قرب الملعب. يوماً ما سيحتل اسم هذا الرجل عناوين الأخبار يا هنري. يا إلهي، لن يكتبوا عنه أشياء لطيفة».

عند ذلك لمعت في رأسي خاطرة، شديدة الوضوح والكمال، لم أكد أتمالك نفسي. كأن شخصاً قد فتح مروحة يدوية يابانية. كانت الصورة تراودني منذ أن كنا أنا وجورج توأمين. يومها كنت أعمل عند أبي، وهذا يعني أني لا بد كنت في الثانية أو الثالثة والعشرين من العمر. جاء جورج مارشال وهو في حالة سيئة، حيث كان مصاباً بذات الرئة مما اضطره إلى البقاء طريح الفراش لعدة شهور. وعندما تحسنت صحته، أرسله أبواه إلى الريف ـ في مكان ما في نيو جيرسي. بدأ كل شيء عندما تلقيت منه رسالة تقول بأنه كان يتماثل للشفاء بسرعة وطلب مني أن آتي لزيارته. كنت سعيداً جداً للفرصة لاختلاس بضعة أيام لإمضاء عطلة، لذا أرسلت له برقية أقول فيها إنّني سأكون هناك في اليوم التالي.

كان الوقت آواخر الخريف. كان الريف كئيباً. قابلني جورج في المحطة، مع ابن خالته الشاب هيربي. (كانت خالته وزوجها جورج يديران المزرعة). وكانت أولى الكلمات التي تفوه بها ـ كما توقعت ـ

بأن أمه هي التي أنقذت حياته. كان مبتهجاً لرؤيتي، وبدا أنه في صحة ممتازة. وكانت الشمس قد لوحته قليلاً.

«المزرعة رائعة يا هنري»، قال «إنها مزرعة حقيقية».

بدت لي مثل أيّ مزرعة أخرى - مزرعة حقيرة، كئيبة، قديمة ومتداعية. كانت عمته بدينة، طيبة، حنونة، وكان جلياً أن جورج يحبها إلى درجة كبيرة، بالقدر نفسه الذي كان يحب فيها أمه. أما هيربي، الابن، فكان أحمق بعض الشيء. ثرثاراً أيضاً. لكن الشيء الذي لفت انتباهي في الحال، هو نظرة الإنشداه في عينيه. وكان واضحاً أنه كان يؤله جورج. كما كانت الطريقة التي تكلم فيها أحدنا إلى الآخر شيئاً جديداً بالنسبة له. وكان من الصعب أن نتخلص منه.

كان أول شيء فعلناه - أتذكر ذلك جيداً - هو أننا احتسينا كأساً مترعة من الحليب. الحليب الدسم. حليب لم أذقه منذ أن كنت صبياً. «أشرب خمسة أو ستة كؤوس منها كل يوم»، يقول جورج. قطع لي شريحة سميكة من الخبز المنزلي، ودهن عليها قليلاً من الزبدة، وقليلاً من المربّى المنزلي الصنع.

«هل أحضرت معك ملابس قديمة، يا هنري؟».

اعترفت أني لم أفكر بذلك.

«لا تهتم بذلك، سأعيرك أشيائي. يجب أن ترتدي ثياباً قديمة هنا. سترى».

نظر مباشرة إلى هيربي وقال: «إيه، هيربي؟».

وصلت في قطار بعد الظهر. كان الظلام قد بدأ يحلّ الآن. «غيّر ملابسك يا هنري، وسننطلق في نزهة سريعة على القدمين. لن يصبح العشاء جاهزاً حتى الساعة السابعة. يجب أن نفتح شهيتنا».

قال هيربي: «نعم، سنتناول دجاجة الليلة».

ثم سألني إن كنت عدّاءً جيداً.

غمزني جورج غمزة ماكرة. «إنه مهووس بالألعاب يا هنري».

حين التقيت بهم عند أسفل الدرج أعطوني عصا غليظة. «من الأفضل أن ترتدي قفازاتك»، قال هيربي، ورمي لي شالاً صوفياً كبيراً.

«كل شيء جاهز؟» قال جورج. «هيا، لنسرع» وانطلق بسرعة فائقة.

«لم العجلة؟» سألت. «إلى أين نحن ذاهبون؟».

«قريباً من المحطة»، قال هيربي.

«وماذا يوجد هناك؟».

«سترى. أليس كذلك يا جورج؟».

كانت المحطة كئيبة موحشة. وكان يصطف عدد من عربات الشحن، لا شكّ أنها كانت في انتظار علب الحليب.

«اسمع»، قال جورج وتباطأ قليلاً ليسير بحذائي، «الفكرة هي أن نتقدم على الجميع. تعرف ما أعني!». تكلّم بسرعة، غمغم الكلمات، كأنّ هناك شيئاً سرياً يغلف ما سنقوم به. «حتى الآن ليس هناك سوى هيربي وأنا: يجب أن نمتّع أنفسنا. لا تقلق يا هنري. ستتعود على ذلك بسرعة. اتبعني فقط».

راودتني حيرة شديدة لهذه المعلومة الغريبة. وفيما كنا نثب وثباً، اهتاج هيربي وأخذ يهرف كديك رومي مسن.

فتح جورج باب المحطة بهدوء ونظر خلسة إلى الداخل. كان رجل مسن سكير يغفو فوق المقعد. «هنا»، قال جورج، وأمسك قبعتي وحشر قبعة قديمة في يدي، «ضع هذه!» ووضع شيئاً غريباً على رأسه بسرعة وثبّت دبوساً على معطفه. «ابقَ هنا»، قال بلهجة الأمر، «وسأفتح المحل. افعل كما يفعل هيربي وستكون على مايرام».

فيما اندفع جورج إلى المكتب وفتح النافذة جذبني هيربي من

يدي. «هاهو، يا هنري»، قال واتجه نحو النافذة حيث كان يقف جورج، متظاهراً بأنه يقرأ جدول مواعيد القطارات.

«يا سيدي، أودّ أن أشتري تذكرة»، قال هيربي بصوت يشوبه الخجل.

«تذكرة إلى أين؟» قال جورج عابساً، «لدينا جميع أنواع التذاكر هنا. هل تريد درجة أولى، ثانية أم ثالثة؟ لنرى، سينطلق قطار ويهاوكين السريع من هنا في غضون ثماني دقائق. سيكون هناك تغيير مع دينفير وريو غراند عند تقاطع أوماها. هل معك حقائب؟».

«أرجوك يا سيدي، لا أعرف إلى أين سأذهب بعد».

«ماذا تعني، ألا تعرف إلى أين تريد أن تذهب؟ ماذا تظن هذا؟ يانصيب؟ من هو ذلك الرجل الواقف خلفك؟ هل هو قريبك؟».

يستدير هيربي لينظر إليّ ويغمزني.

«إنه خال أمي يا سيدي. يريد الذهاب إلى وينيبيج، لكنّه ليس متأكداً متى موعد انطلاق القطار».

«اطلب منه أن يتقدم إلى هنا. ما مشكلته؟ هل هو أصمّ أم ثقيل السمع؟».

دفعني هيربي أمامه. نظر أحدنا إلى الآخر، أنا وجورج مارشال، كما لو كنا لا نعرف بعضنا.

«لقد أتيت من وينيبيج للتو»، قلت، «ألا يوجد مكان آخر يمكنني أن أذهب إليه؟».

«يمكنني أن أبيعك تذكرة إلى نيو برونزويك، لكن لا يوجد فيها ربح كثير للشركة. يجب أن نتدبّر أمورنا كما تعرف. الآن هاك تذكرة جيدة إلى سبيتين ديفيل ـ هل يناسبك ذلك؟ أم تريد شيئاً أغلى؟».

«أودّ أن أذهب عن طريق البحيرات الكبرى، إذا كان بوسعك أن تتدبر ذلك لي».

«أتدبرها؟ هذا عملي! كم عدد الأشخاص؟ هل توجد قطط أو كلاب؟ أنت تعرف أن البحيرات متجمدة الآن، أليس كذلك؟ لكنّك تستطيع أن تأخذ القارب الجليدي من هذا الجانب من كاناناديجوا. لايفترض بي أن أرسم لك خريطة، أليس كذلك».

انحنيت إلى الأمام كما لو كنت سأقول له شيئاً خاصاً وسرياً.

«لا تهمس» صاح وخبط بمسطرة على المنضدة. «إن هذا مخالف للقوانين... قل لي الآن ماذا تريد أن تبلغني إياه؟ تكلّم بوضوح وتوقّف عند الفواصل والفاصلة المنقوطة».

«إنها عن التابوت»، قلت.

«التابوت؟ لماذا لم تذكر ذلك في الحال؟ انتظر دقيقة، يجب أن أبعث ببرقية إلى مسؤول الشحن».

اتجه نحو الجهاز وأخذ ينقر المفاتيح. «يجب أن تسلك طريقاً خاصاً. أما الماشية والجثث فتسلك طريقاً آخر. إنها تفسد بسرعة كبيرة... ماذا يوجد في التابوت بالإضافة إلى الجثة؟».

«نعم يا سيدي، زوجتي».

«انصرف من هنا قبل أن أستدعي الشرطة!». وأنزل النافذة بقوة. ثم سُمع صوت جلبة شديدة داخل الغرفة الضيقة، كأنّ مدير المحطة الجديد قد فقد السيطرة على نفسه.

«بسرعة»، قال هيربي، «لنخرج من هنا. أعرف طريقاً مختصراً، هيا!» وأمسك يدي، وشدني من الباب الآخر، حول خزان الماء. «اقفز، بسرعة»، قال، «وإلا شاهدوك». رمينا أنفسنا في بركة الماء القذرة تحت الخزان. «هسس!» قال هيربي، واضعاً إصبعه على شفتي. «قد يسمعونك».

قبعنا هناك بضع دقائق، ثم جثا هيربي على يديه وركبتيه بحذر، ونظر حوله كأننا وقعنا في الفخ. «ابق هنا دقيقة وسأصعد السلم لأرى إن كان الخزان فارغاً».

«إنهم معتوهون»، قلت لنفسي. وفجأة تساءلت لماذا يجب عليّ أن أقبع في هذا الماء القذر البارد. صاح هيربي بصوت خفيض: «اصعد، عليك الأمان. نستطيع أن نختفي هنا لفترة». وفيما أمسكت الدرجات الحديدية أحسست بالريح تكاد تمزقني. «لا تسقط في الخزان»، قال هيربي، «نصف الخزان فارغ». تسلقت إلى القمة وتعلقت من داخل الخزان ويداي مجمدتان. «إلى متى سنبقى هكذا؟»، سألته بعد بضع دقائق. «ليس لمدة طويلة»، قال هيربي. «إنهم يغيّرون الحراسة الآن».

«هل تسمعهم؟ سيكون جورج في انتظارنا في المطبخ. سيطهو لنا طعاماً دافئاً لطيفاً».

كان الظلام قد حلّ عندما تسلّقنا وخرجنا من الخزان ورحنا نعدو عبر الساحة حتى وصلنا إلى مؤخرة قطار البضائع الجاثم على التحويلة. تجمّدت أوصالي. كان هيربي محقاً. عندما فتحنا باب المطبخ كان جورج جالساً هناك أمام موقد حار، يدفّئ يديه.

«اخلع معطفك يا هنري»، قال، «وجفف نفسك». ثمّ تطاول ووصل إلى خزانة صغيرة وأحضر زجاجة ويسكي. «هيا، ارشف منها ـ إنه رائع». فعلت كما طلب مني، ومرر الزجاجة إلى جورج الذي أخذ منها جرعة كبيرة، ثم مررّها إلى هيربي الصغير.

«هل أحضرت المؤونة؟» سأل جورج هيربي.

«عصفور وقطعتان من البطاطا»، قال هيربي، وهو يخرجها من جيوبه.

«أين المايونيز؟».

«لم أجده، صدقاً»، قال هيربي.

«في المرة القادمة أريد مايونيز، أتفهم؟»، أرعد جورج مارشال وأزبد. «كيف تتوقع بحق السماء أن آكل بطاطا مشوية بدون مايونيز»، ثم أردف: «سنزحف الآن تحت العربات حتى نقترب

من قاطرة المحرّك. وعندما تسمعان صافرة، تزحفان أنتما الاثنان من تحت وتجريان بأقصى سرعتكما. اذهبا في الطريق المختصر إلى النهر. سأقابلكما تحت الجسر. هنا يا هنري، من الأفضل أن ترشف جرعة أخرى من هذه... الجوّ بارد هناك. في المرة القادمة سأقدم لك سيجاراً! كيف تشعر الآن؟».

كنت أشعر بالمتعة إلى درجة أنه لم تراودني رغبة في المغادرة بسرعة. لكن بدا من الواضح أن خططهم كان يجب أن تنفّذ بتوقيت دقيق.

«وماذا حل بالبطاطا؟» جازفت وسألت.

«إنها للمرة القادمة»، قال جورج. «لا يمكننا أن نبقى محصورين هنا». ثم التفت إلى هيربي وقال «هل معك البندقية؟».

مرة أخرى، أخذنا نزحف تحت عربات قطار الشحن كما لو كنا مجرمين. سررت لأن هيربي كان قد أعطاني الشال الصوفي. عند إشارة معينة انبطحنا أنا وهيربي بانتظار صافرة جورج.

«ثم ماذا؟» همست.

«هسس! قد يسمعك أحدهم».

بعد بضع دقائق سمعنا صافرة واطئة، زحفنا من تحت العربات، ثم أخذنا نجري بأسرع ما أمكننا إلى أسفل الوادي نحو الجسر. كان هناك جورج ثانية، جالساً ينتظرنا تحت الجسر. «أحسنتما» قال «اسمعا الآن، سنستريح دقيقة أو دقيقتين، ثم سنتوجه صوب ذلك التلّ هناك، هل ترياه؟» نظر إلى هيربي وسأله. «هل المسدس محشو؟».

تفحّص هيربي مسدسه القديم الصدئ، أومأ برأسه بالإيجاب، ثم أعاده إلى حافظته.

«تذكّر»، قال جورج، «لا تطلق النار إلا إذا كان الأمر في غاية الضرورة. لا أريدك أن تقتل أطفالاً آخرين عرضاً، أتفهم؟».

كان هناك وميض في عيني هيربي وهو يهز رأسه.

«الخطة يا هنري، هي أن نصل إلى سفح ذلك التّل قبل أن يطلقوا جرس الإنذار. عندما نصل إلى هناك، نكون في أمان. سنذهب إلى البيت بالالتفاف حول طريق المستنقع».

أخذنا نسير خبباً، منحنين. ثم أصبحنا نسير فوق عشب الماء وقد غمرت المياه أحذيتنا. «راقب المتسكعين»، همس جورج. وصلنا إلى سفح التلّ دون أن يرانا أحد، استرحنا هناك بضع لحظات، ثم انطلقنا بخطى سريعة لنتجنب المستنقع. أخيراً وصلنا إلى الطريق ورحنا نمشي الهوينا.

«سنصل إلى البيت بعد بضع دقائق»، قال جورج «سندخل من الباب الخلفي ونغيّر ملابسنا».

«هل أنت واثق أننا أضعناهم؟» سألت.

«إلى حد ما»، قال جورج.

«في آخر مرّة لحقوا بنا حتى الحظيرة»، قال هيربي.

«ماذا يحدث إذا أمسكوا بنا؟».

رفع هيربي يده وحرك طرفها عبر حنجرته.

غمغمت شيئاً بمعنى أني لم أكن متأكداً من المشاركة.

«يجب عليك»، قال هيربي «توجد عداوة».

«سنوضّح لك الأمر بالتفصيل غداً»، قال جورج.

كان في الغرفة الكبيرة في الطابق العلوي سريران، واحد لي، وآخر لهيربي وجورج. أشعلنا نارا في الحال في الموقد الكبير؛ وبدأنا نغّير ملابسنا.

«هل تريد أن تدلكني؟» قال جورج، وخلع قميصه الداخلي. «إني أحصل على مسّاج مرتين في اليوم. الأول بالكحول والآخر بدهن الإوز. لا شيء مثله، يا هنري».

اضطجع على السرير الكبير وبدأت عملي. أخذت أدلكه حتى شعرت بيدي تؤلماني.

«استلقِ الآن»، قال جورج، «وهيربي سيدلكك. سيجعل منك رجلاً جديداً».

فعلت كما طلب مني. كان إحساساً رائعاً. بدأت أشعر بوخز خفيف في دمي، تورّد لحمي. راودتني شهية للطعام لم أشعر بها من قبل.

«هل عرفت لماذا جئت إلى هنا»، قال جورج. «سنلعب الورق بعد العشاء ـ فقط لندخل المتعة إلى قلب العجوز ـ ثم سندخل».

«بالمناسبة، يا هنري»، أضاف، «احفظ لسانك. لا سباب ولا شتائم أمام العجوز. إنه مسيحي متدين. إننا نتلو الصلاة قبل أن نأكل. حاول ألا تضحك!».

«يجب أن تفعل ذلك ذات ليلة»، قال هيربي «قل أيّ شيء ملعون يخطر ببالك. لا أحد يستمع على أي حال».

على المائدة قدموني إلى الرجل العجوز. كان مزارعاً مثالياً؛ يدان كبيرتان خشنتان، لم يكن حليق الذقن، تفوح منه رائحة برسيم وسماد، يتكلم كلاماً مشتتاً وقليلاً، يلتهم طعامه التهاماً، يتجشأ، ينكش أسنانه بالشوكة، ويشكو من الروماتزم. تناولنا جميعاً كميات هائلة من الطعام. كان هناك ما لا يقل عن سبعة أنواع من الخضار ترافق الدجاج المشوي، وأعقب ذلك حلوى بودينغ لذيذة وفواكه ومكسرات من جميع الأنواع. شرب الجميع نبيذاً مع الطعام، ما عداي حيث شربت حليباً. ثمّ جاءت القهوة مع القشدة الحقيقية والفستق المملّح. كان عليّ أن أرخي حزامي قليلاً.

حال انتهاء وجبة الطعام، نُظفت المائدة وأُحضر ورق لعب ملوث بالدهن. كان على هيربي أن يساعد أمه في غسل الصحون، فيما أخذنا أنا وجورج والرجل العجوز نلعب. كان الهدف من اللعبة كما قال جورج، أن نجعل الرجل العجوز يفوز، وإلا أصبح متذمّراً وفظّاً. كان حظي في اللعب جيداً، مما جعل أمر خسارتي أمراً

صعباً. لكني بذلت جهدي. الرجل العجوز ربح بهامش ضيّق. كان مسروراً بنفسه سروراً كبيراً.

قبل أن نصعد إلى الطابق العلوي لقضاء بقية الليلة، وضع هيربي زوجاً من أسطوانات الفونوغراف من ماركة إديسون. كانت إحداها «*العلم الأمريكي إلى الأبد*». بدت شيئاً من عالم متجسد آخر.

«أين تلك الأسطوانة الضاحكة يا هيربي» قال جورج.

أخذ هيربي يبحث في صندوق قبعات قديم واستل بمهارة أسطوانة قديمة بإصبعيه. كانت أسطوانة لم أسمع مثلها. لا شيء فيها سوى ضحك ـ ضحك مجنون، غريب الأطوار. ضحكت حتى كاد يغشى عليّ.

«هذه لا شيء»، قال جورج، «انتظر حتى تسمع ضحكة هيربي».

«ليس الآن!» قلت متوسلاً. «احتفظ بها إلى الغد».

ما أن وضعت رأسي على الوسادة حتى غطظت في سبات عميق. يا له من سرير! لا شيء سوى ريش طري ناعم. أطنان منه، كما بدا لي. كان أشبه بالعودة إلى الرحم ثانية، أتأرجح في حالة من النسيان. نعيم. منتهى النعيم والسعادة.

«هناك مبولة تحت السرير، إذا احتجت إليها»، كانت كلمات جورج الأخيرة. لكني لم أستطع أن أرى نفسي أغادر السرير مهما بلغ الأمر.

صحوت قبل الآخرين، منتعشاً سعيداً، لا أتحرك، وكنت أجد متعة في طقطقة أصابعي. كان نشاز الزريبة موسيقى جميلة لأذني. الحفّ والقشط، صوت تلاطم الدلاء، صياح الديك، صوت الدبدبة، مناداة الطيور، الثرثرة والشخير، الأنين، الصهيل الحمحمة والهمهمة، قوقأة الدجاج، صوت تحرك القطار من بعيد، صوت سحق الثلج المتصلب، هبوب الرياح، صوت تحرك محور صدئ، لوح خشب يئز تحت المنشار، الأصوات المكتومة لوقع الأحذية الثقيلة ـ

كلها اجتمعت لتؤلف سيمفونية مألوفة لأذني. هذه الأصوات القديمة البسيطة، هذه المعزوفات المبكرة تولد من لدّن حركة الحياة اليومية، هذه النداءات، الثرثرة، أصداء وانعكاسات فناء الحظيرة أفعمتني بالبهجة الأرضية. أتضور جوعاً وأعود إلى طفولتي لأسمع مرة أخرى الأنشودة السحيقة للإنسان الأول. الأغنية القديمة ـ عن الراحة والوفرة، عن الحياة حيث تجدها، عن السماء الزرقاء والمياه الجارية، عن السلام والفرح، عن الخصوبة والبعث، عن الحياة الأبدية، عن حياة أكثر وفرة. أغنية تبدأ في الأمعاء، تسري في العروق، تسكّن الأطراف وجميع أعضاء الجسم. أوه، لكن من الجيد أن يكون المرء حياً؟ وقائماً على ساقيه. يقظاً تماماً، أشكر مرة أخرى الأب السماوي لأنه منحني توأمي، جورج مارشال. وفيما كنت أقدم صلوات الشكر أمتدح الأعمال القدسية، أمتدح كلّ المخلوقات. تركت أفكاري تنجرف نحو الفطور الذي كان بلا شكّ في طريقة إلى الإعداد، ونحو زمن بعيد، تقدم بطيء للساعات، للدقائق، للثواني قبل أن يوشك اليوم على نهايته. لم يكن يهم كيف أمضينا يومنا، أو إذا تركناه فارغاً كقرعة؛ لم يكن شيء يهمّ سوى ذلك الوقت الذي كنا نفعل فيه ما يحلو لنا.

كانت الطيور تنادي بشهوة أكثر الآن. يمكنني أن أسمعها ترفرف من شجرة إلى أخرى، تصفق بجناحيها على ألواح زجاج النوافذ، هديل تحت إفريز السقف.

«صباح الخير يا هنري! صباح الخير يا هيربي».

«صباح الخير يا جورج! صباح الخير يا هيربي».

«لا تنهض من الفراش بعد يا هنري... هيربي أوقد النار أولاً».

«حسناً. هذا رائع».

«كيف نمت؟».

«ممتاز».

«أترى الآن لماذا لا أريد أن أشفى بسرعة».

«أنت رجل محظوظ. ألست سعيداً لأنك لم تمت؟».

«هنري، أنا لن أموت أبداً. لقد آليت على نفسي أن لا أموت حتى لو كنت على فراش الموت. من الرائع أن يكون المرء حياً».

«لقد قلتها» قلت، «جورج، دعنا نخدعهم جميعهم ونعيش إلى الأبد».

نهض هيربي ليوقد النار، ثم زحف عائداً إلى السرير وأخذ يضحك ويهدل.

«ماذا سنفعل الآن؟» سألت. «نستلقي هنا حتى يقرع الجرس؟».

«تماماً»، قال هيربي.

«انتظر يا هنري حتى تتذوق فطيرة الذرة تلك التي تصنعها أمه. إنها تذوب في فمك».

«كيف تحب أن تأكل البيض؟» قال هيربي، «مسلوقاً، أم مقلياً أم مخفوقاً؟».

«بأي طريقة يا هيربي. من يعير اهتماماً لذلك؟ البيض بيض. أستطيع أن أمتصه نيئاً أيضاً».

«لحم الخنزير يا هنري، هذا هو. غليظ مثل إبهامك».

وهكذا بدأ اليوم الثاني، أعقبته دزينة من الأيام الأخرى، كلها تسير على المنوال ذاته. كما قلت من قبل، كنا في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمرنا في ذلك الوقت، وكنا ما نزال في أيام مراهقتنا. ولم يكن في بالنا سوى اللعب. كان كلّ يوم لعبة جديدة، مليئة بالأشياء المثيرة. «إن أخذ الأمور بزمام القيادة»، كما قال جورج، يسير بسهولة أن يتنشق المرء. وكنا بين الحين والآخر، نلعب لعبة شد الحبل، رمي الحلقات، لعبة الكلل، والقفز. بل كنا نلعب الاستغماية. وكنا نحتفظ في المرحاض، الذي كان في خارج المنزل،

برقعة شطرنج وكانت هناك دائماً مشكلة بانتظارنا يجب علينا حلها. في معظم الأحيان، كنا نتغوط نحن الثلاثة معاً. محادثات غريبة كانت تدور في ذلك المرحاض الخارجي! دائماً طُرفة جديدة حول أمّ جورج، ما فعلت له، كمْ كانت قديسة، وما إلى ذلك. وما أن يبدأ الحديث عن الله، كيف يجب أن يكون هناك إله واحد، لأن وحدة الله هي التي تجعله قوياً. كان هيربي يستمع بوقار، كان يحبّ جورج إلى درجة العبادة.

ذات يوم، أخذني جورج جانباً ليخبرني شيئاً سرّياً. كان علينا أن نغافل هيربي لساعة أو ما يقاربها. كانت هناك فتاة ريفية صغيرة أرادني أن ألتقي بها. يمكن أن نجدها بالقرب من الجسر، عندما يحلّ الظلام، عند إعطاء الإشارة المتعارف عليها.

«تبدو في العشرين من عمرها، رغم أنّها ما تزال طفلة»، قال جورج ونحن نغذّ الخطى صوب المكان. «إنها عذراء، بالطبع، لكنها شيطانة صغيرة قذرة. لا يمكنك أن تحصل منها على أكثر من لمسة جيدة، يا هنري. لقد جربت كلّ شيء، لكن بدون فائدة».

اسمها كيتي. إنه اسم يناسبها. جمالها عادي، لكنها ممتلئة ريانة، وشديدة الفضول.

«مرحبا»، قال جورج، ونحن نقترب منها. «كيف حال فتاتنا اللطيفة؟ أريدك أن تلتقي بصديقي، إنه من المدينة».

كان يسري في يدها الدفء والرغبة. بدا لي أنها توردت خجلاً، لكن ربما كان ذلك لامتلاء جسدها وصحتها الوافرة التي كانت تتفجر من خلال وجنتيها.

«ضميه إلى صدرك وقبليه».

طوقتني كيتي بكلتي ذراعيها، وضمتني إليها وأخذت تضغط بجسدها الدافئ بقوة على جسدي. وسرعان ما غاص لسانها في أعماق فمي. عضّت شفتي، شحمة أذني، رقبتي. انزلقت يدي تحت

تنورتها وانسلت عبر شقّ سروالها الداخلي. لم تبد أي اعتراض. أخذت تئن وتهمهم. أخيراً أتتها الرعشة.

«كيف كان ذلك يا هنري؟ ماذا قالت لك؟».

أخذنا نتحدث قليلاً لنعطي كيتي فرصة لكي تستعيد أنفاسها، ثم نال جورج وطره منها. كان الجو بارداً ورطباً تحت الجسر، إلا أننا كنا نحن الثلاثة نلتهب. مرة أخرى حاول جورج أن يلجها، غير أن كيتي تمكنت من التملص منه.

كل ما تمكن من عمله هو أن وضعه بين ساقيها، حيث أطبقت عليه بقوة كملزمة.

في طريق عودتنا سيراً سألت كيتي إن كان بإمكانها أن تزورنا بين الحين والآخر ـ عندما نعود إلى المدينة. إذ لم يسبق لها أن ذهبت إلى نيويورك.

«بالتأكيد»، قال جورج، «دعي هيربي يحضرك. إنه يعرف كيف يوصلك إلينا».

«لكن ليس لدي نقود»، قالت كيتي.

«لا تقلقي بشأن ذلك»، قال جورج الطيب، «نحن سنعتني بك».

«هل تظنين أن أمك لا تمانع في ذلك؟» سألت.

أجابت كيتي أن أمها لا تعر أي اهتمام بما تفعله. «المشكلة مع أبي العجوز: إنه يحاول أن يشغلني حتى العظم».

«لا يهم»، قال جورج، «اتركي الأمر لي».

قبل أن نفترق، رفعت ثوبها بمحض إرادتها، وتركتنا نلمسها لمسة الوداع.

قالت «ربما لن أكون خجولة كثيراً، عندما آتي إلى المدينة». ثم مدت يدها بحماس إلى فتحة بنطالينا، وأخذت قضيبينا وقبلتهما ـ بوقار تقريباً. «سأحلم بكما الليلة»، همست. كانت الدموع على وشك أن تطفر من عينيها.

«نراك في الغد»، قال جورج، ولوحنا لها مودعين.

«أترى ما أعني يا هنري؟ لو نلت وطرك منها لكان لديك شيء تتذكره طوال حياتك».

«خصيتاي تؤلماني».

«أكثر من شرب الحليب والقشدة. إنه يساعدك».

«أظن أنه يجب عليّ أن أستمني».

«هذا ما تفكر به الآن. غداً ستلهث لكي تراها. أعرف ذلك. إنها تجري في دمي، هذه القحبة الصغيرة... لا تخبر هيربي بهذا ياهنري. سيصاب بالفزع. إنه مجرد طفل قياساً بها. أظن أنه واقع في غرامها».

«وماذا سنقول له عندما نعود؟».

«اترك الأمر لي».

«وماذا عن والدها العجوز؟ ألم تفكّر بذلك؟».

«لقد قلتها يا هنري. فلو أمسكنا فأظن أنه سيقطع خصيتينا».

«هذا جميل».

«يجب أن تنتهز الفرصة»، قال جورج. «فالجميع يلهث وراءها هنا في الريف. فالفتيات هنا أفضل بكثير من الحثالات الموجودة في المدينة. فهن نظيفات. هيا اشتمّ أصابعي؟ أليس ذلك لذيذاً؟»

ألعاب طفولية لإزجاء الوقت... كان أحد أكثر الأشياء تسلية، عندما كنا نتناوب على ركوب درّاجة ثلاثية العجلات قديمة تخص أخت هيربي المتوفاة. كانت رؤية جورج مارشال، الشاب البالغ، وهو يدفع دواستي تلك العربة المضحكة، مشهداً رائعاً. وكانت عجيزته كبيرة جداً لذلك كان يحشرها حشراً في المقعد الضيق. وكان يقود الدراجة بيدّ واحدة، ويرن الجرس باليد الأخرى بحماس. وبين الحين والآخر، كانت تتوقف سيارة، ظناً منهم أنه كسيح في ورطة: وكان جورج يدع ركاب السيارة يترجلون من

سيارتهم ويساعدوه في العبور إلى الجانب الآخر من الطريق، متظاهراً أنه مشلول. وفي بعض الأحيان كان يطلب سيجارة أو بضعة بنسات. كان دائماً يرتدي حذاء إيرلنديا متيناً، كما لو أنه جاء للتو من هناك.

ذات يوم لاحظت وجود عربة أطفال قديمة في الحظيرة. وخطر لي أن نجلس جورج مارشال فيها ونخرج في نزهة. جورج لم يبد اعتراضاً. حصلنا على قبعة كبيرة ذات أشرطة وبطانية حصان كبيرة لتغطيته. لكننا بذلنا المستحيل ونحن نحاول أن نجلسه في العربة. لذلك اخترنا هيربي لهذه المهمة. ألبسناه ثياباً كدمية، ووضعنا في فمه أنبوباً فخارياً وانطلقنا. في المحطة صادفنا عانساً مسنة تنتظر القطار. وكالعادة، أخذ جورج المبادرة.

«عفواً سيدتي»، قال متلمساً قبعته، «هل تتفضلين وتقولين لنا من أين يمكننا الحصول على حلمة صغيرة؟ إن الصبي يكاد يتجمد».

«يا إلهي»، قالت العانس تلقائياً. ثم فهمت على الفور قصده، فصرخت. «ماذا قلت، أيها الشاب؟».

لمس جورج قبعته باحترام مرة أخرى، وزمّ شفتيه وراح يحدّق فيها مثل كلب مسن. «فقط حلمة لنسكته، هذا كلّ ما في الأمر. إنه يقارب الحادية عشرة من عمره لكنه يكاد يموت عطشاً».

استوى هيربي في جلسته الآن، وراح ينفخ بشدّة في الأنبوب القصير. بدا أشبه بتمثال.

في هذه اللحظة أردت أن أتدخّل بنفسي. كان في عينّي العانس نظرة خوف لم تعجبني.

«المعذرة يا سيدتي»، قلت وأنا ألمس قبعتي، «لكن هذين الاثنين مخبولان». ونقرت قليلاً على رأسي.

«يا إلهي، يا إلهي»، أخذت تردد «شيء مخيف».

«سأبذل ما بوسعي لأبقيهما في حالة جيدة. إنهما يمران في محنة وخاصة هذا الصغير. هل تحبين أن تسمعيه وهو يضحك؟»

ودون أن أمنحها الفرصة لكي تجيب، أشرت إلى هيربي لكي يفعل ذلك. كانت ضحكة هيربي مجنونة حقاً. وقد فعلها تماماً كما تفعل الدمية التي تتكلم من البطن، فقد بدأها بابتسامة صغيرة بريئة ثم تحولت رويداً إلى تكشيرة، ثم إلى ضحكة خافتة، ثم إلى صوت هديل، ثم إلى صوت غرغرة منخفض، وأخيراً إلى ضحكة من البطن لا تقاوم. وكان بإمكانه أن يستمر كذلك إلى ما لا نهاية. وكان يبدو والأنبوب بيد، والخشخاشة التي أخذ يلوح بها بشكل مسعور في اليد الأخرى، كصورة مستخرجة من كتاب سويسري للنكات. وكان بين الحين والآخر يتوقف ليحزق بقوة، ثمّ يميل إلى جانب العربة ويبصق. ولجعل الوضع هزلياً أكثر، دخل جورج مارشال في نوبة من العطاس. وأخرج منديلاً أحمر كبيراً مليئاً بالثقوب الضخمة، وأخذ يتمخّط بقوة، ثمّ يسعل، ثمّ يعطس بقوة أكبر.

«لقد جاءته النوبة» قلت متجهاً إلى العانس، «إنهما غير مؤذيين. إنهما ولدان رائعان ـ لكنهما في بعض الأحيان يصبحان غريبي الأطوار». وبصورة تلقائية أضفت: «في الحقيقة يا سيدتي»، لامساً قبعتي باحترام، «جميعنا غريبو الأطوار. ألا تعرفين مكاناً يمكننا أن نذهب إليه الليلة، وأنت ترين الحالة التي نحن فيها؟ لو كان عندك قطرة من البراندي؟ مقدار كشتبان فقط. ليس لي، بل لهذين الصغيرين».

انفجر هيربي في نوبة بكاء. كان يبكي بشكل هستيري إلى درجة أنه لم يعد يعرف ماذا سيفعل. وراح يلوّح بالخشخيشة بقوة، وفجأة تمايل بقوة وانقلبت والعربة.

«حسبي الله، حسبي الله!» ندبت العانس.

ساعد جورج هيربي في الخروج من العربة بسرعة. نهض هيربي الآن، بسترته وبنطاله الطويل، والقبعة التي كانت ما تزال تكلّل رأسه. أمسك الخشخاشة مثل معتوه.

قال جورج لامساً قبعته، «إنه لم يصب بأذى يا سيدتي. له

جمجمة سميكة». أمسكه هيربي من ذراعه وجذبه نحوه بقوة. «قل شيئاً للسيدة! قل لها شيئاً لطيفاً!» وفرك أذنيه بقوة.

«أنت ابن زانية!» صاح هيربي.

«أنت ولد شقي، سيء السلوك!»، قال جورج، وأخذ يلطمه باليد الأخرى. «ماذا تقول للسيدات؟ هيا تكلّم الآن، وإلا سأنزل بنطالك».

ارتسمت على وجه هيربي الآن قسمات ملائكية، رفع عينيه نحو السماء، وبتأمل شديد، قال:

«أحد مخلوقات الله اللطيفة، لتنقذك الملائكة! إننا تسعة، هذا دون حساب العنزة. اسمي أوكونيل، يا سيدتي. تيرينس أوكونيل، كنّا ذاهبين إلى شلالات نياغارا، لكن الطقس...».

رفضت المرأة المسنة أن تسمع المزيد. «إنكم عار على الجميع، أنتم الثلاثة». صاحت. «ابقوا هنا، جميعكم، حتى أنادي الشرطي».

«نعم، يا سيدتي»، قال جورج، لامساً قبعته، «سنبقى هنا، أليس كذلك، يا ترينس؟» وصفع هيربي صفعة شديدة على وجهه.

«آخ!»، صاح هيربي.

«كفّا عن هذا، أيها الغبيان!» صاحت العانس. «وأنت!»، قالت لي، «لماذا لا تفعل شيئاً؟ أم أنك مجنون أيضاً؟».

«وأنا كذلك»، قلت ووضعت أصابعي على أنفي ورحت أثغو كالعنزة.

«توقفوا هنا! سأعود بعد دقيقة!» وهرعت إلى مكتب مدير المحطة.

«بسرعة!» قال جورج، «لنخرج من هنا!» وأمسك اثنان منّا مقبض عربة الأطفال وأطلقنا ساقينا للريح. وقف هيربي هناك لحظة، وحلّ رباط القبعة؛ ثمّ أطلق ساقيه للريح أيضاً.

«أحسنت يا هيربي»، قال جورج عندما ابتعدنا عن الأنظار

بأمان. «لنتدرّب عليها هذه الليلة. سيكلمك هنري كلاماً جميلاً، أليس كذلك يا هنري؟».

«لا أريد أن أكون الطفل أيضاً»، قال هيربي.

«حسناً»، قال جورج بلطف، «سندع هنري يجلس في العربة».

«تقصد إذا تمكنت من أن أحشر نفسي».

«سنحشرك فيها حتى لو اضطررنا إلى استخدام مطرقة».

إلا أنه بعد العشاء في تلك الليلة، خطرت لنا أفكار جديدة رأينا أنها أفضل. وبقينا مستيقظين حتى منتصف الليل نناقش الخطط والمشاريع.

فيما كنا على وشك أن نغفو، استوى جورج مارشال واقفاً فجأة.

«هل أنت صاح يا هنري»، قال.

همهمت.

«هناك شيء نسيت أن أسألك عنه».

«ما هو؟» غمغمت، أخشى أن أصحو تماماً.

«أونا... أونا غيفورد! لم تفه بكلمة عنها طوال هذا الوقت. ماهي المشكلة، ألم تعد تحبها؟»

«يا إلهي!» همهمت، «يا له من شيء تسألني عنه في منتصف الليل».

«أعرف يا هنري، أنا آسف. أريد فقط أن أعرف إن كنت ماتزال تحبها».

«إنك تعرف الجواب»، أجبت.

«جيد، هذا كان ظني. حسناً، يا هنري، طابت ليلتك!».

«طابت ليلتك!»، قال هيربي.

«طابت ليلتك!»، قلت.

حاولت أن أغط في النوم لكن النوم جافاني. استلقيت هناك أحدّق في السقف وأفكّر بأونا غيفورد.

بعد قليل قرّرت أن أبعدها عن تفكيري.

«هل ما زلت صاحياً، يا جورج؟» قلت بهدوء.

«إنك تريد أن تعرف إن كنت قد رأيتها مؤخراً، أليس كذلك؟»، تساءل.

كان من الواضح أنه لم يغمض عينيه.

«نعم. أخبرني أيّ شيء عنها. أي شيء مهما كان تافهاً».

«يا ليتني أستطيع ذلك يا هنري، أعرف كيف تشعر، لكن لايوجد أيّ شيء يمكنني أن أخبرك إياه».

«بحق المسيح، لا تقل هذا! اختلق شيئاً».

«حسناً، يا هنري، سأفعل هذا من أجلك. انتظر دقيقة. دعني أتذكر».

«شيء بسيط»، قلت، «لا أريد قصة مطولة».

«اسمع يا هنري، هذه ليست أكذوبة: أنا أعرف أنها تحبك. لا أستطيع أن أقول لك كيف عرفت، لكنّي أعرف».

«هذا جيد»، قلت. «أخبرني المزيد».

«في آخر مرّة شاهدتها حاولت أن أجعلها تتكلم عنك. تظاهرت أنها لا تبالي البتة. لكني أستطيع القول إنّها كانت متلهفة لتسمع عنك...».

قاطعته قائلاً: «إن ما أودّ أن أعرفه هو هذا: هل وجدت لها شخصاً آخر؟».

«هناك شخص يا هنري، لا أستطيع أن أنكر ذلك. لكن ذلك لا يدعو إلى القلق. إنه مجرد شخص لملء الفراغ».

«ما اسمه؟».

«كارناهان أو شيء من هذا القبيل. انسه! إن ما يقلق أونا هو الأرملة. إن ذلك يؤلمها كما تعرف».

«لا يمكنها أن تعرف الشيء الكثير عن ذلك».

«إنها تعرف أكثر مما تظن. لا أعرف من أين تحصل على المعلومات. على أية حال، لقد جُرح كبرياؤها».

«لكني لم أعد أخرج مع الأرملة، أنت تعرف ذلك».

«قل لها ذلك!»، قال جورج.

«ليتني أستطيع».

«لماذا لا تعترف لها بكلّ شيء يا هنري؟ إنها فتاة واعية ويمكنها أن تتفهم ذلك».

«لا يمكنني أن أفعل ذلك يا جورج. لقد فكّرت في الموضوع بعمق، لكن شجاعتي تخونني».

«لعلي أستطيع أن أساعدك»، قال جورج.

استويت في جلستي. «أتعتقد ذلك؟ حقاً؟ اسمع يا جورج، إني أدين لك بحياتي إذا تمكنت من تسوية الأمر. أعرف أنها تستمع إليك... متى ستعود؟».

«ليس بهذه السرعة يا هنري. تذكّر، إنها قصة مؤلمة قديمة. وأنا لست ساحراً».

«لكنك ستحاول، عدني بذلك؟».

«بالطبع، بالطبع» ـ أخوان الوفاء ـ .

فكّرت مليّا لبضع لحظات، ثم قلت: «سأكتب لها رسالة في الغد، سأقول فيها إني معك وبأنّنا سنعود قريباً. قد يمهّد ذلك الطريق».

«من الأفضل ألّا تفعل ذلك»، قال جورج على الفور. «من الأفضل أن تذهب إليها وتفاجئها. أنا أعرف أونا».

لعله كان محقاً. لم أعرف كيف أفكر. تملكني إحساس بالبهجة والكآبة في آن واحد. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن ثمة داع للعجلة.

«من الأفضل أن تخلد إلى النوم الآن»، قال جورج. «عندنا الكثير من الوقت لنخرج بفكرة ما».

«سأعود غداً، أتمنى لو أستطيع أن أقنعك بالذهاب معي».

«إنك مجنون يا هنري. فأنا ما أزال في طور النقاهة. لن تتزوج بهذه السرعة، إذا كان هذا ما يشغل بالك».

إن مجرد التفكير بأنها ستتزوج شخصاً آخر يفزعني. لم أكن أتصور ذلك. ألقيت رأسي على الوسادة كرجل يحتضر. وندت عني آهة من الألم.

«هنري...».

«نعم؟».

«قبل أن أنام، أريد أن أقول لك شيئاً. يجب أن تتوقف عن أخذ هذا الأمر بجدية كبيرة. بالتأكيد، إذا كان بوسعنا أن نصلح الأمور، فهذا شيء جيد! فأنا لا أريد شيئاً أكثر من أن أراك تحصل عليها. لكنّك لن تكون على ما يرام إذا تركت الأمر يزعجك. إنها ستجعلك بائساً بقدر ما بوسعها. هذه هي طريقتها في الرجوع إليك. إنها ستقول لا لأنك تتوقّع منها أن تقول لا. لقد فقدت توازنك. هُزمت قبل أن تبدأ... إذا أردت نصيحتي، فأنا أقول لك أبعدها عن تفكيرك لفترة. تجاهلها. إنها بالتأكيد مخاطرة، لكنك يجب أن تفعل ذلك. مادامت هي صاحبة اليد العليا فإنها ستجعلك ترقص كدمية. لا توجد امرأة يمكنها أن تقاوم الرغبة في القيام بذلك. إنها ليست ملاكاً، حتى لو كنت تحبّ أن تظن أنها كذلك. فتاة جميلة وذات قلب كبير. أنا نفسي أرغب في أن أتزوّجها لو أتيحت لي الفرصة... اسمع يا هنري، هناك الكثيرات اللاتي يمكنك أن تختار من بينهن. بل توجد فتيات أفضل من أونا. هل فكّرت في ذلك؟».

«كلامك هراء»، أجبت «لا يهمني إن كانت أسوأ كلبة في الوجود.. إنها هي التي أريد ـ ولا أريد سواها».

«حسناً يا هنري، إنها جنازتك أنت. دعني أنَمْ الآن».

ظللت صاحياً وقتاً طويلاً، تدور في رأسي جميع الذكريات. كانت أفكاراً لذيذة، مليئة بوجود أونا. كنت واثقاً من أن جورج سيصلح الأمور بيننا. إنه يريدني أن أتملقه، هذا هو كل ما في الأمر. من خلال شقّ في خصاص النافذة يمكنني أن أرى نجمة زرقاء ساطعة. استبشرت خيراً. تساءلت إن كانت ما تزال صاحية الآن وتفكر بي أيضاً. ركّزت كلّ قواي، متمنياً أن أوقظها إن كانت نائمة. وهمساً رحت أذكر اسمها. ياله من اسم جميل. إنه يلائمها تماماً

أخيراً بدأت أغفو. وترددت على شفتي كلمات أغنية قديمة...

إني أتساءل وأنا أهيم تحت السماء

كيف جاء المسيح، منقذنا ليموت

من أجل الفقراء مثلي ومثلك

إني أتساءل وأنا أهيم تحت السماء

انسها؟ كم من السهل قول ذلك! لا يمكنني ما حييت أن أنسى أونا، حتى إذا عشت وكان لدي تسع زوجات وستة وأربعين طفلاً. إن جورج ساذج حقاً. إنه لا يعرف ماذا يعني أن تكون عاشقاً ـ هو خالي البال تماماً. قررت أن أعرف كل شيء عن ذلك الرجل كارناهان حالما أعود. لن أغامر. تساءلت أكثر وأنا أهيم تحت السماء.

فيّ اليوم التالي أمطرت. أمضينا النهار كله في الحظيرة، نلعب لعبة إثر أخرى، لعبة الطاولة، الشطرنج، الدومينو، اليانصيب... قبيل المساء اقترح جورج أن نجرب ونعزف على الأرغن الموجود في صالة الاستقبال. كان قديماً، يصفر صفيراً، لا يصلح إلا للتراتيل السوداوية. بدأنا أنا وجورج نتناوب على العزف. غنّينا ببهجة،

بشهية، كالشهداء المسيحيين. وكانت أغنيتنا المفضلة التي عزفناها أخيراً «هل ستكون هناك نجوم في تاجي» - واستطاع هيربي أن يغنيها على أكمل وجه، والدموع مغرورقة في عينيه. وجاءت أمه، وجلست في الزاوية، وراحت تدمدم بين الحين والآخر: «يا له من شيء جميل».

وأخيراً ظهر الرجل العجوز. انضم إلى الغناء أيضاً. قال إنها جعلته يشعر بالارتياح. وتمنّى علينا نحن الأولاد أن نعيش ونتصرف كمسيحيين صالحين. وعند العشاء شكر الله لأنه ألهمنا أن ننشد له الشكر بهذا الشكل الجميل. شكره من القلب لجميع النعم التي اسبغها الله عليهم طوال هذه السنوات.

كان العشاء هذه المرة لحم خنزير مدخّناً، مع مخلل الملفوف وبطاطا مهروسة، وملفوفاً أحمر، وبصلاً مقلياً، وصلصة تفاح وإجاص مطهو. أما الحلوى فكانت عبارة عن كعكة جبن حارة. وبالطبع كأس الحليب المعتاد الغني بالقشدة.

الغريب أن الرجل العجوز كان ثرثاراً. وكان يقرأ كتاباً، ذات الكتاب، منذ أكثر من سنة، عنوانه «*بالتناغم مع الأزل*». سأل إن كنت أنا أو جورج قد قرأناه. تجنّب جورج الخوض في الموضوع، لكنه نظر إليّ خلسة وكأنه يقول «خذ زمام الأمر».

بما أنه كان لا بد أن نتكلم، فقد شعرت أنه من الأجدر أن نتحدث في هذه الأمسية عن موضوع عزيز على قلب الرجل العجوز. تظاهرت بأني لم أكن متأكداً من أني فهمت كلّ شيء أراد المؤلف أن ينقله إلى القارئ. وأبدى العجوز سروره لأني أظهرت هذا التواضع. ولعله هو نفسه لم يفهم سوى القليل جداً، إذا ما انكشفت الحقيقة.

بدأت أقول: كان لدي صديق بوسعه أن يفسّر كلّ شيء. وكان يحمل معه هذا الكتاب بالذات ليلاً ونهاراً، حيثما ذهب. إن جورج يعرف من أقصد، أليس كذلك يا جورج؟.

«بالطبع»، قال جورج، «إنك تقصد أبيركرومبي».

وبالطبع لم يكن يوجد مثل هذا الشخص.

«نعم، إنه هو».

«وكان يلثغ في كلامه قليلاً، أليس كذلك؟» قال جورج.

«لا، كان يعرج».

أشار الرجل العجوز كي أواصل القصة. لم أتذكر اسم الشخص وفيما إذا كان يعرج أو يتلعثم.

«قابلته ذات يوم في كاليفورنيا، كان ذلك قبل حوالى ثلاث سنوات. كان يدرس ليصبح قسيساً آنذاك. ولأنه اكتشف منجماً من الذهب بعد فترة قليلة من لقائنا نسي كل شيء عن الله بسرعة».

«ألم يتعرض لحادث؟» قال جورج.

«لا، كان ذلك أخاه ـ بل أخوه من أمه».

لم تعجب الرجل العجوز مقاطعة جورج له، كان بوسعي أن أرى ذلك بوضوح. لذلك قررت أن أسرع.

«صادف والتقينا عند أطراف صحراء موهافي»، ثم تابعت «كنت أبحث عن عمل في صناعة ملح البورق. قال لي أبيركرومبي: إنك لست بحاجة إلى عمل يا هنري. كل ما تحتاجه هو أن تبحث عن الله. لقد جئت لأساعدك. لقد دعاني هنري، علماً أنه لم يسبق لي أن ذكرت له اسمي أبداً. قال: لقد حلمت بك عندما كنت في بارستو في تلك الليلة. كنت أعرف أنك في ورطة، لذلك جئت بأسرع ما بوسعي. لقد جعلني كلامه أشعر بالاضطراب. إذ لم يسبق لي أن التقيت بأحد يتمتع بهذه القدرة على الاستبصار أو يمكنه التواصل بتخاطر الأفكار. ظننت في البداية أنه كان يسخر مني. لكنه كان في غاية الجدية، كما تبين لنا بعد فترة وجيزة».

«قلت إنه كان معه هذا الكتاب؟» سأل العجوز وقد بدا مشوشاً.

«نعم يا سيدي. إن مؤلفه رالف والدو ترين، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح»، قال العجوز. «تابع الآن، أنا مهتم بما تقوله».

«لا أكاد أعرف من أين أبدأ»، تعثّرت. «يبدو أن أشياء عديدة حدثت في وقت واحد».

«خذ وقتك»، قال العجوز، «في الحقيقة هذا أمر مثير جداً. ماما، دعينا نحتسي مزيداً من القهوة، ونتناول قطعة أخرى من كعكة الجبن».

سُعدت إذ وجدت متنفساً، لأني لم أعد أعرف ماذا سأقول عن أحداث تالية. لقد بدأت قصة دون أن أفكر بنهايتها. توقّعت أن يملأ جورج مارشال الفراغات، ليساعدني في تجاوز العثرات في القصة.

«كما كنت أقول، كنا وحدنا هناك في الصحراء. جاءني في منتصف الليل، وقف هناك وراح يتحدث إليّ كأنه يعرفني طوال حياته. في الواقع، يمكنني القول إنه بدا يعرفني أكثر من أكثر أصدقائي الحميمين. وظل يقول إنك في ورطة، دعني أساعدك. والغريب أنني لم أكن أعرف أنني كنت في ورطة، فلم تكن توجد لديّ أيّ مشكلة خاصة. وكل ما كنت أريده هو العمل، ولم يكن ذلك صعباً جداً. لكني في اليوم التالي أدركت أنه يعرف ما كان يتحدّث عنه، لأنه وردتني بعد الظهر برقية من صديق لي يخبرني فيها أن أمي كانت مريضة جداً وأنه ينبغي لي أن أعود في الحال. لم يكن معي أكثر من دولارين في جيبي.

بالطبع، كان أبيركرومبي يعرف ماذا تحتوي البرقية ـ لم يكن عليّ أن أقرأها له بصوت عال. قلت: ماذا أفعل؟ فأجاب: اركع على ركبتيك وادعُ الله! لذا ركعت، وركع هو أيضاً، بجانبي تماماً، ورحنا نتضرع إلى الله لفترة طويلة. يجب أن أقول إني شعرت بالتحسّن على الفور، كما لو أن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلي. في ذلك المساء الغريب قرع أحدهم باب دارنا. كان راعي بقر من ولاية

وايمونج. أراد أن يعرف إن كان بإمكاننا أن نسمح له أن يقيم معنا هذه الليلة. حسناً، أخذنا نتحدث وسرعان ما عرف أيضاً كلّ شيء عن أحوالي. آوينا إلى الفراش، وفي صباح اليوم التالي أخذني هذا الغريب جانباً وسألني مباشرة: ما هو المبلغ الذي تحتاجه لكي تعود إلى بيتك؟ دُهشت. لم أعرف ماذا أقول. قال لي: هيا خذ هذا، ودسّ في يدي ورقتين نقديتين. كانتا من فئة الخمسين دولاراً. وقال: أظن أن ذلك سيساعدك في الوصول. ابتسمت له ابتسامة وديّة دافئة. سأعيدها لك حالما أتمكن من ذلك، قلت بامتنان. فقال: لا تقلق بشأن ذلك يا ولدي. فأنا عندي أكثر مما أحتاج. خذها واعطها إلى شخص آخر يكون في حاجة إليها عندما تتمكن من ذلك.

عندما غادر، قال لي أبيركرومبي: «لقد استجاب الله لدعواتك. لا تشكّ في هذا أبداً. سأعود إلى بارستو. إذا احتجت إلى شيء مرة أخرى، ابعث في طلبي».

«لكن أين وكيف؟» سألت.

«ابعث لي نداءاً، هذا كلّ ما في الأمر. سيصلني حيثما كنت. ما عليك إلا أن تؤمن بذلك». بعد ستة أشهر تقريباً وقعت في مشكلة مرة أخرى. كانت مشكلتي هذه المرة مع امرأة. كنت يائساً. ثم فجأة تذكّرت كلمات أبيركرومبي، وبعثت له نداء. بعد ثلاثة أيام جاء إلى بيتي من ولاية كولورادو».

انحنى العجوز إلى الأمام، يسند مرفقيه إلى الطاولة، رأسه مدفون بين يديه. «هذا رائع يا هنري»، قال، «وهل ساعدك في المرة الثانية؟»».

«نعم، فعل ذلك في الحقيقة»، أجبت، «لم يكن عليّ أن أفعل شيئاً سوى أن أدعو الله. هذه المرة، عندما غادر، قال لي أبيركرومبي: لاتطلبني مرة أخرى يا هنري. يجب أن تدرك الآن أنه ليس أنا الذي يملك القوّة، بل الله. آمن به ويستجيب لدعواتك. ربما لن أراك مرة ثانية؟ لكني سأكون بقربك دائماً، بالروح. ولم أره مرة ثانية أبداً.

لكنني كما قال، كنت أعرف أنه دائماً بقربي. أعرف إن كان سيموت، مثلاً».

«حسناً يا جورج»، قال العجوز، «ماذا لديك لتقوله عن نفسك ـ هل لك تجربة كهذه؟».

«لا»، قال جورج، «لكني أودّ أن أسأل هنري سؤالاً»، واتجه نحوي بوجه خال من أي تعبير، وقال: «ألم يكن صحيحاً يا هنري، أنّ أبيركرومبي هذا كان مسجوناً؟».

(بالطبع كان ذلك محض اختلاق، لكن كان عليّ أن أوافقه).

«نعم»، أجبت، «لقد دخل السجن مدّة عشر سنوات بتهمة القتل. لم أعرف أبداً إن كان مذنباً أم لا».

«لكن كيف يمكن أن يكون قد ارتكب جريمة؟».

كان عليّ أن أفكر بسرعة.

«اتُهم بقتل رجل دفاعاً عن النفس. لم يكن هناك شهود».

«لكن ألم يكن لأبيركرومبي سمعة غريبة ـ قبل القتل؟».

«نعم»، وافقته، وأنا لا أعرف ما هي الخطوة التالية التي سيتخذها جورج.

«هل خطر ببالك يا هنري ذات مرة أن أبيركرومبي كان غريب الأطوار بعض الشيء؟ لا أعني أنه كان مجنوناً، بل لا بدّ أنه كانت لديه لوثة في عقله. ألم تخبرني ذات مرة أنه كان يظن أنه يستطيع أن يطير؟».

«نعم، قال ذلك ـ في إحدى المرات. لكنّه لم يكررها أبداً. ولم يكن من النوع المتبجح أيضاً، عندما قال ذلك. كان يخبرني عن القوى الخارقة التي يمنحنا إياها الله نحن البشر في بعض الأحيان، عندما نكون بحاجة إلى حمايته. هذا ليس شيئاً غريباً تماماً. أليس كذلك؟».

«ربما لا يا هنري. لكن كانت هناك أشياء أخرى».

«مثل ماذا؟».

«قلت إنه يستطيع أن يرى في الظلام كالقطة، وأنه كان يسمع أشياء لم يكن بوسع الآخرين أن يسمعوها، وأنه كان يتمتع بذاكرة هائلة. أظن أنك قلت ذات مرة إنه أدّعى أن لديه أبوين. ماذا كان يعني بذلك؟».

جعلني ذلك في حيرة من أمري وأعترف أني لم أعرف كيف أجيبه عن سؤاله.

«اسمع يا هنري، كانت هناك أشياء كثيرة مبهمة عن أبيركرومبي. لم أقل شيئاً عنها في ذلك الوقت، لأنك كنت تؤمن بها ضمنياً. قلت من قبل إنه اكتشف منجماً للذهب. هل أنت متأكّد تماماً من ذلك؟».

«لا»، قلت، «لقد سمعت ذلك من شقيقه لأمه».

«الذي كان مشهوراً بكذبه»، قال جورج بسرعة.

أشار العجوز إلى أنه لم يحب تدخلات جورج.

«لكن هنري ساذج»، أصرّ جورج. «إنه يصدق أيّ شيء وكلّ شيء».

«الإيمان شيء إلهي»، قال العجوز مقطباً.

«لكن يجب أن يكون ذلك ضمن حدود المعقول»، قال جورج، «إن المرء لا يصدّق أيّ شيء وكلّ شيء!».

«جورج»، قال العجوز، «إنك مثل أبيك. إنك توماس الشكّاك».

«مهلاً، مهلاً»، قالت عمة جورج، «لا تقل أشياء كهذه».

«سأقول ما يحلو لي!»، قال العجوز، وهوى بقبضته على الطاولة. «إن والد جورج رجل طيب، لكنه لا يؤمن. لم يكن لديه ولا ذرة من الإيمان. إنه سيموت آثماً، كما ولد».

بدأ غضب العجوز يزداد حدة.

«لكنه كان في غاية الطيبة معي»، قال جورج بعناد، لا حباً بأبيه، بل ليزيد العجوز حنقاً».

«هذا لا يهم»، قال العجوز، «إن من واجبه أن يعاملك معاملة جيدة، وهو لا يستحقّ على ذلك أي مفخرة. ماذا يفعل من أجل الله؟ هذا ما أريد أن أعرفه».

لم يستطع جورج أن يرد على ذلك. واصل العجوز تبرمه وسخطه. وحاولت زوجته أن تهدئه لكنها لم تنجح إلا في تأجيج غضبه. وقد حلت ثورات غضبه هذه محل استمتاعنا بالشراب.

لم أكن أعرف ماذا يمكن أن يحدث لو لم يأت هيربي شيء من الإلهام. فقد أخذ بغتة ينشد تلك التراتيل المسيحية الجميلة التي تجعل الدموع تتدفق. غنّى كملاك، عيناه مغمضتان، وبصوت عالي الطبقة. دهشنا جميعا بحيث لم يجرؤ أحد على أن يتفوه بكلمة واحدة. وعندما انتهى، انحنى إلى الأمام، مال برأسه، وغمغم بأدعية. ودعا ربه أن يعيد السلام والانسجام إلى صدر العائلة، وأن يغفر لأبيه لأنه استشاط غضباً، وأن يخفف من أعباء أمه، وأخيراً، متصنعاً الصلاح والتقوى، دعا ربه لأن يصلح ابن خالته جورج المبتلي بالمعصية. وعندما رفع وجهه كانت الدموع تسيل على خديه.

كان من الواضح أن العجوز قد تأثر. ويبدو أنه لم يسبق لهيربي أن فعل مثل ذلك من قبل.

«من الأفضل أن تأوي إلى الفراش الآن يا بني»، قال بصوت مرتعش «سأشتري لك غداً تلك الدراجة التي طلبتها».

«بارك الله بك يا أبي»، قال هيربي. «وأنت أيضاً يا أمي. ليحفظنا الله جميعنا ويبعد عنا الأذى».

لاحظت أن أمه بدت مترددة نوعاً ما.

«إنك لست مريضاً يا هيربي، أليس كذلك؟» استفسرت باهتمام.

«لا يا أمي، أنا على ما يرام».

«حسناً، أرجو أن تنام نوماً هنيئاً»، قالت، «ولا تقلق كثيراً».

«جورج»، قال العجوز واضعاً ذراعه حول كتف جورج، «اغفر لي للكلمات الطائشة التي قلتها. إن أباك رجل طيب. وأنا واثق أنه سيجد طريقه إلى الله ذات يوم».

«كلنا آثمون أمام الله»، قال هيربي.

بدأت أجد صعوبة في ألّا أبدي تأثري.

«دعنا نتمشى قليلاً قبل أن ننام»، اقترحت.

«اذهب مباشرة لتنام»، قال العجوز لهيربي. «لقد تأخر الوقت».

في الخارج بدأت أنا وجورج نغذّ الخطى صوب النهر. وعندما ابتعدنا مسافة ملائمة عن المنزل انفجرنا ضاحكين.

«إن هيربي الصغير ممثل كوميدي حقيقي» قلت. «لا أعرف كيف تمالكت نفسي لكي لا أضحك».

«بالتأكيد إنه يعرف كيف يأخذ بزمام الأمور»، قال جورج، «أتساءل إن كانت كيتي ما تزال مستيقظة؟» أضاف بحماس.

«يا إلهي، لا تدعنا نحاول ذلك!» قلت محذراً. «لقد تأخر الوقت كثيراً».

«وما أدراك»، قال جورج، «أريد أن ألفّ أصابعي حول ذلك الدغل الوردي قبل أن آوي إلى الفراش، أليس كذلك؟».

«أرغب في احتساء شراب جيد، إذا أردت رأيي»، قلت.

«يالها من فكرة. دعنا نذهب إلى المطبخ ونرى ماذا هناك».

سلكنا الطريق الطويل، حول بيت كيتي. كانت الأنوار مضاءة، لكن جورج أصرّ على إعطاء الإشارة ـ صافرتان بصوت منخفض ـ لعل وعسى. «إن لم تكن نائمة»، قال جورج، «فستتسلّ خارجة وتتبعنا» تمشّينا على مهل إلى المطبخ.

وضعنا الفانوس على الموقد، فتح القنينة التي ما زال فيها بضع قطرات، وجلسنا هناك وآذاننا مشنفة.

«أنت تتمتع بفرصة كبيرة يا جورج. إنها تعادل عشرين سنة».

«فقط لو أتمكن من إيلاجه فيها»، أجاب، «سيكون الأمر جديراً بذلك».

«يمكنك أن تنالها» قلت له، «سأخلي لك الجو».

«لا تفعل ذلك يا هنري. انتظر بضع دقائق وسأذهب معك».

انتظرت بضع دقائق، ثم استويت واقفاً.

«لعلها ذهبت تحت الجسر لتنتظرنا هناك». قال جورج.

تمشّينا حتى الجسر. وكما توقعنا كانت هناك. «أوه، جورج»، صاحت، «ظننت أنك لن تأتي». وألقت بذراعيها حوله بحماس شديد. ابتعدت وقررت أن أستمرّ في المراقبة. وقفت عند تقاطع الطرق حوالى نصف ساعة. وبالطبع نوّست الفانوس. «الأحمق!» قلت في نفسي. «لن يهنأ له عيش إلا بعد أن يفتض بكارتها».

وأخيراً سمعتهما قادمين. «حسناً، هل حالفك الحظّ هذه المرة؟» سألته بعد أن ودعنا كيتي.

قال جورج متذمراً. «لنذهب إلى النهر. أظن أني ملوث بالدم».

«أووه» صفّرت. «لقد فعلتها أخيراً».

«أظن أنه يجب أن نعود إلى المدينة قريباً»، قال جورج.

«ماذا؟ هل ستتركها في ورطتها؟».

«إنها لن تشي بي. لقد جعلتها تعدني بذلك».

«أنا لا أفكّر بك، أيها الوغد، بل أفكّر بها».

«أوه، نستطيع أن نصلح الأمور عندما تأتي إلى المدينة»، قال جورج، «أعرف طالب طبّ سيقوم بالواجب».

«لنفترض أنها نزفت؟».

«لن يحدث لها ذلك»، قال جورج. «إنها تتمتع بصحة جيدة».

ظللنا صامتين لفترة من الوقت.

«بشأن أونا»، قال جورج فجأة. «إني أفكّر بالموضوع ياهنري. أظن أن أفضل شيء هو أن تراها بنفسك. قد ألخبط كل شيء».

«إنك نغل».

سادت لحظات صمت أخرى.

«أظن أني سأغادر بعد يوم أو يومين»، قلت، بعد أن اقتربنا من البيت.

«قد تكون فكرة جيدة»، قال جورج. «إنك لا تريد أن تطيل إقامتك لكي لا تصبح ضيفاً ثقيلاً».

«أودّ أن أدفع شيئاً لقاء إقامتي» قلت.

«لا يمكنك أن تفعل ذلك يا هنري، إنهم سيشعرون بالإهانة».

«إذاً سأشتري لهم شيئاً».

«حسناً»، قال جورج.

أردف بعد قليل: «لا تظن أني لا أشعر بالامتنان لكلّ ما فعلته».

«لم أفعل شيئاً»، قلت، «يمكنك أن ترعاني ذات يوم».

«أنا آسف من أجل أونا... حقاً لا...».

ساد صمت ثم قال. «انسى الموضوع».

«من المؤسف أن تفقدها يا هنري».

«لا تدع ذلك يسبب لك القلق. فلن استسلم».

«كارناهان هذا... تعرف أنه خطبها».

«ماذا؟ لماذا لم تخبرني قبل ذلك؟».

«لم أشأ أن أؤذي مشاعرك»، قال جورج.

«هكذا إذاً؟ اسمع، سأغادر غداً في أول قطار».

«لا تفزع هكذا يا هنري! إنهما مخطوبان منذ ثلاثة أشهر».

«ماذا؟ يا إلهي، استغرب كيف يمكنك أن لا تخبرني بذلك من قبل».

«ظننت أن الأمر سينتهي قريباً. فأنا واثق أنها لا تحبه».

«لكنها قد تتزوّجه فقط لإغاظتي»، رددت.

«هذا صحيح... لكنها ستندم على هذا بقية عمرها، إن هي فعلت ذلك».

«وما نفع ذلك بالنسبة لي؟ اسمع، أنت غبي، هل تعرف ذلك؟»

«لا تغضب يا هنري. ماذا يمكنني أن أفعل؟ لو أخبرتك، لأصبحت تعساً. بالإضافة إلى ذلك، فإننا لم نر بعضنا منذ فترة طويلة».

«لماذا لا تكون صادقاً معي؟ ببساطة إنك لا تبالي بأي شكل من الأشكال، أليس كذلك؟».

«هيا الآن، لا تكن أحمق».

«جورج»، قلت، «إني أحبك كما هو عهدي دائماً، هذا خارج عن إرادتي، لقد كنّا قريبين جداً طوال هذه السنوات. لكني لن أثق بك مرة أخرى. كان يجب أن تخبرني».

«حسناً يا هنري، افعل ما تريد».

لم نقل أكثر من ذلك. آوينا إلى الفراش صامتين ـ بعد أن اغتسل جورج. تمنيت في قرارة نفسي أن يصاب بالسفلس.

في الصباح ودّعت الجميع ـ عندما وصلت إلى نيويورك، توقّفت

عند أحد المحلات، وبعثت لهم صندوقاً ضخماً من الشوكولا. لاأعرف حقاً ماذا يرغبون حقاً.

منذ ذلك الحين، لم يعد جورج مارشال أخي التوأم...

«هكذا إذن، كيف فقدت أونا؟» قال ماكجريجور.

«عندما عدت تبين لي أنها قد تزوّجت. تزوجت قبل ثلاثة أيام فقط».

«حسناً يا هنري، أظن أن ذلك كان أفضل لك».

«كما قال جورج».

«لا، بجد، لماذا تحاول أن تعارض القدر؟ لنفترض أنك تزوجتها؟ فإنكما ستنفصلان بعد سنة أو سنتين ـ فأنا أعرفك».

«أفضّل الانفصال على ألا أتزوج أبداً».

«هنري، إنك أحمق! عندما أسمعك، يمكنني أن أقول إنك ما تزال تحبها».

«ربما».

«أنت معتوه. فلو صادفتها غداً في الشارع، من المحتمل أن تهرب منها».

«ربما. لكن ليس لهذا علاقة بذاك».

«أنت شخص ميؤوس منه يا هنري». ثم توجه بكلامه إلى تريكس. «هل سمعت شيئاً كهذا في حياتك؟ والأنكى من ذلك أنه يدعو نفسه كاتباً! إنه يريد أن يكتب عن الحياة، لكنه لا يعرف الطبيعة البشرية»، ثم استدار استدارة كاملة وأردف: «عندما تستعدّ لكتابة الرواية الأمريكية العظيمة، يا هنري، تعال إليّ لأقدم لك بضع حقائق عن الحياة لكي تفهم حقيقة الحياة».

ضحكت من كل قلبي.

«حسناً، أيها الرجل الحكيم، تابع واضحك. عندما تنقشع أحلامك الوهمية، تعال إليّ وسأحلّ كل ما يستعصي عليك. سأعطيك سنتين أخريين... هذا اسمها... نعم، مونا. مونا، أونا... تبدوان على قافية واحدة، أليس كذلك؟ لماذا لا تختار فتاة تحمل اسماً عادياً، مثل ماري، جين أو سال؟».

انتاب ماكجريجور شيء من النشوة بعد أن قال هذا. ثم أردف: «هنري، إننا جميعاً حمقى وسذج. أنت لست أسوأ رجل في العالم، لا أبداً. المشكلة هي أننا كلنا نحمل مثلاً عظيمة. لكن ما أن تفتح عينيك حتى تدرك أنه لا يمكنك أن تغيّر شيئاً. بالتأكيد يمكنك أن تحدث تغييرات طفيفة ـ الثورات وكلّ ما إلى هنالك ـ لكنها لا تعني شيئاً. فالناس يظلون على حالهم، سواء كانوا ملكيين، أم شيوعيين، أم مجرد ديمقراطيين. كلّ شخص لنفسه، هذه هي اللعبة. حين تكون شاباً فإن هذا يثبط من عزيمتك. لا يمكنك أن تصدق تماماً. فكلما ازداد إيمانك، أصبحت الخيبة أكبر. سيستغرق الأمر خمسين ألف سنة أخرى ـ أو أكثر! ـ قبل أن يطرأ أيّ تغيير أساسي على البشرية. في غضون ذلك يجب أن نستفيد منها إلى أبعد الحدود، أليس الأمر كذلك؟».

«أنت تتكلم تماماً مثل أبيك العجوز».

«هذا صحيح يا هنري».

قالها بجدية. «يبدو لك أننا لسنا أصيلين كما كنا نفكر. إننا نزداد كبراً في السن، هل تدرك ذلك؟».

«ربما أنت ـ أما أنا فلا!» قلت بفظاظة.

حتى تريكس ضحكت مما يدور بيننا وقالت: «إنكما مجرد طفلين، أنتما الاثنان».

«لا تخدعي نفسك يا أختاه»، قال ماكجريجور، وتوجه نحوها

يداعبها. «لأني أحمل خصيتين فهذا لا يجعل مني شاباً. فأنا رجل عجوز محبط، صدّقي أو لا تصدّقي».

«إذن لماذا تريد أن تتزوجني؟».

«أوه، لا أعرف»، قال ماكجريجور متعباً. «ربما من أجل التغيير فقط».

«يعجبني ذلك»، قالت تريكس، وقد أحست بشيء من الإهانة.

«تعرفين ما أقصد»، قال ماكجريجور. «بحق المسيح، هل يجب أن نصبح نحن رومانسيين - فقط لندخل السرور إلى قلب هذا الرجل؟ أريد بيتاً، بيتاً حقيقياً آوي إليه، هذا هو الشيء الذي أبحث عنه».

نظرت تريكس إليّ صامتة. وهزّت رأسها...

«لا تأخذيه على محمل الجدّ»، قلت مسترخياً. إنه دائماً يصور الأشياء بأسوأ حال».

«هو ذاك»، قال ماكجريجور مزقزقاً. «دعني أسمع منك الآن شيئاً لطيفاً عني. قل لها ألّا تقلق، فإني سأستقرّ قريباً جداً. سأثبت لها أني زوج جيد... لا، توقف! من الأفضل ألّا تقول شيئاً. فلديك طريقة لعينة في خلط الأشياء».

«دعه يتكلم!» قالت تريكس. «أحب أن أعرف كيف يفكّر بك صديقك هنري حقاً».

«لا تظني أنه سيقول لك الحقيقة، أليس كذلك؟ إن هذا الرجل زلق كسمك الأنقليس. إنه يتكلم عن جورج مارشال لكن... حسناً، لو لم أكن أعرفه منذ فترة طويلة جداً، وأعرفه معرفة جيدة جداً لتركته منذ زمن بعيد».

«هنري»، قالت تريكس، «هل تظن حقاً أنه يمكنني أن أتزوّجه؟».

«أرجوك لا تطلبي مني أن أجيب عن هذا السؤال»، وحاولت أن أغيّر الموضوع بضحكة.

«أرأيت»، قال ماكجريجور، «إنه لا يستطيع أن يقول نعم أو لا، لمجرد ذلك. الآن ماذا تعني يا هنري؟ إما نعم أم لا؟».

أمسكت لساني.

«هذا يعني لا»، قال مايجريجور.

«لا تكن متسرعاً!» قالت تريكس.

«حسناً يا هنري، أفضل شيء في الحياة هو أن يكون المرء صادقاً»، قال ماكجريجور. «أظن أنك تعرفني جيداً».

«لم أقل شيئاً بعد» قلت. «لماذا تستبق النتائج؟ بالمناسبة، كم الساعة الآن؟».

«هكذا أنت! الآن يريد أن يعرف كم هي الساعة. هذا هو هنري».

«إنها الثانية والنصف فقط»، قالت تريكس. «دعني أحضّر لكما بعض القهوة قبل أن تذهب».

«جميل» قلت. «وهل بقيت أيّ قطعة من الكاتو؟».

«انظري، لقد عاد إليه نشاطه. إنك تصحو دائماً عندما يأتي ذكر الطعام. يا إلهي يا هنري، أنت لن تتغيّر. ولعلي أحب هذا الشيء فيك ـ أنت لست قابلاً للإصلاح». جلس بالقرب مني، نفض الرماد من سيجاره، ومضى يفرغ ما في صدره. «كما تعرف فإن تيس لديها صلات قوية. إنها تريد أن تراني جالساً على مقعد القاضي. المسألة هي أني لا أستطيع أن أرشح نفسي لمنصب القاضي وأبدأ إجراءات الطلاق ـ أتفهم قصدي ـ بالإضافة إلى ذلك، فأنا لست واثقاً من أني أريد أن أصبح قاضياً. حتى عندما تكون قاضياً فلا تستطيع أن تبقى طاهر الذيل، كما تعرف. وبصراحة فأنا لست محامياً جيداً. إنها لا تثير أيّ حماس فيّ...».

«لماذا لا تترك المهنة وتحاول شيئاً آخر؟».

«مثل ماذا ـ كأن أبيع إطارات العجلات؟ ماذا يمكنك أن تفعل ياهنري؟ فجميع الأعمال سيئة بالنسبة لي».

«لكن ألا يوجد شيء تشعر بالميل إليه؟».

«بصراحة لا يا هنري! فأنا مجرّد إنسان تافه يحمل قلباً تافهاً. أريد أن أعوم بأدنى جهد».

«وما الذي يمنعك من ذلك!» قلت.

«هذا ليس رداً. الآن، لو كانت لدي رغبة في الكتابة، لاختلف الأمر. لكن لا توجد لدي مثل هذه الرغبة. فأنا لست فناناً. ولست سياسياً. ولست كرة من النار أيضاً».

«إذن فأنت لا تصلح لشيء»، قلت.

«لا أعرف يا هنري، أنا لم أقل ذلك. لابد من وجود أشياء كثيرة يمكن للمرء أن يفعلها بدون حماس كبير».

«مشكلتك»، قلت، «هي أنك تريد دائماً شخصاً يتّخذ القرار عنك».

«ها قد بدأت تتكلم الآن»، قال ماكجريجور، وقد أصبح فجأة أكثر بهجة، رغم أني لم أعرف السبب. «ولهذا السبب أريد أن أتزوج تريكس. أنا بحاجة إلى شخص يجعلني أستعيد ثقتي بنفسي. أما تريكس فهي مثل إسفنجة رطبة. فبدلاً من أن تدعمني وتشد أزري، تتركني أنهار وأتهاوى».

«متى ستكبر؟» قلت.

«هيا يا هنري، لا تكرر عليّ هذه الأسطوانة. أنت نفسك مجرد ولد كبير. تدير حانة لبيع الخمور مخالفة للقانون، فكّر بذلك! وكنت ستضرم النار في العالم. ها ها ها».

«رويدك. فأنا لم أخدعك. فأنا أعرف على الأقل ما أريد أن أفعله. هذا شيء».

«هل يمكنك أن تفعل ذلك؟ هذا هو السؤال».

«سننتظر ونرى».

«هنري، إنك تحاول الكتابة منذ أن تعرفت إليك. فقد أصبح لدى الكتّاب الآخرون بعمرك ما لا يقل عن نصف دزينة من الكتب المنشورة. حتى أنك لم تنه كتابك الأول بعد - أم أنا غلطان؟ هيا، هيا، كن صادقاً مع نفسك».

«لعلي لن أبدأ النشر حتى أبلغ الخامسة والأربعين»، قلت مازحاً.

«قل في الستين يا هنري. بالمناسبة، من هو ذلك الكاتب الإنكليزي الذي بدأ في السبعين؟».

لم أستطع أن أتذكر اسمه أيضاً في تلك اللحظة. ظهرت تريكس تحمل القهوة وقطع الكاتو. عدنا إلى المائدة.

«حسناً يا هنري»، بدأ ثانية، وتناول قطعة ضخمة من الكاتو، «كلّ ما يجب أن أقوله هو - أن لا تضعف! لعلك ستصبح كاتباً. ولا يمكنني أن أتنبأ إن كنت ستصبح كاتباً عظيماً أم لا. فما زال أمامك الكثير لكي تتعلمه».

«لا تعره أيّ اهتمام»، قالت تريكس.

«لا تقلقي فلا شيء يضايقه»، قال ماكجريجور، «إنه عنيد أكثر مني، وهذا يدل على أشياء كثيرة. الحقيقة هي أني أتألم عندما أراه يضيّع وقته».

«يضيّع وقته؟» ردّدت تريكس. «وماذا عنك؟».

«أنا؟ أنا كسول. هذا شيء مختلف»، وابتسم لها ابتسامة عريضة.

«إن كنت تفكر بالزواج مني»، أردفت، «فيجب عليك أن تعمل. لا يخطر ببالك أني سأعيلك، أليس كذلك؟».

«هل سمعت هذا يا هنري»، صاح ماكجريجور مزمجراً، وانفجر في ضحكة كأنها قالت نكتة رائعة

«الآن من قال إني أريد أن يعيلني أحد؟».

«حسناً، وكيف سنعيش؟ لا مما تكسبه، إني متأكدة».

«هس، هس!» قال ماكجريجور. «حبيبتي، أنا لم أبدأ العمل بعد. انتظري حتى أحصل على الطلاق، عندها سأتنكب للأمور الأكثر أهمية».

«لست متأكدة جداً من أني أريد أن أتزوجك»، قالت تريكس بجدية كبيرة.

«الآن، هل تسمع ذلك؟»، قال ماكجريجور. «كيف ترى ذلك؟ حسناً يا حبيبتي، أنت الخاسرة. فبعد عشر سنوات قد أصبح قاضياً في المحكمة العليا».

«وماذا عن الآن؟».

«الأمور مرهونة بأوقاتها، هذا هو شعاري».

«يمكنه دائماً أن يكسب قوته ككاتب اختزال»، قلت.

«وحياة جيدة ملعونة»، قال ماكجريجور.

«لا أريد أن أتزوج كاتب اختزال».

«أنت من يتزوجني»، قال ماكجريجور. «ومن سيعرف ماذا أنا؟».

«الآن أنت مجرد شخص غير ملائم»، قالت تريكس.

«هذا صحيح يا حبيبتي»، قال ماكجريجور، «لكن كان الكثير من الرجال هكذا قبل أن يتسلقوا أعلى المراتب».

«لكنك لست متسلقاً!».

«صحيح مرة أخرى»، قال ماكجريجور. «كان ذلك مجرد كناية.

انظرا، أنتما الاثنان، فأنتما لا تظنان حقاً أني رجل فاشل، أليس كذلك؟ أنا بحاجة إلى إلهام. بحاجة إلى زوجة صالحة، إلى بيت، وإلى صديق أو صديقين حقيقيين. مثل هذا الرجل مثلاً. ما رأيك ياهنري، هل كلامي صحيح؟»

ودون أن ينتظر الرد، تابع: «كما ترين يا تريكس، فإن رجالاً مثلي ومثل هنري هم خارج المألوف. إننا من نوعية خاصة. فلو تزوجتني، لحصلت على جوهرة. فأنا أكثر الرجال تسامحاً في العالم. وهنري يضمن ذلك. يمكنني أن أعمل بجد كأي شخص... إذا كان يتعين عليّ ذلك! فأنا لا أرى معنى في أن أدمرّ ذاتي. إنه غباء. الآن، لم أخبركما أيّ شيء عن هذا، لكن لديّ عدّة خطط ذكية وجاهزة. والأكثر من ذلك ـ فإني أنفذها في حقيقة الأمر. ولم أشأ أن أخبركما بها إلا بعد أن تكلل بالنجاح. لو تحققت واحدة منها، لعشنا حياة راغدة للسنوات العشر القادمة. كيف ترين ذلك؟».

«أنت لذيذ»، قالت تريكس، وقد ذابت على الفور.

لا أظن أنها صدّقت خططه هذه، لكنها كانت متلهفة للتمسك بقشة.

ثم قال ماكجريجور مبتهجاً «أترين كم هو بسيط هذا الأمر؟».

بعد ساعة أو أكثر من عودتي إلى البيت، رحت أفكر بجميع المشاريع الخيالية التي تمخض عنها، بدءا من الفترات التي عرفته فيها في البداية ـ عندما كان مايزال يذهب إلى المدرسة الإعدادية. كيف كان دائماً يعقّد حياته في محاولة منه لجعل الأمور ميسرة أكثر بالنسبة له. تذكرت الساعات التي كان يمضيها وهو يقوم بأعمال شاقة، ليصبح «فيما بعد» حراً في أن يفعل ما يحلو له، رغم أنه لم يكن يعرف تماماً ماذا سيفعل عندما يصبح قادراً على عمل الشيء الذي يدخل إلى نفسه المتعة. أما ألّا يفعل شيئاً على الإطلاق، وهو

الشيء الذي كان دائماً يدعيّ أنه جماع الخير، فقد كان شيئاً مستبعداً تماماً. فإذا ذهبنا إلى الشاطئ لقضاء عطلة كان يحضر معه دفتر ملاحظاته، وكتاباً أو كتابين في القانون، أو حتى بضع صفحات من القاموس الكامل الذي كان يقرأه، صفحة صفحة، لسنوات عديدة. وإذا قذفنا بأنفسنا في الماء، كان يسابق أحداً حتى الطوافة، أو كان يقترح أن نعوم حول تلك النقطة أو يقترح أن نلعب كرة الماء. نفعل أيّ شيء إلا أن نعوم بهدوء على ظهورنا. وإذا تمددنا على الرمل، كان يقترح أن نلعب النرد أو الورق. وإذا بدأنا محادثة لطيفة كان يحوّلها إلى مشادّة. ولم يكن بمقدوره أبداً أن يفعل أيّ شيء بسلام أو هدوء. كان عقله يركّز دائماً على الشيء التالي، الحركة التالية.

وثمة شيء غريب آخر تذكّرته عنه، أنه كان دائماً مصاباً بزكام سيء - «زكام في الصدر» كما كان يصفه. في الشتاء أو في الصيف، لا فرق. وكما دأب على القول، فإن نزلة البرد الصيفية كانت أسوأ. ومع إصابته بالزكام كان يصاب غالباً بحمى القش. باختصار كان دائماً في حالة بائسة، مريضاً دائماً، مصاباً بالأنفلونزا، يعطس، وكان دائماً ينحي باللائمة في ذلك على السجائر التي أقسم أن يقلل منها في الأسبوع التالي أو الشهر القادم، وكان يفعل ذلك أحياناً، لكنه كان يعود إليها، ليدخن بشدّة أكبر. وفي أحيان أخرى كان احتساء الشراب يجعله يشعر بأنه «عاجز»، وكان يتوقف عنه لفترة من الزمن، ربما ستة أو ثمانية أشهر، لكنه كان يعود إليه، ليشرب كميات أكبر. وكان دائماً يتوقف عن ذلك ثم يعود إليه. وكان يدرس لمدة ثمانية عشر أو عشرين ساعة يومياً، حتى يكاد دماغه يحتقن. وربما كان يكسر روتين الدراسة بلعب الورق مع الأولاد، وكان يعتبر ذلك فترة استراحة واسترخاء. لكنه يلعب بالورق بذات الطريقة التي يدرس ويدخن ويشرب فيها - دائماً حتى الإفراط. وكان علاوة على ذلك لا يتقبل الخسارة بروح طيبة. أما بالنسبة للنساء - فإذا كان يلاحق فتاة، فكان لا يكف عن متابعتها، مهما بلغ عدد المرات

التي صدته أو رفضته فيها، حتى يكاد يخرجها عن طورها. وما أن تلين، أو تستسلم، حتى ينهي كل شيء معها. ثم يتوقف عن مطاردة النساء لفترة من الزمن. إذ كان يعتبرها من المحرمات. وبالتأكيد كان يفضل العيش بدون نساء: فقد كان ذلك أدعى لرجاحة العقل وأكثر صحة: إذ كان يأكل على نحو أفضل، ينام نوماً أعمق، ويشعر أفضل حالاً: وكان يفضّل أن يتغوط جيداً على أن يضاجع مضاجعة جيدة. وهكذا إلى أن يقع في غرام فتاة أخرى، فتاة شديدة الإغواء. ثم تبدأ عملية المطاردة لفترة طويلة أخرى من الزمن، ليلاً ونهاراً، أسبوعاً بعد أسبوع، حتى ينال وطره منه ويبلل قضيبه فيها، ثم تعود وتصبح كالأخريات، لا أفضل، ولا أسوأ. «مجرد كس يا هنري... مجرد كس».

وكان هناك دائماً عشرون مجلداً أو أكثر تتكدس فوق مكتبه: كان سيقرأها حالما يتاح له الوقت. وفي أغلب الأحيان، تمر سنوات قبل أن يفتح كتاباً واحداً منها، وبذلك يكون الكتاب بالطبع قد فقد نكهته. وكان يحاول أن يبيعها لي بنصف ثمنها، وإذا رفضت كان لا يتردد في تقديمها هدية لي. وكان يقول: «لكن يجب أن تعدني بقراءتها!». وكانت لديه نسخ من مجلات تعود إلى عشر وخمس عشرة سنة، وصحف أيضاً، يعاملها بالطريقة نفسها. وفي بعض الأحيان، كان يأخذ معه مجموعة منها، يفردها في العربة أو القطار، بتصفحها بسرعة، ثم يرميها خارج النافذة. «هيا!» كان يقول، وابتسامة حزن على وجهه. وبذلك يكون قد أراح ضميره.

كان يلتقي بي أحياناً بالمصادفة ويقول: «لماذا لا نذهب إلى المسرح؟ سمعت بمسرحية جيدة تُعرض في مسرح الأورفيوم». وننطلق إلى المسرح متأخرين نصف ساعة، نظل هناك بضع دقائق، ثم نهرع خارجين كأن الجوّ سامّ في الداخل. «لقد ذهبت خمسة دولارات إلى الجحيم»، كان يقول. «كم لديك من النقود يا هنري؟ أوه خراء، لا تبحث فأنا أعرف الجواب. متى سيكون معك نقود في

جيبك؟» ثم يقودني إلى حانة في أحد الشوارع الفرعية الكئيبة، حانة يعرف صاحبها أو يعرف فيها النادل أو شخصاً ما، ويحاول استدانة بضع دولارات. فإذا لم يتمكن من الحصول على النقود يجعلهم يقدمون لنا بضعة أطباق. «هل معك خمسة بنسات على الأقل؟» يسألني بوقاحة. «أريد أن أخابر ذلك اللقيط الصغير وودروف ليقرضني بضعة دولارات. لا يهمني إن كان مايزال نائماً أم لا. سنستقل سيارة أجرة ونجعله يدفع أجرتها، ما قولك؟» وكان يجري مكالمة تلو الأخرى. وكان يتذكر أخيراً فتاة كان قد أهملها منذ سنوات، فتاة ساذجة جميلة بالطبع، كما كان يقول، ستكون في غاية السعادة لرؤيته ثانية. «سنحتسي بضع كؤوس وننصرف. ربّما استطعت أن ألمسها. لكن لا تبدأ أيّ شيء مضحك ـ فهي دائماً مصابة بالزهري». وهكذا تمرّ الليلة، نجري من مكان لآخر، ليس لنا وجهة معينة، متعبين، تراودنا نزوات غريبة، يصيبنا اليأس. وفي النهاية ينتهي بنا المطاف في غرينبوينت، في بيت والديه، حيث من المؤكد يوجد قليل من البيرة المثلجة. وكنا نسرقها خلسة، بدون ضوضاء، لأنه كان دائماً على خلاف مع والده العجوز أو مع أمه، وأحيانا مع العائلة كلها. «إنهم لا يكنون الكثير من الحب لك ياهنري، لا يهمني إن أخبرتك بذلك. لا أعرف لماذا لا يحبونك، لكنهما يكرهونك. أظن أن علاقتك مع تلك الأرملة أحدثت لهم صدمة. هذا ماعدا إصابتك بالزهري الذي رحت تتفاخر به».

رغم أنه غادر البيت منذ سنوات، بقيت غرفته هناك له، تماماً كما تركها، أي في حالة من الفوضى التامة، تفوح منها رائحة نتنة كأنّ جثّة عفنة فيها. «هل تظن أنه ستأتيهما النخوة وينظفانها من حين لآخر»، كان يقول وهو يفتح النوافذ. «أحسب أنهما ما زالا يحاولان أن يعلماني درساً، هذان الأبلهان الملعونان. تعرف ياهنري أنه لا يمكن لأحد أن يكون لديه أبوين أكثر غباء من أبوي وأبويك. لا عجب أننا لم نحقق شيئاً. لقد بدأنا بداية سيئة». وبعد أن تكلم حول أشياء كثيرة عن ذلك أضاف: «أظن أنه يمكنني أن أنظّفها

بنفسي، لكني لا أستطيع أن أفعل ذلك. أظن أني ابن عاهرة كسول. بالطريقة نفسها...» وينهمر من فمه سيل من التجديف واللعنات.

كنا نحتسي زجاجة بيرة عندما قال «... هل تذكر يا هنري، حين وضعنا حملة الإعلانات تلك من أجل أبيك؟ في هذه الغرفة بالذات، أليس كذلك؟ تصور أننا كتبنا ألف رسالة باليد! لكننا أمضينا وقتاً جميلاً، أليس كذلك؟ ما أزال أرى جميع تلك القناني ملقاة على الأرض حولنا. لا بدّ أن نكون قد احتسينا شاحنة من البيرة. لم نحصل على أجرنا لقاء ذلك العمل، هذا ما لا أستطيع أن أنساه. ياإلهي، أستطيع أرى أنك كنت نسخة عن أبيك! لا تملك شروى نقير. بالمناسبة، كيف حال الولد الكبير هذه الأيام؟ أمايزال لديه نفس الزبائن الاثني عشر - أم أنهم ماتوا جميعهم؟ يا له من عمل! إني سعيد لأن أبي لم يكن سوى تاجر حديد. أتساءل كيف سينتهي بنا الأمر، إيه؟ ربما كنت ستتسول في الشوارع في شيخوختك. أما أبوك فكان لديه شيء من الكبرياء، أما أنت، يا إلهي، فليس لديك ذرة من الكبرياء، من الإيمان، من الولاء أو أيّ شيء، بقدر ما كنت أرى. كنا نعيش من يوم إلى آخر، أليس كذلك يا هنري؟ يا لها من حياة!».

كان بوسعه أن يتكلم هكذا إلى ما لا نهاية. حتى عندما نكون قد أوينا إلى الفراش، وتكون الأنوار قد أُطفئت، وأسدلت الملاءات فوق رؤوسنا، لم يكن يتوقف عن الكلام. وكان في أغلب الأحيان يستلقي في السرير وسيجار في فمه وزجاجة بيرة في يده، ولا يكف عن الكلام، ينتقل من ذكرى إلى أخرى كخيال فراشة.

«ألا تنظّف أسنانك أبداً؟» كنت أسأله. كان يحبّ مثل هذه المقاطعات.

«لا! لقد تعوّدت على ذلك يا هنري، إني أتضايق منها كثيراً. لكنها لا بد أن تسقط ذات يوم».

«لكن بذلك المذاق السيء في فمك؟».

«بالطبع أشعر. إنها شيء فظيع! لكني اعتدت على ذلك». (وكأنه يحدث نفسه بصوت منخفض) «أحياناً تكون سيئة جداً قلما أستطيع أن أتحملها أنا نفسي. بين الحين والآخر، تذكرني فتاة بذلك وبالطبع فإن هذا يجعلك تخجل من نفسك قليلاً. لكن يمكنك تجاوز الأمر. يجب أن تبقي عقولهن مركّزة على الشيء الآخر. وعندما يحصلن عليه، لا يهم ما هي رائحة نَفَسك، صحيح؟».

أشعل سيجاره وجلس... «سأصارحك إن ما يضايقني هو أن تكون عانتي قذرة. لا أعرف يا هنري، لكن لدي عادة سيئة وهي أنني أظل أرتدي سراويلي حتى تبلى. أنت تعرف كم مرة أستحمّ فيها! نادراً جداً». ضحك.

وظل يتابع «... كان ينبغي أن نعود إلى المنزل في وقت أبكر ونتجاذب أطراف الحديث، بدلاً من الجري والتسكع هكذا. ما هي مشكلتي، في رأيك؟ أنا أجري هكذا منذ أن كنت طفلاً. في بعض الأحيان أصبح محموماً. إن ذلك يبعث فيّ الخوف. أقول لك... مارأيك بزجاجة أخرى من البيرة؟».

«دعنا نَنَمْ بحق المسيح».

«لماذا يا هنري؟ إنك ستنام نومة طويلة عندما تموت».

«احتفظ بشيء للغد».

«غداً! هل خطر ببالك يا هنري أنه ربما لن يكون هناك غد؟ فقد تموت وأنت نائم - هل فكرت بهذا؟».

«وما الضرر في ذلك؟».

«حسناً، فكّر بكلّ ما ستفتقده».

«لن أفتقد شيئاً»، قلت مغتاظاً، «كلّ ما أطلبه هو أن أنام جيداً لمدة عشر ساعات وأتناول فطوراً جيداً عندما أستيقظ! هل فكّرت ذات مرة بالفطور في الجنة؟».

«لقد عدنا للتفكير بالفطور. قل لي من سيشتريه؟».

«سنفكر بذلك في الغد».

يسود صمت لفترة وجيزة.

«هنري كم معك في جيبك؟ قل لي، أريد أن أعرف».

«لا أعرف... ربما خمسة عشر أو وعشرين سنتاً».

«هل أنت متأكد أنها ليست خمسة وثلاثين؟».

«قد يكون ذلك. لماذا؟ هل تريد أن تستدين بعضها؟».

«أستدين منك؟ بحق المسيح لا! فأنت فقير. لا يا هنري، مجرد فضول لأن أعرف، كما قلت. تبدأ بخمسة عشر أو عشرين سنتاً في جيبك ولا يرف حاجبك. تصادف شخصاً ـ مثلي لبرهة ـ وتذهب إلى المسرح، وتشرب، وتأخذ سيارات الأجرة، وتجري مكالمات هاتفية...».

«وما الضير في ذلك؟».

«وهذا لا يزعجك أبداً... إني لا أتحدث عن نفسي يا هنري. لكن افترض أنه كان شخصاً آخر؟».

«وما الشيء المقلق في ذلك!».

«أظن أن المسألة كلها هي مسألة مزاج. لو كنت أنا لأصبحت بائساً».

«أنت تحبّ أن تشعر بأنك بائس».

«أظن أنك محق هنا. لا بدّ أنك ولدت هكذا».

«وستموت هكذا».

سعل بقوة، ثم مدّ يده إلى صندوق السيجار. «ما رأيك بسيجار يا هنري؟ إنه جاف نوعاً ما لكنه من هافانا».

«أنت مجنون. سأنام. طابت ليلتك».

«حسنا. أتمانع إن قرأت لبعض الوقت؟» أمسك بضع صفحات كبيرة ممزقة من القاموس. أغمضت عيني، كدت أغفو، لكني كنت أسمعه يدندن.

«أنا في الصفحة 1504 الآن» قال، «قاموس مانديليك الكامل. يالها من كلمة!. هل أنت نائم؟ غريب، ماذا ستستفيد من كل هذا الهراء والإسهاب. أحياناً أسهل الكلمات تبدو الأكثر غرابة. كلمة مثل الجثّة، مثلاً. أو خذ عيد الفصح ـ أراهن أنّك لم تفكر في أصل الكلمة. إن اللغة الإنكليزية لغة مجنونة، هل تعرف ذلك؟ تصور كلمات مثل عيد القديس ميخائيل وأسبوع العنصرة ـ أو كلمة نخبك، أو متلازمة، أو رقصة هندية. اللغة مجرد لغز. كلما قرأت اشتقاقات أكثر، عرفت أقل. هل أنت مستيقظ؟ اسمع يا هنري كنت دائماً تتمسك بالكلمات. ما يفاجئني أنك لم تقرأ القاموس كله حتى الآن. أم أنك قرأته؟ أعرف أنك حاولت قراءة الكتاب المقدس كله. أظن أن القاموس أكثر متعة، كما أعتقد. إنه أشدّ جنونا حتى من الكتاب المقدس... تعرف إن مجرد النظر إلى بعض الكلمات، أن تتمطق بها في فمك، يجعلك تشعر بالارتياح. هل اطلعت مرة على كتاب باللغة السويدية؟ هاهي لغة مجنونة لك! أظن أننا تناقشنا في هذا الموضوع في الماضي بهذه الطريقة... اسمع، لا أريد أن أبقيك صاحياً طوال الليل. انس الموضوع! عليّ أن أفعل هذا كلّ ليلة لأني عاهدت نفسي على ذلك. لكنه لا يوصلني إلى شيء، أعرف ذلك تماماً. لكن ثمة شيء في هذا العمل يا هنري ـ عندما أنتهي من صفحة أتخلص منها. نعم ياسيدي! عندما أنتهي من صفحة أمسح بها مؤخرتي. كيف ترى ذلك؟».

12

لم تمض فترة طويلة حتى تحولت الحانة إلى نادٍ خاص ومركز للاستجمام. وعُلقت على جدار المطبخ قائمة طويلة بالأسماء، وإلى جانبها المبالغ التي لنا بذمة أصدقائنا، زبائننا الدائمين الوحيدين.

وكان روبيرتو وجورج إنيس يأتيان في بعض الأجيان لنلعب في فترة بعد الظهر. وإذا لم يأتيا، كنا نلعب أنا وأومارا ونيد الشطرنج في الغرفة الخلفية بالقرب من النافذة. وكنا عندما يأتي زبون مهم، مثل ماثياس، ننسل من خلال النافذة إلى الحديقة الخلفية، ونقفز من فوق السياج إلى الشارع عبر حارة ضيقة. وكان روثيرميل يأتي بين الحين والآخر لقضاء ساعتين بعد الظهر ليتحدث إلى مونا حديثاً خاصاً. وكان يدفع لها عشرة أو عشرين دولاراً لمنحها إياه هذا الامتياز.

وإذا كانت الليلة عطلتنا الأسبوعية، كنا نصرف الزبائن في وقت مبكر، ونجمع الطاولات بالقرب من بعضها، ونلعب كرة الطاولة. وكنا نقيم مباريات بطولة منتظمة. وبالطبع كنا نتناول وجبات باردة سريعة بين الحين والآخر. وكنا نسلّكها دائماً بالبيرة أو الجين أو النبيذ. وإذا نفدت المشروبات الكحولية، كنا نتوجه إلى شارع ألين لشراء النبيذ المقدس. وكانت «مباريات البطولة» تقام عادة بيني وبين آرثر رايموند. وكنا نحقق نتائج باهرة. وفي النهاية، كنت أتعمد أن أخسر المباراة لصالحه لأنه كان دائماً الخاسر... وكان الفجر دائماً يبزغ قبل أن نأوي إلى الفراش.

ذات مساء جاء روثيرميل يرافقه العديد من أصدقائه الحميمين من مستنقعات جيرزي. وكانوا كلهم قضاة وسياسيين. وبالطبع كانوا يطلبون أفضل شيء من كل نوع.

كان كلّ شيء يسير على ما يرام حتى ظهر توني مورير ترافقه عارضة حسناء. ولسبب ما انتاب روثيرميل على الفور شعور عنيف بالنفور منه، وذلك لأنه كان يقص شعره قصيراً جداً، ولأنه كان، في رأي روثيرميل، معسول اللسان. وصادف أني كنت أقوم على خدمة توني مورير عندما ترك روثيرميل مائدته في الغرفة الخلفية، عازماً على اختلاق شجار. كان منهاراً تماماً. كان شخصاً سيئاً، حتى وهو في حالة الصحو. وقفت جانباً لبرهة، وأنا أراقب بإعجاب، كيف كان توني مورير يتفادى دفعات روثيرميل ببرود. لكن عندما بدأ هذا الأخير يوجه إليه الإهانات بشكل شنيع قرّرت أنه حان الوقت لكي أتدخل.

«من الأفضل لك أن تعود إلى طاولتك»، قلت بهدوء وحزم.

«من أنت؟» قال مزمجراً.

كنت أغلي من الداخل، لكني كنت أتظاهر ببرود شديد، قلت: «أنا؟ أنا الرئيس هنا».

لكن روثيرميل أرغى وأزبد. أمسكته من ذراعه ودفعته باتجاه الغرفة الأخرى.

«لا تمسك يدي!» صاح.

ومن حسن الحظ، هبّ أصدقاؤه في هذه اللحظة المناسبة لإنقاذي. فدفعوه دفعاً إلى الغرفة الأخرى، كما لو كان كيساً من الحطب. ثم عادوا ليعتذروا لي ولتوني مورير ولمونا.

«سنخرجهم جميعهم من هنا قريباً»، همست لتوني مورير.

«أرجوك لا تفعل ذلك!» قال متوسلاً. «يمكنني أن أعالج الأمر. أنا معتاد على ذلك. اجلس لحظة. خذ كأساً. يجب ألا تدع مثل هذه الأمور تزعجك». وهنا أخذ يروي قصة طويلة عن تجربته خلال

الحرب، كضابط استخبارات أولاً، ثم كجاسوس. وفيما رحت استمع إليه كان يتناهى إلى سمعي صوت روثيرميل يزداد ارتفاعاً وصخباً. وبدا أن نوبات من الغضب بدأت تنتابه. أشرت إلى نيد وأومارا أن يسكتاه.

وفجأة سمعته يصرخ: «مونا! مونا! أين تلك القحبة؟ بحق المسيح فإني سأنيكها!».

هُرعت إلى طاولته وأخذت أهزه بشيء من العنف. تطلعت بسرعة إلى أصدقائه لأرى إن كانوا سيحدثون مشكلة. لكنهم بدوا محرجين ومرتبكين.

«سنخرجه من هنا»، قلت لهم.

«بالتأكيد»، قال أحدهم. «لماذا لا تطلب سيارة أجرة وترسله إلى بيته؟ إنه عار علينا».

دثرناه أنا ونيد وأومارا بمعطفه وأخرجناه إلى الشارع. كان يهطل مطر ثلجي خفيف؛ وتشكلت فوقه الآن طبقة رقيقة من الثلج. ولم يكن روثيرميل قادراً على الوقوف دون أن نسنده. وبينما ذهب نيد ليبحث عن سيارة أجرة، أخذنا أنا وأومارا ندفعه قليلاً إلى الناصية. كان يرغي ويزبد. ومن الطبيعي أنه أحس بحقد شديد تجاهي.

كان أثناء الشجار قد فقد قبعته. «إنك لست بحاجة إلى قبعة»، قال أومارا. «إننا سنستخدمها لنبول فيها». ازداد حنق روثيرميل الآن. وحاول أن يتملص منا ليلقي بنا أرضاً، لكنّنا أحكمنا قبضتنا عليه. وفجأة وبشكل غريزي أفلتناه في وقت واحد. وقف روثيرميل يترنح قليلاً، لا يجرؤ على الحركة خشية أن تنزلق ساقاه. تراجعنا بضع خطوات، ثم تحركنا بدافع مشترك، ورحنا نرقص حوله كعنزتين. نلوي له وجهينا، نعنّفه، ننكش أنفينا، نخدش مؤخرتينا كالقرود، نثب أمامه كالمهرجين. لقد فقد المسكين عقله. وراح يجأر. ولحسن الحظ كان الشارع خالياً. وأخيراً لم يعد يحتمل.

فاندفع نحونا، إلا أن قدمه زلت وانزلق في المجاري. رفعناه، وأوقفناه على الرصيف، ثم عدنا إلى ألاعيبنا معه، وأخذنا هذه المرة نغني أنشودة صغيرة استخدمنا فيها اسمه على نحو مخزٍ.

وصلت سيارة الأجرة ودفعناه فيها دفعاً. أعطينا السائق عنواناً مزيفاً في هوبوكين، ولوحنا له مودعين. عندما عدنا شكرنا أصدقاؤه واعتذروا ثانية. «يجب أن يكون مكانه في مستشفى المجانين» قال أحدهم، وطلب جولة من المشروبات وأصرّ على أن يشتري لنا سندويشات من شرائح لحم البقر. «إذا سبب لك أيّ من هؤلاء الرجال من ذوي الأقدام المسطحة مشكلة فاتصل بنا»، قال السياسي الأصلع. وقدم لي بطاقته. ثم اقترح عليّ اسم مهرب للمشروبات الكحولية يمكننا أن نحصل منه على قرض، إذا احتجت إلى ذلك. وتناولنا جولة ثانية وثالثة، ودائماً من أفضل أنواع الويسكي الأسكتلندي، الذي قد يكون بول حصان، لكني لم أكن أعير ذلك أي اهتمام.

بعد مغادرته بفترة وجيزة، انخرط آرثر رايموند في شجار عنيف مع شاب لم أكن قد رأيته من قبل، وأصرّ على أن هذا الشاب قد وجّه إهانة إلى مونا. كان اسم الفتى دافي. بدا شاباً محترماً، وبدت عليه علائم الاكتئاب. «يجب أن يعتذر أمام الجميع»، أردف آرثر رايموند بإصرار. ظن دافي أن هذه نكتة ثقيلة. وأخيراً لم يعد آرثر رايموند يحتمل. استوى واقفاً، ولوى ذراع دافي، ورماه أرضاً. ثم جلس على صدر دافي وأخذ يدق رأسه على الأرض. «هل ستعتذر أم لا؟» راح يكرر ويدق رأس الشاب المسكين بقسوة ودون رحمة. أخيراً غمغم دافي اعتذاراً غليظاً وجذبه آرثر رايموند وجعله يقف على قدميه. ساد صمت مطبق، صمت لم يدخل السرور إلى نفس آرثر رايموند. ارتدى دافي معطفه وقبعته، ثم دفع فاتورته وغادر دون أن ينبس بكلمة. وجلس آرثر رايموند وحده إلى طاولته، خافض الرأس، يبدو مكتئباً وخجولاً. وبعد لحظات قليلة نهض وانسل خارجاً.

ولم يعد إلا بعد بضع ليالي، وآثار سوداء حول عينيه، حيث علمنا أن دافي كان قد انتظره في الخارج وأوسعه ضرباً. والغريب أن آرثر رايموند بدا سعيداً بالضرب الذي تلقاه. وتبين لنا أن صداقة حميمة توطدت بينه وبين دافي بعد المشاجرة. وبتواضعه الزائف المعتاد، أضاف أنه كان في موقع ضعف نوعاً ما، وكان ذلك عهده دائماً عندما كان يصل به الأمر إلى الضرب بالأيدي، لأنه لا يستطيع أن يعطب يديه. على أية حال، كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي ضُرب فيها. وقد أثاره ذلك. وأنهى كلامه بمسحة خادعة: «كلّ شخص يبدو أنه سعيد بذلك. لعلي كنت أستحقها».

«لعلها قد تعلّمك ألّا تحشر أنفك في شؤون الآخرين»، قالت مونا.

لم يحر آرثر رايموند جواباً.

«ومتى ستدفع فاتورتك؟» أضافت.

ولدهشة الجميع، أجاب آرثر رايموند: «كم هو المبلغ؟» وراح يبحث في جيبه وأخرج لفافة من الأوراق النقدية واستل منها المبلغ المستحق.

«لم تتوقعين ذلك، أليس كذلك؟» قال، وهو ينظر حوله مثل ديك صغير. نهض، وتوجه إلى المطبخ، ومحا اسمه من القائمة.

«والآن عندي مفاجأة أخرى لك» قال وطلب أن توزع مشروبات على حسابه. «بعد شهر من الآن سأقدم حفلة موسيقية. باخ، بيتهوفن، موزار، رافائيل، بروكوفيف وسترافينسكي. جميعكم مدعوون لحضور الحفلة ـ على حسابي. فهذه هي آخر مرة أظهر فيها أمام الجمهور، وبعدها سأعمل لصالح الحزب الشيوعي. فلم أعد أبالي بما سيحدث ليديّ. لقد مللت هذا النوع من الحياة. سأعمل شيئاً بناء. نعم يا سيدي!» وضرب بقبضته على الطاولة. «من الآن فصاعداً سأتبرأ منكم جميعاً».

وفي طريقه إلى الخارج استدار وقال: «لا تنسوا الحفلة الموسيقية! سأحجز لكم مقاعد في الصف الأول».

منذ اللحظة التي قال فيها آرثر رايموند ذلك، بدأت الأمور تسير نحو الأسوأ. فقد بدا أن جميع الدائنين هبطوا فوقنا مرة واحدة، لا الدائنون فقط، بل الشرطة والمحامي الذي كلفته مود لجمع النفقة المتأخرة كذلك. وكان ذلك يبدأ في الصباحِ الباكر، عندما يبدأ بائع الثلج بقرع بابنا بقوة ونتظاهر أننا غارقون في النوم أو أننا في الخارج. وبعد الظهر كان يأتي دور البقال، أو أحد مهربي المشروبات الكحولية، الذين كانوا ينقرون على لوح زجاج النافذة الأمامية. وفي المساء كان يأتي موظف الضرائب أو شرطي يرتدي ملابس مدنية على أنه زبون عادي. وأخيراً بدأ المالك يطالبنا بالإيجار، وهدد بجرنا إلى المحكمة إن لم نسدد له الإيجار ليبث الخوف فينا. وكنا في بعض الأحيان، وبعد أن نشعر بالإنهاك، نغلق الحانة ونذهب إلى السينما.

في إحدى الليالي جاء الثلاثي القديم أوسيكي وأوشاوجنيسي وأندروز ترافقهم ثلاث فتيات من فوليز. كان ذلك قبيل منتصف الليل، وكانوا مضيئين مثل البواخر العابرة للمحيطات. كانت واحدة من تلك الليالي التي نلتقي فيها بأصدقائنا الحميمين. وأصرت فتيات الفوليز، اللاتي كن جميلات، رقيقات، على جمع الطاولات إلى بعضها ليتمكنّ من الرقص عليها، ورحن يرقصن حيث يتمكّن من بسط أرجلهن. ولدهشتنا المطلقة لم يتوقف أوسيكي، الذي تخيّل نفسه قوقازياً، عن الدوران. وبالطبع لم يطرأ عليه ذرّة تحسن خلال هذه الفترة. لكنه كان أكثر مرحاً من أي وقت مضى، ولسبب غريب تخيّل نفسه بهلواناً. وبعد أن كُسرت بعض الكراسي، وهُشمت بعض الأواني الفخارية، قرّرنا فجأة أن نذهب جميعنا إلى هارلم.

انحشرنا أنا ومونا، وأوسيكي في سيارة أجرة مع سباد جايسون وصديقته ألاميدا التي كانت تحمل في حضنها كلباً صغيراً أجرب يدعى فيفي. وعندما وصلنا إلى هارلم كان قد بال على الجميع. وأخيرا بالت ألاميدا في سروالها من شدة الإثارة.

وفي مطعم سمول، الذي كان دارجاً في ذلك الحين، احتسينا

الشمبانيا، ورقصنا مع الرواد الملونين وتناولنا شريحة ضخمة من لحم البقر المكسوة بالبصل. وكان الدكتور كرونسكي مع المجموعة، وبدا أنه كان في غاية الاستمتاع. من دفع ثمن كل ذلك لم يكن لدي أدنى فكرة. ربما كان أوسيكي. على كل حال، عدنا إلى البيت قبيل الفجر، وارتمينا على السرير منهكين. وفي اللحظة التي بدأنا نغفو فيها، أخذ ألن كروموويل ينقر على النافذة، متوسلاً أن نسمح له بالدخول. لم نعره أي اهتمام. «أنا، ألن، اسمحا لي بالدخول!» لم يكف عن الصياح. ورفع صوته حتى بدا وكأنه يصرخ. من الواضح أنه كان مخموراً حتى النخاع. وجاء أخيراً شرطي وجذبه بعيداً، وربت عليه بعصاه الليلية بضع نقرات ودية. وظن كرونسكي وأومارا، اللذان كانا نائمين على الطاولات، أن تلك كانت نكتة سمجة. انتاب مونا القلق. على أي حال، ما هي إلا لحظات حتى غططنا جميعنا في نوم عميق كالأموات.

في الأمسية التالية خطرت ببالنا أنا ونيد وأومارا فكرة. وجلسنا في المطبخ ومعنا غيتار، ندمدم ونتكلم بهدوء فيما كانت مونا تجيب على طلبات الزبائن. كانت آنذاك فترة الازدهار في فلوريدا. وقد أثار أومارا، القلق دائماً، الباحث باستمرار عن ضربة تجعله غنياً، فكرة أن نتوجه نحن الثلاثة إلى ميامي. وكان في رأيه أنه يمكننا أن نجمع مبلغاً من المال خلال بضعة أسابيع، ثم نرسل في إثر مونا ونعيش هناك حياة جديدة. وبما أنه لم يكن أحد منّا يملك المال الكافي للاستثمار في العقارات، كان علينا أن نحصل عليه من أولئك الذين جمعوه. وكان علينا أن نعرض خدماتنا كنُدل في المطاعم أو كخدم. بل حتى كنا على استعداد لتلميع الأحذية. أي شيء نبدأ به. فالطقس ما زال جيداً، وسيكون من الأفضل أن نتجه نحو الجنوب.

كان أومارا يعرف دائماً كيف يجعل الطعم جذاباً.

ومن الطبيعي أن مونا لم تكن متحمسة جداً لمشروعنا هذا. وأرغمتني على أن أعدها بأن أخابرها في كلّ ليلة حيثما كنا. فكلّ

ما كنت أحتاج إليه هو أن أضع خمسة بنسات في شق حصالة جهاز التلفون؛ ويمكنني أن أحوّل أجرة المخابرة إلى الشخص الذي أخابره. وعندما تصل فاتورة الهاتف ستغلق الحانة وتلحق بنا.

قررنا أن نرحل بعد بضعة أيام. ولسوء الحظ أرسل لنا المالك قبل يومين من انطلاقنا مذكرة حضور إلى المحكمة. وفي محاولة يائسة حاولت أن أجمع على الأقل جزءاً من المبلغ الذي كنا ندين به له. وفجأة قمت بزيارة ابن أحد أصدقاء أبي الحميمين. كان شاباً رائعاً وحقق عملاً جيداً في أعمال البواخر. لا أعرف لماذا تملكتني رغبة جامحة للاتصال به ـ كان كالتمسك بقشّة. وما أن ذكرت له المال حتى خذلني ببرود. وبلغت به الصفاقة أن يسألني لماذا اخترته من بين الجميع. فهو لم يسبق له أن طلب مني أن أصنع له أيّ معروف، أليس كذلك؟ (وهو أصلاً رجل أعمال عنيد. وبعد بضع سنوات سيصبح رجل أعمال ناجح»). ابتلعت كبريائي وانكفأت على نفسي. وفي النهاية، وبعد أن شعرت بالمهانة ككلب، نجحت في أن انتزع منه عشرة دولارات. وعرضت عليه أنه أكتب له وصلاً بالمبلغ، لكنه رفض هذا هازئاً. وعندما عدت إلى الحانة كنت في غاية التعاسة، محطماً، إلى حد أني كدت أضرم النار في المكان. على أية حال...

كان عصر أحد أيام السبت عندما انطلقت أنا وأومارا إلى ميامي. لقد آن الأوان. فقد كان الهواء مثقلاً بندف الثلج الرطبة الثقيلة ـ أول تساقط للثلوج في هذا الموسم. كانت خطّتنا تتمثل في أن نخرج إلى الطريق السريع، وراء شارع اليزابيث، لنستقل سيارة حتى واشنطن حيث سنلتقي بنيد. ولسبب ما قرر نيد أن يذهب إلى واشنطن بالقطار. وسيأخذ معه الغيتار ـ لرفع معنوياته.

كان الظلام قد بدأ يخيم عندما حُشرنا في سيارة وراء شارع أليزابيث. كان في السيارة خمسة من السود وكانوا ثملين جميعهم. وكنا نتساءل لماذا كانوا بحق الجحيم يقودون بهذه السرعة. وسرعان ما تبين لنا أن السيارة كانت مليئة بالمخدرات وأن

الشرطة الاتحادية كانت في أعقابهم. لم نفهم لماذا توقفوا لنا لنركب معهم. وشعرنا بالارتياح الشديد عندما خففوا من سرعتهم عند أطراف فيلادلفيا وتخلصوا منا.

كان الثلج يهطل بشدة الآن، وكانت تهب عاصفة هوجاء، عاصفة متجمّدة. وكان الظلام حالكاً. سرنا حوالى ميلين، أسناننا تصطك، حتى وصلنا إلى محطة بنزين. ومضت ساعات أخرى قبل أن نجد سيارة أخرى تقلنا، وحتى ويلمنجتون فقط. قررنا أن نمضي الليلة في غودفورساكين.

تذكرت الوعد الذي قطعته على مونا. خابرتها. أبقتني على الخط ما يقرب من خمس عشرة دقيقة، وكان عامل بدالة الهاتف يتدخل بين الحين والآخر ليذكرنا بأن الأجرة تزداد. كانت أحوالها سيئة جداً: إذ كان عليها أن تمثل أمام المحكمة في اليوم التالي.

عندما أغلقت الهاتف انتابني شعور بالندم، إلى درجة أنه خطر لي أن أعود في الصباح.

«هيا»، قال أومارا، «لا تدع هذه الأشياء تحبط همتك. إنك تعرف مونا، ستجد مخرجاً من ذلك».

كنت أعرف ذلك، ومع ذلك لم أشعر بالارتياح.

«لنبدأ بنشاط في وقت مبكر من يوم الغد»، قلت. «يمكننا أن نصل إلى ميامي خلال ثلاثة أيام، إذا حاولنا ذلك».

في منتصف اليوم التالي، ذهبنا لزيارة نيد الذي كان يقيم في فندق حقير لقاء دولار واحد في الليلة.

وكانت غرفته تصلح ديكوراً لقصة «سكن لمدة ليلة» لغوركي. وكانت جميع ألواح زجاج الغرفة مكسورة تقريباً؛ وكان بعضها محشواً بالخرق، وبعضها الآخر بالصحف.

ولم تكن الصنابير تعمل، وكانت على السرير فرشة من القش، تساقطت جميع نوابضه. وكانت أنسجة العنكبوت معلقة في كل مكان.

ورائحة الغبار كثيفة حتى كادت تطبق على أنفاسنا. كان هذا فندقاً «للناس البيض»، في عاصمتنا المجيدة الموقرة.

اشترينا قليلاً من الجبن والنبيذ والسلامي، ورغيف خبز جيد وقليلاً من الزيتون، وانطلقنا عبر الجسر إلى ولاية فرجينيا. عندما عبرنا الخط جلسنا على العشب تحت شجرة مظللة وملأنا بطوننا. ثم تمددنا تحت أشعة الشمس الدافئة، ودخنا سيجارة أو سيجارتين، وغنّينا أغنية، أصبحت فيما بعد نشيداً لنا - عن البحث عن وجه ودّي.

كانت معنوياتنا عالية عندما نهضنا على قوائمنا الخلفية. بدا الجنوب جيداً - دافئاً، رائعاً، مترفاً، واسعاً. كنا في عالم آخر.

إن دخول الجنوب ملهم دائماً. فما أن وصلنا إلى ولاية ميريلاند، وبدأنا نركب القاطرة السريعة حتى أصبح كلّ شيء معتدلاً خفيفاً.

وما أن تصل ولاية فيرجينيا حتى تشعر بأنك أصبحت في عالم جديد، لا شك في ذلك. فالناس هنا مهذبون، لطيفون، يتمتعون بالكرامة وعزة النفس. إنها الولاية التي منحتنا أكثر الرؤساء، أو على الأقل أفضلهم، كانت ولاية عظيمة في يومها. وما زالت في أشكال عديدة.

في الأوقات العديدة التي غادرت فيها نيويورك، لم أكن أبالي بأي اتجاه سأذهب، طالما كان بوسعي أن أضع مسافة بيني وبين المدينة التي أمقتها. وكان ينتهي بي المطاف في أغلب الأحيان إلى ولاية نورث كارولينا أو ولاية تينيسي. وكان عبور فرجينيا كالتدريب على معزوفة من سيمفونية أو رباعية مألوفة. وكنت بين الحين والآخر أتوقّف في مدينة أو بلدة بعض الوقت، وأبحث عن عمل لأني أحببت المكان. بالطبع لم أقبل عملاً. كنت أتسكع بتكاسل لفترة وأحاول أن أتخيّل كيف سيصير حالي لو أمضيت بقية حياتي هناك. وكان الجوع ينتشلني دائماً من أحلام يقظتي هذه...

من واشنطن وصلنا إلى رونوك، ولم يخل ذلك من صعوبة، بما أننا كنّا ثلاثة، فلم يكن هناك الكثير من السائقين المستعدين لحمل ثلاثة متشردين، خاصة وأنهم قادمون من الشمال. في الليل قرّرنا أنه من الأفضل الانفصال. نظرنا إلى الخريطة وقررنا أن نلتقي جميعنا مساء اليوم التالي عند مكتب البريد في شارلوت بولاية نورث كارولينا. ونجحت الخطة. حيث بدأنا نصل إلى وجهتنا الواحد تلو الآخر، وكان قد وصل آخر واحد فينا بعد نصف ساعة من وصول الأول فقط. وهنا غيّرنا خطتنا مرة أخرى، وذلك لأنه تبين لنيد أن بإمكانه الذهاب إلى ميامي مع الرجل الذي أقله في سيارته. وقررنا أن تكون جاكسونفيل محطة لقائنا التالية.

بقيت أنا وأومارا معاً، في حين سافر نيد وحده. وفي صباح اليوم التالي بدأت تهطل أمطار خفيفة، بعد الفجر بقليل، ووقفنا على الطريق السريع خارج شارلوت، ولم يقبل أحد أن يقلنا في سيارته وانتظرنا لمدة ساعة أو أكثر. وبعد أن تملكنا الضجر قرّرنا أن نقف في منتصف الطريق. ونجحت الخطة.

توقفت السيارة القادمة وأصدرت صريراً شديداً.

«ما هي مشكلتكما بحق المسيح؟» صاح السائق.

«ما هي وجهتك؟» صحنا. «جاكسونفيل!».

فُتح الباب وحُشرنا في السيارة. وانطلقت بنا السيارة مرة أخرى تنهب الأرض، بسرعة قياسية. ولم ينبس السائق بكلمة واحدة لعدة دقائق. وعندما فتح فمه قال - «من حظكم أني لم أدهسكم». لم نقل شيئاً. ثم أردف «لم أعرف إن كان عليّ أن أنطلق مسرعاً أم أدهسكم». تبادلنا أنا وأومارا النظرات. سألنا «من أين أنتما؟». «ماذا تعملان؟» فأخبرناه. نظر إلينا متشككاً، ثم قرّر، على ما أظن، أننا نقول الصدق، ثم أخذ يروي لنا بتمهل وامتعاض، كيف أنه قتل صديقاً له عرضاً في حانة بعد مشادة وهو ثمل. فقد هوى على رأسه بزجاجة دفاعاً عن النفس. وقد تملكه الفزع والرعب، فانسل

خارجاً، واندفع إلى سيارته وهرب. وهو يحمل مسدسين في جيبيه وأنه كان على استعداد لاستخدامهما إذ ما حاول أحدهم أن يعترض طريقه. وقال «لقد نجا بأعجوبة».

وبعد قليل قال إنه متجه إلى تامبا، حيث يمكنه أن يختفي بأمان لفترة من الوقت. على الأقل كان يظن أن بوسعه ذلك. قال: «قد أعود وأقبل مصيري. يجب أن أستجمع نفسي أولاً». وأخذ يكرر مراراً: «لم يكن الخطأ خطئي، لم أكن أنوي أن أقتله». وفي إحدى المرات انهار وراح يبكي كطفل.

عندما توقفنا لتناول طعام الغداء أصرّ على أن يدفع الحساب. ودفع عنا ثمن العشاء أيضاً. وفي ماكون (جورجيا) أخذنا غرفة بسريرين، دفع أجرتها أيضاً. وفي الطرف الآخر من الصالة العريضة كانت تجلس عاهرة على كرسي هزاز تحت ضوء أحمر. وفيما كنا نخلع ثيابنا وضع صديقنا مسدسيه في الخزانة، مع محفظته، وقال بهدوء إن من سيصل إليها أولاً سيكون محظوظاً.

عدنا وانطلقنا في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي. وكان من المفروض أن يتوجه صديقنا مباشرة إلى تامبا لكنه لم يفعل ذلك، فقد أصرّ على أن يوصلنا أولاً إلى جاكسونفيل. ليس ذلك فقط، بل كان علينا أن نقبل منه ورقة بعشرة دولارات «لجلب الحظ السعيد».

تمنينا له حظاً سعيداً ورحنا نراقبه وهو ينطلق مرة أخرى، متسائلين كم سيستغرق الأمر قبل أن يطاله القانون. كان شاباً بسيطاً، مستقيماً، طيب القلب، وكان يعمل ميكانيكياً. أحد أولئك الذين يقول عنهم الناس «إنه لا يمكن أن يؤذي ذبابة».

وكنا في الواقع محظوظين بلقاء هذا الشاب. فبالإضافة إلى الدولارات العشرة التي قدمها لنا، كان معنا أربعة دولارات. وكان مع نيد معظم المبلغ ونسي أن يقسمّه بيننا. حسناً، توجهنا إلى مكتب البريد، كما اتفقنا. وكما كان متوقعاً كان نيد بانتظارنا. كان ينتظرنا هناك منذ حوالى ساعتين أو أكثر. إذ أوصله الرجل الذي

أقله في سيارته إلى شارلوت مباشرة، والأغرب من ذلك أنه دفع عنه ثمن وجبات طعامه أيضاً وجعله يقيم معه في الغرفة ذاتها.

بشكل عام كانت الأمور تسير على ما يرام. أما الشيء التالي فكان أن نجرب حظنا.

لم يستغرق الأمر طويلاً قبل أن نتبين حقيقة الوضع. فقد كانت جاكسونفيل ممتلئة حتى الاختناق بالفقراء البائسين من أمثالنا، كلهم عادوا من الريف المزدهر. ولو كنا نتمتع بذرة إحساس لاستدرنا على الفور وعدنا أدراجنا، لكن الكبرياء جعلنا نصمم على البقاء هنا لفترة من الوقت. «لابد أن يكون هناك شيء يمكننا أن نفعله»، كان أحدنا يقول للآخر. لكن لم يكن هناك ثمة شيء نفعله فقط، بل لم يكن هناك حتى مكان للنوم. فكنا نتسكع في النهار بالقرب من رابطة الشبان المسيحيين التي كانت تشبه ملجأ من ملاجئ جيش الخلاص. ولم يبذل أحد منا أيّ جهد لإيجاد عمل. وكنا جميعنا ننتظر رسالة أو برقية من الأهل في المدينة. كنا في انتظار تذكرة قطار، أو حوالة مالية، أو مجرد ورقة من فئة الدولار. واستمر الحال على هذا المنوال لأيام عديدة. وكنا ننام في الحديقة (حتى ألقت الشرطة القبض علينا)، أو على أرضية السجن، برفقة مائة جسد قذر أو أكثر متلفعين بالجرائد، البعض يتقيّأ، والبعض يتغوط في سرواله. وكنا بين الحين والآخر، في محاولة منا لاستحداث عمل، نتسكع نحو قرية مجاورة ونحاول أن نختلق عملاً لنتدبر طعامنا على الأقل. وفي إحدى تلك الغزوات، كنا لم نذق طعاماً منذ ستة وثلاثين ساعة، وكنا قد مشينا مسافة ثمانية أميال إلى مكان العمل الأسطوري، وكان يتعين علينا أن نعود سيراً على الأقدام مرة أخرى على بطون فارغة، سيقاننا تصرّ صراً، أحشاؤنا تقرقع، متعبون لاهثون كالكلاب، مرهقون يغمرنا الشعور بالغم والكآبة، نغذ السير كالهنود، في رتل أحادي، واحداً في إثر الآخر، رؤوسنا منحنية، ألسنتنا مدلاة. في تلك الليلة حاولنا أن نقتحم جيش

الخلاص. لا فائدة من ذلك. فعلى المرء أن يدفع مبلغ ربع دولار ليسمحوا له بالنوم على الأرض. وفي المرحاض بدأت أحشائي تتلاشى. كان الألم فظيعاً بحيث تكوّرت وترنّحت وتهاويت. واضطر نيد وأومارا إلى حملي إلى خارج المكان. وتوجهنا إلى باحات سكة الحديد حيث كانت قطارات الشحن محمّلة بالفواكه المتعفنة المتجهة شمالاً. وهناك صادفنا شرطياً أبعدنا عن القطارات وفوهة مسدسه مصوبة إلى ظهورنا. حتى أنه لم يسمح لنا بأن نجمع بضع برتقالات متعفنة كانت متناثرة على الأرض. «عُدْ من حيث أتيت!»، كانت الصيحة المعهودة.

وبضربة حظّ كبيرة في اليوم التالي صادف نيد شاباً غريب الأطوار يدعى فليتشير كان يعرفه عندما كان يعمل في الإعلانات في نيويورك. وكان الرجل فناناً في مجال الإعلانات التجارية، ولديه ستوديو، كما كان يطلق عليه. ورغم أنه كان معدماً تماماً، فقد وعدنا بأن يقدم لنا وجبة طعام في ذلك المساء. وعلمنا أنه سيحتفل بالذكرى الفضية لزواجه، وخروج زوجته من مسشفى المجانين.

«لن يكون الاحتفال مرحاً جداً»، قال لنيد، «لكننا سنجعله بهيجاً بقدر ما نستطيع. إنها امرأة حلوة، غير مؤذية أبداً. وهي على هذه الحال منذ خمس عشرة سنة».

كان يوماً من أطول الأيام التي مرت عليّ في حياتي، وأنا أنتظر الوجبة الموعودة. اضطجعت طوال اليوم لكي احتفظ بكامل طاقاتي. في حين أمضى معظم الأصدقاء الوقت وهم يلعبون الورق أو لعبة الضامة - إذ كان النرد محرماً. أخذت أقرأ الصحف، مجلات كريستشيان ساينس، وكلّ النفايات الأخرى الملقاة هنا وهناك. ولو اندلعت ثورة في نيويورك في ذلك الوقت لما كانت ستثيرني أدنى إثارة. إذ لم يكن يدور في خاطري سوى فكرة واحدة وهي الطعام!

في اللحظة التي وقع نظري فيها على فليتشير المسكين،

أحسست بتعاطف شديد تجاهه. كان رجلاً يقارب السبعين من العمر، عيناه الزرقاوان دامعتان وكان له شارب كبير. وكان يعلّق على الجدران تصاوير عن أعماله ـ من الأيام الخوالي ـ عندما كان يتلقى أجراً كبيراً ليرسم مهوراً ورعاة بقر لأغلفة المجلة. وكان راتبه التقاعدي الضئيل يساعده في تدبير أموره ليعيش حياة كفاف. وكان يعيش على أمل أن يحصل على عمولة دسمة ذات يوم. من حين لآخر يرسم رسوماً صغيرة للتجار، أيّ شيء يمكن أن يجلب له حفنة بنسات. وكان مغتبطاً لأن يعيش في الجنوب حيث الأيام دافئة على الأقل.

ولمفاجأتنا أحضر زجاجتين ـ واحدة ممتلئ نصفها بمشروب الجين، وتحتوي الأخرى على مقدار إصبع من مشروب الشوفان. وبإضافة الليمون، وبعض قشور البرتقال وكمية كبيرة من الماء، جعلنا الكمية تكفينا عدة جولات. وكانت زوجته في هذه الأثناء تستريح في الغرفة المجاورة. قال فليتشير إنه سيطلب منها أن تخرج حينما يحين وقت تناول الطعام. «إنها لا تهتم بذلك» قال، «فلها عالمها وإيقاعها. وهي لم تعد تتذكرني، لذلك لا تندهشوا لما ستقوله. وهي في العادة هادئة جداً ـ ومرحة نوعاً ما، كما سترون».

ثم بدأ يُعدّ المائدة. كانت الصحون مكسورة ومثلّمة، وبالطبع لم يكن يوجد صحن يماثل الصحن الآخر، وكانت الشوَك والسكاكين من الصفيح. وضع «الغطاء» على الطاولة، ووضع وسط الطاولة زبدية ضخمة من الزهور، وقال معتذراً: «ستكون وجبة خفيفة باردة، لكنها قد تساعد في إسكات عواء الذئب». ووضع صحناً من سلطة البطاطا، وقليلاً من الجبن، وصحناً من السجق بالكبد، مع رغيف من الخبز الأبيض وقليل من الزبدة النباتية. وكان هناك بضع تفاحات وقليل من البندق. لم تكن هناك برتقالة واحدة. وبعد أن وضع كوباً من الماء أمام كلّ شخص، وضع وعاء القهوة لتسخينها.

«أظن أننا أصبحنا الآن جاهزين تقريباً»، قال وتطلع نحو الغرفة الأخرى. «أرجوكم انتظروا لحظة وسأحضر لورا».

وقفنا نحن الثلاثة صامتين، فيما رحنا ننتظرهما ليخرجا من الغرفة المجاورة. كنا نسمعه يوقظها من نومها؛ كان يتكلم معها بهدوء، بلطف، وهو يساعدها على الوقوف على قدميها.

«حسنا»، قال، وابتسامة بائسة ترتسم على وجهه عبر دموعه، وهو يقودها إلى المائدة، «ها نحن أخيراً. لورا، هؤلاء هم أصدقائي، وأصدقاؤك أيضاً. سيشاركوننا الطعام ـ أليس هذا شيئاً جميلاً؟».

اقتربنا منها تباعاً، صافحناها أولاً، ثم صافحناه. وقد اغرورقت أعيننا بالدموع، فيما رفعنا أكواب الماء لنشرب نخب ذكرى زواجهما الخامس والعشرين.

«حسناً، هذا يشبه الأيام الماضية»، قال فليتشير، ونظر أولاً إلى زوجته المجنونة المسكينة، ثم نظر إلينا.

«هل تتذكرين يا لورا، ذلك الأستوديو القديم المضحك الذي كان عندي في حي الفيليج منذ سنوات؟».

«لم نكن أغنياء جداً آنذاك، أليس كذلك؟» ثم توجه إلينا في حديثه وقال: «لن أتلو الدعاء، رغم أني أوّد أن أفعل ذلك الليلة. لقد نسيت هذه العادة. لكني أودّ أن أخبركم كم أشعر بالامتنان لأنكم تشاركوننا هذا الاحتفال الصغير. قد يكون احتفالاً حزيناً جداً، وحدنا نحن الاثنين فقط». ثم التفت إلى زوجته وقال: «لورا، إنك ماتزالين جميلة، هل تعرفين ذلك؟». ولمسها تحت ذقنها. رفعت لورا عينيها بحزن وارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة. «أترون؟»، صاح. «آه نعم، كانت لورا حسناء نيويورك في الماضي. أليس كذلك يا لورا؟».

لم يستغرق الأمر طويلاً حتى بدأنا نحرث في أصناف الطعام حرثاً، حتى التفاح والبندق والقطع القليلة من البسكويت الفاسد التي عثر عليها فليتشير بالمصادفة عندما كان يبحث عن الحليب المعلّب. وعند الكأس الثاني من الجافا، أخرج نيد الغيتار ورحنا نغني، وكذلك لورا. غنينا أغاني بسيطة، مثل «أوه سوزانا»، و «ضفدع أمريكي جالس على خط سكة الحديد»، و «آني لوري»، و «جو الأسود المسن»... وبغتة نهض فليتشير وقال إنه سيغنّي «ديكسي»، وغناها بشكل رائع، اختتمها بصرخة ثائرة مرعبة. وطلبت منه لورا، التي كانت في غاية السرور من أدائه أن يغنّي لحناً آخر. فنهض ثانية وغنّى «مسافر آركنساس»، توجناها برقصة صغيرة. يا إلهي، كنا حقاً نشعر بالبهجة. كان أمراً مثيراً للشفقة.

بعد قليل عضني الجوع ثانية. سألت إن كان قد تبقى فتات من الخبز البائت. قلت «يمكننا أن نصنع منه فطائر فرنسية».

فتّشنا في كل مكان، لكننا لم نجد ولا كسرة خبز واحدة. وأخيراً وجدنا كسرة خبز يعلوها العفن وبعد أن غمسناها في القهوة، حصلنا على دفعة جديدة من الطاقة.

ولولا النظرة التي تنم عن خواء العقل لما خطر ببال أحد أن لورا مجنونة. فقد غنّت بحماس، واستجابت لمزاحنا ودعاباتنا، وتناولت طعامها بتلذذ وشهية. إلا أنها بعد قليل غفت كطفل. حملناها إلى غرفة النوم ووضعناها على السرير. وانحنى فليتشير فوقها وطبع قبلة على حاجبها.

قال: «لو انتظرتم يا شباب بضع دقائق، فأظن أنه يمكنني أن أعثر على قليل من الجِن. سأرى إن كان لدى جاري قليل منه».

وبعد بضع دقائق عاد وهو يحمل نصف زجاجة من نبيذ البوربون. وأحضر أيضاً قليلاً من الكاتو. وضعنا قدراً آخر من القهوة، صببنا البوربون، وبدأنا ندردش. وكنا بين الحين والآخر

نرمي حطبة صغيرة في الموقد المكوّر القديم. كانت أول أمسية بهيجة مرحة نمضيها في جاكسونفيل.

«كنت في المأزق نفسه عندما أتيت إلى هنا»، قال فليتشير. «ولكي يتعرف المرء على الأشياء فإنه يحتاج إلى بعض الوقت... نيد، لماذا لا تذهب إلى مكتب الصحيفة. عندي صديق هناك، إنه أحد المحررين. ربما تمكن من تدبير شيء لك».

«لكني لست كاتباً»، قال نيد.

«تباً، هنري سيكتب لك المقالات» قال أومارا.

«لماذا لا تذهبان أنتما الاثنان؟» قال فليتشير.

شعرنا بغبطة شديدة لفكرة أننا قد نحصل على عمل، بحيث قمنا جميعنا ورحنا نرقص وسط الغرفة.

«لنشرب نخب البحث عن وجه ودّي،» قال فليتشير. رحنا ندمدم ونغني ثانية، بصوت خفيض لكي لا نزعج لورا.

قال فليتشير: «لا تقلقوا عليها. إنها نائمة مثل ملاك. في الحقيقة إنها ملاك. أظن بكل صدق أنها لهذا السبب لم تتمكن من أن تتواءم مع عالمنا. أحياناً ينتابني إحساس أنها لنعمة أن تبقى هكذا».

أرانا بعض أعماله التي كان يضعها في صناديق كبيرة. لم تكن سيئة على الإطلاق. على الأقل كان رساماً جيداً. وقد قام بزيارة أوروبا كلها في شبابه ـ باريس، ميونيخ، روما، براغ، بودابست، برلين. بل إنه فاز ببضع جوائز.

«لو كنت سأعيش حياتي مرة أخرى»، قال، «فلن أعمل شيئاً على الإطلاق. لن أتوقف عن التجوال حول العالم. لماذا لا تذهبون غرباً؟ مايزال هناك مجال واسع في ذلك الجزء من العالم».

في تلك الليلة نمنا على أرضية ستوديو فليتشير. وفي صباح اليوم التالي توجهنا أنا ونيد لزيارة الصحافي. وبعد بضع كلمات

استُبعدت من الوظيفة. غير أن نيد مُنح فرصة كتابة سلسلة من المقالات. ومن الطبيعي أنني من سيقوم بهذا العمل القذر.

كان كل ما توجب علينا عمله هو أن نشدّ أحزمتنا على بطوننا حتى يحين يوم قبض الأجر، وكان بعد أسبوعين فقط.

في ذلك اليوم اصطحبني أومارا إلى بيت قسيس إيرلندي كان قد أعطاه أحدهم عنوانه. واستقبلتنا الأخت التي فتحت لنا الباب ببرود. ثم رأينا أبانا الطيب يخرج سيارته الباكارد من المرآب. أخذ أومارا يتوسل إليه. ولكي يشجعه تلقى هبة كثيفة من الدخان من سيجار أبينا الهافانا. «ابتعد عن طريقي ولا تعكر صفوي!» كان ذلك كلّ ما تنازل الأب هوليهان وقاله لنا.

في ذلك المساء رحت أتسكع وحيداً. مررت بالقرب من معبد يهودي كبير سمعت أصوات الجوقة الموسيقية تتعالى منه. كانت صلاة بالعبرية وبدت لي جذابة. دخلت وجلست في المقاعد الخلفية. وما أن انتهت الصلاة حتى تقدمت من الحاخام. «أيها الحاخام»، قلت «إني في حالة سيئة...» لكنّه بدا شخصاً جدياً مقطباً، مجرداً تماماً من حسن الخلق. رويت له حكايتي في بضع كلمات، وأنهيت كلامي متوسلاً إليه أن يقدم لنا شيئاً من الطعام، أو بطاقات تموينية، ومكاناً للإقامة، إذا كان بوسعه ذلك. ولم أجرؤ على أن أذكر له أننا كنّا ثلاثة.

«لكنك لست يهودياً، أليس كذلك؟»، قال الحاخام. وأخذ يحدق فيّ وكأنه لا يستطيع أن يفهمني بشكل واضح.

«لا، لكني جائع. وما الفرق إن كنت مهما كنت؟»

«لماذا لا تجرب الكنائس المسيحية؟»

«لقد جربت» أجبت. «بالإضافة إلى ذلك، فأنا لست مسيحياً كذلك. إني مجرّد إنسان غير يهودي».

بتذمر كتب بضع كلمات على قصاصة من الورق، وطلب مني أن أقدّم هذه الرسالة إلى الشخص المسؤول في جمعية جيش الخلاص. توجهت إلى هناك في الحال، لكنهم قالوا لي إنه لا توجد لديهم غرفة.

«هل يمكنك أن تقدم لي شيئاً أتناوله؟» قلت مستجدياً.

قال لي إن غرفة الطعام قد أُغلقت منذ ساعات.

«سآكل أيّ شيء»، قلت، متمسكاً بالرجل الجالس إلى طاولة المكتب. «ألا توجد لديكم برتقالة متعفّنة أو موزة متعفّنة؟».

نظر إليّ بغرابة. لم يرمش له جفن.

«هلّ يمكنك أن تعطيني عشرة سنتات؟» قلت متوسلاً. وبقرف فتش في جيبه ورمى لي عشرة سنتات.

«اذهب من هنا الآن!»، قال «أنتم معشر المتسكعين تنتمون إلى الشمال من حيث أتيتم».

استدرت وانصرفت دون أن أنبس بكلمة. وفي الشارع الرئيسي رأيت شاباً لطيفاً يبيع الصحف. شيء ما فيه شجّعني على مخاطبته.

«مرحباً»، قلت، «كيف تسير الأمور؟».

«ليست سيئة جداً، يا صديقي. من أين أنت ـ نيويورك؟».

«نعم، وأنت؟».

«من مدينة جيرزي».

تصافحنا.

وما هي إلا دقائق قليلة حتى أخذت أبيع الصحف القليلة التي أعطاني إياها. استغرق بيعها كلها ما يقرب من الساعة. لكني كسبت بضعة بنسات. هرعت عائداً إلى البيت، ووجدت أومارا غافياً وراء صحيفة جالساً في أريكة كبيرة.

«دعنا نذهب ونأكل»، قلت، وبدأت أهزّه بقوة.

«نعم»، أجاب ساخراً، «دعنا نذهب إلى محل ديلمونيكو».

«لا، بجد»، قلت. «لقد كسبت بضع سنتات، تكفينا لشراء قهوة وقليل من الكاتو. هيا».

هبّ واقفاً على الفور. وفيما كنا نحث الخطى رويت له بسرعة ما حدث.

«لنبحث عن هذا الرجل»، قال، «إنه يبدو صديقاً. من مدينة جيرزي، إيه؟ عظيم!».

كان اسم بائع الصحف موني. ووافق على أن يشاركنا طعامنا.

«يمكنكما أن تناما في غرفتي»، قال موني «عندي أريكة إضافية. إنها أفضل من النوم في السجن».

وقبيل ظهر اليوم التالي، أخذنا بنصيحته وذهبنا إلى مؤخّرة مكتب الصحيفة لنحصل على حزمة من الصحف. وبالطبع أقرضنا صديقنا موني المال لشراء الصحف. كان هناك حوالى خمسين طفلاً متجمعين، كل واحد منهم يحاول أن يحصل على حزمته أولاً. كان عليّ أن أنحني من طرف النافذة وأسحبها إلى الخارج من خلال القضبان الحديدية. فجأة أحسست بشخص يزحف فوق ظهري. كان صغيراً أسود، يحاول الوصول إلى حزمة الصحف من فوق رأسي. ألقيته عن ظهري فراح يزحف بين ساقيّ. أخذ جميع الأولاد يضحكون ويصرخون. سخرت من نفسي. على أية حال، سرعان ماأخذنا الصحف، ورحنا نجوب الشارع الرئيسي. كان أصعب شيء في العالم بالنسبة لي أن فتح فمي وأصرخ. حاولت أن أدفع الصحف في وجه المارة. لكن لم تنجح هذه الطريقة.

كنت أقف هناك، وقد ارتسمت على وجهي علامات الحنق، كما أظن، عندما جاء موني.

«هذه ليست طريقة لبيع الصحف» قال، «هيا، راقبني!» وبسرعة استدار، وأخذ يلوح بالصحيفة ويصرخ «إكسترا! إكسترا! كلّ شيء عن البرووووووو سيس...» تساءلت ما هي تلك الأخبار العظيمة، لم

أتمكن من التقاط الكلمة المهمة في نهاية العبارة التي كان يقولها. نظرت إلى الصفحة الأولى لأرى ما هو العنوان البارز. لم يكن هناك عنوان بارز. لم تكن توجد أية أخبار في الحقيقة.

«اصرخ أيّ شيء»، قال موني، «لكن اهتف من أعلى رئتيك! ولا تقف في بقعة واحدة. لا تتوقف عن الحركة! يجب أن تعجّل إذا أردت أن تتخلص منها قبل ظهور الطبعة التالية».

بذلت ما بوسعي. رحت أذرع الشارع الرئيسي ذهاباً وإياباً بسرعة، ثم أغوص في الشوارع الفرعية. وسرعان ما وجدت نفسي في الحديقة. لم أكن قد بعت سوى ثلاث أو أربع صحف. وضعت الحزمة على الأرض وجلست على أحد المقاعد ورحت أراقب البطات العائمة في البركة. وكان جميع العاجزين والناقهين يتشمسون. بدت الحديقة مثل أماكن الاستجمام التابعة لبيت المحاربين القدماء. طلب رجل غريب الأطوار يجلس بجانبي أن يستعير صحيفة للإطلاع على حالة الطقس. انتظرت بخمول وبمنتهى السعادة فيما راح يقرأ الصحيفة من الصفحة الأمامية حتى الصفحة الأخيرة. عندما أعادها إليّ حاولت أن أطويها بعناية لكي لا تبدوا أنها قد استخدمت.

في طريقي إلى خارج الحديقة، أوقفني شرطي لشراء صحيفة. كاد أن يثير أعصابي.

حين صدرت الطبعة التالية، كنت قد بعت سبع صحف بالتمام والكمال. بحثت عن أومارا. كان قد عمل أفضل مني بقليل، لكن لايوجد شيء يمكن التفاخر به.

قال: «سيخيب أمل موني».

«أعرف ذلك. أظن أننا لم نخلق لبيع الصحف. إنه عمل للأولاد أو لشخص من أمثال موني».

«لقد قلتها يا هنري».

احتسينا قهوة وتناولنا قطعة من الكاتو مرة أخرى. أفضل من لا شيء. كان طعاماً، وهذا كل ما كنا نحتاج إليه. كلّ ذلك الجري جيئة وذهاباً، وأنت تحمل حزمة ثقيلة، يمنح المرء شهية عارمة. تساءلت كم سأتمكن من تحمل ذلك.

في وقت لاحق من اليوم صادفنا موني مرة أخرى. اعتذرنا لعدم تمكننا من القيام بأفضل من ذلك.

«انس الموضوع»، قال، «اسمع، دعني أقرضك خمسة دولارات. ابحث عن شيء أفضل. إنك لم تخلق لمثل هذا النوع من العمل. سأراك الليلة عند نضد تقديم طعام الغداء. حسناً؟» وانطلق مسرعاً، ملوحاً بيده بغبطة.

«إنه شاب ممتاز حقاً»، قال أومارا. «الآن يا إلهي يجب علينا حقاً أن نفعل شيئاً. هيا للنطلق!».

انطلقنا مباشرة، دون أن يكون لأحد منا أدنى فكرة عما نبحث أو كيف نجد ما نبحث عنه. بعد عدة شوارع صادفنا رجلاً تبدو عليه أمارات السعادة وحاول أن يتسوّل عشرة سنتات.

كان عاملاً في منجم فحم من بنسلفانيا. في ورطة مثلنا. وخلال تناولنا كوباً من القهوة وقطعة كاتو أخذنا نتبادل الآراء.

قال: «دعونا نذهب إلى منطقة الليالي الحمراء هذه الليلة. إنهم يرحبون بك دائماً إذا كان بإمكانك أن تدفع ثمن كأس من الشراب. لا يتعين عليكم الصعود إلى الغرف في الطابق العلوي مع الفتيات. على أية حال، إنه مكان مريح ودافئ ـ ويمكنكم الاستماع إلى شيء من الموسيقى. يا له من مشهد رائع، أفضل من الجلوس هنا في المشرحة».

في ذلك المساء، وبعد احتساء بضع كؤوس، سألنا إن كنا قد تعرضنا للهداية.

«الهداية؟» تساءلنا ما كان يعني بذلك.

شرح الأمر لنا. يبدو أنه يوجد دائماً قليل من الرجال الذين

يتسكعون حول «المشرحة» والمتلهفون لتنصير أشخاص وضمهم إلى الكنيسة. حتى المورمون يبحثون عن أشخاص يسعون لهدايتهم. وقال لاضير في أن تتظاهرا بأنكما تستمعان ببراءة وبأنكما مهتمان. «فإذا ظن الأحمق أنه تمكن منكما ووقعتما في شباكه يمكنكما أن تكسبا منه وجبة طعام بسهولة. جربا هذه الطريقة ذات مرة. فقد أصبحوا يعرفونني ـ لم أعد أستطيع أن أفعل ذلك بعد الآن».

ظللنا في الماخور بقدر ما بوسعنا. وكانت بين الحين والآخر تظهر فتاة جديدة، تحاول التقرب منا وإغواءنا، ثم تستسلم.

«إنها ليست جنة بالنسبة لهن»، قال صديقنا، «فولوج الشق بدولار، ويحصل الماخور على نسبة كبيرة منه. ومع ذلك فلا يبدو أن بعضهن سيئات إلى هذه الدرجة، أليس كذلك؟».

تمعنّا فيهنّ. مجموعة تثير الشفقة، يلُحْنَ أكثر إثارة للشفقة من العاملات في جمعية جيش الخلاص. فكلّهن يمضغن علكة، يهمهمن، يصفّرن، يحاولن أن يبدين جذابات. ولاحظت أن واحدة منهن أو اثنتين، كانتا تتثاءبان دائماً، وتفركان عيونهما المغبشة.

«على الأقل إنهن يأكلن بانتظام»، قال أومارا.

«نعم، يوجد في ذلك شيء من الصحة»، قال صديقنا. «أنا نفسي أفضّل أن أبقى جائعاً».

«لا أعرف»، قلت. «كان عليّ أن أختار... لو كنت امرأة... لست متأكّداً، لكني كنت سأفعل ذلك. على الأقل حتى أسمن قليلاً».

«أتظن ذلك»، قال صديقنا، «لكنك مخطئ. إنك لا تسمن من هذا العمل، دعني أخبرك هذا».

«وماذا تلك؟» قال أومارا، مشيراً إلى طنّ من شحم الخنزير.

«لقد ولدت بدينة، أي إنسان يمكنه أن يرى ذلك. بالإضافة إلى ذلك، فهي فنانة تعاقر الخمر».

في تلك الليلة، وفي طريق العودة إلى اللا مكان، بدأت أتساءل عن مونا. فلم أستلم منها سوى رسالة صغيرة واحدة منذ وصولنا. صحيح فهي لا تحب كثيراً كتابة الرسائل. كما لم تكن واضحة كثيراً عن أيّ شيء. وكلّ ما تمكنت من فهمه من رسالتها أنها قد تتعرض للطرد من المنزل في أيّ يوم. وماذا بعد ذلك؟ تساءلت.

في اليوم التالي رحت أتسكع حول «واي» معظم اليوم، وتمنيت، بل أخذت أدعو ربي أن يبادرني أحدهم ويحاول هدايتي. فقد كنت على أهبة الاستعداد لأن أصبح أيّ شيء، وحتى أصبح من أتباع الكنيسة المورمونية. لكن لم يقترب مني أحد. وقبيل المساء خطرت ببالي فكرة. فكرة بسيطة ومثيرة، بحيث تساءلت لماذا لم تطرأ لي من قبل. على أية حال، يجب على المرء أن يصل إلى مرحلة من اليأس حقاً حتى يفكّر بمثل هذه الحلول البسيطة.

ما هي هذه الفكرة الذكية؟ أن أتنقل من محل إلى آخر أطلب الطعام الذي سيرمونه في صفائح الزبالة: خبز بائت، فاكهة فاسدة، حليب حامض... ولم أدرك أبداً في ذلك الوقت كيف كانت خطّتي هذه تشبه الطريقة التي يستجدي فيها القديس فرانسيس. ولم يكن يطلب هو أيضاً سوى الطعام غير المناسب للأكل. وبالطبع كان الفرق، أنه يؤدي مهمّة ما. أما أنا فكنت أحاول أن أسد رمقي فقط. الفرق كبير!

ورغم ذلك كان لهذا مفعول السحر. إذ سلك أومارا جانباً من الشارع، وأخذت أنا الجانب الآخر. وعندما كنا نلتقي في نهاية الشارع تكون أيدينا ممتلئة. هرعنا إلى منزل فليتشير، عثرنا على نيد، وبدأنا نستعد للوليمة.

الحقيقة أن الفتات والنفايات التي جمعناها لم تكن كريهة. فقد تناولنا جميعنا لحماً فاسداً من قبل، دون قصد بالطبع؛ ولم تكن

الخضار التي جمعناها تحتاج إلا إلى التشذيب؛ وبالإمكان إعداد خبز محمص رائع من الخبز البائت؛ وكان الحليب الحامض يضفي نكهة لذيذة على الفاكهة الشديدة النضج.

وكان من شأن حمال صيني أن يعتبر طعامنا طعاماً فاخراً. وكلّ ما ينقصنا هو قليل من النبيذ لنسلّك الجبن الفاسد. لكن كانت هناك قهوة وقليل من مسحوق الحليب. كنا في غاية السعادة. التهمنا الطعام كالذئاب النهمة.

«من السيء أنه لم يخطر ببالنا أن ندعو موني»، قال أومارا.

«من هو موني؟» سأل نيد.

شرحنا له الأمر. استمع نيد فاغر الفم.

«يا إلهي يا هنري»، قال، «لا أستطيع أن أفهم. فأنا جالس في المكتب الأمامي في الطابق العلوي طوال الوقت. أبيع مقالاتك باسمي وأنتما تبيعان الصحف! يجب أن أخبر أولريك بذلك... بالمناسبة، هل رأيت المقالة التي كتبتها؟ إنهم يظنون أنها رائعة، هل قلت لك ذلك؟».

لقد نسيت موضوع المقالات. فربّما أكون قد قرأتها خلال فترات الغيبوبة في «المشرحة» ولم أدرك أبداً أني أنا الذي كتبتها.

«هنري»، قال فليتشير، «يجب أن تعود إلى نيويورك. لا ضير في أن يضيّع هذان الفتيان وقتهما، أما أنت فلا. أظن أنك خلقت لشيء أكبر من ذلك».

تضرج وجهي خجلاً، وحاولت أن أتجاوز الأمر.

«هيا»، قال فليتشير، «لا تكن متواضعاً جداً. إنك تتمتع بمواهب، أي إنسان يمكنه أن يرى ذلك. لا أعرف ماذا ستصبح - قديساً، شاعراً، أو فيلسوفاً. لكنك فنان، هذا أمر مؤكّد. والأكثر من ذلك، فإنك نقي. لديك طريقة في نسيان نفسك تجعلني أفهم منها الشيء الكثير عنك».

صفّق نيد، الذي مايزال يشعر بالذنب، لكلام فليتشير بحرارة وقال: «حالما أقبض الشيك يا هنري، سأعطيك أجرة القطار لتعود إلى نيويورك. هذا أقل ما أستطيع أن أفعله. سنبقى أنا وأومارا هنا. إيه، يا نيد؟».

«أنت شخص مخضرم: إذ إنك تستجدي وتتسكع منذ أن كنت في العاشرة من عمرك».

ارتسمت على وجه أومارا ابتسامة عريضة. فقد ارتفعت معنوياته الآن بعد أن وجد طريقة يحصل فيها على الطعام.

بالإضافة إلى ذلك، كان هناك موني، الذي أحببته. كان واثقاً من أنهما يستطيعان أن يبتدعا شيئاً.

«لكن من سيكتب المقالات للصحيفة؟».

«لقد تدبرت ذلك»، قال نيد. «إنهم سيجعلونني مصمماً للصحيفة في الأسبوع القادم. هذا أصبح في حكم المؤكد. وهناك فرصة بأن أجمع شيئاً من المال قريباً».

«لعلك ستتمكن من أن ترمي لي شيئاً»، قال فليتشير.

«فكّرت في هذا أيضاً»، قال نيد. «إذا تمكن تيد من حل مشكلة الطعام فسأضطلع أنا بالباقي. لم يبق سوى عدة أيام حتى يأتي يوم قبض المرتبات».

مرة أخرى نمنا في بيت فليتشير. أرقت طوال الليلة، لا لأن الأرضية كانت صلبة، بل بسبب مونا. الآن وبعد أن أتيحت لي فرصة للعودة، فلن أتمكن من العودة بسرعة. وأعملت فكري طوال الليل لإيجاد مخرج سريع. وقبيل الفجر خطر لي أنه قد يرسل لي أبي جزءاً من أجرة القطار على الأقل. فلو تمكنت من الوصول حتى ريتشموند فسيكون ذلك شيئاً جيداً.

في الصباح الباكر توجهت إلى مكتب التلغراف لأرسل برقية

لأبي. وفي المساء، وصلت النقود ـ لرحلة كاملة. استدنت خمسة دولارات أخرى من موني، لكي آكل، وفي ذلك المساء بالذات انطلقت.

في اللحظة التي ركبت فيها القطار، شعرت بانتعاش كبير. وقبل مضي نصف ساعة نسيت جاكسونفيل تماماً. يا لها من متعة وترف شديدين أن تغفو وأنت جالس على مقعد منجّد! والشيء الغريب هو أني وجدت نفسي وقد عدت للكتابة ـ في رأسي. نعم، تملكتني رغبة جامحة في أن أصل إلى الآلة الكاتبة. بدا لي أني كتبت آخر سطر منذ قرن من الزمن... تساءلت بغموض، حالماً، أين سأجد مونا، ماذا سنفعل بعد ذلك، أين سنعيش، وما إلى هنالك. لم يكن ثمة شيء هام إلى هذه الدرجة. ما أروع أن أكون جالساً مستريحاً في تلك القاطرة المريحة ـ وفي جيبي خمسة دولارات...

ربّما كان ثمة ملاك حارس يرعاني! تذكرت كلمات وداع فليتشير. هل كنت حقاً فناناً؟ بالطبع أنا فنان. لكني لم أثبت ذلك بعد... أخيراً هنّأت نفسي لأني مررت في هذه التجربة القاسية. «تجربة ذهبية»، رحت أكرّر لنفسي. بدا الأمر سخيفاً بعض الشيء، لكنّه هدهدني حتى أنام بعمق.

13

عدنا إلى البيت القديم، أو بمعنى آخر ـ إلى شارع الأحزان المبكرة. إذ بدأت مونا تقيم مع أسرتها، وبدأت أقيم أنا مع أسرتي. الطريقة الوحيدة ـ مؤقتاً ـ لحلّ المشكلة الاقتصادية. وحالما أتمكن من بيع بعض القصص سنجد بيتاً لنا مرة أخرى.

فمنذ اللحظة التي كان يغادر فيها أبي العجوز البيت ويتوجه إلى دكان الخياطة وإلى أن يعود على العشاء، كنت أجد مشقة كبيرة كلّ يوم. وفي كلّ يوم كنا نتحدث أنا ومونا على الهاتف؛ وكنا في بعض الأحيان نلتقي عند الظهيرة لنتناول طعامنا معاً في أحد المطاعم الرخيصة. إلا أن هذا كان يحدث أحياناً لإرضاء مونا. فقد كان يستولي عليها الخوف، وتساورها الشكوك، وتنهشها الغيرة. ببساطة لم تكن تصدق أني كنت أكتب باستمرار من الصباح وحتى الغروب.

وبالطبع، كنت أتوقف بين الحين والآخر عن الكتابة لأجري «بحثاً». فقد كانت تخطر في بالي مائة فكرة وفكرة، وكانت جميعها تتطلب تحقيقاً وبحثاً في الوثائق. لقد أصبحت أدير أموري بكامل طاقتي الآن، وحين كنت أجلس إلى الآلة الكاتبة كانت الأفكار تنسل من بين أصابعي.

في الوقت الحالي رحت أضع اللمسات الأخيرة على لوحة رسمتها عن ذاتي، أدعوها «الفشل». (ولم يكن يخطر ببالي أبداً أن

رجلاً يدعى بابيني، يعيش في إيطاليا، سيصدر كتاباً بعد فترة وجيزة بهذا العنوان).

لا يمكنني القول إنه مكان مثالي للعمل ـ منزل أبويّ. فقد كنت أجلس عند النافذة الأمامية، متوارياً وراء الستائر المخرّمة، عين واحدة مفتوحة على الزوار. القاعدة السارية في المنزل تقول: إذا رأيت زائراً قادماً، اختبئ! وهذا ما كنت أفعله تماماً في كل مرة. فقد كنت أختبئ في خزانة الملابس، مع الآلة الكاتبة والكتب والصحف وكلّ شيء. رائع! (أطلق على نفسي اسم «هيكل العائلة العظمي»). أحيانا تتكون لديّ أفكار رائعة وأنا مختف وراء طيّات الملابس في الخزانة المظلمة ـ تدفعني إلى ذلك بلا ريب رائحة كرات الكافور اللاذعة. تبرق الأفكار بسرعة كبيرة بحيث لا أحتمل الانتظار إلى أن يغادر الزائر. في الظلمة الحالكة أدوّن ملاحظات غير مقروءة على قطع غريبة من الورقة. (مجرد كلمات وعبارات مفتاحية). أما بالنسبة للتنفّس، فلا توجد مشكلة إطلاقاً. إذ يمكنني أن أحبس أنفاسي لمدة ثلاث ساعات، إذا دعت الضرورة.

وبعد أن كنت أخرج من الجُحر، كان على أمي أن تبدأ الصياح: «عليك ألّا تدخّن كثيراً!» يجب تعليل وجود الدخان. والعبارة التي كانت ترددها: «كان هنري هنا». وعندما أسمعها تعطي هذا التفسير الواهي للزائر، كنت أحشو فمي أحياناً بردن معطف لكي لا تفلت مني ضحكة.

وفي بعض الأحيان كانت تقول لي: «أليس من الممكن أن تجعل قصصك أقصر؟»، إذ كانت المسكينة تظن أني كلما أنهيتها بسرعة، دفعوا لي في وقت أبكر. وهي تسد أذنيها عن سماع بطاقات الرفض. وتكاد تتصرف وكأنها لا تصدقها.

ذات صباح سألتني: «عم تكتب الآن؟».

قلت: «دراسة عن القطع النقدية المعدنية والأوسمة».

«ما هذا؟».

فسّرت لها معنى ذلك ببضع كلمات.

«هل تظن حقاً أن الناس يريدون أن يقرؤوا عن هذه الأشياء».

«أتساءل في قرارة نفسي ماذا ستقول إن قلت لها الحقيقة، أن أخبرها عن: الفشل».

أما أبي العجوز فكان أكثر ليونة. وأشعر أنه كان لا يتوقع أن يتمخض أي شيء عن كلّ هذا الهراء، لكنه كان فضولياً، وكان يتظاهر بأنه مهتمّ بما أكتب. ولم يكن يدرك تماماً كيف أن له ابناً تزوج مرّتين، وأباً لطفلة، ويقبع يوماً بعد يوم في غرفة الطعام لايفعل شيئاً سوى أن ينقر على مفاتيح الآلة الكاتبة. كان في قرارة نفسه يثق بي. وكان يعرف أني سأصل إلى غايتي ذات يوم بشكل ما. إذ لم يكن مضطرباً في روحه.

عند ناصية الشارع، حين كنت أهرع صباح كلّ يوم لأشتري صحيفتي وعلبة السجائر، كان يوجد محل صغير يديره شخص جديد يدعى السيد كوهين. كان الشخص الوحيد الذي أبدى اهتماماً في أعمالي. وكان في غاية السعادة لأن أحد زبائنه كاتب، حتى لو كان مجرد كاتب غرّ. أما جميع التجار الآخرين، ممن يعرفونني منذ زمن، فلا يشك أحدهم في أنه طرأ عليّ أي تغيير. إذ كنت بالنسبة لهم، ما أزال ذلك الولد الصغير ذو الشعر الذهبي والابتسامة البريئة.

إلا أن السيد كوهين كان ينتمي إلى عالم آخر، إلى عصر آخر. فهو لم يعد «منتمياً» أكثر من كوني أنا لا منتم. وفي الحقيقة، وبما أنه كان يهودياً، كان ما يزل موضع شبهات. فذات صباح مشرق ورائع اعترف لي السيد العزيز كوهين، أنه كانت تراوده أيضاً في الماضي طموحات لأن يكون كاتباً. وبشعور أصيل قال لي كم كان يقدّر مناقشاتنا. فقد قال إنه امتياز أن يعرف المرء شخصاً «متحيزاً» (أظنه يعني أنه يحمل ذات الميول) وأسرّ لي بصوت خفيض، وباشمئزاز كبير عن رأيه باحتقار أصحاب المحلات المجاورة. آه، أيها السيد العزيز كوهين، هيا أفصح عن نفسك،

أظهر ما يجيش في نفسك، حيثما كنت، ودعني أقبّل حاجبك الشمعي! ما الذي يجمعنا الآن، ما هي الأمور المشتركة بيننا؟ بضعة مؤلفين في عالم الأموات، والخوف من الشرطة وكراهيتهم، احتقار من هم من غير اليهود وولع برائحة سيجار جيد. إنك لست موهوباً، ولست أنا أيضاً. لكن كلماتك تأتيني وكأنها تصدر عن آلة موسيقية. تقدّم رويداً رويداً، أيها العفريت الشاحب، تقدم أيها الطلّسم، ودعني أعانقك مرة أخرى!

بالطبع أمي لم تفاجأ، بل صُدمت عندما اكتشفت أني صادقت «ذلك اليهودي الحقير». فبحق السماء عم نتحدّث؟ عن الكتب؟ هل هو يقرأ؟ نعم، يا أمي العزيزة إنه يقرأ بخمس لغات. رأسها يتأرجح إلى الأمام والوراء غير مصدقة، ومرة أخرى يمنة ويسرة مستنكرة. على أية حال فاللغة العبرية ولغة اليديش، سيّان بالنسبة لها، لا يهم: فاليهود لا يفهمون إلا مثل هذا الهراء. (إك! إك!) تقول لا شيء مهماً يمكن أن يُكتب في هذه اللغات الغريبة. والتوراة، يا أمي العزيزة؟ تهز كتفيها باستهجان. إنها تعني الكتب، لا التوراة. (وهكذا).

ياله من عالم! فلم يتبق أحد من رفاقي القدماء. وكنت أتساءل إن كنت سأصادف طوني ماريلا ذات يوم. كان أبوه مايزال يجلس عند النافذة يصلّح الأحذية. وكنت ألقي عليه التحية في كلّ مرّة أمرّ فيها من أمام الدكان، لكن لم أكن أمتلك الشجاعة لكي أسأله عن طوني. بيد أني في أحد الأيام، وفيما كنت أقرأ الصحيفة المحلية ـ الدردشة ـ اكتشفت أن صديقي القديم كان مرشحاً لمنصب النائب في منطقة أخرى، حيث يقيم الآن. لعله سيصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية ذات يوم! سيكون ذلك شيئاً عظيماً، ماذا! ـ رئيس يخرج من حيّنا الصغير المجهول. إذ يمكننا أن نتبجّح أحياناً بخروج كولونيل أو عميد بحري من حيّنا. الأخوان جروجان، نفسهما. فقد كانا يقيمان على بعد بضعة أبواب من منزلنا فقط. «أولاد عظماء!» كما كان جميع الجيران يقولون. (وبعد فترة وجيزة، أصبح أحدهما

جنرالاً في الواقع؛ أما الآخر، العميد البحري، فإني أقطع يدي إن لم يرسلوه في مهمة خاصة إلى موسكو ـ ولم يرسله سوى رئيس إمبراطوريتنا المتحمسة المقدسة. ليس بالأمر السيء بالنسبة لشارعنا الصغير التافه فان فوريس!).

والآن أقول لنفسي (على لسان الجيران)، وعندنا هنا هنري الصغير. فمن يدري لعله سيكون أُوهنري (O. Henry) آخر. فإذا كان طوني ماريلا سيصبح رئيساً ذات يوم، فمن المؤكد أن هنري، هنرينا الصغير، قد يصبح كاتباً مشهوراً.

ولمن المؤسف كذلك ـ شيء مختلف قليلاً الآن ـ أننا لم نخرج على الأقل مصارعاً يفوز بجائزة هامة. إذ اختفى الأخوان لاسكي. أصبحنا نفتقر إلى تلك المادة التي يجبل منها الأبطال. لا، لم يكن الحيّ هو الذي أخرج جون ل. سوليفانس أو جيمس ج. كوربيتس، فقد خرج من الشارع الرابع عشر القديم دزينة من الملاكمين المحترفين الجيدين، بالإضافة إلى السياسيين، والمصرفيين، والمحتالين الشهيرين. وانتابني شعور أني لو عدت إلى الحيّ القديم لكتبت بنشاط وحيوية أكثر. لو كان بإمكاني أن أقول مرحباً لشبّان من أمثال ليستر ريردون، وإدي كارني، وجوني بول، لتملكني شعور بالبهجة.

«هراء»، قلت لنفسي، ورحت أضرب بمفاصلي العارية المسمار الحديدي على السياج، «لم أحقق شيئاً...».

وذات صباح استيقظت وعقدت العزم على أن أخرج إلى العالم وأجعل الجميع يعرفونني. وبدون هدف أو مشروع في ذهني، تأبطت مجموعة من المخطوطات، وهرعت إلى الشارع.

تملكني شعور غامض، دلفت إلى معتكف داخلي لأحد مكاتب التحرير، ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع أحد المحرّرين الخمسة لمجلة بخمسة سنتات. وسألت عن وظيفة محرر.

المثير للاستغراب أن الرجل كان ينتمي إلى قبيلة ميلر. جيرالد ميلر. فأل جيد!

لم يكن عليّ أن أظهر مواهبي وأمارس سحري لأنه كان مهيّأً لأن يقف إلى جانبي. «لا شك في ذلك»، قال، «إنك كاتب بالفطرة». وأمامه عدد كبير من المخطوطات؛ راح يتطلع هنا وهناك، ليقنع نفسه بأني أملك البضاعة المطلوبة.

«إذن فإنك تريد وظيفة في المجلة؟ حسناً، هذا أمر ممكن، وأستطيع أن أعطيك فرصة. إذ سيترك أحد المحرّرين العمل بعد أسبوع أو ما يقارب ذلك؛ سأكّلم الرئيس عنك وأرى ما يمكنني أن أفعله. أنا واثق من أنك تستطيع أن تملأ المكان حتى لو لم تتدرب على ذلك» وأعقب هذا ببضعة إطراءات. ثم أضاف فجأة: «لماذا لاتكتب لنا شيئاً في هذه الأثناء؟ إننا ندفع جيداً. أظن أنه بوسعك أن تحصل على شيك بقيمة 250 دولاراً أليس كذلك؟».

ودون أن ينتظر رداً، أردف: «لماذا لا تكتب عن الكلمات؟ فليس من الضروري أن أقرأ كثيراً لأعرف أنك عاشق للكلمات».

لم أكن متأكداً تماماً أني فهمت إن كان يريدني أن أكتب عن هذا الموضوع، وخاصة لقراء مجلة رخيصة. ثم قال: «استخدم مخيلتك. كما لا تجعل المقالة طويلة جداً. اجعلها خمسة آلاف كلمة. وتذكّر أن قرّاءنا ليسوا جميعهم أساتذة جامعات».

جلسنا هناك فترة من الوقت نتحدث، ثم رافقني إلى المصعد. «تعال لتراني بعد أسبوع»، قال، ثم وضع يده في جيبه، وأخرج ورقة ودسها في يدي. «قد تحتاج إلى هذا لتقيم أودك». ابتسم. كانت ورقة من فئة العشرين دولاراً، كما اكتشفت عندما أصبحت في الشارع. وددت أن أعود إليه مهرولاً لأشكره مرة أخرى، لكني قلت لا، فربّما هم يتعاملون مع كتّابهم بهذه الطريقة.

«كان الثلج يهطل في أنحاء إيرلندة...» أخذت الكلمات تتدفق من

رأسي كلازمة وأنا أسير فوق الأرض المرصوفة بالحجر في طريق عودتي إلى البيت. ثم خطرت لي عبارة أخرى ـ لماذا لم تخطر ببالي فكرة: «في منزل أبي توجد قصور كثيرة...» كانت الكلمات تتناغم على نحو رائع، الثلج يهطل خفيفاً، رقيقاً ومتواصلاً (في أنحاء إيرلندة)، والقصور الرائعة المرصّعة بالجواهر، التي شيد أبي مثلها عدداً لانهائياً. كان يوم عيد القديس بطرس بالنسبة لي، ولا توجد أفاعي على مرأى البصر. ولسبب غريب تملكني إحساس بأني إيرلندي حتى النخاع. قليل من جويس، وقليل من بلارني ستون، وقليل من الاحتيال ـ و «إيرلندا إلى الأبد» في كلّ مرّة كان المعلّم يدير فيها ظهره، كان أحدنا يتسلل إلى السبورة ويخربش بالطباشير في غضب «إيرلندا إلى الأبد». أسير في بروكلن والثلج يتساقط بنعومة. يجب أن أطلب من أولريك أن يقرأ لي هذا المقطع مرة أخرى. فلديه صوت رائع. صوت رخيم جميل.

«الثلج يهطل خفيفاً في أنحاء إيرلندة».

برشاقة العنزة، بخفة الهواء، حزيناً كإله الغابات، أمضي في طريقي على أرض الشارع المرصوفة بالحجر الجميل. كم أتمنى لو كنت أعرف ماذا سأكتب! مائتان وخمسون دولاراً ليس بالمبلغ الذي يستهين به المرء. ومنصب في مكتب تحرير! يا إلهي، لكني استويت واقفاً فجأة! يجب أن يسمع السيد كوهين عن هذا الأمر. (السلام عليكم!) خمسة آلاف كلمة. فلو كنت أعرف ماذا سأقول لتمكنت من كتابتها في جلسة واحدة. الكلمات، كلمات...

صدّق أو لا تصدّق، فأنا لست قادراً على كتابة كلمة ملعونة واحدة على الورقة. موضوعي المفضّل، وهاأنا ذا معقود اللسان. فضولي. بل أسوأ من ذلك ـ إنه لأمر يدعو للكآبة.

لعله يجب عليّ أن أجري قليلاً من الأبحاث أولاً. في نهاية الأمر، ماذا أعرف عن اللغة الإنكليزية؟ أكاد لا أعرف شيئاً. إذ إن استخدامها شيء، والكتابة عنها بجدية شيء آخر.

وجدتها! لماذا لا أتوجه مباشرة إلى المصدر؟ لم لا أقوم بزيارة رئيس تحرير القاموس الكامل الشهير؟ أيّهم - فانك أند واجنال. (القاموس الوحيد الذي أستخدمه).

في صباح اليوم التالي المشرق، أراني أجلس في وقت مبكر في غرفة الانتظار، انتظر حتى يأتي الدكتور فيزيتيلي نفسه. (كما لو كنت ستطلب من السيد المسيح أن يساعدك، أقول لنفسي). البطاقات متناثرة على الطاولة. كلّ ما كنت أدعو إليه هو أن لا أبدو أمامه أحمق، كما فعلت قبل سنوات عندما قمت بزيارة كاتب وسألته بلا تردد: «كيف يمكن للمرء أن يبدأ الكتابة؟» (وكان جوابه على الفور: «الكتابة». هذا بالضبط ما قاله لي، وكانت تلك نهاية اللقاء).

وقف الدكتور فيزيتيلي أمامي. كان رجلاً لطيفاً مفعماً بالحيوية، يشع بريقاً ونشاطاً. أشعرني بالارتياح على الفور. حثني على أن أفرغ ما بجعبتي. سحب كرسياً مريحاً له، وراح ينصت باهتمام، ثم بدأ يتكلم...

لساعة كاملة أو أكثر، لم تتوقف هذه الروح الكريمة، الرحيمة، التي سأكون ممتناً لها طوال عمري، عن الحديث عن كل شيء يظن أنه يمكن أن يساعدني. كان يتحدث بسرعة وعظمة بحيث لم تتح لي الفرصة لأن أدوّن ملاحظة واحدة. أخذ رأسي يدور. كيف سأتذّكر حتى جزءاً بسيطاً من كلّ هذه المعلومات المثيرة؟ كنت كما لو أنني قد وضعت رأسي تحت نافورة ماء.

أحس الدكتور فيزيتيلي بمحنتي فهبّ لنجدتي. طلب من خادم أن يحضر لي أوراقاً ونشرات. حثّني على الإطلاع عليها على راحتي. «أنا على ثقة من أنك ستكتب مقالة ممتازة»، قال وهو يتطلع إليّ مشرقاً كعرّاب. ثم سألني إن كنت سأتكرم وأطلعه على ما سأكتبه قبل أن أقدمه إلى المجلة.

وبدون سابق إنذار بدأ في توجيه بضعة أسئلة مباشرة عني: منذ متى وأنا أكتب؟ ما الأشياء الأخرى التي فعلتها؟ ما الكتب التي

أقرأها؟ ما اللغات التي أعرفها؟ سؤال تلو سؤال، ماذا فعلت في الواقع. ماذا أعرف في حقيقة الأمر؟ لقد هُزمت أخيراً، ماذا هناك سوى أن أقرّ بذنوبي وعيوبي. فعلت ذلك، تماماً كما كنت سأفعل أمام كاهن، هل كنت كاثوليكياً ولست بيض سمك بائس من أتباع كالفن ولوثر.

كم كان جذاباً وشجاعاً، هذا الرجل! من كان يحلم بأن يظن عندما تلقاه في الشارع، أنه محرّر قاموس؟ أول شيء يلهمني الثقة والإعجاب. إنه رجل حقيقي. رددت ذلك مراراً وتكراراً. رجل يحمل خصيتين ويحمل أيضاً عقلاً هائلاً. لا مجرد ينبوع من الحكمة، بل شلال هادر، حي، معطاء. كلّ ذرة فيه تنبض بحماسة شديدة. إنه لايعرف كلّ كلمة في اللغة الإنكليزية فقط (بما فيها الكلمات المودعة في «المخزن المجمد»، كما قال) بل يعرف كذلك عن النبيذ، والخيول، والنساء، وأصناف الطعام، والطيور، والأشجار؛ يعرف كيف يرتدي الثياب، يعرف كيف يتنفس، يعرف كيف يرتاح. ويعرف أيضاً ما يكفي لأن يتناول كأساً بين الحين والآخر، يعرف كل شيء، ويحبّ كل شيء. نلمسه الآن! رجل ينطلق ـ على يديه ورجليه، كدت أقول ـ ليحيّ الحياة. رجل تتردد الأغنية على شفتيه. أشكرك يادكتور فيزيتيلي! شكراً لوجودك على قيد الحياة!.

عند الوداع قال لي ـ كيف لي أن أنسى كلماته أبداً ـ «يا بني، أنت تمتلك جميع مقوّمات الكاتب، إني واثق من ذلك. امضِ الآن وافعل ما استطعت. اتصل بي إن احتجتني». وضع يداً على كتفي بمحبة، وصافحني باليد الأخرى بحرارة. كانت هي البركة. آمين.

لم تعد ندف الثلج البيضاء الناعمة تهطل. بل أصبح المطر ينهمر في أعماقي. تسيل الدموع على وجهي ـ دموع الفرح والامتنان. لقد رأيت أخيراً وجه أبي الحقيقي. أصبحت أعرف الآن ماذا تعني ـ الروح القدس. إلى اللقاء، يا ابتي فيزيتيلي، لأني لن أراك ثانية. تقدس اسمك إلى الأبد!

توقّف المطر عن الهطول. بدأ رذاذ خفيف يهمي الآن - هناك تحت القلب - كأن بالوعة قد شدُّ عليها بإحكام بقطعة من الشاش الرقيق. ومنطقة الصدر بكاملها مشبعة بأفضل جزيئات هذه المادة التي يُطلق عليها H_2O التي يكون طعمها، عندما تلامس اللسان، مالحاً. الدموع المتناهية في الصغر، ثمينة أكثر من اللآلئ الكبيرة. ننخلها ببطء إلى التجويف العظيم، الذي تتحكم فيه مآقي الدموع. المآقي جافّة، راحة الكف جافّة. الوجه في راحة تامة، منبسط كالسهول الواسعة، يضجّ بالبهجة.

(«هل يهطل الثلج ثانية يا سيد كونروي؟»).

من الرائع أن ينطق المرء تعابيره اللغوية الخاصة به، أن ترتد إليك، لتصبح ثانية اللغة العالمية. فمن بين الـ 450000 كلمة التي يضمها القاموس الكامل بين دفتيه، أكّد لي الدكتور فيزيتيلي أنه يجب أن أعرف ما لايقل عن 50000 كلمة. حتى لمضخة الخراء يوجد ما لايقل عن خمسة آلاف كلمة. ولإثبات ذلك، ما على المرء إلا أن يذهب إلى البيت، يجلس، وينظر حوله. باب، أكرة الباب، كرسي، مقبض، خشب، حديد، ستارة، نافذة، حافة النافذة، زر، سيقان، طاسة... في أيّ غرفة تجد مئات الأشياء التي تحمل أسماء، هذا ماعدا الصفات، والظروف، وحروف الجرّ والأفعال والنعوت الفعلية التي ترافقها. ولم يكن شكسبير يعرف مفردات أكثر بكثير مما يعرف الشخص البليد في يومنا هذا!.

وماذا يعني كل هذا؟ ماذا سنفعل بالمزيد من الكلمات؟

(«وألا توجد اللغة الخاصة بك لتبقى على تماس بها»).

نعم، لغتك الخاصة، أو هويم، هويك. يمكن للمرء أن يقول باللغة العبرية «كيف حالك؟» في أكثر من عشر طرق مختلفة، ويتوقف ذلك إذا كنت تخاطب رجلاً، أو امرأة أو رجالاً، أو نساء، أو ورجالاً ونساء، وما إلى هنالك. ولا أحد يقول لبقرة أو عنزة إن كان في كامل قواه العقلية «كيف حالك؟». في طريقي إلى البيت، إلى

شارع الأحزان المبكرة. بروكلن، مدينة الأموات. عودة المواطن... (أليس لك أرضك لكي تزورها؟).

نعم، لديّ بروكلن الكئيبة، والأماكن المجاورة لها المستنقعات - مقالب النفايات، القنوات التي تفوح منها الروائح النتنة، المساحات الشاغرة منذ الأزل، المقابر... المرج المحلي.

وأنا لست سمكة أو طيراً...

توقف المطر عن الهطول. الأمعاء مبطّنة بشحم الخنزير الرطب. الهواء البارد يهب من الشمال. آه، لكن الثلج عاد ليهطل ثانية.

وأتاني الآن، مباشرة من القبر، ذلك المقطع الذي يمكن لأولريك أن يقرأه كأنه أحد سكان دبلن الأصليين... «بدأ الثلج يهطل من جديد. أخذ يراقب ناعساً ندف الثلج الفضية، تتساقط منحرفة على نور المصباح. وقد حان الوقت لينطلق في رحلته نحو الغرب. نعم، كانت الصحف محقة: لقد هطل الثلج في كل أنحاء إيرلندة. كان يتساقط على كلّ جزء من السهل الأوسط المظلم، على التلال الجرداء فوق الأشجار، يتساقط بهدوء فوق مستنقع ألين، وإلى الغرب، كان يهطل بنعومة فوق موجات شانون المظلمة المتمرّدة. وكان يهطل أيضاً فوق كلّ جزء من ساحة الكنيسة الوحيدة المنتصبة على التلّ حيث دفُن مايكل فوري. كان يكسو بكثافة الصلبان وشواهد القبور المنحنية، ورماح البوّابة الصغيرة، والأشواك القاحلة. وقد غشيت روحه ببطء وهو يسمع ندف الثلج تتساقط بنعومة على الكون، مثل تساقط نهايتها الأخيرة، على جميع الأحياء والأموات».

في هذه المملكة الثلجية، واللغة تترنم بدعائها الجميل، هرعت إلى البيت، إلى البيت أبداً. بين أغلفة المعجم العملاق، في غمرة أحرف الجرّ وصيغ المصدر، تكوّرت على نفسي وغططت في نوم عميق.

استلقيت بين آدم وحواء، محاطاً بألف حيوان من حيوانات

الرئة. نَفَسي الدافئ، تبرّده المياه المنعشة، تغلّفني سحب برّاقة. بهذه اللغة الجميلة خرجت إلى العالم. حبل المشيمة ملتف حول رقبتي، يخنقني، لكن برفق. وكان اسم حبل المشيمة نيميش.

استغرقَتْ كتابة المقال شهراً كاملاً لكي أنشره باسم، جيرالد ميلر. وعندما انتهيت تبين لي أني كتبت خمس عشرة ألف كلمة لاخمسة آلاف. اختصرتها حتى النصف وأخذتها إلى مكتب التحرير. وبعد أسبوع وصلني الشيك. وبالمناسبة لم تنشر المقالة أبداً. وكان الحكم عليها «جيدة جداً». ولم أعمل في مكتب التحرير أبداً. لم أعرف لماذا. ربما لأني كنت «جيداً جداً».

لكن كان بإمكاننا بمبلغ الـ 250 دولاراً استئناف حياتنا معاً مرة أخرى. عثرنا على غرفة مفروشة في شارع هانكوك في بروكلن، مدينة الأموات، التي هي على وشك الموت، بل الأكثر موتاً من الأموات. شارع محترم هادئ: صفّ وراء صفّ من البيوت الخشبية العادية، جميعها مزدانة بأقواس مرتفعة، بمظلات، بمروج من الأعشاب وبأسوار حديدية. كان الإيجار بسيطاً، وكان يسمح لنا أن نطهو طعامنا على موقد غازي محشور في كوة بجانب مغسلة قديمة. وكانت السيدة هينيكير، صاحبة البيت، تشغل الطابق الأرضي، أما بقية المنزل فكان مؤجراً لنزلاء غرف.

كانت السيدة هينيكير أرملة، اغتنى زوجها من إدارته لإحدى الحانات. وكان يمتزج في دمها دم دنماركي ونرويجي وألماني وسويسري وهولندي. كانت مفعمة بالحيوية، كثيرة الفضول، كسولة، شكوكة، وممتلئة بالطمع والحقد. وقد يخيل إليك أنها صاحبة ماخور. فهي تحكي دائماً قصصاً حقيقية فاضحة وتضحك وهي ترويها كتلميذة مدرسة. كانت صارمة جداً مع المستأجرين. السلوك المؤذي ممنوع! الضوضاء ممنوعة! حفلات احتساء البيرة ممنوعة! الزيارات ممنوعة! ادفع بالتمام والكمال وإلا فاذهب!

واستغرقت هذه العجوز بعض الوقت لكي تعتاد على فكرة أني

كاتب. والشيء الذي أدهشها الطريقة التي كنت أنقر فيها على مفاتيح الآلة الكاتبة. إذ لم تكن تصدق أبداً أنه يمكن لإنسان أن يطبع بهذه السرعة. لكن الأهم من كل ذلك أنها كانت قلقة، قلقة خشية أن أنسى، لكوني كاتباً، أن أدفع لها الإيجار بعد بضعة أسابيع. ولكي نخفف من مخاوفها قرّرنا أن ندفع لها مقدماً إيجار بضعة أسابيع. ومن المدهش حقاً كيف أن بادرة صغيرة كهذه يمكنها أن تعزّز موقع الإنسان!.

في فترات متكرّرة كانت تطرق بابنا، وتقدم عذراً واهياً لمقاطعتي، ثم تقف عند عتبة الباب ساعة أو أكثر وهي تسألني. وكان من الواضح أن فكرة إمكانية شخص أن يمضي يوماً كاملاً وهو جالس إلى الآلة الكاتبة، ويكتب، ويكتب، ويكتب، قد أثارتها. ماذا أكتب؟ قصصاً؟ أيّ نوع من القصص؟ هل أسمح لها بقراءة قصة منها ذات يوم؟ هل أفعل هذا، وهل أفعل ذلك؟ ولا يمكن أن تصدق الأسئلة التي سألتني إياها هذه المرأة.

وبعد حين أخذت تزورني بانتظام، على حد قولها، لكي تعطيني أفكاراً لقصصي: شذرات من حياتها في هامبورغ، دريسدن، بريمين، دارمشتادت. أعمال صغيرة بريئة كانت تعتبرها جريئة، مرعبة، إلى حدّ أنّ صوتها كان أحياناً ينخفض ليصبح همساً. لو كان عليّ أن أستخدم هذه الحوادث، فلا بد أنه كان يتعين عليّ أن أغيّر الموقع، وطبعاً أعطيها اسماً مختلفاً. وقد خدعتها لفترة من الزمن، مسروراً بما كانت تقدمه لي من أشياء صغيرة لي ـ كعكة جبن، لحم سجق، حساء من حواضر البيت، كيس من الفستق ـ وأقنعتها أن تعد كعكة بالقرفة، وكعكة تفاح على الطريقة الألمانية المعروفة. وكانت على استعداد لأن تفعل أيّ شيء لقاء أن تقرأ عن نفسها ذات يوم في إحدى المجلات.

وفي أحد الأيام سألتني بصراحة إن كانت قصصي تباع حقاً. فعلى ما يبدو، كانت تقرأ كلّ المجلات التي تصدر والتي يمكنها أن

تضع يدها عليها ولم تعثر على اسمي في إحداها. وأوضحت لها بأناة أن على المرء أن ينتظر أحياناً عدة أشهر لكي تُقبل القصة، وبعد ذلك بضعة أشهر أخرى قبل أن يدفعوا له مكافأة عنها. وأضفت في الحال بأننا نعيش حالياً من إيراد عدّة قصص كنت قد بعتها في السنة الماضية بمبلغ كبير. عندها، وكما لو أنه لم يكن لكلماتي أي تأثير عليها، قالت بصورة قاطعة وبجفاء «إذا جعت يمكنك دائماً أن تتناول طعامك معي. فأنا أكون وحيدة أحياناً.» ثم صدرت عنها تنهيدة عميقة: «ليس من الجيد أن يكون المرء كاتباً، أليس كذلك؟».

وبالتأكيد لم يكن ذلك صحيحاً. وسواء شكّت بذلك أم لا، كنا دائماً جائعين كالذئاب. ومهما كانت المبالغ التي نحصل عليها، فإنها كانت دائماً تذوب كالثلج. وكنا دائماً نجري هنا وهناك، نبحث عن أصدقاء قدامى يمكننا أن نأكل معهم، أو يقرضوننا أجرة سيارة، أو نقنعهم باصطحابنا إلى أحد المعارض. وفي الليل كنا نمد حبل غسيل عبر السرير.

أما السيدة هينيكير، فكانت متخمة دائماً، وينتابها الإحساس بأننا كنا دائماً في حالة جوع أبدية. وبين الفينة والأخرى كانت تكرر دعواتها لتناول العشاء معها ـ «إن كنتما جائعين». ولم تقل أبداً: «ألن تتعشيا معي هذا المساء، فعندي حساء أرنب رائع أعددته خصيصاً لكما»، لا، بل كانت تنتابها متعة منحرفة في محاولتها لأن ترغمنا على الاعتراف بأننا كنا مفترسين. وبالطبع لم نكن نلبي دعواتها. إذ إن الاستسلام لها كان يعني أنه يتعين عليّ أن أكتب ذلك النوع من القصص التي تريدها السيدة هينيكير تلك. بالإضافة إلى أنه، حتى الكاتب المأجور، يجب أن تكون له حدود يتوقف عندها.

بطريقة ما، كنا نتمكن دائماً من اقتراض مبلغ الإيجار في الوقت المناسب. وكان الدكتور كرونسكي يهب أحياناً لنجدتنا، وكذلك كيرلي. إلا أنها كانت فعلاً محنة. وعندما كنا نصل إلى حالة يائسة

كنا نتوجه إلى منزل أبويّ سيراً حوالى ساعة كاملة ونمكث هناك حتى نملأ بطننا. وكانت مونا في أغلب الأحيان تغط في النوم على الأريكة بعد العشاء مباشرة. أما أنا فكنت أبذل قصارى ما بوسعي لأفتح حديثاً، وأدعو ربي ألا تظل مونا نائمة حتى يُنفخ في الصور.

وكانت المحادثات بعد العشاء بمثابة معاناة رهيبة بالنسبة لي. فقد كنت أحاول جاهداً أن أتحدث عن أي شيء ماعدا عملي. إلا أنه كان من المحال أن لا تأتي اللحظة التي يسأل فيها أبي أو أمي - «كيف الحال مع الكتابة؟ هل بعت شيئاً منذ أن رأيناك آخر مرة؟» فأكذب خجلاً: «ماذا، نعم، لقد بعت قصتين أخريين مؤخراً. الأمور تسير على ما يرام، حقاً». عندها يبدو عليهما الحبور والدهشة وهم يسألانني في وقت واحد: «إلى أيّ مجلات بعتها؟» وأعطيهما أسماء كيفما اتفق. «سنرقبها يا هنري. متى تظن أنها ستنشر؟». (وبعد مضي تسعة أشهر يذكّرانني أنهما ما يزالان يترقبان ظهور تلك القصص التي قلت أني بعتها إلى هذه المجلة أو تلك).

وفي أواخر المساء، كانت أمي، وكأنها تريد أن تقول «لنتكلم في الأمور الواقعية!»، تسألني بجدية إن كنت لم أفكر بأنه من الحكمة أكثر أن أهمل الكتابة وأبحث عن عمل. «لقد كانت لك وظيفة رائعة عندما كنت تعمل مع... كيف أمكنك أن تتخلى عنها؟ إن الأمر يستغرق سنوات لكي تصبح كاتباً جيداً وربما لن تنجح في ذلك أيضاً». وما إلى هنالك. كنت أبكي من أجلها. أما الرجل العجوز، من الناحية الأخرى، فكان يتظاهر دائماً بأنه يعتقد أني سأحقق نجاحاً باهراً. وكان يأمل ذلك بصدق وإيمان، وهذا أمر كنت واثقاً منه. «امنحيه وقتاً، امنحيه وقتاً!» كان يقول. وكانت أمي تجيبه «لكنهما كيف سيعيشان خلال هذه الفترة؟» وكنت أجيب «لا تقلقي يا أمي، أعرف كيف أتدبر أموري. فأنا أملك عقلاً، أنت تعرفين ذلك. إنك لا تظنين أننا سنتضور جوعاً، أليس كذلك؟» ولم تكن أمي تغيّر طريقة تفكيرها، وكانت تكرر ذلك مراراً، كأنها تقول لنفسها، إنه من

الحكمة حقاً أن أجد عملاً وأن تكون الكتابة عملاً إضافياً. «حسناً، لا يبدو أنهما يتضوران جوعاً، أليس كذلك؟» كان هذا أسلوب أبي في إخباري بأننا، إذا كنا حقاً جائعين، فكلّ ما عليّ أن أفعله هو أن أقوم بزيارته إلى محل الخياطة ليقرضني من المال ما يسعه ذلك. لقد فهمت، وقد فهم. وكنت أشكره بصمت، وكان يقرّ بشكري بصمت. وبالطبع لم أذهب إليه إلى محله أبداً. ليس من أجل المال. وبين الحين والآخر، وهكذا وبدون سابق إنذار، كنت أزوره فقط لأدخل الفرحة إلى نفسه. حتى عندما عرف أنني كنت أكذب ـ كنت أحكي له روايات ملفقة لا تصدق، وكان يتظاهر بأنه يصدقها. «يسرني أن أسمع ذلك يا بني»، كان يقول. «عظيم! ستكون الكاتب الأكثر رواجاً، أنا متأكّد من ذلك». كنت أحياناً، عندما أغادره، تغرورق عيناي بالدموع. كنت أتمنى أن أساعده. كان يجلس هناك في مؤخرة المحل محطماً منهاراً، بعد أن أصبح عمله في الدرك الأسفل، لا أمل يرجى، وكان مايزال يتصرف ببهجة، مايزال يتحدث بتفاؤل. لعله لم ير زبوناً منذ عدة شهور، لكنه مايزال «معلم الخياطة». سخرية مثيرة للفزع! «نعم»، كنت أحدث نفسي، وأنا أسير في الشارع، «بعد أن أبيع أول قصة لي سأعطيه بعض النقود». ويغمرني إحساس بالتفاؤل، وأقنع بمنطق مجنون بأني قد أعجب أحد المحررين ويعطيني سلفاً شيكاً بقيمة خمسمائة أو ألف دولار. وما أن أصل إلى البيت حتى أكون قد أصبحت أرضى بخمسة دولارات فقط. سأقبل أيّ شيء، في الحقيقة، وهذا يعني وجبة طعام أخرى، أو مزيداً من الطوابع البريدية، أو مجرد ثمن أربطة حذاء.

«هل يوجد بريد اليوم؟» كان هذا سؤالي المعهود عندما أدخل إلى البيت. وإذا كانت هناك مغلفات سميكة تنتظرني، فكنت أعرف أنها مخطوطاتي وقد أعيدت إليّ. وإذا كان المغلف رقيقاً فكان ذلك يعني قصاصة بالرفض، مع طلب إرسال أجرة البريد لإعادة النصوص إليّ. أو تكون فواتير، أو رسالة من المحامي موجهة إلى عنوان قديم، وترسل إلي بمعجزة.

وكانت النفقة المتأخرة تتراكم. ولن يكون بإمكاني أن أدفع الفاتورة، أبداً. وأصبحت واثقاً أكثر من أي وقت مضى أني سأنهي أيامي الأخيرة في سجن شارع رايموند.

«سيحدث شيء، سترى».

حين يحدث شيء، فقد كان ذلك دائماً من تدبيرها. فقد صادفت مونا محرّر مجلة «قصص بذيئة»، وكلفّها بكتابة نصف دزينة من القصص. ولمجرد ذلك كتبت قصتين باسمها، بجهد مضن، بجهد بطولي حقاً: ثم خطرت لي فكرة رائعة. وهي أن أبحث في ملفاتهم القديمة، وآخذ قصصهم المنشورة، وأغيّر أسماء الشخصيات والبدايات والنهايات، وأعيد صياغتها. لم ينجح هذا فقط، بل كانوا في غاية الحماسة لهذا التزييف. من الطبيعي، منذ أن ذاقوا طعم الحساء. لكني سرعان ما مللت هذه التوليفة. إذ يبدو لي أني أضعت وقتاً كثيراً. «قولي لهم أن يذهبوا إلى الجحيم»، قلت لها ذات يوم. وقد فعلت ذلك. لكن ردة الفعل لم تكن متوقعة تماماً. فمن كونه «محررنا»، تحولت ريشة قلمه الآن ليصبح عاشقاً مولهاً. وبدأنا نحصل على نقود تزيد خمسة أضعاف عما كنا نحصل عليه لقاء تلك القصص اللعينة. ما الشيء الذي كان يحصل عليه، لا أعرف. وإذا صدقت مونا، فكلّ ما كان يطلبه هو أن يمضي معها نصف ساعة من وقتها في مكان عام، عادة في مقهى (غرفة شاي؟). رائع! وكان الشيء الأكثر روعة ـ أن اعترف لها ذات يوم بأنه مايزال بكراً. (وهو في التاسعة والأربعين من عمره!) والشيء الذي لم يقله هو أنه كان منحرفاً أيضاً. فقد علمنا أنه كان من بين المشتركين في تلك المجلة اللعينة، عدد محترم من المنحرفين ـ قساوسة، حاخامات، أطباء، محامين، معلمين، مصلحين، أعضاء في الكونجرس، كلّ أنواع الأشخاص الذين لن يشكّ المرء في أنهم يهتمون بمثل هذه النفايات. وكان المصلحون في المجتمع بلا شك أكثر الناس نهماً من بين قرائهم.

وكردّ فعل من هؤلاء الناس المزيفين، كتبت قصة عن قاتل. كتبتها كما لو كنت أعرف الرجل معرفة وثيقة، لكن الحقيقة أني جمعت كلّ الوقائع من كيرلي الصغير عن «بوتش» هذا، أو لا يهم ماذا كان اسمه، عندما التقى به في إحدى الليالي في حديقة سنترال بارك. وفي الليلة التي روى لي فيها كيرلي القصة، جاءتني كل تلك الكوابيس التي ترى فيها نفسك ملاحقاً إلى ما لا نهاية، وبدون توقف، ولا شيء ينجيك من الموت إلا عندما تصحو.

ما أثار اهتمامي «ببوتش» هذا، الانضباط الشديد الذي فرضه على نفسه ليخطط لعمليات السطو التي قام بها. فللتخطيط لعملية بدقة يتطلب الجمع بين قوى عالم رياضيات وممارس يوغا.

فقد كان هناك، في حديقة سنترال بارك، والأمة كلها لم تترك مكاناً إلا وبحثت عنه. يروي قصته كأحمق، إلى فتى صغير مثل كيرلي. وحتى عندما كان يفضي إليه ببضعة أمور مدهشة عن العمل الذي سيقوم به، فإنه كان ضرباً من التخطيط.

ولعله أيضاً كان يقف عند ناصية ميدان تايمز سكوير يبحث عن فريسة بالقرب من حديقة سنترال بارك في ساعة متأخرة من الليل.

جائزة بقيمة خمسين ألف دولار لكل من يعثر عليه، حيّاً أو ميّتاً.

وحسب رواية كيرلي، كان الرجل يحبس نفسه في غرفته لأسابيع عديدة؛ ويمضي ساعات وساعات مستلقياً على السرير عاصباً عينيه، يتدرّب بالتفصيل على كلّ خطوة، كلّ حركة سيقوم بها. ولم يكن يترك شيئاً إلا ويدرسه بتأنٍ، حتى أكثر التفاصيل تفاهة. إلا أنه، مثل أي مؤلف أو ملحن، لم يكن ينفذ خطته إلا بعد أن تصبح كاملة. ولم يكن يأخذ في الحسبان كلّ إمكانيات الخطأ والأحداث العرضية التي قد تعترضه فحسب، بل كان مثل مهندس بارع، يسمح بهامش من السلامة ليتغلب على الإجهاد والتوتر غير المتوقعين. لعله كان واثقاً جداً من نفسه؛ ربما اختبر قدرة

المتعاونين معه وولائهم، إلا أنه في نهاية الأمر لم يكن يعتمد إلا على نفسه، على عقله، على بصيرته. كان وحيداً أمام الآلاف. إذ لم يكن كلّ شرطي في البلاد في حالة تأهب فحسب، بل كان جميع المدنيين في أنحاء الأرض كافة كذلك. أي هفوة وينتهي كل شيء. وبالطبع لم يكن ينوي أن يسمح لهم بأن يقبضوا عليه حيّاً. كان سيطلق على نفسه الرصاص. لكن هناك زملاؤه ـ ولا يمكنه أن يخذلهم.

لعله عندما خرج يتمشى ليتنشق شيئاً من الهواء النقي في ذلك المساء، كان مفعماً بالأفكار، واثقاً من أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنه ببساطة لم يعد قادراً على تمالك نفسه أكثر من ذلك. فقد أمسك بتلابيب أول شخص صادفه، واثقاً من أن ضحيّته سيتملكها الذعر وتُشل قواها. لعله كان يجد متعة في الاقتراب من الأوصياء على القانون، يطلب منهم ناراً لسيجارته، أو أنه كان يسألهم عن الاتجاه، ينظر إليهم في عيونهم مباشرة، يلمسهم، يشكرهم، وهم لا يدركون شيئاً. لعله كان بحاجة لمثل هذا الإثارة ليثبت نفسه، ليشعر بالأشياء عن كثب، فيجب على العدائين أن يجروا تمارين التحمية أولاً. وربما كان على المجرمين أن يفعلوا شيئاً مماثلاً... ولعل بوتش كان من ذلك النوع الذي يجد متعة في ركوب الخطر. فقد كان مجرماً عريقاً، رجلاً كان من الممكن أن يصبح جنرالاً عظيماً، أو محاميَ شركة ماكراً.

وكالكثير من أقرانه لم يؤكد لكيرلي مرّة واحدة فحسب، بل أكد له مرات عديدة، أنه كان يمنح خصمه دائماً فرصة عادلة. إذ لم يكن جباناً، ولم يكن خبيثاً وبالتأكيد لم يكن خائناً. بل كان ضد المجتمع، وهذا كلّ ما في الأمر. ولأنه كان يعمل وحده، كان يحق له أن يفتخر بنجاحه. ومثل نجم سينمائي كان مغروراً. أما عن المعجبين فكان لديه الملايين منهم. وكان أحياناً يفعل شيئاً بالسر، فقط ليظهر لهم مقدراته. استعراض لعامة الناس. بالتأكيد. لم لا؟

فعلى المرء أن يجد قليلاً من المتعة أيضاً. وهو لا يميل إلى أعمال القتل، رغم أنه لم يكن يحمل ضغينة نحوهم أيضاً.

كان كيرلي مايزال يرتجف من الإثارة، الخوف، الألم، الإعجاب واللّه أعلم من ماذا. لم يكن يستطيع أن يتكلّم عن شيء آخر. وحثّنا على ترقب الصحف، إذ ستكون قضية تبعث على الإثارة في النفوس. حتى أنه رفض أن يكشف عن طبيعتها لنا. إذ كان ما زال خائفاً، مازال منوّماً. وكان يكرر قوله «عيناه! لقد شعرت أني أتحول إلى حجر».

«لكنكما التقيتما في الظلام».

«لا يهمّ. كانتا تتوهجان كجمرتين. كان ينطلق منهما شرر!».

«ألا تظن أنك قد تكون قد تخيلت ذلك، بما أنك تعرف أنه قاتل؟»

«لن أنسى! لن أنسى ما حييت هاتين العينين. إنهما ستطاردانني حتى آخر يوم في حياتي».

ارتجف.

«هل تظن حقاً ياكيرلي»، سألته مونا، «أن عينيّ المجرم تختلفان عن عيون الناس الآخرين؟».

«لم لا؟» قال كيرلي. «إنهم يختلفون عنهم في كلّ شيء. فلم لاتكون عيونهم مختلفة؟ ألا تظنين أن العينين تتغيران عندما تتغيّر الشخصية؟ فلديهم جميعهم شخصيات «أخرى». أعني أنهم ليسوا أنفسهم. إنهم شيء زائد ـ أو ناقص، لا أعرف أيهما، إنهم من طينة أخرى، هذا كلّ ما أستطيع أن أقوله. حتى قبل أن يخبرني من هو، أحسست بذلك. كأنه انتابني اهتزاز من عالم آخر. كان صوته مختلفاً عن أيّ صوت إنساني أعرفه. وعندما صافحني ظننت أن تياراً كهربائياً قد مسني. لقد صدمت، أقول لك ـ أعني صدمة جسدية. كنت سأولي الأدبار، في ذلك الزمان والمكان، لكن تينك العينين جعلتاني أتسمّر في مكاني. لم أستطع أن أتزحزح، لم أتمكن من أن أرفع إصبعي... بدأت أفهم الآن ماذا يعني الناس عندما يتحدثون عن

الشيطان. كانت تفوح منه رائحة غريبة ـ هل ذكرت لكما ذلك؟ لم تكن رائحة كبريت، بل أشبه برائحة حامض مركّز. ربما كان يتعامل بمواد كيميائية. لكني لا أظن ذلك. كان هناك شيء يجري في دمه...».

«هل تظن أنك ستتعرف عليه إذا رأيته ثانية؟».

لدهشتي توقّف كيرلي عن الكلام. بدا محتاراً، ثم أجاب بتردد كبير «بصراحة، لا أظن ذلك. فبشخصية قوية مثل شخصيته، لديه القوّة لأن تمحو نفسها من وعيك. هل يبدو ذلك مريباً؟ دعني أقُلْها بطريقة أخرى». (هنا كنت مندهشاً حقاً. كان كيرلي قد أحرز خطوات) «لنفترض أن القديس فرانسيس قد ظهر أمامك هذه الليلة في هذه الغرفة بالذات. لنفترض أنه تكلّم معك. هل ستتذكّر ما هو شكله في الغد أو بعد غد؟ ألن يسيطر عليك وجوده بحيث يمحو كل أثر لقسماته؟ ربما لم تفكر بهذا الاحتمال أبداً. أما أنا فقد فكرت بذلك لأني أعرف امرأة كانت تأتيها رؤى. كنت طفلاً في ذلك الحين، لكني أستطيع أن أتذكر النظرة البادية على وجهها عندما أخبرتني عن تجربتها. أعرف أنها رأت أكثر من الشيء الجسدي. عندما يأتيك أحد من الأعلى فهو يجلب معه شيئاً من السماء ـ وهو يعمي الأبصار. على أية حال، هكذا بدا الأمر لي... لقد منحني بوتش شعوراً مشابهاً، فقط كنت أعرف أنه لم يأت من الأعلى. ومهما يكن المكان الذي جاء منه، هذا كلّ شيء عنه. يمكنك أن تشعر بها. كان شعوراً مفزعاً». توقف ثانية، ثم أشرق وجهه وأضافَ: «اسمع، أنت الذي دفعني لقراءة دوستويفسكي. إذاً فإنك تعرف ماذا يعني أن تُجرّ إلى عالم الشرّ المحض. فبعض شخصياته تتكلم وتتصرف وكأنها تسكن عالماً مجهولاً تماماً لنا. وأنا لا أدعوه جحيماً. بل شيئاً أسوأ، شيئاً أكثر تعقيداً، أكثر بؤساً من الجحيم. إنه شيء لا يمكن وصفه. يمكنك أن تحس به من ردود أفعالهم. فلديهم طرق لا يمكن توقعها لكلّ شيء. وإلى أن كتب عنهم، لم نكن نعرف عن الأشخاص الذين يفكرون مثلما تفكر شخصياته. وهذا يذكّرني ـ بالنسبة له، لا

يوجد فرق كبير بين المجرم والغبي والقديس، هل هذا صحيح؟ كيف تفسّر هذا؟ هل كان دوستويفسكي يعني أننا جميعنا من طينة واحدة؟ ما هو الشرّ، وما هو المقدس؟ لعلك تعرف... أما أنا فلا أعرف».

«كيرلي، إنك حقاً تفاجئني»، قلت. «أنا أعني ذلك».

«هل تظن أني تغيرت كثيراً الآن؟».

«تغيرت؟ لا، ليس كثيراً، لكنك بالتأكيد نضجت أكثر».

«بحق الجحيم، لن تبقى طفلاً طوال حياتك».

«صحيح... أخبرني بصدق، ياكيرلي، لو تمكنت من التملص منها، فهل يغريك أن تعيش حياة مجرم؟».

«ربما»، أجاب مطأطأ الرأس.

«أنت تحبّ الخطر، أليس كذلك؟».

أومأ موافقاً.

«ولن تتورع عن فعل ذلك أيضاً، عندما يقف شخص آخر في طريقك؟».

«لا أظن»، وابتسم ابتسامة ماكرة.

«وهل ما تزال تكره زوج أمك؟».

ودون أن ينتظر الرد أضفت: «بما يكفي لأن تقتله، إذا كان بوسعك أن تنجو من فعلتك؟».

«صحيح!» قال كيرلي. «سأقتله كالكلب».

«لماذا؟ هل تعرف لماذا؟ فكّر الآن، لا تجبني مباشرة».

«لا يتعين عليّ أن أفكّر»، قال نابحاً. «أنا أعرف السبب. سأقتله لأنه سرق حبّ أمي. بهذه البساطة».

«ألا يبدو هذا مضحكاً بعض الشيء بالنسبة لك؟».

«لا يهمني ذلك. إنها الحقيقة. لا أستطيع أن أنساها، والأكثر من ذلك، لن أغفر له. إنه مجرم، إذا كنت تريد المعرفة».

«ربما كنت محقاً ياكيرلي، لكن القانون لا يعتبره مجرماً».

«ومن يكترث بالقانون؟ على أية حال، هناك قوانين أخرى - وأكثر أهمية أيضاً. إننا لا نعيش وفق القوانين».

«أنت على حق!».

«سأسدي خدمة إلى العالم»، تابع بحماس، «إن موته سيجعل الجو نقياً. إنه عديم الفائدة لأي إنسان. وسيكون لي الشرف في أن أتخلّص منه ومن أمثاله. لو كان لدينا مجتمع ذكي لفعلت ذلك. في الأدب يعتبر الأشخاص الذين يرتكبون مثل هذه الجرائم أبطالاً. إن الكتب جزء من الحياة كأي شيء آخر. وإذا كانت تخطر للمؤلفين مثل هذه الأفكار، فلم لا تخطر لي أو لأشخاص آخرين؟ إن مظالمي حقيقية، ليست خيالية...».

«هل أنت متأكّد مما تقوله يا كيرلي؟»، قالت مونا.

«متأكّد تماماً»، قال.

«لو كنت الشخصية المحورية في رواية»، قالت، «فسيكون الشيء المهم ماذا حدث لك، لا لزوج أمك. ليس من المهم أن يصبح الرجل الذي يقتل أباه - في رواية - بطلاً، بل المهم الطريقة التي يتصرف فيها، الطريقة التي يواجه فيها المشكلة ويحلّها. أي إنسان يمكنه أن يرتكب جريمة، لكن بعض الجرائم ذات أهمية بالغة بحيث يصبح الفاعل شيئاً أكثر من مجرم. هل تفهم قصدي؟».

«أفهم ما تقولين»، قال كيرلي، «لكني لا أعير أدنى اهتمام لهذه الدقائق والتعقيدات. إن هذا أدب! أقول لك بكل صدق، بأني ما أزال أمقته، بأنني مستعد لقتله دون ندم، لو تمكنت من التخلص منه».

«أرى فرقاً كبيراً هنا...» قالت مونا.

«ماذا تعنين؟» سأل.

«بينك وبين بطل في كتاب».

«أنا لا أريد أن أكون بطلاً».

«أعرف»، قالت مونا بلطف، «لكنك تريد أن تبقى إنساناً، أليس كذلك؟ فإذا واصلت التفكير بهذه الطريقة، فمن يعرف، فلعلك تحقق أمنيتك ذات يوم. عندها ماذا سيحدث؟».

«عندها سأكون سعيداً. لا، ليس سعيداً تماماً، لكني أشعر بالراحة».

«أتعني لأنه كان بعيداً عنك؟».

«لا! لأني تخلّصت منه. هناك فرق».

هنا اضطررت للتدخل. «انظر ياكيرلي، لقد حادت مونا عن المسار. يخيل إليّ أني أعرف ماذا ترمي إليه. وهو هذا ـ إن الفرق بين المجرم الذي يرتكب جريمة والبطل في رواية، هو أن البطل لايبالي إن كان سينال عقاباً على فعلته أم سيفلت منه. مما لا يجعله يشعر بالقلق بما سيحدث بعد ذلك. كلّ ما عليه أن يفعل هو أن يحقق هدفه، هذا كلّ ما في الأمر».

«مما يعني»، قال كيرلي، «أنني لن أصبح بطلاً أبداً».

«لا يطلب أحد منك أن تصبح بطلاً. لكن إذا عرفت الفرق بين الأمرين، فستدرك عندها أنك لست أفضل حالاً بكثير من الرجل الذي تكرهه وتكنّ له الاحتقار».

«حتى لو كان ذلك صحيحاً، فلا أعير أي اهتمام لذلك».

«إذن لننسَ الأمر، فمن المحتمل أنه سيموت موتاً هادئاً، أما أنت فسينتهي بك المطاف في مزرعة مشمسة في كاليفورنيا».

«ربما لا، كيف تعلم؟».

«ربما نعم، وربما لا».

وقبل أن يغادر في تلك الليلة، نقل إلينا كيرلي خبراً أصابنا بصدمة شديدة، وهو أن توني مورير انتحر. فقد شنق نفسه في الحمّام أثناء حفلة أقامها لأصدقائه. لقد وجدوه وابتسامة ساخرة

ترتسم على شفتيه وغليون يتدلى من فمه. ولا يبدو أن أحداً يعرف لماذا فعل ذلك. إذ لم يكن بحاجة إلى مال، وكان يعشق المرأة التي كان يعيش معها، فتاة جميلة من جاوة. وقال بعضهم إنه فعل ذلك بدافع من السأم المطلق. وإذا كان الأمر كذلك، فإن ذلك يتماشى مع شخصيته.

لقد أثّر عليّ الخبر بشكل غريب. ووجدتني أقول لنفسي لعله من سوء الحظ أني لم أتعرف على توني مورير بشكل أوثق. فقد كان من ذلك النوع من الرجال الذين قد أفتخر بأن أدعوه صديقاً. لكني كنت خجولاً من أن أتقرب منه، وكان متخماً بالأصدقاء لكي يدرك حاجتي. وكان دائماً ينتابني شيء من الشعور بعدم الارتياح في وجوده، مثل تلميذ مدرسة. فكلّ شيء كنت أريد أن أفعله كان قد فعله للتو... ربما كان هناك شيء آخر شدني إليه باللاشعور: دمه الألماني. فلأول مرة في حياتي سُعدت بمعرفة شخص ألماني لم يكن يذكّرني بجميع الألمان الآخرين الذين عرفتهم. والحقيقة أنه لم يكن ألمانياً حقاً ـ بل كان كونياً. المثال التام عن «رجل المدينة المتأخر» الذي أحسن شبينجلر في وصفه. إذ لم تكن جذوره ضاربة في التراب الألماني، الدم الألماني، التقليد الألماني، بل كانت ضاربة في فترات النهاية التي ميّزت رجل المدينة المتأخر في مصر، واليونان، وروما، والصين، والهند. فلم تكن لديه جذور، وكان يشعر أنه «في وطنه» في كل مكان ـ حيث توجد ثقافة وحضارة. وكان من الممكن أن يكافح إلى جانب إيطاليا، أو فرنسا، أو هنغاريا أو رومانيا، وكأنه يقف إلى جانبنا. كان لديه شعور بالولاء دون أن يكون وطنياً. ولا عجب أنه أمضى ستة أشهر (بالمصادفة) في معسكر اعتقال فرنسي ـ وقد وجد متعة في ذلك. فقد أحبّ الفرنسيين أكثر من الألمان ـ أو الأمريكيين. كان يحبّ المناقشة الجيدة.

كانت جميع هذه الصفات تجتمع في هذا الرجل، فضلاً عن أنه كان لماحاً، وبشوشاً، ومحنّكاً، ومتسامحاً تماماً، وهذا ما جعلني أحبه. ولم يكن أحد من أصدقائي يمتلك هذه الصفات. فقد كانت

لديهم صفات أفضل أو أسوأ، ميزات مألوفة بالنسبة لي. بل كان أصدقائي مثلي تقريباً في العمق. فقد كنت أرغب طوال حياتي، ومازلت أتوق في واقع الأمر، إلى أصدقاء أعتبرهم مختلفين عني تماماً. وعندما كنت أنجح في العثور على واحد، كنت اكتشف أيضاً أنه لم تكن توجد لديه تلك الجاذبية اللازمة للحفاظ على علاقة حيوية. ولم يتجاوز أيّ من هؤلاء كونهم أصدقاء «محتملين» أبداً.

على أية حال، رأيت في تلك الليلة حلماً. حلم طويل، وحافل بالمشاهد المرعبة. فقد رأيت في الحلم بوتش وتوني مورير يتبادلان الشخصيات. وبطريقة مبهمة كنت منضماً إليهما، أو معه، لأن حليفي الغامض المحيّر هذا كان ينشقّ أحيانا ويصبح شخصيتين متميّزتين، ولم يكن واضحاً إن كان توني مورير أو بوتش، لكنه كان دائماً مركّباً من الاثنين، حتى عندما ينقسمان. وكان هذا الضرب من اللعب المزدوج يكفي بحد ذاته ليسبب لي ألماً شديداً، هذا بالإضافة إلى أني لم أكن واثقاً فيما إذا كان، أو كانا معي، أو ضدي.

حاولت أن أكثّف هذه المادة الخام في كتابة قصة مطاردة، ذات حبكة ومكان محدد. وتمكنت من أن أكتب الجزء المتعلق بالمطاردة جيداً، كما تراءى لي، أما مادة الحلم المتقلّبة، الرائعة، الاستطرادية فقد استعصت عليّ كتابتها. وبذلك أكون لا أرضاً قطعت ولا ظهراً أبقيت. ومع ذلك، فقد شجعتني على أن أتطرق إلى كتابة قصص أكثر إبداعاً. ولعلي أكون قد نجحت في هذا، لو لم نتلق برقية من أومارا يحثّنا فيها على أن ننضم إليه في نورث كارولينا، حيث تزدهر العقارات إلى درجة كبيرة. وكدأبه، قال لنا إنه يشغل وظيفة كبيرة: «وهم» بحاجة إليّ من أجل الدعاية والإعلان.

أبرقت له على الفور وطلبت منه أن يرسل لنا أجرة القطار وأن يعلمني كم سيكون راتبي. وكان الجواب الذي تلقيته «لا تقلق، فكلّ شيء على ما يرام. استدن الأجرة».

انتاب مونا الشك بحدوث الأسوأ على الفور. كانت البرقية مثله

تماماً، حسب رأيها، مبهمة، غير واضحة، ولا يمكن الوثوق بها تماماً. ولم يكن الباعث على إرساله لنا هذه البرقية سوى شعوره بالوحدة.

ورحت أدافع عنه غريزياً، وبلغ بي الحماس حداً أني أحسست بأني أصبحت على شفا حفرة من الموت عن كل هذا، ولم أعد أستطيع أن أتراجع.

«حسناً»، قالت، «ومن أين سنحصل على أجرة الرحلة؟».

لم أجد ما أقوله. لدقيقة واحدة فقط. وفجأة سنحت لي فكرة لامعة. «النقود؟ ماذا، من تلك السحاقية الصغيرة التي التقيتِ بها في المخزن الكبير منذ أيام، هل تذكرين؟ الفتاة التي تبيع عطر تانسي».

«غير معقول!» كان ردّ فعلها الأول.

«هيا، هيا»، قلت، «لربما باركتك إذا طلبت منها».

قالت إنها تستبعد أن تقرضنا النقود، لكنها بدت وكأنها تقلّب الأمر في رأسها. وكنت على ثقة أنه سيكون لها موقف مختلف في الغد.

«أقول لك»، قلت لها وكأني أنهي الموضوع، «لنذهب ونشاهد مسرحية هذه الليلة، ما قولك؟ لنرى شيئاً مضحكاً».

قالت إنها فكرة رائعة. تناولنا الطعام خارج البيت، اخترنا عرضاً جيداً - في البالاس - وعدنا إلى البيت يكاد يغشى علينا من الضحك. وفي الواقع، فقد ضحكنا كثيراً بحيث استغرقنا ساعات طويلة حتى تمكنا من إغماض جفوننا.

وكما توقّعت، فقد ذهبت في صباح اليوم التالي لزيارة صديقتها السحاقية الصغيرة. لا مشكلة أبداً في اقتراض خمسين دولاراً. وحصلت على المبلغ بشق النفس من الفتاة.

اقترحت أن نوقف سيارات على الطريق لتقلنا على طريقة الأوتو

ستوب، بدلاً من أن نستقل القطار. فهذا سيبقي معنا شيئاً عندما نصل. «لا تعرفين ما يخبئ لنا أومارا من مفاجآت. فقد يكون كل ذلك مجرد سراب».

«قلت شيئاً مختلفاً البارحة»، قالت مونا.

«أعرف، لكننا نحن أولاد اليوم. إني أفضّل إيثار السلامة».

استسلمت بسهولة، ووافقت على أن نشاهد جزءاً أكبر من الريف بهذه الطريقة في السفر. بالإضافة إلى ذلك، عندما تكون امرأة إلى جانبك، فإنه يسهل عليك دائماً الحصول على توصيلة.

فوجئت صاحبة البيت بقرارنا، لكني عندما أوضحت لها أنني كُلفت بكتابة كتاب، تقبلت الأمر عن طيب خاطر وتمنّت لنا الخير.

«أي نوع من الكتب؟» سألت تمسك يدي مودعة.

«عن هنود تشيروكي»، قلت وأغلقت الباب وراءنا بسرعة.

توقفت لنا السيارات بسهولة كبيرة. لكن لدهشتي لم تسجل مونا سوى الإحباط. وعندما وصلنا هاربر فيري، شعرت بالغثيان ـ من المنظر الطبيعي، والبلدات، والناس الذين التقينا بهم، ووجبات الطعام التي تناولناها وكلّ شيء.

وصلنا هاربر فيري في أواخر العصر. جلسنا على صخرة عالية تطل على ثلاث ولايات. وكان يقبع تحتنا شيناندواه ونهر بوتوماك. إنها بقعة مقدّسة، إذا لم يكن لسبب آخر، فلأن جون براون، المحرّر العظيم، لقي حتفه هنا. لكن مونا لم تكن مهتمّة على الإطلاق بالجوانب التاريخية للمكان. أما بالنسبة إلى عظمة المشهد، فلم تتمكن من إنكار ذلك. غير أن ذلك ملأها بالتعاسة. والحقيقة أقول إنه انتابتني ذات المشاعر تقريباً، لكن لأسباب مختلفة.

14

«سأسبّح الآن بالنعم العظيمة السبع»، وهاهي اللازمة:

هيا اخرجوا جميعكم من البريّة
وليكن المجد،
الأب والابن وروح القدس
حتى الخلود.

سننشدها كثيراً ونحن نتلوى كالأفاعي في أشفيل، صدر الجنوب الخانق. لعل توماس وولف الذي ولد هنا يؤلف «*انظري إلى الوطن يا ملاكي!*» عندما دخلنا المدينة. للأسف لم أكن قد سمعت بتوماس وولف بعد، وإلا لكنت رأيت أشفيل بعينين مختلفتين. ومهما قيل عن أشفيل فهي رائعة. تقع في قلب إقليم سموكيس العظيم. أرض قبائل تشيروكي الهندية القديمة. ولا بد أن تكون جنة بالنسبة إلى هنود تشيروكي. وهي ما تزال جنة إذا نظرت إليها بضمير نقي.

كان أومارا هناك ليكون دليلنا إلى الجنة. لكننا مرة أخرى وصلنا متأخرين جداً. فقد اتخذت الأمور منحى سيئاً. إذ انتهت فترة ازدهار العقارات، ولم يكن هناك عمل ينتظرني في مجال الدعاية

والإعلان. لا عمل من أيّ نوع. والحقيقة أني شعرت بالارتياح. فبعد أن علمت أن أومارا قد ادّخر قليلاً من المال، يكفينا لبضعة أسابيع، قرّرت أن هذا المكان جيد لكي أمكث فيه بعض الوقت وأكتب. لكن مونا كانت العائق الوحيد، إذ لم تكن تحب الجنوب. لكن بدأ يراودني الأمل في أن تغيّر رأيها، فقلما وطأت قدمها خارج نيويورك.

وحسب ما ذكر أومارا، فقد كانت هناك مقصورة صغيرة يمكننا أن نستخدمها إلى أجل غير مسمى، دون إيجار، إذا أعجبنا المكان. وكانت البقعة في رأيه مثالية للكتابة، ولم تكن تبعد سوى مسافة قصيرة عن البلدة، فوق التلال. وبدا أنه متلهّف لكي ننتقل إلى هناك على الفور.

كان المساء قد حلّ عندما وصلنا إلى سفح التل، حيث سنحصل على مفاتيح المقصورة. وبمساعدة أبله ضخم الجثة امتطينا دابة في الظلام الدامس. أنا ومونا فقط، هذا كل ما في الأمر. وفيما رحنا نصعد التل ببطء مرهقين، كنا نسمع هدير سيل الجبل يندفع من جانبنا. كان الظلام حالكاً بحيث لا يمكنك أن ترى يدك أمامك. واستغرق الوقت ساعة تقريباً حتى نصل إلى المنطقة الخالية التي توجد فيها المقصورة. وما كدنا نترجل عن الدابة حتى هاجمتنا أسراب الذباب والبعوض. ودفع الأبله الباب، وهو فتى أخرق طويل لم يفتح فمه أبداً، وعلّق الفانوس بحبل يتدلّى من عارضة خشبية. وبدا واضحاً أن المكان لم يكن مأهولاً منذ سنوات. إذ لم يكن قذراً فقط، بل كان يعج بالجرذان والعناكب وكلّ ما يخطر ببالك من حشرات أيضاً.

تمددنا على السريرين جنباً إلى جنب؛ وتمدّد الأبله على الأرض عند قدمينا. وكانت تتناهى إلى سمعي أصوات الخفافيش القبيحة، وهي تنقّض حول رؤوسنا. وتعرضنا لهجوم شرس من الذباب والبعوض الذي أزعجه مجيئنا.

ولكن رغم كلّ هذا فقد غططنا في النوم.

وبدا لي أني لم أكد أغمض عينيّ، حتى أحسست بمونا تجذب ذراعي.

«ماذا في الأمر؟» تمتمت.

مالت عليّ وهمست في أذني.

«هراء»، قلت، «لعلك كنت تحلمين».

حاولت أن أنام ثانية. لكني بعد لحظة أحسست بها تمسكني ثانية.

«إنه هو»، همست «إني واثقة من ذلك. إنه يتحسس ساقي».

نهضت، أشعلت عود ثقاب، وألقيت نظرة فاحصة على الأبله. كان يتكئ على جانبه، عيناه مغمضتان، متصلباً كعصا.

«أنت تتخيّلين هذه الأشياء»، قلت «إنه نائم حقاً».

وفي الوقت نفسه، قلت من الأفضل أن احتاط للأمر. حيث أعرف أن أبلهاً كهذا يمتلك قوة كبيرة. أشعلت عود ثقاب آخر، وألقيت نظرة سريعة حولي أبحث عن شيء يمكنني أن أستخدمه كسلاح إذا تجاوز حدوده.

عند الشروق استيقظنا جميعنا ونحن نحك أجسادنا كالمجانين. كانت الحرارة خانقة. أرسلنا الولد ليجلب لنا دلواً من الماء، ارتدينا ثيابنا بسرعة، وقرّرنا أن نخرج على الفور. وفيما كنا ننتظر الأحمق حتى يحزم أغراضنا أخذنا نتفحص المكان بدقة أكبر. كانت الأشجار تطبق على المقصورة من جميع الجهات. ولم نتمكن من رؤية شيء حولها. فقط صوت خرير الماء الجاري، وزقزقة العصافير بجنون. تذكّرت كلمات أومارا وهو يودعنا عندما بدأنا نصعد طريق العنزات «إنه مكان مناسب لكما... منتجع مثالي».

وفيما كنا ننحدر من فوق التل على ظهر الدابة مرة أخرى، شاهدنا، وقد اقشعرت أبداننا، كيف أننا نجونا بأنفسنا بمعجزة. فمجرد زلّة صغيرة واحدة كان من الممكن أن يُقضى أمرنا. وقبل أن

نجتاز مسافة طويلة، ترجّلنا عن الدابة وتابعنا رحلتنا مشياً على الأقدام. وكان علينا أن نتحسب من الانزلاق رغم ذلك.

عند السفح تعرفنا على جميع أفراد العائلة. وكان هناك أكثر من دزينة من الأطفال يتقافزون، معظمهم نصف عراة. سألنا إن كان بوسعنا تناول طعام الفطور معهم. طلبوا منا أن ننتظر، وقالوا إنهم سينادوننا عندما يصبح الفطور جاهزاً. جلسنا على درجات سلم الرواق وانتظرنا مكتئبين. وكانت الحرارة الآن ـ رغم أنها لم تبلغ السابعة بعد ـ لا تكاد تطاق.

وحين دعونا للدخول وجدنا الأسرة كلّها قد تحلقّت حول المائدة. ولوهلة لم أكد أصدّق عيني: هل كانت كلّ تلك البقع السوداء التي تزّين الطعام ذباباً حقاً؟ وعند كل طرف من طرفي المائدة كان يقف طفلان منهمكان في نشّ الذباب بمناشف قذرة. جلسنا جميعنا، واستقر الذباب في آذاننا وعيوننا وأنوفنا وشعرنا وأسناننا. جلسنا صامتين لحظة فيما راح الأب الموقّر يتلو صلاته.

النعمة الأولى التي فاءها الله على مريم

كانت بركة الواحد،

أن تؤمن أن وليدها هو السيد المسيح

هو ابن الله الوحيد،

هو ابن الله الوحيد.

كانت الوجبة فخمة ـ حصى ولحم خنزير وبيض، وخبز ذرة وقهوة وكعكة مصنوعة من الطحين والبيض والزبد، وأجاص مطهو. كلّ هذا لقاء خمسة وعشرين سنتاً لكل رأس. لا رسوم إضافية على الذباب.

تكدّر أومارا قليلاً عندما رآنا قد عدنا بهذه السرعة. «لا مزاح»، قال مكتئباً.

«أنت تعرف أني أكره الذباب» هذا كلّ ما كان بوسعي أن أقوله.

وكما شاء الحظ فقد ذهبنا في ذلك المساء إلى مطعم كان قد فتح أبوابه للتو، في ويست أشفيل. وكان صاحب المطعم، السيد راولنز، معلماً. ولسبب ما أحبّنا على الفور. وعندما غادرنا أعطانا رسالة لنقدمها إلى زوج وزوجة يملكان غرفة مريحة للإيجار وبمبلغ زهيد. دفعنا إيجار أسبوع مقدماً، وفي اليوم التالي دفعنا للسيد راولنز ما يكفي لتسديد ثمن وجبات طعام تكفي لأسبوع.

منذ هذه اللحظة لم نعد نرى أومارا تقريباً. لا شجار. فقد اتجه في طريق آخر، هذا كلّ ما في الأمر.

استعرت آلة كاتبة من السيد راولنز، الذي أبدى رغبة كبيرة في تقديم خدمة «لأديب». وكنت قد حدثته عن الكتب التي ألفّتها، بالإضافة إلى الأعمال العظيمة التي كانت في طريقها إلى الظهور. تناولنا الطعام جميعنا في هذا المطعم الصغير المريح الدافئ. وكانت هناك جميع أنواع المأكولات الإضافية التي قدمها لنا مجاناً، تقديراً منه، بلا ريب، «للأديب». وكان بين الحين والآخر يدس سيجاراً جيداً في جيب سترتي، أو كان يصرّ على أن نقبل منه باينت من الآيس كريم لكي نتناوله عندما نصل إلى البيت.

تبين أن راولنز كان مدرس اللغة الإنكليزية في المدرسة الثانوية المحلية. مما يفّسر المناقشات الرائعة التي دارت بيننا عن الكتّاب الإليزابيثيين. إلا أن الشيء الذي جعلني أحبه أكثر، كما أظن، هو حبّي للكتّاب الإيرلنديين. وبما أني كنت قد قرأت ييتس، وسينج، واللورد دنساني، والليدي جريجوري، وأوكاسي، وجويس، هو الذي جعله يتخذني نديماً أنيساً له. وكان يتوق لقراءة أعمالي، إلا أنه كان ينتابني شعور بأن أبقيها بعيداً عن الأنظار، فضلاً عن أنه لايوجد حقاً شيء يمكنني أن أريه إياه.

في المنزل تعرفنا إلى بائع أخشاب من ويست فرجينيا. كان اسمه ماثيو. وكان أسكتلندياً حتى النخاع، لكنه كان شهماً. وكان أشدّ ما يسعده ويمنحه متعة صادقة، أن يصحبنا إلى الريف بسيارته

الجميلة خلال أيام عطله. وكان يحب الطعام اللذيذ، والنبيذ الجيد، وكان يعرف من أين يحصل عليها. وذات يوم دعانا تشيمني روك لتناول وجبة طعام، وأستطيع أن أقول بصدق إنها المرة الثانية التي استمتع بشيء مثلها في حياتي. ويجب أن أقول إن ماثيو قد فطن لوضعنا الحقيقي منذ البداية؛ فقد أوضح منذ بداية علاقتنا أننا عندما نكون معه يجب أن لا نمد أيدينا إلى جيوبنا.

إذا لم نقل سوى ذلك عن هذا الرجل فلن نوفّه حقه. إذ لم يكن رجلاً ثرياً، ولم يكن من النوع الذي يمكن أن نطلق عليه «مغفّلاً»، بل كان رجلاً حساساً في غاية الذكاء، ولم تكن معرفته تنحصر في الكتب أو الموسيقى أو الرسم فحسب، بل كان يعرف كذلك في أمور الحياة ـ والطبيعة، وخاصة الحيوانات، وكان مولعاً جداً بها. قلت إنه لم يكن ثرياً، ولو رغب لأصبح مليونيراً في فترة وجيزة جداً. لكنه لم يرغب في أن يصبح غنياً. كان واحداً من أولئك الأمريكيين النادرين القانعين بقسمتهم. وعندما تكون في صحبته تشعر وكأنك مع أخيك. وفي معظم الأحيان كنا نجلس في المساء، في الرواق الأمامي للمنزل نتحدث لمدة خمس أو ست ساعات دون توقف. حديث طلي، مريح.

أما الكتابة... فلم تكن تأتيني بأي شكل من الأشكال. وكان إنهاء قصة بسيطة، بل وقصة سيئة، يستغرق عدة أسابيع. ولا ريب أنه كان للحرارة علاقة بذلك. (ففي الجنوب تكاد الحرارة توضح كلّ شيء تقريباً، سوى حالات السحل والإعدام بدون محاكمة على يد الدهماء). وقبل أن أتمكن من كتابة سطرين تكون ثيابي قد بُللت كلياً بالعرق. وكنت أجلس عند النافذة وأحدق في أولئك المقيدين بالسلاسل ـ جميعهم من العمال الزنوج ـ يكدحون بالمعول والمجرفة. وكانوا ينشدون وهم يعملون، والعرق يسيل جداول من ظهورهم. وكلّما عملوا بجد أكثر خفّت قدرتي على العمل. فقد كان الغناء يتغلغل في دمي. إلا أن الشيء الذي كان يزعجني أكثر

هو نظرات الحرّاس؛ وكان مجرد النظر في وجوه كلاب الصيد البشرية هذه يبعث القشعريرة في عمودي الفقري.

ولتغيير رتابة الأيام، كنا أنا ومونا نقوم بنزهة من حين لآخر، نختار بقعة بعيدة، أيّ بقعة يمكننا أن نصل إليها بعد أن نجد سيارة تقلّنا مجاناً، وكنا نقوم بمثل هذه النزهات لكي نقتل الوقت فقط. (ففي الجنوب ينسل الزمن بسرعة). وكنا في بعض الأحيان نستقل أول سيارة قادمة، لا يهمنا في أي اتجاه ذاهبة. وفيما كنا متوجهين إلى ساوث كارولينا ذات يوم، تذكّرت بغتة اسم صديق قديم حميم كان معي في المدرسة، علمت أنه كان يدرّس الموسيقى في كلية صغيرة في ساوث كارولينا. وعزمت على القيام بزيارته. كانت رحلة طويلة، وكالعادة، لم نكن نملك شروى نقير. وكنت واثقاً من أنه كان بوسعنا تناول وجبة غداء جيدة مع صديقي القديم ذلك.

وكان قد مضى على رؤيتي لهذا الصديق القديم الحميم عشرون سنة. لقد ترك المدرسة قبلنا لكي يدرس الموسيقى في ألمانيا. وأصبح عازف بيانو في فرقة موسيقية، وجال في أنحاء أوروبا، ثم عاد إلى أمريكا ليقبل وظيفة تافهة في هذه البلدة الجنوبية الصغيرة. وكانت قد وصلتني منه بضع بطاقات ـ ثم ساد الصمت بيننا. وتساءلت إن كان من الممكن أن يكون قد نسيني. إذ إن عشرين سنة فترة طويلة.

كنت في كل يوم، ونحن في طريق عودتنا إلى البيت من المدرسة، أتوقّف في بيته لأستمع إلى عزفه. وكان يعزف جميع المعزوفات التي أصبحت أسمعها فيما بعد في الحفلات الموسيقية. وكان يعزفها (حسب عقلي الشاب) كما يفعل المايسترو. وكان يمتلك موهبة كبيرة تجعله يأسر مستمعيه. وكانت توجد على جبهته كتلة صغيرة، تبدو مثل قرن قصير، وكان أطول مني بقدم واحدة. ويبدو كأنه أجنبي، وكان يتكلم كأوروبي ينتمي إلى الطبقة الراقية التي قد

تُعلّم اللغة الإنكليزية إلى جانب لغته الأم. وكان عادة يرتدي بنطالاً مخطّطاً ومعطفاً أسود ناعماً. وكانت صداقتنا قد بدأت تتنامى عندما كنا في صف تعلم اللغة الألمانية. فقد اختار دراسة اللغة الألمانية، التي يجيدها تماماً، وذلك لكي لا يدرسها كثيراً. وكانت المعلّمة، وهي شابة ودودة لطيفة تتمتع بروح مرحة، قد أُعجبت به. إلا أنها كانت تتظاهر بأنها تشعر بالاستياء منه. وكانت بين الحين والآخر تبدي له ملاحظة تنم عن مكر. فذات يوم تملكها الغضب بسبب الترجمة الرائعة التي ألقاها بصوت مرتفع، وبدون تحضير، فسألته لماذا لم يختر أن يتعلم لغة أخرى، وإن كان لا يشعر برغبة في تعلّم شيء جديد؟ وما إلى ذلك. فأجاب وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة، بأن لديه أشياء أفضل ليفعلها خلال هذا الوقت.

«أوه عندك أشياء أفضل، أليس كذلك؟ مثل ماذا، هل يمكنني أن أسأل؟».

«الموسيقى».

«هكذا إذن! هل أنت موسيقار؟ عازف بيانو ـ أم بالأحرى مؤلف موسيقي؟».

«كلاهما»، قال.

«وماذا ألّفت من ألحان حتى الآن؟».

«سوناتات وقطع موسيقية وسيمفونيات وأوبرات... بالإضافة إلى عدد قليل من الرباعيات».

ساد الصف جلبة وصخب شديدان.

«أنت عبقري أكثر مما كنت أتصور»، قالت بعد أن هدأ الضجيج.

وقبل انتهاء الدرس، أعطاني ورقة خربش فيها بسرعة بعض الكلمات وطواها. ولم أكد أقرأها حتى طلبت مني أن أتقدم إليها.

سلّمتها لها. قرأت الرسالة، تضرج وجهها خجلاً، ورمتها في سلة المهملات.

وكان كلّ ما كتبه هو Sie ist wie eine.

تذكرت أشياء أخرى عن «هذا العبقري». كيف كان يمقت كلّ شيء أمريكي، كيف يمقت أدبنا، كيف كان يقلد الأساتذة، كيف كان يحتقر أيّ شكل من أشكال التمارين الرياضية. لكن الأهم من كل ذلك، تذكّرت الحرية التي كان يتمتع بها في بيته، والاحترام الذي يكنه له أبواه وأخوته. ولم يكن هناك شاب آخر مثله في المدرسة كلها. وكم كنت سعيداً عندما تلقيت منه أول رسالة مرسلة من هيديلبيرج. كان متمكناً إلى درجة كبيرة، ومتعصباً أكثر من الألمان. لماذا أقيم في أمريكا؟ لماذا لم أنضمّ إليه وأصبح شاعراً ألمانياً جيداً؟

قلت في نفسي كم سيكون غريباً إن قال لي ـ «إني لا أتذكّرك» ـ عندما أدركت أننا وصلنا البلدة. وسرعان ما علمت أن صديقي القديم كان قد غادر في اليوم السابق ليقوم بجولة في الشرق. يا له من حظّ! كنا نتضور جوعاً، إذ تجاوز الوقت الظهيرة بفترة طويلة. وفي محاولة يائسة، تشبثت بالمسؤولة في الكلية، وهي سيدة مسنة متذمرة هشّة، وحاولت أن أدخل في روعها أننا حوّلنا طريقنا بينما كنا متجهين إلى المكسيك ـ وأن سيارتنا تعطلت على بعد أميال ـ لنلقي التحية على صديق طفولتي العزيز الذي لم أره منذ أمد بعيد. وبفضل إلحاحي تمكنت من إقناعها (بالتخاطر) أننا كنّا في حاجة إلى بعض المرطبات. وبتأفف طلبت لنا في نهاية الأمر قليلاً من الشاي والكاتو.

مشينا إلى طرف البلدة لنمدد ساقينا. وهنا ركبنا سيارة فورد محطّمة متجهة إلى البيت. وقال السائق، الذي كان محارباً قديماً ومخبولاً بعض الشيء، وثملاً أيضاً ـ ففي الجنوب يشرب الجميع حتى الثمالة ـ إنه سيمر عبر أشفيل. وبدا أنه لم يكن يعرف أين

سيتجه تماماً، سوى أنه متجه شمالاً. وكان الحديث الذي دار بيننا خلال هذه الرحلة الطويلة في طريق العودة إلى أشفيل، يتسم بالجنون. فلم يصب هذا المسكين في الحرب، ولم تهرب زوجته لتعيش مع أعز أصدقائه فقط، بل تعرض كذلك لعدّة حوادث سيئة منذ ذلك الحين. ومما زاد الطين بلة أنه كان غبياً ومتعصباً، أحد أولئك الأشخاص المشاكسين، ممن يصبحون معتوهين أكثر إذا اتفق وكانوا جنوبيين. كنا نقفز من موضوع إلى آخر كالجنادب، وبدا من الواضح أنه لم يكن يهتم إلا بمشاكله وتعاسته. وفيما كنا نقترب من أشفيل ازداد شراسة ومشاكسة. وقال لنا بصراحة إننا لم نعجبه منذ اللحظة التي رآنا فيها، بل كان يكره كلّ شيء يتعلق فينا، حتى طريقتنا في الحديث. وعندما ترجلنا أخيراً في أشفيل كان يرغي ويزبد.

مددنا أيدينا لنشكره لأنه تفضل ونقلنا بسيارته، ولم نشأ أن نضيّع كلماتنا فقلنا له «إلى اللقاء!».

«إلى اللقاء؟»، صاح، «ألن تدفعا لي؟».

«ندفع لك؟» صعقت. من سمع أن شخصاً يدفع لقاء توصيلة مجانية بالسيارة؟

«لا أظن أنكما حسبتما أنكما ستركبان مجاناً، أليس كذلك؟»، صاح، «وماذا عن البنزين والزيت الذي اشتريته؟»، وانحنى خارج السيارة بعدائية شديدة.

كان عليّ أن أقدم له بعض التوضيحات الطويلة وبسرعة. نظر إلينا بريبة، ثمّ هزّ رأسه وغمغم: «هذا ما فكرت به عندما وضعت عيني عليكما»، ثم استدرك قائلاً: «لم يخب ظني بكما» ثم حدث شيء لم أكن أتوقعه: فقد انفجر بالبكاء. انحنيت لأهدئ من روعه، وقد تفطر قلبي حزناً عليه. «ابتعد عني!» صرخ، «ابتعدا!»، فتركناه جالساً مكوّماً فوق المقود، رأسه بين ذراعيه يجهش في البكاء.

«بحق المسيح ماذا يعني ذلك؟» قلت، مضطرباً بعض الشيء.

«أنت محظوظ لأنه لم يشهر سكيناً عليك»، قالت مونا. وأكّدت هذه التجربة الاعتقاد الذي يترسخ لديها دائماً عن الجنوبيين ـ بأنهم أشخاص متقلبو المزاج. وقلت حان الوقت لكي نفكر بالعودة إلى البيت.

في اليوم التالي، حين جلست إلى الآلة الكاتبة رحت أحدق في الفراغ، وأتساءل إلى متى يمكننا أن نعيش في كارولاينا المشمسة. فقد مضت أسابيع عديدة لم ندفع خلالها سنتاً واحداً لقاء إيجار غرفتنا. ولم أجرؤ على التفكير بالمبلغ الذي كنا ندين به للسيد راولنز الطيب لقاء وجبات الطعام.

وفي اليوم التالي، ولدهشتنا التامة، استلمنا برقية من كرونسكي يخبرنا فيها أنه وزوجته في طريقهما إلينا، وأنهما سيريانا في هذا المساء. ربح مفاجئ!

وكما هو متوقع، فقد وصل هو وزوجته قبيل وقت العشاء.

هيا اخرجوا جميعكم من البريّة

وليكن المجد،

الأب والابن وروح القدس

حتى الخلود.

كان أول شيء سألناه، رغم أنه لم يكن لائقاً، فيما إذا كان معهما مال لإنقاذنا.

«هل هذا هو كل ما تتناولانه؟» كان كرونسكي باشّاً. «هذا سهل. كم تريد؟ هل يكفيك خمسون دولاراً؟».

عانق أحدنا الآخر ببهجة. «نقود»، قال، «لماذا لم ترسل لي برقية؟» ثم أردف «هل أحببت حقاً هذا المكان؟ إنه يخيفني نوعاً ما، أقول لك الحق. هذه البلاد للزنوج ولليهود. إنها تخيفني».

حين كنا نتناول طعامنا أراد أن يعرف ماذا كتبت، أو إن كنت قد بعت أيّ شيء، وما إلى ذلك. وقال إنه يشك في أن الأشياء ليست على ما يرام معنا. وهذا ما دعاه لأن يهرع إلينا فجأة. «أمامي ست وثلاثون ساعة أمضيها معك»، قال هذا بابتسامة تعني ـ لاتتحمّلني دقيقة واحدة أكثر من ذلك.

أيدت مونا فكرة العودة معهما، لكني لسبب غير منطقي رغبت في البقاء مدة أطول. تجادلنا حول ذلك بشيء من الحماس لكننا لم نتوصل إلى حل.

«بئس هذا السؤال»، قال كرونسكي. «الآن ما دمنا هنا، ما هي الأماكن التي سترياننا إياها قبل أن نغادر؟».

أجبت على الفور: «بحيرة جاناليسكا»، لم أعرف لماذا قلت هذا، فقد خرجت من فمي دون تفكير. لكني بغتة عرفت سبب ذلك بسرعة، وذلك لأني أردت أن أرى واينزفيل مرة أخرى.

«في كلّ مرّة أقترب فيها من هذا المكان ـ واينزفيل ـ أشعر وكأني أرغب في الاستقرار هنا. لا أعرف ماذا يوجد في هذا المكان، لكنّه يستهويني».

«لا يمكن أن تستقر في الجنوب أبداً»، قال كرونسكي. «فقد ولدت في نيويورك، اسمع، لماذا لا تتوقّف عن الترحال وتسافر إلى الخارج؟ إنّ مكانك هو فرنسا، ألا تعرف ذلك؟».

وافقت مونا بحماس شديد.

«أنت الشخص الوحيد الذي يحدثه بالمنطق»، قالت.

«لو كنت مكانك»، قال كرونسكي، «لاخترت روسيا. لكني لاأحبّ السفر. فأنا لا أرى أن نيويورك سيئة للغاية، ألا أتظن ذلك؟» ثم أضاف بأسلوبه المميز: «ما أن تصبح لي عيادة خاصة بي، سأساعدكما لتسافرا إلى أوروبا. إني جادّ في ذلك. لقد خطرت لي هذه الفكرة مرات عديدة. إنكما ستُفسدان هنا. أنتما لا تنتميان إلى

هذا البلد، أنتما الاثنان. إنه بلد صغير جداً، تافه جداً... ممل إلى حد القرف، أما أنت، يا سيد ميلر فتوقف عن كتابة هذه الأشياء اللعينة للمجلات، هل تسمعني؟ أنت لم تُخلق لكتابة هذه السخافات. لقد خُلقت لتؤلف كتباً. ألّف كتاباً، لماذا لا تفعل ذلك؟ يمكنك أن تفعل ذلك...».

في اليوم التالي ذهبنا إلى واينزفيل وإلى بحيرة جاناليسكا. لم يترك أيّ من المكانين أدنى انطباع لدى أيّ منهما.

«شيء مضحك»، قلت ونحن نستقل السيارة للعودة، «لا يمكنك أن تتصور رجلاً مثلي يمضي بقية حياته في بقعة كهذه ـ أعني مثل واينزفيل. لماذا؟ لماذا تبدو في غاية الروعة؟».

«أنت لا تنتمي إلى هذا المكان، هذا كلّ ما في الأمر».

«أنا لا أنتمي إلى هذا المكان، إيه؟» إلى أين أنتمي إذاً، سألت نفسي، فرنسا؟ ربما. ربما لا. فأربعون مليون فرنسي رقم كبير ويصعب ابتلاعه في جرعة واحدة. وإذا كان عليّ أن أختار، فإني أفضل إسبانيا. بالغريزة أميل إلى الإسبان، كما أحبّ الروس.

بطريقة ما، جعلني هذا الحديث أفكر في الناحية الاقتصادية مرة أخرى. كان هذا يشكل لي كابوساً على الدوام. وفي لحظة ضعف وجدت نفسي أتساءل إن لم يكن من الأفضل أن نعود إلى نيويورك في نهاية الأمر.

لكني غيرّت رأيي في اليوم التالي. اصطحبنا كرونسكي وزوجته إلى طرف البلدة حيث عثرنا على سيارة تقلهما بسرعة. وقفنا هناك لحظة نلوّح لهما بالوداع، ثم استدرت نحو مونا ودمدمت قائلاً: «إنه بيضة جيدة، كرونسكي هذا».

«هو أفضل أصدقائك»، قالت على الفور.

بالخمسين دولاراً التي أعطانا إياها كرونسكي سددنا جزءاً من ديوننا، وكنا واثقين من أن كرونسكي سيبعث لنا مزيداً من

النقود حالما يصل إلى نيويورك، وبذلت محاولة أخرى. وبقوة الإرادة المطلقة نجحت في أن أنهي قصة أخرى، وحاولت أن أبدأ أخرى، لكن عبثاً: فلم يكن في رأسي أي فكرة. لذلك بدأت أكتب رسائل إلى كلّ من هبّ ودبّ، حتى المحرّر الرحيم الذي تعهد سابقاً بأن يقدم لي وظيفة ليساعدني. وبحثت كذلك عن أومارا، لكنه كان في مزاج يائس بحيث لم تكن لديّ الشجاعة لأذكر أمامه مسألة النقود.

لم يكن ثمة شكّ في ذلك، إذ كان الجنوب يفتّ من عزمنا. وقد بذل صاحب البيت وزوجته كل ما بوسعهما لجعلنا نشعر بالارتياح؛ كما فعل السيد راولنز ليشجعنا. ولم يذكر أيّ منهما كلمة واحدة عن المال الذي كنا ما نزال ندين به لهما. أما ماثيوس فقد تكررت زياراته إلى ويست فيرجينيا وأصبحت تدوم لفترات أطول. بالإضافة إلى ذلك لم نتمكن من الاستدانة منه.

كان للحرارة، كما قلت، تأثير كبير على تدهور معنوياتنا. فهناك حرارة يمكن أن تبعث فيك الدفء والنشاط، وهناك حرارة يمكن أن توهن الجسم، وتستنزف قواه، وتجعل شجاعته تخور، حتى لا يعود يرغب في العيش. وأظن أن دمنا أصبح سميكاً للغاية. إذ إن اللامبالاة التي تميز المواطنين هنا، أُضيفت إلى شعورنا باللامبالاة. كان أشبه بالرقاد في فراغ. إذ لا يسمع المرء كلمة فنّ هنا: فهي غير موجودة في مفردات هؤلاء الناس. ولديّ شعور بأن هنود التشيروكي أنتجوا فنّاً يفوق ما أنتجه هؤلاء الشياطين المساكين في حياتهم. ويفتقد المرء إلى وجود الهنود الذين كانت هذه أرضهم. غير أن المرء يشعر بوجود الزنوج الطاغي. وجود ثقيل معكّر. وكما قلت كان كل شيء خواء، خواء ملتهب وحار، إذا كان بوسع المرء أن يتخيل شيئاً كهذا.

كانت تتملكني رغبة ملحة أحياناً في أن أتسكع عبر الشوارع المقفرة. لكن السير في الطرقات لا يبعث على البهجة، ولا يدخل متعة

إلى النفس. فرغم أن المشهد يبدو رائعاً للعين في كل اتجاه، إلا أن المرء لم يكن ينتابه من الداخل سوى الإحساس باليأس والقنوط. فجمال البيئة المحيطة لم يسهم إلا بتدمير المرء. فمن المؤكد أن الله كان يرغب في أن يعيش الإنسان هنا حياة مختلفة. فقد كان الهندي أقرب إلى الله بكثير. أما الزنجي فكان سيزدهر هنا لو منحه الرجل الأبيض فرصة. وكنت أتساءل، وما زلت أتساءل، فيما إذا لن يتحد الهندي والزنجي في نهاية الأمر، ويطردا الرجل الأبيض، ويقيما الجنة على أرض الحليب والعسل هذه. آه حسناً.

النعمة التالية التي أنعم الله بها على مريم

هي نعمة الاثنين،

أن تؤمن بأنه يمكن لصغيرها السيد المسيح

أن يقرأ الإنجيل بكامله.

وصلتنا بعض النقود ـ مصروف جيب، لا أكثر! بسبب الرسائل التي أرسلتها «إلى كلّ من هبّ ودبّ». ومع ذلك لم تصلنا ولا كلمة من كرونسكي.

بقينا بضعة أسابيع أخرى، وبعد أن أصبنا بالإحباط قرّرنا ذات ليلة أن ننهض في ساعات الفجر الأولى وننسلّ خارجين. لم يكن لدينا سوى حقيبتين صغيرتين. وبعد ليلة لم يغمض لنا فيها جفن نهضنا مع بزوغ الخطوط الأولى للفجر، وحمل كل منا حذاءه بيد، وحقيبة باليد الأخرى، وتسللنا خارجاً كالفئران دون إحداث جلبة. سرنا عدّة أميال قبل أن تصل سيارة. وعندما وصلنا إلى وينستن ـ سالم، كان الوقت ظهراً، حيث قرّرت أن أرسل رسالة إلى أبي أطلب فيها منه أن يرسل لي بضعة دولارات. واقترحت أن يرسل النقود برقياً إلى دورهام، حيث عزمنا قضاء الليلة هناك.

قبيل المساء دخلنا دورهام. وكانت برقية تنتظرني، كما توقعت. كانت تقول: «آسف يا ولدي لكن لا يوجد لدي سنت واحد في

المصرف». تملكتني رغبة في البكاء، لا بسبب المحنة التي نمر فيها، بل بسبب المهانة التي جعلت الرجل العجوز يشعر بها عندما أرسل لي رسالة كتلك.

عند الظهيرة تناولنا سندويشة واحتسينا قهوة دفع لنا ثمنها شخص غريب. كنا نتضور جوعاً. جوع أكثر مما كنا نشعر به في الأحوال العادية، بسبب المسافة المستحيلة التي كان علينا أن نقطعها على معدة خاوية. لم يكن ثمة شيء يمكننا أن نفعله سوى أن نرحل ثانية ـ وهذا ما فعلناه ـ كما لو كنا شخصيين آليين.

فيما كنا نقف على الطريق السريع، منهكين جداً، ومهزومين إلى درجة أنه لم يكن بمقدورنا أن نخطو خطوة واحدة أخرى، وقفنا هناك نراقب بفراغ الشمس وهي تميل نحو الغروب، مثل حبة بندورة وقد انبجست. توقفت بغتة سيارة حديثة وصدر من داخلها صوت ينم عن مرح ـ «أتريدان أن أوصلكما؟». كانا رجلاً وامرأة متوجهين إلى بلدة صغيرة تبعد حوالى الساعتين. كان الرجل من ألاباما، ويتكلم بلهجة رجل من أعماق الجنوب، أما المرأة فكانت من آركنساس. كانا بشوشين وحيويين، إلى درجة أنهما بديا وكأنهما لا يحملان هموماً في هذا العالم.

في الطريق حدثت مشكلة للسيارة، مشكلة صغيرة تلو الأخرى. وبدلاً من أن تستغرق الرحلة ساعتين، استغرقت ما يقرب من خمس ساعات. وعندما وصلنا إلى وجهتنا، وبفضل هذا التأخير، توطدت بيننا أواصر صداقة قوية. حدثناهما عن حقيقتنا، الحقيقة كلها ولاشيء سوى الحقيقة، ودخلنا مباشرة إلى قلبيهما. ولن أنسى ماحييت كيف هرعت تلك المرأة الطيبة فور دخولنا إلى المنزل إلى الحمام، وملأت الحوض بالماء الحار، وأخرجت الصابون والمناشف، وطلبت منا متوسلة أن نستريح فيما ستقوم هي بإعداد وجبة طعام. وعندما خرجنا ثانية، نرتدي ثوبي الحمام الخاصة بهما، كانت قد أعدّت المائدة؛ وجلسنا في الحال لنتناول وجبة رائعة من اللحم المفروم والبيض المقلي والكعك الساخن

والقهوة وبعض المربيات والفاكهة والفطائر. كانت الساعة تقارب الثالثة صباحاً عندما انتهينا من تناول الطعام. واستجابة لطلبهما نمنا في سريرهما، ولم ندرك إلا عندما صحونا، بأنّ مضيفينا الطيبين كانا قد أعدّا لنفسيهما سريراً بعد أن أزالا المقاعد من السيارة.

حين نهضنا عند الظهيرة تناولنا فطوراً دسماً، وبعدها أراني الرجل حديقة بيته الخلفية الضخمة حيث تناثرت فيها بقايا السيارات. كان هذا الحطام مصدر رزقه. وبالتأكيد كان رجلاً سعيداً محظوظاً، بل كانت زوجته أكثر سعادة. وبدا أن زيارتنا غير المتوقعة قد أدخلت على نفسيهما سعادة غامرة. لماذا لم نبق معهما بضعة أيام أخرى، كما طلبا منا بإلحاح، لا أعرف.

فيما كنا نستعد للمغادرة، انتحت المرأة بمونا جانباً ودست في يدها بضعة دولارات، فيما دس الزوج علبة سجائر تحت إبطي. وألحّا على توصيلنا بالسيارة لمسافة غير بعيدة خارج البلدة، لنعثر على سيارة بسهولة أكبر. وعندما ودعناهما أخيراً كانت الدموع تغرورق في عيونهما.

سارت الأمور على ما يرام، وكنا قد عزمنا على أن نصل إلى واشنطن في ذلك اليوم. وعندما اتجهنا نحو ريتشموند كان المساء قد حلّ. ومرة أخرى أصبحنا مفلسين. فقد اختفت الدولارات القليلة التي أعطتنا إياها المرأة ومعها المحفظة. هل سرق أحدهم تلك الدولارات القليلة البائسة؟ لو كان الأمر كذلك، لكانت نكتة سخيفة. ومع ذلك فلم يؤثر علينا فقدان ثروتنا الصغيرة خاصة، أننا قد اقتربنا من هدفنا.

حان وقت الطعام ثانية...

وبعين حسابية دقيقة أجرينا مسحاً على مختلف المطاعم وقرّرنا أخيرا أن نرتاد مطعماً يونانياً. قررنا أن نأكل أولاً، ثمّ نخبر صاحب المطعم بالمأزق الذي كنا فيه. طلبنا وجبة طعام جيدة، وكميات إضافية من الحلوى، ثم أخبرناه بلطف أننا لا نملك نقوداً.

إلا أنه لم يتأثر بقصتنا كثيراً، ويبدو أن ذلك أعطاه الانطباع الخاطئ. وكان كلّ ما فكّر به ـ بالكاد يكون حلاً! ـ هو أن يستدعي الشرطة. وما هي إلا لحظات حتى جاء شرطي على دراجة نارية. وبعد الاستجواب المعتاد سألنا بصراحة ماذا ننوي أن نفعل إزاء ذلك. قلت إنه إذا كان مستعداً لدفع ثمن البرقية التي سنرسلها إلى نيويورك، فمما لا شك فيه سيصلنا المبلغ في صباح اليوم التالي. قال إنها فكرة معقولة، وتطوّع أن نقيم على حسابه في أحد الفنادق في مكان قريب. ثم اتجه إلى اليوناني وقال له إنه سيكون مسؤولاً عنا. اعتبرت ذلك شهامة منه.

أرسلت برقية إلى أولريك، ولم تكن تنتابني أية مخاوف. رافقنا الشرطي إلى غرفتنا، وقال إنه سيقوم بجولته الآن وسيزورنا في صباح اليوم التالي. ورغم أننا كنا من نيويورك فقد أبدى لنا احتراماً نادراً. إن شرطي نيويورك حصان من لون آخر.

أثناء الليل نهضت لأتأكد من أن صاحب الفندق لم يقفل علينا الباب. جافاني النوم ولم أغمض عيني طوال الليل. ومع تقدم الليل بدأ يراودني إحساس متزايد بأننا لن نحصل على رد على برقيتنا.

كان من رابع المستحيلات أن ننسل خارجين دون أن يكون الكاتب الليلي يراقبنا. نهضت، توجهت إلى النافذة، وتطلعت إلى الخارج. كانت الغرفة على علو ستة أقدام تقريباً عن الأرض. لقد حلّت المسألة: إذ سنغادر من النافذة عند الفجر.

مع بزوغ الشمس كنا نقف مرة أخرى على الطريق السريع خارج البلدة على مسافة ميل أو ميلين. كنا ما نزال نحمل حقيبتينا الصغيرتين. وبدلاً من أن نطرق أقصر طريق إلى واشنطن، توجهنا إلى تاباهانوك ـ فلعل الشرطي يتعقبنا. وكما شاء الحظّ توقفت لنا سيارة بسرعة. وبالطبع لا فطور ولا غداء. وفي الطريق تناولنا بضع تفاحات خضراء، سببت لنا مغصاً.

وبعد مسافة قصيرة خارج تاباهانوك، أقلّنا محامي في الطريق إلى واشنطن. شخص رائع، يقرأ جيداً، طلي اللسان. واستمع إلى قصتنا باهتمام. ولا بدّ أن ذلك قد أثّر عليه، لأننا عندما ودعناه في واشنطن أصرّ على أن يقرضنا عشرين دولاراً. قال إنه «يقرضنا» المبلغ، لكن ما كان يقصده بصراحة هو أن ننفقه وننسى الأمر. وفيما كان يعبث بالكابح غمغم من وراء كتفه:

«حاولت ذات مرة أن أكون كاتباً».

كنا في غاية الحبور لأننا لم نستطع أن نصل إلى البيت بالسرعة المطلوبة. وعند حوالى منتصف الليل وصلنا إلى المدينة الكبيرة. وكان أول شيء فعلناه هو أننا خابرنا كرونسكي. هل يمكننا أن نقيم عنده هذه الليلة؟ بالتأكيد. أخذنا قطار الأنفاق واتجهنا إلى البرونكس حيث كان يقيم.

كان قطار الأنفاق مشهداً كئيباً بالنسبة لأعيننا. نسينا كيف بدا الناس شاحبين ومتداعين، نسينا الرائحة الكريهة التي كانت تفوح من المدينة. المطحنة. عدنا إلى الفخ ثانية.

حسناً، أصبحنا على الأقل على أرض مألوفة. لعل أحداً سيّسر لرؤيتنا بعد انقضاء بضعة شهور. لعلي سأبدأ في البحث عن عمل بجد حقيقي.

وهكذا كانت النعمة السادسة!

النعمة التالية التي غمرت مريم

كانت النعمة السادسة

وهي أن ترى طفلها المسيح

على الصليب.

وهاهو الدكتور كرونسكي...

«حسناً، حسناً! لقد عدت ثانية! قلت لك ذلك. لكن لا تظن أنه يمكنك أن تقيم مضاربك عندنا. لا يا سيدي! يمكنك أن تقيم الليلة،

الليلة فقط، هذا كلّ شيء. هل أكلتما؟ يجب أن أنهض باكراً. لا توجد مناشف نظيفة، لا تطلب أياً منها. ستنام بملابسك. ولا تتوقّع أن يُقدم لك طعام الفطور في السرير. عمت مساء!»، قال كلّ ذلك بنَفَس واحد.

أزلنا الكتب الطبية ونفايات الطعام عن الأسرّة، أزحنا الملاءات الرمادية، ولاحظنا بقعاً من الدم لكننا لم نقل شيئاً، صعدنا إلى السرير حبواً.

أو اخرجوا جميعكم من البريّة والمجد لك!

15

قرأت في مجلة بوذية منذ فترة قريبة شيئاً من هذا القبيل: «لو تمكنا من الحصول على ما نريد عندما نظن أننا بحاجة إليه، فلن تكون الحياة مشكلة أو لغزاً أو ذات معنى». كنت منحرف المزاج بعض الشيء في الصباح الذي قرأت فيه هذه العبارة. قرّرت أن أمضي اليوم في السرير. لكن عندما قرأت هذه الكلمات انفجرت ضاحكاً. وبسرعة شديدة نهضت وغادرت السرير، وأنا أدندن مبتهجاً كالعادة.

لو قرأت هذه الحكمة في الفترة التي كنت أكتب عنها، أشك في أنها ستكون ذات تأثير عليّ. إذ كان يستحيل أن ألقي نظرة منفصلة على الأشياء. كان اليوم مليئاً بالمشاكل، مفعماً بالتعقيدات. ثمة لغز في كلّ شيء، لغز مزعج. اللغز الذي يغلّف الكون ـ كان ذلك ترفاً ثقافياً محضاً. حيث المعنى الكامل للحياة يغلّف الوسيلة التي تجعلك تظل عائماً على السطح. يبدو ذلك بسيطاً، لكننا نعرف كيف نعقّد حتى مثل هذه المشكلة البسيطة.

أشعر بالغثيان من أسلوب حياتنا العشوائي، قررت أن أبحث عن عمل. سأتوقف عن التنقيب عن الذهب. سأكفّ عن مطاردة أقواس قزح. عزمت على كسب ما يكفينا من قوتنا اليومي، وليحدث ما يحدث. أعرف أن ذلك سيشكل ضربة بالنسبة لمونا. فقد كانت مجرد فكرة أن أقبل وظيفة لعنة بالنسبة لها. والأسوأ من ذلك فهي تعتبر ذلك بمثابة خيانة شنيعة.

حين أخبرتها بقراري، كان ردُّها مميزاً: «أنت تهدم كلّ مابنيته!».

«لا يهمني»، أجبت، «يجب أن أفعل ذلك».

«عندها سأبحث عن عمل أنا أيضاً»، قالت. وفي هذا اليوم بالذات قبلت وظيفة نادل في مطعم القِدْر الحديدي.

«ستندم على ذلك»، قالت لي. وكانت تعني أنه من المؤسف أن يتخلى أحدنا عن الآخر. كان عليّ أن أعدها بأنني أثناء بحثي عن عمل سأتناول وجبات طعامي في مطعم القدر الحديدي مرتين في اليوم.

ذهبت ذات مرة لأتناول طعام الغداء، إلا أن رؤيتي لها وهي تقوم على خدمة الزبائن أوهن من عزيمتي ولم أعد أستطيع أن أعود مرة أخرى.

بدا الحصول على وظيفة منتظمة في أحد المكاتب شيئاً مستبعداً. فأولاً، أنا لا أحسن حقاً القيام بأي عمل، وثانياً فأنا أعرف بأنه لن يكون بوسعي احتمال روتين العمل. لذلك كان عليّ البحث عن عمل يمنحني قدراً من الحرية والاستقلالية. ولم تكن هناك سوى وظيفة واحدة يمكنني التفكير في القيام بها ألا وهي الكتابة. ورغم أنها لن توفر لي مرتباً منتظماً، إلا أن وقتي سيكون ملكي، وهذا يعني الشيء الكثير بالنسبة لي. فالاستيقاظ صباح كلّ يوم وفي ساعة محددة لم يكن أمراً وارداً.

سرعان ما علمت بوجود موسوعة مجزأة. ولم يجد مدير المبيعات، الذي قدّمت له طلبا للعمل، صعوبة كبيرة في إقناعي بأنها أفضل موسوعة في السوق. وبدا أنه اقتنع بأني أمتلك إمكانيات ممتازة. وقبل أن أبدأ العمل قدم لي بعض النصائح الشخصية، وطمأنني إلى أنه لا توجد صعوبة في بيعها. غادرت المكتب حاملاً حقيبة مليئة بصفحات من النماذج، وأنواع مختلفة من المجلدات،

ومختلف الأشياء التي يحملها بائع الكتب عادة. وكان عليّ التوجه إلى البيت أولاً، لأدرس جميع هذه الترهات ثم أنطلق سعياً وراء رزقي. لم يكن عليّ اعتبار كلمة «لا» جواباً قاطعاً.

بعت مجموعتين في اليوم الأول، وحصلت على عمولة جيدة بعد أن تمكنت من بيع زبائني أكثر المجموعات غلاء. وكان أحد ضحاياي طبيباً يهودياً، شخصاً طيباً، ذا شخصية جذابة، لم يصرّ على بقائي لتناول طعام العشاء مع أسرته فقط، بل قدم لي كذلك أسماء عدد من أصدقائه الحميمين الذين كان واثقاً من أنهم سيشترون مني. في اليوم التالي بعت ثلاث مجموعات، بفضل هذا اليهودي اللطيف شعر مدير المبيعات بالغبطة في سره، لكنه تظاهر بأن حظي لا يختلف عن حظ أي مبتدئ عادي. وحذّرني من الإحساس بالغرور من هذا النجاح السريع.

«لا تكن راضياً عن نفسك كثيراً لأنك تبيع مجموعتين أو ثلاث مجموعات في اليوم. حاول أن تبيع خمساً أو ستاً منها. لدينا بائعون يبيعون حوالى اثنتي عشرة مجموعة في اليوم».

«أنت ملئ بالخراء»، قلت في نفسي. «إن الشخص الذي يمكنه أن يبيع اثنتي عشرة مجموعة من الموسوعة في اليوم لن يرضى ببيع موسوعات، بل سيبيع جسر بروكلن».

على أية حال، لم يكن هذا العمل اللعين أكثر من مجرد عذر لكي أبقى حيوياً، وسيلة لأعزز الزعم بأني أكافح لكسب العيش. لماذا كنت أحرص على الادعاء بذلك، لا أعرف، ما لم يكن الشعور بالذنب هو الدافع إلى ذلك. وكانت مونا تكسب ما يكفي لإعالتنا نحن الاثنين. كما لم تتوقف عن جلب هدايا إلى البيت، سواء كانت مالية أو عينية. اللعبة القديمة ذاتها. فلم يكن بوسع أولئك الأشخاص مقاومة الرغبة في عدم تقديم الأشياء لها. وبالطبع كان جميعهم من «المعجبين». وكانت تفضّل أن تدعوهم «معجبين» لا «عشاقاً». وغالباً ما أتساءل ماذا يعجبهم فيها، وخاصة أنهم لم يحصلوا منها

إلا على الصد والجفاء. وعندما تستمع إليها وهي تتحدث عن هؤلاء «الحمقى» و «المعتوهين»، تدخل في روعك أنها لا تتصدق عليهم حتى بابتسامة.

كانت غالباً ما تبقيني مستيقظاً ليال بطولها وهي تحدثني عن هذا الحشد الجديد من المتطفلين. شيء غريب، يجب أن أقول. دائماً مليونير أو مليونيران بينهم، دائماً ملاكم أو مصارع، دائماً أحمق، وعادة من الجنس المريب. لم أكن أفهم ما الذي كان هؤلاء الشواذ يرونه فيها، أو يتمنّون الحصول عليه منها. ومع مرور الوقت كانت أعدادهم تزداد. فالآن كلود. (رغم أنها، والحق يقال، لم تشر إلى كلود أبداً على أنه معجب). لا يهم، كلود. كلود ماذا؟ كلود فقط. وعندما كنت استفسر منها ماذا كان كلود هذا يفعل لكسب قوته، كانت تصاب بنوبة هستيرية. كان مجرد ولد! لا يزيد عمره على ستة عشر عاماً بيوم واحد. لكنه بالطبع يبدو أكبر من ذلك بكثير. يجب أن أراه ذات يوم. كانت واثقة من أني سأعجب به كثيراً.

حاولت أن أبدو لا مبالياً، لكنها لم تعر ذلك أي اهتمام. وكانت تصرّ على أن كلود شخص فريد من نوعه. فقد جاب العالم كله. «استمع إليه فقط وهو يتكلم»، همهمت قائلة. «سيدهشك. إنه أعقل من معظم الرجال في الأربعين. يكاد يكون المسيح...».

لم أستطع أن أتمالك نفسي، فانفجرت ضاحكاً. كان عليّ أن أضحك في وجهها.

«حسناً، اضحك. لكن انتظر حتى تلتقي به، عندها ستغير رأيك».

من هو كلود هذا، فقد تناهى إليّ أنه قدم لها خواتم وأساور نافاهو الجميلة وزينات أخرى. لقد أمضى كلود صيفاً بكامله مع سكان نافاهو من الهنود الحمر. بل إنه تعلّم التكلم بلغتهم. وقالت إنه لو أراد لأمكنه أن يمضي ما تبقى من حياته مع أمة نافاهو.

أردت أن أعرف من أين هو في الأصل، كلود هذا. بالتأكيد لم

تكن تعرف هي نفسها. وهي تظن أنه من البرونكس. (وهذا ما جعله أكثر تميزاً).

«إذن فهو يهودي؟» قلت.

لم تكن متأكدة من ذلك. فلا يمكن للمرء أن يخمّن من شكله. فشكله لا ينم عن أي شيء. (طريقة غريبة لقول ذلك). فهو يبدو هندياً أو آرياً نقياً. إنه كالحرباء ـ هذا يتوقف على المكان والزمان اللذين تقابله فيهما، والمزاج الذي يكون فيه، والناس المحيطين به، وما إلى ذلك.

«لعله ولد في روسيا»، قلت لأغيّر مجرى الحديث.

ولدهشتي قالت: «إنه يتكلم الروسية بطلاقة، إذا كان ذلك يعني لك أيّ شيء. لكنه يتكلم لغات أخرى ـ العربية، والتركية، والأرمنية، والألمانية، والبرتغالية والهنغارية...».

«ليس الهنغارية!» صحت. «الروسية، حسناً. الأرمنية، حسناً. التركية كذلك، مع أن هذا يصعب تصديقه. لكن عندما تقولين الهنغارية، فهنا أعترض. لا، يجب أن أسمعه يتكلم الهنغارية حتى أصدق ذلك».

«حسناً»، قالت، «تعال ذات ليلة وانظر بأم عينك. على أية حال، كيف ستعرف أنه لا يعرف الهنغارية وأنت لا تعرفها».

«لكني أعرف ما يكفي ـ إن أي شخص يمكنه أن يتكلم الهنغارية فهو ساحر. إنها أصعب لغة في العالم ـ إلا للهنغاريين، بالطبع. قد يكون كلود ولداً ذكياً، لكن لا تقولي لي إنه يتكلم الهنغارية! لا، لا تلقميني هذا».

لم تؤثر كلماتي فيها، وقد تبين لي ذلك لأن أول شيء تفوهت به كان ـ «نسيت أن أقول لك إنه يعرف العبرية والسنسكريتية أيضاً، و...».

«اسمعي»، صحت، «إنه ليس المسيح. فلا أحد يمكنه أن يتقن

كلّ هذه اللغات في عمره إلا المسيح القدير. ستدعيني أتساءل إن كان قد اخترع اللغة العالمية. سأذهب لأراه قريباً، لا تقلقي، فأنا أرغب في أن أرى هذه الظاهرة بأم عيني. أريده أن يتحدث باللغات الستّ في وقت واحد. فلن يثير إعجابي أي شيء أقل من هذا».

تطلعت إليّ كأنها ستقول «يالك من توما الشكّاكّ المسكين».

أثارت ابتسامتها الجامدة حفيظتي. قلت: «لماذا تبتسمين هكذا؟».

ترددت دقيقة وقالت: «لأني، يا فال... لأني كنت أتساءل ماذا ستقول إذا قلت لك إنه يمتلك قوة على الشفاء أيضاً».

لسبب غريب، بدا ذلك معقولاً وأكثر انسجاماً مع شخصيته من أي شيء آخر قالته لي. لكن عليّ أن أحافظ على موقفي من الشك.

«كيف عرفت ذلك؟» قلت. «هل رأيته يشفي أحداً؟».

رفضت أن تجيب مباشرة عن السؤال. لكنها أكدت أنها تستطيع أن تكفل حقيقة ما تقوله.

قلت لأعنفها: «وماذا عالج - وجع رأس؟».

مرة أخرى، أخذت وقتها للإجابة. ثم أجابت بجدية، وبجدية شديدة تقريباً: «إنه يعالج السرطان، إذا كان ذلك يعني لك شيئاً».

جعلني ذلك أستشيط غضباً. «بحق المسيح»، صرخت، «لا تقفي هنا وتقولي لي أشياء كهذه! هل أنت حمقاء وساذجة؟ قد تقولين لي أيضاً أنه يحيي الموتى».

رفت ابتسامة على شفتيها. وبصوت لم يعد جدياً، بل رزيناً، قالت: «حسناً يا فال، صدّق أو لا تصدّق، كان يفعل ذلك لأهالي أمة نافاهو. ولهذا السبب فهم يحبونه...».

«حسناً. يا فتاتي، هذا يكفي لهذه الليلة. دعينا نغيّر الموضوع. فإذا قلتِ لي شيئاً آخر فسأعتقد أن شيئاً قد حدث لعقلك».

بيد أن كلماتها التالية فاجأتني تماماً. كدت أقفز خارج جلدي.

«يقول كلود إن لديه موعداً معك. إنه يعرف كل شيء عنك... يعرفك معرفة تامة، في الحقيقة. ولا يذهب تفكيرك إلى أني قد أخبرته شيئاً عنك، لأني لم أفعل ذلك! هل تريد سماع المزيد؟» تابعت على الفور. «ينتظرك مستقبل عظيم: ستصبح ذات يوم شخصية عالمية. كما قال كلود، فإنك الآن مجرد هاوٍ متحمس. أنت أعمى روحياً، كما وأنك أخرس وأصم...».

«كلود قال ذلك؟» أصبحت يقظاً تماماً الآن. «حسناً، أخبريه أني سألتقي به. ليلة الغد، ما رأيك في هذا؟ لكن ليس في تلك الحانة الملعونة التي تعملين فيها!».

غمرتها البهجة لاستسلامي التام. «اترك الأمر لي»، قالت، «سأختار مكاناً هادئاً يمكنكما أن تكونا وحدكما فيه».

بالطبع لم أتمكن من مقاومة رغبتي في الاستفسار عما أخبرها عني. «ستعرف كلّ ذلك غداً». ظلّت تكرّر. «لا أريد أن أفسد متعة ذلك عليك».

خلدت إلى النوم بشق النفس. وظلّ كلود يظهر في منامي المرة تلو الأخرى، وفي كل مرة يظهر بشكل مختلف. ورغم أنه كان ولداً دائماً في الحلم، لكن صوته بدا كصوت رجل مسنّ. ومهما كانت اللغة التي كان يتكلمها فقد كنت أفهمها. وللغرابة لم أكن مندهشاً وأنا أسمع نفسي أحادثه بالهنغارية. ولم أندهش أيضاً لأني وجدت نفسي أمتطي حصاناً، دون سرج وبقدمين حافيتين. وكنا في معظم الأحيان نواصل حديثنا فوق أراض أجنبية، في أماكن بعيدة مثل فلسطين، صحراء النوبة، تركستان، سومطرة، باتاغونيا. وكنا نستخدم عربات في تنقلاتنا؛ كنا دائماً نتواجد حيث تطوف بنا أفكارنا، دون جهد، دون استخدام إرادتنا. وباستثناء بعض الأحلام الجنسية، لم أحلم في حياتي حلماً جميلاً. كان هذا الحلم أكثر من جميل ـ فقد علمنيّ الكثير. كان كلود هذا مثل ذات ثانية، رغم أنه كان في بعض الأحيان يشبه المسيح على نحو يثير الدهشة. لقد جلب

لي سكينة عظيمة. جعلني أعرف وجهتي. والأكثر من ذلك منحني سبباً للوجود. أصبحت أخيراً أنا نفسي، ولم يكن ثمة داعٍ لأن أثبت ذلك لأي أحد. فقد أصبحت آمناً في العالم لا ضحية. أصبحت أشارك في أسلوب جديد تماماً، كما يكون الإنسان الخالي من النزاع. وبغرابة أصبح العالم أصغر بكثير مما كنت أعتقد أنه سيكون، ودياً أكثر، مفهوماً أكثر. ولم أعد أواجه شيئاً بقوة؛ بل أصبحت الأشياء بالنسبة لي فاكهة ناضجة كنت أقبع في داخلها، تمدني بالغذاء، ولم يكن معينها ينضب. كنت متوحداً معه، متوحداً في كلّ شيء - لايمكنني وصف حالتي إلا بهذه الطريقة.

لم أتمكن من لقاء كلود في الليلة التالية. فقد صادف أني كنت في نيو ارك أو في مكان آخر عندما حلّ المساء، وكنت أتحدث إلى شخص ذي شخصية جذابة. كان رجلاً أسود يشقّ طريقه في كلية الحقوق. وكان عاطلاً عن العمل منذ عدة أسابيع، وكان ينصت إليّ وأنا أعدد له فوائد الموسوعة. وفي اللحظة التي كان سيوقّع لي الشيك ويداه ترتعشان، أطلت أمه المسنّة برأسها من المدخل ورجتني أن أبقى لأتناول العشاء معهما. اعتذرت لتطفلها علينا، وقالت إنهما سيذهبان إلى اجتماع بعد العشاء، ورأت أن تذكّر ابنها لكي يغيّر ثيابه. فسقط القلم الذي كان يمسكه من يده وهرع إلى الحمام.

أثناء انتظاري حتى يعود وقعت عيناي على إعلان يفيد بأن الزعيم الزنجي العظيم، بيرغهاردت دوبويس، سيلقي كلمة في دار البلدية هذا المساء. لم أعد أحتمل انتظار الفتى حتى يعود، فرحت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً وأنا في حالة شديدة من الإثارة. فقد كنت أعرف دوبويس هذا. فقبل سنوات كنت أتلهف لحضور محاضراته، وقد سمعت دوبويس يتحدث عن تراث العرق الأسود العظيم. كان ذلك في إحدى القاعات في الجانب الشرقي من مانهاتن؛ وما أثار استغرابي أن معظم الحضور كانوا من اليهود. لم أنس هذا الرجل أبداً. كان وسيماً، قسماته آرية، وله شخصية بارزة؛ وتزين وجهه

لحية صغيرة في أسفل ذقنه، إذا أسعفتني ذاكرتي. وعلمت فيما بعد أنه ولد في نيو إنجلند؛ وتجري في عروق أسلافه دماء مختلطة، دماء هولندية وفرنسية وعروق أخرى. والشي الذي لا يغيب عن ذاكرتي، أسلوبه في الخطابة الذي لم يكن تشبه شائبة وينم عن سعة إطلاع. وكان يتميز بأسلوب مباشر مثير في الكلام جعلني أقتنع به على الفور، وأدخل في روعي أنه شخص رائع حقاً. وقلت في نفسي ألم يكن هو الذي قبل أول مقالة لي صدرت ونشرت؟.

على مائدة العشاء تعرفت على أفراد الأسرة الآخرين. فقد كانت الأخت، شابّة تقارب الخامسة والعشرين من العمر، في غاية الجمال. وقرّرت أيضاً أن تذهب إلى المحاضرة. وقد حسم هذا الأمر بالنسبة لي - فبوسع كلود أن ينتظر. وعندما أخبرتهم أني استمعت إلى دوبويس من قبل، وأني أكنّ له إعجاباً شديداً، أصرّوا على أن أرافقهم وأن أكون ضيفاً عليهم. وبغتة تذكّر الشاب الآن أنه لم يوقّع اسمه على الخط المنقّط، وطلب مني متوسلاً أن أدعه يفعل ذلك قبل أن ينسى مرة أخرى. شعرت بالخجل كما لو كنت قد خدعته.

«فكّر في الموضوع أولاً»، قلت، «إذا كنت تريد حقاً الكتب فيمكنك أن تبعث لي بالبريد في وقت لاحق».

«لا، لا!» صاحت أمه وأخته في الحال. «إنه سيوقّع الآن، لأنه إن لم يوقعّ الآن فلن يفعل ذلك أبداً. إنك تعرف كيف نسلك».

بدأت الأخت الآن تهتم بالموضوع. كان عليّ أن أشرح لها الأمر بسرعة.

قالت: «يبدو رائعاً، اترك لي بعض الأوراق، وأظن أنه يمكنني أن أحصل لك على بضعة طلبات».

أسرعنا في تناول وجبة الطعام، ثم تكومنا في سيارتهم. بدت لي سيارة جميلة. وفي الطريق إلى القاعة حدثوني عن نشاطات دوبويس منذ آخر مرة سمعت عنه. فقد تولّى منصباً تربوياً في

الجنوب؛ عالم لا يلائم طريقة تفكيره وتربيته كثيراً. إذ أصبح في خطاباته أكثر مرارة وقسوة. وقلت لهم بحماس إنه يذكّرني، بطريقة ما، برابندرانت طاغور الذي سمعته منذ سنوات أيضاً. والشيء الذي كنت أفكّر به، هو أنه ليس من المحتمل أن يكون أيّ من هذين الرجلين منافقاً في كلماته عندما يتعلق الأمر بقول الحقيقة.

حين وصلنا القاعة كنت أحدثهم عن زنجي آخر كان محط إعجابي هو هوبرت هاريسن. ورحت أخبرهم بكلّ ما تعلمته منه، وهو واقف على المنصة الصغيرة في ساحة ماديسون عندما كان يمكن للمرء أن يناقش أيّ شيء يرغب بمناقشته بحرية وعلناً. وقلت لهم بصراحة، لم يكن هناك أحد في تلك الأيام يمكنه أن يضاهي هوبرت هاريسن. فببضع كلمات مسبوكة جيداً، كان يستطيع إفحام أيّ معارض. كان يفعل ذلك بعناية وبيسر أيضاً، «برفق» كما يقال. أوضحت الطريقة الرائعة التي كان يبتسم فيها، شعوره بالطمأنينة، الرأس الكبير المنحوت الذي يحمله على كتفيه كالأسد. ورحت أتساءل بصوت مرتفع إن لم يكن يجري في دم أسلافه دم ملكي، إن لم يكن سليل أحد الملوك الأفريقيين العظماء.

نعم، كان رجلاً مجرد حضوره يحدث تأثيراً هاماً. وبدا إلى جانبه المتكلمون الآخرون، الرجال البيض، كالأقزام، ليس جسدياً فحسب وبل ثقافياً وروحياً أيضاً. واستمر بعضهم، المأجورون، على التحريض على إثارة المشاكل، متسترين دائماً وراء العلم الأمريكي. أما هوبرت هاريسن، من الناحية الأخرى، فمهما بلغت درجة الاستفزاز، كان دائماً يحافظ على هدوئه ورباطة جأشه وكرامته. وكان يتميز بأسلوبه في إسناد قفا يده على وركه، وصدره مائل إلى الأمام، وأذناه مشنفتان ليلتقط آخر كلمة يقولها من يطرح السؤال، والمماحكون الذين يقاطعونه أثناء كلامه. لقد كان يعرف كيف يتحين الفرص! وعندما ينحسر الاضطراب، كانت تظهر تلك الابتسامة الواسعة، فله ابتسامة عريضة تنم عن روح طيبة واسعة،

وكان يجيب على الشخص ـ دائماً بدقّة، دائماً بإنصاف وأمانة، دائماً يكون رده مفحماً، كناقد لاذع. وسرعان ما يأخذ الجميع بالضحك، الكلّ باستثناء الشخص المسكين الذي تجرأ وطرح السؤال.

كنت ما أزال أهذر بهذه الأمور ونحن ندخل القاعة. كانت القاعة مزدحمة؛ وكان معظم الجمهور هذه المرة من الزنوج. وكما يمكن لأي رجل أبيض غير متعصب أن يشهد، فإن وجوده مع جمع من الزنوج لهو امتياز. فالجوّ مشحون دائماً. وبين الحين والآخر، كانت تتعالى القهقهات النابعة من القلب، ألفاظ غريبة، نوبات مدوّية من الضحك لا تسمعها أبداً تنطلق من حناجر الرجل الأبيض. إذ يفتقر الرجل الأبيض إلى العفوية. فعندما يضحك، قلما تخرج ضحكته من القلب. بل تكون عادة من النوع الهازئ. أما ضحكة الرجل الأسود، فهي تأتي إليه بسهولة كما يتنفس. وما هي إلا لحظات حتى ظهر دوبويس على المنصة. كان يبدو كأنه يعتلي عرشه. وقد أسكتت فخامة هذا الرجل وهيبته أي إمكانية للتهليل. فلم يكن ثمة شيء في هيئته يدل على أنه من مثيري الرعاع ـ بل كان مترفعاً عن هذا الصغائر. إلا أن كلماته كانت أشبه بالمتفجرات. ولو أراد لكان بإمكانه أن يحدث انفجاراً يهزّ العالم. لكن كان من الواضح أنه لم تكن لديه نية في أن يهزّ العالم ـ ليس بعد على أية حال. وفيما كنت أنصت إلى خطابه، تصورته يخاطب حشداً من العلماء بهذه الطريقة. ويمكنني أن أتصوره يطلق العنان للحقائق الأكثر تدميراً، لكن بطريقة تترك المرء مذهولاً، لا مندفعاً للتنفيذ.

قلت لنفسي من المؤسف أن يلزم رجل بقدراته، وإمكانياته حيزاً ضيقاً كهذا. فبسبب دمه كان مقدراً له أن يعزل نفسه، أن يقيد آفاقه، أن يحد من نشاطاته. كان يمكنه أن يبقى في أوروبا، حيث يحظى بالقبول والشرف؛ كان يمكن أن يكون قد كوّن لنفسه مكانة أكبر هناك. لكنه آثر أن يبقى مع أهله، أن يرتقي بهم، وإذا كان بوسعه، أن يهيء لهم عالماً أفضل ليعيشوا فيه. ولا بد أنه كان يعرف منذ

البداية أنها مهمة لا جدوى منها، وأنه لا يمكن تحقيق أي شيء هام لأخوته في فضاء عمر قصير. فقد كان رجلاً في غاية الذكاء، ولا يمكن أن تكون لديه أوهام حول هذا الأمر. ولم أعرف إن كنت سأكنّ له احتراماً، أو أستهجن إصراره العنيد الشجاع المتكبّر. ولاشعورياً، أخذت أعقد مقارنات في ذهني بينه وبين جون براون. فالأول يتسم بالذكاء، والآخر يتسم بإيمان أعمى. إذ لم يتردد جون براون، من خلال كراهيته الشديدة للظلم وعدم التسامح، من أن يثور ضد حكومة الولايات المتحدة المقدسة هذه. فلو كان هناك بضع مئات من الأشخاص مثله على هذه الأرض الواسعة، فلا أشكّ في أنه سيتمكن من إسقاط حكومة الولايات المتحدة هذه. وعندما أُعدم جون براون، سادت البلاد اضطرابات شديدة لم تتوقف حقاً. فمن الممكن أن يكون جون براون قد أحدث نكسة لقضية الزنوج في أمريكا. إذ إن الفشل الذريع الذي حدث في هاربر فيري ربما جعل من المستحيل تمكين الزنوج من الحصول على حقوقهم بالعمل المباشر إلى الأبد. فالأعمال المدهشة التي قام بها هذا المحرّر العظيم ربما جعلت أيّ شكل من أشكال التمرد أمراً لا يمكن التفكير فيه ـ في عقول الأجيال التالية. (تماماً كما أن ذكرى الثورة الفرنسية تجعل الفرنسيين يرتعشون). فمنذ أيام جون براون يبدو أنه أصبح من المتفق عليه بصمت، أن الوسيلة الوحيدة التي تسمح للزنجي بأن يأخذ مكانه في عالمنا، هي من خلال عملية طويلة ومؤلمة من التعليم والتثقيف. إن هذا مجرد ذريعة لتأخير الحدث الحقيقي الذي لا يرغب أحد في مواجهته. تخيّل أن السيد المسيح هو الذي يدعو إلى مثل هذا السياسة!.

نعمة الحرية! هل علينا أن ننتظر إلى الأبد حتى نصبح مؤهلين لنحصل عليها؟ أم أن الحرية شيء يجب أن يُنتزع من أيدي الذين يسيطرون عليها بشكل استبدادي؟ هل هناك شخص عظيم بما يكفي، حكيم بما يكفي، يمكنه أن يقول لنا إلى متى يجب على الإنسان أن يظل عبداً؟

لم يكن دوبويس محرضاً للجمهور. لا، لكن بالنسبة لشخص مثلي، كان من الواضح بجلاء أن ما تنطوي عليه كلماته «تقلدوًا روح الحرية فتصبحون أحراراً!»، التعليم والتثقيف؟ وكما رأيت وأحسست، كاد يقول بدون مواربة: «إني أقول لكم، إن خوفكم وجهلكم هما اللذان يبقيانكم في ظل العبودية. لا يوجد سوى نوع واحد من التثقيف، الذي يمكنه أن يفضي بكم إلى سبيل تأكيد حريتكم والحفاظ عليها». ما هو ذلك الهدف الآخر الذي يرمي إليه، لدى اقتباس أمثلة رائعة عن الثقافة الأفريقية، قبل تدخل الرجل الأبيض، سوى الإشارة إلى الاكتفاء الذاتي الذي يتمتع به الزنوج؟ ما هي حاجة الزنجي إلى الرجل الأبيض؟ لا شيء. ما الفرق بين العرقين، ما الفرق الحقيقي، الحيوي، الأساسي؟ لا شيء. إن الحقيقة الأساسية، الحقيقة الوحيدة الجديرة بالاعتبار، هي أن الرجل الأبيض، رغم كلّ كلماته العظيمة، كلّ مبادئه الملتوية، مايزال يستعبد الرجل الأسود... إني لا أستشهد بكلماته. بل أسجّل ردود أفعالي، تفسيري الشخصي لخطابه. «انزلوا من فوق ظهورنا أولاً!» هذا ما سمعته يصرخ به ـ رغم أنه لا يكاد يرفع صوته، رغم أنه لم يكن يقدم مبادرات مثيرة، رغم أنه لم يقل شيئاً من هذا القبيل. «أحدثكم الليلة عن أمجاد الماضي، ماضيكم، ماضينا المشترك، كزنوج. وماذا عن المستقبل؟ هل ستنتظرون حتى يمتصّ الرجل الأبيض دمكم المتخثر؟ هل ستنتظرونه بوداعة حتى يملأ عروقنا بدمه السام؟ الآن أنتم لستم سوى تقليد شبه كامل للرجل الأبيض. إنكم تسخرون منه، وتقلدونه في الوقت ذاته. ومع كلّ يوم يمرّ تفقدون تراثكم الثمين. إنكم تتنازلون عنه إلى أسيادكم الذين لا توجد لديهم أدنى نية في منحكم المساواة. تعلّموا، تثقّفوا، إذا رغبتم. اجعلوا مصيركم أفضل، إن استطعتم. لكن تذكّروا هذا ـ إلى أن تصبحوا أحراراً وعلى قدم المساواة مع جيرانكم من البيض، لن ينفع شيء. لا تضلّلوا أنفسكم بأن الرجل الأبيض يتفوق عليكم في أي حال من الأحوال. إنه ليس كذلك. فقد يكون جلده أبيض، لكن قلبه أسود. إنه آثم أمام الله وأمام

أتباعه. يهدم العالم بسبب تعاليه وجهله. ولا ريب أن اليوم الذي سيتوقف فيه عن السيادة آتٍ. لقد بذر الكراهية في أرجاء العالم. حرّض الأخّ على أخيه. أنكر ربه. لا، فليس هذا النموذج البائس من البشرية هو الذي يسود الرجل الأسود. فهذا الضرب من البشر منكوب. أفيقوا، يا أخوتي! أفيقوا وغنواً! اهتفوا فليسقط الرجل الأبيض! أبعدوه عن أبصاركم! أغلقوا شفاهه، اربطوا أطرافه، ادفنوه حيثما كان ـ فوق كومة من الروث».

أكرّر، لم يذكر دوبويس أياً من هذه الكلمات. ومما لا شك فيه، كان سيمقتني لو أنه سمع هذا التفسير عن خطابه. لكن الكلمات لاتعني كثيراً. ما يعني الكثير هو ما وراء الكلمات. وكدت أشعر بالخجل من دوبويس لأني استخدمت كلمات أخرى غير الكلمات التي سمعتها في عقلي. فلو أحدثت كلماته تمرداً دامياً لكان أكثر الرجال حيرة في مجتمع السود برمته. ومع ذلك، فقد ظللت أعتقد أن الرسالة التي ذكرتها الآن محفورة بالدم والدموع في قلبه. فلو أن حماسه يقلّ ذرة واحدة عن ذلك، لما كان، ولن يستطيع أن يكون تلك الشخصية النبيلة. تضرج وجهي خجلاً عندما فكرت أن رجلاً يتمتع بمثل هذه المواهب، يمتلك مثل هذه القوى، مثل هذه البصيرة، يُرغم على أن يخفض صوته، أن يخنق مشاعره الحقيقية. لقد أعجبت به أيما إعجاب على كلّ ما فعله، على كلّ ما كان عليه، وهو بالفعل شيء كثير ـ لكن لو كان يمتلك فقط شرارة تلك الروح الجياشة التي يتمتع بها جون براون! لو كان عنده لمسة المتعصّب! أن تتكلم عن الظلم وتظل هادئاً ـ لا يمكن لغير حكيم أن يتصرف هكذا. (ويجب الاعتراف هنا، أنه عندما يرى الإنسان العادي الظلم، لعل الحكيم يكتشف نوعاً آخر من العدالة). الإنسان العادل قاسٍ، عديم الرحمة، غير إنساني. فمن شأن الإنسان العادل أن يضرم العالم بالنار، أن يحطّمه بكلتي يديه، إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يقف مكتوف الأيدي وهو يرى الظلم سائداً. جون براون كان من ذلك النوع من الرجال. لقد نسيه التاريخ، وتقدم عليه رجال أقل مقاماً، قلبوا

العالم، وأدخلوه في مرحلة من الذعر ـ ولا لشيء، حتى أنهم لم يقاربوا ما ندعوه العدالة... أعطه قليلاً من الوقت، وسيحطّم الرجل الأبيض نفسه والعالم الضار الذي أنشأه. لا توجد لديه حلول للأمراض التي دسّها في العالم. إنه فارغ، موهوم، ولا يحمل أي ذرة من الأمل. يسعى إلى نهايته البائسة.

هل سيجر الرجل الأبيض الرجل الأسود معه ويسقطه في الحضيض؟ أشك في ذلك. وأعتقد أن جميع أولئك الذين اضطهدهم واستعبدهم، حقّرهم وأضعفهم، جميع الذين امتص دمهم، سيثورون ضدّه في يوم الحساب المشؤوم. لن يكون ثمة مغيث له، لن ترفع يدٌ أجنبية ودّية واحدة لتنقذه من موته المحتوم. ولن يحزن عليه أحد. بل ستسمع من جميع أصقاع الدنيا، كما تلتقي الزوبعة، صيحة الغبطة. «أيها الرجل الأبيض، لقد جاء يومك! اهلك وتعفّن كالديدان! ولتُمحَ ذاكرة وجودك من على الأرض».

وللغرابة، لم أكتشف سوى مؤخراً أن دوبويس كان قد ألّف كتاباً عن جون براون الذي توقّع فيه الكثير مما حدث للجنس الأبيض، والكثير الذي لم يحدث بعد. ومن الغريب أني، دون أن أعرف عن لهفته وإعجابه بالمحرّر العظيم، ربطت بين اسميهما...

في صباح اليوم التالي، وفيما كنت أتناول طعام فطوري في أحد المقاهي في شارع باينس أبل، أحسست بيد على كتفي. وتناهى إليّ صوت من الخلف يسألني بهدوء فيما إذا كنت أنا هنري ميلر. نظرت إلى الأعلى لأجد كلود بجانبي. لم يكن ثمة شكّ بأنه قد يكون شخصاً آخر.

«قيل لي إنك دأبت على تناول فطورك هنا»، قال. «من السيء جداً أنك لم تأت ليلة البارحة؛ كان برفقتي صديق كنت ستجد متعة في لقائه. إنه من طهران».

قدّمت له اعتذاري، ورجوته أن يتناول معي فطوره للمرة

الثانية. لم يكن تناول كلود طعامه مرتين أو ثلاث مرات على التوالي بالأمر المستغرب. فقد كان أشبه بجمل ـ يجترّ طعامه حالما تحين له الفرصة.

سألني: «أنت من برج الجدي، أليس كذلك. 26 كانون الأول، صحيح؟ عند الظهيرة؟».

هززت رأسي.

«لا أعرف الكثير عن التنجيم»، أردف، «إنها مجرد نقطة انطلاق بالنسبة لي. فأنا مثل يوسف في التوراة ـ أرى أحلاماً. أحلام تنبؤية، في بعض الأحيان».

ابتسمت ابتسامة تنم عن التسامح.

«ستسافر قريباً ـ ربما بعد سنة أو سنتين. رحلة مهمة. ستغير مجرى حياتك تغييراً جذرياً». توقف لحظة وأخذ يحدق في النافذة، كما لو أنه يحاول التركيز. «لكن هذا ليس مهماً الآن. لقد أردت أن أراك لسبب آخر». توقف عن الكلام مرة أخرى. «ستمر في فترة عصيبة، أعني في السنة القادمة أو ما يقارب ذلك، قبل أن تبدأ رحلتك. ستستخدم كلّ شجاعتك من أجل البقاء. لو لم أعرفك جيداً لما قلت لك بأن هناك خطراً قد يؤدي بك إلى الجنون».

«المعذرة»، قاطعته، «لكن كيف تهيأ لك أنك تعرفني حق المعرفة؟».

جاء دور كلود في الابتسام. ثم أجاب بدون أدنى تردد: أنا أعرفك منذ مدة طويلة ـ في أحلامي. أراك في أحلامي كثيراً. بالطبع لم أكن أعرف أن ذلك الشخص الذي كنت أراه هو أنت حتى التقيت بمونا. ثم أدركت أنه لا يمكن أن يكون أحداً غيرك».

«غريب»، غمغمت.

«ليس غريباً جداً»، قال كلود. «هناك العديد من الرجال ممن

يتعرضون للتجربة ذاتها. ذات مرة عندما كنت في قرية صغيرة في الصين التقى بي رجل في الشارع، وأمسكني من ذراعي وقال: «كنت أنتظرك حتى تأتي. لقد جئت في وقتك». كان ساحراً يمارس السحر الأسود».

«وهل أنت ساحر أيضاً؟» سألته مازحاً.

«لا أظن ذلك»، قال كلود. وبذات النغمة أضاف: «أنا أمارس العرافة. إنها مَلَكة تلازمني منذ أن ولدت».

«لكنها لا تساعدك كثيراً، أليس كذلك؟».

«صحيح»، أجاب، «لكنها تمكنني من مساعدة الآخرين. هذا إذا رغبوا في مساعدتهم».

«وأنت ترغب في مساعدتي؟».

«إذا كان بوسعي ذلك».

«قبل أن تذهب شأواً أبعد من ذلك»، قلت، «أظن أنه من الأجدر أن تحكي لي قليلاً عنك. لقد أخبرتني مونا شيئاً عن حياتك، لكن الأمور تبدو مشوّشة قليلاً بالنسبة لي. قل لي - إذا لم يكن لديك مانع - هل تعرف أين ولدت ومن هما أبواك؟».

نظر كلود في عيني مباشرة. «هذا ما أحاول أن أكتشفه»، قال. «لعلك تساعدني في ذلك. ما كنت لتظهر في أحلامي كثيراً لو لم يُكتب أن تكون لك أهمية في حياتي».

«أحلامك؟ أخبرني، كيف كنت أظهر لك في الحلم؟».

«بأدوار مختلفة»، قال كلود على الفور. «أحياناً كأبٍ، أحياناً كشيطان، وأحياناً كملاك. عندما كنت تظهر لي كنت مثل لحن موسيقي. موسيقى سماوية، يمكنني أن أقول».

كنت في حيرة، ولم أعرف كيف أرد على ذلك.

«أنت تدرك طبعاً»، أردف كلود «لديك نفوذ على الآخرين. نفوذ

كبير. لكنك نادراً ما تستخدم نفوذك هذا. وعندما تفعل، فأنت عادة تسيء استخدامه. تخجل من نفسك، إذا كان بوسعي أن أضعها بهذه الطريقة. يظن الناس أنك شرّير أكثر من كونك رجلاً طيباً. شرّير في بعض الأحيان ـ شرّير وقاس القلب ـ وخاصة مع الذين يحبونك. هذا ما يجب أن تحسب حسابه... لكنك ستخضع قريبا للاختبار!».

«وثمة أمر مخيف عنك يا كلود. فقد بدأت أشك في أنك تستبصر الأمور، أو أي شيء تريد أن تسميه».

فأجاب كلود: «أنت شخص مؤمن في جوهرك. رجل ذو إيمان عظيم. الشّك فيك ظاهرة عابرة، شيء من مخلفات الماضي، من حياة أخرى. يجب عليك أن ترمي شكوكك جانباً ـ شكوكك الذاتية، والأهم من ذلك ـ فهي تخنقك. إن مخلوقاً مثلك يجب ألا يظن أنه يمكن أن يرمي بنفسه في العالم ويجد نفسه يعوم كقطعة فلين. الشر لا يمسه أبداً، أو لا يؤثّر عليك. لقد خُلقت لتسير عبر النيران. لكنك إذا تهربت من دورك الصحيح، وأنت الوحيد الذي يعرف ذلك، فإنك ستحترق كليّا. هذا أوضح شيء أعرفه عنك». اعترفت بصراحة شديدة إن ما قاله لم يكن مبهماً ولا غريباً عليّ. «لقد انتابتني أفكار كهذه عدة مرات. لكن لا شيء واضحاً تماماً بالنسبة لي حالياً. تابع، إذا أردت، فأنا كلي آذان صاغية».

«إن ما يجمعنا معاً»، قال كلود، «هو أننا كلانا يبحث عن الأبوين الحقيقيين. لقد سألتني أين ولدت. أنا لقيط؛ وقد تركني أبواي عند ناصية أحد شوارع البرونكس. ولديّ شكوك في أن أبويّ، مهما كانا، قدما من آسيا. ربما من منغوليا. عندما أنظر في عينيك أكاد أجزم بذلك. تجري في عروقك دماء مغولية، لا شكّ في ذلك. ألم يلاحظ أحد ذلك من قبل؟».

حدجت بناظري في الشاب الذي كان يخبرني كلّ هذا. رمقته كأنك تحتسي كأساً كبيراً من الماء عندما تكون شديد العطش. دمّ مغولي! بالطبع سمعت بهذا من قبل! ودائماً من ذات النوع من الناس.

فعندما كانت تتناهى إلى سمعي كلمة مغولي، كانت بمثابة كلمة السر بالنسبة لي. «إننا ندرك أهميتك!» هذا ما دأبوا على قوله. «سواء قبلت ذلك أم لم تقبل فقد كنت واحداً منهم».

وبالطبع فإن تعبير مغولي رمزي أكثر من كونه يتعلق بالنسب. فقد كان المغول حاملي الأخبار السرّية، في فترة من الماضي السحيق، عندما كان العالم واحداً، وعندما أبقى حكامه الفعليون هويتهم مخفية، «نحن المغول» (لغة غريبة؟ لا يتكلم المغول إلا بهذه الطريقة). كان ثمة شيء جسدي، أو فيزيزلوجي، أو ملامح الوجه على الأقل، يميّز جميع من كانوا ينتمون إلى هذه العشيرة الغريبة. ماكان يميزهم عن «باقي البشر» هو التعبير بالعيون. ليس لون العينين أو شكلهما أو نظرتهما: بل الطريقة التي تتشكل فيها العينان، أو الطريقة التي تسبحان فيها في مقبسيها الغامضين. وعادة ما يغلفهما حجاب، وعندما يبدأ الكلام، تتلاشى تلك الحجب، الواحد تلو الآخر، حتى يحصل المرء على انطباع بأنه ينظر في حفرة مظلمة عميقة.

حين كنت أحدق في كلود كانت نظرتي تستقر على الحفرتين الداكنتين في وسط عينيه. لا يمكن سبر غورهما. لدقيقة كاملة أو دقيقتين لم ينبس أحدنا بكلمة. لم يشعر أيّ منّا بالخجل أو عدم الارتياح، بل أخذ الواحد منا يحدّق في الآخر مثل سحليتين. النظرة المغولية للإدراك المتبادل.

كنت أنا من أبطل السحر. قلت له إنه يذكرني بعض الشيء بديرسلاير - بديرسلاير ودانيال بوون معاً. مع لمسة من نيبوتشادنيزار!

ضحك. «لقد ظن الناس أني أنتمي إلى أشياء عديدة»، قال، «فقد ظن أهالي نافاهو أن دماً هندياً يجري في عروقي. ربما كان الأمر كذلك أيضاً...»

«أنا واثق من أنك تحمل شيئاً من الدم اليهودي»، قلت، ثم أردفت «لا لأنك تعيش في البرونكس!».

«لقد تربيت على أيدي يهود»، قال كلود، «وإلى أن بلغت الثامنة من عمري لم أكن اسمع شيئاً سوى اللغة الروسية ولغة اليديش. وعندما بلغت العاشرة هربت من البيت».

«أين كان ذلك ـ ما تدعوه بالبيت؟».

«قرية صغيرة في القرم، ليست بعيدة عن سيباستوبول. لقد زُرعت هناك عندما كان عمري لا يتجاوز ستة أشهر». توقف لحظة. ثم بدأ يستعيد شيئاً من الذاكرة، ثم توقف. «عندما سمعت اللغة الإنكليزية لأول مرة»، أردف، «أحسست بأنها لغة مألوفة، رغم أني لم أسمعها إلا خلال الشهور الستة الأولى من حياتي. تعلّمت الإنكليزية بالسليقة تقريباً، بسرعة كبيرة. كما تلاحظ، فأنا أتكلّمها بدون أثر لأي لكنة. تعلمّت اللغة الصينية بسهولة أيضاً، رغم أني لم أتقنها تماماً...».

«المعذرة»، قاطعته، «كم لغة تتكلّم، هل تتكرم وتخبرني؟».

تردّد لحظة كأنه يجري مسألة حسابية سريعة في دماغه. «بصراحة»، أجاب، «لا أدري. أعرف على الأقل اثنتي عشرة لغة، بالتأكيد. لا يمكنني المباهاة بذلك؛ لديّ ميل طبيعي للغات. بالإضافة إلى ذلك، عندما تجوب العالم فليس أمامك إلا أن تتعلم لغات».

«وماذا عن اللغة الهنغارية!» صحت. «من المؤكد أنك لم تتعلمها بسهولة!».

ابتسم ابتسامة متسامحة. «لا أعرف لماذا يظن الناس أن اللغة الهنغارية صعبة جداً. توجد لغات هندية هنا في أمريكا الشمالية أكثر صعوبة بكثير ـ أعني من وجهة نظر علم اللغة البحت؛ لكن لا توجد لغة صعبة إذا كنت تعيشها. لكي تتعلم التركية أو الهنغارية أو

العربية أو لغة أهالي نافاهو يجب أن تصبح واحداً من الناطقين بها، هذا كلّ ما في الأمر».

«لكنك ما زلت شاباً! كيف أتيح لك الوقت لـ...».

قاطعني بقوله: «إن العمر لا يعني شيئاً. ليس العمر هو الذي يجعلنا حكماء. ولا حتى التجربة، كما يدّعي الناس. إنه ذكاء الروح. الأحياء والأموات... أنت، دون غيرك من جميع الناس، يجب أن تعرف ماذا أعني. هناك صنفان من الناس فقط في هذا العالم ـ وفي كل عالم ـ الأحياء والأموات. بالنسبة لأولئك الذين يهذبون الروح لايوجد شيء مستحيل عليهم. أما بالنسبة للآخرين، فكلّ شيء مستحيل، أو مدهش، أو عقيم. عندما تعيش يوماً إثر يوم مع المستحيل تبدأ بالتساؤل ماذا تعني الكلمة. أو بالأحرى كيف أصبحت تعني ما تعنيه. ثمة عالم من نور، فيه كلّ شيء واضح وظاهر، وهناك عالم من التشويش والاضطراب، حيث كلّ شيء مظلم وغامض. العالمان هما في حقيقة الأمر عالم واحد. فأولئك الذين يعيشون في عالم الظلام يلمحون بين الحين والآخر مملكة النور، أما الذين يعيشون في عالم النور فلا يعرفون شيئاً عن الظلام. فليس لرجال النور ظلّ، وهم لا يعرفون ما هو الشرّ، ولا يحملون ضغينة أو كراهية. إنهم يتحركون بلا سلاسل أو قيود. عندما عدت إلى هذه البلاد لم ارتبط إلا بمثل هؤلاء الرجال. بشكل من الأشكال فإن حياتي أغرب مما تظن. لماذا ذهبت لأعيش بين أهالي نافاهو؟ لكي أجد الطمأنينة والفهم. لو كنت قد ولدت في زمن آخر لكان من الممكن أن أكون المسيح أو بوذا. أما هنا فأنا إلى حدّ ما رجل غريب الأطوار، شاذ. حتى أنك تجد صعوبة في ألّا تفكّر بي بهذه الطريقة».

هنا ابتسم ابتسامة غامضة. للحظة كاملة شعرت كما لو أنّ قلبي قد توقف.

«هل شعرت بشيء غريب آنذاك؟» قال كلود، وقد أصبح في ابتسامته مزيد من الإنسانية الآن.

«في الواقع نعم»، قلت، وتلقائياً وضعت يداً على قلبي.

«لقد توقّف قلبك عن الخفقان للحظة، هذا كلّ ما في الأمر»، قال كلود، «تخيّل، لو كان بإمكانك، كيف سيكون الأمر لو بدأ قلبك يخفق بإيقاع كوني. إن أكثر قلوب الناس لا تخفق حتى بإيقاع إنساني... سيأتي زمن لن يتمكن فيه الإنسان من التمييز بين الإنسان والإله. فعندما يتمكن الإنسان من استخدام قواه بكاملها سيصبح شبيهاً بالإله ـ وعندها يتلاشى وعيه الإنساني. وسيختفي ما يدعى بالموت. سيتغيّر كلّ شيء، سيتغيّر إلى الأبد. لن يكون ثمة حاجة إلى مزيد من التغيير. سيصبح الإنسان حراً، هذا ما أعنيه. فما أن يصبح الإله الذي هو، سيدرك قدره ـ الذي هو الحرية. إن الحرية تتضمن كلّ شيء. الحرية تعيد كلّ شيء إلى طبيعته الأساسية، التي هي الكمال. لا يخطر ببالك أني أناقشك في أمور الدين أو الفلسفة. فأنا أنكرهما كليهما تماماً. إنها ليست حتى مرحلة، كما يحلو للناس أن يظنوا. فإذا وضعت شيئاً خارجك، أو فوقك، أصبحت ضحية. لايوجد سوى شيء واحد، وهو الروح. إنها الكلّ، كلّ شيء، وعندما تدركها فهي أنت. إنك كلّ ما هو كائن، لا شيء أكثر... هل تفهم ما أقصده؟».

أومأت برأسي علامة الإيجاب. كنت مذهولاً بعض الشيء.

«أنت تفهم ما أقول»، قال كلود، «غير أن خلاصة ما أقول يفلت منك. إن الفهم لا شيء. يجب أن تبقى العيون مفتوحة باستمرار. عندما تفتح عينيك، يجب أن ترتاح، لا أن تشعر بالإجهاد. لا تخشَ من السقوط في حفرة لا قرار لها. لا يوجد ثمة شيء يسقط فيه المرء. إنك فيها ومنها، وذات يوم، إذا واصلت مسيرتك، ستكون هي. أنا لا أقول إنك ستمتلكها، أرجوك أن تلاحظ، لأنه لا يوجد شيء يمكن امتلاكه. ولن تُمتلك أنت أيضاً، تذكّر ذلك! يجب أن تحرّر نفسك.

لا توجد رياضات، جسدية أو روحية، لتمارسها. جميع تلك الأشياء هي كالبخور - إنها توقظ الشعور بالقدسية. يجب أن نكون مقدسين بدون قدسية. يجب أن نكون كلاً متكاملاً... تامين. هذا هو المقدس. وأيّ نوع آخر من القدسية فهو زائف، فخ ووهم...».

«اعذرني لأني أتكلم معك بهذه الطريقة»، قال كلود، ورشف بسرعة جرعة أخرى من القهوة، «ينتابني شعور بأنّ الوقت قصير. وعندما نلتقي في المرة القادمة ستكون على الأغلب في إحدى البقاع البعيدة من العالم. فقد يقودك إحساسك بالقلق إلى أماكن لا تتوقعها. إن تحركاتي مدروسة أكثر؛ فأنا أعرف الطريق المرسوم لي». توقّف برهة ليرشف جرعة أخرى، ثم أردف «بما أني تجاوزت هذا الحد، دعني أضِفْ بضع كلمات أخرى». انحنى إلى الأمام، وبدت على قسمات وجهه جدية بالغة. «الآن، يا هنري ميلر، لا أحد في هذا البلد يعرف شيئاً عنك. لا أحد - وأنا أعني ما أقوله حرفياً - يعرف هويتك الحقيقية. فأنا أعرف عنك في هذه اللحظة أكثر مما قد أعرفه عنك مرة أخرى في المستقبل. إلا أن ما أعرفه ذو أهميةٍ بالنسبة لي فقط. هذا ما أردت أن أقوله لك - يجب عليك أن تفكّر بي عندما تواجه محنة. هذا لا يعني أني أستطيع أن أساعدك، لا تظن ذلك! لا أحد يستطيع. وربما لن يساعدك أحد. يجب عليك (وهنا أخذ يباعد بين كلماته) أن تحلّ مشاكلك بنفسك. لكنك ستعرف على الأقل، عندما تفكّر بي، أنه يوجد شخص في هذا العالم يعرفك ويؤمن بك. هذا يساعد دائماً. فالسر يكمن في أنك لا تبالي بأن أحداً، حتى الله، قد وضع ثقته فيك. عليك أن تدرك، وستدرك بلاشك، أنك لن تحتاج إلى أية حماية. ويجب ألا تجري وراء خلاصك، لأن الخلاص مجرد أسطورة. ماذا يمكن أن ينقذ المرء؟ اسأل نفسك ذلك! وإذا أُنقذت، فمن ماذا؟ هل فكّرت بهذه الأشياء؟ فكّر. لا يوجد ثمة داعٍ للخلاص، إذ لا يوجد لما يطلق عليه الناس الإثم والذنب معنى نهائيّ. الأحياء والأموات - فقط تذكّر هذا! عندما تصل إلى جوهر الأمور، فلن تجد السرعة ولا التباطؤ، لا الولادة ولا الموت. ستجد نفسك في قلب

الجوزة. لا تكسر جمجمتك عليها، حيث لا معنى لذلك بالنسبة للعقل. اقبلها وانسها وإلا قادتك إلى الجنون...

حين انصرفت كنت أحلّق فوق الغيوم. وكعادتي كنت أحمل حقيبتي، إلا أن فكرة استعادة الفرص قد تلاشت. ركبت قطار الأنفاق لا شعورياً وخرجت منه لاشعورياً أيضاً ـ عند ميدان تايمز سكوير. عندما لا يكون أمامي اتجاه محدد، كنت أتوجه لا شعورياً إلى ميدان تايمز سكوير. أتوجه دائماً إلى الشارع العريض في قلب نيويورك، نيفسكي بروسبيكت، أسواق ودكاكين المنحوسين.

كانت الأفكار والمشاعر التي تملكتني مألوفة إلى درجة تكاد تكون مخيفة. فقد كانت ذات المشاعر التي كانت تتملكني حين استمعت إلى صديقي روي هاملتون يتحدث لأول مرة، حين استمعت لأول مرة إلى بنجامين فاي ميللز، الداعية الإنجيلي، عندما لمحت لأول مرة ذلك الكتاب الغريب، «البوذية الباطنية»، عندما قرأت دفعة واحدة تاو تي تشينج، أو ـ عندما وقعت عيناي على «الممسوس، أو الأبله، أو الأخوة كارامازوف». لقد بدأت الأجراس التي أحملها تحت أضلاعي تقرع بعنف؛ وكأن جميع النجوم في السماوات التقت، في برج الجرس أعلاه، لتشكل مشعلاً سماوياً. لم يكن لجسدي وزن، لا شيء أبداً. كنت عند «النهايات الستّ» في وقت واحد.

كانت هناك لغة لم تخذلني أبداً ـ وكانت دائماً اللغة ذاتها. وقد أصبحت بحجم حبة عدس، يمكن التعبير عن مضمونها ومجالها الكاملين في كلمتين: اعرف نفسك! وحيداً مع ذاتي، لا وحيداً فقط، بل منفصلاً، مفككاً، أعزف الهرمونيكا، أتحدث اللغة الوحيدة والفريدة، لا أتنفّس سوى الروح النقية التي لا توصف، أنظر إلى كلّ شيء بعينين جديدتين وبنظرة جديدة تماماً. لا ولادة، لا موت؟ بالطبع لا! ماذا بعد، ماذا يمكن أن يكون هناك شيء لم يكن موجوداً في هذه اللحظة؟ من قال إن كلّ شيء في فوضى؟ أين؟ ومتى؟ في اليوم

السابع استراح الرب من عمله. ورأى أن كلّ شيء كان على ما يرام. اتفقنا. كيف يمكن أن يكون غير ذلك؟ لماذا ينبغي أن يكون الأمر غير ذلك؟ وفقاً للعقل فإن الإنسانية تتطور ببطء من الطين الأولي. وبعد مليون سنة نبدأ نشبه الملائكة قليلاً. ياله من عفن! هل العقل مصاب بالتكيّس، ثم، في مؤخرة الخلق؟ عندما تحدث روي هاملتون، رغم أنه لم يكن يمتلك ذرة واحدة من التعلم، فقد كان يتحدث بسلطة الملائكة.

ما أزال أتابط الحقيبة، عدت أشق طريقي في الشارع العريض. أحسّ كأني هبطت من جبل سيناء بالمظلة. حولي أخوتي في الإنسانية، كما يقولون، ما يزالون يشقون طريقهم على أربع. تتملكني رغبة جامحة في أن أركل في جميع الاتجاهات، لكي يدخل هؤلاء التافهون المساكين إلى الجنة. وفي «هذه اللحظة التاريخية الدقيقة» بالذات، وفيما أفور وأئزّ كالشمبانيا، يشدني رجل من ردني ويحشر تحت أنفي بطاقة قذرة. أواصل سيري إلى الأمام وهو مايزال متشبثاً بي، وخلال سيرنا، كما لو كنا في غيبوبة، لا يكف عن تغيير البطاقات ويتمتم همساً: «حبيبي، ماذا! أيها الرخيص القذر. خذ العلبة كلها لقاء قطعتين». توقفت فجأة عن السير؛ وانطلقت في قهقهة مجلجلة مخيفة تزداد اشتداداً. تركت البطاقات تنزلق من بين أصابعي كندف الثلج. حولي بدأ يتجمع حشد من الناس، وأطلق البائع المتجول ساقيه للريح. التقط الناس البطاقات؛ استمروا في التجمهر حولي، وزدادوا اقتراباً مني، بدافع الفضول لمعرفة ما الذي يضحكني. من بعيد رأيت شرطياً يقترب. استدرت فجأة وصرخت: «لقد دخل هناك. امسكوه!» وأشرت إلى دكان بالقرب من الناصية، واندفعت إلى الأمام مع الحشد؛ وفيما كانوا يندفعون أمامي استدرت بسرعة ورحت أغذّ السير بسرعة بقدر ما تمكنني ساقاي في الاتجاه المعاكس. عند الزاوية استدرت بسرعة، وبدأت أتحرك الآن كالكنغر، حتى وصلت إلى الحانة.

كان في الحانة رجلان في غمرة نزاع عنيف. طلبت بيرة وجلست في مكان منزو.

«أقول لك، إنه معتوه».

«ستصبح معتوهاً أيضاً لو قُطعت خصيتاك».

«سيجعلك ذلك تبدو كمؤخرة حصان».

«بل كمؤخرة البابا».

«انظر، من الذي صنع العالم؟ الذي صنع النجوم، الشمس، حبات المطر؟ أجب عن ذلك!».

«أجب أنت، أنت أيها المثقف اللعين. قل لي من الذي صنع العالم، من الذي صنع قوس قزح، والمباول وكلّ تلك الأدوات الأخرى».

«تودّ أن تعرف أيها الفتى؟ حسناً، دعني أقُلْ هذا ـ إنها لم تُصنع في مصنع الألبان. ولم تُصنع بسبب النشوء والارتقاء أيضاً».

«أوه لا؟ ماذا إذن؟».

«الله القدير، رب العالمين، الذي أنجب مريم المباركة، ومخلّص الأرواح التائهة. هذا جواب مناسب لك. الآن ماذا تقول؟».

«ما أزال أقول إنه معتوه».

«أنت زنديق قذر، هذا ردي. إنك كافر».

«لا لست كذلك. فأنا إيرلندي في الصميم. والأكثر من ذلك، أنا ماسوني... نعم، ماسوني لعين. مثل جورج أبراهام واشنطن ومركيز كوينسبري...».

«وأوليفير كرومويل وبونابرت اللعين. بالتأكيد فأنا أعرف أمثالك. إنها الأفعى السوداء التي دخلت في أحشائك وسمّها الزعاف الذي تنفثه منذ ذلك الحين».

«إننا لن نتلقى أوامرنا من البابا. افهم ذلك جيداً».

«وهذا لك! لقد صنعتم إنجيلاً من مواعظ داروين المعتوهة. جعلتم من أنفسكم مسخرة وتطلقون عليها النشوء والارتقاء».

«أنا مصرّ على القول بأنه معتوه».

«هل يمكنني أن أسألك سؤالاً بسيطاً؟ هل يمكنني الآن؟».

«تفضل. ما هو سؤالك! وسأجيبك عن أيّ شيء له معنى».

«مرحى!... الآن ما الذي يجعل الديدان تزحف والطيور تطير؟ ما الذي يجعل العنكبوت ينسج شبكته المجنونة؟ ما الذي يجعل الكنغر...؟».

«توقف يا رجل! سؤال واحد في كلّ مرة. الآن ماذا ـ الطير، أو الدودة، أو العنكبوت أو الكنغر؟ لماذا اثنان واثنان تساوي أربعة؟ لعلك تستطيع الإجابة عن ذلك بنفسك! لا أطلب منك أن تصبح عالماً. الحساب العادي... اثنان زائد اثنان تساوي أربعة. لماذا؟ أجب عن هذا وسأقول إنك روماني مستقيم. هيا تابع، الآن، وأعطني الجواب!».

«الرومان التافهون! أفضّل أن أكون قرداً عند داروين! الحساب! باه! لماذا لا تسألني إذا كان المريخ ذو العيون الحمر يهتز وهو يدخل في مداره المعلق؟».

«لقد أجابت التوراة عن هذا منذ عهد بعيد. كذلك فعل بارنيل».

«فعل ذلك في مؤخرة خنزير!».

«لا يوجد سؤال لم يجب عنه ـ أحدهم ـ بشكل حاسم وانتهى الأمر».

«أتعني البابا؟».

«يا رجل، قلت لك مائة مرة إن البابا ليس إلا متحدّث بابوي. فلم يقل قداسته أبداً أنه السيد المسيح الذي قام من بين الأموات».

«من حسن حظه، لأني كنت سأنكر ذلك أمام وجهه الغادر. كفانا محاكم تفتيش. إن ما يحتاجه العالم المنهك الحزين هو قليل من

الحسّ العام. أنت تستطيع أن تهاجم كلّ من تحبّ عن العناكب والكناغر، لكن من سيدفع الإيجار؟ اسأل صديقك ذلك!».

«قلت لك إنه انضم إلى الدومنيكيين».

«وأنا أقول إنه معتوه».

في هذه اللحظة، وبينما كان عامل البار على وشك أن يقدم لهما مشروبات على حساب البار لإسكاتهما دخل رجل أعمى يعزف على قيثارة. وراح يغني بصوت مرتعش حزين زائف إلى درجة تثير الغثيان. وكان يضع نظارات زرقاء داكنة ويضع على ذراعه الأيسر عصا بيضاء.

«هيا غنِّ لنا أغنية فاجرة!» صاح أحد المتحدثين.

«ولا تغني لنا شيئاً من أغاني الاحتيال هذه!...» صاح الآخر.

رفع الأعمى نظاراته، ورمى الغيتار والعصا على مشجب على الحائط، واندفع إلى الحانة بنشاط أثار دهشة الجميع.

«قطرة صغيرة من البول لتبليل الفم» قال بأنين.

«وقليل من البراندي»، قال الآخر.

«أعطه قطرة من الويسكي الإيرلندي»، قال.

«بصحة رجال دبلن ومقاطعة كيري»، قال الأعمى، رافعاً الكأسين كليهما في وقت واحد. «وليسقط جميع الأعضاء في جمعية الأورانج!» تطلع حوله، مشرقاً ورشف جرعة من الكوبين.

«متى ستخجل من نفسك؟» قال أحدهما.

«إنه يتمرّغ في الذهب»، قال الآخر.

«هكذا كان الأمر»، قال الأعمى، مجففاً شفتيه بطرف ردنه، «عندما ماتت أمي المسّنة وعدتها بأني لن أقوم بأي عمل آخر. وقد وفيت بوعدي، وهكذا فعلت هي. في كلّ مرّة أعزف تناديني بهدوء: «باتريك، هل أنت هناك؟ إنه عظيم، يا ولدي، إنه عظيم». وقبل أن

أتمكن من سؤالها سؤالاً، كانت تذهب مرة أخرى. أدعوها ساحة السوق. إنها هناك منذ ثلاثين سنة الآن، وهي تفي بوعدها».

«أنت مجنون يا رجل. أيّ وعد؟».

«شرح ذلك يطول وحنجرتي جافة...».

«كأس براندي وكأس ويسكي آخرين للوغد».

«إنكما لطيفان، أنتما الاثنان. أيها السادة، هكذا أنتما!» ورفع الكأسين مرة أخرى. «بصحة مريم المباركة وأبنائها المسرفين».

«هل سمعت هذا الآن؟ هذا كفر وإلا سأتمزق غيظاً...».

«ليس الأمر كذلك. صه، صه».

«لقد أنجبت مريم المباركة ابنا واحداً ـ وبحق بطرس المقدس لم يكن مسرفاً! لقد كان أمير الفقراء، هكذا كان. أقسم بذلك».

«هذه ليست محكمة. رفقاً بقسمك! تابع يا رجل، واخبرنا عن اتفاقك مع أمك!».

«شمخ الأعمى بأنفه متأملاً. وتطلع ثانية حوله مبتهجاً ومرحاً. كسمكة سردين مغمسة بالزيت. إنها هكذا...» قال.

«لا تقل هذا يا رجل! هيا ابدأ!».

«إنها قصة طويلة جداً. وما تزال حنجرتي جافة، لا تؤخذاني على قولي ذلك».

«هيا يا رجل وإلا سنركل مؤخرتك».

تنحنح الأعمى، ثم فرك عينيه.

«كما قلت لكم.. كانت أمي تتمتع بنعمة البصر. فقد كانت ترى عبر الباب. كانت تتمتع بقدرات خارقة. ذات مرة عندما تأخر أبي على العشاء...».

«لتحل اللعنة على أبيك! أيها المزوّر الكبير المخيف».

«أنا أيضاً»، صاح الأعمى. «لديّ نقاط ضعف صغيرة كثيرة».

«وحنجرة تجفّ دائماً».

«وجيوب مليئة بالذهب، ايه، أيها الوغد!».

بغتة انتاب الأعمى الفزع. واكتسى وجهه البياض.

«لا، لا!» صاح، «ليس في جيوبي. لا تفعلا ذلك بي؟ لا تفعلا ذلك لي...».

أخذ الصديقان يضحكان بصوت صاخب. وبعد أن ثبتّا ذراعيه إلى جانبيه، أخذا يفتشان جيوبه ـ بنطاله ومعطفه وسترته التحتية. أخرجا النقود ووضعاها على الطاولة، ثم أخذا يفرزان بعناية الدولارات الورقية والعملات المعدنية كلا على حدة، ووضعا النقود السيئة على جانب. كان عملاً مثيراً يبدو أنهما تدربا عليه أكثر من مرة.

«كأس براندي آخر!» صاح أحدهما.

«كأس ويسكي إيرلندي آخر ـ هات أفضل ما عندك!» صاح الآخر.

أخذا بعض النقود المعدنية من الكومة، ثم قدراً آخر، ليقدما بقشيشاً إلى النادل.

«أما تزال حنجرتك جافة؟» سألا باهتمام.

«وماذا ستشرب؟» قال أحدهما.

«وأنت؟» قال الآخر.

«بدأت حنجرتي تجف وتجف».

«نعم، وكذلك حنجرتي».

«وهل سمعت بالصفقة التي عقدها باتريك مع أمه المسنّة؟»

«إنها قصة طويلة»، قال الآخر، «لكني في مزاج يجعلني أسمعها

حتى النهاية. اروها لي الآن، وأنا أرشف جرعة بصحتّك ورجولتك؟».

رفع الآخر كأسه: «يمكنني أن أحكيها لك إلى أن يحين يوم الحساب، هل تحب هذا. لكن دعني أبلّل حنجرتي أولاً».

«إنهم عصبة من اللصوص، هم الثلاثة»، قال الساقي وهو يملأ كأسي. «هل تصدق هذا، كان أحدهم كاهناً في السابق. إنه أكبر كذّاب. لا يستطيع أن يخرجهم - إنهم أصحاب البناية. أتفهم ما أقصد؟».

تشاغل بالكؤوس الفارغة، راح يغسلها، يجففها، يلمّعها، ثم أشعل لنفسه سيجارة. ثم سار الهوينا باتجاهي مرة أخرى.

«كله هراء»، غمغم سراً. «يمكنهم إجراء حديث ذي معنى، إذا أرادوا. إنهم أذكياء. يحبون التمثيل، هذا كلّ ما في الأمر. أتعرف لماذا يختارون هذا المكان للقيام بذلك» مال إلى الخلف ليبصق في المبصقة بجانب قدميه. «إيرلندة! إنهم لم يشاهدوا إيرلندة، لم يزرها أيّ منهم. فقد ولدوا وترعرعوا على بعد شارعين من هنا. يحبون إدعاء ذلك... لن يخطر ببالك ذلك، لكن الأعمى كان مصارعاً عظيماً ذات يوم. حتى جاء يوم وهزمه تيري مكغفرن. كانت له عينا نسر، ذلك الطير. يأتي إلى هنا كلّ يوم ليعدّ نقوده. إنه يتوق للحصول على نقود صلبة. أتعرف ماذا يفعل بالنقود المعدنية السيئة؟ يعطيها إلى العميان الحقيقيين. أليس هذا لطيفاً؟».

تركني لحظة ليطلب منهم التزام الهدوء. فقد بدأت الشمبانيا تفعل مفعولها فيهم.

«أتعرف ما هي الأخبار الهامة الآن؟ إنهما يزمعان استئجار عربة وأخذ جولة في حديقة سنترال بارك. يقولون لقد حان وقت إطعام الحمام. كيف ترى هذا؟» مال إلى الخلف ثانية لاستخدام المبصقة.

«هذه إحدى أفعالهم الأخرى ـ إطعام الحمام. إنهم يرمون بعض الفتات أو الفستق، وعندما يتجمع عدد منها، يبدؤون في رمي النقود القاسية. يركلونها بقوة. ثم يقوم الأعمى بدور صغير، ويمررون القبعة على الناس. كما لو أنهم لا يملكون سنتاً واحداً في العالم! أودّ أن أكون هناك ذات مرّة، وأضع قطعة من الخراء في القبعة...».

تطلع حوله لينظر إليهم بازدراء. التفت إليّ ثانية واندفع في الكلام ثانية.

«لعلك حسبتُ أنهم كانوا فعلاً يتجادلون حول شيء؟ لقد استمعت مراراً لكي أعرف كيف تبدأ ـ لكني لم أستطع. قبل أن تعرف ذلك، يكونون قد أصبحوا في غمرة اللعبة. إنهم يقولون أيّ شيء ـ ليتوتر الأمر. إنهم يحبون الثرثرة. ما هذا الجدال إلا للتمويه. البابا، داروين، الكنغر ـ لقد سمعت كلّ شيء. ليس لكلامهما أي معنى، مهما كانا يتحدثان. اليوم يتحدثان عن الهندسة الكهرومائية وكيفية معالجة الإمساك، وفي اليوم السابق كان حديثهما عن ثورة عيد الفصح. إنهما يخلطان الكثير من الهراء، بالطاعون الدبلي، وتمرّد الجنود الهنود، والقنوات الرومانية وريش الحصان. كلمات، كلمات... تجعلني أفقد صوابي أحياناً».

هنا استأذنته لأذهب إلى الحمام. وعندما عدت كانت الحانة قد امتلأت.

لاحظت أن الثلاثي قد اختفى. هززت نفسي مثل كلب وعدت أدراجي إلى شارع غاي وايت. لقد عاد كلّ شيء إلى طبيعته. عدت إلى برودواي مرة أخرى، لا الشارع العريض، لا نيفسكي بروسبيكت. حشد نيويوركي نموذجي، لا يختلف عما كان عليه في السنة الماضية. اشتريت صحيفة في ميدان تايمز سكوير ونزلت إلى محطة قطار الأنفاق. كان العمال يشقون طريقهم منهكين إلى بيوتهم. ليس ثمة شرارة من الحياة في القطار كله. لوحة المفاتيح

في مقصورة سائق القطار فقط هي التي تنبض بالحياة، تطقطق بالكهرباء. يمكنك أن تجمع كلّ الأفكار التي تدور في رأسي، ضع رقماً عشرياً أمامها، وأضف ستة وعشرين رقماً لتصبح أقل من لاشيء.

في اليوم السابع ارتاح الرب من عمله ورأى أن كل شيء يسير على ما يرام. اقبلها على علاتها واسكت إن شئت أم لم تشأ.

تساءلت بغموض عن الحمام. ومنها إلى تمرّد الجندي الهندي، ثم غفوت. غُصت في هذه الغيبوبة ولم أفق منها حتى وصلت إلى كوني آيلاند. لقد اختفت الحقيبة، وكذلك محفظتي. حتى الصحيفة اختفت... لا يمكنني أن أفعل شيئاً سوى أن أبقى في القطار وأعود أدراجي.

قرصني الجوع. جوع شره. معنوياتي مرتفعة. قرّرت أن أتناول طعامي في مطعم *القِدْر الحديدي*. بدا لي وكأني لم أر زوجتي منذ مدة طويلة. جميل! أشعر بدوخة! هيا إلى حي الفيليج.

16

كان مطعم *القِدْر الحديدي* أحد أبرز معالم حي الفيليج. وكان يرتاده القاصي والداني. وكان الكثيرون ممن يرتادونه من الشواذ الحقيقيين والغريبي الأطوار الذين أعطوا حي الفيليج سمعته السيئة...

وإذا كان عليّ أن أصدّق ما تقوله مونا، يبدو أن جميع المعتوهين قد تحلقوا حول طاولتها. ففي كلّ يوم تقريباً كنت أسمع عن شخصية جديدة، وبالطبع، كان كلّ من هذه الشخصيات أكثر تبذيراً من الأخرى.

كانت أناستازيا آخر تلك الشخصيات. فقد جاءت من الساحل، وعندها ما يكفي من الوقت لكي تبقى. عند وصولها إلى نيويورك، كانت تملك بضع مئات من الدولارات لكنّها تبخّرت وأصبحت هباء منثوراً. أما المبلغ الذي لم تنفقه فقد سرق منها. وحسب قول مونا فقد كانت شخصية غريبة الشكل. إذ كان يكسو رأسها شعر طويل أسود يبدو مثل عرف الأسد؛ عينان زرقاوان، يدان قويتان جميلتان، وقدمان قويتان كبيرتان. وكانت تطلق على نفسها ببساطة أناستازيا. وقد اختلقت اسماً لعائلتها، وهو أنابوبولوس. ويبدو أنها كانت تأتي إلى *القِدْر الحديدي* بحثاً عن عمل. وقد سمعتها مونا تتحدث إلى صاحب المحل فهبّت لنجدتها. ولم تتخيل أن تقوم هذه المرأة بغسل الصحون أو الانتظار قرب الطاولات لتأخذ طلبات

الزبائن. وعرفت في الحال أن هذه المرأة لم تكن شخصاً عادياً، فدعتها للجلوس وتناول الطعام معها، وبعد حديث طويل أقرضتها بعض النقود.

«تصوّر، كانت تتجول وهي ترتدي بدلة العمل. لم تكن ترتدي جوارب نسائية، وكان حذاؤها مهترئاً. كان الناس يسخرون منها».

«صفيها لي مرة أخرى»، طلبت منها.

«لا أستطيع حقاً»، قالت مونا، لكنها بدأت تصف صديقتها وصفاً يتسم بالمبالغة. وقد جعلتني الطريقة التي كانت تقول فيها «صديقتي» أشعر شعوراً غريباً. فلم يسبق لها أن تحدثت عن أيّ من أصدقائها بهذه الطريقة. فقد كان في كلامها هذه المرة حماس شديد يوحي بنوع من التبجيل والإعجاب وأشياء أخرى لا يمكنني أن أحدد ما هي. لقد جعلت من هذا اللقاء مع صديقتها الجديدة حدثاً فريداً.

«كم تبلغ من العمر؟» جازفت وسألت.

«كم تبلغ من العمر؟ لا أعرف. ربما اثنان وعشرون سنة أو ثلاث وعشرون سنة. ليس لها عمر. لا يمكنك أن تفكّر بمثل هذه الأشياء عندما تنظر إليها. لم ألتق بشخص استثنائي في عمري مثلها - ما عداك يافال».

«فنانة على ما أظن؟».

«إنها كلّ شيء. فهي تستطيع أن تفعل أيّ شيء».

«هل ترسم؟».

«بالطبع! فهي ترسم وتنحت وتصنع الدمى وتقرض الشعر وترقص - ومع كلّ هذا فهي مهرّجة. لكنها مهرّجة بائسة، مثلك».

«ألا تظنين أنها معتوهة؟».

«عليّ أن أقول إنها ليست كذلك! تفعل أشياء غريبة، ولكن لأنها امرأة غير عادية. امرأة متحررة كما لم أر امرأة من قبل، ومأساوية حتى الموت. هي حقاً غامضة، لا يمكن سبر أعماقها».

«مثل كلود، على ما أظن».

ابتسمت وقالت: «بطريقة ما. من العجيب أنك ذكرته. يجب أن ترى الاثنين معاً. يبدوان وكأنهما جاءا من كوكب آخر».

«لهذا السبب يعرف أحدهما الآخر؟».

«لقد عرّفت أحدهما بالآخر. إنهما يتوافقان على نحو رائع. يتحدثان لغتهما الخاصة بهما. أتعرف، فهما يشبهان بعضهما كثيراً من الناحية الجسدية».

«أظن أنها مسترجلة بعض الشيء، أنابوبولوس أو مهما كان اسمها؟».

«ليس في حقيقة الأمر»، قالت مونا، عيناها متألقتان. «تفضّل أن ترتدي ثياباً رجالية لأنها تشعر براحة أكبر فيها. تبدو أكثر من مجرد أنثى. ولو كانت رجلاً، لتكلمت بذات الطريقة. ثمة صفة أخرى لا تجعلك قادراً على تمييزها من الناحية الجنسية. أحياناً تذكّرني بالملاك، لكن لا يغلّفها شيء أثيري. لا، فهي دنيوية للغاية، تكاد تكون فظة أحياناً... الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أصفها لك يا فال، هي أن أقول إنها كائن فائق. أتذكر ما هو إحساسك عن كلود؟ حسناً... إن أناستازيا مهرجة مأساوية. إنها لا تنتمي إلى هذا العالم على الإطلاق. لا أعرف إلى أين تنتمي، لكنها بالتأكيد لا تنتمي إلى هذا المكان. نبرة صوتها تجعلك تحدس ذلك. إنه صوت غير عادي، أشبه بالطير من إنسان. لكنها عندما تغضب تصبح مخيفة».

«لماذا تستشيط غضباً في أحيان كثيرة؟».

«فقط عندما يوجه إليها أحد إهانة أو يسخر منها».

«ولماذا يفعلون ذلك؟».

«قلت لك لأنها مختلفة. حتى طريقة مشيتها مميّزة. لا يمكنها أن تفعل شيئاً حيال ذلك، إنها طبيعتها. لكن الطريقة التي يعاملونها بها تجعلني أتمزق غيظاً. لا يمكن أن توجد روح متهوّرة وكريمة أكثر منها. وبالطبع لا يوجد عندها إحساس بالواقع. وهذا ما أحبه فيها».

«ماذا تعنين بذلك فعلاً؟».

«ما أعنيه هو أنه إذا تقدم منها شخص وقال إنه بحاجة إلى قميص، يمكن أن تنزع قميصها ـ في الشارع ـ وتعطيه له. وهي لا تفكر بأنها عارية بطريقة غير محتشمة. ومستعدة لأن تخلع ثيابها الداخلية أيضاً، إذا دعت الضرورة».

«ألا تسمين ذلك جنوناً؟».

«لا يا فال. بالنسبة لها، فإن ما تفعله هو الشيء العاقل الطبيعي. لا تتوقف أبداً عن التفكير بالنتائج؛ فهي لا تهتم بماذا يفكر الناس فيها. إنها امرأة أصيلة حتى النخاع. وهي حساسة ومرهفة كزهرة».

«لا بد أنها تربّت بطريقة غريبة. هل أخبرتك أيّ شيء عن أبويها، أيّ شيء عن طفولتها؟».

«قليلاً».

«أستطيع أن أرى أنها كانت تعرف أكثر مما كانت تحرص على عدم ذكره».

«كانت يتيمة، على ما أظن. قالت إن الأشخاص الذين تبنّوها كانوا لطيفين معها. فقد كانت تحصل على كلّ شيء تريده».

«حسناً، لنأوي إلى السرير، ما قولك؟».

توجهت إلى الحمام لتأدية عملها الروتيني المطوّل المعتاد.

صعدت إلى السرير وانتظرتها بأناة. كان الباب المؤدي إلى الحمام موارباً.

«بالمناسبة»، قلت لأغيّر دفة الحديث، «كيف حال كلود هذه الأيام؟ هل من جديد؟».

«سيغادر المدينة بعد يوم أو يومين».

«إلى أين؟».

«لم يذكر إلى أين. أظن أنه سيذهب إلى أفريقيا».

«أفريقيا؟ لماذا سيذهب إلى هناك؟».

«لا أستغرب إن كان سيصعد إلى القمر. فأنت تعرف كلود...»

«لقد قلت لك عدة مرات، ودائماً ذات الشيء. لا، فأنا لا أعرف كلود، أعني كما تعرفينه. فأنا لا أعرف عنه سوى الشيء الذي أراد أن يقوله لي، لا شيء أكثر. إنه لغز مطلق بالنسبة لي».

سمعتها تضحك لنفسها.

«ما المضحك في الأمر؟» سألت.

«ظننت أن أحدكما قد فهم الآخر تماماً».

«لن يفهم أحد كلود أبداً»، قلت.

«إنه لغز، وسيبقى لغزاً».

«هكذا أشعر بالنسبة لصديقتي».

«صديقتك»، قلت بحدّة نوعاً ما. «بالكاد تعرفينها وتتحدثين عنها كما لو كانت صديقتك طوال عمرك».

«لا تكن سخيفاً. إنها صديقتي ـ الصديقة الوحيدة لديّ».

«يبدو وكأنك مفتونة بها...».

«أنا كذلك! لقد ظهرت في اللحظة المناسبة».

«الآن ما معنى هذا؟».

«كنت بائسة ووحيدة وتعيسة. بحاجة إلى شخص يمكنني أن أدعوه صديقي».

«ماذا حلّ بك؟ منذ متى كنت بحاجة إلى صديق؟ ألست صديقك. ألا يكفيك ذلك؟»، قلتها هازئاً، لكن بشيء من الجدية.

لدهشتي أجابت: «لا يا فال، إنك لم تعد صديقي. أنت زوجي، وأنا أحبّك... إني لا أستطيع أن أعيش بدونك، لكن...».

«لكن ماذا؟».

«يجب أن يكون لديّ صديق، أعني صديقة. شخص يمكنني أن أفضي إليه بأسراري، شخص يفهمني».

«عليّ اللعنة! هكذا إذن؟ وتعنين أنه ليس بإمكانك أن تفضي إليّ بأسرارك؟».

«ليس كما أفضي بأسراري إلى امرأة. هناك أشياء لا يمكن للمرأة أن تحكيها لرجل، حتى لو كانت تحبّه. أوه، إنها ليست أشياء كبيرة، لا تقلق. في بعض الأحيان تكون الأشياء الصغيرة أهم من الأشياء الكبيرة، إنك تعرف ذلك. بالإضافة إلى ذلك انظر إلى نفسك... فلديك عدد كبير من الأصدقاء. وعندما تكون مع أصدقائك تصبح عندئذ شخصاً مختلفاً تماماً. كنت في بعض الأحيان أحسدك. لعلي كنت أغار من أصدقائك. كنت أظن أنه يمكنني أن أكون كلّ شيء بالنسبة لك. لكني أرى أنني كنت مخطئة. على أية حال أصبح عندي صديقة الآن وسأحافظ عليها».

قلت مستثيراً إياها وبشيء من الجدية: «الآن تريدين أن تثيرين غيرتي، هذا كل ما في الأمر؟».

خرجت من الحمّام، جئت بجانب السرير، وأسندت رأسها بين

ذراعيّ ودمدمت: «فال، إنك تعرف أن هذا ليس صحيحاً. لكن هذه الصداقة شيء عزيز وثمين جداً بالنسبة لي. لا أريد أن أشاطر أحداً صداقتها، حتى معك. لفترة من الزمن على الأقل».

«حسناً، لقد فهمت»، قلت ولاحظت أن في صوتي بحّة خفيفة.

همهمت بامتنان: «أعرف أنك تفهم قصدي».

«لكن أفهم ماذا؟» سألتها بهدوء.

فأجابت: «لا شيء، لا شيء. إنه مجرد أمر طبيعي». مالت فوقي وقبّلتني بحنان على شفتي.

عندما نهضت لإطفاء النور، قلت باندفاع: «أيتها المسكينة! تريدين صديقة طوال هذا الوقت وأنا لا أعرف ذلك، لم أشك في ذلك أبداً. أظن أني كنت غبياً تافهاً عديم الإحساس».

أطفأت النور واندست في الفراش بهدوء. كان هناك سريران منفردان، لكننا كنا نستخدم واحداً منهما.

«ضمني إليك بقوة»، همست، «فال، أنا أحبّك أكثر من أي وقت مضى. هل تسمعني؟».

لم أقل شيئاً، بل ضممتها بقوة فقط.

«قال لي كلود في ذلك اليوم ـ هل تسمع؟ ـ إنك واحد من القلائل».

«واحد من النخبة، هل هذا ما قاله؟» قلت ساخراً.

«الرجل الوحيد بالنسبة لي في العالم».

«لكن لست صديقاً...».

وضعت يدها على فمي وأسكتتني.

في كلّ ليلة كان اللحن ذاته يتردد ـ «صديقتي أناستازيا».

وبالطبع كان لحناً متنوعاً، ولإضافة قليل من التوابل كانت تحكي لي مطولاً عن الاهتمام المزعج الذي كان يوليه إياها الرباعي المتنافر. وكان أحدهم ـ حتى أنها لم تكن تعرف اسمه ـ يمتلك سلسلة من المكتبات؛ وكان الآخر مصارعاً، جيم دريسكول؛ وكان الثالث مليونيراً، منحرفاً، ذائع الصيت، وكان اسمه غريباً وهو تينكيلفيلس؛ أما الرابع فكان مجنوناً في لباس قديس ويدعى ريكاردو، الذي راق لي، هذا إذا كان وصفها لي عنه مطابقاً للحقيقة. فهو شخص رزين هادئ يتكلم بلهجة إسبانية قوية، وعنده زوجة وثلاثة أطفال يحبهم كثيراً، وكان فقيراً جداً لكنه كان يغدق عليها الهدايا. كان لطيفاً ودمثاً ـ «وديعاً كحمل» ـ وكان يكتب مقالات عما وراء الطبيعة، لم تكن صالحة للنشر، وكان يلقي محاضرات على عشرة أو اثني عشرة مستمع. والشيء الذي جعلني أحبه هو هذا ـ ففي كلّ مرة كان يرافقها إلى محطة قطار الأنفاق، ويقول لها تصبحين على خير، يمسك بيديها ويدمدم بلهجة جادة: «إذا لم أنلك، فلن ينالك أحد. سأقتلك».

كانت تعود دائماً إلى ذكر ريكاردو، وتقول كم كان يفكر بأناستازيا، وكيف كان يعاملها «بطيبة قلب»، وما إلى هنالك. وكانت في كلّ مرة تذكر اسمه تكرّر تهديده، ضاحكة وكأنها نكتة عظيمة. بدأ موقفها يثير حنقي.

«ما الذي يجعلك تثقين بأنه لن ينفذ كلمته ذات يوم؟» سألتها ذات ليلة.

اشتدت ضحكتها أكثر.

«تظنين أن ذلك مستحيل، أليس كذلك؟».

«أنت لا تعرفه»، قالت. «إنه واحد من ألطف المخلوقات على وجه الأرض».

«ولهذا السبب بالتحديد أعتقد أنه قادر على أن يفعل ذلك. هو جاد. من الأفضل أن تحذري منه».

«أوه، هراء! إنه لا يؤذي ذبابة».

«ربما لم يكن ذلك. لكنه يبدو عاطفياً إلى حد يدفعه إلى قتل المرأة التي يحب».

«كيف يمكن أن يكون عاشقاً لي؟ هذا أمر سخيف. إني لا أظهر له أيّ مودّة. فقلما أنصت له، في الحقيقة. إنه يتحدث مع أناستازيا أكثر مما يتحدث معي».

«لا عليك أن تفعلي شيئاً. إن لديه هاجساً. هو ليس مجنوناً. ما لم يكن الوقوع في الحبّ صورة من صور الجنون. أنت الصورة الطبيعية للصورة المثالية التي يحملها، هذا أمر واضح. هو ليس بحاجة إلى أن يسبر أعماقك، أو حتى الحصول على تجاوب منك. يريد أن يحدق بك إلى الأبد لأنك تجسدين المرأة في أحلامه».

«هذه هي الطريقة التي يتحدث بها»، قالت مونا، جد مندهشة بكلماتي. «ثمة تشابه كبير بينكما أنتما الاثنان. تتكلمان اللغة ذاتها. أعرف أنه مخلوق حسّاس، وفي غاية الذكاء أيضاً. أنا أحبّه كثيراً، لكنّه ليس الشخص الذي يعجبني. فهو لا يمتلك حسّ الدعابة. وعندما يبتسم يبدو أشدّ حزناً مما يكون في الأحوال العادية. إنه وحيد».

«من سوء الحظ أني لا أعرفه»، قلت، «فقد بدأت أحبه أكثر من أي شخص حدثتني عنه. يبدو إنساناً حقيقياً. بالإضافة إلى ذلك، فأنا أحبّ الإسبان. إنهم رجال حقيقيون...».

«إنه ليس إسبانياً ـ إنه كوبي».

«ذات الشيء».

«لا، ليس الشيء ذاته يا فال. لقد قال لي ريكاردو نفسه ذلك. إنه يكره الكوبيين».

«حسناً، لا يهم. سأحبه حتى لو كان تركياً».

«لعلي أعرفّه عليك»، قالت مونا بغتة. «لم لا؟».

فكرت لحظة قبل أن أجيب.

«أظن أنه من الأفضل ألا تفعلي ذلك»، قلت. «لا يمكنك أن تخدعي رجلاً كهذا. إنه ليس كروموبل. حتى أن كروموبل ليس ذلك الأحمق الذي تظنه».

«لم أقل أبداً أنه أحمق!».

«لكنك حاولت أن تدخل في روعي ذلك، لا يمكنك أن تنكر ذلك».

«حسناً، أتعرفين السبب»، وابتسمت لي تلك الابتسامة التي تشبه ابتسامة إحدى ربات الغابات.

«اسمعي، فأنا أعرف عنك وعن حيلك أكثر بكثير مما تظنين، ولهذا السبب فإن ذكر الموضوع يزعجك».

«لديك خيال خصب يا فال. ولهذا لا أريد أن أخبرك أشياء كثيرة. فأنا أعرف كيف تؤلف قصصاً مما أقوله».

«لكن يجب أن تعترفي أني أفعل ذلك على أسس صحيحة».

مرة أخرى، ارتسمت على وجهها تلك الابتسامة. ثم تشاغلت بشيء، لتخفي وجهها.

تخلل الحديث فترة من التوقف، ثم قلت فجأة «أظن أن النساء يضطررن للكذب... إنها طبيعتهن. وبالطبع فإن الرجال يكذبون أيضاً، لكن بشكل مختلف تماماً. يبدو أن لدى النساء خوفاً شيطانياً من الحقيقة. تعرفين، إذا كان بوسعك أن تكفّي عن الكذب، إذا كان بوسعك أن تتوقّفي عن هذه الألعاب السخيفة غير الضرورية معي، فأظن...».

لاحظت أنها كانت تكره كل ما كانت تدّعي أنها تفعله. لعلها

ستنصت حقاً، قلت لنفسي. ولم أكن أرى سوى جانب وجهها. كانت تقاطيع وجهها تنم عن يقظة شديدة، وعن حذر أيضاً مثل حيوان.

«أظن أني سأفعل أيّ شيء تطلبينه مني. أنا مستعد حتى لأن أتنازل عنك إلى رجل آخر، إذا كانت هذه رغبتك».

كلماتي غير المتوقعة هذه، منحتها إحساساً بالارتياح الشديد، أو هكذا بدا لي. لا أعرف ما الشيء الذي كانت تتوقع أن أقوله. لقد سقط حمل ثقيل عن كاهلها. اقتربت مني ـ كنت جالساً على حافة السرير ـ وجلست بجانبي. وضعت يداً على يدي. كانت النظرة التي اكتست عينيها نظرة إخلاص وولاء مطلقين.

هنا بدأت تقول: «فال، أنت تعرف أني لن أطلب منك طلباً كهذا. كيف يمكنك أن تقول شيئاً كهذا؟ لعلي ألفق بعض الأشياء بين الحين والآخر، لكنها ليست أكاذيب. لا أستطيع أن أخبئ عنك شيئاً حيوياً ـ إن هذا يجعلني يائسة، ويحزنني كثيراً أنني ألفّق هذه الأشياء الصغيرة... هذه الأكاذيب... لأني لا أريد أن أجرحك. في بعض الأحيان أتعرض لحالات في غاية القذارة، وأشعر أني إذا رويتها لك فإنها ستلوثك. لا يهم ماذا يحدث لي. أنا مخلوقة من ألياف خشنة. أعرف حقيقة العالم. أما أنت فلا تعرف. إنك شخص حالم، ومثالي. لا تعرف كم الناس أشرار، ولن تشكّ في هذا أبداً. أنت لا ترى سوى الجانب الطيب من كلّ شخص. شخص نقي، هذا كل ما في الأمر. وهذا ما كان كلود يعنيه عندما قال إنك واحد من القلائل في هذا العالم. وريكاردو نقي هو الآخر. أناس مثلك ومثل وريكاردو يجب ألاّ ينخرطوا في الأمور القبيحة. أنا أتورط فيها بين الحين والآخر ـ لأني لا أخشى من التلوّث. إني امرأة محنكة في هذا العالم. وأنا أتصرّف معك وكأني شخص آخر. أريد أن أكون كما تريدني أن أكون. لكني لن أكون مثلك، أبداً».

«إني أتساءل الآن»، قلت، «ماذا سيفكر أناس ـ أشخاص مثل كرونسكي، وأومارا، وأولريك، مثلاً ـ إذا سمعوك تتحدثين بهذه الطريقة».

«لا يهم ماذا يفكر الآخرون يا فال. فأنا أعرفك جيداً. أعرفك أفضل مما يعرفك أيّ من أصدقائك، لو كانوا يعرفونك منذ زمن طويل. أعرف كم أنت حسّاس. أنت ألطف وأرهف مخلوق على وجه الأرض».

«بدأت أشعر بأني ضعيف وهش في كلّ ما قلته».

«لست هشاً»، قالت بشيء من التعاطف. «أنت شخص متين ـ ككلّ الفنانين. لكن عندما يتعلق الأمر بالعالم، أعني التعامل مع العالم، فإنك لست سوى طفل رضيع. إن العالم برمته شرير. تعيش فيه، حسناً، لكنك لست منه. أنت تعيش حياة مسحورة، وإذا واجهت تجربة قذرة، فإنك تحولها إلى شيء جميل».

«تتحدثين وكأنك تعرفينني كما لو كنت تقرئين كتاباً».

«أنا أقول الحقيقة، أليس كذلك؟ هل بوسعك أن تنكر ذلك؟».

طوقتني بذراعها بحب وراحت تمسح خدها على خدي.

«أوه يا فال، ربما لا أكون المرأة التي تستحقها، لكني أعرفك. وكلما عرفتك أكثر ازداد حبي لك. لقد اشتقت إليك كثيراً في الآونة الأخيرة. ولهذا السبب من المهم بالنسبة لي أن يكون لدي صديقة. كنت حقاً على وشك أن أفقد الأمل ـ بدونك».

«حسناً. لكننا بدأنا نتصرف كطفلين أفسدنا الدلال، هل تدركين ذلك؟ كنا نتوقع أن يُقدم لنا كلّ شيء على طبق من فضة».

«أنا لم أتصرف هكذا!» صاحت. «لكني أردتك أن تحصل على الأشياء التي كنت تشتهيها. أردتك أن تعيش حياة جيدة ـ لكي تتمكن

من القيام بكلّ الأشياء التي تحلم بها. الدلال لا يمكن أن يفسدك! أنت لا تأخذ إلا ما تحتاجه، لا أكثر ولا أقل».

«هذا صحيح»، قلت متأثراً بهذه الملاحظة غير المتوقعة. «لايدرك الكثير من الناس ذلك. أذكر كيف غضب أهلي عندما عدت إلى البيت من الكنيسة صباح يوم أحد، وقلت لهم بحماس إني مسيحي اشتراكي. فقد كنت قد سمعت عامل منجم فحم يتكلم من المنبر في ذلك الصباح ووقعت كلماته في نفسي وقعاً طيباً. وكان قد أطلق على نفسه اسم مسيحي اشتراكي. وعلى الفور أصبحت واحداً منهم أيضاً. على أية حال، انتهى الأمر بهذا الهراء كالعادة... وقال أهلي إن الاشتراكيين لا يهمهم إلا توزيع أموال الناس على الآخرين. «وما الخطأ في ذلك؟» سألت. فكان الجواب: «انتظر حتى تكسب مالك الخاص، ثم تكلم!»، بدا ذلك لي جدالاً سخيفاً. ماذا يهم، سألت نفسي، سواء كسبت مالاً أم لا؟ المهم أن الأشياء الجيدة في الحياة ليست موزعة بعدل. كنت على استعداد لأن أتناول قدراً أقل من الطعام، أن يكون عندي قدر أقل من كلّ شيء، لو كان الذين عندهم القليل أفضل حالاً. وكان يخطر لي بين الحين والآخر، كم أن الإنسان يحتاج إلى القليل. فإذا كنت قنوعاً فلن تكون بحاجة إلى كنوز... حسناً، لاأعرف لماذا تذكرت كل هذا! أوه نعم! كنت أقول إني لا أحصل إلا على ما أحتاجه... وأعترف أن رغباتي كبيرة جداً، لكني أستطيع أيضاً أن أعيش بدونها. ورغم أني أتكلم كثيراً عن الطعام، كما تعرفين، فأنا لا أتطلّب حقاً الشيء الكثير. أريد ما يكفيني فقط لأتمكن من نسيان الطعام، هذا ما أقصده. هذا شيء طبيعي، ألا تظنين ذلك؟»

«بالطبع، بالطبع!».

«ولهذا فأنا لا أريد كلّ الأشياء التي تظنين أنها تجعلني سعيداً، أو تجعلني أعمل على نحو أفضل. فنحن لا نحتاج أن نعيش

بالطريقة التي نحياها. لقد استسلمت لهذا الأمر كرمى لك. وطالما استمرت فهي رائعة، إني متأكد من ذلك. وكذلك عيد الميلاد. الشيء الذي أكرهه أكثر من أيّ شيء آخر الاستدانة والاستجداء باستمرار. وأنا على ثقة بأنك لا تتمتعين بهما أيضاً. لماذا يجب أن نخدع بعضنا بذلك؟ ثم لماذا لا نضع حدّا لهذا الأمر؟».

«لكني فعلت ذلك!».

«توقفت عن ذلك من أجلي، لكنك تفعلين ذلك الآن من أجل صديقتك أناستازيا. لا تكذبي عليّ. أعرف ما أقوله».

«وضعها يختلف يا فال. لا تعرف كيف تكسب المال. إنها حتى طفلة أكثر منك».

«لكنك تساعدينها في أن تبقى طفلة ـ بمساعدتك لها بهذه الطريقة. أنا لا أقول إنها علقة، بل إنك تسلبينها كل شيء. لماذا لاتبيع الدمى التي تصنعها، أو لوحاتها، أو منحوتاتها؟».

«لماذا؟» ضحكت. «لذات السبب الذي يجعلك لا تستطيع أن تبيع قصصك. إنها فنانة ممتازة، هذا هو السبب».

«لكن لا يتعين عليها أن تبيع أعمالها إلى تجار الأعمال الفنية ـ فلتبعها مباشرة إلى الأفراد. لتبعها لقاء أغنية! أيّ شيء لتسد رمقها. سيساعدها ذلك. ستشعر أنها أفضل حالاً».

«عدنا مرة أخرى! هذا يؤكد ضآلة ما تعرفه عن العالم. فال، إنها لا تستطيع حتى أن توزع عملها هكذا، هكذا هي الأمور. إذا حصل ونشرت كتاباً فإنك سترجو الناس أن يقبلوا نسخاً مجانية منه. الناس لا يريدون ما هو جيد، أقول لك. الأشخاص مثلك ومثل أناستازيا ـ أو ريكاردو ـ يجب أن يكونوا محميين».

«لتذهب الكتابة إلى الجحيم، إذا كانت الأمور تسير هكذا... لكني لا أستطيع أن أصدق ذلك! فأنا لم أصبح كاتباً بعد، وما أنا إلا مبتدئ. قد أكون أفضل مما يعتقده المحرّرون من أنا في الواقع،

لكن أمامي مشواراً طويلاً يجب عليّ أن أقطعه. عندما أعرف حقاً كيف أعبّر عن نفسي فإن الناس سيقرؤون كتبي. لا يهمني كم العالم سيء. لكن هم يهمهم ذلك، أقول لك. ولن يتمكنوا من إهمالي».

«وحتى ذلك الحين؟».

«إلى أن يحين ذلك سأجد طريقة أخرى أكسب فيها عيشي».

«تبيع موسوعات؟ هل هذه هي الوسيلة؟».

«ليست وسيلة جيدة، أعترف بذلك، لكنها أفضل من الاستجداء والاقتراض. أفضل من أن تعرض زوجتك جسدها للبيع».

«إن كلّ بنس أجمعه، هو من عرق جبيني»، قالت مونا بحماسة. «إن خدمة الزبائن ليست عملاً سهلاً».

«وهذا ما يدعوني إلى أن أسهم بنصيبي. أنت لا تحبين أن تريني أبيع الكتب. وأنا لا أحبّ أن أراك تقومين بخدمة الزبائن. لو كان لدينا مزيد من الإحساس لعملنا أشياء أخرى. بالتأكيد لابد أن يكون هناك عمل آخر لا يجلب لنا المهانة».

«ليس لنا! نحن لم نخلق لأن نعمل في هذا العالم».

«ثم علينا أن نتعلم». قلت مدفوعاً بموقفي الفاضل.

«قال، إن هذا كله كلام بكلام. أنت تعرف أنك لن تستمر في العمل أبداً. وأنا لا أريدك أن تفعل ذلك. أفضّل أن أراك ميتاً على أن تفعل ذلك».

«حسناً، إنك تفوزين. لكن بحق المسيح، ألا يوجد شيء يمكن لرجل مثلي أن يفعله دون أن يشعر وكأنه أحمق أو أبله؟». هنا جعلتني فكرة كانت تتشكل على شفتي أضحك. ضحكت كثيراً قبل أن أقولها. «اسمعي»، تمكنت أخيراً من القول، «هل تعرفين ماذا خطر لي للتو؟ خطر لي أنه يمكنني أن أكون دبلوماسياً رائعاً. يجب أن أكون سفيراً لدى بلد أجنبي ـ ما رأيك؟ لا، بجدّ. لم لا؟ فلدي الدماغ،

وأعرف كيف أتعامل مع الناس. والأشياء التي لا أعرفها، سأكمّلها بمخيلتي. هل تستطيعين أن تتخيليني سفيراً لدى الصين؟».

للغرابة أنها لم تعتبر أن الفكرة سخيفة.

«بالتأكيد ستكون سفيراً جيداً يا فال. لم لا، كما تقول؟ لكن لن تتاح لك الفرصة أبداً. هناك بعض الأبواب الموصدة لن تفتح أمامك. فلو كان رجال مثلك يوجهّون شؤون العالم فلن ينتاب أحد القلق بشأن وجبة الطعام القادمة ـ أو كيف تتمكن من نشر القصص. ولهذا أقول لك إنك لا تعرف العالم!».

«اللعنة، أنا أعرف العالم. أعرفه جيداً. لكني أرفض أن أتوافق معه».

«الأمر سيان».

«لا، ليس سيّان! إنه الفرق بين الجهل ـ أو العمى ـ وبين العزلة. شيء من هذا القبيل. فإذا كنت لا أعرف العالم فكيف أصبح كاتباً؟».

«كاتب له عالمه الخاص».

«اللعنة! لم أتوقع أن تقولي هذا! لقد أوقعتني في حيرة...» ساد صمت لبرهة.

«إن ما تقولينه صحيح تماماً»، أردفت، «لكن هذا لا يلغي ماقلته. لعلي لا أستطيع أن أفسرّه لك، لكني أعرف أني على حق. أن يكون لديك عالمك، وأن تعيشين فيه، لا يعني بالضرورة أنك فاقدة البصر تجاه ما يدعى بالعالم الحقيقي. فإذا لم يكن الكاتب مطلعاً على العالم اليومي، إذا لم يَغُصْ في أعماقه ويتمرد عليه، فلن يكون لديه ما تدعينه عالمه. الفنان يحمل كلّ العوالم في داخله. وهو جزء حيوي من هذا العالم شأنه شأن أي شخص آخر. في الحقيقة، فهو يعرفه جيداً ويعيشه بعمق أكثر من الآخرين، وذلك لسبب بسيط وهو أنه مبدع. إنّ العالم هو محوره. فالرجال الآخرون قانعون بزاوية

من عالمهم ـ عملهم الضئيل، عشيرتهم الصغيرة، فلسفتهم الصغيرة، وما إلى هنالك. اللعنة، إن السبب الذي لا يجعلني أصبح كاتباً عظيماً، إذا كنت تريدين أن تعرفي، هو أنني لم أستوعب العالم العريض الكامل حتى الآن. هذا لا يعني أني لا أعرف عن الشرّ. هذا لا يعني أني لا أرى وحشية الناس وقسوتهم، كما يخيل إليك. إنه شيء غير ذلك تماماً. لكني سأعرف الأشياء التي لا أعرفها أنا نفسي في نهاية الأمر. وعندها سأصبح مصباحاً. سأضيء العالم. سأكشفه حتى النخاع... لكني لن أدينه! لن أفعل ذلك لأني أعرف جيداً أني جزء لا يتجزأ منه، ترس هامّ في ماكينته». توقفت ثم أردفت. «إننا لم نصل إلى الحضيض بعد. إن ما عانيناه لا يساوي شيئاً. مجرد لسعات براغيث، هذا كلّ ما في الأمر. هناك أشياء أسوأ بكثير يتحملها المرء غير الافتقار إلى الطعام والأشياء التي نراها. لقد عانيت أكثر بكثير عندما كنت في السادسة عشرة، عندما لم أكن أقرأ إلا عن الحياة. وإلاّ فأنا أخدع نفسي».

«لا أفهم ما تعني». أومأت مونا بوقار.

«جيد. إذن فأنتِ تَعينَ ذلك. فبدون أن تشاركي في الحياة، يمكنك أن تشعري بآلام الشهداء... أن يعاني المرء من أجل الآخرين ـ هو ضرب رائع من المعاناة. أما عندما تعانين بسبب ذاتك، بسبب الشح أو بسبب الآثام، فإنك تواجهين نوعاً من الإذلال. أمقت هذا النوع من المعاناة. أما أن تتألمي مع الآخرين، أو من أجل الآخرين، وأن يكون الجميع في الحالة نفسها، فهذا شيء مختلف. عندها يشعر المرء بأنه أصبح غنياً. إن الشيء الذي أكرهه في طريقة حياتنا هو أنها محدودة جداً. لذلك يجب علينا أن نكافح، أن نصاب بالكدمات ونتحطم من أجل أسباب ذات أهمية».

استرسلت في كلامي في هذا المنحى، وأخذت أنتقل من موضوع إلى آخر، أناقض نفسي في أغلب الأحيان، أغالي في بعض

الأمور، ثمّ أنحّيها جانباً، وأبذل جهدي لكي أعود إلى الموضوع الأصلي.

وبدأ يتكرر هذا النوع من المناجاة، هذه الخطب. ولعلها أصبحت تتكرر لأني لم أعد أكتب. ربما لأني كنت أبقى وحدي معظم النهار. ربما أيضاً، لإحساسي بأنها أخذت تنزلق من بين يديّ. كان ثمة شيء بائس في هذه الانفجارات. كنت أحاول الوصول إلى شيء، شيء لم أتمكن من الإعراب عنه بكلمات. ورغم أنه بدا أنني كنت أوجه إليها اللوم، فقد كنت في الواقع أوبّخ ذاتي. والأسوأ من كلّ هذا لم أتمكن من الوصول إلى اتخاذ قرار ملموس. كنت أرى بوضوح ما يجب ألا نفعله، لكني لم أستطع أن أرى ما الذي علينا أن نفعله. وفي سريرتي راقت لي فكرة أن أكون «محمياً». في سريرتي، كان عليّ أن أعترف أنها كانت محقة ـ لن أستطيع التعايش. ولذا تركتها تفرغ ما يعتمل في نفسها. كنت أهذي جيئة وذهابا، أتذكّر أيام الطفولة المجيدة، الأيام البائسة في المراهقة، مغامرات الشباب الهزلية. كانت كلها جذابة، كلّ ذرة فيها. لو كان ذلك الرجل مكفرلاند موجوداً، مع كاتبه! يالها من قصة لمجلته! (قلت في نفسي فيما بعد، ألم يكن من الغريب أن يكون بوسعي أن أتحدث عن حياتي ولا أتمكن من تدوينها على الورق). ففي اللحظة التي كنت أجلس فيها إلى الآلة الكاتبة كان ينتابني الاضطراب. لم يخطر ببالي في ذلك الوقت أن أستخدم ضمير المتكلم. لماذا، أتساءل؟ ماذا منعني من ذلك؟ لعلي لم أصبح بعد «أنا ذاتي».

لم أجعلها تثمل بهذه الأحاديث فقط، بل جعلت نفسي أثمل أيضاً. وكان الفجر يطلع تقريباً قبل أن نخلد إلى النوم. وبعد أن أغفو كان ينتابني الشعور بأني أنجزت شيئاً. لقد أفرغتها من صدري. هي! ما هي؟ لم أستطع أن أقول أنا نفسي. لم أعرف سوى هذا، وبدا أني لم أكن أستمد منها رضاً سيئاً: لقد قمت بدوري بشكل صحيح.

ولعلي كنت أفتعل هذه المشاهد لأثبت أني مثير و«مختلف» شأن أناستازيا التي بدأتُ أملّ من السماع عنها. وربما كنت أغار منها قليلاً. فرغم أن مونا لم يمض على تعرّفها بأناستازيا سوى بضعة أيام، حتى امتلأت الغرفة بأغراض صديقتها. وكان كل ما تبقى عليها هو أن تنتقل لتقيم معنا. فعلى الجدار فوق الأسرّة كانت تُعلَّق لوحتان يابانيتان رائعتان، واحدة لتامارو والأخرى لهيروزهيج. وفوق الحقيبة، وضعت دمية كان من الواضح أن أناستازيا صنعتها لمونا. وفوق الخزانة وضعت أيقونة روسية، هدية أخرى من أناستازيا. هذا ما عدا الأساور البربرية، والتعاويذ، والأخفاف المطرّزة، وغيرها. حتى العطر الذي كانت تتضمخ به ـ ذو الرائحة اللاذعة جداً! ـ قدمته لها أناستازيا. (ربما من نقود مونا). فمع أناستازيا لا يمكنك أن تميز أبداً شيئاً عن الآخر. وفيما كان ينتاب مونا القلق بشأن الملابس التي كانت تحتاجها صديقتها، والسجائر، والمواد الفنية، وما إلى ذلك، كانت أناستازيا تحصل على المال من البيت، وتوزعه على الطفيليين خاصتها. ولم تكن مونا ترى أي غضاضة في ذلك. ومهما فعلت صديقتها كانت محقة وشيئاً طبيعياً، حتى لو سرقت من محفظتها. وكانت أناستازيا تسرق أحياناً. لم لا؟ فلم تكن تسرق لنفسها بل لتساعد البؤساء والمحتاجين. ولم تكن تشعر بالندم لقيامها بهذه الأمور. فهي ليست امرأة برجوازية، أوه لا! إذ كانت هذه الكلمة «البرجوازية» قد بدأت تتردد كثيراً الآن بعد أن ظهرت أناستازيا على موقع الأحداث. فكل شيء ليس جيداً، إنما هو «برجوازي»، حتى الكاكا قد يكون «برجوازياً حسب ما كانت أناستازيا ترى الأشياء. فقد كانت تتمتع بروح مرحة رائعة، عندما تتعرف إليها. وبالطبع، لم يكن بوسع بعض الناس أن يروا ذلك. إذ كان بعض الناس مجردين من الروح المرحة. فأن ترتدي حذاءين مختلفين، وهذا ما كانت تفعله أناستازيا أحياناً بشرود؟ ـ أم هل كانت تفعل ذلك بشرود حقاً؟ كان

أمراً مضحكاً على نحو صارخ. أو أن تحمل حقيبة الغسل النسائي وهي تسير في الشوارع. فلماذا كانت تحمل هذه الأشياء؟ علماً أنها لم تكن تستعمل هي نفسها أياً منها، بل كانت دائماً لإحدى الصديقات اللاتي بحاجة إليها.

الكتب المبعثرة في أرجاء المكان... أعارتها إياها جميعها أناستازيا. وأحد هذه الكتب بعنوان «هناك» لكاتب فرنسي «منحط». كان أحد كتب أناستازيا المفضّلة، لا لأنه كان «منحطاً» بل لأنه كان يروي قصة تلك الشخصية الاستثنائية في التاريخ الفرنسي ـ جيل دي رايس ـ لأنه كان أحد أتباع جان دارك. ففي الحقيقة، قتل عدداً كبيراً من الأطفال ـ وهجّر قرى كاملة من سكانها. أحد أكثر الشخصيات غموضاً في التاريخ الفرنسي. وكانت ترجوني أن ألقي نظرة عليه عندما يتسنى لي ذلك. وقد قرأته أناستازيا بلغته الأصلية. فلم يكن بوسعها أن تقرأ بالفرنسية والإيطالية فقط ـ بل بالألمانية والبرتغالية والروسية أيضاً. نعم، وقد تعلمت كذلك العزف على البيانو بشكل رائع في مدرسة الدير. والغيتار أيضاً.

«هل تجيد العزف على البوق؟» سألتها بسخرية.

ضحكت ضحكة الحصان تلك. ثم أفشت بهذا السر:

«إنها تستطيع أن تقرع الطبل أيضاً. لكن يجب أن تصل إلى مرحلة النشوة أولاً».

«أتعنين أن تكوني ثملة؟».

«لا، بعد أن تكون قد دخنت الماريجوانا. إنها ليست مضرة. فهي لا تسبب الإدمان».

وعندما كانت تثار هذه المسألة ـ المخدِّرات ـ كنت أصيخ السمع. ففي رأي مونا (ولعل أناستازيا أيضاً) يجب على كلّ شخص أن يطلع على تأثير مختلف المخدرات. فالمخدرات لاتصل في

خطرها إلى نصف خطر المشروبات الكحولية. وتأثيرها أكثر إثارة. نعم، وهي ستجربها ذات يوم. وهناك الكثير من الأشخاص في حي الفيليج - أشخاص محترمون أيضاً - يتعاطون المخدِّرات. ولا يمكنها أن تفهم السبب الذي يدعو الناس إلى الخوف من المخدِّرات. وهناك ذلك العقار المكسيكي الذي يرتقي بالإحساس باللون، مثلاً. فهو غير ضار أبداً. يجب أن نجربه ذات مرة. وستحاول أن تحصل على بعض منه من ذلك الشاعر المزيّف، ما اسمه؟ كانت تكنّ له احتقاراً، فقد كان قذراً، وما إلى هنالك، لكن أناستازيا تصرّ على أنه شاعر جيد. ولا بد أن أناستازيا تعرف أكثر...

«سأستعير إحدى قصائده ذات يوم وأقرأها لك بصوت عال. إنك تسمع شيئاً يشبه ما يكتبه يا فال».

«حسناً»، قلت، «لكنها إذا كانت نتنة فسأقول لك ذلك بصراحة».

«لا تقلق! فهي لا تكتب قصيدة سيئة حتى لو حاولت ذلك».

«أعرف أنها عبقرية».

«إنها عبقرية حقاً، وأنا لا أمزح. إنها عبقرية حقيقية».

لم أتمالك نفسي من القول إن العباقرة السيئين جداً هم شاذون دائماً.

«ها أنت عدت تتحدث تماماً كما يتحدث الآخرون. قلت لك مراراً إنها ليست مثل الشاذين الآخرين في حي الفيليج».

«لا، فهي شاذة حقيقية».

«لعلها تكون مجنونة، لكن مثل جنون ستريندبيرج، دوستويفسكي، بليك...».

«أنت ترفعين من شأنها كثيراً، أليس كذلك؟».

«أنا لم أقل أنها تمتلك موهبتهم. كل ما أعنيه أنها شاذة، وهي

شاذة بطريقة شذوذهم نفسها. ليست مجنونة وليست محتالة. ومهما كانت فهي امرأة حقيقية. وأراهن بحياتي على ذلك».

«الشيء الوحيد الذي أملكه ضدها»، قلت، «أنها تحتاج إلى رعاية كبيرة».

«هذا قاسٍ».

«صحيح؟ انظري... لقد تحسنت كثيراً بعد أن تعرفت عليها، أليس كذلك؟».

«أخبرتك كيف كانت عندما قابلتها».

«أعرف ذلك، لكن هذا لا يثير شيئاً فيّ. لعلك لو لم تقدمي لها الرعاية لما تمكنت من التقاط أنفاسها ووقفت على قدميها».

«عدنا إلى حيث بدأنا. كم مرّة يجب أن أوضّح لك أنها لا تعرف كيف تعتني بنفسها؟».

«إذن دعيها تتعلّم!».

«وماذا عنك؟ هل تعلّمت بعد؟».

«كنت على ما يرام حتى جئت. فأنا لم أكن أرعى نفسي فقط، بل كنت أرعى زوجة وطفلة أيضاً».

«هذا شيء جائر منك. لعلك رعيتهما، لكن بأي ثمن! إذ إنك لم ترغب في أن تعيش بتلك الطريقة إلى الأبد، أليس كذلك؟».

«بالطبع لا! لكني كنت سأجد طريقة للخروج من ذلك في نهاية الأمر».

«في النهاية يا فال، لا يوجد أمامك متسع من الوقت! أنت في الثلاثينات الآن - ويجب أن تصنع لنفسك اسماً. أناستازيا مجرد فتاة، لكن انظر كم أنجزت أنت».

«أعرف، لكنها عبقرية...»

«أوه، كفّ عن هذا! فلن نصل إلى شيء بمناقشتنا بهذه الطريقة.

لماذا لا تكفّ عن التفكير بها؟ إنها لا تتدخل في حياتك ـ لماذا يجب أن تتدخل في حياتها؟ أليس من حقي أن يكون لديّ صديقة واحدة؟ لماذا يجب أن تغار منها؟ كن عادلاً، أليس كذلك؟».

«حسناً، لنتوقف عن الحديث في هذا الموضوع. لكن كفيّ عن التحدّث عنها، أليس كذلك؟ عندها لن أتفوه بكلمة تؤذي مشاعرك».

رغم أنها لم تطلب مني صراحة عدم زيارة مطعم *القِدْر الحديدي*، فقد توقفت عن زيارته نزولاً عند رغبتها. وكنت أشك بأن أناستازيا كانت تمضي معظم أوقاتها هناك كل يوم، وبأنهما تلتقيان خلال الفترات التي لا تعمل فيها مونا، في مكان ما. وبشكل غير مباشر، كنت أسمع عن زياراتهما إلى المتاحف والمعارض الفنية، إلى ستوديوهات فناني الفيليج، ورحلاتهما إلى الشاطئ، حيث كانت أناستازيا ترسم المراكب والأفق، وكانتا تمضيان ساعات في المكتبة لإجراء بعض الأبحاث. وبطريقة ما كان التغيير جيداً بالنسبة لمونا. إذ منحها ذلك شيئاً جديداً للتفكير. فقد كانت لديها معرفة ضئيلة بالرسم الزيتي، وكان من الواضح أن أناستازيا مسرورة من أن تصبح معلمة لها. وكانت هناك إشارات مبطنة من حين لآخر إلى اللوحة التي تنوي أناستازيا أن ترسمها لمونا.

وكما يبدو فلم يسبق لها أن رسمت لوحة واقعية لأي شخص، وكانت متردّدة على نحو خاص في رسم صورة لمونا.

مرت أيام لم تحرك فيها أناستازيا ساكناً في البيت، بل كانت تبقى مضطجعة طوال الوقت وتحظى بالرعاية كطفل رضيع. وكان أيّ حدث مهما كان تافهاً، قد يحدث نوبات التذمّر تلك. وكان ذلك يحدث أحياناً لأن مونا قالت شيئاً يتسم بالحماقة أو بالاستخفاف من أحد الرموز المحببة لأناستازيا. فقد كان موديلياني وإلغريكو، مثلاً، رسامين لا تسمح لأحد، حتى لمونا، أن تقول عنهما شيئاً غير

لائق. وكانت شديدة الولع بوتريلو، أيضاً، لكنها لم تكن تبجّله. فقد كان «روحاً تائهة» مثلها: على الصعيد «الإنساني». في حين كان جيوتو وجرانيوالد، الفنانان الصيني والياباني، على مستوى مختلف، إذ كانا يمثلان طبقة أعلى. (لم يكن ذوقها سيئاً كثيراً!)، وكما فهمت، لم تكن تكنّ أي احترام للفنانين الأمريكيين. وباستثناء جون مارين الذي قالت إنه محدود لكنه عميق. وما جعلني أحبها تقريباً اكتشافي بأنها كانت تحمل دائماً كتاب «أليس في بلاد العجائب» و «تاو تي تشينج»، ثم أضافت إلى مجموعتها مجلداً لرامبو...

كنت ما أزال أقوم بجولاتي. وكنت بين الحين والآخر أبيع مجموعة من الكتب دون أن أبذل أي جهد. أعمل أربع أو خمس ساعات يومياً فقط، وكنت دائماً على استعداد للتوقف عن العمل عندما يحين وقت العشاء. وعادة أدقق البطاقات وأختار شخصاً يعيش في منطقة غير بعيدة، في ضاحية كئيبة، في جحر كئيب وقاحل في نيو جيرسي أو لونغ آيلاند. أفعل ذلك جزئياً لقتل الوقت، وجزئياً لأروّح عن نفسي، وكنت دائماً، عندما أتوجّه إلى بقعة قذرة ما (التي لا يفكر بزيارتها إلا بائع كتب معتوه!)، كانت تدهمني ذكريات عزيزة على نفسي غير متوقعة، أماكن عزيزة على قلبي كنت أعرفها منذ الصّبا. كان ذلك ضرباً من القانون المعكوس لتداعي الأفكار أثناء العمل. وكلما كان المكان رتيباً ومألوفاً، راودتني أكثر التداعيات غرابة وروعة. وكان بوسعي أن أراهن على أني إذا توجهت ذات صباح إلى هاكينساك أو كانارسي، أو إلى جحر أرانب في ستاتن آيلاند، سأجد نفسي بحلول المساء في شيبشد باي، أو بلوبيوينت، أو في بحيرة بوكوتوبوج. وإذا لم أكن أملك أجرة الركوب، كنت أستقل سيارات على قارعة الطريق، شبه واثق بأني سأقع في أحضان شخص «ودود الوجه» يدعوني إلى وجبة طعام ويعطيني أجرة العودة. كنت أركب الموج. ولم يكن يهمني أين

سينتهي بي المطاف، أو متى أصل إلى البيت، لأني كنت متأكداً من أني سأصل قبل مونا. ومرة أخرى كنت أسجل أشياء في رأسي، ليس بشكل محموم كما من قبل، بل بهدوء وانتظام، كمراسل لديه متسع من الوقت وحساب كبير للنفقات. كان من الرائع ترك الأشياء تسير على هواها. وبين الحين والآخر أبحر في قارب، أتوقف في بلدة لم أسمع باسمها من قبل، أختار دكاناً لا على التعيين ـ سباكاً أو جانوتياً، لا فرق ـ وأنطلق في الكلام محاولاً البيع. لم يكن لدي أدنى فكرة عن أسلوب البيع. لا، بل كنت أريد أن أرى مدى وقع كلماتي على الأشخاص. وكان ينتابني شعور بأني رجل جاء من كوكب آخر. وإذا بدا أن الضحية المسكينة عازف عن مناقشة مزايا موسوعتنا المجزأة، حدثته بلغته، مهما كانت، حتى لو كانت لا تدور عن شيء سوى عن الجثث الباردة. وبهذه الطريقة أجد نفسي دائماً أتناول طعام غدائي بروح متوائمة مع شخص لايجمعني به أي شيء. وكنت كلما ابتعدت عن نفسي أكثر وصلت إلى قناعة بأني شخص ملهم. وفجأة، ربّما في وسط جملة، كان الشخص يتخذ قراره وعندها أشد الرحال بسرعة. وأنطلق بحثاً عن البقعة التي كنت أعرفها في الماضي، ذلك الماضي الرائع. وكان الهدف من عودتي إلى تلك البقعة الثمينة رؤية ما إذا كان بوسعي إعادة تكوين الكائن الذي كنته ذات مرة. لعبة غريبة ومليئة بالمفاجئات. أحياناً كنت أعود إلى غرفتنا كصبي صغير يرتدي ملابس الرجال. نعم، كنت في بعض الأحيان هنري الصغير بلحمه ودمه، أفكّر مثله، أشعر مثله، أتصرّف مثله.

وفي أغلب الأحيان، وأنا أتحدث مع غرباء تماماً، هناك على أطراف العالم، تقفز فجأة إلى رأسي صورتهما هما الاثنتان، مونا وأناستازيا، وهما تسيران بطريقة استعراضية في شوارع حي الفيليج، أو تتمايلان وهما تلجان باب المتحف الدوار تحملان تلك الدمى المجنونة على ذراعيهما. كنت عندها أقول شيئاً غريباً إلى نفسي ـ همساً بالطبع ـ وتعلو وجهي ابتسامة واهية شاحبة: «وأين

أدخل؟» أسير في المنطقة المجاورة الكئيبة، بين الزومبي وطيور الدودو، وتتملكني فكرة بأني منقطع عن العالم. وكنت دائماً، وأنا أغلق الباب، يتكوّن لديّ الإنطباع بأن الباب قد أُقفل ورائي، وبأنني يجب أن أجد طريقاً آخر للعودة. أعود من أين؟.

كان ثمة شيء مضحك ومشوّه حول هذه الصورة المزدوجة التي كانت تراودني في اللحظات غير المتوقّعة في الغالب. فقد رأيتهما ترتديان ثيابهما بطريقة غريبة «أناستازيا في بدلة العمل وحذاء طويل ذي مسامير، والليدي بريشس ستريم بقبعتها المرفرفة، وشعرها ينسدل طليقاً كعرف الفرس». كانتا تتكلمان دائماً في وقت واحد، وعن أشياء مختلفة جداً؛ وكانت تبدو على وجهيهما قسمات غريبة، وإيماءات وحشية؛ وكانتا تسيران بإيقاع مختلف تماماً، واحدة مثل طائر الأوك، والأخرى مثل النمر.

وكنت حينما أغوص في أعماق طفولتي، لا أخرج إلى العالم مرة أخرى، ولم أكن أبقى عند الأطراف، بل أقبع في الداخل بشكل مريح، كنواة تقبع في قلب فاكهة ناضجة. تراني واقفاً أمام محل لبيع حلويات آني مينكين، في شارع وورد 14 القديم، أنفي مضغوط على اللوح الزجاجي، عينايّ تحدقان في قطع الجنود المغطاة بالشوكولاته. هذا الاسم المجرد، «العالم»، لم يخترق وعيي بعد. كان كلّ شيء حقيقياً، ملموساً، منفرداً، لكن لم يكن له اسم كامل، ولم يكن محدد المعالم تماماً. كنت أنا، وكانت الأشياء. لم يكن للفضاء حدود، ولا الزمن. وكانت آني مينكين تنحني بقدر مايمكنها من فوق الكاونتر لتضع أشياء في يدي، وتربت على رأسي، وابتسامة ترتسم على وجهها، وهي تقول إني شخص صغير طيب، وكانت في بعض الأحيان تهرع إلى الشارع لتطبع على خدي قبلة الوداع، رغم أننا كنا نعيش على بعد بضعة أبواب.

وكنت عندما أستعيد هدوئي، أتوقع أن يتصرف أحدهم معي،

تماماً كما كانت تتصرف معي آني مينكين. ولعلي كنت أهرب إلى تلك الأماكن البعيدة من طفولتي، لكي أحصل مرة أخرى على تلك القطعة من الحلوى، على تلك الابتسامة، على قبلة الوداع المحرجة تلك. كنت في الواقع شخصاً مثالياً، شخصاً لا براء منه. (المثالي هو الشخص الذي يريد أن يعيد العجلات إلى الوراء، يتذكّر جيداً ما أعطي له: ولا يفكّر بما يمكن أن يقدمه هو نفسه للآخرين). ودون إدراك منه يغدو العالم تعيساً، إلا أن العملية تبدأ منذ اللحظة التي يفكر فيها المرء «بالعالم».

تراودني أفكار غريبة، تجوال غريب لبائع كتب. في حقيبتي، من المفترض أني أقفل على مفتاح جميع المعارف الإنسانية، والحكمة، مثل ويست تشيستر، التي لا تبعد سوى أربعين ميلاً. لاشيء ميتاً في هذا العالم كله مثل خلاصة المعارف هذه. وبالإضافة إلى النماذج الطباعية، وأغلفة الكتب، وكلّ الأشياء العديدة الأخرى التي حشرتها في حقيبتي، كنت أحمل معي كتاباً، كتاباً لا صلة له بفحوى حياتي اليومية التي كانت كالوشم على باطن القدم اليسرى لأحد المحكومين. «لم نبتّ بعد في مسألة وجود الله وأنت تريد أن تأكل!» جملة كهذه تقفز من طيات كتاب *الأرض اليباب* الذي يحدد مسار يومي. ويمكنني أن أرى نفسي من جديد وأنا أغلق الكتاب، أقفز مثل ظبي أُجفل، وأصيح بصوت عالٍ: «أين نحن بحق الجحيم؟» ثم أنطلق.

ربما تركوني عند حافة مستنقع، أو عند بداية أحد تلك الصفوف الطويلة التي لا تنتهي من بيوت الضواحي المتشابهة، أو بوابات مشفى المجانين. لا يهم، لكني أواصل الخطى، مطأطأ الرأس، الفكان لا يتوقفان عن العمل بشكل محموم، همهمات، أصوات البهجة، تأملات، اكتشافات، أنوار مضيئة. بسبب تلك العبارة الخاطفة، سيما عبارة «وأنت تريد أن تأكل!» جزءاً منها. وكان قد مضى زمن طويل جداً قبل أن أكتشف من الذي أبدع هذه الصيحة

الرائعة. كلّ ما كنت أعرفه آنذاك، كلّ ما كان يهمني، هو أني عدت إلى روسيا، أصبحت مع الأرواح القريبة، أصبحت مهووساً تماماً بهذه المسألة الباطنية كوجود الله القابل للنقاش.

هل قلت بعد سنوات؟ نعم ـ في الأمس، مثلاً، اكتشفت من هو المؤلف. وفي الوقت نفسه علمت أنّ الرجل الآخر، معاصر، كتب هكذا عن أمته، الأمة الروسية العظيمة: «إننا ننتمي إلى عدد من تلك الأمم التي لا تدخل، مثلاً، في تركيبة البشرية فقط، بل توجد لتلقّن العالم درساً مهماً من نوع ما».

لكني لن أتكلم عن البارحة، أو عن أول البارحة. بل سأتكلم عن زمن لا بداية له ولا نهاية، زمن ملأ الأماكن الفارغة من أيامي بالأشياء الأخرى...

إن الطريق الذي تسلكه البواخر، والطريق الذي يسلكه الإنسان عموماً، لهو مسلك متعرّج. فالسكّير يترنح في مشيته كالكواكب. أما الإنسان الذي ليس له مكان يقصده، فهو يتحرك في استمرارية الزمان والمكان اللذين يخصانه وحده، واللذين يوجد فيهما الله بشكل دائم. «في الوقت الحاضر» ـ عبارة غامضة! ـ إنه دائماً هناك. هناك مع راعي الكون الكبير، إن جاز التعبير. واضح؟ حسناً، لنقل إن اليوم يوم الاثنين. «وأنت تريد أن تأكل؟» وتبدأ النجوم تقرع أجراسها، ويلامس حافر الرنّة العشب، وندف الثلج الزرقاء المدلاة تشعّ في شمس الظهيرة. أشقّ طريقي باتجاه الدائرة الداخلية، والحقيبة تحت إبطي. وأحمل كيساً صغيراً من الحلوى في يدي، هدية قدمتها لي آني مينكين. وكانت قد طُرحت مسألة هامة وهي أننا «لم نحسم بعد مسألة وجود الله...».

وفي هذه اللحظات بالذات، وفي الوقت الذي حددته لنفسي، ألج زمن الله، الذي هو دائماً «الزمن الحاضر». وإذا ما سمعتني أقول ذلك ستحسب أني عضو في المجمع الكنسي المقدس ـ المجمع

الكنسي الموسيقي المقدس. ليس بالضرورة أن أجعل نفسي متناغماً: فأنا متناغم منذ فجر الزمن. الوضوح المطلق هو الذي يميّز أدائي. أنا الأخوية التي لا ترمي إلى تلقين العالم درساً، بل لتوضح أن تلك المدرسة قد انتهت.

الرفاق في حالة استرخاء ومرتاحون. لن تنفجر القنبلة حتى أصدر الأمر. على يميني دوستويفسكي وعلى يساري الإمبراطور أناذيما. كلّ عضو في المجموعة مميّز بطريقة مثيرة. وكنت الوحيد «بدون حقيبة». أنا ويتلاندر، مسقط رأسي من «الأطراف»، بمعنى آخر، من القدر الذي تبقبق فيه المشاكل.

«أيها الرفاق، يقال إننا نواجه مشكلة...» (أبدأ دائماً بهذه العبارة). أتطلع حولي، هادئاً، واثقاً من نفسي وأقول: «أيها الرفاق، لنركّز اهتمامنا للحظة على تلك المسألة المسكونية الكلية».

«أيّ؟» يسأل الإمبراطور أناذيما بصوت مرتفع.

«أيّ لا أقل من هذا الشيء: إذا لم يكن هناك إله، فهل كنا وجدنا؟».

ووسط صيحات هراء! وسخافة! أتابع بسهولة، أرتّل النصوص المقدّسة الكامنة في قلبي. أشعر بالارتياح لأنه لا يتعين عليّ أن أثبت شيئاً. ما عليّ إلا أن أتلو ما تعلّمته عن ظهر قلب بدون فهم. إن كوننا مجتمعين مع بعضنا، ونتمتع بالقدرة على مناقشة وجود الله، يمثلان في حد ذاتهما دليلاً قاطعاً بالنسبة لي على أننا نستمتع بدفء شمس وجوده. فأنا لا أقصد «وكأنه» كان موجوداً، بل أقصد «لأنه» موجود فعلاً. أعود إلى ذلك المحراب الأبدي من حيث تخرج دائماً كلمة «طعام». لقد عدت لهذا السبب.

«وأنت هل تريد أن تأكل؟».

أبدأ أخاطب الرفاق بشكل عاطفي الآن.. «لم لا؟»، أبدأ كلامي،

«هل نهين خالقنا إذا تناولنا ما رزقنا به؟ هل تظنون أنه سيزول لأننا نملأ بطوننا؟ كلوا، أرجوكم. كلوا بنهم! فلإلهنا الزمن كله الذي يتجلى فيه. إنكم تدّعون أنكم ترغبون في حسم مسألة وجوده. لا فائدة ترجى من ذلك يا رفاقي الأعزاء، فقد حُسم هذا الأمر منذ عهد بعيد، حتى قبل أن يُخلق العالم. إن العقل وحده هو الذي يعلمنا أنه إذا كانت هناك مشكلة، فيجب أن يكون هناك شيء حقيقي يحدث تلك المشكلة. ونحن لا نملك أن نقرر فيما إذا كان يوجد إله أم لا، بل على الله أن يقول فيما إذا كنا نوجد أم لا («أيها الكلب! هل لديك شيئاً لتقوله؟» صحت في أذن الإمبراطور أنانيما). «سواء أكلتم أم لم تأكلوا قبل البت في هذه المسألة، فإني أطرح عليكم سؤالاً غيبياً؟ هل يناقش الجائع فيما إذا كان سيأكل أم لا؟ إننا جميعنا جائعون: إننا نجوع ونعطش من أجل الذي منحنا الحياة، وإلا لما اجتمعنا هنا. أن نتصور أننا بمجرد أن نقول نعم أم لا، ستُحل المشكلة الكبيرة إلى الأبد وهذا جنون مطلق. إننا لم...» (توقفت واستدرت إلى الشخص الجاثم على يميني)، «وأنت يا فيودور ميلوفيتش، ألا يوجد لديك شيء تقوله؟» إننا لم نلتق هنا لحل مشكلة سخيفة. نحن هنا، يارفاق، لأنه لم يعد يذكر في خارج هذه الغرفة، في العالم كما يدعونه، اسم المقدس. إننا المختارون، ونحن متحدون كنسياً. هل يريد الله أن يرى الأطفال يتألمون؟ قد يُطرح مثل هذا السؤال هنا. هل الشرّ ضروري؟ هذا أيضاً يمكن طرحه. وقد يُطرح أيضاً السؤال فيما إذا كان يحق لنا أن نتوقّع وجود جنة هنا والآن، أو أن الأزلية خير من الخلود. بل ويمكننا أن نناقش فيما إذا كان إلهنا السيد المسيح ينتمي إلى طبيعتنا القدسية فقط أم أنه ينتمي إلى الطبيعتين المنسجمتين كاتحاد الخبز والخمر في القربان بدم المسيح وجسده، إنسان وإله. لقد عانينا جميعنا أكثر مما تحتمل الكائنات الفانية. لقد حققنا جميعنا درجة معقولة من الانعتاق. كشف بعضكم أعماق الروح الإنسانية بطريقة ما، وإلى درجة لم يُسمع عنها من

قبل. جميعنا نعيش خارج زماننا، إننا رواد عصر جديد، طبقة جديدة للبشرية. نعلم أنه لا يوجد ثمة أمل من الكنيسة الحالية. إن نهاية الانسان التاريخي وشيكة: المستقبل مرتبط بالخلود والحرية والحب. سيُبعث الإنسان بمساعدتنا؛ وعندما يُبعث الأموات من قبورهم يكسوهم الشحم واللحم، سنتناول القربان المقدس، قربان مقدس حقيقي ودائم، مع كلّ من كانوا: مع أولئك الذين صنعوا التاريخ ومع الذين لم يكن عندهم تاريخ. وبدلاً من الأسطورة والخرافة ستصبح لدينا حقيقة أبدية. كلّ ما يُدعى الآن بالعلم سيتلاشى؛ لن تكون هناك حاجة للبحث عن اللغز للتوصل إلى الحقيقة لأنها ستكون كلها حقيقية ودائمة، مكشوفة لعين الروح، شفّافة كمياه شيلوه. أرجوكم تناولوا أطايب الطعام، واشربوا ما لذ وطاب لكم. إن المحرمات ليست من صنع الله، ولا القتل ولا الشهوة، ولا الغيرة والحسد. ورغم أننا نجتمع هنا كرجال، فإننا نتصل جميعا بوساطة الروح الإلهية. وعندما نفترق سنعود إلى عالم الفوضى، إلى مملكة الفضاء التي لا يستنزف فيها أي قدر من النشاط. نحن لا ننتمي إلى هذا العالم، بل حتى الآن لا ننتمي إلى العالم الذي سيأتي، إلا في الفكر والروح. مكاننا هو على عتبة الخلود؛ ووظيفتنا هي وظيفة المحركات الأساسية. ومن دواعي سرورنا أن نُصلب باسم الحرية. سنروي قبورنا بدمائنا. لا توجد مهمة لا يمكننا أن ننهض بها. إننا الثوريون الحقيقيون لأننا لا نُعمّد بدم الآخرين، بل نُعمد بدمائنا المراقة بسخاء. لن نخلق أية مواثيق جديدة، ولن نفرض أية قوانين جديدة، ولن نؤسّس أي حكومة جديدة. بل سنسمح للموتى أن يدفنوا الموتى. الأحياء والأموات سيفترقون عما قريب. الحياة الأبديّة تندفع إلى الخلف لملء كأس الحزن الفارغة. سينهض الإنسان من سرير جهله ومعاناته وأغنية تتردد على شفتيه. سيقف بكلّ ألق الطيبة. وسيختفي القتل بكل أشكاله إلى الأبد. في الوقت الحاضر...».

في اللحظة التي وصلت فيها هذه العبارة الغامضة إلى شفتي، توقفت الموسيقى الداخلية، التوافق. وعدت إلى الإيقاع المضاعف ثانية، أدرك ما أقوم به، أحلّل أفكاري، دوافعي، وأفعالي. كان بإمكاني أن أسمع دوستويفسكي يتكلّم، لكني لم أعد هناك معه، ولم أعد أسمع سوى صوت الجرس، المعاني الإضافية. والأهم من ذلك كان بوسعي أن أسكته حينما أرغب. ولم أعد أجري في ذلك الزمن الخالد الموازي لزماننا. فقد غدا العالم الآن حقاً فارغاً، تافهاً، مكتئباً. تفشت الفوضى والوحشيّة معاً. أصبحت أشعر الآن بالتناقض والسخف مثل هاتين الأختين الضائعتين اللتين يحتمل أنهما تذرعان شوارع حي الفيليج تتأبطان الدمى.

حين هبط الليل، بدأت أشق طريقي عائداً إلى البيت، رحت أسير الهوينا وتتملكني وحدة قاهرة. ولم استغرب أبداً أن أرى، لدى عودتي إلى الغرفة، رسالة هاتفية من مونا تقول فيها إن صديقتها «العزيزة» مريضة وإنها ستمكث معها هذه الليلة. وفي الغد ستكون هناك قصة أخرى، وأخرى في اليوم الذي يليه.

كلّ شيء يحدث لأناستازيا في وقت واحد. فذات يوم طُلب إليها أن تغادر لأنها تتحدث بصوت عالٍ جداً في نومها؛ وفي يوم آخر، وفي غرفة أخرى، زارها شبح فاضطرت إلى الهرب في الليل. وفي مناسبة أخرى حاول سكير أن يغتصبها. أو أن شرطياً بملابس مدنية استنطقها بقسوة وعنْتٍ في الساعة الثالثة صباحاً. ولا بد أنها تعتبر نفسها امرأة مميّزة. وبدأت تنام أثناء النهار، وتجوب الشوارع أثناء الليل؛ كانت تمضي ساعات طويلة في الكافتيريا التي لا تغلق أبوابها أبداً، تدوّن قصائدها على المنضدة المكسوة بالرخام، سندويشة في يدها وصحن من الطعام الذي لم يمسه أحد إلى جانبها. وتجدها يوماً سلافية، تتحدث بلهجة سلافية أصيلة: وفي يوم آخر صبية ـ تلك الفتاة القادمة من قمم جبال مونتانا المكسوة بالثلج، الحورية التي تمتطي حصاناً، حتى في حديقة

سنترال بارك. ويصبح كلامها مفككاً وغير مترابط أكثر فأكثر، وهي تعرف ذلك، كما تقول دائماً، لكن باللغة الروسية، «لا شيء يهم»، وكانت أحياناً ترفض أن تستعمل المرحاض ـ وتصرّ على القيام بوظائفها الصغيرة في النونية، التي تنسى بالطبع أن تفرغها. أما بالنسبة لصورة مونا التي بدأت ترسمها، فقد أصبحت تبدو الآن عملاً تافهاً، (مونا نفسها هي التي اعترفت بذلك)، وكادت مونا تفقد السيطرة على نفسها. إن صديقتها تتدهور أمام عينيها. لكن ذلك سينقضي. ستعود الأمور إلى سابق عهدها، شريطة أن تقف إلى جانبها بإخلاص، أن ترعاها، أن تسكّن روحها المعذّبة، أن تمسح لها مؤخرتها، إذا دعت الحاجة إلى ذلك. لكن يجب أن لا تجعلها تشعر بأنها مهملة ومنبوذة. وتسأل ماذا يضير إن مكثت ثلاث أو أربع ليالي في الأسبوع مع صديقتها؟ أليست أناستازيا هي الكلّ بالكلّ؟

«ألا تثق بي يا فال؟».

أومأت موافقاً بصمت. (إنه ليس سؤالاً «مسكونياً»).

وعندما تغيرت النبرة، علمت من شفتيها أن أناستازيا لم تكن هي من أمضت الليلة معها، بل أمها ـ فالأمهات يمرضن أيضاً ـ عرفت ما سيعرفه أيّ أبله منذ زمن طويل، أي شيء متعفّن في الدنمارك.

ما الضرر، أسأل نفسي، في أن تتحدث إلى أمها على الهاتف؟ لا يوجد أي ضرر. إنّ الحقيقة توضح الأمور دائماً.

لذلك رفعت السماعة وتحدثت مقلّد ملك الخشب، واعترتني الدهشة في أن أمها هي التي كانت تتكلم معي على الطرف الآخر، واستفسرت منها بصوت هادئ إن كانت مونا عندها، فإن كانت عندها، فهل بوسعي أن أتحدث إليها.

«إنها ليست هناك. بالتأكيد لا».

«هل رأيتها مؤخراً؟» (ما زال الرجل المحترم غير واضح في استفساره عن السيدة).

لم تسمع منها شيئاً منذ شهور. تبدو المرأة المسكينة كئيبة. وتنسى نفسها وتسألني، أنا الغريب عنها تماماً، إن كان من المحتمل أن تكون ابنتها قد ماتت.

تناشدني أن أخبرها إن كنت أعرف بالمصادفة عن مكان ابنتها.

«لكن لماذا لا تكتبين إلى زوجها؟».

«زوجها؟».

أعقب ذلك فترة صمت طويلة لم يسجل فيها شيء سوى دندنة المحيط المجاور العميقة. ثم بصوت ضعيف يخلو من أي نبرة، وكأنها تخاطب فضاءً خالياً من التعبير، قالت: «إذاً هي متزوجة حقاً؟».

«نعم بالتأكيد إنها متزوجة. فأنا أعرف زوجها جيداً...».

«المعذرة»، يأتي صوتها بعيداً، يليه صوت نقرة إغلاق سماعة الهاتف.

تركت عدة ليالي تمر قبل أن أطرح الموضوع على المتهمة. انتظرت حتى نأوي إلى الفراش. كان الضوء مُناراً. ثم حاولت تنشيط ذاكرتها بلطف.

«ماذا في الأمر؟ ماذا تريد أن تعرف؟».

«تحدثت إلى أمك البارحة».

لم تحر جواباً.

«نعم، ودار بيننا حديث طويل».

لم تُجِر« جواباً أيضاً.

«المثير في الأمر قولها بأنها لم ترك منذ مدة طويلة. ربما كانت تظن أنك ميتة».

تساءلت إلى أي مدى يمكنها أن تصمد؟ وفيما كنت على وشك أن أفتح فمي، هبّت وأخذت وضعية الجلوس. ثم ندت عنها واحدة من نوبات الضحك التي لا تتمالك نفسها من كبحها، تلك الضحكة التي تجعلني أرتجف من الداخل. وبين التشنجات قالت: «أمي! ها ها! تحدثت إلى أمي! ها ها ها! لا يمكن التعبير عن ذلك بكلمات، هي هي هي! فال، إنك شخص مسكين، إن أمي ميتة. ليس لديّ أم. ها ها ها».

«هدئي من روعك!» قلت متوسلاً.

لكنها لم تتمكن من كبت ضحكتها. فما سمعته الآن كان أكثر الأشياء التي تدعو إلى الضحك، ومن أكثر الأشياء جنوناً التي سمعتها في حياتها.

«اسمعي، ألم تخبريني أنك مكثت معها تلك الليلة، وأنها كانت مريضة جداً؟ هل كانت أمك أم لم تكن؟».

دوّي من الضحك.

«ربما كانت زوجة أبيك إذن؟».

«تعني عمّتي».

«عمتك، إذاً كانت تلك هي أمك».

مزيد من الضحك.

«لا يمكن أن تكون عمتي لأنها تعرف أني متزوجة بك. ربما كانت جارة لها. أو ربما كانت أختي. فهي تتكلم بهذه الطريقة».

«لكن لماذا يُردن خداعي؟».

«لأنك غريب. لو كنت قد قلت لها أنك زوجي، بدلاً من أن تقلّد شخصاً آخر، ربما أخبرتك الحقيقة».

«لم يبد لي أن عمتك ـ أو أختك، كما تقولين ـ كانتا تتصنعان ذلك. كان صوتهما حقيقياً وغير زائف».

«أنت لا تعرفهما».

«اللعنة، إذاً لعل الوقت قد حان لأتعرّف إليهما».

بغتة ارتسمت على وجهها قسمات الجدية. أصبحت في غاية الجدّية.

«نعم»، تابعت، «خطر ببالي أن أذهب إلى هناك ذات مساء وأقدّم لهما نفسي».

غضبت الآن. «إذا فعلت شيئاً كهذا يا فال، فلن أكلمك ثانية. سأهرب، هذا ما سأفعله».

«أتعنين أنك لا تريدينني أن ألتقي بأهلك أبداً؟».

«تماماً. أبداً!».

«لكن هذا سلوك أطفال وشيء غير معقول. حتى لو أخبرتني بضعة أكاذيب عن عائلتك...».

«لم أعترف أبداً بأيّ شيء من هذا النوع»، قاطعتني.

«هيا، هيا، لا تتحدثي هكذا. إنك تعرفين تماماً السبب الذي يجعلك لا تريدينني أن ألتقي بهم».

سادت فترة طويلة من الصمت، ثم قلت: «أو لعلك تخافين أن أجد أمك الحقيقية...».

أصبحت الآن أشدّ غضباً من أي وقت مضى، لكن كلمة «أم» جعلتها تضحك ثانية.

«لن تصدقني، أليس كذلك؟ حسناً، ذات يوم سآخذك إلى هناك بنفسي. أعدك بذلك».

«هذا لا ينفع. فأنا أعرفك جيداً. تكونين قد رتبت كل شيء. لا ياسيدتي، إذا كنا سنذهب فسأذهب وحدي».

«فال، أحذرك... إذا تجاسرت وفعلت ذلك...».

«لن أخبرك إذا فعلت ذلك»، قاطعتها.

«هذا أسوأ»، أجابت. «لا يمكنك أن تفعل ذلك دون أن أعرف آجلا أم عاجلاً».

أخذت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، تنفث بعصبية سيجارتها المدلاة من بين شفتيها. لقد استشاطت غضباً، كما بدا لي.

«انظري»، قلت أخيراً، «لننس الموضوع...».

«فال، عدني بأنك لن تفعل ذلك. عدني».

لزمت الصمت بضع لحظات.

جثت على ركبتيها إلى جانبي، ونظرت إلي بتوسل.

«حسناً»، قلت بشيء من التردد.

«عدني».

بالطبع لم تكن لديّ أدنى نية في أن أفي بوعدي. بل كنت أكثر تصميماً من أي وقت مضى على كشف حقيقة هذا اللغز. لكن لا توجد عجلة في الأمر، وشعرت أنه عندما تحين اللحظة المناسبة، سأجد نفسي وجهاً لوجه أمام أمها ـ ويجب أن تكون أمها الحقيقية.

17

أخيراً، تتملكني رغبة شديدة في أن أذكر مرة أخرى أسماء الذين أُدين لهم عملياً بكلّ شيء: غوته ونيتشه. فقد منحني غوته الأسلوب والمنهج، ومنحني نيتشه المحاكمة العقلية. لكن غوته، وبدون علم منه، كان يتبع ليبنتز في نمط تفكيره بالكامل. ولذلك، وهذا ما تبين لي أخيراً (ولدهشتي) أن بوسعي، ورغم تعاسة هذه السنوات، أن أطلق عليها بفخر اسم «الفلسفة الألمانية». (بلانكينبيرغ م. هارز، كانون الأول 1922).

أتذكر هذه السطور الواردة في مقدمة كتاب «تدهور الغرب» منذ سنوات طويلة، الذي بدأت بقراءته عندما أخذت أمضي الليل وحيداً. فبعد أن أتناول طعام العشاء في كلّ مساء، وبعد أن أعود إلى الغرفة، وبعد أن أعدّ نفسي وأدفئها، كنت أستعد لالتهام هذا المجلّد الهائل الذي يستعرض مصير البشرية. وكنت أعلم تماماً أن دراسة هذا العمل العظيم أمر بالغ الأهمية في حياتي. إذ لم يكن بالنسبة لي فلسفة للتاريخ أو خلقاً «مورفولوجياً»، بل كان قصيدة شاملة. بتمهّل، وبتركيز شديد، كنت أتذوق كلّ لقمة وأنا أمضغها، أغوص في الأعماق أكثر وأكثر. أتمعن فيه. وكنت غالباً ما أكسر هذا الحصار بأن أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. وكنت أجد نفسي في بعض الأحيان أجلس على السرير، أحدّق في الحائط. أحدّق عبر الحائط: أنظر بعمق في الماضي الحيّ والسحيق. وكنت بين الحين

والآخر أصادف جملة أو عبارة يكون لها وقع شديد عليّ بحيث تنتشلني بقوة من العشّ الذي كنت فيه. فأندفع مباشرة نحو الشارع، حيث أتيه مثل مشّاء أثناء النوم. وكنت أحياناً أجد نفسي في مطعم جو في بورو هول، أطلب وجبة طعام فاخرة؛ ومع كلّ لقمة أمضغها كان يبدو لي أني أزدرد عصراً هائلاً آخر من الماضي. وبدون وعي مني، كنت أذكي النار لأعدّ نفسي لجولة جديدة من الصراع مع الذين يلتهمون كلّ شيء. ولأنيّ كنت أحد أبناء حيّ بروكلن، فكان ذلك يبدو أمراً غير معقول. كيف يمكن لمجرد صبي من بروكلن أن يهضم كلّ هذا؟ أين جواز سفره إلى عوالم العلوم والفلسفة والتاريخ وغيرها البعيدة؟ فكلّ ما تعلمه صبي بروكلن هذا، كان قد اكتسبه بطريق النَّضح. أنا ذلك الفتى الذي كان يكره الدراسة. أنا ذلك الفتى الفاتن الذي ما فتئ يرفض كلّ مدارس الفكر. ومثل فلينة أُلقيت في بحر هائج، كنت أسير وراء وحش المورفولوجيا هذا. ما يحيّرني هو أني كنت أستطيع أن أتبعه من بعيد. هل أنا تابع أم أن ثمة دوّامة قد ابتلعتني؟ ما الشيء الذي مكّنني من أن أقرأ باستيعاب وفهم ومتعة؟ من أين جاء التدريب والانضباط والفطنة التي يتطلبها هذا الوحش؟ لقد كان فكره موسيقى لأذني؛ فقد أصبحت أدرك كلّ الأنغام المخفية. ورغم أني قرأته باللغة الإنكليزية، فكأنني كنت أقرأه باللغة الأصلية التي كتبها فيها. فقد كانت وسيلته اللغة الألمانية، التي ظننت أني نسيتها. لكن تبين لي أني لم أنس شيئاً، حتى المناهج التي كنت قد أزمعت على اتباعها في السابق، لكني لم أنسها أبداً.

من نيتشه، تلك القدرة العقلية الهائلة في البحث! هذه العبارة الصغيرة تجعلني أرقص...

لا شيء يلهم المرء الذي يحاول أن يكتب، كما هو الحال عندما يقع على مفكّر، مفكّر هو أيضاً شاعر، مفكّر يبحث عن الروح التي تنفخ الحياة في الأشياء. أرى نفسي ثانية مجرد شاب، أطلب من أمين المكتبة، أو القس أحياناً، أن يعيرني بعض الأعمال الفكرية

«العميقة». أرى النظرة المندهشة على وجوههم عندما أذكر عناوين هذه الكتب الهائلة. ثم السؤال الحتمي ـ «لكن لماذا تريد هذه الكتب؟» وكان ردي دائماً: «ولماذا لا أريد هذه الكتب؟»، فلأني كنت فتى صغيراً، ولأني لم أقرأ ما يكفي لفهم هذه الأعمال، لم يكن يعني لي شيئاً. فمن حقي أن أقرأ ما أريد عندما أريد. ألم أولد في أمريكا مواطناً حراً؟ وماذا يهمّ العمر؟ إلا أني كنت أعترف فيما بعد في سريرتي أني لم أفهم عم تتحدث هذه الأعمال «العميقة». أو بالأحرى، فهمت أني لا أريد «الدمامل» التي ترافق المعارف التي تنضح منها. كم كنت أرغب في أن أفهم الألغاز! كنت أريد كلّ شيء فيه روح ومعنى. لكني كنت أريد أيضاً أن يجاري أسلوب المؤلف اللغز الذي كان ينيره. كم كتاباً يمتاز بهذه الخاصية؟

مع مونا استنبطت نوعاً آخر من اللغة. فبمجرد الاستماع إلى مناجاة، كانت تلتقط النهايات المتألّقة، بالنسبة لها فإن كلّ المصطلحات «الرائعة» ـ التعاريف والمعاني ـ هي مجرد «فضلات صرفية» إذا جاز التعبير. إذ كانت تقرأ غالباً صفحة أو صفحتين وهي جالسة على المقعد، تكفي لأن تجعلها تقول مجموعة من العبارات والإشارات الغريبة. باختصار، لقد تعلمت كيف تردّ الكرة إليّ، وهو شيء كان لطيفاً ومشجعاً (بالنسبة لي). وجلّ ما كنت أطلبه من مستمعي، عندما يبلغ به التأثر مبلغه، شكلاً من أشكال الفهم. ومكنتني الممارسة الطويلة من أن أوعز إلى مستمعي بالأساسيات، أن أعطيه ما يكفيه من مواقف يسمح لي أن أغسله كالنافورة. لذلك كنت أوعز له أو أعلمه؟ وأربكه. وعندما أحس أنه بدأ يشعر أنه أصبح يقف على أرض صلبة، كنت أكنس الأرض من تحته (ألم يسعى معلم زن لأن يحرم تلميذه من أي موطئ قدم كان لديه، ليزوّده بموطئ قدم ليس في الواقع بموطئ قدم؟).

وبالطبع كان هذا شيئاً يثير الحنق مع مونا. إلا أنه كانت تتاح لي فرصة لذيذة بأن أوفّق بين كلامي المتناقض؛ كان هذا يعني

الإسهاب، التّفصيل، التكرار، التكثيف. وفي هذا الأمر توصلت إلى بعض النتائج الرائعة، ليس عن رأي شبينجلر فقط، بل كذلك عن الفكر بصفة عامة، عن عملية التفكير نفسها. ويبدو لي أن الصينيين فقط، هم الذين فهموا وقدّروا «لعبة التفكير». وبقدر ما كنت متحمساً لشبينجلر، لم تكن تبدو لي أبداً حقيقة كلامه بأهمية تلاعبه الرائع بفكره... واليوم أفكّر أنه للأسف، وكستار لهذا العمل الخارق، لم يصدر شيء عن حياة المؤلّف. إذ إن دليلاً من هذا النوع يعد أمراً هاماً لفهم شخصية وطبيعة هذا المفكر العملاق. فعندما يفكّر المرء في المغزى الذي تنطوي عليه عبارة شبينجلر - «الإنسان بوصفه بدويّ مثقف» - يبدأ المرء يدرك أنه، في متابعة مهمّته السامية، أصبح قريباً من كونه موسى المعاصر. كمّ هي مخيفة هذه الصحراء التي يُجْبَر فيها «بدويُنا المثقف» على الإقامة! لا أرض ميعاد على مرمى البصر. لا شيء في الأفق سوى رموز فارغة.

إن الهوّة بين الإنسان البدائي الذي شارك باطنيّاً، والإنسان المعاصر غير القادر على التواصل إلا بوساطة الفكر العقيم، لا يمكن رأبها إلا بوساطة إنسان من نمط جديد، إنسان يتمتع بوعي كوني.

الحكيم، النبي، صاحب الرؤيا، جميعهم تكلّموا بتعابير تنذر بالشؤم. فمنذ العصور الأولى كانت القلة القليلة تحاول الظهور. ولا ريب أن البعض قد حقق نجاحاً - وسيبقون إلى الأبد خارج الشرك.

فما تزال مورفولوجيا التاريخ حتى الآن، رغم أنه قد يبدو صحيحاً ومثيراً وملهماً علماً من علوم الأموات. فلم يكن شبينجلر معني بما وراء التاريخ. أنا. الآخرون. حتى لو كانت النيرفانا مجرد كلمة، فهي كلمة حبلى، تنطوي على وعود. فربما يتم كشف ذلك «السرّ» الذي يكمن في قلب العالم. حتى منذ زمن بعيد كان يقال عنه أنه سرّ «مفتوح».

إذا كان الحلّ في الحياة هو أن يعيشها المرء، إذن دعونا نعيش، لنعش بمزيد من السعة والبحبوحة! إن أساطين الحياة

لايوجدون في الكتب. هم ليسوا شخصيات تاريخية. إنهم يقبعون في الخلود، ولا يكفون عن التضرع لأن نلحق بهم، في الخلود.

فيما أكتب هذه السطور، تقبع صورة ممزقة من كتاب عند مرفقي، صورة حكيم صيني مجهول، مايزال يعيش اليوم. إمّا أن المصور لم يعرف من هو، أو أنه تعمّد ألّا يكشف عن اسمه. ولا نعرف عنه سوى أنه من بكين: هذه هي كلّ المعلومات التي بحوزتنا. ألتفت لأنظر إليه، كان كما لو أنه هنا في غرفتي. إنه حيّ ـ حتى وهو في الصورة ـ أكثر من أي شخص أعرفه. ليس مجرد «شخص روحي» ـ بل هو الروح كلها. بل يمكنني أن أقول إنه الروح ذاتها. كلّ ذلك مركّز في قسمات وجهه. فنظرته نظرة سعيدة ومضيئة تماماً. إنها تقول بدون مواربة وبصراحة تامة: «إن الحياة نعمة!».

من السموّ الذي يبدو عليه ـ هادئ، خفيف كطير، حكيم ـ هل تظن أن تشكيل التاريخ يعني شيئاً بالنسبة له؟ لا مجال هنا لاستبدال منظور الضفدع بمنظور الطير. فأمامنا هنا منظور إله. إنه «هناك» ويتعذر تغيير موقعه. وبدلاً من المنظور فلديه الشفقة. إنه لا يعظ الحكمة؟ بل يسلّط الضوء عليها.

هل تظن أنه فريد من نوعه؟ أنا لا أظن ذلك ـ أعتقد أنه يوجد في جميع أنحاء العالم، وفي الأماكن غير المعروفة كثيراً، رجال ـ أو آلهة ـ مثل هذا الكائن المتألق. إنهم ليسوا غامضين، بل يتمتعون بالشفافية. ولا يوجد ثمة لغز يكتنفهم: بل هم في العراء، «مكشوفون» دائماً. وإذا كنا قد ابتعدنا عنهم، فهذا لمجرد أننا لانستطيع أن نتقبل بساطتهم القدسية. نقول «كائن مشعّ ومتألق»، ومع ذلك لا نسأل أبداً بماذا يشعوّن ـ أن تكون روحك متقدة (التي هي الحياة)، أن تشع بفرح لا نهائيّ، أن تكون حليماً وتسمو على فوضى العالم ومع ذلك تبقى جزءاً من العالم؛ أن تبقى إنساناً، بشراً من السماء، أقرب من أيّ أخ ـ فكيف لا نتوق لأن نكون هكذا؟ هل هناك دور أفضل، وأعمق، وأغنى، وأكثر تشويقاً؟ ثم اصرخوا من أعالي الأسطح! نريد أن نعرف. نريد أن نعرف في الحال.

لست بحاجة لانتظار ردّك، فأنا أرى الجواب من حولي. ليس رداً في حقيقة الأمر ـ إنه مراوغة. الشخص ذائع الصيت عند مرفقي يتطلع إليّ مباشرة: إنه لا يخاف أن يحدّق في وجه العالم. إنه لم ينبذ العالم ولم يتنازل عنه: إنه جزء منه، تماماً كما أن الحجرة، والشجرة، والحيوان، والزهرة والنجمة جزء منه. في كينونته هو العالم، كل ما يمكن أن يكون جزءاً منه... عندما أنظر إلى من يحيطون بي لا أرى سوى وجوه أشخاص تشيح بنظرها. يحاولون ألا ينظروا إلى الحياة ـ هذا أمر فظيع للغاية أو بشع للغاية. إنهم لا يرون سوى تنين الحياة المرعب، ويقفون عاجزين أمام الوحش. لو كانت لديهم الشجاعة الكافية لينظروا مباشرة إلى فكيّ التنين!

بأساليب شتى فإن ما يُسَمَّى بالتّاريخ لا يبدو لي سوى مظهر من مظاهر هذا الموقف المخيف للنّفس تجاه الحياة. فمن الممكن أن يتوقف ما نسمّيه «التاريخي» عن الوجود. يُمْحى من الوعي بمجرّد أنّ نقدم على تلك الحركة الباسلة البسيطة «لواجهة العيون»! والأسوأ من إلقاء نظرة إلى الوراء إلى العالم، النظرة غير المباشرة.

عندما نتحدث عن الرجال الذين يصنعون التاريخ فإننا نعني أولئك الذين غيّروا مسار الحياة بطريقة ما. أما ذلك الرجل القابع عند مرفقي، فهو يتجاوز هذه الأحلام السخيفة. يعرف أن الإنسان لا يمكنه أن يغيّر شيئاً ـ حتى نفسه. ويعرف أنه لا يمكن للإنسان أن يفعل سوى شيء واحد فقط، وأنّ ذلك هو هدفه الوحيد في الحياة ـ وهو أن يفتح عيون الروح! نعم، على الإنسان أن يختار ـ إما أن يدع النور يدخل أو أن يبقي خصاص النوافذ موصدة. وعندما يختار، يعمل الإنسان. هذا هو دوره إزاء الخلق.

أفتح عيني وسعهما ويفتر نشاطي. وعندما يفتر النشاط تبدأ الموسيقى الحقيقية.

إن التنين الذي ينفث النار والدخان من فتحتي أنفه لا ينفث سوى مخاوفه. التنين لا يقف حارساً عند قلب العالم ـ بل يقف عند

مدخل كهف الحكمة. لا توجد حقيقة للتنين إلا في عالم الخرافة الخيالي.

المشردون، الذين يحنون إلى المدن الكبيرة. ما هذه الصفحات التي تمزق نياط القلب التي يكرّسها شبينجلر لمحنة «البدويّ المثقف»! عديم الجذور، عقيم، مرتاب، مملّ ـ ومشرّد ومشتاق إلى الوطن حتى النخاع. يمكن للناس البدائيين أن ينفصلوا عن أرضهم وأن يجوبوا الآفاق، إلا البدويّ المثقف، فهو لا يستطيع ذلك أبداً. إن الحنين إلى المدينة الكبيرة أفضل من أيّ حنين آخر. فوطنه أيّ مدينة من هذه المدن العملاقة، لكن أقرب قرية له يعتبرها أرضاً أجنبيّة. يفضل أن يموت على قارعة الطريق على أن يعود إلى الأرض.

دعوني أقُلْ بوضوح وبدون مواربة ـ بعد «القراءة» لا يكون لأي شيء في عالم الحقائق معنى أو أهمّية بالنسبة لي. فقد كادت الأخبار اليومية تكون بعيدة بُعد نجم الكلب. كنت في غمرة مرحلة التحوّل. كان كلّ شيء مجرد «موت وتغيير».

ثمة عنوان رئيسي واحد ما تزال له القوة على إثارتي وهو ـ «نهاية العالم أضحت وشيكة»، ففي هذه العبارة الخيالية، لا أشعر بتهديد لعالمي أبداً، بل بتهديد «للعالم» فقط. كنت أقرب إلى أوغسطين مني إلى جيروم. لكنيّ لم أعثر بعد على أفريقيا خاصتي. وكانت محطة الترميم عندي حجرة مؤثّثة صغيرة خانقة. وحيداً فيها جرّبت نوعاً غريباً من السلام والسكينة. لم يكن «السلام الذي يتجاوز الفهم». آه لا! كان نوعاً متقطّعاً، فألاً يبشّر بشيء أعظم، سلاماً أكثر ديمومة. إنه سلام رجل قادر على التوفيق من الناحية الفكرية بين نفسه وبين حالة العالم.

ما زالت هناك خطوة. فنادراً ما يتجاوز الفرد المثقّف هذه المرحلة.

قال أحد الفلاسفة: ليست «الحياة الأبدية» الحياة ما بعد القبر،

بل هي الحياة الروحية الحقة. كم استغرق هذا من وقتي لأدرك أهمية مثل هذا الكلام!... قرن كامل من الفكر الروسي (القرن التاسع عشر) شُغِلَ بمسألة «النهاية»، بإقامة مملكة الله على الأرض. أما في أمريكا الشمالية، فلم يكن للمفكرين والباحثين عن الواقع الحقيقيّ للحياة في هذا القرن أي وجود. صحيح، أنه بين الحين والآخر يتفجر صاروخ بيننا. بين الآن والآخر نتلقى رسالة من أحد الشواطئ البعيدة، لكنها تكون غامضة. وهذا يعني أنهم لم يكونوا نافعين في الحياة اليومية.

لم تكن قراءة شبينجلر بالتحديد مسكّناً. بل كانت مزيداً من الرياضة الروحية. إذ إن لنقده للفكر الغربي الذي ينطوي على نمطه الدّوريّ الأثر نفسه عليّ، كما لتأثير «الكو» على تلاميذ «زن». مراراً وتكراراً وصلت إلى حالتي الغربيّة الغريبة الخاصّة: ساتوري. مرات ومرات أحسست بتلك الومضات الخاطفة من التنوير التي تبشّر بإحراز تقدم. جاءتني لحظات مبرّحة عندما، كما لو كان الكون أكورديون، كنت أراه كذرّة متناهية في الدقة، إلى حد أنه لا يمكن لأحد أن يراها إلا عين اللّه. أحدّق بنجمة من نافذتي، يمكنني أن أكبّرها عشرة آلاف مرّة، يمكنني أن أطوف من نجمة إلى نجمة، مثل ملاك، محاولاً طوال الوقت أن أفهم الكون في نسب تليسكوبية فائقة. ثم أعود إلى كرسيّي، أنظر إلى ظفري، أو بالأحرى أنظر إلى بقعة لا تكاد تكون مرئيّة على الظفر، بل أرى فيها الكون الذي يحاول الفيزيائيّ أن يخلقه من الشبكة الذرية للفراغ. ما كان يدهشني دائماً هو أن ذلك الرجل كان بإمكانه أن يتصوّر العدم في أيّ وقت.

حتى الآن يعتبر العالم التصوري عالم الإنسان بالكامل. للتسمية، للتعريف، للشرح... النتيجة: عذاب متواصل. وسّع أو قلّص الكون إلى ما لا نهاية ـ لعبة منزلية. اللعب بالإله بدلاً من محاولة أن يكون كاللّه. التأله، التأله، وفي الوقت ذاته لا يؤمن بشيء. يتفاخر بمعجزات العلم، ورغم ذلك ينظر إلى العالم حوله باحتقار شديد.

الازدواجية المخيفة! الانتخاب من أجل الأنظمة، لا للإنسان. ينكرون الرجال المعجزة من خلال الأنظمة التي أقيمت بأسمائهم.

في الليالي التي أكون فيها وحدي، أقلّب المشكلة على وجوهها ـ واحدة فقط! ـ يمكنني أن أرى بوضوح شديد العالم كما هو، أرى ما هو، ولماذا هو هكذا. يمكنني أن أوفق بين الخير والشر، الترتيب الإلهي بالقبح الشرّير السائد، خلقٌ خالد بعقم مطلق. يمكنني أن أناغم نفسي إلى حد أن الزفير وحده قد يجعلني هباء منثوراً. الإبادة الفورية أو الحياة الدائمة ـ كان الشيء ذاته بالنسبة لي. كنت في الميزان، كلا الجانبين متعادل تماماً بحيث أن جزيئة هواء قد ترجّح كفّة الميزان.

وعلى حين غرة، فكرة جذلة تقوض كلّ شيء. فكرة كهذه: «مهما غاص المرء في معرفته في الفلسفة الغامضة، فهي مثل شعرة تطير في الفضاء الفسيح» وهي من الفكر الياباني. ومعها جاءت عودة طبيعية أكثر من التوازن. عودة إلى جميع مواطئ القدم الهشة ـ الأرض الصلبة. تلك الأرض الصلبة هي التي نقبلها الآن على أنها فارغة كالفضاء.

«في أوروبا كنت أنا، وحدي أنا بحنيني إلى روسيا، التي كانت حرة»، قال دوستويفسكي في مكان ما. من أوروبا مثل إنجيل صحيح، نشر أنباء سارة. بعد مائة أو مائتي سنة من الآن قد يتحقق المغزى الكامل لهذا الكلام. ماذا يجب أن نفعل في هذه الأثناء؟ سؤال طرحته على نفسي مرات ومرات.

فترة غريبة ومثيرة في «أرض المعجزات المقدسة» بعد تسعة عشر قرناً من ولادة السيد المسيح وموته، السيد المسيح! يكتب أحدهم «اعتذار مجنون» ؛ وآخر يكتب «التعاليم الثورية» ؛ وآخر يكتب «ميتافيزيقيا الجنس». كلّ واحد منهم يشكل ثورة في حد ذاته. وبلغني أن أحد هؤلاء الأشخاص «كان محافظاً، صوفياً، فوضوياً، أرثوذوكسياً، باطنياً، وطنياً، شيوعياً ـ وأنهى حياته في روما

ككاثوليكي وفاشي». هل هذه فترة «من الزيف التاريخي». بالتأكيد إنها فترة كارثية.

إن سوء حظي، من الناحية الغيبية، هو أنني لم أولد لا في زمن السيد المسيح ولا في روسيا المقدّسة في القرن التاسع عشر. لقد ولدت في مدينة ضخمة في نهاية الاقتران الكوكبي العظيم. لكن حتى في ضاحية بروكلن، عندما بلغت سن الرشد، كان يمكن للمرء أن تحركه نتائج ذلك الاهتياج السلافي. لقد شنت حرب عالمية واحدة وتحقق النصر فيها. ويجري التحضير للحرب الثانية. في روسيا نفسها التي أتحدث عنها، كان لدى شبينجلر نذير قلما تجده يُذكر حتى اليوم. حتى نيتشه كان لديه نذير روسي.

ألم يكن شبينجلر هو القائل إن روسيا دوستويفسكي ستنتصر في النهاية؟ ألم يتوقع أنه سينشأ من هذه التربة الناضجة دين جديد؟ من يؤمن بهذا اليوم؟

وقد شنت الحرب العالمية الثانية أيضاً وتحقق فيها النصر (!!!) وما زال يوم الحساب يبدو بعيداً. السير الذاتية العظيمة، المتنكرة بشكل أو آخر، تكشف عن حياة عهد، عن شعب كامل، نعم، عن حضارة. إن شخصياتنا النبيلة البطلة تكاد تبدو وكأنها قد حفرت قبورها، وقدمت لها نعوتاً جميلة وودية، ثم دفنت نفسها في غرف موتهم التي أشادتها. لقد تلاشى المشهد الطبيعي. الهواء يعزى إلى طيور الدمار العملاقة. ستُحرث المياه قريباً بحيتان لوياثان التي تخشى النظر أكثر من أولئك الواردة أوصافهم في الكتاب المقدس. التوتّر يزداد، يزداد، يزداد. حتى في القرى، يصبح السكّان أكثر فأكثر، في المشاعر والروح، مثل القنابل التي يلتزمون بصناعتها.

لكن التاريخ لن ينتهي حتى عندما يحدث الانفجار الكبير. مايزال للحياة التاريخية للإنسان امتداد طويل. لا يحتاج عالم الماورائيات جهداً لكي يتوصل إلى هذه النتيجة. أجلس في تلك الفتحة الصغيرة في الحائط في بروكلن منذ خمس وعشرين سنة أو

ما يقاربها يمكنني أن أحسّ بنبض التاريخ يخفق في السلالة الثانية والثلاثين من إلهنا.

ورغم هذا، فأنا أشعر بالامتنان الشديد لأوزوالد شبينجلر لوصفه بمهارة ودقة عالية الجوّ السيء الذي يعيشه المصابون بتصلب الشرايين، وفي الوقت نفسه أحطّم عالم الفكر الصلب الكامل الذي يغلّفنا، وبدا يحرّرنا، من الناحية الفكرية على الأقل. ففي كلّ صفحة تقريباً، ثمة هجوم على العقائد والعهود والخرافات وأنماط التفكير التي ميّزت السنوات المائة القليلة الماضية من «الحداثة». فالنظريات والأنظمة تحطمت مثل لعبة القناني الخشبية. إن المشهد الطبيعي التصوري الكامل للإنسان المعاصر مشهد مدمّر. إن مايظهر ليس الخراب العلمي للماضي بل العوالم التي أعيد تشكيلها من جديد والتي قد «يشارك» فيها المرء مع أسلافه، يعيش ثانية الربيع، الخريف، الصيف، بل وحتى الشتاء من تاريخ الإنسان. وبدلاً من التعثّر بالرواسب الجليدية ينجرف المرء بسيل من السائل والدم. حتى السماء تتغير. هذا هو انتصار شبينجلر؟ أن يجعل الماضي والمستقبل يعيشان في الحاضر، فيعود الإنسان ثانية إلى مركز الكون، يستشعر دفء النيران الشمسية، لا أن يظل على الهامش يقاوم دواراً، يقاوم الخوف من الوقوع في هاوية شنيعة.

هل يهم كثيراً إن كنا إنسان النهاية لا البداية؟ كلا لا يهم، إذا كنا ندرك بأننا جزء من شيء في العملية الأبديّة، في الغليان الأبدي. فمما لا ريب فيه أن هناك شيئاً مريحاً أكثر لنا لكي نفهمه، إذا واصلنا البحث. لكن حتى هنا، ونحن نقف على العتبة، يكتسب المشهد الطبيعي المتحرّك مسحة جمالية أكبر. نلمح نمطاً لا قالباً. ونعرف مرة أخرى أن لعملية الموت علاقة بأناس هم على قيد الحياة، لا بالجثث في مراحلها المتفاوتة من التفسخ. فالموت «رمز مضاد» أما الحياة فهي كل شيء، حتى في الفترات النهائية. لا يوجد في أي مكان أثر لتوقّف الحياة.

نعم، إني رجل محظوظ لأني عثرت على أوزوالد شبينجلر في

تلك اللحظة المحددة من الزمن. في كلّ فترة حاسمة من حياتي يبدو أني قد عثرت على المؤلف الذي أحتاجه ليشد من أزري. نيتشه، ودوستويفسكي وإلي فور وشبينجلر: يالهم من رباعي! بالطبع كان هناك آخرون، ممن كانوا أيضاً هامين في لحظات معيّنة، لكنهم لم يمتلكوا الغزارة ذاتها، العظمة نفسها، هؤلاء الأربعة. الفرسان الأربعة لسفر الرؤيا الخاص بي! كلّ منهم يعبّر عن صفاته الفريدة: نيتشه، المعارض للمعتقدات المقدسة؛ دوستويفسكي، المحقّق الكبير؛ فور، الساحر؛ شبينجلر، صانع الأنماط. يالها من مؤسسة!

في الأيام القادمة، عندما يبدو أني سأُدفن، عندما تنذر السماء ذاتها بالانهيار على رأسي، سأضطر إلى ترك كلّ شيء سوى مازرعته فيّ تلك الأرواح. سأُسحق، سأُذل، سأُهان. سيصاب كلّ نسيج في جسدي بالإحباط. بل إني سأبدأ أعوي وأنبح ككلب. لكني لن أضيع! في النهاية سيأتي اليوم الذي أنظر فيه إلى حياتي وكأنها كانت قصة أو تاريخاً، يمكنني أن أكتشفها في شكل، في نمط، أو في معنى. وعندئذ تفقد كلمة الهزيمة أيّ معنى. ويصبح استبدالها من ضرب المستحيل.

لأنني سأصبح في ذلك اليوم وسأبقى واحداً من تلك المخلوقات.

وذات يوم، وفي أرض غريبة، سيبرز أمامي ذلك الشاب الذي سيلقّبني «بالصخرة السعيدة» بعد أن أدرك التغيير الذي طرأ عليّ. ذلك هو اللقب الذي سأطلقه على نفسي عندما يسألني خالق الكون العظيم ـ «من أنت؟».

نعم، لا يوجد أدنى شك بأن ردي سيكون: «الصخرة السعيدة!».

وإذا سئلت: «هل تمتعت بإقامتك على الأرض؟» سأجيب: «لقد عشت حياة طويلة من الصلب الوردي».

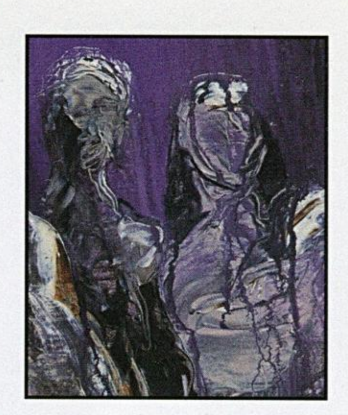
وسأوضح معنى هذا، إن لم يكن واضحاً. فإن فشلت فلأنني لست سوى كلب في المعلف.

ذات مرة ظننت أنني جُرحت كما لم يُجرح إنسان قط. ولأن هذا

الشعور انتابني، فقد نذرت نفسي لتأليف هذا الكتاب. لكن قبل أن أبدأ في تأليف الكتاب بفترة طويلة برأ الجرح. وبما أنني أقسمت على إنجاز مهمّتي لذا فقد نكأت الجرح المروّع.

دعوني أقُلْ هذا بعبارة أخرى... فلعلي عندما نكأت الجرح، جرحي، برأت جروح أخرى، جروح أناس آخرين. شيء يموت، وشيء يولد. فأن تتألم وأنت ترزح في غياهب الجهل لهو أمر مرَوّع. أما أن تتألم وأنت متعمد ذلك، لكي تفهم طبيعة المعاناة وإزالتها إلى الأبد، فهذه مسألة أخرى تماماً. وكما نعرف، فقد كانت لدى بوذا فكرة راسخة واحدة في ذهنه طوال حياته، تكمن في إزالة معاناة الإنسانية.

إن المعاناة غير ضرورية. لكن على المرء أن يعاني قبل أن يتمكن من إدراك أنها غير ضرورية. عند ذلك فقط تصبح الأهمية الحقيقية للمعاناة الإنسانية جلية. وفي اللحظة اليائسة الأخيرة، عندما تنقطع معاناة الإنسان، ثمة شيء يحدث ويكون في طبيعة المعجزة. فالجرح الغائر الذي كان ينزف دمّ الحياة يلتئم ويشفى، وتتفتح الأكمام عن كائن حي كما تتفتح وردة. وعندها يصبح المرء «حراً»، لا «بالحنين إلى روسيا»، بل بالشوق الدائم إلى الحرية، بالتوق دائماً لبلوغ منتهى السعادة. فشجرة الحياة لا تبقى حيّة بالدموع، بل بمعرفة أن الحرية حقيقية وأبدية.



الضفيرة

هنري فالنتاين ميلر (1891 ـ 1980)، روائي ورسام أمريكي، نشأ في نيويورك، وعاش شبابه في باريس، منها سنوات برفقة صديقته الروائية أنايس نينّ بشكل بوهيمي حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، حيث تُعتبر سنوات إقامته في باريس الأخصب بالنسبة لإبداعاته الأدبية. عاد بعدها إلى الولايات المتحدة، وعاش ما تبقى من حياته فيها.

عُرف عنه كسر القوالب الأدبية التقليدية، وطوّر نوعاً جديداً من الرواية دمج فيه السيرة الذاتية والنقد الاجتماعي، الذي تنعكس فيه الفلسفة والعلاقات السريالية الحرة مع الروحانيات التي تعبّر عن الحياة الحقيقية.

من أشهر أعماله: ثلاثية الصلب الوردي، مدار السرطان، مدار الجدي، ربيع أسود.

«إن الضفيرة (بلكسوس) هي الجزء الجوهري من ثلاثية الصلب الوردي: الجزء الذي يحتوي على الوصف الأكمل لقيم هنري ميلر الأساسية ومعتقداته وآراءه وأحكامه، في وقت كتابته لـ (الصلب الوردي) وفيما بعد حين أنهى الثلاثية. إن الضفيرة (بلكسوس)، هذا الجزء، يحتوي على العواطف والأفكار والرؤى والكوابيس عن الإنسان والمجتمع في القرن العشرين وعن دور الفن كصلة ربما، أو كملاذ للروح، وهو الكتاب الأكثر إدهاشاً الذي سبق أن قرأته في كثير من السنوات. ليس هناك موضوع في العالم لا يعرف عنه ميلر ولا يريد أن يتحدث عنه أو يُقيّمه بحكمته العميقة. إنه على الأرجح الأكثر ثقافة بين الكتّاب الأمريكيين كلهم والأكثر انفتاحاً على الأفكار والمشاعر، ونعم الأكثر تبجيلاً من مظاهر الحياة كلها وكذل الناطق الأدبي الأكثر نقداً لزمننا».

ماكسويل جيسمار